مجلة علمية دورية محكمة تصدرها

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

مجلة العلوم الاجتماعية سابقا

المجلد: 17 العدد 01 -2020

ISSN .1112-4776 EISSN:2588-1906 الإيداع القانوني:650-2004

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية جامعة سطيف2 المجلد: 17 العدد:01 2020

REVUE DES LETTRES ET DES SCIENCES SOCIALES Université Sétif 2 Vol: 17 N° 01 2020

Revue scientifique périodique indexée éditée par

L'Vniversité Mohamed Lamine Debaghine Sétif2

REVUE DES LETTRES ET DES SCIENCES SOCIALES

Anciennement Revue Des Sciences Sociales

Vol:17 N° 01 - 2020

Dépôt légal :650-2004 EISSN:2588-1906 ISSN .1112-4776

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

مجلة العلوم الاجتماعية سابقا

هوية المجلة وأهدافها

مجلة العلوم الاجتماعية

مجلة علمية دورية محكّمة ، ومنبر معرفي ومنهجي ، يُسهم في إثراء البحث العلمي والحوار المنهجي الموضوعي في حقول المعرفة الاجتماعية ؛ وتهدف إلى:

1- الارتقاء بالبحث العلمي إلى مستويات عالية من الجودة من خلال البناء المنهجي للفكر والممارسة البحثية.
2- تحقيق التكامل المعرفي بين حقول المعرفة الاجتماعية ومختلف المناهج البحثية.
3- وصل الحركة العلمية في العلوم الاجتماعية بالتنمية الاجتماعية وقضايا المجتمع الواقعية.
4- إثارة الجدل العلمي في القضايا المستحدثة في مجال العلوم الاجتماعية ، وتوجيهها نحو أفق العالمية.

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

- مجلة العلوم العلوم الاجتماعية سابقا -

مجلة علمية دورية محكمة تصدر عن جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

مدير المجلة

أ.د. الخير قشى مدير الجامعة

رئيس التحرير

أ.د. يوسف عيبش

نائب مدير الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمى

هيئة التحرير

أ.د. ميلود سفاري

أ.د. جازية لشهب صاش

أ.د صلاح الدين زرال

أ.د. محمد عزوي

أ.د. عبد الملك بومنجل

د. محمد بن أعراب

أ.د. أنور مقراني

د. عبد الحليم مهورباشة

د. لبنى أشهب

د. فريدة قماز

د. هشام شراد

أمانة المجلة

مبروك صبايحي

مفيدة شريفي

اللجنة العلمية

أ.د. السعيد كسكاس	جامعة سطيف2
د. نصرالدين غراف	جامعة سطيف2
د. التوفيق سامعي	جامعة سطيف2
د. فوزية رقاد	جامعة سطيف2
أ.د. محمد بوادي	جامعة سطيف2
د. رؤوف بوسعدية	جامعة سطيف2
أ.د. خير الدين دعيش	جامعة سطيف2
أ.د الطاهر سعود	جامعة سطيف2
أ.د. فضيل دليو	جامعة قسنطينة3
أ.د. محمود بوسنة	جامعة الجزائر2
أ.د. الطيب بودربالة	جامعة باتنة 1
أ.د. دحو فغرور	جامعة وهران
أ.د. حمزة محمد الشريف	جامعة الجزائر2
أ.د. عمار مانع	المركز الجامعي تبازة
أ.د. احمد صاري	الجامعة الإسلامية الأمير عبد القادر قسنطينة
أ.د. عزالدين بن زغيبة	مركز جمعة الماجد دبي
أ.د. عواد كاظم لفتة الغزي	جامعة ذي قار العراق
أ.د. محمد الحسن عبد الرحمن	جامعة بخت الرضا –السودان
أ.د. ساعد خميسي	جامعة قسنطينة 2
أ.د. حسين أمزيان	المدرسة العليا قسنطينة
أ.د. دانيال إستريا	CNRS فرنسا
أ.د. محمد سحنوني	CENIEH اسبانيا
أ.د. حمداوي إبراهيم	جامعة ابن طفيل القنيطرة المغرب
أ.د. آل ديكو بريما	جامعة باري 7 فرنسا

شروط النشر في المجلة

تنشر مجلة العلوم الاجتماعية ، الأبحاث والدراسات العلمية ، الفكرية والأدبية في تخصصات العلوم الإنسانية ، الاجتماعية ، الحقوق والعلوم السياسية مكتوبة باللغة العربية ، الانجليزية ، أو الفرنسية.

كما ترحب المجلة بالدراسات النقدية التي تتناول المنشورات الجديدة والتعريف بها في حدود 2000 كلمة.

- **يشترط في المقالات المقدمة للنشر ما يلي:**

1/أن يكون المقال أصيلا وجديدا ، لم يسبق نشره في نشريات أخرى مهما كانت ، ولم يسبق عرضه أو المشاركة به في ندوة أو ملتقى علمي. وألاّ يكون مستلا من رسالة أكاديمية (ماجستير أو دكتوراه).

2/الالتزام بآداب الحوار الهادف والنقد البناء بعيداً عن التجريح.

3/اعتماد منهجية موحدة في ترتيب عناصر البحث والالتزام باعتماد تقسيم من التقسيمات المعروفة (مبحث ، مطلب ، فرع ، أولا...)

4/ ألاّ يقل عدد صفحات المقال عن 12 صفحات ولا يزيد عن 25 صفحة ، بما فيها المصادر ، الهوامش ، الجداول والرسوم التوضيحية ، ويجب أن ترقم الصفحات ترقيماً متسلسلاً.

5/أن يكون المقال مطبوعا على الكومبيوتر وفق برنامج "Microsoft Word" ، ومسجلا في قرص صلب.

6/هوامش الصفحة تكون كما يلي: يمين 03 سم ، يسار 1.5 سم ، رأس الورقة 1.5 سم ، أسفل الورقة 1.5 سم ، حجم الصفحة 21cmX 29.7 cm.

7/تكتب المادّة العلمية العربية بخطّ من نوع Traditional Arabic مقاسة 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر ، العنوان الرئيسي **Gras** Traditional Arabic 14 ، العناوين الفرعية **Gras** Traditional Arabic 12 ، أمّا الفرنسية أو الإنجليزية فتقدّم بخطّ من نوع Times New Roman مقاسة 12.

8/ تتحفظ المجلة عن نشر مقالين متتاليين في العدد ذاته أو في عددين متتالين لمؤلف واحد

9/ يراعى عند كتابة المقال ما يلي:

- يجب أن يكون المقال خالياً من الأخطاء الإملائية والنحوية واللغوية والمطبعية قدر الإمكان.

- الالتزام بقواعد ضبط الكتابة من خلال:

- احترام مسافة بداية الفقرات ، وتجنب الفقرات والجمل الطويلة جدا.

- عدم ترك مسافة (فراغ) قبل علامات الضبط المنفردة كالنقطة (.) والفاصلة (،) والنقطة الفاصلة (؛) والنقطتين (:) وعلامة التعجب (!) وعلامة الاستفهام(؟) وترك مسافة بعدها إذا أُتبعت بكلمة أو نص ، وعدم ترك مسافة بعد الواو (و) التي تليها كلمة.

- يُتَجَنَّب الاختزال ما لم يُشَرْ إلى ذلك.

- يُذكر مرة واحدة في البحث المصطلح العلمي وأسماء الأعلام باللغة العربية وبجانبه المصطلح باللغة الإنجليزية أو الفرنسية عند وروده أول مرة ، ويُكتفى بعد ذلك بكتابته باللغة العربية.

- يجب أن يراعى في الأعمال المتضمنة لنصوص شعرية أو آيات قرآنية كريمة ، أو أسماء أعلام ضبطها بالشّكل وتخريج والأحاديث والأبيات الشعرية.

10/أن توضع الهوامش والإحالات والمراجع والمصادر في آخر المقال ، وبطريقة الإدراج الآلي مع اتبّاع ترقيم تسلسلي حسب ظهورها في النص ، (مراجع المقال هي فقط المراجع والمصادر المقتبس منها فعلا). ويراعى في طريقة التهميش المنهج التالي:

***الكتب**: إسم ولقب المؤلف ، **عنوان الكتاب** ، الجزء ، الترجمة (إن وجدت) ، الطبعة ، دار النشر (الناشر) ، مكان النشر ، وسنة النشر ، رقم الصفحة. (في حالة **التأكد** من عدم وجود البيانات الجوهرية الإجبارية **فقط** (دار النشر ، بلد النشر ، سنة النشر) على المؤلف الإشارة إلى ذلك باستعمال مختصرات د.د.ن /د.ب.ن /د.س.ن) حسب الحالة.

* **المقالات:** إسم ولقب المؤلف ، "عنوان المقال" ، **عنوان المجلة** ، (الجهة التي تصدر عنها) ، العدد ، الصفحة.

* **البحوث المدرجة ضمن كتاب:** إسم ولقب المؤلف ، "عنوان المقال" ، ضمن كتاب: (**العنوان**)، المنسق العام (اسم من أشرف على تجميع مادته العلمية) ، الجزء ، الطبعة ، دار النشر (الناشر) ، مكان النشر ، وسنة النشر ، رقم الصفحة.

* **الأطروحات والرسائل الجامعية:** اسم الطالب ، عنوان الأطروحة أو المذكرة (تحته خط) ، بيان نوعها (دكتوراه ، ماجستير) ، تحديد الكلية والجامعة التي نوقشت فيها هذه الرسالة ، تحديد السنة ، بيان حالة النشر (رسالة منشورة ، أو غير منشورة) ، الصفحة.

* **النصوص القانونية:** بيان نوع النص (دستور ، قانون عضوي ،....) ، رقمه (15/01) ، المؤرخ في (ذكر اليوم والشهر والسنة) ، موضوع النص (المتضمن كذا:...) ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية** ، العدد ، تاريخ نشرها.

* **الأحكام والقرارات القضائية:** لا بد من بيان الهيئة المصدرة (محكمة ، مجلس)، تحديد القسم أو الغرفة (رقمها ، تخصصها)، رقم الحكم أو القرار ، تاريخ صدوره (ذكر اليوم والشهر والسنة)، ذكر أطراف القضية أو الحرف الأول لألقابهم ثم الاسم ، (قضية بين..)، بيان حالة النشر (قرار أو حكم منشور أو غير منشور)، المصدر (مجلة ، نشرية ، صادرة عن)، العدد ، السنة ، الصفحة.

* **المنشورات الداخلية**: بيان الجهة المصدرة ، بيان رقم التعليمة أو المقرّر ، تحديد موضوعه.

* **التقارير:** الجهة المصدرة للتقرير ، موضوع التقرير ، مناسبة تقديمه ، التاريخ ، الصفحة.

***المراجع الالكترونية:** اسم المؤلف ، أو المنظمة "عنوان المقال" ، العنوان الإلكتروني كاملا ، (تاريخ التصفح: اليوم ، الشهر ، السنة).

* **المخطوطات:** اسم المؤلف كاملاً ، **عنوان المخطوط كاملاً** ، ويذكر اسم المكان المحفوظ فيه هذا الاقتباس ويشار إلى تاريخ النسخة ، وعدد أوراقها. ويذكر رقم الورقة مع بيان الوجه أو الظهر المأخوذ منه الاقتباس ، ويشار لوجه الورقة بالرمز (أ) كما يشار لظهرها بالرمز (ب).

* **الصحف:** إذا كان خبرا يكتب اسم الصحيفة ، والعدد ، والتاريخ ، ومكان الصدور. أما إذا كانت مقالة يكتب اسم الكاتب ، "وعنوان المقالة" **واسم الصحيفة** ، ثم تحديد نوعها (يومية ، أسبوعية ، شهرية)، (ومكان الصدور) والعدد ، والتاريخ ، والصفحة.

* عند تكرار ذكر نفس المرجع يكتب بعد رقم الإحالة عبارة: المرجع نفسه ، ثم الصفحة ، أما في حالة ما إذا كان التكرار غير مباشر (فصل تكرار المرجع بمرجع آخر أو عدة مراجع أو بصفحة جديدة) فينبغي بعد رقم الإحالة ذكر اسم ولقب الباحث ، كتابة عبارة: المرجع السابق ، ثم بيان رقم الصفحة.

* تكون الأشكال والخرائط والرسوم البيانية على درجة عالية من الجودة مع تجنب التظليل الثقيل ، وترقم الجداول والأشكال ترقيماً متسلسلاً مستقلاً ، مع إعطاء عنوان قصير لكل منها تتم كتابته (أعلى) الشكل ، ويكون المصدر أسفله. (على الباحث إرسال الخرائط والصور في ملفات مستقلة عن النص ، أي ملف لكل خريطة أو صورة وهذا من نوع (jpeg)) لتسهيل عمل الهيئة التقنية للمجلة.

11/ ترسل أو تسلّم نسخة ورقية من المقال مرفقة بقرص مدمج (CD) فضلا عن ضرورة إرسالها في ملف عبر البريد الإلكتروني للمجلة المدون أدناه ، مع مراعاة ما يلي:

-على الباحث إخفاء شخصيته في الدراسة ، وتجنب وضع أي إشارة تكشف هويته من خلال الدراسة ، ولأجل ذلك تكتب المعلومات الشخصية (اسم المؤلف ، ورتبته العلمية ، والمؤسسة التي يعمل فيها) على صفحة منفصلة ، ثم يكتب عنوان البحث مرة أخرى على الصفحة الأولى من البحث دون ذكر الاسم.

- تقديم صورة رقمية حديثة خاصة.

- التزام الدقة عند إمضاء تعهد (عقد نشر) خطي من المؤلف أو المترجم على نموذج تعده هيئة تحرير المجلة.

- ترك نسخة من بيان السيرة الذاتية للمؤلف أو المترجم (وفي حالة تقديم المقال من طرف باحثين ، يجب إرسال الموافقة الصريحة لكل واحد منهما بقبول النشر المشترك).

- تقديم ما يثبت موافقة الأستاذ المشرف على البحث ، بالنسبة للبحوث المقدمة من طلبة الدكتوراه (L.M.D).

- تقديم نسخة من الكتاب الأصلي إذا تعلق الأمر بعرض لكتاب.

12/ أن يرفق المقال وجوبا بملخص مُعَبِّر عن محتوى المقال بصورة شاملة وصادقة (في حدود 150 كلمة) باللغات الثلاث عربي ، فرنسي وانجليزي ، متبوعا بالكلمات المفتاحية ذات الدلالة على محتوى المقال(Key words) والتي لا تتعدى 7 كلمات تُرتَّب حسب ورودها في المقال ، وينبغي أن تشملها الترجمة باللغات الثلاث.

تنبيهات هامة:

* في حالة وجود أكثر من مؤلف يتم مراسلة الاسم الذي يرد أولا في ترتيب الأسماء في حالة تساوي الدرجات العلمية ، والأعلى درجة في حالة اختلاف الدرجات العلمية.

* يحول المقال إلى لجنة التحكيم السرية المختصة لتحكيمه علميا بعد التأكد من ملاءمته لقواعد النشر ، وعلى صاحب المقال إجراء التصحيحات المطلوبة منه خلال مدة زمنية تحددها هيئة التحرير.

* كل مقال يخالف شروط النشر لا يؤخذ بعين الاعتبار ، والمجلة غير معنية بإعلام صاحب المقال بذلك.كما لا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.

* يحق للمجلة (إذا رأت ضرورة لذلك) إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر دون المساس بمضمونها ، كما تحتفظ المجلة بحقها في حذف أو إعادة صياغة بعض العبارات التي لا تتناسب مع أسلوب النشر.

* ترتب البحوث في كل عدد ، واختيار حيّزها الزماني يتم وفق اعتبارات فنية تقدّرها اللجنة العلمية ولا علاقة لها باسم الباحث أو رتبته العلمية أو قيمة العمل.

*الأبحاث المنشورة في المجلة لا يعاد نشرها في جهة أخرى إلا بإذن مكتوب من مدير تحريرها ، ولا تلتزم المجلة برد المقالات غير المقبولة للنشر إلى أصحابها.

* يتحمل كاتب المقال جميع التبعات الناتجة عن خرق حقوق الملكية الفكرية المترتبة للغير.

-لا تدفع مكافآت عن البحوث التي تقبل للنشر بالمجلة ، غير أن الباحث يستفيد من نسختين من العدد الذي نُشِر فيه مقاله.

- تنشر موضوعات المجلة في موقع الجامعة الالكتروني بعد صدورها.

*** الدراسات التي تنشرها المجلة تُعَبِّر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.**

المراسلة والاشتراك: ترسل جميع المراسلات إلى السيد

رئيس التحرير: مجلة العلوم الاجتماعية-جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

الهاتف: 036661181

البريد الالكتروني:

revue@univ-setif2.dz

revue.setif2@gmail.com

الموقع الإلكتروني للمجلة: http://revues.univ-setif2.dz

الفهرس

المؤلف	عنوان المقال	صفحة
منال فناي	الخطاب الأيديولوجي في أطروحات علم اجتماع التنظيم والعمل في الجامعة الجزائرية: جامعة سطيف2 نموذجا	08
عبد القادر بلعالم	السكوت عن قضية "النبوة" في فلسفة ابن باجة... الدلالات والأبعاد	25
عفاف مسعي	النزعة الإنسانية والإسلام محمد مجتهد شبستري وهشام جعيط أنموذجين	41
شراد هشام	في التفكير حول فلسفة الدين عند روني ديكارت	54
عبد الغني حروز	الحضور الأشعري زمن دولة المرابطين (448-541هـ /1056-1147م) قراءة في المواقف والتطور	65
وردية الجاصة سفيان زدادقة	علميّة المنهج بين النقد الأدبي والهرمينوطيقا	82
سهام ضامن	آليات وضع المصطلح العربي	94
صافي الدّين لعبابسة	تبعيّة البنية للوظيفة بين المفهوم والتّطبيق في ضوء اللّسانيّات الوظيفيّة	105
صلاح الدين بن دريميع	ترجمة الكناية القرآنيّة إلى اللغة الفرنسيّة دراسة في ترجمات ريجيس بلاشير ومحمد حميد الله وجاك بيرك	119
فاتح بن خالد	القواعد الوقائية لتحقيق أمن المنتوجات الغذائية	135
نور الهدى كرميش	الشروط التعسفية في العقود في التشريع الجزائري	153
رشيد لرقم	دسترة الحقوق السياسية للمعارضة البرلمانية-اتجاه نحو تعزيز مبدأ الفصل بين السلطات	166
نبيل بن موسى عبد الرزاق بن الزاوي	انعكاسات المعايير البيئية على التجارة الخارجية للدول النامية	178
نصير لعرباوي سمية أم لرقاب	الإعلام الأمني الإذاعي ودوره في التوعية المرورية "دراسة ميدانية على عينة من السائقين بولاية سطيف"	199
نورالدين مبني كنزة حامدي	مواقع التّواصل الاجتماعيّ أوعية جديدة لنشر الوعي الصحيّ - صفحة التفاح الأخضر على الفايسبوك أنموذجا-	218
هشام عكوباش	صحافة الويب في الجزائر: نحو التمكين الأكاديمي والمهني	232
زهية غنية حافري	اختيار العرض/ المرض الجسدي بين أنماط السلوك، بروفيل الشخصية، الخصوصية والبنية السيكوسوماتية	243
سفيان بن صفية	دراسة ومتابعة الغطاء النباتي في المنطقة السهبية لولاية برج بوعريريج (الجزائر) باستخدام تقنية الاستشعار عن بعد وأنظمة المعلومات الجغرافية	258
كريمة شليحي هيفاء رشيدة تكاري	ضمانات تحفيز المؤسسات الصغيرة والمتوسطة للاستثمار بالبورصة-تجربة (أ أوم أنفست) كشركة وحيدة بالسوق الصغير لبورصة الجزائر-	273
عبد الفتاح سعيدي	نموذج التفكير الانطولوجي عند فلاسفة اليونان	289
Tassadit Dahmani Souhila Ourtirane Ramdane	L'écriture de l'Histoire et de la névrose dans Hôtel Saint-Georges de Rachid Boudjedra	302
Karima Medfouni	Teacher-trainees' Perceptions of Motivational Teaching Strategies in the Writing Classroom	313
Hayette Harbi	Muslims Prone to Homegrown Terrorism: Deconstructing the U.S. Government Discourse	321

الخطاب الأيديولوجي في أطروحات علم اجتماع التنظيم والعمل في الجامعة الجزائرية: جامعة سطيف2 نموذجا

The ideological discourse in the theses of organization & work's sociology in the Algerian university: University of Setif 2 model

تاريخ الإرسال: 2019-01-23 تاريخ القبول: 2020-04-12

منال فناي، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2
fenai.manel@gmail.com

الملخص

يعد تحليل الخطاب أحد المداخل الحديثة-نسبيا- في الدراسات السوسيولوجية ، ويعرف رواجا نظرا لما يتسم به من صفات تجعله أداة مناسبة لتفسير بعض الظواهر الاجتماعية الخفية والتي لا يمكن لتحليل المضمون الكشف عنها ؛ حيث تدخل ضمن دائرة ما لا يتم التصريح به ، أو ما يعرف بـ"ما بين السطور" والناجم عن السياقات الاجتماعية المهيمنة. وتخصص علم اجتماع التنظيم والعمل بوصفه "منتجا للخطاب" قد لا ينفذ من لعبة الهيمنة أو من التوجيه السياسي ، أو بصفة أدق من التوجيه الأيديولوجي. وإذا أردنا رصد واقع هذا التخصص فبالإمكان فعل ذلك عن طريق تركيز الجهد حول مخرجاته وتحليلها بما هي خطاب تحليلا نقديا. تشتغل دراستنا هذه على عينة من أطروحات الدكتوراه ذات الصلة لجهة سبر الخلفية الأيديولوجية الثاوية وراء المنتج السوسيولوجي في الجزائر ، ممثلا بأطروحات الدكتوراه في تخصص علم اجتماع التنظيم والعمل.

الكلمات المفاتيح: الأيديولوجيا ، التحليل النقدي للخطاب ، علم اجتماع التنظيم والعمل ، الجامعة الجزائرية ، مخرجات التعليم العالي

Résumé

L'analyse critique du discours est l'une des approches modernes - relativement - des études sociologiques. Elle est réputée en raison de ses caractéristiques qui en font un outil approprié pour interpréter certains phénomènes sociaux latents que l'analyse du contenu ne peut détecter et qui entrent dans l l'aire du non-dit, communément appelé lire « entre les lignes » résultant des contextes sociaux dominants. La sociologie de l'organisation et du travail en tant que "productrice de discours" ne peut échapper aux enjeux de la domination ou de l'orientation politique ou particulièrement idéologique, et si nous voulons surveiller la réalité de cette spécialité, nous pouvons focaliser nos efforts sur ses résultats et les analyser à travers l'analyse critique du discours, En ce sens, nous proposons une réflexion sur les thèses de doctorat ayant pour thème l'organisation de la sociologie et du travail des universités algériennes, l'université de Sétif 2 - étude de cas. Il s'agit de révéler l'orientation idéologique générale de la sociologie en Algérie à travers les résultats des thèses de doctorat. Ainsi, l'étude a pour objectif la révélation de la réalité de l'enseignement supérieur en sociologie au sein de l'université algérienne en essayant d'évaluer les résultats de cet enseignement et les orientations qu'il prend.

Mots clés : Idéologie, analyse critique du discours, sociologie de l'organisation et du travail, Université algérienne, réalisations de l'enseignement supérieur

Abstract

Discourse analysis is one of the relatively recent approaches in sociological studies, it is well-known due to its characteristics that make it a suitable tool for explaining some hidden social phenomena that the content analysis cannot reveal. It falls within the circle of what is not declared, or what is known as "between the lines" resulting from the dominant social contexts. The sociology of organization and work as a "producer of discourse" couldn't escape the issues of domination or political orientation, more precisely the ideological guidance. to know the reality of this specialization, we can focus our efforts on its outputs and analyzing them as a critical analysis speech. Our study is based on a sample of doctoral theses dealing with the sociology of organization and work of the Algerian universities, the University of Setif 2, as a case-study.

Key-words: ideology, the critical analysis of discourse, the sociology of organization and work, the Algerian university, the results of the high education.

مقدمة

بين الموضوعية والذاتية في العلوم الاجتماعية والإنسانية عامة ، وعلم اجتماع التنظيم والعمل بصورة أدق ؛ يظهر الخطاب الأيديولوجي ، ليصبح في أحايين كثيرة مصدر تقييم وتقويم للمادة العلمية. حيث يبرز طرحان: الطرح الأول الذي يرمي إلى تجريد الدراسات التي تعنى بالتنظيمات من علاقتها بالجماعات المسيطرة والبناء الأيديولوجي ، وطرح ثانٍ يدعو إلى ضرورة دراسة التنظيمات من خلال علاقتها بالسياق الاجتماعي والثقافي ، وكذا الواقع المجتمعي الذي تجرى فيه الدراسات ، أو ذاك الذي تنشط داخله نظريات علم اجتماع التنظيم والعمل.

هذه النظريات نفسها بدأت كأيديولوجيا نشأةً وتطوراً ، إذ جاءت إما لتبرر مصالح معينة وتفسر الواقع التنظيمي بما يدعم تلك المصالح ، أو ثائرة على ذلك الواقع الذي لا يتوافق مع مصالحها. وفي ضوء هذه العلاقة الجدلية تحاول هذه الورقة العلمية البحث عن ملامح حضور الخطاب الأيديولوجي في دراسات علم اجتماع التنظيم والعمل في إحدى جامعات الجزائر من خلال استخدام منهج التحليل النقدي للخطاب على عينة من أطروحات الدكتوراه في هذا الاختصاص.

أولا: الإطار النظري والمعالجة المنهجية

1-مشكلة الدراسة

تعود بدايات الدراسات السوسيولوجية في المغرب العربي عموما وفي الجزائر بصفة خاصة إلى الحقبة الاستعمارية الفرنسية ، حيث تأطر مجمل الإنتاج السوسيولوجي بالمسلمات والركائز التي نهضت عليها المدرسة الكولونيالية ، فكان الإنتاج السوسيولوجي بذلك نابعا عن المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع وحاملا للأيديولوجيا الفرنسية ، ومما ساعد على هذه التبعية أكثر هو أن تلك الدراسات المنجزة في تلك الحقبة كان يقوم بها باحثون وكتاب فرنسيون ، فكانت بذلك تعكس إرادة المركز المنتج للمعرفة السوسيولوجية وللأغراض التي يرومها.

شهدت السنوات الأولى لاستقلال الجزائر مرحلة عصيبة تمثلت في محاولة النهوض بمؤسسات الدولة الحديثة ، وشكّل قطاع التعليم بمختلف أطواره أحد أكبر تلك التحديات التي واجهت الجزائر ، خصوصا مع نسبة الأمية التي فاقت التسعين بالمئة غداة الاستقلال ، وقلة المدارس والمنشآت التعليمية بل وانعدامها في مناطق كثيرة من الوطن ، وكذا قلة المدرّسين... فتم التركيز على أطوار التعليم الابتدائي ثم المتوسط والثانوي ، وهنا كان الانتقال التدريجي من تعليم فرنسي بمناهجه ولغته وبعض مدرّسيه إلى التعريب التدريجي للأقسام والمواد المدرسة والاستنجاد بمدرّسين مشارقة لسد الفراغ الذي تركه المعلمون الفرنسيون الذين غادروا مع الاستقلال ، بالإضافة إلى عدد من الجزائريين الذين تخرجوا من المدرسة الفرنسية ، وآخرين تخرجوا من مراكز التعليم في المشرق ، في الزيتونة والقيروان والأزهر... ، هذا جعل التوجه العام للتعليم الجزائري ينقسم إلى جناحين الأول يرى ضرورة استمرار ذاك التعليم الفرنسي لغة ومنهجا وبالتالي أيديولوجية كذلك ، وبين التوجه الثاني الذي يرى عودة الشعب الجزائري إلى ثقافته الأم وانتمائه الحضاري للحضارة الإسلامية وبالتالي دافع هذا التوجه عن الانتماء الاسلامي.

بهذا بقيت تخصصات التعليم العالي أطول مدة (مقارنة ببقية الأطوار) في يد الجيل الأول الذي تخرج من المدرسة الكولونيالية. ومع ذلك فلا يمكن إغفال الخيارات الفكرية والأيديولوجية التي انخرطت فيها الجزائر وحددت توجهاتها السياسية والاقتصادية ، والتي كان لها انعكاسها في مستوى الرؤية التي وجهت التعليم العالي على الإجمال ومعه فلسفة وهندسة التخصصات العلمية وعلى رأسها التخصصات الإنسانية والاجتماعية وفي مقدمتها السوسيولوجيا.

يتبدى واضحا التأثر الذي ميز السوسيولوجيا كحقل للاشتغال الأكاديمي ، فمثلما هيمنت رؤية المدرسة الكولونيالية على موضوعاته وانعكست في مستوى نتائجه في الفترة الأولى (الفترة الاستعمارية) سيخضع وفق المنطق نفسه للموجهات الأيديولوجية التي اختارتها دولة الاستقلال ، حيث أصبحت سوسيولوجيا التنمية التخصص الأكثر حضوة بما هو تخصص يراد أن يطوع ليتجاوب مع مطمح التنمية الذي رفع كشعار في الفترة الستينية والسبعينية ، وحيث غلبت المناولات والمقاربة الماركسية للموضوعات المدروسة لاعتبار الخيار الأيديولوجي على الصعيد المحلي ، ولاعتبار ما ميز الفترة الستينية والسبعينية من إشعاع اليسار الماركسي سياسيا وأكاديميا حيث أصبحت أحرام الجامعات في العالم الثالث قلاعا منيعة للفكر الماركسي.

جاءت مرحلة الانفتاح على السوق وانتهاج الدولة نهج الرأسمالية ليلقي ذلك بظلاله على الدراسات السوسيولوجية التي عرفت هي الأخرى تفتحا على مقاربات وأيديولوجيات جديدة. فهناك من ظل وفيا في توجهاته للنهج الاشتراكي وانعكس ذلك على كتاباته في علم الاجتماع ، ومنهم من انتقل تدريجيا للانخراط في المقاربات الليبيرالية ، كما ظهر في

فترة التسعينيات توجه ثالث متأثر بالنموذج المعرفي الإسلامي، بهذا نستطيع القول أن السوسيولوجيا في نهاية الثمانينيات وحتى بدايات الألفية الثالثة كانت مسرحا للتعدد الأيديولوجي واستكمالا للمسعى التتبعي للسوسيولوجيا الجزائرية تبرز ضرورة علمية لمعرفة الخلفية الأيديولوجية الثاوية خلف الإنتاج السوسيولوجي في الجزائر حاليا وتحديدا في العشرية الأخيرة، ونحن بصدد تخصيص دراستنا حول الأطروحات السوسيولوجية على اعتبارها منتجا سوسيولوجيا، ومخرجا من مخرجات التعليم العالي، فنرصد بذلك واقع علم الاجتماع في جزائر اليوم، ونخص بالدراسة في هذا البحث الإنتاج السوسيولوجي في علم اجتماع التنظيم والعمل من خلال تسليط الضوء على دراسات ما بعد التدرج في الجامعات الجزائرية حالة جامعة سطيف2أنموذجا.

وبتحديد نطاق البحث فإن التساؤل الرئيسي للبحث جاء كالآتي:

ما مدى حضور الخطاب الأيديولوجي في الإنتاج السوسيولوجي الجزائري الراهن ممثلا بأطاريح دكتوراه علم اجتماع التنظيم والعمل في الجامعة الجزائرية؟

2- تساؤلات الدراسة

أ- ماهي الأيديولوجيا؟ وما مدى حضورها في مسيرة علم الاجتماع؟

ب- ما مدى تطابق وصف علم الاجتماع بكونه يعيش مرحلة التيه الأيديولوجي والثقافي، مع واقع علم الاجتماع في الجزائر؟

3- المنهج والتقنيات المقترحة

اعتبارا بأن هذه الدراسة تروم الكشف عن الخطاب الأيديولوجي للإنتاج العلمي (السوسيولوجي) فإن أنسب منهج يمكن توظيفه في هذا الصدد هو منهج التحليل النقدي للخطاب. وذلك للاعتبارات التالية:

❖ "أن التحليل النقدي للخطاب لا ينكفئ على السياقات اللغوية والنصية المحدودة بل يتجاوزها إلى السياقات الاجتماعية المهيمنة، ولا ينخدع بالمقولات الجاهزة، ولا بما تمارسه الأيديولوجيات من تعمية، وتعتيم، وخداع، ولا يتوقف عند ما هو كائن، بل يتجاوزه إلى ما يمكن وما ينبغي أن يكون، ويسعى إلى إحداث تغييرات اجتماعية تبدأ من الوعي ولا تنتهي به"[1].

❖ أن المداخل النقدية لتحليل الخطاب "لا تقتصر على وصف الممارسات الخطابية، بل تبين أيضا كيف يتشكل الخطاب بفعل علاقات السلطة والأيديولوجيات، والآثار البناءة للخطاب في الهويات الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية، ونظم المعرفة والعقيدة"[2].

❖ أن التحليل النقدي للخطاب يهتم بالقضايا الاجتماعية، على اعتبار أن الخطاب ظاهرة اجتماعية، كما يسلم بأن القوة والهيمنة تنتجان وتتداولان ضمن اللغة، واللغة تحقق غايات أيديولوجية.[3]

4- الأيديولوجيا: في إيتيمولوجية المفهوم

"إذا ما بدأنا بالتعريف اللغوي نجد أن كلمة أيديولوجيا Ideology مركبة اشتقاقيا من مقطعين، Idea ومعناها فكرة، وLogy أو Ology ومعناها العلم الخاص بحقل معرفي معين، وبذلك يكون معناها علم الأفكار، أي العلم الذي يدرس الأفكار من حيث نشأتها وأشكالها وقوانينها".[4]

وتجمع العديد من المصادر على أن أول من نحت كلمة أيديولوجيا هو ديستيت تريسي Destutt Tracy، حيث أن الفيلسوف ديستيت تريسي Destut de Tracy اقترح تسمية فلسفة العقل أيديولوجيا أو علم الأفكار Ideas من أجل تمييزها عن ميتافيزيقية القديمة.[5]

"وقد طرأ تحول على معنى لفظ أيديولوجيا خلال عهد نابوليون، عندما أصبحت الأيديولوجيا تكاد تعني أيّ رأي ذي طابع ثوري، بمعنى أي رأي مضاد لنابوليون ذاته. كما أن نابوليون نفسه عندما وجد أن هذه المجموعة من الفلاسفة-أي الأيديولوجيين- تعارض تطلعاته الاستعمارية الامبريالية، أطلق عليهم باحتقار اسم الأيديولوجيين، وهكذا فإن لفظة الأيديولوجيا قد اكتسبت معنا تحقيريا مثل كلمة "اللاعملي" واحتفظت به حتى اليوم"[6].

ويرجع الفضل إلى الماركسية في تحديد علاقة الأيديولوجيا بشروطها وظروفها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فالمجتمع لا يفسّر من خلال الأفكار، بل الأفكار تفسّر من خلال المجتمع.[7] وفي كتاب الأيديولوجيا الألمانية عرّف ماركس وإنجلز الأفكار على أنها تعبيرات عن مصالح الطبقة المهيمنة، حيث يذكران أن:"أفكار الطبقة السائدة هي الأفكار السائدة أيضا في كل حقبة تاريخية، يعني أن الطبقة التي هي القوة المادية السائدة في المجتمع هي في الوقت ذاته القوة الفكرية السائدة، إن الطبقة التي تتصرف بوسائل الإنتاج المادي تمتلك في الوقت ذاته الإشراف على وسائل الإنتاج الفكري، بحيث تخضع من جراء ذلك أفكار أولئك الذين يفتقرون إلى وسائل الإنتاج الفكري لهذه البقة

السائدة."[8] وإسهام ماركس يتجلى في فلسفته للتاريخ ؛ حيث يرى في التاريخ تاريخا للصراع الطبقي ، وأن مراكز الطبقات في العملية الإنتاجية وقوتها الاجتماعية هي الشيء الذي يحدد وضع ومكانة هذه الطبقة أو تلك في المجتمع ، وتصبح الطبقة القوية ، تلك التي تسيطر على وسائل الإنتاج على وعي بإمكانياتها وتتحدى الطبقات الأخرى ، **ومن ثمة تسيطر على وسائل الإنتاج الأيديولوجي**.[9]

كما يرى ماركس من هذا المنطلق أن التاريخ قد كان تحت هيمنة الأفكار السائدة بصورة دائمة ، أفكار الطبقة المهيمنة التي يكون أيديولوجيوها نشطين وقادرين على التصور وبيع أوهام الطبقة عن ذاتها. ويقدم ماركس تحليلا وافيا لمفهوم الأيديولوجيا كوعي زائف من شأنه أن يؤدي إلى انشقاق الطبقة ، وتعرُّضها للخطر ، حالما يقوم نزاع عملي بين أيديولوجيي الطبقة وأولئك النشطين داخلها الذين لا يسمح لهم وقتهم كما يقول ماركس بأن يصنعوا الأوهام والأفكار عن أنفسهم[10].

أما مانهايم فيفرق في تحليله لمعنى الأيديولوجيا بين معنيين اثنين واحد كلي والآخر جزئي ، ويقصد بالجزئي ذاك الموقف المتشكك الذي نتخذه ضد أفكار الخصم ، فنحن نفهمها على أنها تمويهات إما متعمدة لخداع الآخرين أو خداع النفس أو غير مقصودة ولا متعمدة. أما المعنى الكلي للأيديولوجيا فحين يكون الحديث عن أيديولوجية عصر ما أو طبقة ما ، والمقصود حينها هو توضيح سمات وتركيب البناء الكلي لعقلية ذلك العصر أو تلك الطبقة أو الجماعة.[11]

ويعرفها غابيل في كتابه إيديولوجيات بأنها" منظومة من الأفكار المرتبطة اجتماعيا بمجموعة اقتصادية أو سياسية أو عرقية أو غيرها ، منظومة تعبّر بدون تبادل عن المصالح الواعية بهذا القدر أو ذاك لهذه المجموعة ، على شكل نزعة مضادة للتاريخ ومقاومة للتغيير ومفككة للكليات. إنها تشكل إذاً التبلور النظري لشكل من أشكال الوعي الخاطئ"[12].

بالنسبة لألتوسر فهو ينظر للأيديولوجيا على نطاق واسع إلى حد كبير ، ويدور حول مفاهيم "عالمية" مثل الأجهزة الأيديولوجية الحكومية ، بينما يهتم عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو ببحث الآليات التي ترسخ بها الأيديولوجية في الحياة اليومية. فالعنف الرمزي هو طريقة بورديو لإعادة التفكير في المفهوم الغرامسي للهيمنة. ويمثل عمله ككل مساهمة أصلية لما يمكن أن نطلق عليه "البنى المجهرية" للأيديولوجيا ، مستكملاً المفاهيم الأكثر عمومية للتقاليد الماركسية من اعتبار الأيديولوجيا خطابا للحياة اليومية.[13] حيث يرى بورديو أنه لا يكفي الحديث عن أيديولوجيا مهيمنة لتجنب الوقوع في المثالية ، فالأيديولوجيا تتشيّأ لتصنع أشياء ، والتحليل يجب أن يتبع التحولات التي تصنع من الخطاب المهيمن ميكانيزما للفعل ، فالخطاب المهيمن ليس إلا تعبيرا عن سياسة ، نبوءة تسهم في تحقيقها لذاتها ، لأن أولئك الذين ينتجونها لهم مصلحة في جعلها حقيقية.[14]

وفيما يخص رؤية البنائية للأيديولوجيا فهي تعتبرها بناء ، وهي في المجتمع الطبقي أيديولوجيا مجتمع ، لأن الطبقة الأساسية في المجتمع الطبقي هي التي تقدم العنصر الأساسي الذي تقوم عليه الأيديولوجيا. إن البنائية ترفض فكرة وجود أيديولوجيا بروليتارية وأخرى برجوازية نقية ، لأن الصراع الأيديولوجي هو عملية تحليل أو تفكيك وإعادة تركيب للعناصر الأيديولوجية.[15] "ويعرفها والتزم تزجر قائلا: إنّ الأيديولوجيا لا تعدو أن تكون نسقا من المعتقدات يسوق أحكام القيمة وكأنها حقائق إمبريقية ، وهي تبرّر سواء بوعي أو دون وعي المطالب المادية أو المعنوية الخاصة بجماعة اجتماعية واقتصادية معينة"[16] ، ويرى"ج. جولد J.Gould. إن الأيديولوجيا لا تعدو أن تكون نسقا من المعتقدات والمدركات الواقعية والمعيارية التي تفسّر الظاهرات والظاهرات الاجتماعية المعقدة من منظور مبسط يوجه الخيارات السياسية-الاجتماعية التي تعرض للأفراد والجماعات"[17] ، وحسب الزير بن رافاييل Eliezer Ben-Rafael فالمفهوم الاجتماعي الحديث للأيديولوجيا شيّد على أساس انتقاد ظاهرة الدين الذي اعتبر عقبة في وجه الحداثة.[18] أما "يقرر فردیناند دوموند F.Dumon أن أغلب العلماء المعاصرين في علم الاجتماع ينظرون إلى الأيديولوجيا كنسق من الأفكار والأحكام الواضحة المنظمة بصورة عامة لتفسير سلوك وتبرير وضع الجماعة التي تدين به"[19].

5- تصنيف الأيديولوجيا

ونكتفي بذكر بعضها ؛ حيث يصنف مانهايم الأيديولوجيات السائدة في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى خمس فئات هي على التوالي: الأيديولوجيا المحافظة البيروقراطية Bureaucratic Conservatism ، الأيديولوجيا المحافظة التاريخية Conservative Historicism ، الأيديولوجيا البرجوازية الديمقراطية الليبيرالية Liberal-Democratic/Bourgeois. Thought ، أيديولوجيا التفكير الاشتراكي-الشيوعي The Socialist-Communist Thought ، وأخيرا الأيديولوجيا الفاشية Fascism.[20]

أما السمالوطي فيرى أن التصنيف يتم بالاعتماد على أربعة معايير تتجسد في "الجماعة التي توجه إليها الأيديولوجيا، العلاقة بين الأيديولوجيات والقوة الاجتماعية داخل المجتمع، أساليب الفعل أو السلوك التي تسعى الأيديولوجيات نحو تحقيقها، مضمون الأيديولوجيا"[21]. وبذلك نوجز تصنيفه للأيديولوجيا [22] كما هو موضح في الجدول الموالي:

المعيار الأول: الجماعة التي توجه الأيديولوجيا إليها	الجماعة	أيديولوجية الطبقة العاملة، أيديولوجية الأطباء، المثقفين ....
	المجتمع	أيديولوجيا القومية، أو الوحدة الوطنية
	جماعات تتجاوز حدود المجتمع الواحد	الأيديولوجيا الماركسية التي وجهت رسالتها للعالم ككل، أيديولوجيا الطبقة الكادحة
المعيار الثاني: العلاقة بين الأيديولوجيات والقوة الاجتماعية داخل المجتمع	الجماعة المستحوذة على القوة	أيديولوجية الطبقة المسيطرة، أيديولوجية التكنوقراط، الفنيين الممارسين للسلطة داخل المجتمع ....
	الجماعات التي تسعى إلى تملّك زمام القوة داخل المجتمع	أيديولوجيا أحزاب الأقلية أو المعارضة
	جماعات تسعى للتأثير على الجماعة الممارسة للقوة دون أن تسعى لتملّك زمام القوة	أيديولوجيا جماعات الضغط
المعيار الثالث: أساليب الفعل أو السلوك التي تسعى الأيديولوجيات نحو تحقيقها	الأيديولوجيا الإصلاحية	
	الأيديولوجيا الثورية	
المعيار الرابع: مضمون الأيديولوجيا	الأيديولوجيا الرجعية	
	الأيديولوجيا المحافظة	
	الأيديولوجيا التقدمية	
	الأيديولوجيا الراديكالية	

جدول رقم (1) يوضح تصنيف الأيديولوجيا

6- الأيديولوجيا والعلم

ترجع الفوارق الأساسية بين العلم والأيديولوجيا إلى النقاط الآتي ذكرها:

– القضية العلمية أقل ثقة بنفسها، معرضة للتعديل والتغيير والتشكيك في ظل عدم كفاية الدليل السببي.

– الأيديولوجيا أكثر جرأة وإصرارا، وهي متعصبة تبحث عن حقائق ذات طبيعة انتقائية فقط، وتؤمن بالمطلقية فيما يخدم قضية عقيدتها فقط.

– تستخدم الأيديولوجيا جزء فقط من الحقائق، ذاك الذي يخدم ما وافقت عليه سلفا عكس العلم الذي يتيح نفي الفرضيات التي ينطلق منها، فالعلم يقبل النسبية ويقبل التصحيح حال اكتشاف الخطأ، في حين تصرّ الأيديولوجيا على ما تقوم عليه من ادعاءات حتى لو خالفت المنطق.[23]

– الأيديولوجيا تتستر وراء قناع العلم، وتخترع منظومة تأويل تبدو مدهشة وفريدة من نوعها ثم تطبقها على الحوادث الجلية بشكل منهجي، ثم تدعي أنها وحدها "العلم الحقيقي"، وتتهم البقية بأنهم أيديولوجيون.[24]

7- مربع الأيديولوجيا

"من أدوات التحليل النقدي التي شاع استخدامها ما أطلق عليه فان دايك بمربع الأيديولوجيا Ideological square أو التجميل والتشويه والتهويل والتهوين، ويشير ببساطة إلى استخدام كل ما سبق من أدوات في تجميل كل ما لنا ومن معنا، وتشويه كل ما لغيرنا ومن علينا أو ضدنا. لتحقيق ذلك يعمد المتكلم أو الكاتب إلى التهويل والتهوين، بمعنى تضخيم حسناته وسيئات غيره، وتهوين سيئاته وحسنات غيره"[25]، ونحاول تلخيصه في الشكل الموالي:

الشكل رقم (1) يوضح مربع الأيديولوجيا

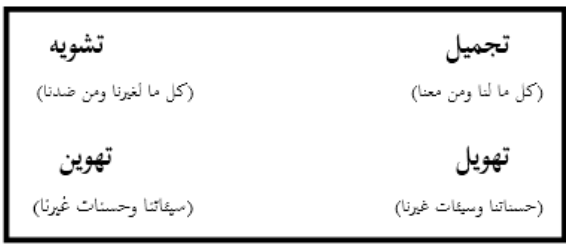

المصدر: إعداد شخصي بالاعتماد على ترجمة بهاء الدين مُحَمَّد مزيد نقلا عن فان دايك

نخلص بناء على ما سبق، إلى أن المقصود بالبعد الأيديولوجي جملة الأفكار والتصورات والمنطلقات التي يقع صاحبها في حالة تحيز لها، إذ ينتصر لفكرة ما أو مدرسة فكرية ما حد تجميل تلك الفكرة وتشويه الفكرة أو الأفكار المضادة لها، أو عن طريق تهويل حسناتها وتهوين سيئاتها مقابل تهويل سيئات الفكرة المضادة وتهوين حسنات الأخيرة،

ونعتمد في تصنيف الأيديولوجيا حسب المضمون إلى أيديولوجيا رجعية ، محافظة ، تقدمية وراديكالية. وإسلامية.

ثانيا: الإطار التطبيقي للدراسة

1- حدود الدراسة ومجتمع البحث

تتأطر الدراسة جغرافيا بجامعة مُحَمَّد لمين دباغين سطيف 2 بقسم علم الاجتماع تخصص تنظيم وعمل. وفي مجالها الزماني بدء من سنة 2014 إلى 2018؛ حيث يتمثل مجتمع البحث في خمسة عشر أطروحة دكتوراه موزعة زمنيا كما في الجدول رقم (2). تم الاعتماد على ثُلُث مجتمع البحث كعينة أي 5 أطروحات دكتوراه تم اختيارها عن طريق العينة الحصصية ، من كل سنة تؤخذ أطروحة واحدة بشكل عشوائي على مدار السنوات الخمس.

السنة	عدد أطروحات دكتوراه التنظيم والعمل المناقشة في جامعة سطيف2
2014	2
2015	2
2016	2
2017	1
2018	8

الجدول رقم (2) يوضح توزع مجتمع البحث على مدار الخمس السنوات الأخيرة (**مصدر الجدول**)

2- التحليل النقدي لخطاب مفردات العينة

في هذا المحور من البحث تم اختيار عناصر للتحليل بعينها لتكون محل تحليل نقدي للخطاب ، وهي المقدمة ، مشكلة البحث ، المدخل النظري ، نتائج البحث وتحليلها ، الخاتمة ، قائمة المراجع ، كما هو موضح في الشكل ، حيث يتم استخراج الكلمات ، الجمل ، أو الفقرات ذات القوة الدلالية على وجود خطاب أيديولوجي معين وتصنيفها عبر جداول ليتم استخراج الخطاب الأيديولوجي من كل مفردة ومن عناصر التحليل سابقة الذكر ، هذا إن وجد الخطاب طبعا ، بهذا يتم عرض خطاب كل وحدة على حدى. وتجدر الإشارة إلى ملاحظة هامة كون عملية تحليل خطاب كل عنصر من عناصر التحليل بمعزل عن بقية عناصر المفردة الواحدة هي عملية قاصرة لا تكشف عن مدى اتساق المفردة الواحدة في بعدها الأيديولوجي ، لذلك عمدت الباحثة هذا الترتيب كدمج لعنصر التحليل نفسه في كل المفردات(خطاب المقدمات كله في جدول واحد مثلا) ، ثم مقارنة مختلف عناصر التحليل للأطروحة الواحدة مع بعضها في مرحلة لاحقة ، وهذه العملية الأخيرة أوضحت وجود عدم اتساق في أحد مفردات العينة ، أي أن إحدى الأطروحات أثبتت بشكل جلي تذبذب الرؤية لدى الباحث وتبنيه مداخل أيديولوجية متناقضة ومختلفة من عنصر لآخر ، وهذا يعكس ما يمكن أن نطلق عليه تسمية "التيه الأيديولوجي".

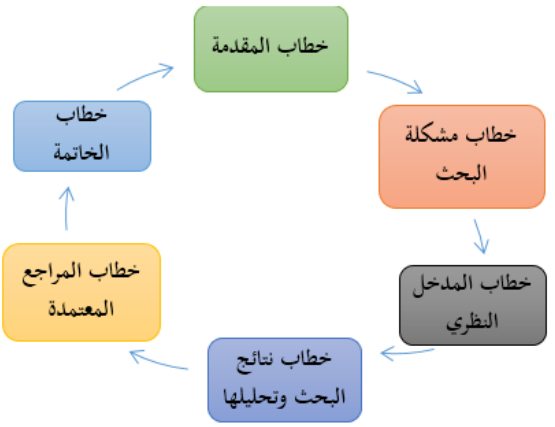

شكل رقم (2) يوضح العناصر الأساسية في تحليل عينة الدراسة[26]

وقبل الشروع في عرض وتحليل خطاب الوحدات المعنية ، تتم الإشارة إلى المتغيرات الأساسية في كل أطروحة من الأطروحات الخمس ليتمكن القارئ من معرفة موضوع الأطروحات الذي تعالجه لكن دون ذكر العنوان كاملا للأطروحات (مفردات العينة) وهذا لما جرت عليه تقاليد البحث العلمي في التحفظ على ذكر أسماء أو هويات مفردات العينة ونعتبر أن ذكر عنوان الأطروحة كاملا هو إشارة مباشرة لصاحبها الشيء الذي يتنافى وأخلاقيات البحث العلمي ويمكن أن يؤثر على تحليل وتفسير النتائج وبالتالي يخرج الباحث من الموضوعية المنتظرة منه خوفا من التجريح في أعمال أساتذة وباحثين شملتهم الدراسة ، الشيء الذي لا تهدف له هذه الدراسة بتاتا.

الأطروحة الأولى عالجت موضوع الأجور في المؤسسات العمومية الجزائرية وعلاقة ذلك بالأداء ، أما الأطروحة الثانية فتحدثت عن إدارة المعرفة في المؤسسات الاقتصادية وأهمية التدريب كاستراتيجية ، والأطروحة الثالثة تتطرق إلى موضوع ذوي الاحتياجات الخاصة في الجزائر ، أما الرابعة فهي تهتم بموضوع المقاولاتية الشبابية والمسؤولية الاجتماعية ، وأخيرا الأطروحة الخامسة تسلط الضوء على موضوع العمل في الجزائر عبر تمثلاته لدى الشباب.

1.2- الخطاب الأيديولوجي للمقدمة

تعرفنا المقدمات عادة بموضوع البحث بصفة أشمل وبالطرق والمحاور الكبرى لانجازه ، وتهدف إلى إطلاع القارئ على الدوافع وراء اختيار الباحث لموضوعه ، كما تحاول إثارة

اهتمام القارئ وانتباهه وفضوله ليكمل قراءة البحث ويستشعر ما لهذا البحث من أهمية وما يمكن أن يقدمه من إضافة علمية ، ويبرز أسلوب الباحث من خلالها بشكل جليّ ؛ إذ لا يعتمد فيها على الاقتباس بقدر ما يتحدث فيها عن قناعاته وطريقة إدارته لبحثه ، من هذا المنطلق نحاول تحليل خطاب المقدمة تحليلا نقديا للخطاب لمحاولة الكشف عن ما يخفيه خطاب الباحثين من توجهات أيديولوجية تتحكم برسائل الدكتوراه التي أنجزها في هذا الصدد في علم اجتماع التنظيم والعمل.

مفردات العينة	الكلمات المفتاحية	الخطاب
الأطروحة 1	التنمية البشرية ، التنمية الاقتصادية ، التنمية الاجتماعية ، الموارد البشرية ، الصراع ، الرضا الوظيفي ، "سلطة التأديب بحكم عنصر التبعية والخضوع التي هي إحدى عناصر علاقة العمل" ، سلوك الموظف ، تحفيز الموظفين ، "النزعة المادية التي أصبحت تميز الفرد الجزائري"	خطاب يستخدم في مفرداته مصطلحات الماركسية يظهر التأثر بعلم اجتماع التنمية
الأطروحة 2	مبدأ التنافسية ، مفهوم التفوق ، القيمة التنافسية ، بناء الفرد ، رأس مال فكري مبدع ، الرساميل المعرفية المتجددة ، رؤية نمطية لمفهوم التدريب والتعلم ، عقيمة ، غير مجدية ، منظومة إدارة المعرفة والتعلم التنظيمي وبناء المنظمات المتعلمة.	تعبر عن الطرح المتبنى والمتمثل في إدارة المعرفة
الأطروحة 3	الرعاية الاجتماعية ، "تقليص الفروقات بين الناس في المجتمع الواحد" ، "تحقيق مستوى مقبول من العدالة الاجتماعية والمساواة" ،"استقرار المجتمعات وتعزيز تماسكها ووحدتها". "سن تشريعات للحد من المشكلات الاجتماعية... نتاج إفرازات سياساتها الاقتصادية المبنية على الإفراط في الاهتمام بالتصنيع والاستخدام المفرط للتكنولوجيات المتطورة". توجيه الاهتمام للعنصر البشري ، أهمية الاستثمار في رأس المال البشري. ذكر مصطلح الدول النامية ، استراتيجيات تنموية ، الجانب التنموي ، المزاوجة بين حقوق الإنسان والتنمية ، البلدان النامية ، الأعباء التنموية ، الدول النامية. عملية التنمية المسألة الاجتماعية	تناقض الأيديولوجيا الاشتراكية التأثر بعلم اجتماع التنمية تمجيد السياسة القائمة
الأطروحة 4	مجتمعات أوروبا الغربية ، السوق الحرة والفردانية البرجوازية ، علاقات السلطة ، إنتاج وإعادة إنتاج أبيتوس ، "تقطع مع المقاربة المعيارية والجوهرانية السائدة وتقدم تفسيرات موضوعية" "واصل الجزء الثاني من الفصل مهمة نقاش المفهوم ، لكن هذه المرة على لسان الفلاسفة وعلماء الاجتماع الذين عاصروا وشهدوا على التحولات العميقة والثورية التي شهدها العمل وعالم العمل في سياق الحداثة الذي انتصر لنمط الإنتاج الرأسمالي ولاقتصاد السوق"	أيديولوجيا نيو ليبيرالية
الأطروحة 5	المسؤولية الاجتماعية للمقاولين ورجال الأعمال ، "...اكتساب وتعلم يتأت من القيم والمعارف والاتجاهات والسلوكات التي يكتسبها المقاولون من بيئتهم الاجتماعية" ، التساند والتكامل في الأدوار ، الإبداع والابتكار في المنتجات ، "...حل العديد من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تعاني منها المجتمعات المحلية من البطالة والفقر والتهميش" ، "المشاركة المجتمعية للنهوض بالمجتمعات المحلية وبالتالي المجتمع ككل"	الاتجاه المحافظ ممثلا بنظرية النسق الاجتماعي

الجدول رقم (3) يوضح خطاب المقدمة

يظهر الجدول أعلاه تلخيصا لأهم ما جاء به خطاب مقدمات مفردات البحث ، **خطاب مقدمة المفردة الأولى** انطلقت من متغير مداخيل الأفراد (الأجور) وربطته بالتنمية البشرية ، المدخول مقابل جهد يؤدي إلى تلاقي عدة مصالح هي مصلحة العامل والمنظمة ، وتذكر المقدمة من جديد التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية.

تحدثت الفقرة الثانية عن فكرة طريقة دفع الأجور والعوامل التي قد تشكل تباعدا بين المجهود المبذول وحقيقة ما يستحقه من أجر. الفقرة الثالثة تتطرق لاهتمام الدول بمواردها البشرية بتحديد الحد الأدنى للأجور ، حيث انتقل الباحث من الكلام عن الأجور والأداء الوظيفي انطلاقا من الفرد العامل إلى مسؤولية الدول والمنظمات واستراتيجياتها من أجل الحفاظ على القدرة الشرائية واستمرارية المؤسسة. يذكر الباحث بوضوح مصطلح الصراع في هذه العملية ، وهو مصطلح اشتراكي بامتياز.

حيث تنظر الماركسية إلى الصراع الاجتماعي باعتباره ظاهرة محورية ، يمكن لها أن تفسر الواقع الاجتماعي بشكل موضوعي فكارل ماركس يرى أن تاريخ كل المجتمعات عبر الزمن هو تاريخ الصراع الطبقي ، المستغِلون (بكسر الغين) والمستغَلون (بفتح الغين) في تعارض وصراع دائمين يفضيان في النهاية إلى إعادة بناء المجتمع على أساس ثوري أو يؤدي ذاك الصراع إلى انهيار الطبقتين المتصارعتين.[27]

أما الفقرة الرابعة فحملت فكرة المؤسسات الإدارية وخصوصياتها من حيث أنه يصعب عليها التحكم في سلوك

الموظف نظرا لعوامل ثقافية ليتم تخصيص الكلام عن المؤسسات ذات الطابع الإداري في الجزائر ، يذكر السلبيات الخاصة بأداء الموظفين والتهميش الذي يعانون منه لتختتم الفقرة بتحديد ما هي المؤسسات المعنية بالدراسة ويربط ذلك بـ "النزعة المادية التي أصبحت تميز الفرد الجزائري عموما والموظف والعامل خصوصا". باقي الفقرات هي تقديم لتقسيم الفصول وما جاء فيها.

موضوع الأجور والأداء الوظيفي يمكن تناوله من مقاربات عدة ، وإن كان بالأساس نابعا من اتخاذ العامل أو الموظف محور العملية الاقتصادية والصناعية بدرجة أولى ، حيث أن موضوع الأجور أساسا نابع من النضالات العمالية والنقابية التي أخذت تطالب بحقوق العمال ورفع الغبن عنهم ثم أصبح مع مرور الزمن موضوع اهتمام الرأسمالية رغبة منها في الحفاظ على النظام القائم وتطوير المؤسسات والقدرات الاقتصادية لهذه البلدان باستحداث نظام الحوافز والترقيات ، مقدمة الباحث تتناول الموضوع مركزة كما في الجدول أعلاه على التنمية البشرية ، التنمية الاقتصادية ، التنمية الاجتماعية ، الموارد البشرية ، الصراع ، الرضا الوظيفي ، ومنه يمكن القول أن الطرح المتبنى هو طرح اشتراكي كما يظهر تأثر الباحث بعلم اجتماع التنمية ، وبالرجوع إلى مربع الأيديولوجيا فالمقدمة تخلو من التهويل والتهوين أو التجميل والتشويه لأي فكرة أو طرح على حساب آخر ، وبذلك يمكننا أن نتحدث عن طرح علمي لا أيديولوجي منحاز.

خطاب مقدمة المفردة الثانية: تنطلق مقدمة الأطروحة الثانية من أهمية الوضع الاقتصادي وحساسيته ، خصوصا ما يتعلق بالبحث عن بدائل اقتصادية للدخل الريعي من أجل بناء نسيج صناعي متكامل يعوض البترول في الجزائر ، وهذا من خلال مؤسسات قادرة على رفع تحديات العولمة الاقتصادية. تركز الفقرة الثانية على مبدأ التنافسية حيث يصفه الباحث بـ " كلمة الفصل" في عالم تحكمه المصالح الاقتصادية ؛ وهذا تهويل لهذا المبدأ على حساب حلول أخرى ، حيث أن الباحث يعتقد جازما أنه "الفصل" وهذا التعبير يلغي أي مبدأ آخر ويفضل مبدأ التنافسية على غيره من المبادئ ، ويضيف أنه يتعدى مفهوم التفوق وأنه قادر على إعطاء المؤسسة الاستمرارية والنجاح في البقاء.

الفقرة الثالثة يطور فيها الباحث الكلام عن المشكلات التي تعاني منها المؤسسات الاقتصادية الجزائرية ويربط بين فكرتي المنافسة وامتلاك المعارف والمعلومات والتكنولوجيا... ثم تأتي الفقرة التي تليها لتعزّز سابقاتها مع إعطاء أهمية للفرد في العملية الاقتصادية و"ضرورة بنائه معرفيا والاهتمام بتكوينه وتحيين معارفه".

يستخدم الباحث عبارات نعتقد أنها تشير وتدلل إلى نوع من الانحياز بذكر محاسن الاتجاه المتبنى وبطريقة غير مباشرة مساوئ التوجه الاشتراكي حيث يستخدم عبارات "كلمة الفصل" ، "الرؤية النمطية" ، "القول أن .... هو تصور وفهم قاصر عن تصور المشكلات الحقيقية" ، "رؤية عقيمة قاصرة عن فهم ما يجري من تحولات عميقة" ، وفي هذا نقد ضمني للفكر الاشتراكي الذي لم يولي للفرد أهمية من خلال "التدريب والتعلم الذي نظر إليه على أنه مهمة روتينية من مهام إدارة الموارد البشرية" ويستخدم الباحث صيغة المبني للمجهول في كلمة "نُظِرَ" فالدارس للاقتصاد الجزائري سيدرك أن رواسب الاشتراكية لا تزال بادية على الفكر المؤسساتي الجزائري ومن أحد مظاهرها ما تحدث عنه الباحث ضمنيا من عدم الاهتمام بتطوير العمال وتعليمهم ، وبهذا فإن تحليل الباحث للظاهرة المدروسة له امتداد تاريخي وسياسي نابع من واقع ما عايشته المؤسسات الاقتصادية الجزائرية في ظل أيديولوجيا سابقة هي الماركسية ، واختار الباحث منها أحد سلبياتها دون التعرض لها كأيديولوجيا حاكمة في ذلك الوقت بما لها من إيجابيات وسلبيات ولهذا مبرره وهو عدم الخروج عن موضوع التدريب وإدارة المعرفة بل اكتفى بالتلميح لاحتياج المؤسسات للتدريب والتطوير الذي كان غائبا عنها في سنوات ماضية. يظهر ذلك من خلال أيضا الكلام عن الجدة والحداثة للمقاربة التي يتبناها والجدة والحداثة هي عكس التقليدي والقديم أي "القاصر والعقيم".

خطاب مقدمة المفردة الثالثة: خصص الكاتب أولى فقرات المقدمة للحديث عن أحد متغيرات دراسته ألا وهو سياسة الرعاية الاجتماعية وذكر أنها تعمل على: "تقليص الفروقات بين الناس في المجتمع الواحد" ، "تحقيق مستوى مقبول من العدالة الاجتماعية والمساواة" ، ونلتمس من العبارتين توجها اشتراكيا بارزا ، ثم يربط سياسة الرعاية بـ"استقرار المجتمعات وتعزيز تماسكها ووحدتها" وهذه الفكرة الأخيرة من الاتجاه المحافظ.

في الفقرة الثانية ، يتحدث الباحث عن تنوع سياسات الرعاية الاجتماعية بتنوع المعطى الاقتصادي ، التاريخي ، الثقافي والسياسي والاختلاف من بلد لآخر. يرى الباحث أن المشكلات الاجتماعية هي نتاج إفرازات سياسات الدول الاقتصادية المبنية على الإفراط في الاهتمام بالتصنيع والاستخدام المفرط للتكنولوجيات المتطورة وهو هنا لم يحدد

أي البلدان معنية بهذه المسببات وهو هنا يرجع كل أسباب المشكلات الاجتماعية لهذا المعطى إذن نستنتج من قراءة الباحث أن البلدان التي لا تعاني من الاهتمام بالتصنيع والاستخدام المفرط للتكنولوجيات المتطورة لا تعاني من مشكلات اجتماعية، ويضيف على الفكرة السابقة أن "هذا الواقع جعل الكثير من الدول تعيد النظر في استراتيجياتها التنموية" فهل فكرة الاستراتيجية التنموية تقال للدول المتقدمة أم هي عبارة خاصة بالبلدان النامية؟ في فقرة قصيرة موالية يكرر الباحث عبارة "الجانب التنموي" ويربطه بتوجيه الاهتمام للعنصر البشري، أهمية الاستثمار في رأس المال البشري. وفي فقرات لاحقة يذكر مصطلح الدول النامية، استراتيجيات تنموية، الجانب التنموي، المزاوجة بين حقوق الإنسان والتنمية، البلدان النامية، الأعباء التنموية، الدول النامية. عملية التنمية وتشير كلها إلى تأثر الباحث بعلم اجتماع التنمية.

في الفقرة التي يخصص فيها الحديث عن المسألة الاجتماعية في الجزائر، يرى الباحث أن الجزائر أعطت أهمية "قصوى" للمسألة الاجتماعية وعبارة "قصوى" هنا تشير إلى نوع من التهويل من حسنات سياسات الجزائر كنظام ويدلل على ذلك بأحد التشريعات ومصادقتها لاتفاقية دولية خاصة بذوي الإعاقة، ويضيف عبارة "وكل هذا كان في إطار الحرص على ضرورة توفير فرص المشاركة لجميع أفراد المجتمع دونما تمييز، فعبارة "الحرص" يدخل كذلك ضمن خطاب إظهار حسنات النظام وكأنها مسلمة يقتنع بها الباحث أو هي أقرب إلى الخطاب السياسي الذي يمجد دور سياسة الدولة منه إلى الخطاب العلمي الذي يصف ويحلل وينقد ويستخدم مبدأ الشك.

خطاب مقدمة المفردة الرابعة: يرجع الباحث السياق التاريخي للارتباط بين العمل والشباب إلى بناء الدولة الحديثة في مجتمعات أوروبا الغربية، يذكر الباحث مفاهيم :السوق الحرة والفردانية البرجوازية، الآلة الصناعية الرأسمالية، بالنسبة للزوج المفاهيمي عمل/ شباب في الجزائر فيرى الباحث أنه نشأ عن طريق التماس بين الحركة الوطنية ونضالات العمال حيث كانت فرنسا القاعدة الاجتماعية الحاضنة له، ويسرد تطور العمل تاريخيا في الجزائر وفي جملة اعتراضية تبتدئ ب "لكن" يصف الباحث واقع العمل بعد 20 سنة من الاستقلال بالفشل وهنا يحدد مسارين اثنين لمآلات الشباب في الجزائر هما احتلال الأرصفة لتلبية شروط العيش، والمساجد للبحث عن خلاص من نوع آخر فيربط بذلك توجه الشباب للمسجد بعدم توفر مناصب الشغل ويمكن أن نفهم من ذلك إشارة إلى حقبة التسعينات التي عرفت تصاعدا للمد أو الفكر الإسلامي الذي يراه البعض تطرفا والبعض الآخر رجوعا إلى الهوية الإسلامية للبلد، وربط هذا المد بالبطالة وكأنه جاء أساسا لإيجاد حلول من نوع آخر لمشكلة البطالة مما يضع علامات استفهام على هذا التفسير. يذكر الباحث في فقرات موالية المصطلحات: علاقات السلطة، إنتاج وإعادة إنتاج أبيتوس، وهي مفاهيم بورديوية (نسبة إلى بيير بورديو). يذكر الباحث المقاربة المعيارية الجوهرانية بشكل سلبي ثلاث مرات في المقدمة حيث يرى أن لها مقولات اختزالية ويحذر من سهولة الانسياق وراء هذه المقولات.

خطاب مقدمة المفردة الخامسة: تنطلق الفقرة الأولى من المسؤولية الاجتماعية للمقاولين ورجال الأعمال وكيف أن العلوم الاجتماعية تهتم بهذا الموضوع على غرار العلوم الاقتصادية والتسييرية، ويرجع الباحث ذلك لارتباط المسؤولية الاجتماعية بعمليات التنشئة الاجتماعية التي تكسب المقاولين الشباب القيم الأخلاقية والمعارف المهنية... أما الفقرة الموالية فتشرح كيف تقوم مؤسسات التنشئة الاجتماعية بغرس وتنمية روح المسؤولية الاجتماعية لدى الشباب، ويخص بالذكر أجهزة الدعم والمرافقة ويعتبرها المصدر الرئيسي في تشجيع الشباب المقاولين على المشاركة المجتمعية للنهوض بالمجتمع. الفقرة الموالية يوضح فيها الباحث تخصيص دراسته للكشف عن دور النسق الاجتماعي ممثلا في الأسرة، مؤسسات التعليم والتكوين وأجهزة الدعم والمرافقة في تنمية المسؤولية الاجتماعية عند المقاولين الشباب وهذا في ولاية البويرة، أما بقية فقرات المقدمة فجاء الحديث فيها عن ما تحتويه فصول الدراسة. استخدم الباحث بوضوح مفاهيم النسق الاجتماعي، التساند والتكامل في الأدوار ويعبر هذا عن الاتجاه المحافظ ممثلا بنظرية النسق الاجتماعي وتخلو المقدمة تقريبا من عبارات التهويل والتهوين أو التحيز وبذلك نستطيع أن نقول أن الطرح كان علميا أكثر منه أيديولوجي رغم تبني مفاهيم نظرية النسق بشكل جليّ.

2.2- الخطاب الأيديولوجي لمشكلة البحث

نقلا عن لوك فان كومبنهود وريمون كويفي فالإشكالية هي "المقاربة أو المنظور النظري الذي قررنا تبنيه لمعالجة المسألة المطروحة بواسطة سؤال الانطلاق (...) وهي الطريقة الخاصة في النظر إلى المسألة"[28]. "بالإضافة إلى أن" الإشكالية تعطينا الآفاق الأولية للتحليل بتحديدها لمجالات البحث الأساسية، ونعني بها المجال الزماني والمكاني،

والبيئة الجغرافية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمجتمع البحث، والجماعات الاجتماعية والمهنية، والتكوين الطبقي"[29]، فإنها تتضمن جملة من المفاهيم والمصطلحات المنسجمة والتي تعبّر عن خيارات الباحث النظرية، فعنصر الإشكالية يعدّ مادة علمية مهمة تظهر فيها جهود الباحث بوضوح في تصوره لموضوعه، وبهذا فمن المتوقع أن تعبّر بوضوح عن توجهاته الأيديولوجية وميولاته في تبني أطروحات دون غيرها.

مفردات العينة	مشكلة مفردات العينة	الخطاب الذي تحمله
الأطروحة 1	المؤسسات الاجتماعية، دولة القانون والمؤسسات، مظاهر الاستغلال، "أبشع أساليب الاستغلال والأعمال الشاقة"، "هلاك وإعاقة ومرض الكثير من الخلائق"، "ليزداد الغني غنى"، "زادت من تكريس نظام استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ولكن في شكل أكثر تنظيما"، "... تقديم الكثير من التنازلات أو المزايا للطرف الضعيف (ونقصد به العامل) والتي لم تكن لتتحقق لولا دخول الفكر الاشتراكي..." المقاربة 1: سياسة الأجور مجرد توزيع للثروة ولها علاقة مباشرة بصادرات المواد الأولية (حالة عديد الدول العربية) المقاربة 2: سياسة الأجور مدخل استراتيجي لتحفيز الأفراد وتكريس انتماءاتهم المؤسساتية والاجتماعية (الدول الغربية المتقدمة) المقاربة 3: غياب سياسة واضحة للأجور واللجوء إلى شراء السلم الاجتماعي عن طريق سياسات ارتجالية... "استقرار اجتماعي لكن لعوامل عدة طفت الصراعات الطبقية والاجتماعية والتنظيمية على نطاق واسع نتيجة الاختلالات الحاصلة في تطبيق الفلسفات النظرية وغياب العدالة التنظيمية والاجتماعية في توزيع الثروة"، تكررت كلمة صراع ثلاث مرات في الاشكالية، وخصصت مساحة صفحة تقريبا (19 سطرا) للتوسع في فكرة الصراع	تقدم لنا الإشكالية بوضوح التفسيرات الاشتراكية وتثني عليها كما تستخدم مفاهيم ومصطلحات الأيديولوجيا الاشتراكية
الأطروحة 2	المعرفة قوة، التحدي والتنافس، تحدي المعرفة، "مهام تقليدية ذات رؤى قاصرة وأهداف آنية والمتعلقة فقط بالتعامل مع الأفراد وتسيير شؤونهم الوظيفية"، "غير أنها تعرف اليوم انقلابا وتحولا عميقا من خلال ارتباطها وبشكل أكبر بكيفيات التعامل مع المعرفة المتجددة"، "الرؤية الاستراتيجية لمفهوم الموارد البشرية أو تدبير الموارد البشرية يتأسس اليوم على **حتمية** تقدير الفرد واستثمار قدراته، وطاقاته، وتظيفها.."، رأس المال الفكري، "ومن هنا تأتي أهمية موضوع إدارة المعرفة بالمنظمة من كونها **أكثر** الأصول قيمة، أين تمثل الحلقة **الأهم ...**"، ثقافة تنظيمية، القيم الثقافية، القيادة التنظيمية.	خطاب انتقاص من جهود الآخر التهويل والتهوين
الأطروحة 3	"البنى الاجتماعية، البناءات والأنساق والنظم الاجتماعية"."وقد عرفت العصور الوسطى الإسلامية منعرجا حاسما في مجال الرعاية والتكافل الاجتماعي لكل الفئات الاجتماعية بما فيها المعاقين والمستمدة من النصوص التشريعية للديانة الإسلامية السمحاء" تكرر مصطلح التنمية تسع مرات وهو يدل على تأثر الباحث بعلم اجتماع التنمية	تحول الجهاز المفاهيمي إلى النظرية البنائية التي تعبر عن الطرح المحافظ، بروز ملامح بسيطة للاعتراف بتبني الباحث لانتماء عقدي للعقيدة الإسلامية. بروز خطاب الإشادة بنظام الحكم القائم في الجزائر
الأطروحة 4	الإنتاج وخلق الثروة، الديمقراطية الاجتماعية ودولة الرفاه الحديثة، العمل في سلم القيم الاجتماعية. "ارتبط العمل لقرون بهوية اجتماعية سلبية" مع نمط **الإنتاج الرأسمالي** أخذ العامل تدريجيا في اكتساب **كرامته الاجتماعية والأخلاقية. الربع والعمل**، "إن غياب العمل المنتج للثروة والخلاق للقيمة المضافة يعني **استحالة** انبثاق الفرد الحر المستقل، الفرد المواطن.	تهويل من حسنات النظام الرأسمالي والإشادة به أيديولوجيا نيوليبيرالية
الأطروحة 5	تحسين الظروف المهنية، نسق فرعي ضمن النسق العام، النسق الاجتماعي الذي ينشأ فيه المقاول، الفرد خاضع للمنظومة القيمية ولأنماط السلوك السائدة والمرغوب فيها، الأدوار، المركز الاجتماعي، إبداع وابتكار طرق إنتاجية وتسويقية جديدة، التضامن والتساند الاجتماعي، المشاركة المجتمعية	تفسيرات تخلو من خطاب التهويل من حسنات الطرح المتبنى أو تهويل سيئات الاتجاه المعاكس، كما تخلو من تهوين سيئات الاتجاه المتبنى أو تهوين حسنات الطروحات المغايرة

الجدول رقم (4) يوضح خطاب مشكلة البحث

يبين تحليل إشكاليات مفردات البحث ما يلي:

خطاب مشكلة المفردة الأولى: يظهر في الجدول أعلاه تبني الكاتب للطرح الماركسي ، ويظهر ذلك في استخدام مفاهيم ومصطلحات الأيديولوجيا الاشتراكية مثل: مظاهر الاستغلال ، "أبشع أساليب الاستغلال والأعمال الشاقة" ، "هلاك وإعاقة ومرض الكثير من الخلائق" ، "ليزداد الغني غنى" ، "زادت من تكريس نظام استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ولكن في شكل أكثر تنظيما" ، تكررت كلمة صراع ثلاث مرات في المشكلة ، وخصصت مساحة صفحة تقريبا (19 سطرا) للتوسع في فكرة الصراع. ويظهر الطرح الأيديولوجي كذلك في الثناء على الاشتراكية وتبيان فضلها في الدفاع عن العامل في عبارة "... تقديم الكثير من التنازلات أو المزايا للطرف الضعيف (ونقصد به العامل) والتي لم تكن لتتحقق لولا دخول الفكر الاشتراكي..." فيظهر هنا خطاب التجميل لصالح الاشتراكية.

خطاب مشكلة المفردة الثانية: يظهر في هذه الإشكالية خطاب انتقاص من جهود الآخر ، التهويل والتهوين من خلال النعوت المستخدمة كقوله " رؤى **قاصرة**" ، " أهداف **آنية**" ، " تعرف اليوم انقلابا وتحولا **عميقا**" ، "**حتمية** تقدير الفرد" ، " إدارة المعرفة...كونها **أكثر** الأصول قيمة" ، " تمثل الحلقة **الأهم**".

خطاب مشكلة المفردة الثالثة: يذكر الباحث في مشكلته البحثية مصطلحات البنى الاجتماعية ، البناءات والأنساق والنظم الاجتماعية لكن دونما تحيز في الطرح ثم يخص بالذكر الحقبة الإسلامية في الرعاية بالمعاقين وينتصر للأيديولوجيا الإسلامية في قوله "وقد عرفت العصور الوسطى الإسلامية منعرجا حاسما في مجال الرعاية والتكافل الاجتماعي لكل الفئات الاجتماعية بما فيها المعاقين والمستمدة من النصوص التشريعية للديانة الإسلامية السمحاء" وهذا دون التدليل على ما ذكر بنصوص تاريخية أو دينية. كما يلاحظ تكرر مصطلح التنمية تسع مرات وهو يدل على تأثر الباحث بعلم اجتماع التنمية ، يظهر خطاب التحيز الأيديولوجي لدى الكاتب في الإشادة بدور السياسة القائمة في الجزائر اتجاه المعاقين بالرغم من أن الواقع الذي يعيشه ذوو الاحتياجات الخاصة في الجزائرية والمنحة الضئيلة التي يتحصلون عليها تنافي تماما ما يذهب إليه الباحث في تهويل دور الدولة مرتكزا في ذلك على إمضاء الجزائر لبعض الاتفاقيات الرامية إلى الاعتراف بحقوق هذه الشريحة دونما تجسيد على أرض الواقع.

خطاب مشكلة المفردة الرابعة: تنطلق مشكلة البحث من متغير "العمل" ، ويضع الباحث نقطة فارقة بين ما قبلها وما بعدها ، هذه النقطة الفاصلة هي الأجارة le salariat فيرى أن ما قبلها ولعدة قرون مرحلة كان ينظر فيها للعمل كمرادف للبؤس والتعب والخلو من الكرامة الإنسانية وبالتالي فكل الفترة الزمنية السابقة كانت مشحونة بمفهوم سلبي عن العمل ، الباحث لم يحدد أي المجتمعات كان يقصد ، ثم ما مدى صحة ما يذهب إليه ؟ هنا نلتمس من الخطاب المدرج في الفقرات الأولى حسب مربع الأيديولوجيا تشويها لمفهوم العمل قبل الأجارة وربطه فقط بكل ما هو سلبي وفي ذلك تهوين من حسنات حقب تاريخية كانت فيها بعض الشعوب والديانات تقدس العمل ، يذكر الباحث مفاهيم الإنتاج وخلق الثروة ، الديمقراطية الاجتماعية ودولة الرفاه الحديثة ، العمل في سلم القيم الاجتماعية كما هو موضح في الجدول ، ثم يوضح الكاتب كيف أن العمل كان في القرن السادس عشر يهدف فقط إلى إشباع حاجات الجماعة وأنه لم يكن منفصلا عن باقي النشاطات الإنسانية بل كان مدمجا وذائبا فيها ، وبدء من القرن 18 "مع نمط **الإنتاج الرأسمالي** أخذ العامل تدريجيا في اكتساب **كرامته الاجتماعية والأخلاقية**" وفي العبارة الأخيرة نجد خطاب التهويل من حسنات الرأسمالية إذ ينسب لها الباحث كل الفضل في اكتساب العامل لكرامته الاجتماعية وحتى الأخلاقية وهو هنا يقع في مطب التحيز الأيديولوجي لصالح الرأسمالية خصوصا وأنه يهون من سيئاتها بل ويتغاضى عنها تماما ولا يطرح الرؤى التي تنتقدها كما يقدم مقولات لمفكرين كلهم رأسماليين بينما يكتفي بذكر أسماء فقط للبعض الآخر كذكره لماركس وهنا كذلك نلتمس التحيز في الطرح. في قوله "فاعتبار انبثاق العمل لحظة حاسمة ضمن سيرورة الحداثة ، مرتبط بما أسس له من مجتمع جديد عل أنقاض مجتمع الامتيازات والمكانات الموروثة ، وتمكينه من تحرير الفرد ماديا معززا بذلك ومحصنا حريته الشخصية وداعما المجتمع المدني في مقابل المجتمع السياسي الذي جسدته الدولة" يتحقق أكثر ما تحدثنا عنه من تبني مشكلة البحث للأيديولوجيا الرأسمالية بل ونستطيع أن نستنتج أن المشكلة تتبنى الأيديولوجيا النيوليبيرالية.

خطاب مشكلة المفردة الخامسة: تنطلق المشكلة الأخيرة مباشرة من الدول النامية وأهمية المسؤولية الاجتماعية للمقاولاتية فيها وأدوارها ، ثم ينتقل الحديث إلى الشباب المقاولين وكيف تنمى المسؤولية الاجتماعية لديهم ، ليتم تخصيص الحديث بعدها والتطرق للدولة الجزائرية ونشر

ثقافة المقاولة. المشكلة تعتمد على جملة من المفاهيم - والمذكورة في الجدول أعلاه- وهي تعبر عن المدخل النظري المتبنى ألا وهو مدخل نظرية النسق الاجتماعي ، وبالرغم من ذلك فتفسيرات الباحث وخطابه يخلو من التحيز أي من خطاب التهويل من حسنات الطرح المتبنى أو تهويل سيئات الاتجاه المعاكس ، كما يخلو من تهوين سيئات الاتجاه المتبنى أو تهوين حسنات الطروحات المغايرة وعليه فهو طرح علمي غير مؤدلج.

3.2- الخطاب الأيديولوجي للمدخل النظري

المدخل النظري أو ما يعرف بالمقاربة النظرية تعدّ ضرورة بحثية لأي دراسة علمية أكاديمية ، كونها توجّه الباحث وترشده ضمن إطار فكري ومنطقي معين ، من خلال جملة من المفاهيم الدقيقة التي تستند عليها كل مقاربة ، ومن المهم الإشارة إلى العلاقة الارتباطية بين طبيعة الموضوع والمدخل النظري المتبنى ؛ حيث تكون بعض المقاربات أنسب من غيرها في مواضيع بعينها ولا تكون تلك المداخل النظرية قادرة على تفسير مواضيع أخرى ، لذا فإنّ وقوع اختيار الباحث على مقاربة أو عدة مقاربات لا يتحكم فيها تبني الباحث لأيديولوجيا معينة فقط بل طبيعة الموضوع لها دخل في ذلك ، وهنا نرجع حكمنا على تبني أيديولوجيا معينة إلى مربع الأيديولوجيا فكلما كان هناك تحيز (تجميل ، تشويه/ تهويل ، تهوين) كلما كان الحضور الأيديولوجي أقوى.

مفردات العينة	المدخل النظري المصرح به
الأطروحة 1	نظرية الإدارة العلمية
الأطروحة 2	غير مصرح به
الأطروحة 3	غير مصرح به
الأطروحة 4	غير مصرح به
الأطروحة 5	نظرية النسق الاجتماعي لتالكوت بارسونز

الجدول رقم (5) يوضح خطاب المدخل النظري

كما هو موضح في الجدول فقد تم التصريح بالمدخل المتبنى بشكل واضح في أطروحتين من أصل خمس أطروحات ، والسؤال الذي نطرحه لماذا يتجاوز الباحثون هذه المحطة المهمة في البحث ولا يكشفون عن خلفيتهم النظرية والفكرية هل هو الخوف من المناقشة إذا وجد فيها مناقش لا ينسجم مع ما يمكن أن يختاره الباحث من إطار تفسيري؟ أم هل هو العجز المعرفي الذي يعكس ضعف التكوين لدى الباحث الجزائري؟ أم هل هو الكاووس chaos المعرفي الذي بات لازمة في أبحاثنا؟

4.2- الخطاب الأيديولوجي لنتائج البحث وتحليلها

إن تحليل خطاب نتائج البحث قد أفضى إلى نتيجة هامة تتمثل في اهتمام الباحثين محل الدراسة بما يتعارف عليه بالجانب الميداني ؛ أي الشق الإمبريقي في الدراسات ؛ حيث تميز تحليل النتائج بدرجة عالية من الطرح "الموضوعي" المبني على ما يخبرنا به الميدان ؛ إذ حافظ الباحث على قدر هام من المسافة بين قناعاته وطرحه النظري وبين ما يؤكده أو ينفيه الميدان بمبحوثيه (الأطروحة 1)، وربما يرجع ذلك بالأساس إلى غياب القناعات بالأساس للباحثين الذين لم يصرحوا بمدخلهم النظري ، هذا من جهة ، والسؤال الذي يطرح من جهة أخرى هو هل يفهم الميدان ويفسر من دون إطار نظري أو نظرية تجعل الوقائع المشتتة ممكنة الفهم والتفسير؟

وبذلك نخلص إلى أيديولوجيا مشتركة بين الباحثين ؛ تتجسد في عدم اعتقادهم بجدوى السوسيولوجي إلا في ثوبه الإجرائي الإمبريقي البحت.

5.2- الخطاب الأيديولوجي للمراجع المعتمدة

يتضح خلال النتائج أن غالبية الأطروحات محل الدراسة تستخدم عددا لا بأس به من المراجع يتراوح بين 87 و172 مرجعا ، حيث تحتل المراجع باللغة العربية نسبة 64.74% مقابل 3.64% للمراجع المترجمة ، في حين بلغت نسبة المراجع الأجنبية الفرنسية 28.702% مقابل نسبة 2.89% للمراجع الأجنبية الانجليزية.

مفردات العينة (الأطروحات)	نسبة المراجع العربية	نسبة المراجع المترجمة	نسبة المراجع الفرنسية	نسبة المراجع الانجليزية
الأطروحة 1	%89.65	%5.74	%1.14	%3.44
الأطروحة 2	%76.78	%1.78	%19.64	%1.78
الأطروحة 3	%85.61	%2.05	%4.79	%7.53
الأطروحة 4	%4.8	%4	%91.2	%00
الأطروحة 5	%66.86	%4.65	%26.74	%1.74
متوسط كل نسبة	%64.74	%3.644	%28.702	%2.89

جدول رقم (6) يوضح نسب المراجع المستخدمة في العينة (عربية ، مترجمة ، فرنسية ، انجليزية)

وهذه النتيجة تعكس واقع الحصول على المعرفة العلمية من المراجع العربية التي تعتبر في غالبها مراجعا وليست مصادرا ؛ أي أن الباحثين يعتمدون على المستوى الثاني في الحصول على المعرفة مقابل نسبة ضئيلة تتجه إلى الاعتماد على الكتب المؤسِّسة (المصادر) كتلك المترجمة ، ثم تأتي المراجع الأجنبية في لغتها الأصلية بنسبة اعتماد تصل إلى30% ، وهذا يرجع على الأرجح إلى تكوين الباحثين باللغة العربية.

وإذا كان أحمد موسى بدوي يرجع نسبة مماثلة تقريبا لهذه الدراسة في دراستة إلى "عدم كفاية المكتبات العلمية ، وانخفاض مستوى إجادة اللغة غير الأصلية ، وهذا ما يؤدي إلى انخفاض قدرة الباحثين على التواصل مع الحركة العلمية العالمية في مجالات تخصصهم"[30] فإن هذه الدراسة تنفي القضية الأولى حول عدم كفاية المكتبات العلمية-وإن كان ذلك ينطبق على واقع الجامعة الجزائرية والحركة الثقافية بمدينة سطيف محلّ الدراسة التي تفتقر إلى مراكز ثقافية أجنبية- وهذا مرده إلى كون الإنترنت قد حلّت هذا المشكل بشكل كبير مع الانفتاح على المكتبات العالمية إلكترونيا وتوفر الأرشيفات المفتوحة للتحميل المباشر للملفات والكتب ، وبهذا نرجع أمر عدم مواكبة الحركة العالمية العلمية إلى ضعف تكوين الباحثين بالدرجة الأولى سواء من ناحية اللغة ، أو الوعي بضرورة مواكبة جديد النظريات وما يدور في الساحة العلمية لعلم الاجتماع.

خطاب المراجع يظهر توجها آخر تتحكم فيه اللغة التي تسيطر على الباحث؛ إذ استخدم الباحثون مراجع لمؤلفين عرب بمتوسط 79,72% ومراجع مترجمة بمتوسط 3,55% مقابل متوسط 16,70% فقط للمراجع الأجنبية وهذا مرده للغة التي يتقنها الباحثون بصفة عامةّ ، وتعوّد أقسام علم الاجتماع في جامعة سطيف2 تدريس الطلاب باللغة العربية وبمراجع على الأغلب من المشرق العربي ؛ حيث المكتبات الجامعية ثرية بالمراجع المشرقية مقابل عدد محدود من المراجع المغاربية أو تلك الغربية أو المكتوبة بلغات أجنبية ، فالطلاب الذين أصبحوا فيما بعد أساتذة تكوينهم مشرقي أكثر مما هو مغاربي أو يعتمد على مصادر أجنبية ، من هنا لن نجد أي تأثر بأيديولوجيا بذاتها بمعنى التبني المطلق أو التشبع الفكري بما تدعو إليه فمن غير المنطقي أن يكون هناك تشبع بفكر أيديولوجيا ما والباحث بعيد كل البعد عن المصادر التي نظرت لهذا التوجه أو الآخر ، فمنبع استخدام الباحثين لمصطلحات ومفاهيم تنتمي لأيديولوجيا معينة مرده استخدام سطحي أو غير واعي أكثر منه استخدام ناجم عن قناعة أو تبني أيديولوجيا معينة.

في حين سجلت **مفردة واحدة** اختلافا كبيرا في نسبة الاعتماد على المراجع ؛ حيث سجلت نسبة 4,8% فقط كنسبة لاستخدام المراجع العربية ونسبة 4% للمراجع المترجمة في حين شغلت المراجع المعتمدة باللغة الفرنسية نسبة 91,2% من إجمالي المراجع المعتمدة ويعكس هذا من جهة أخرى التأثر بالمدرسة الفرنكوفونية في السوسيولوجيا ، والاكتفاء بها دون غيرها وكأنها تعكس وتختزن الخبرة السوسيولوجية البشرية. خصوصا وأن اللغة الفرنسية ليست بلغة علم إذا ما قارناها بالانجليزية وبهذا يغيب المبرر "العلمي" في الاعتماد على اللغة الفرنسية ويحيل بشكل أو بآخر على وجود غلاف أيديولوجي متأثر برداء فرنكفوني.

6.2- الخطاب الأيديولوجي للخاتمة

مفردات العينة	العبارات والكلمات المفتاحية	الخطاب
الأطروحة 1	الصراع مستمر، إفرازاته تؤثر على الاستقرار الاجتماعي، بل وتهدده، المورد البشري وثقافته هي الفاصل في نجاح التنظيم من عدمه، التدريب لا يصلح ما أفسده التوظيف، الاعتماد على يد عاملة محلية غير مؤهلة، تدخل القرار السياسي في توظيف العمال، ضرورة تطبيق مبدأ العدالة والمساواة، "إن التنمية الشاملة هي نتاج تنمية إدارية، هذه الأخيرة نتاج تنمية بشرية فلا بد من الاهتمام بالتنمية البشرية، "إن شراء السلم الاجتماعي يكون بإحقاق الحقوق وإحلال العدل والمساواة"، الحوكمة والإدارة الرشيدة، النية الصادقة، تسريح العمال.	طرح أقرب إلى الموضوعية منه إلى الدفاع عن خطاب أيديولوجي بعينه بدليل استمرار استخدامه مصطلحات الصراع ورغم ذلك فالباحث يقر بضرورة الاعتماد فقط على اليد العاملة المؤهلة، ضرورة اتخاذ قرارات جريئة في تسريح الفائض من اليد العاملة وهي حلول تناقض ما تدعو إليه الأيديولوجيا الاشتراكية
الأطروحة 2	"التعلم لا يتحقق إلا عندما تستحدث تغييرات على مستويات المعرفة لدى الأفراد من خلال تراكم المعرفة **الجديدة** لديهم"، "طبيعة المنظومة القيادية في المؤسسة الاقتصادية الجزائرية لا تساند بناء استراتيجية للتدريب ذات فعالية في المؤسسة الاقتصادية الجزائرية"	خاتمة تعتمد أساسا على نتائج الدراسة الإمبريقية
الأطروحة 3	الخطط التنموية، مبدأ المواطنة، الحرية والاختلاف والمساواة، "...تسعى حكومات غربية وإسلامية إلى تأسي المفهومات التي ترتكز عليها هذه المداخل لأجل تعزيز الدور الاجتماعي للدولة.."، "...تقدم إجابات واضحة عن ماهية الإنسان في المجتمع المعاصر"، "...ولما كان الأمر كذلك فقد أولت العديد من الدول اهتماما خاصا بظاهرة الإعاقة، ومن خلالها للمعاقين، والجزائر تعد إحدى الدول التي قامت بعديد المجهودات في هذا الصدد ؛ حيث سنت العديد من التشريعات والقوانين، وأنشأت المراكز المتخصصة بغية التكفل الأمثل بهذه الشريحة العامة من المجتمع"	الثناء على جهود الدولة رغم ما توصلت له الدراسة من نتائج ورغم بداية الخاتمة التي تؤكد موطن الخلل المتمثل في إهمال الدولة لهذه الشريحة (ذوي الاحتياجات الخاصة) وهذا ميل أيديولوجي وسياسي للإشادة بالدولة التي ينتمي لها الباحث فوقع في شيء من التناقض.
الأطروحة 4	"**قوة** الثورة التي أحدثها انبثاق الاقتصادي مطلع القرن السابع عشر كشكل جديد و**مميز** من الواقع الاجتماعي، له **قدرة كبيرة** على هيكلة **كل** تفاصيل الحياة الاجتماعية خاصة في بعدها السياسي"، "التحدي التنموي الذي فشلت الجزائر دولة ومجتمعا في رفعه إلى الآن" الدعوة إلى الاستناد إلى براديغم تفسيري صلب ساهم في وضعه أعلام المدرسة السوسيولوجية الجزائرية.	العبارة الأولى تحمل خطاب تهويل لصالح الرأسمالية أهم سمات مطلع القرن 17. العبارة الثانية تحمل طرحا موضوعيا لا يعتمد على الإشادة بالنظام السياسي القائم بل يشخصه ويحكم عليه موضوعيا بالفشل التنموي إلى الآن. يؤكد الباحث ولاءه لما أسماه المدرسة السوسيولوجية الجزائرية، وهذا يجعلنا نطرح تساؤلا إزاء هذه المدرسة السوسيولوجية الجزائرية، أليست امتدادا للمدرسة الغربية الدوركايمية كما يصفها البعض أم هي جزائرية خالصة؟
الأطروحة 5	فاعلين اقتصاديين واجتماعيين، تطوير فعل اجتماعي، المشاركة الفعالة في تنمية المجتمع، النسق الاجتماعي، العوامل البيئية المحفزة، "التساند والاعتماد المتبادل بين مؤسسات النسق الاجتماعي وتكامل أدوارها"	التفسيرات كلها متطابقة مع تبني الباحث للمدخل النظري الذي ظل وفيا له ألا وهو مدخل النسق الاجتماعي

جدول رقم (7) يوضح خطاب الخاتمة

خطاب خاتمة المفردة الأولى: كما في الجدول أعلاه فإن الباحث ختم دراسته باستنتاجات موضوعية تخلو من التحيز الأيديولوجي للطرح الاشتراكي، حيث جاءت الخاتمة كمحاكاة لنتائج البحث التي توصل إليها، ورغم استخدامه لمفهوم الصراع مرة أخرى، إلا أن الباحث يقرّ بأفكار رأسمالية تتناقض مع روح الاشتراكية، فيدعو إلى ضرورة الاعتماد فقط على اليد العاملة المؤهلة، ضرورة اتخاذ قرارات جريئة في تسريح الفائض من اليد العاملة بل وينتقد في أحد الأمثلة التي قدمها القرارات السياسية التي تهدف إلى شراء السلم الاجتماعي والأمني عن طريق طلب الدولة من مؤسسات الجنوب ضرورة إعطاء الأولوية في التوظيف لسكان الجنوب بغض النظر عن المؤهلات التي يمتلكونها.

خطاب خاتمة المفردة الثانية: من تحليل خطاب خاتمة المفردة الثانية ومن الجدول أعلاه نستنتج أن خطاب الخاتمة كان حوصلة عامة للبحث ونتائجه وعينته فكان الطرح

موضوعيا وعلميا يخلو من التحيز الأيديولوجي وجاء مرتكزا بالأساس على النتائج التي خلصت إليها الدراسة.

خطاب خاتمة المفردة الثالثة: يحمل خطاب المفردة الثالثة ثناء على جهود الدولة رغم ما توصلت له الدراسة من نتائج ورغم بداية الخاتمة التي تؤكد موطن الخلل المتمثل في إهمال الدولة لهذه الشريحة (ذوي الاحتياجات الخاصة) وهذا ميل أيديولوجي وسياسي للإشادة بأيديولوجية الدولة التي ينتمي لها الباحث، فوقع في شيء من التناقض بين نتائج دراسته وخلاصته التي يطرحها في الخاتمة والتي ترمي إلى التحيز لسياسات الدولة المنتهجة فالقارئ للخاتمة يستخلص أن فئة ذوي الاحتياجات الخاصة في الجزائر محاطون بتكفل تام ورعاية متكاملة تضمن لهم العيش الكريم وتتوافق مع احتياجاتهم وتطلعاتهم الشيء غير المتوفر على أرض الواقع وندلل على ذلك بالمنحة الزهيدة التي تمنح لهذه الشريحة والتي لا تتعدى أربعة آلاف دينار، المبلغ الذي لا يغطي حتى احتياجات الفرد الشهرية من أكل وشرب.

خطاب خاتمة المفردة الرابعة: جاء في خطاب الخاتمة عبارات أساسية كما في الجدول: "**قوة** الثورة التي أحدثها انبثاق الاقتصادي مطلع القرن السابع عشر كشكل جديد **ومميز** من الواقع الاجتماعي، له قدرة **كبيرة** على هيكلة **كل** تفاصيل الحياة الاجتماعية خاصة في بعدها السياسي"، العبارة تحمل خطاب تهويل لصالح الرأسمالية أهم سمات مطلع القرن 17 من خلال استخدام صفات وعبارات تدل على المبالغة في وصف الشيء (قوة، مميز قدرة كبيرة، كلّ). "التحدي التنموي الذي فشلت الجزائر دولة ومجتمعا في رفعه إلى الآن". العبارة الثانية تحمل طرحا موضوعيا لا يعتمد على الإشادة بالنظام السياسي القائم بل يشخصه ويحكم عليه موضوعيا بالفشل التنموي إلى الآن. الدعوة إلى الاستناد إلى براديغم تفسيري صلب ساهم في وضعه أعلام المدرسة السوسيولوجية الجزائرية. يؤكد الباحث ولاءه لما أسماه المدرسة السوسيولوجية الجزائرية، وهذا يجعلنا نطرح تساؤلا إزاء هذه المدرسة السوسيولوجية الجزائرية، أليست امتدادا للمدرسة الغربية الدوركايمية كما يصفها البعض أم هي جزائرية خالصة؟

خطاب خاتمة المفردة الخامسة: التفسيرات التي يطرحها الباحث في الخاتمة كلها متطابقة مع تبنيه للمدخل النظري الذي ظل وفيا له ألا وهو مدخل النسق الاجتماعي كتبنيه لمفاهيم الدور، المكانة، النسق، التساند والتكامل، ولكن دونما تحيز في الخطاب إذ كانت استخداماته للمدخل النظري في إطار علمي بلا تجميل أو تشويه، أو تهوين وتهويل.

3- نتائج الدراسة

أثبت التحليل النقدي لخطاب الأطروحات جملة من النتائج:

- التناقض المتواجد في خطاب المفردة الواحدة؛ إذ يتبنى صاحب الأطروحة أكثر من أيديولوجية واحدة بل ويتم الجمع بين المتضاد منها وهذا ما يجسد فرضية التيه الأيديولوجي في دراسات علم الاجتماع في أحد الأطروحات الخمس.

- تميز خطاب الإشكالية بالحضور الأيديولوجي القوي مقابل عدم حضوره بشكل جلي في كل من خطاب النتائج وخطاب الخاتمة. وهذا راجع لاعتماد الأطروحات الخمس على التكميم فتعلقت بذلك النتائج والخاتمة بما هو إحصائي بحت.

- غياب المدخل النظري المتبنى في معظم مفردات العينة؛ حيث تم التصريح به في مفردتين اثنتين مقابل ثلاثة لم تتم الإشارة له بشكل صريح.

- الميل إلى الدراسات الإمبريقية الميدانية والاهتمام بها.

- بروز التوجه البنائي الوظيفي ومن ورائه الاتجاه المحافظ في ثلاثة مفردات مقابل خطاب تيه أيديولوجي في مفردتين.

- خطاب المراجع يظهر توجها آخر تتحكم فيه اللغة التي تسيطر على خيارات الباحثين العلمية والتي تتحكم بمستوى منتج المادة العلمية التي تبتعد عن المصادر وتعتمد على المراجع.

في ختام هذه الدراسة اتضح وجود أنواع ثلاثة أساسية للخطاب في أطروحات دكتوراه التنظيم والعمل بجامعة مُحَمَّد لمين دباغين سطيف2:

الخطاب العلمي: "إن الخطاب العلمي حدث لغوي ومنتوج معرفي متخصص يشمل ترسانة من المفاهيم العلمية الخاصة بميدان معرفة ما، والمصطلحات اللغوية الواصفة الشارحة لتلك المفاهيم الضابطة لها المحددة الدالة عليها"[31]، ويكاد يخلو هذا الخطاب من التحيز رغم تبني الباحث لمدخل نظري، فلا نلمس في تحليلنا النقدي للخطاب -تقريبا- محاولات للتهويل من إيجابيات الطرح المتبنى أو مهاجمة وتهويلا لسيئات الآخر، ولا تهوينا لسيئات الاتجاه المتبنى مقابل تهوين لإيجابيات الطرح الآخر، بل يتسم الخطاب بالاعتراف بسلبيات الاتجاه المتبنى ويتحلى بالروح العلمية المبنية أساسا على مبدأ الشك مقابل مناهضة المطلقية أين تجسد في الأطروحة الخامسة.

الخطاب الأيديولوجي وهو الخطاب الذي يتصف بعكس ما ذكر آنفا، هو خطاب يستميت في الدفاع عن الطرح الأيديولوجي ويرى فيه الحقيقة المطلقة والقدرة التفسيرية الوحيدة للظاهرة محل الدراسة مقابل تجاهل مجهودات مداخل نظرية مناقضة أو كما أشرنا عبر مربع الأيديولوجيا (تجميل وتشويه/التهويل والتهوين).

الخطاب المشوش أو خطاب التيه الأيديولوجي: وهو خطاب يعبّر عن تردد الباحث في تبني مدخل نظري ونموذج تفسيري معيّن، كما يمكن أن يؤشر على تعارض قناعات الباحث مع الاختيار الذي قام به فيستخدم جهازا مفاهيميا معتادا عليه قد يناقض الطرح المتبنى، كما قد يؤشر على عدم تحكم الباحث في الجهاز المفاهيمي لكل نظرية على حدى وضعف الوعي بفرضيات وتفسيرات كل مدخل نظري، كما أن دراسة موضوع في علم اجتماع التنظيم والعمل داخل مؤسسات جزائرية ينعكس على طبيعة الفهم والتفسيرات؛ إذ إن الدارس لاقتصاد وسياسة الجزائر سيفهم مدى التناقضات المتواجدة في مستوى مؤسسات هذا البلد؛ إذ لا يزال ما يمكن تسميته بـ"العادات الاشتراكية" يلقي بظلاله على القطاع العمومي بمؤسساته وإداراته ومنهجية عمله، أما النهج الرأسمالي الذي يفترض أنه قد تعمّم وبخاصة في مؤسسات القطاع الخاص، فإنه لا يزال هو الآخر حبيس هذا موروث ثقافي وممارسات اشتراكية عديدة تحول بينه وبين مواكبة العصرنة والاقتناع بضرورة تنمية المورد البشري.

إن التذبذب في الخيارات الأساسية للدولة والمجتمع يؤثر من دون شك على اختيارات الباحثين في تبني أطروحات تواكب هذه الخيارات، على عكس ما حصل في عقود خلت أين جنّدت الدولة علم الاجتماع ليواكب خيارها السياسي والاقتصادي في انتهاج الاشتراكية فأضحى وقتها علما "مؤدلجا".

مراجع الدراسة

1. أحمد موسى بدوي ، **الأبعاد الاجتماعية لإنتاج واكتساب المعرفة: حالة علم الاجتماع في الجامعات المصرية** ، سلسلة أطروحات الدكتوراه (76)، ط1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، تموز/يوليو 2009.
2. السيد عبد العاطي السيد ، **علم اجتماع المعرفة**، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2003.
3. أمين حافظ السعدني ، **أزمة الأيديولوجيات السياسية**، الهيئة العامة لقصور الفلسفة ، القاهرة ، 2014.
4. بشير إبرير ، **دراسات في تحليل الخطاب غير الأدبي** ، ط1 ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، 2010.
5. بهاء الدين مُحَمَّد مزيد ، **تبسيط التداولية: من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي**، ط1 ، شمس للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2010.
6. حسين عبد الحميد أحمد رشوان ، **الأيديولوجيا والمجتمع**، المكتب الجامعي الحديث ، الاسكندرية ، 2009
7. ديفيد هوكس ، **الأيديولوجيا**، ت: إبراهيم فتحي ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ،2000.
8. ريموند ويليامز ، **الكلمات المفاتيح**، ت: نعيمان عثمان ، ط1 ، المشروع القومي للترجمة ، القاهرة ، 2005.
9. سعد عيد مرسي ، **الأيديولوجيا ونظرية التنظيم**، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2000.
10. شحاتة صيام ، **النظرية الاجتماعية: من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة**، ط1 ، مصر العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2009.
11. عبد الله العروي ، **مفهوم الإيديولوجيا**، ط8. المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، بيروت ، لبنان ،
12. عبد الله ابراهيم ، **البحث العلمي في العلوم الاجتماعية** ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء-المغرب ، بيروت-لبنان ، 2008
13. كارل ماركس ، فريديريك إنجلز ، **الإيديولوجية الألمانية**، ت: فؤاد أيوب ، ط1 ، دار الفرابي ، بيروت لبنان ، 2016.
14. كارل مانهايم ، **الأيديولوجيا واليوتوبيا: مقدمة في سوسيولوجية المعرفة**، ت: مُحَمَّد رجا عبد الرحمان الديريني ، ط1 ، شركة المكتبات الكويتية ، الكويت ، 1980.
15. مُحَمَّد سبيلا ، عبد السلام بنعبد العالي ، **الإيديولوجيا**، ط2 ، دفاتر فلسفية نصوص مختارة ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، 2006.
16. نادية هيشور ، **الصراع الاجتماعي بين النظرية والممارسة** ، دار بهاء الدين ، قسنطينة ، الجزائر ، ط1 ، 2008.
17. ناصر قاسيمي ، **التحليل السوسيولوجي: نماذج تطبيقية**، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2017.
18. نورمان فيركلف ، **الخطاب والتغير الاجتماعي**، ت: مُحَمَّد عناني ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، 2015.
19. Terry Eagleton, **Ideology: An introduction,** Verso, London-New York,1991.
20. Bourdieu Pierre, Boltanski Luc. **La production de l'idéologie dominante**. In: Actes de la recherche en sciences sociales. Vol. 2, n°2-3, juin 1976. La production de l'idéologie dominante.

https://www.persee.fr/doc/arss_0335-5322_1976_num_2_2_3443

Fichier pdf généré le 22/04/2018

21. Eliezer Ben-Rafael, **Sociology and ideology,** International studies in sociology and social anthropology,Brill Leiden-Boston, 2003

الهوامش

1. بهاء الدين مُحَمَّد مزيد ، **تبسيط التداولية: من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي**، شمس للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2010 ، ص 105.
2. نورمان فيركلف ، **الخطاب والتغير الاجتماعي** ، ت: مُحَمَّد عناني ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، 2015 ، ص27.
3. بهاء الدين مُحَمَّد مزيد ، مرجع سبق ذكره ، ص 106.[1]
4. أمين حافظ السعدني، **أزمة الأيديولوجيات السياسية** ، الهيئة العامة لقصور الفلسفة ، القاهرة ، 2014 ، ص17.
5. يموند ويليامز ، **الكلمات المفاتيح** ، ت: نعيمان عثمان ، المشروع القومي للترجمة ، القاهرة ، ط1 ، 2005 ، ص196.
6. سعد عيد مرسي ، **الأيديولوجيا ونظرية التنظيم**، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2000 ، ص ص 6- 7.
7. السيد عبد العاطي السيد ، **علم اجتماع المعرفة**، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2003 ، ص ص106- 107.
8. ارل ماركس ، فريديريك إنجلز ، **الإيديولوجية الألمانية**، ت: فؤاد أيوب ، ط1 ، دارالفرابي ، بيروت لبنان ، 2016 ، ص ص69 ،68.
9. سعد عيد مرسي بدر ، مرجع سبق ذكره ، ص ص 7-8.
10. كارل ماركس ، فريديريك إنجلز ، المرجع نفسه ، ص ص 69 ، 71.
11. كارل مانهايم، **الأيديولوجيا واليوتوبيا: مقدمة في سوسيولوجية المعرفة** ، ت: مُحَمَّد رجا عبد الرحمان الديريني ، شركة المكتبات الكويتية ، الكويت ، ط1 ، 1980 ، ص129.
12. مُحَمَّد سبيلا ، عبد السلام بنعبد العالي، **الإيديولوجيا** ، دفاتر فلسفية نصوص مختارة ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط 2 ، 2006 ، ص19.
13. Terry Eagleton, **Ideology: An introduction,** Verso, London-New York,1991, pp156,158.
14. Bourdieu Pierre, Boltanski Luc. **La production de l'idéologie dominante**. In: Actes de la recherche en sciences sociales. Vol. 2,n°2-3, juin 1976. La production de l'idéologie dominante. P55

doi : https://doi.org/10.3406/arss.1976.3443 https://www.persee.fr/doc/arss_03355322_1976_num_2_2_3443 Fichier pdf généré le 22/04/2018

15. حسين عبد الحميد أحمد رشوان، **الأيديولوجيا والمجتمع** ، المكتب الجامعي الحديث ، الاسكندرية ، 2009 ، ص43.
16. المرجع نفسه ، ص44.
17. المرجع نفسه ، ص44.
18. Eliezer Ben-Rafael, **Sociology and ideology**, International studies in sociology and social anthropology, Brill Leiden-Boston, 2003, p91.
19. أحمد جعفر حسين مُحَمَّد أبل الكندري ، **الأيديولوجيا وعلم الاجتماع: دراسة في النظرية الاجتماعية**، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، 2004 ، ص 30.
20. كارل مانهيام ، مرجع سبق ذكره ، ص ص 181 ، 182.
21. نبيل مُحَمَّد توفيق السمالوطي ، مرجع سبق ذكره ، ص33.
22. المرجع نفسه ، ص ص33-35.
23. علي ليله ، **بناء النظرية الاجتماعية** ، الكتاب الأول ، المكتبة المصرية ، الإسكندرية ، د.س ، ص 123.
24. ريمون روية ، **الممارسة الأيديولوجية** ، ت: عادل العوا ، منشورات عويدات ، بيروت-باريس ، ط 2 ، 1989 ، ص ص32-33.
25. بهاء الدين مُحَمَّد مزيد ، **تبسيط التداولية: من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي**، شمس للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2010 ، ص 114.
26. تم اختيار عناصر التحليل وفقا لنموذج أحمد موسى بدوي ببعض التكييفات بما يتوافق وأهداف هذه الدراسة ، انظر أحمد موسى بدوي ، مرجع سابق ، ص209.
27. نادية هيشور ، الصراع الاجتماعي بين النظرية والممارسة ، دار بهاء الدين ، قسنطينة ، الجزائر ، ط1 ، 2008 ، ص21.
28. عبد الله إبراهيم ، **البحث العلمي في العلوم الاجتماعية** ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء-المغرب ، بيروت-لبنان ، 2008 ، د ص.
29. ناصر قاسيمي ، **التحليل السوسيولوجي: نماذج تطبيقية**، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2017 ، ص36.
30. أحمد موسى بدوي ، مرجع سبق ذكره. ص267.
31. بشير إبرير ، **دراسات في تحليل الخطاب غير الأدبي** ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط 1 ، 2010 ، ص144.

السكوت عن قضية "النبوّة" في فلسفة ابن باجة... الدلالات والأبعاد.

The Absence of the Issue of "Prophecy" in Ibn Badja's Philosophy … significations and dimensions

تاريخ الإرسال:29-01-2019 تاريخ القبول: 2020/04/12

عبد القادر بلعالم، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف
belalemabdelkader@yahoo.fr

الملخص

أثار ابن باجة قضية فلسفية غريبة غرابة تنحو منحى المغامرة الفكرية الشاردة ، لم يجرؤ الفلاسفة المسلمون على التطرق إليها بصورة نقدية صارمة ، وهي تلك المتعلّقة بمسألة "النبوّة" وما يتّصل بها من جدل حول العلاقة بين المعرفة المتأتية عن طريق العقل ، والمعرفة التي مصدرها الوحي. ووجه الغرابة فيما أثاره ، هو سكوته عنها ، وإزاحتها وإخراجها من دائرة التفكير الفلسفي ، والتحجّج بقدرة العقل البرهاني على أداء الوظيفة المعرفية المنوطة بها ، وبلوغ الأفق نفسه ، والغاية الأنطولوجية التي تسعى إليها. ولذلك تتجه فلسفته الى إعطاء الأولوية للعقل على الوحي ، وتفضيل الفلاسفة على الأنبياء. وأنّ الفيلسوف/ المتوحّد يستبطن في وعيه وتفكيره الفلسفي كلّ ممكنات النبوة ، ويستطيع أن يحقّق معرفيا ووجوديا عن طريق الإمكان والممكن الطبيعي البشري فيه ، كلّ ما يحقّقه النبي عن طريق المنة والإمكان الإلهي. ليمّكن ، بذلك ، للفيلسوف من ممارسة الوظيفة النبوية ، فيكون نبيا ممكنا. وهذه الوظيفة المعرفية ، والخاصية الوجودية ذات المسحة النبوية التي يتمثّلها الفيلسوف ، هي التي جعلت ابن باجة يمتنع عن إفراد موقع وحيز للنبوة والنبي في نسقه الفكري الفلسفي ، وإخراجه من مدينته الكاملة لاكتفائها بدور الفيلسوف في تحقيق مستلزماتها ، قياسا على موقف أفلاطون من الشعر والشعراء ، حينما أقدم على إخراجهم من جمهوريته ، مع الفرق والفارق في المنطلق والاتجاه والأفق. فلماذا سكت ابن باجة عن النبوة في فلسفته ؟ وما خلفيات ودواعي ومبررات عدم حاجة مدينته الكاملة للنبي ؟ وبأي معنى يمارس الفيلسوف وظيفة نبوية ؟ وماهي الآفاق الفلسفية التي يتطلّع إليها من خلال هذا الموقف الفلسفي الشارد عن النسق المعرفي السائد؟ هذه التساؤلات هي ما سنؤصّل البحث فيها ونفصّله في هذه الدراسة المتواضعة.

الكلمات المفاتيح: النبوة ، الفيلسوف المتوحد ، المدينة الكاملة ، العقل المستفاد ، العقل الفعّال

Résumé

Ibn Baja a soulevé une question philosophique très étrange et tellement aventureuse que les philosophes musulmans eux-mêmes n'ont pas osé l'aborder de manière rigoureuse et critique. Cette question est celle de la « prophétie» et le rapport problématique qui en découle en termes de conflit et de controverse, à savoir le rapport Raison/ Révélation. Etant exclusivement convaincu par le pouvoir argumentatif de la Raison, Ibn Baja opte pour la primauté de la Raison sur la Révélation, en accordant aux philosophes le même pouvoir accordé jadis aux prophètes. En effet, il considère que le philosophe / solitaire est bien placé , que ce soit à titre cognitif ou à titre ontologique, pour qu'il puisse accomplir philosophiquement toutes les taches de la prophétie uniquement en se référant au potentiel humain possible et naturel qui lui est inhérent, et c'est pour cela justement que le philosophe est un prophète possible. C'est pourquoiIbn Baja a exclu la prophétie et le prophète de son système philosophique et les a renvoyés hors de sa cité utopique, suivant en cela la tradition de Platon qui consistait à chasser les poètes de toute la sphère république, quoi que certaines différences de principes entre les deux demeurent. Pourquoi donc Ibn Baja a-t-il marginalisé la prophétie dans son discours philosophique ? Quelles sont les raisons et les arguments justifiant la sortie de la prophétie de la sphère de la cité ? En quel sens le philosophe exerce -t-il une fonction prophétique ? Et quelles sont les attentes philosophiques de son système qui diffère du système en vigueur ? C'est à ces questions centrales que cet article est censé répondre.

Mots-clés : Prophétie , le philosophe solitaire , la citée parfaite , Intelligence acquise , Intelligence active

Abstract

Ibn Baja raised a very strange philosophical issue that takes up an intellectual adventure, which Muslim philosophers did not dare to tackle it in a rigid, rigorous, critical manner. This issue is "prophecy" and the controversy related to it in terms of the relationship between the knowledge derived through the mind, and that from Revelation. The strange aspect in Ibn Baja's raised issue is the fact he remained silent about marginalizing it from the philosophical thinking by focusing on the mind's argumentative ability to perform the same cognitive function connected to it, and the attainment of the same horizon and ontological purposes. Therefore, Ibn Baja's philosophy tends to prioritize the mind over revelation and philosophers over prophets. Furthermore, he considers that the philosopher/loner implicates in his consciousness and philosophical thought all of the prophecy's criteria and can achieve both cognitively and ontological, through possible and natural human potential, all what a prophet can achieve through grace and divine potential. Thus, the philosopher can practice the prophetic function and become a possible prophet. This cognitive function and ontological feature, which holds a prophetic touch represented by the philosopher, is what made Ibn Baja refuses to provide a space for prophecy and the prophet in his philosophical, intellectual system. He, rather, places it outside his utopian city based on his belief that the philosopher can achieve all of this city's needs following Plato's position of poets and poetry when he expelled them from his republic. However, Ibn Baja and Plato differ in principles and visions. Thus, this study intends to answer the following questions: why does Ibn Baja marginalize prophecy in his philosophical discourse? What are the reasons and arguments behind expelling prophecy from his city's needs? In what sense does the philosopher practice the prophetic function? Finally, what are the philosophical expectations of his unorthodox system which is deviant from the prevailed system? To reach this aim, the study first refers back to the origins of the issue of prophecy and then analyses and deconstructs the concept

Keywords: Prophecy, the solitary philosopher, the perfect city, Acquired intelligence, Active Intelligence

مقدمة

طرحت ظاهرة توطين الفلسفة في البيئة الثقافية العربية الإسلامية إشكالية شرعية وجودها واستقلاليتها ، وكذا فعاليتها في ظلّ وجود منظومة فكرية ومعرفية يستند جهازها المفاهيمي إلى "النبوة" كمرجعية تصورية ، ووسيط بين المطلق والتاريخ. ومن ثمة طرح العقل الفقهي نفسه كخطاب على وجه الأصالة والاكتفاء ، والادعاء ببلوغ الحقيقة ، ومقابل ذلك ، كندّ للفلسفة. والأكثر من هذا التنكّر لها واستهجانها ، باعتبارها كائنا معرفيا غريبا ودخيلا على المنظومة المعرفية الإسلامية.

إنّ هذا التنافر الذي حصل بين الفلسفة والعلوم النقلية المجاورة لها في البيئة الفكرية العربية الإسلامية ؛ إنّما يكشف في العمق عن مشكلة التقابل بين "نظرية النبوة" و"نظرية العقل". وأنّ هذا التقابل قد انتهى إلى بروز تيارين من الفلاسفة المسلمين: أحدهما حرص على التفاعل والتداخل بين العقل والنبوّة. بالاستناد إلى استراتيجية معرفية وخلفية إيديولوجية ؛ كانت وراء هذا الحرص على التلاقي بين العقل كفعالية معرفية والنبوّة كثابت ميتافيزيقي ، وهي محاولة تأصيل الفلسفة وتبييئتها إسلاميا لإزالة الغربة والغرابة عن وجودها ، والتمكين لحضورها المعرفي من جهة ، والتعمّق في فهم حقائق الدين وعقلنته من جهة ثانية. وبهذا التلاقي ، أضحت "النبوّة" قضية فلسفية ، كما أصبحت الفلسفة (إسلامية). وفي سياق هذه المسألة يوضّح أحد المهتمين قائلا: "وقد كان فلاسفة الإسلام حريصين كلّ الحرص على أن يوفقوا بين الفلسفة والدين ، بين العقل والنقل ، بين لغة السماء ولغة الأرض. لذا لم يفتهم أن يشرحوا لغة السماء ويوضّحوا كيفية وصولها إلى سكان العالم الأرضي ، ويبينوا الدين في اختصار على أساس عقلي ، فكوّنوا نظرية النبوة التي هي أهمّ محاولة قاموا بها للتوفيق بين الفلسفة والدين»[1]. والآخر يؤكد على استقلالية حضور الفلسفة ، وتخليصها

من شاغل التوفيق بينها وبين الدين ، من خلال إزاحة " نظرية النبوة " لتمارس فعلها المعرفي ، ليس كبديل لـ"النبوة" ، وإنما كخطاب عقلي متمّم ، يستأنف مسيرة التوجيه والقيادة المعرفية للإنسان وضبط وتوجيه حركته في التاريخ نيابة عنها (النبوة). وأنّ ما فرض عملية الاستخلاف هذه ، هو ظاهرة "توقف" الوحي كحدث ميتافيزيقي غير قابل للتكرار.

إنّ جوهر المشكلة يكمن ، في نظرنا ، في التصوّر الذي يتبنّاه الاتجاه الثاني ؛ إذ يطرح إشكالية عقائدية ويثير حساسية إيديولوجية ، وهو تصور يعبر عن موقف ثوري وجريء في الوقت نفسه ، إذ ليس من السهولة بمكان ، القول بإزاحة نظرية النبوة من الفعل المعرفي داخل بيئة فكرية ، يمثل فيها الدين الإطار العام لبناء المعرفة والسياج الإيديولوجي لها. هذا بخلاف الرأي الأول: فهو أكثر استساغة وقبولا من حيث إنه يسعى إلى التقريب بين الوحي والفلسفة بغرض حمايتها وتوظيفها ، لأنه "ليس شيء ألزم لفيلسوف مسلم من أن يحتفظ في مذهبه بمكان للنبوة والوحي ، إذا شاء أن تقبل فلسفته وتقابل بالتسامح من جانب إخوانه المسلمين."[2] ولهذا سيكون تركيزنا في هذا السياق على الموقف الثاني ، لنتبين مبررات الإزاحة لنظرية النبوة ، وعلى الأقل السكوت عنها ، في إطار التأصيل والاستقلالية (الفلسفية) للفعل المعرفي في الثقافة العربية الإسلامية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن ظاهرة "السكوت" عن النبوة تظهر بشكل جلي ومتميز عند الفيلسوف الأندلسي ابن باجة. ومن هذا المنطلق ، فإنه لابد من وقفة فلسفية على هذا الموقف لاستجلاء الدلالات والأبعاد المعرفية والحضارية التي ينطوي عليها ، والكشف عن رؤيته المنهجية واستراتيجيته الفلسفية في إعادة ترتيب العلاقة بين الفلسفة والحقول المعرفية الأخرى ، المشدودة إلى الوحي كمرجعية تصورية ومفهومية لها.

ترى ما خصوصية الرؤية الفلسفية الباجية حول هذه المسألة ؟ وما مدى فعاليتها وآفاقها المعرفية ؟ فهل السكوت قطيعة نهائية مع نظرية النبوة ، لفصل العقل عن كل سند ميتافيزيقي ، وصلة بالمطلق ، وحصره داخل أسوار الزمني والممكن البشري ؟ وهل الهدف من ذلك هو التأكيد على سلطان العقل واستحقاقه المعرفي الذاتي ؟ ولماذا السكوت عن النبوة ، بدل مناقشتها وإعلان الموقف منها ؟ فهل صفة "القدسية" والإطلاقية التي تميّزها ، هو ما فرض السكوت عنها ؟ أم أن العقل قاصر عن استيعابها ومناقشتها ؟ أو أنه لا جدوى من ذلك ؟ ألم تنخرط الفلسفة في مناقشة قضايا ميتافيزيقية أكثر قدسية من النبوة ذاتها ؛ قضايا تعتبر أصلا لها ، كقضية الألوهية مثلا ؟

I . التأسيس الفلسفي الباجي لموقف السكوت عن النبوة ... مبرراته ومستلزماته

الوضع المعرفي الملتبس لدلالة "السكوت" عن النبوة عند بن باجة

إن القول بسكوت ابن باجة عن النبوة وعدم اكتراثه بها ، أمر يثير الغرابة ويحمل تناقضا صريحا وواضحا ، يفرضه كلامه عنها ، وإشارته وتلميحاته وإحالاته إليها في بواطن نصوصه ، وهي غرابة تحمل على طرح تساؤل ملح عن معنى ودلالة السكوت ، والمقصد المترتب عن اللجوء إليه. فأية دلالة للسكوت ؛ وبأي معنى يفهم ويستساغ ، وقد صرح بها وأفصح عنها منطوق خطابه الفلسفي. كيف يمكن للكلام أن يستبطن معنى السكوت ، فالنقيضان لا يجتمعان في العقل!؟

فمن الأمثلة والشواهد الدالة على ذكره للنبوة والأنبياء ؛ وبالتالي انتفاء القول بـ "السكوت" فورا وبداهة ؛ إحالته وإشارته لفضل الأنبياء ومقامهم الروحاني في أفقه الملكوتي ، في معرض حديثه عن إمكانية ترقي الفيلسوف بواسطة قواه العقلية إلى نفس مرتبتهم (أي الأنبياء) ، حيث يقول: "ومن جعل له هذا العقل ، فإذا فارق البدن بقي نورا من الأنوار ، يسبح الله ويقدسه ، بقي مع النبيين والصدقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا "[3].

وما يفيده هذا النص هو اكتفاء الفيلسوف/ المتوحد بإمكانه وممكنه الذاتي إلى مرتبة السعادة الأبدية دونما حاجة لبراق النبوة ، وواسطة النبي. وربما هنا ، وفي هذا السياق ؛ سياق تعويل الفيلسوف "المتوحد" على تدبيره الذاتي لترتيب أفعاله نحو الغاية المقصودة (السعادة الأبدية) ، تتجلى ملامح المعنى والوظيفة التي يريدها ويقصدها ابن باجة من "السكوت" في صورة استبطان النقيض لنقيضه ، أو قول فلسفي ؛ ظاهره الكلام عن النبوة وباطنه السكوت عنها ، وهذا الموقف الافتراضي هو ما سنؤصل ونفصل القول فيه تباعا. وعلى ضوء ذكره لعدم حاجة الفيلسوف للنبي في عملية ترقيه واتصاله بـ "العقل الفعال" ، يواصل ابن باجة كلامه عن النبوة . على سبيل التصريح .في سياق إشارته إلى حاجة جمهور العامة من الناس إلى الاقتداء بالنبي والتمسك بفضائله وانتظار منّة الفيض ليتمكنوا من تجاوز كائنتهم الفاسدة وبلوغ السرمدية ، نظرا لقصور مداركهم العقلية المقيّدة بحسية "العقل الهيولاني" الذي يخص موجوديتهم. وبالتالي فلا سبيل أمامهم (أي طبقة الجمهور) لبلوغ كمالهم الإنساني إلا إذا استطاعوا أن يكونوا من ذوي "الفطر الفائقة" وهم أولياء الله الذين يكونون في المرتبة الثانية بعد الأنبياء. وفي هذا يقول ابن باجة: "ودون الأنبياء ، أولياء الله الذين فطرهم على فطر فائقة ، يأخذون بها من الأنبياء ، وما يوصلهم إلى العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والسعادة القصوى"[4].

وعن المطلوب من صاحب الفطرة الفائقة لبلوغ مرتبة الكمال ، يواصل ابن باجة إشاراته ، وإحالاته للأنبياء قائلا: "فليهتد بهداه ، وليلتزم أوامره ، وما جاءت به الرسل ، وليوالي على التفكر وعلى ذكر الله ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ، فإنه ينكشف له العلم بالله ، وبمخلوقاته ، فيكون من الذين هداهم الله الصراط المستقيم"[5].

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن "الفطر الفائقة" بما هي خاصية وجودية روحانية ، وشرط للتلقي والترقي ، في نفس الوقت ، يشترك فيها الفيلسوف مع الأنبياء والذين يلونهم (الأولياء). وبالتالي ، فالفيلسوف/ المتوحد كونه صاحب "فطرة فائقة" أهّله إليها عقله المستفاد الذي منّ الله به عليه ؛ يستطيع الاتصال بالعقل الفعال عبر توحده وتدبيره وتدبّره ، دونما حاجة لنبي أو ولي. والتوحد ، هنا ، وفي سياقه العروجي الصاعد يوحي بدلالة ومعنى السكوت التي تعني عدم الحاجة والاستغناء في إخراجه وتخريجه الباجي.

ما يمكن إفادته ، بداهة وابتداء ، من هذه الإشارات والإحالات المتكررة ؛ أن هناك كلاما صريحا وقولا فصيحا عن حقيقة النبوة ، وفضل الأنبياء في الخطاب الفلسفي الباجي ومقامهم ، وهو ما يحمل على الاستنتاج: أنه إن كان ثمة "سكوت" لم يوح به ظاهر نصوصه ، ومنطق منطوقه .بل يرفعه وينفيه . فإن الإبستيمولوجي هو الغالب على الإيديولوجي في هذا السياق ؛ سياق جدل الكلام والسكوت حول حقيقة ووظيفة النبوة. أي أن السكوت لم تفرضه قناعته الدينية ، ومناهضته للطريق الصوفي في عملية الاتصال بالعقل الفعال ، بالصورة التي يفهم منها مروقه عن الدين وازدراؤه للنبوة ، وإنما كان سكوتا أملاه مقتضى إبستيمولوجي ، هو فتح الطريق أمام استراتيجية المتوحد لاستكمال مشروعه الفلسفي المشدود إلى أفق الكمال الإنساني والاتحاد بالعقل الفعال ، حيث إن التفكير في أفق النبوة بما هي قضية دينية في الأساس ،

ومرتبطة بالفيض والإشراق من حيث طبيعتها ووظيفتها ، مما يجعلها أفقا أنطولوجيا يتطلع إليه المتصوفة ومريدوهم من العامة ، ليكون "التلقي" هو سبيلهم إليها ، وهو ما يتعارض مع توجه واتجاه الفيلسوف ونظرائه من المتوحدين ، مما يجعله يحيد عن رسالته الفلسفية المرتبطة بخطابه البرهاني الذي يتعارض في جوهره مع نظرية التلقي الصوفية. ومن ثَمّ فلجوء الفيلسوف إلى طريق الصعود والترقي من خلال توحده ، واعتماده على قوة العقل المستفاد الذي اكتسبه بمجهوده الفكري ، والذي جعله يسكت عن النبوة ، لعدم حاجته إليها في تحقيق حلمه ذاك ، لا يعني تنكره وإنكاره لطريق الفيض والتلقي النبوي الهابط "ولو نفى ابن باجة الطريق الهابط ، لكان هناك نكران واضح ، ونفي للنبوة. وهذا ما لا يسمح به العصر الذي عاش فيه فيلسوفنا ، ولم يجترئ عليه فيلسوف مسلم ، وإن كان قلما يتحدث عن الأنبياء ، ودائما ما كان حديثه عنهم حديثا مقتضبا جدا"[6]. وهنا تتجلى دلالة أخرى للسكوت ، وهي اعتباره شكلا من أشكال "التقية": حيث إن قوله وجهره بندية الفيلسوف للنبي في المرتبة والقيمة ، وإمكانية الاتصال ، وبلوغ مقام السرمدية يعرضّه لتضييق العقل الفقهي على فكره وتفكيره ، ويجعل حياته عرضة للمضايقة من قبل جمهور العامة بسبب قدسية النبوة ومدى تجذرها في وجدانهم وتأثيرها على مخيّلتهم.

نستنتج من الإحالات السابقة وما أحيط بها من تحليل فيما يتصل بقضية "النبوة" أن كلام ابن باجة عنها بقدر ما يعني الإفصاح والتصريح ، والجهر بحقيقتها ، فإنه يدل على السكوت عنها وعدم الاهتمام بها. لينتهي إلى تصور متناقض حيالها ؛ تصور يقرّ بها ويتجاهلها في الوقت نفسه. وهو ما يضعها معرفيا على عتبة أفق إشكالي تنصرف مفرداته إلى اللبس والغموض والتناقض والتعارض... فكيف تعامل ابن باجة مع هذا المأزق المعرفي ، وما هي الأسس الإبستيمولوجية الي استند إليها في التأليف بين النقيضين (كلام ـ سكوت) حيال قضية النبوة ؟ ومن ثم تقبل العقل لهذا المركب المتناقض ؟ ما هو السياق الذي حدده للكلام عنها ؟ وما هو الأساس الفلسفي الذي بنى عليه موقف السكوت عنها ؟

نستعير ، هنا ، وفي هذه اللحظة المعرفية الملتبسة ؛ من الرياضيات طريقتها في التفكير ، بما هي أداة تفكير بالعلاقات ، لرفع هذا اللبس وفهم المنطق الذي بنى عليه ابن باجة موقف السكوت حيال النبوة. والتفكير بالعلاقات فلسفيا حول هذه القضية الملتبسة ، محاكاة وتوظيفا للأنموذج الرياضي ، يتحدد بربط إشكالية السكوت عن النبوة .والتفكير في أفقها لرفع اللبس الذي يحيط بها ، وإزالة التناقض الذي يحكم مكوناتها البنيوية . بالعلاقة بين"الأنطولوجي" و"المعرفي" بما هما مبدآن فلسفيان تقتضيهما القراءة النقدية في هذا السياق.

السكوت عن النبوة وممكنات تجاوز اللبس بين الأنطولوجي والمعرفي

الحاصل من فكر وتفكير ابن باجة ؛ أنه تكلم عن النبوة وسكت عنها في الوقت نفسه: وقوام الكلام ومرجعه أنطولوجي ، وأساس السكوت ومبرره معرفي:

1 .فهو أنطولوجيّ: أقر بوجودها وحقيقتها (وفضلا عن ذلك الإيمان بها) كما تبيّن ذلك من خلال الإحالات السابقة التي عرضناها في سياق ذكره للأنبياء وفضلهم. ووجه الخصوصية الأنطولوجية لـ "النبوة" ؛ أنها منّة إلهية وحقيقة ميتافيزيقية ، وظاهرة دينية تحققت في الزمان والمكان. فابن باجة حينما يقول:"... ولذلك بعث الله الرسل ، وجعل الأنبياء ليخبرونا معشر الناس بالإمكانات الإلهية ، ولما أراد عزّ اسمه من تتميم أجلّ مواهبه عند الناس وهو العلم"[7]. فإن قوله هذا ؛ يستبطن البعد الوجودي لحقيقة النبوة في نسبتها وإسنادها لمن يختارهم من عباده ، حيث نجد في فعل "البعث" دلالة على الإيجاد. وأهم مقولة من مقولات الوجود في أساسه الميتافيزيقي ، ولزومية الغاية المقصودة من الوجود. فالله قد أوجد الأنبياء لغاية إخبار الناس وتبليغهم بـ "الإمكانات الإلهية" بما هي حقائق ومسالك الناس وتبليغهم بـ الإمكانات الإلهية" للوصول إلى مقام الوجود الخالد السعيد. والأنبياء هم الوسائط الدالة والموجهة للبشر نحو هذا الأفق السرمدي. بهذا التوجه وبهذا المعنى تكلم ابن باجة عن النبوة والأنبياء وفضلهم ومقاماتهم والرسالة المنوطة بهم ، وبهذا المنحى الوجودي ؛ تكلم عن الأنبياء ، ومقتضى كلامه عنهم ؛ هو إيمانه ببعثهم ، وبأهمية النبوة وضرورتها في هداية البشر. ويجب التنبيه هنا ، إلى أن طائفة البشر الذين تستهدفهم النبوة ، في نظر ابن باجة ، هم الذين توقفت مداركهم عند مستوى "العقل الهيولاني" ، ولم

يكونوا من ذوي "الفطر الفائقة"، ويفتقدون إلى إمكان الترقي. ومن ثَمّ فوجود الأنبياء ضروري لطبقة العامة الذين يقيمون في "المدن الناقصة" التي يسودها "الرأي الكاذب".

2. ومعرفي: تجاهل الحديث عن دورها ووظيفتها. وبهذا المنحى الإبستيمولوجي سكت عنها. والسؤال الذي يطرح على أعتاب هذا الأفق الإشكالي؛ هل السكوت يستبطن إنكارا لدورها، فرضه شكل من أشكال "التقية"، اتقاء لتبعات ومتابعات "جهاز الملة" له (وهو هنا ممثل في دولة المرابطين التي عاش في كنفها). واستهجان "العقل الهيولاني" المؤسس لثقافة جمهور العامة؟ أم أن السكوت أملاه مقتضى منهجي وضرورة إبستيمولوجية، مفادها أن العقل البرهاني والمنطق العقلاني الموجه لتفكير ابن باجة حال دون التفلسف في أفق قضية هي في جوهرها مرجع الإشراق الصوفي والإلهام الوجداني ومبتغاه، الذي عارضه ورفضه كسبيل لاكتشاف الحقيقة المعرفية وبلوغ السعادة الوجودية، أو أنه سكت عن دور النبوة لأنه، في أساسه، الدور المنوط بالفيلسوف والمرتبط بجوهر مهامه المعرفية والنوازع الأنطولوجية التي تجسدها رغبته في "الاتصال بالعقل الفعال" بما هو أفق وسقف تحقيق مطلب الخلود والوجود السعيد، مما يعني انتفاء الحاجة للنبي وعدم جدوى التفكير في أفق النبوة، ما دام الفيلسوف يمتلك نفس خصائص ومؤهلات النبي للترقي والتلقي. ليبقى النبي مرشد العامة وطبقة الجمهور في المدن الناقصة، بسبب قصور قواهم الروحانية وإمكاناتهم العقلية للترقي، والمحدودة بمرتبتي: "العقل الهيولاني" والعقل بالفعل" ومن ثَمّ افتقادهم لـ "العقل المستفاد" بما هو وسيط الاتصال بـ "العقل الفعال" الذي منّ به الله على "النظار"/ الفلاسفة المتوحدين؟ مما يجعلنا نفهم أهمية "السكوت" على أنها استراتيجية معرفية وآلية منهجية ومطلب إبستيمولوجي لإبعاد وإزاحة كل ما يشوش على الفيلسوف في عروجه إلى عالم الملكوت، حيث يحقق العقل ذاته والوجود أسمى كمالاته، وهو الوجود الخالد السعيد، كما يرى ابن باجة ويحلم. ولتحرير فعل التفلسف من ضوابط السلطة الإيديولوجية/ النقلية التي تضيّق على العقل، ومن مطلقات المنقول التي تحد من فعل وفعالية المعقول، ليكون تفكيرا فلسفيا عقلانيا خالصا، من منطلق أن السكوت عن المهمة المعرفية للنبوة فيما يتعلق بمسألة الاتصال بالعقل الفعال، يفتح الطريق والأفق نحو الاستقلال الفلسفي من كل تبعية أو تأثر بمطلقات الدين ومنتجاته النقلية، لممارسة فعل التدبير الذي اضطلع بمهمته "المتوحد".

إن ثمة أوليتين تستند إليها اللازمة المعرفية لموقف "السكوت" عن النبوة في النسق الفلسفي الباجي. فلا تتضح دلالة السكوت والآفاق المترتبة عن اللجوء إليه كاستراتيجية فكرية إلا بالوقوف على هاتين الأوليتين وهما: أولا: خصوصية رؤيته وموقفه من العقل. ثانيا: لوازم ومستلزمات كل من المدينة الكاملة والمدينة الناقصة.

أولا: العقل المستفاد كبديل للنبوة وموجب للسكوت عنها

إن الكشف عن موقف ابن باجة من السكوت عن النبوة ودلالات ذلك، انطلاقا من الأساس المعرفي الذي بناه عليه، يفضي بنا، بالبداهة وعلى الفور، إلى رؤيته لحقيقة وطبيعة العقل، ولوظيفته ومكانته، في سياق التفكير بالعلاقات المبنية على جدلية العقل والنبوة" في الفلسفة الإسلامية. وهو موقف، يتحدد ابتداء بالاتجاه الإبستيمولوجي الذي أسسه، وهو الاتجاه العقلي التأملي الذي يقوم على العلم النظري، في مقابل الاتجاه الحدسي الذوقي الذي أسسه وتبناه فلاسفة المشرق. ومحور هذا الاتجاه هو "العقل المستفاد". فما هي حقيقة وطبيعة "العقل المستفاد" في تصور ابن باجة؟ وماهي خصوصية وظيفته المعرفية التي تميزه عن مراتب العقل الأخرى؟ وما علة اقتضاء المعرفة المكتسبة عن طريق العقل المستفاد السكوت عن النبوة؟

عن طبيعة وماهية هذا العقل يقول ابن باجة: "فهو أبدا واحد، وفي لذة صرف، وفرح وبهاء. وسرور، وهو مقوم للأمور كلها، والله عنه راض أكمل ما يكون من الرضى... وهو تلك المرتبة العليا من العقل البشري التي يعقل بها حدساً وإشراقاً ما يهبه العقل الفعال من صور ومعقولات مجردة دون اللجوء إلى وساطة الحواس"[8]. وعن تأثير "العقل الفعال" في كماله وتحقيق الجزء الإلهي في وجوده؛ يقول: "وكأن الكمال الإنساني لا يتحقق إلا بالاتصال به، فإذا حصل له الاتصال، صار إحدى الموجودات الإلهية، وحصل أقرب ما يمكن من الله

تبارك وتعالى، وحصل له رضاه، وحصل في خيرات إلهية لا تحصى ولا تعد، وخرج من الظلمة إلى النور"[9].

يستفاد من هذين النصين أن "العقل المستفاد" هو الجزء الخالد في النفس، وهو قريب من العقل الفعال، خالد وأزلي، مدرك للصور الروحانية العامة. ولأنه بلغ مرتبة يستطيع عن طريقها تلقي المعقولات مباشرة من العقل الفعال، فهو في غنى عن الحاجة إلى النبوة، لأنه في نفس مرتبتها وقربها من العقل الفعال، ويقوم بالوظيفة نفسها المعرفية التي تؤديها، ويحقق الهدف الأنطولوجي نفسه الذي تحققه. أي أن العقل المستفاد بما هو منة إلهية، يجعل الفيلسوف في نفس مرتبته، ونفس مقامه الوجودي (الوجود السعيد). وفي هذا يقول ابن باجة: "ومن جعل له هذا العقل فإذا فارق البدن بقي نورا من الأنوار، يسبح الله ويقدّسه مع النبيين والصدقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا"[10]. أي أن العقل المستفاد يمتلك إمكانية الارتقاء بصاحبه/ "الفيلسوف المتوحد" إلى الأفق السرمدي الذي هو منتهى معراج الأنبياء، فيعيش نفس الوجود السعيد الذين يعيشون.

وهذه الطبيعة الروحانية والإلهية للعقل المستفاد وندية للنبوة على المستوى الوظيفي والغائي، هي في ذاتها مقتضى من مقتضيات السكوت. ومن هنا نفهم الدلالة والبعد المعرفي لاستراتيجية السكوت. وهو سكوت لا يعني إنكارها وعدم الإقرار بحقيقتها. بل أقر بوجودها، وأفصح عن إيمانه بها. من هذه الزاوية الوجودية تكلم عنها. ولذلك فجدل العلاقة بين موقفي السكوت والكلام عنها (النبوة) محكوم بالعلاقة بين ثنائية "الوجود" و"المعرفة": فالمقتضى المعرفي من حيث وظيفة النبوة والحاجة إليها من عدمها يفضي إلى السكوت لكفاية العقل المستفاد بإمكانه الذاتي للترقي إلى أفق السرمدية. واللازمة الوجودية من حيث الإقرار الديني بحقيقتها عقائديا، وتجليها من خلال بعث الأنبياء تاريخيا، يفرض ضرورة الكلام عنها تلقائيا، وفي هذا السياق، تكلم ابن باجة عن النبوة.

يُستفاد من التحليل السابق أن "السكوت" عن النبوة مطلب فلسفي يقتضيه العقل المستفاد في عملية الاتصال بالعقل الفعال، لتحقيق مطلب الكمال الذاتي الذي هو نواة كمال المدينة. والمدينة الكاملة بما هي فضاء اجتماعي للفيلسوف الذي حقق لها كمالها، فهي ليست في حاجة لمنة النبوة ودور النبي. وبما أن وظيفة النبوة هي استكمال النقص الذاتي والمدني، فإن أحوج من يكون في حاجة إليها هي المدن الناقصة بكونها فضاء عموميا للعوام، الذين يتحركون فيها ويسيّرون شؤونها بمقتضى "العقل الهيولاني" البهيمي، والعقل بالفعل اللذين يميّزان قواهم الفكرية. ولذلك، فإن وجود النبي، والحاجة إلى النبوة من لوازم المدينة الناقصة. وأما وجود الفيلسوف، ووجه الحاجة إلى الفلسفة من مستلزمات المدينة الكاملة، ومن ثَمّ عدم الاكتراث بالنبوة وبالتالي؛ ضرورة السكوت عنها.

ثانيا: مستلزمات وخواص كل من المدينة الكاملة والمدينة الناقصة

إن جوهر الفرق بين "المدينة الكاملة" و"المدينة الناقصة"، والتباعد بينهما على المستوى المفهومي، وتجليهما الواقعي، ونظاميهما الثقافي والاجتماعي، يرتد في الأساس إلى الفرق بين "العقل المستفاد" و"العقل الهيولاني": فالأول أساس "المدينة الكاملة" وقوام نظامها ومرجع تنظيمها. أما الثاني، فهو السائد والسيد في "المدينة الناقصة". وهو ما يعني أن "العقل المستفاد" ملازم لـ "المدينة الكاملة"، ولازم لوجودها. وعكسه "العقل الهيولاني"، هو ما استلزمته "المدينة الناقصة"؛ حيث كان سببا فاعلا في وجودها الناقص. ومن ثم كانت حاجتها ضرورية للنبي من أجل تجاوز نقصها واستكمالها، بخلاف "المدينة الكاملة" التي يغنيها كمالها عن حاجتها إلى النبي، نظرا لملازمة الفيلسوف لها، والذي يضطلع بنفس وظيفة ورسالة النبي تجاهها، انطلاقا من امتلاكه لـ "العقل المستفاد" الذي يؤهله للدور(النبوي) "فلأنه بلغ مرتبة يستطيع عن طريقها تلقي المعقولات مباشرة من العقل الفعال..."[11]، يصبح في غنى عن المنّة النبوية. وفي نفس هذا السياق المفهومي الوظيفي، والمقام النبوي للعقل المستفاد، يقول الفارابي: "فالعقل الإنساني إذا بلغ أقصى كمال له، صار قريبا في جوهره من هذا العقل.. ويحتذي في تكميل جوهره حذو هذا العقل، وإنه هو الغاية على هذا الوجه الذي يحتذي حذوه، وهو غاية على أكمل الوجوه[12]

فالاتصال بـ "العقل الفعال"، إذن، هو علة قيام المدينة، والسبيل إلى تحقيق كمالها. وذلك في نظر ابن باجة؛ مرهون بحصول ما يسميه بـ "الإمكان" والذي يصنفه إلى

صنفين ، أحدهما إلهي ويخص النبي ، والآخر طبيعي ، ويختص به الفيلسوف. وفي هذا السياق يقول: "وإن صالح السلف قالوا إن الإمكان صنفان: صنف طبيعي وصنف إلهي. فالطبيعي هو الذي يدرك بالعلم ويقدر الإنسان على الوقوف عليه من تلقائه. وأما الصنف الإلهي ؛ فإنما يدرك بمعونة إلهية ، ولذلك بعث الله الرسل وجعل الأنبياء ليخبرونا ؛ معشر الناس بالإمكانات الإلهية ، لما أراد عزّ اسمه من تتميم أجّل مواهبه عند الناس وهو العلم."[13]

و"الإمكان" بما هو إمكانية الوصول إلى الحقيقة ، والاتصال بالعقل الفعال ، وبلوغ السعادة القصوى ، كما يصفه ابن باجة ، فهو كما أورده في النص السابق صنفان: صنف طبيعي ، وهو الذي يحصل بالعقل ، وهو هنا كسبي متوقف على القدرات العقلية الخاصة التي تؤهل الفيلسوف للارتقاء إلى مرتبة "العقل المستفاد" الذي هو وساطته لـ "لعقل الفعال".

وهذا "الإمكان" الطبيعي الذي يختص به الفيلسوف . بما هو طريق صعود . لتحقيق الكمال الإنساني والمدني/ المديني ، هو منّة من الله يهبها لطائفة من عباده يسميهم ابن باجة بذوي "الفطر الفائقة المعدة لقبول الكمال الإنساني ، وهذه الفطر هي المعدّة لقبول العقل الإنساني ، ثم لقبول عقل إلهي ، وعقل مستفاد من الله عز وجل ، لا يدرك (إلا بها) ، وهي الفطر التي تعلم الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والسعادة التي هي بقاء لا فناء معه وسرور لا كدرات فيه والعلم (فيها) أن يرى ببصيرة نفسه التي هي موهبة من الله عز وجل"[14].

أما الصنف الثاني ؛ فهو صنف إلهي ، يتم بلوغه وإدراكه بمعونة ومنّة إلهية ، وهو طريق هابط مرتبط بـ "الفيض" ، وهو خاص بمن يصطفيهم الله من الأنبياء والرسل ، والذين يتحدد دورهم والغرض من يعثم بإخبار الناس بالإمكانات الإلهية. وتمكينهم من التخلص من بهيميتهم وتجاوز نقصهم.

وما يمكن إفادته من هذا التصنيف الثنائي ؛ أن المدن الناقصة هي الفضاء العمومي لتحقيق مقتضيات النبوة ، وتجسيد مهام النبي نظرا لسيطرة "الرأي الكاذب" والوهم والخيال على وعي أفرادها ولعدم أهليتهم لـ "الإمكان الطبيعي" ، الذي يمكنهم من الاتصال بـ"العقل الفعال". ولذلك بعث الله الأنبياء إلى المدن الناقصة ، ليحرروا أفرادها من تلك الآراء ، وليوجهوهم ويرشدوهم إلى ما يمكّنهم من الاتصال.

ولذلك ، فإن كلام ابن باجة عن الأنبياء وذكره لهم في ثنايا نصوصه الفلسفية ، كان في هذا السياق ؛ سياق ضرورة وجودهم في المدن الناقصة ، وحاجة أفرادها إليهم. كما نفهم من النص السابق أيضا حقيقة التفسير الخاص الذي قدمه ابن باجة حول خلو المدينة الكاملة ؛ مدينة المتوحدين من الأنبياء وعدم حاجتها إليهم نظرا لتمتعهم بـ "الإمكان الطبيعي" الذي يساعدهم على الاتصال. فسكان هذه المدينة لا يحتاجون إلى أنبياء أو رسل وإنما يحتاجون إلى العقل فقط ، ويعولون عليه في إمكانية الاتصال. ولذلك جعل ابن باجة الفلاسفة من خواص "المدينة الكاملة" ، والأنبياء والرسل من لوازم "المدينة الناقصة" على حد قوله. ويذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن ابن باجة إذا كان قد استغنى في مدينته الفاضلة عن الأطباء والقضاة ، وهم عصب كل مدينة ، فأولى به أن يستغني عن الأنبياء والرسل وما جاءوا به من أديان وشرائع ، فقد تجاهلهم ، وتجاهل شرائعهم ، حتى لا يبقى غير العقل هاديا للإنسان ومرشدا. فإذا ما تأتى له أن يتحدث عنهم ؛ كان حديثا مقتضبا جدا ، رفعا للتعب وذرا للرماد في الأعين.[15] فالعقل ، إذن ، هو أساس الوجود الكامل السعيد للإنسان. فهو "يستطيع بهدي من نور عقله وحده ، دون وساطة من الخارج ، أن يصل إلى إدراك المدركات أو يفعل الخير لذاته ، وبذاته ، ويتجنب الشر."[16] .

ومن ذلك تتضح بعمق ؛ دلالات وأبعاد السكوت عن النبوة في الخطاب الفلسفي الباجي ، ويرفع اللبس الذي أحاط بها على مستوى ظاهر الخطاب ، والذي تمثل في الجمع بين الكلام والسكوت: فهو فعلا تكلم عنها ، وسياق الكلام ومقتضاه ؛ كان مشدودا إلى آرائه حول المدينة الناقصة ، وحاجتها لوجود الأنبياء لإصلاح أحوال أفرادها. وسكت عنها عندما نظّر للمدينة الكاملة لاكتفائها بـ "الفيلسوف المتوحد" وإمكانية أدائه للدور النبوي من حيث هو فيلسوف. وبهذا المعنى تكلم وسكت ابن باجة عن النبوة في الوقت نفسه ، من دون أن تحمل هذه المقابلة الضدية تناقضا في قوله الفلسفي حول مسألة النبوة. كما أن من أهم دلالات السكوت عن النبوة في المدينة الكاملة ؛ هو إنكاره لأي دور لهم في وضعها ، فلقد كان اهتمامه منصبا بالدرجة الأولى على المتوحد وتدبيره ، الأمر الذي يمكن تحصيله فقط عن طريق العقل لا عن طريق الوحي[17].

والدلالة الجامعة والملخصة لكل الدلالات ؛ أن ابن باجة سكت عن النبوة في سياق تنظيره للمدينة الكاملة ، ولدور المتوحد فيها ، ومقتضى السكوت عنها هو تحقيق الإمكان الفلسفي لغاية الاتصال بالعقل الفعال التي هي في جوهرها غاية دينية محكومة بالمنة الإلهية. ولجعل العقل في المرتبة الأولى ، وما سواه ، فهو أدنى منه ، حتى لو كان ما سواه هم الأنبياء والرسل أنفسهم ؛ كي لا يبقى غير العقل هاديا ومرشدا لمتوحده إلى العقل الإلهي.

والخلاصة من كل ذلك أن كون "المدينة الكاملة" تشييد فلسفي خالص ، وفضاء لإقامة المتوحدين ، هو ما يوجب السكوت عن النبوة ، لأنها ليست من مستلزمات قيامها ، طالما أن كمالها وكمال المتوحد متوقفان على "الإمكان الطبيعي" (المعرفة العقلية) في تحقيق غاية الاتصال بالعقل الفعال. وبالتالي ، فإن الاتصال بهذا العقل عبر الوحي أقل درجة من النظر العقلي سبيلا إلى ذلك. وهكذا فإن ما تحتاجه المدينة الفاضلة إنما هو الفيلسوف ، أما النبي فهو أشد ما تكون الحاجة إليه في المدينة غير الكاملة".[18]

وهذا يدل بوضوح على أن ابن باجة كان عقلانيا صرفا ، في مقاربته الفلسفية لسؤال سياسة المدينة وتدبير أمرها. ولذلك فضّل الطريق العقلي على طريق الوحي ، ولذلك نجده يعلي من مرتبة الفلاسفة على مرتبة الأنبياء ، و"أنه ما كان يريد من ذلك إلا أن يخلص إلى النتائج المنطقية التامة لمنهجه الخاص في التفسير العقلي للإسلام"[19] وعليه ، فإن:

الهدف من السكوت هو تفضيل الفلاسفة على الأنبياء

يفهم من تجاهل ابن باجة لطريق الهبوط والتلقي (النبوة) وسكوته عنها ، وبالتالي تأكيده على طريق الصعود والترقي ، إعلاؤه وتفضيله للفلاسفة على الأنبياء. ومن ثم فموقع الكلام عن الأنبياء في خطابه الفلسفي من قبيل موقع الهامش من المركز ، فذكره لهم هامشي: قلما يذكرهم ، وإذا ذكرهم تحّدث عنهم بعبارات غامضة ، وكأنه لا يريد الإفصاح عن قناعته الشخصية في تفضيله الفلاسفة على الأنبياء حتى لا يتعرض لسخط الفقهاء والعامة ، بل يمكن القول إنه أراد من إشاراته القليلة للأنبياء أن يتملق الفقهاء والعامة وبالطبع لا تصمد هذه المحاولة أمام استغنائه التام عن الرسل في مدينته الفاضلة وجعلهم من لوازم المدينة الناقصة التي انتزع منها النخبة الممتازة وتركها لقدرها[20]. وهذا هو لسان حاله وإن سكت عنه لسان مقاله. وكما يرى أحد الباحثين المعاصرين أنه يمكن الوقوف على رأي ابن باجة عندما يتحدث عن أولئك الذين تشرق عليهم الحقيقة ، أولئك الأفراد الإلهيين ، ولم يكن يقصد الإشارة إلى الأنبياء وإنما إلى الفلاسفة ، أرسطو وأمثاله على وجه الخصوص. ولا شك أن ابن باجة كان يدرك أن القارئ غير المزود إلا بقليل من المعرفة النظرية سيعرف أن المقصود بأولئك الذين يهبط عليهم نور الحقيقة ، والذين يصلون إلى الدرجة العليا من درجات المعرفة إنما هم الفلاسفة لا الأنبياء[21].

إن سكوت ابن باجة عن النبوة ليس إنكارا لحقيقتها وإغفالا لدورها في عملية اتصال الإنسان بالعقل الفعال ، بل إنه يقر بوجود طريقي الصعود والهبوط لبلوغ ذلك ، حيث يرى أن الفيلسوف والنبي يشتركان في إمكانية الاتصال ، وفي المنّة الإلهية الكفيلة بذلك. فـ "طريق العقل وطريق الوحي يلتقيان في بعض أمور ؛ منها أنهما لا يخلوان من المعونة الإلهية ، حيث إن مراحل الترقي الفكري والروحاني ليست إنسانية كلية ، وإنما يتم استكمال هذه النعمة بنور ينفثه الله في صدور من يختارهم. وعلى هذا ، فالعقل الإنساني في مراحل ترقيه العليا في حاجة إلى فيض العقل الفعال وإلى معونة إلهية وإشراق إلهي"[22].

وهو إذ يوفق بين الطريقين ، فإنه ينتصر لطريق الصعود الذي ينخرط فيه الفيلسوف. وهنا تتجلى دلالة السكوت عن النبوة. ويظهر هذا الميل إلى طريق الصعود من خلال تمييزه بينهما. "إذ أن منّة الله ومعونته لا تأتي إلا لمن هو أهل لها ، أي لمن أعد لها واستعد لها استعدادا خاصا ، وهذا يعني أن الطريق الثاني لا يخلو من جهد إنساني ، وإن كان يختلف عن الطريق الأول الذي يعتمد أولا وأخيرا على الإمكان الإلهي."[23]

ما يمكن استخلاصه من هذه الحركة الفكرية ، أن ابن باجة أراد من خلال استراتيجية السكوت عن النبوة في خطابه الفلسفي أن يرتقي بمتوحده إلى أفق "الفيلسوف النبي" في ماهيته ووظيفته ، ليكون فيلسوفا/ متوحدا مجاورا للنبي في مقامه ومكانته ومآله ، في أصالة هويته الفلسفية الخالصة ، وليس "الفيلسوف النبي" في مسحته وتخريجته الفارابية ذات الهوية المركبة من الديني والفلسفي. أي التمكين لتحقيق الوظيفة النبوية للفيلسوف من خلال إنزالها من أفق المنّة الإلهية إلى مستوى الإمكان البشري. وبهذا البناء الفلسفي

للإنسان ولمدينته المؤسس على استراتيجية السكوت عن النبوة ، أراد ابن باجة أن يجعل من الفيلسوف المتوحد أنموذجا لـ "خليفة الله" في الأرض ، ومجسدا لكل مفردات وآليات "الخلافة" في الواقع والتاريخ **من خلال فعل "التدبير" الذي خُصّ به. وهو الأنموذج الذي أصّل القول حوله وفصّله في كتابه: "تدبير المتوحد".**

II . مرتكزات وآفاق استراتيجية السكوت عن النبوة في القول الفلسفي الباجي

من خلال تحليلنا السابق لرؤية ابن باجة حول مسألة النبوة وسؤال مدى فعاليتها في نظرية المعرفة الفلسفية ، خلصنا إلى أن ثمة أوليات ثلاث يتأسس عليها موقفه المتمثل في استراتيجية "السكوت"[24] عنها ، والذي حاول من خلاله إزاحتها من نسقه الفلسفي بكونها توجها معرفيا في المنظومة الفكرية الإسلامية الكلاسيكية ، وهي:

أ . النبوة منة إلهية ، وتجاوز للإمكان البشري.

ب . السكوت عنها مطية لتحقيق الإمكان الفلسفي.

ج . الامتناع عن القول الفلسفي حولها سبيل لتحقيق التآلف بين الحقول المعرفية ، وتفعيل لظاهرة التنوع الثقافي داخل الفضاء العربي الإسلامي.

أ) . النبوة منّة إلهية وتجاوز للإمكان البشري

لقد اعتبر ابن باجة "النبوة" ظاهرة لا تستوجب التفلسف ، من منطلق أنها تدخل فيما يسميه بـ" الإمكان الإلهي " الذي يقابله " الإمكان الطبيعي " / البشري الذي هو في جوهره إمكان فلسفي. وفي هذا السياق يقول في رسالة الوداع: "إن صالح السلف قالوا: إن الإمكان صنفان: صنف طبيعي ، وصنف إلهي. فالطبيعي هو الذي يدرك بالعلم ، ويقدر الإنسان على الوقوف عليه من تلقائه. أما الصنف الإلهي ، فإنما يدرك بمعونة إلهية. ولذلك بعث الله الرسل وجعل الأنبياء ليخبرونا معشر الناس بالإمكانات الإلهية كما أراد عز اسمه من تتميم أجل مواهبه عند الناس وهو العلم"[25]. فالنبوة ، إذن ، هبة إلهية وليست عملا كسبيا إنسانيا ، ومن ثمة ، فالفلسفة لا تنخرط في التفكير في قضية تتجاوز إمكانات البشر ، ويستحيل ، بالتالي ، تحقيقها ، وفضلا عن ذلك ، ليس للقول العقلي / الفلسفي أثر في "النبوة" بكيفية يؤسس على قاعدتها علم ما على حد قوله. ومن هنا ، لزمت الحاجة إلى السكوت ؛ فسكت ابن باجة. وهذا ما أكده الجابري بقوله: "... وبالفعل سكت ابن باجة عن نظرية النبوة الفارابية سكوتا مطلقا ، فلم يمنحها أي موقع في خطابه الفلسفي."[26]

ب) . السكوت عن النبوة مطية لتحقيق الإمكان الفلسفي

إن السكوت عند هذا الأفق الإبستيمولوجي ينم عن حكمة ، تتمثل في أن الكلام . فلسفيا . في القضايا ذات الطابع الديني ، لا يكرس إلا الصراع والجدال الذي يحوّل الفعل المعرفي إلى فعل إيديولوجي ، ومن ثم يقضي على ظاهرة التفلسف ، ويعرض حياه الفلاسفة للخطر. والتاريخ الإسلامي حافل بالشواهد والأمثلة التي تثبت النتائج العكسية التي أفرزها كلام الفلاسفة ، والجهر بمواقفهم تجاه القضايا الدينية ذات المسحة العقائدية ، وما يترتب عن ذلك من تكفير ومطاردة للفلاسفة من قبل الأمراء والملوك ، بإيعاز من الفقهاء المتعصبين. ويبدو أن ابن باجة قد استفاد من هذه التجربة ، والمحنة السياسية والفكرية التي نتجت عن التصادم بين الفقهاء والفلاسفة. فكان لزاما عليه أن يغير استراتيجيته المعرفية والمنهجية من مسألة "النبوة"، فتبنى موقف السكوت ، ليبادر بالقول الفلسفي فيما يستوجب القول فيه ، ومن ثم تجلي دلالات موقف السكوت.

سكت ابن باجة عن "النبوة"، لكنه سكوت على مستوى المقدمات ، في خطابه الفلسفي ، وسرعان ما تتكشف حقيقتها ، وبالتالي ، مغزى وفاعلية السكوت عنها ، على مستوى النتائج. فنشير إلى بعض النتائج لنقول: إن سكوت ابن باجة عن قضية معرفية(النبوة) ، هي أحد أبرز أسس ومرتكزات الفكر الإسلامي ، هو محاولة منه لتحقيق إمكانية التفلسف ، وإرساء دعائم الفلسفة في مجتمع اللافلسفة ، بمعنى أن استراتيجية السكوت تمكّن من رفع القيود الإيديولوجية على الفكر ، والإفلات من الرقابة التي يفرضها جهاز الملة على الفلاسفة بصورة ذكية وغير مباشرة. كما أن السكوت ليس إنكارا لحقيقة النبوة وعدم الاكتراث بها ، بل إن العكس هو الأمر الوارد عند ابن باجة. فهو قد امتنع عن الحديث عنها ، ليصعد عبر معراج الفلسفة إلى أفقها ، ليعيش تجربتها وجوديا ، بمعنى أنه أراد للفلاسفة أن يرتقوا إلى مصاف الأنبياء ، ليكونوا في مستوى النيابة عنهم ، لنشر رسالة المعرفة والأخلاق في الأرض ، بعدما

قررت الإرادة الإلهية توقيف ظاهرة النبوة، لتتاح للإنسان إمكانية تحقيق "الخلافة" على وجهها الكامل كما رسمت معالمها النبوة: أي أن يتحلى الفيلسوف بخصال النبي، ليكون في مستوى القيادة لتحقيق حلم "المدينة الفاضلة". لكنه ليس "الفيلسوف النبي" في مرجعيته التصورية الفارابية ذات المشارب الإيديولوجية الشيعية في توجهها واتجاهها الفيضي الروحاني، بل "الفيلسوف المتوحد" المراهن على إمكانه العقلي للارتقاء إلى أسمى المستويات الإدراكية وهي "الصور الروحانية العامة" التي هي خصيصة مقام النبوة، مما يجعلها (أي النبوة) أفقا يتطلع إليه الفيلسوف (المتوحد) لتحقيق حلمه الوجودي والمعرفي. وهو ما يفيد أن "السكوت تعبير عن الرضا"، واعتراف بحقيقة وفضل، ومكانة النبوة. ولهذا فإن من مهام الفلسفة بالنسبة لابن باجة، "أن تنفتح على الفضل الإلهي، وأن تعترف بأن الله قد أرسل الأنبياء إلى البشر لكي يكشف لهم غاياتهم النهائية"[27] والفلسفة تمّكن الإنسان من إدراك هذه الغايات، ليحولها إلى تجربة وجودية؛ أي الانتقال من المقدمات النظرية إلى النتائج العملية. ويتجلى ذلك بوضوح في إلحاحه القوي على الإنسان بالعمل على تحقيق الجزء الإلهي في كينونته، ليكون إنسانا إلهيا. وقد كرس لهذا الغرض كتابه "تدبير المتوحد" الذي رسم للإنسان من خلاله، معالم الصعود والترقي، لتحقيق إمكانية الاتصال بـ "العقل الفعال".

إذا كان ابن باجة من خلال سكوته عن النبوة، يسعى لتمكين الفلاسفة من خلافة الأنبياء، فإنه يستحيل عليهم الاتصال بعالم المفارقة عبر وساطة "الوحي"، فذاك طريق خاص بالأنبياء، ولذلك فالسبيل الأوحد للاقتراب من عالم الحقائق السرمدية، بالنسبة إليه هو العقل، لصياغة الواقع وفقها، " أي أن نعي بأن التنزيل يجب أن يرتبط بالعقل"[28] لأن الإنسان لا يملك إلا "العقل" كطاقة وفعالية لبلوغ الخير الأسمى. وهنا تتجلى أهمية السكوت الذي تقتضيه الحكمة الفلسفية: فلا بد من الامتناع عن التفلسف في حقيقة النبوة، حتى تتحقق إمكانية ممارسة التعقل فيما هو قابل للتعقل. وعند هذا الأفق، يتحدد الموقف الإبستيمولوجي بوضوح من هذه الواقعة المعرفية. فابن باجة "اعتبر هذه الظاهرة غير قابلة للتفسير العقلي، فأدخلها في دائرة ما سماه بـ«المواهب الإلهية»"[29] وفضلا عن ذلك، كثيرا ما أدى جلب قضية النبوة إلى دائرة الفلسفة، للتفلسف في حقيقتها إلى إقصاء العقل والتشكيك في فعاليته بحجة أن النبوة حقيقة توقيفية، ليس بالإمكان القبض عليها عقليا. وحتى لو كان تعقلها يسير باتجاه تأكيدها، وإبراز قيمتها، فإنه سعي مرفوض تحت ذريعة أن القول العقلي البرهاني يتعارض مع الأمر اليقيني الإيماني. ومن هنا فإن إزاحة ابن باجة لنظرية النبوة، كان بغرض التأسيس لنظرية العقل، وتمكين الإنسان من بلوغ أسمى غاياته عبر وساطته. وهو بهذا إنما يريد أن يمهد الطريق للاستقلال الفلسفي؛ أي أنه يدعو إلى الحضور الفلسفي الخالص والأصيل للفلسفة في المجتمع العربي، ليحد من هيمنة الحقول المعرفية النقلية الأخرى التي كثيرا ما استهجنت وجود الفلسفة بجوارها. وهذا ما يحيل إلى الأولية الثالثة:

ج) . السكوت عن النبوة تحقيق لعملية التواصل المعرفي داخل الفضاء الإسلامي

إن الامتناع عن القول الفلسفي حول قضية "النبوة" يساهم في تحقيق التآلف والتواصل بين الفلسفة والعلوم الأخرى ذات المرجعية الدينية الخالصة، مع مراعاة الحدود الطبيعية الفاصلة بينها للمحافظة على خصوصياتها، وذلك من خلال تحديد مواقع منتجيها: النبي والفيلسوف والفقيه والمتصوف... فالفيلسوف عند ابن باجة هو "الحكيم" جريا على سنة التقليد الفكري اليوناني، وليس هو "الإمام" كما يرى ذلك الفارابي استنادا إلى الموروث الديني الشيعي. وليس هو "العارف"/"الواصل" كما هو معروف في التقليد العرفاني الصوفي.

فإصرار ابن باجة على وصل الفلسفة بالحكمة(عقليا)، وفصلها عن النبوة/الإمامة(دينيا)، وعن الإشراق(صوفيا)... هو أولا: تحديد لماهيتها كخطاب عقلي خالص، لا يقبل التماهي والتلفيق، ولا يقف ندا لأي خطاب (كما حصل ذلك مع الغزالي وابن رشد في تعاملهما مع إشكالية العقل والنقل)، بل يكتفي بحضوره وحركته داخل جغرافيته. ولا يتجاوز حدودها، لاقتحام الحقول المعرفية الأخرى. فهي . أي الفلسفة . كائن معرفي منفتح، يؤمن بحسن الجوار. وإذا تحقق هذا التجاور والتواصل والتعايش بين العلوم العقلية التي تمثل الفلسفة مرجعها، والعلوم النقلية التي تشكل النبوة سندها، أصبح الكلام، فلسفيا، عن النبوة مباحا وممكنا[30] فيُفلسف الدين، وتتدين

الفلسفة ، لتتحقق بذلك وحدة المعرفة. وتتكامل عناصرها ومكوناتها. وتتجذر هويتها الإسلامية ، وتتجدد وتتطور على قاعدة الأصالة من خلال انفتاحها على المنظومات المعرفية المجاورة لها في المكان والمعاصرة لها في الزمان. وعند هذا الأفق تحديدا ، يزول الخلاف والصراع ، ويتأصّل الاختلاف والتدافع كقاعدة معرفية ، وسمة حضارية.

والفلسفة من خلال هذا التواصل مع العلوم الأخرى ، تحقق إمكانية الحضور المعرفي للعقل ، وبسط سلطته على جميع العلوم الأخرى ، وإدماج غاياتها الجزئية الخاصة في غاية ميتافيزيقية كلية ؛ هي تحقيق الجزء الإلهي في كينونة الإنسان ، ليتحقق توازنه الوجودي والمعرفي. وبهذا حاول ابن باجة "خلافا للغزالي ، أن يعيد للفلسفة مهمتها الأكثر رفعة: إدماج العلوم والتأمل في غاياتها لقيادة العقل إلى غايته النهائية: الاتحاد مع الله".[31] وهو ما يعني ، أن تستعيد الفلسفة صفتها اليونانية القديمة ، بحيث تصير "أم العلوم" بمعنى ما ، أي تمتد إلى العلوم الأخرى لتمارس وظيفتها النقدية البنائية داخل فضاءاتها.

هذه بعض أبعاد وآفاق استراتيجية السكوت عن حقيقة "النبوة". فابن باجة وقف موقفا وسطا بين القبول والرفض ؛ الإثبات والإبطال ، وهو موقف فلسفي أصيل ، تجاوزا للصراع الإيديولوجي والتعصب الفكري ، للتمكين من تجسيد عملية التفاعل المعرفي والحوار الثقافي كقيمة فكرية وحضارية.

في نظرنا ، ربما أراد ابن باجة بهذا التوجه أن يخلص الثقافة العربية الإسلامية من الصراع الفكري والإيديولوجي الذي أثر سلبا على فاعليتها الاجتماعية والسياسية. فهي كونها ثقافة تتميز بتنوع مصادرها وأصولها المعرفية ، فإنها لم تستفد من ظاهرة التنوع ، بحيث لم يتمكن القائمون عليها من تكريس قاعدة "الاختلاف" لتحقيق التفاعل والتكامل ، بل إن ما حصل هو الخلاف والصراع الدامي والتكفير الديني والسياسي بين مختلف الفرق الدينية والسياسية. ولهذا حاول ابن باجة من خلال دعوته إلى التأسيس لنظرية العقل ، وسكوته عن الحقول المعرفية النقلية ، باستثناء التصوف الذي شن عليه هجوما عنيفا .وسنبيّن لاحقا أسباب هذا الهجوم ودواعيه . أن يتعامل بذكاء ولباقة وفطنة الفيلسوف مع هذا التنوع في أصول الثقافة العربية الإسلامية الذي هو خاصيتها الجوهرية ، مع استبعاد كل محاولة للإلغاء ، وذلك لتحقيق نوع من التجانس والتواصل بين هذه الأصول والمصادر ، ليجعل منها كائنات معرفية ، تتعايش فيما بينها داخل بيئة ثقافية وحضارية واحدة ، فتتمكن بتفاعلها وتكاملها من صياغة الوعي العربي (الإسلامي) على وجه الأصالة المفهومية ، وبلورته على قاعدة التجديد الحضاري ، ومن ثمة إعادة صياغة الوجود التاريخي للإنسان العربي المسلم ، ليعيش حياة فاضلة داخل مجتمع فاضل. فهذه الكائنات المعرفية على اختلاف أجناسها وأنواعها وفصولها النوعية ومنطلقاتها وطرائقها ، تلتقي عند هدف واحد ، هو تمكين الإنسان من استكمال وجوده الفاضل ، وتشبعه بقيم الحوار والتسامح الفكري ، ليحقق اجتماعيته على وجهها الحضاري الراقي.

بهذه الاستراتيجية المعرفية وبهذا الإجراء المنهجي ، المؤسس على موقف "السكوت" عن قضية النبوة في الخطاب الفلسفي الباجي ، يأخذ "التنوع الثقافي" معناه الإيجابي فيتحقق التواصل والتجانس والتفاعل ، ويسود "الانفتاح والتسامح الفكري الذي هو ثمرة وتتويج لمبدأ "الاختلاف" ، فيكون الأفق الحضاري واحدا ومشتركا ، يلتقي عنده الفيلسوف والفقيه والمتصوف والسياسي رغم اختلاف مرجعياتهم الفكرية وتوجهاتهم الإيديولوجية ومواقعهم الاجتماعية. وهذا ما نوه به الجابري بقوله: "وهكذا فوراء التعدد والتنوع في ثقافتنا الماضية يقوم التكامل والوحدة ، وهذا شيء يغفله تاريخنا الثقافي السائد الآن. والنتيجة من هذا الإغفال هي أن الفقيه منا لا يرث من فقه الماضي إلا خصومة بعض الفقهاء للفلسفة مثلا في حين أن هذه الخصومات جميعها كانت إما خصومات عملية أي اجتهادات ، وإما امتداد لخصومات سياسية"[32]. ومن ثمة فالتوتر الذي يسود ثقافتنا المعاصرة . في تصور الجابري . هو نتيجة وامتداد لـ "خصومة بعض الفقهاء للفلسفة" في الماضي. ومن هنا فإن التآلف والتجانس بين العلوم العربية الإسلامية الذي سعى ابن باجة إلى تحقيقه من خلال تبنّيه لمبدأ السكوت عن النبوة ، يتجاوز مستوى كونه موقفا فلسفيا يعبر عن رأي منفرد ، إلى أفق القاعدة الإبستيمولوجية ، والرؤية المنهجية التي تؤسس لـ "التكامل والوحدة".

إن هاجس التأسيس لقاعدة تكامل ووحدة المعارف في السياق العربي الإسلامي الذي حرك فكر ابن باجة ، تمليه مشكلة أساسية في غاية الخطورة ، وتستوجب ، بحق ، التساؤل والبحث ؛ هي مشكلة السجال والعداء الفكري

والمذهبي الذي وسم الثقافة العربية الإسلامية عبر تاريخها الطويل الذي عادة ما يُوعِز أسبابه رجال الفكر ، ودعاة التنظير إلى مبررات إيديولوجية ودينية: فالثورة على علم الكلام ، وعلى الفلسفة كان مبررها جميعا حماية الدين من أن تشوه التأويلات العقلية (الكلامية والفلسفية) حقائقه ، إلا أنه لم ولن يلحق التشويه الدين ، فللدين مناعته وحصانته الميتافيزيقية كما يقر بذلك القرآن الكريم صراحة " **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** ۝٩ "[33]، بل إن المتضرر من ذلك ؛ هو وعي الإنسان ، هو العقل ، فقد تم تعطيل فعله المعرفي من خلال إسكات صوته من طرف جهاز الملة المتعصب للمرجعية النبوية والذي يرى في التعقّل مساس بقدسيتها. ومن هنا ، فإننا نرى في محاولة ابن باجة التأسيس لسلطان العقل من خلال سكوته عن النبوة ؛ دعوة للإصلاح والمصالحة بين الفلسفة والحقول المعرفية الأخرى في المنظومة الثقافية العربية الإسلامية.

نستأنف الحديث عن موقف ابن باجة من التصوف وقد أشرنا إليه سابقا ، فهو هاجمه ، وقال بعدم فاعليته معرفيا واجتماعيا ، ولذلك تصدى لمحاربته ورفضه كعنصر في بنية المنظومة المعرفية الإسلامية. وهنا نجد أنفسنا أمام تناقض منطقي صريح ومفارقة معرفية مكشوفة: فكيف يمكن الجمع بين دعوته التأليفية بين الحقول المعرفية ، وموقفه العدائي الصريح من التصوف ؟! أليس التصوف حقلا معرفيا له جذوره التاريخية في التراث العربي الإسلامي ؟

في نظر ابن باجة ؛ فإن ما يجمع بين الحقول المعرفية هو اعتمادها على فاعلية الفكر ، بينما التصوف قوامه "الذكر" ، وهو ما يخرجه من منظومة المعرفة الإنسانية. والحجة التي يؤسس عليها موقفه الرافض للتصوف ؛ هي انشغال المتصوفة بالذكر على حساب الفكر. ولذلك ؛ فإن الفيلسوف المتوحد إنما يتوحد ليرتب أفعال الفكر(التدبير)، لكي يمكّنه من بلوغ السعادة القصوى. بينما الصوفي يتوحد ليشغل نفسه بالذكر ، معتقدا فيه الطريق الموصل إلى مقام السعادة القصوى. وفي تصور ابن باجة ؛ فإن الأنفس لا تسمو ، والمدن لا تتجاوزها نقصها بالذكر ، بل بالفكر من منطلق أن الإنسان بما هو صورة مدينة .كما يرى .إنما يحقق كماله الإنساني وكمال مدينته بالقوة العاقلة فيه. وعن إخفاق الإمكان الصوفي . من خلال سلوك الذكر . في تجاوز المدينة لنقصها إلى أفق كمالها ، و بلوغ الإنسان السعادة القصوى التي يتوق إليها ، يوضح ابن باجة في كتابه تدبير المتوحد قائلا: :" **...تزعم الصوفية أن إدراك السعادة القصوى قد لا يكون بلا تعلم، بل بالتفرغ وبأن لا يخلو طرفة عين عن ذكر المطلوب، وذلك كله ظن، وفعل ما ظنوا أمر خارج عن الطبع، وهذه الغاية التي ظنوها لو كانت صادقة وغاية للمتوحد فإدراكها بالعرض لا بالذات، فلو أدركت ما كانت منها مدينة، ولبقي أشرف أجزاء الانسان باطلا، وكانت تبطل جميع العلوم، والعلوم الثلاثة التي هي الحكمة النظرية...بل والصنائع الظنونية.."**[34].

وتأسيسا على هذه الحجة ، رأى في تعاطيه وممارسته خروجا عن الطبع الاجتماعي والضرورة الحضارية للإنسان ، ولذلك سعى إلى تخليص المنظومة المعرفية العربية الإسلامية من تأثيره. وببساطة شديدة نقول: .كما فهمنا من خلال رأيه فيه . إن التصوف خروج عن الطبع ففرار وهروب ، وانتفاء لدور الإنسان في المجتمع فانكفاء على الذات وانسحاب ، ينشد العزلة ويمقت الحضور ، ينبذ الاجتماع ويؤثر الانفراد. فهو بهذا التوصيف ، يدعو الإنسان إلى الانسحاب من المجتمع والخروج من التاريخ ، فيمحو ، بالتالي ، كل آثار التمدن ، ويعرقل مسار التاريخ. ولهذا السبب بالتحديد يرفض ابن باجة التصوف كونه أصلا معرفيا.

بهذا التحديد المفهومي والوظيفي الذي حاول ابن باجة أن يقيمه للفلسفة كخطاب عقلي متميز ، وبحدود التجاور والتجانس التي رسمها لها مع الحقول المعرفية الأخرى ، أراد ثانيا أن يزيل التوتر الذي حصل بين العقل والنقل ، أو أن يساهم في التخفيف من حدته على الأقل ، ليوفر شرطي الهدوء والحرية ، والتأسيس لتقاليد الحوار ، وإرساء قواعد الاختلاف التي هي في صميمها بنات الحكمة الفلسفية ، لكي تمارس الفلسفة نشاطها ، وتستكمل مهمتها ، حتى تتم محاكمتها ، ليكون الحكم لها أو عليها. لأن .في نظرنا .حضور الفلسفة في البيئة العربية الإسلامية وسط ذاك الصراع والتوتر ، لم يمكنها من التعبير عن ذاتها ، وإبراز أصالتها ، والتمكين لإسهامها المعرفي في مختلف القضايا النظرية والعملية بصراحة ووضوح ؛ وفضلا عن ذلك عطل من فاعليتها الإبداعية وسبب ذلك ، هو الحضور القوي والمكثف للإيديولوجي على حساب المعرفي كعائق إبستيمولوجي ومنهجي ، حيث إنه لما تم تبني مبدأ "التوفيق" بين العقل والنبوة ، خاصة في المشرق العربي ، فإن ذلك لم يعبر عن موقف متوازن ، بحيث أخفق في الحفاظ

على الحدود الفاصلة بين الدين والفلسفة، وما انبثق عن مرجعيته التصورية من علوم نظرية. فكل ما سعت إليه النزعة "التوفيقية" . لا التآلفية . هو محاولة إلباس الفلسفة ثوبا دينيا (الفيلسوف الإمام مثلا) إلى حد محو خصائص الهوية الفلسفية.

إن تبيئة الفلسفة في مجتمع لم تنشأ في تربته أصلا، ومنحها شرعية الإقامة على حدود وطن لم يقدَّر لها حق الميلاد فيه، وإرساء دعائم التقليد الفلسفي في مجتمع لم يترب على الطبع الفلسفي تلك هي إحدى أبرز مهمات الفيلسوف الذي قذف به القدر داخل جغرافية يسيطر على وعي الكائنات العاقلة فيها "جهاز الملة". والفيلسوف ابن باجة قد وجد نفسه بين الالتزام بمهمة معرفية، ورسالة حضارية، يتوجب عليه تنفيذها، والمخاطر التي يلحقها به جهاز الملة، إن هو حاول توطين كائن غريب اسمه "الفلسفة" في وطن اللافلسفة. فقرر أخيرا، ومن منطلق حسه الفلسفي، السعي إلى إنجاز المهمة المنوطة به، بعد أن حسب لجهاز الملة حسابه، لدرء مخاطره، فلجأ إلى نوع من "التقية"؛ هي استراتيجية السكوت عن النبوة إلى حين توطين الفلسفة وتجنيسها في الوطن الذي استغرب وجودها فيه، أي إلى حين يغادر "المتوحد" (الفيلسوف) التوحد والعودة إلى التجمع بعد أن يستكمل شروط الفضيلة الأخلاقية والمعرفية، فيكون الكلام، إذّاك، عن النبوة وأخواتها من القضايا المحظور على الفلسفة تناولها ممكنا؛ مباحا ومشروعا. تلك هي نتيجة السكوت، وذاك هو المعنى البعيد الذي قصده ابن باجة منه، كما فهمنا ذلك من فلسفته. وهو المعنى الذي نقف على الكثير من مرادفاته، في حياتنا الفكرية وواقعنا الاجتماعي المعاصر.

خاتمة

سكت ابن باجة .إذا عن قضية "النبوة"، وامتنع عن التفكير، فلسفيا، في أفقها، متجاوزا بهذا الموقف الصورة الجدلية التقليدية لإشكالية العقل والنقل في توجهاتها الكلامية والفلسفية والفقهية والصوفية التي انخرط في مناقشتها من سبقه ومن تلاه من المتكلمين والفلاسفة والفقهاء. وإذا كان الكلام عن "النبوة" هو ما ميّز مواقفهم حيالها من حيث إمكانية توافقها أو تعارضها مع العقل، فإن ابن باجة ثار ضد هذا التقليد الفكري والمنهجي، وتجاوز المنطق الجدلي الذي حكم إشكالية "النبوة"، فاهتدى في ذلك إلى استراتيجية "السكوت" عنها، سكوتا لا يستبطن معنى الإنكار والتنكر لحقيقتها ووجودها، بل يكشف عن الإيمان بها والإشادة بمقامها. وبالتالي، فمفاد "السكوت" وفحواه بالنسبة له سببان: أوّلهما، عدم حاجة الفيلسوف إليها، من حيث وظيفتها المعرفية، من منطلق أهليته وقدرته على ممارسة الدور النبوي فيما يتعلق ببلوغ الغاية القصوى (السعادة الأبدية). فإذا كان المعطى الأنطولوجي هو أساس التمييز والتمايز بين النبي والفيلسوف، فإن المعرفي هو الوظيفة التي يشتركان فيها. كما يشتركان في إمكانية الاتصال بالعقل الفعال. **إي أن الفيلسوف نبي ممكن، يمارس الإمكان النبوي بترقيه العقلي نظيرا للتلقي / الوحي أو المنة الإلهية التي خُصَّ بها النبي. وحجة ابن باجة في ذلك، هي أن: " الفيلسوف تام العقل وينظر الى كل شيء بعين هذا العقل فيرى العقل في كل شيء ويصير هو إياه[35]. وقد تجاوز ابن باجة في نظره هذا، من سبقه من الفلاسفة، مثلما أشار اليه بنفسه[36].**

فتمام العقل، إذن، وقدرته على الاتصال بالعقل الفعال . بما هو إمكان بشري، يجعله في غنى عن النبوة، وبالتالي موجب للسكوت عنها. سكوتا حاول ابن باجة من خلاله أن يرتقي بمتوحده إلى أفق "الفيلسوف النبي" في ماهيته ووظيفته، ليكون فيلسوفا/ متوحدا مجاورا للنبي في مقامه ومكانته ومآله، في أصالة هويته الفلسفية الخالصة.

والسبب الثاني، الذي يوجب في نظره السكوت عن النبوة هو لوازم ومستلزمات وخواص "المدينة الكاملة ". فكمالها يغنيها عن حاجتها إلى النبي، نظرا لملازمة الفيلسوف لها، والذي يضطلع بنفس وظيفة ورسالة النبي تجاهها، انطلاقا من امتلاكه لـ "العقل المستفاد" الذي يؤهله للدور(النبوي). فسكان هذه المدينة لا يحتاجون إلى أنبياء أو رسل وإنما يحتاجون إلى العقل فقط، ويعولون عليه في استكمال وجودهم الفاضل ليصيروا مواطنين صالحين. ولذلك جعل ابن باجة الفلاسفة من خواص "المدينة الكاملة"، والأنبياء والرسل من لوازم "المدينة الناقصة".

وما يمكن إفادته من سكوت ابن باجة عن قضية «النبوة" في خطابه الفلسفي، هو جملة رؤى استراتيجية حوّل من خلالها "الفلسفة بالقول" إلى فلسفة بالفعل، لخصها مضمون كتابه القيم "تدبير المتوحد". وهي رؤى

استشرافية تستبطن إمكانيات الرهان عليها في حل الإشكاليات الفكرية والقيمية (الأخلاقية والتربوية والاجتماعية والسياسية...)، يمكننا إجمالها في النتائج التالية:

1 . مراجعة ونقد أطر التفكير الخاضعة للامعقول الديني (المنقول الفقهي والكلامي والعرفاني)، وإعادة موقعة العقل في الخريطة المعرفية الإسلامية. والعمل على تثبيته وتمركزه كمرجعية وحيدة للتفكير والتدبير. وإحداث قطيعة نهائية وحاسمة مع اللامعقول في كل صوره وتمثلاته: من غنوص وعرفان ومتخيل أسطوري، وغيبيات خرافية والتي هي في جوهرها انفعالات وجدانية ومعتقدات نفسية وهمية، أنتجتها العاطفة الدينية والإيمان الأعمى بالنبوة، أساءت الفهم لحقيقة النبوة ذاتها في غياب العقل البرهاني.

2 . جرأة موقفه ، وفرادته وتفرده وجدّته ، المتمثل في اعتباره العقل قوام الإيمان والسبيل إلى معرفة الله وعبادته ، وليس التسليم الغيبي الذي أقرته الكتب المقدسة. فالعقل يضطلع بالوظيفة النبوية على أكمل وجه دونما حاجة إلى النبوة ، ولا إلى الإحالة إليها ، فكونه عقلا مستفادا في إنسيته ، فهو فيض عن العقل الفعال في ألوهته ، وهو إذ يشترك مع النبوة في المبدأ الفيضي ، فإنه يناظرها ويتساوى معها في الوظيفة والمقام. وقد خُصّ به الفيلسوف المتوحد. وما أوقف الله النبوة وحكم بختمها إلا لينيط بالعقل مهمة استئناف الدور المعرفي والقيمي والتربوي واستمرار حركته الفكرية في بعديها: الأفقي (الوجود والتاريخ)، والعمودي (الميتافيزيقا والخلود) لربط الزمني بالمطلق الذي هو في الأصل والمبدأ وظيفة نبوية خالصة.

3. إعطاء الأولوية للعقل في بلوغ الحقيقة ، وتنصيبه حكما مطلقا في كل الأمور. وأنه مصدر المعرفة الصحيحة والمطلقة ، وأنه مدار الأخلاق والسعادة. وبواسطته يستطيع الإنسان أن يدرك كلّ شيء ، من أدنى دركات الوجود (المادية)، الى أعلى درجات الوجود (الوجود الالهي). ولم يكتف ابن باجة بتمجيده ، بل ذهب إلى حد تقديسه. والدافع إلى ذلك هو الرد على هجوم الفقهاء وفي مقدمتهم الغزالي ، ومتكلمو الأشعرية الذين أوعزوا المعرفة والحقيقة وبلوغ السعادة إلى الروحانيات والغيبيات والإشراقات النورانية التي هي فيوضات النبوة.

4 . نقرأ في تحييده لقضية النبوة، وتأكيده على عدم الحاجة إلى دورها المعرفي والقيمي، ومن ثم التعويل على العقل طريقا أوحد لبلوغ الحقيقة، والرهان عليه في تحقيق الكمال الوجودي للإنسان، والنظام الفاضل للمجتمع، إنزال الفيلسوف منزلة النبي، وإثبات أن دوره المعرفي ورسالته التربوية ودوره التغييري في المجتمع نبوي بامتياز على وجه الأصالة الفلسفية. وأن المجتمع الذي يحرم من وجود الفيلسوف ومن دوره فيه، يحرم من تحقيق أنموذج "المدينة الكاملة"، ويكرس، بالتالي، وضع "المدينة الجاهلة" أو "الناقصة" على حد توصيف ابن باجة. وإننا لنجد في قوله: "المتوحد صورة مدينة"، تعبيرا صادقا ومثالا شارحا مفصحا عن حاجة المجتمع للفيلسوف. وقديما حينما أمكن لحضارتنا ان تنتج فلاسفة، تم التضييق على نشاطهم الفكري، وتكفيرهم وطردهم من المدينة الإسلامية . على غرار طرد أفلاطون للشعراء من جمهوريته . وعلة ذلك كما تصور ابن باجة، هو إقحام قضية النبوة في النقاش الفكري والثقافي. مما أدى إلى هيمنة الإيديولوجي على المعرفي، وانتشار ثقافة التكفير، وروح التعصب والانغلاق والتشدد، ولذلك فإن:

5 . تبني استراتيجية السكوت عن النبوة كفيل بتخليص الساحة الفكرية من الصراع الإيديولوجي، والتعصب المذهبي، والتشدد الفكري، وتجاوز الثنائية الجدلية العقيمة فيما يتعلق بإشكاليات العقل والنقل، المتخيل والمعقول، الدين والفلسفة، الحكمة والشريعة... ومن ثم التأسيس للتسامح والحوار الفكري، وتقبل الآخر المختلف. وتحقيق الوحدة والتواصل بين المعارف والتكامل بينها. فمن الحكمة (العملية) أن "يستند الخطاب الفلسفي إلى استبعاد الخصام والصراعات العنيفة ، على الصعيد الاجتماعي السياسي ، إلى تجاوز التناقضات والاختلاف على الصعيد الفكري. فكثيرا ما يتحول الخطاب الفلسفي إلى عامل مقوم للحالات الفكرية التي تتصف بالتناقض والتعدد والخصام ، فيعتبر من الحكمة أن نبحث لهذه الحالات عن حلول كاملة ، حتى تحل الوحدة محل التعدد المتصادم ، وحتى يحل الوفاق محل التناقض ، والسلام محل الحرب. فتحقيق الوحدة بين المعارف المختلفة هو مطمح الفلسفة."[37]

انطلاقا من هذه النتائج التي خلصنا إليها ، نستدعي ابن باجة اليوم ونحن ننظر في مواقفه الفلسفية في

ضوء مشكلات الحاضر وتحدياته ، فتنتصب في أفق تفكيرنا ، وتشغل اهتمامنا قضايا شبيهة بتلك التي أثارها ، بل وتكرارا لها في كثير من جوانبها ، من قبيل: تصور نظام الحكم بين الأسلمة والعلمنة ، سؤال عقلنة الخطاب الديني وتجديده ، جدل العقل والشريعة وتنازعهما فيما يتعلق بمراجعة بعض الأحكام الفقهية ، مواجهة العقل البرهاني لأشكال من الخطاب الديني والصوفي ؛ أسهمت في إحاطة قضايا الإيمان والغيب بتفسيرات خرافية ، انتجت ظواهر الشعوذة والدروشة... عبر هذه القضايا وغيرها يظل فكر ابن باجة مواكبا لمستجدات ومشكلات عصرنا الراهن وتظل فلسفته محطة معرفية مضيئة في تاريخ العقلانية العربية وصراعها مع الغيبيات والاساطير والخرافات التي كانت ولا تزال تهيمن على وعيينا الجمعي.

الهوامش

1. إبراهيم مدكور: "في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه" ، ج1 ، دار المعارف ، ط3 ، (د-ت). ص: 69.
2. المرجع نفسه ، ص: 69.
3. ابن باجة: "رسالة اتصال الإنسان بالعقل الفعال" ، تحقيق: ماجد فخري ، ضمن رسائل بن باجة الإلهية ، دار النهار ، بيروت ، 1967 ، ص: 162.
4. .ابن باجة: "الفطر الفائقة والتراتب المعرفي" ، ضمن رسائل فلسفية لأبي بكر بن باجة ، نصوص فلسفية غير منشورة ، دار الثقافة بيروت ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، د. ت ، ص: 176.
5. ابن باجة: الفطر الفائقة والتراتب المعرفي ، المصدر نفسه ، ص: 178.
6. مُحَمَّد عبد الرحمن مرحبا: "خطاب الفلسفة العربية الإسلامية" ، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر ، بيروت ، 1993 ، ص: 438 . 439.
7. ابن باجة: رسالة الوداع ، تحقيق: ماجد فخري ، ضمن رسائل بن باجة الإلهية ، دار النهار ، بيروت ، 1968 ص: 141.
8. المصدر نفسه ، ص: 130.
9. المصدر نفسه ، ص: 139.
10. المصدر نفسه ، ص: 162.
11. المصدر نفسه ، ص: 152.
12. الفارابي: فلسفة أرسطو طاليس ، تحقيق: محسن مهدي ، دار مجلة شعر ، بيروت ، 1961 ، ص: 129.
13. ابن باجة: رسالة الوداع ، مصدر سابق ، ص: 141.
14. ابن باجة: الفطر الفائقة والتراتب المعرفي ، مصدر سابق ، ص: 175.
15. مُحَمَّد عبد الرحمن مرحبا: مرجع سابق ، ص: 438.
16. جابر عصفور: "أنوار العقل" ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1996 ، ص 9 . 10.
17. معن زيادة: "الحركة من الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة" ، (دراسة في فلسفة بن باجة) ، دار إقرأ ، ط1 ، بيروت ، 1985 ، ص: 40.
18. المرجع نفسه ، ص: 39.
19. E — I — J Rosnthal: political thought in médiéval Islam , Cambridge: the university press,1962.p163
20. مُحَمَّد عبد الرحمن مرحبا: مرجع سابق ، ص: 438.
21. معن زيادة: مرجع سابق ، ص: 39.
22. علي عبد الفتاح المغربي: "فلاسفة المغرب" ، توزيع مكتبة الحرية الحديثة ، القاهرة ، 1990 ، ص 185 . 189.
23. المرجع نفسه ، ص 160.
24. إن موقف السكوت يبدو ، هنا ، إجراء منهجيا ، واستراتيجية معرفية ظرفية ، وليس مبدأ فلسفيا ثابتا ، فهو موقف فرضه توجه إيديولوجي في مرحلة تاريخية هيمن فيها الوعي الديني الخالص الذي فرضته الثقافة الإسلامية في طور تنشئتها الأولى. والعقل العربي كان في هذه المرحلة أقرب ما يكون إلى أصوله الدينية تأطيرا وتوجيها ، وأبعد ما يكون عن القواعد المنهجية المنطقية والفلسفية. ومن ثمة بات من الضروري ألا تجهر الفلسفة بمواقفها الفكرية تجاه القضايا ذات البعد العقائدي والحساسية الدينية. وإلى حين يرتقي المجتمع العربي الإسلامي إلى المرحلة التي يسود فيها الطبع الفلسفي على مستوى الوعي الذي لا يتعارض مع الوعي الديني ، بل يفعله ؛ يصبح الكلام في مثل هذه القضايا الدينية .إذاك .مباحا ومشروعا. بمعنى أن السكوت في مرحلة الطبع غير الفلسفي يشكل آلية دفاعية ووقائية ضد كل المعيقات والعقابيل التي تمنع الوعي الفلسفي من التبلور والانتشار. إن السكوت في التصور الباجي ، يفرضه النظام المعرفي والمستوى الحضاري الذي يسود "المدينة الناقصة" ، والكلام يصبح مستساغا ، بل مطلوبا في " المدينة الكاملة" التي هي ساحة عمومية للحركة الفلسفية باتجاه كل القضايا الفكرية مهما كانت طبيعتها.
25. رسائل ابن باجة الإلهية: "رسالة الوداع" ، مصدر سابق ، ص: 141.
26. مُحَمَّد عابد الجابري: "نحن والتراث" ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط6 ، 1993 ، ص: 193.
27. روجي غارودي: "الإسلام في الغرب" ، ترجمة: مُحَمَّد مهدي الصدر دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 2 ، 2002 ، ص: 103.
28. المرجع نفسه ، ص: 97.
29. مُحَمَّد عابد الجابري: مرجع سابق ، ص: 194.
30. إن كلام ابن باجة عن النبوة لا يتعدى الإشارة إليها على أنها "موهبة إلهية" ، لا تستحق أن تتحول إلى قضية فلسفية. ولهذا فالسكوت ، هنا ، لا يعني عدم الكلام ، بل عدم تحديد موقف فلسفي إزاءها ، أو تأويلها. وبما أن هناك سكوت .بهذا المعنى .عن واقعة النبوة في فلسفة ابن باجة ، فإن الضرورة المنطقية تقتضي انتفاء الحاجة إلى أقوال وشواهد من كتبه ورسائله ، وبالتالي ، فإن الدليل الوحيد على تأكيد قضية سكوته عن النبوة ، هو الاطلاع على كل مؤلفاته التي صنفها وحققها كل من د/ ماجد فخري تحت عنوان: "رسائل ابن باجة الإلهية". ومعن زيادة ، تحت عنوان: "رسائل فلسفية لآبي بكر ابن باجة" . تحقيق لـ جمال الدين العلوي بعنوان: "رسائل فلسفية لأبي بكر ابن باجة".
31. روجيه غارودي: مرجع سابق ، ص: 97.
32. مُحَمَّد عابد الجابري: "تكوين العقل العربي" ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط7 ، 1988 ، ص: 48
33. القرآن الكريم: سورة الحجر ، الآية: 9.
34. ابن باجة: "تدبير المتوحد" ، سراس للنشر ، تونس ، 1994 ، ص: 62 — 63.
35. .ابن باجة: رسالة اتصال العقل بالإنسان ، مصدر سابق ، ص167.
36. .للاطلاع على تفاصيل تجاوز ابن باجة وسبقه فيما يتعلق بالتعويل على العقل بديلا للنبوة في تحقيق الاتصال بالعقل الفعال أنظر رسالة الوداع ، مصدر سابق ، ص: 141 و143.
37. فتحي التريكي: "الفلسفة الشريدة" ، ط1 ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ط1 ، 2000 ، ص: 65.

النزعة الإنسانية والإسلام محمد مجتهد شبستري وهشام جعيط أنموذجين

Humanism and Islam Mohammad Mojtahed Shabestari and Hicham Djaït examples

تاريخ الإرسال: 11-03-2019 تاريخ القبول: 12-04-2020

عفاف مسعي، جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة2
afafmessai25@gmail.com

الملخص

نهدف من خلال هذا البحث إلى تحليل العلاقة بين الإسلام والنزعة الإنسانية من خلال أنموذجَيْن من الفكر العربي المعاصر هما: المفكر الإيراني "مُحَمَّد مجتهد شبستري" والمفكّر التونسي "هشام جعيط" ؛ فالأوّل حاول تقديم قراءة إنسانية للدين الإسلامي مُقابل القراءات السائدة التي أقرّها الفقهاء ، وهي قراءة تهتمّ بالإنسان وكلّ أبعاده المعرفية والأنطولوجية والأخلاقية ، لأنّ الإنسان في حاجة إلى الدين من أجل خدمته وليس بُغية القضاء على المخالفين له من الأديان والعقائد الأخرى ؛ فـ "شبستري" يهتمّ بإنسانيّة الإنسان قبل كلّ اعتبار آخر. أمّا "جعيط" فأكّد على أنّ الإسلام يتضمّن نوعا خاصًّا من النزعة الإنسانية القائمة على الدين الإسلامي والعقل ، ويتجلّى هذا من خلال تأكيد القرآن على قيمة الإنسان حيث استخلفه الله في الأرض وكرّمه ، كما يتجلّى من خلال الثقافة الإسلامية ما بعد القرآنية ؛ حيث تحمل بين طيّاتها ملامح النزعة الإنسانية وهذا في كتب الفقه والحديث وعلم الكلام العقلي والتصوّف وكذلك في الفلسفة والعلم والأدب.

الكلمات المفاتيح: الإسلام ؛ الدين ؛ النزعة الإنسانية ؛ مُحَمَّد مجتهد شبستري ؛ هشام جعيط.

Résumé

Nous avons pour but dans cette recherche d'analyser la relation entre L'Islam et la tendance humaniste à travers deux exemples de la pensée arabe moderne, celui de L'Iranien Mohammad Mojtahed Shabestari et celui du tunisien Hicham Djaït. Lepremier avait essayé d'exposer une lecture humaniste de l'Islam en s'appuyant sur une lecture approuveé par la doctrine, et c'est une lecture qui s'appuie sur l'humain et toutes ses dimensions de savoir, d'ontologie et de d'éthique, car l'humain a besoin de la religion pour le servir et non pas pour exterminer ceux qui le contredisent dans d'autres religions ou d'autre doctrines. Shabestari s'intéressait avant tout à l'humain, Mais Djaït, insistait que l'Islam comportait un modèle spécifique de l'humanisme basée sur la religion et la raison, et s'est éclairé selon la confirmation coranique de la valeur de l'humain qui est l'héritier de Dieu dans la terre,comme , il est exposé également dans la culture Islamique post-coranique qui réuni des formes de la tendance humaniste, et cela dans les œuvres de la jurisprudence, du hadith, de scolastique et du soufisme, ainsi que dans les œuvres philosophiques, scientifiques et de lettres.

Mots-clés : L'Islam, La religion, Humanisme, Mohammad Mojtahed Shabestari, Hicham Djaït.

Abstract

This research aims to analyze the relationship between Islam and humanity by focusing on two examples of modern Arabic thinking; the Iranian intellectual Mohammad Mojtahed Shabestari and the Tunisian intellectual Hicham Djaït. Shabestari tried to expose a new humanistic reading for the Islamic religion that goes against the dominant interpretations endorsed by Islamic scholars, a new reading that cares about the human being and all his ethical, ontological, and intellectual dimensions because man needs religion to serve him not for the sake of eradicating other different faiths and religions. Shebestari gives great care and prioritizes the humanism of the human being before anything else. While Djaït confirms that Islam consists of a special humanist tendency based on both Islam and the mind, which is clearly displayed in the Qur'an's affirmation of the value of the human being and the post-Qur'anic Islamic culture that carries the features of humanism, and this is in the books of Fiqueh and Hadith, logical oratory, Sufism, philosophy, science, and literature.

Key-words: Islam, Religion, Humanism, Mohammad Mojtahed Shabestari, Hicham Djaït.

مقدمة

يُعدّ سؤال الإنسان بصفة عامة وسؤال النزعة الإنسانية بصفة خاصة من بين الأسئلة المركزية والهامة في الفكر البشري ككلّ والفلسفة منذ القديم، ولكنه أصبح أكثر أهميّة في العصر الحديث والمعاصر وخاصة في أوروبا مع الازدهار الكبير الذي عرفته العلوم الاجتماعية والإنسانية، كما تميّز وأصبح مهمًّا أكثر مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي يؤكد على أنّ الإنسان صاحب عقل وإرادة حرة يمكنه من خلالهما تحقيق كل طموحاته وتطلّعاته في الحياة، بعيدا عن ارتباطه بكلّ ما هو متعالي غَيْبيّ ذو سيادة عليا مترفّعة عن الإنسان.

إنّ سؤال النزعة الإنسانية أصبح مطروحا بشدّة في هذا العصر الذي عرف الكثير من مظاهر العنف والكراهية والتعصّب والقتل، والتي يردّها جلّ الباحثين والمفكّرين إلى الفكر الديني المتطرّف واللاّعقلاني، ومن هنا تُطرح جدلية الدين والإنسان وكيفية إمكانية الجمع بينهما، وهو المشكلة التي نطرحها في هذا المقال محاولين الإجابة عنه من خلال فكر كلّ من "مُحَمَّد مجتهد شبستري"[1] والمفكّر "هشام جعيط"[2]، فالأول حاول تقديم قراءة إنسانية للدين الإسلامي حتى يبتعد عن القراءات الكلاسيكية التي تهتمّ بالظاهر فقط والتي ثبّتت مظاهر العنف واللاتسامح، أما الثاني فيحاول إثبات وجود نزعة إنسانية وعقلانية في الدين الإسلامي من خلال القرآن والثقافة الدينية، وحجّتنا في الجمع بين هذين النّموذجين من المفكّرين المسلمين هو أنّ كلاهما يهدف إلى التأكيد على قيمة الإنسان وكرامته وإنسانيته في علاقته بالدين الإسلامي، لأنّ الإسلام يحمل بين طيّاته بذور الإنسانية لا بذور العنف والتطرّف كما هو سائد اليوم، بالإضافة إلى أنّ لكلا المفكّرين مناهج علمية يستخدمانها من أجل قراءة موضوعية وعلمية أكثر، وعليه فإنّ المشكلة التي تواجهنا هي كالآتي: إلى أي مدى يمكننا الحديث عن نزعة إنسانية ذات علاقة بالإسلام في ظلّ تجاوز الباحثين والمفكّرين اليوم البحث في الإنسان إلى البحث فيما يُعرف بما بعد الإنسانية Le post-humanisme؟ كيف يمكن قراءة الدين الإسلامي قراءة إنسانية عند "مُحَمَّد مجتهد شبستري" من أجل القضاء على العنف والتطرّف؟ وهل تمكّن "هشام جعيط" من إثبات وجود نزعة إنسانية في الإسلام؟

أولا: مقاربة مفاهيمية: النزعة الإنسانية، الإسلام

1-مفهوم النزعة الإنسانية

نحاول في هذا العنصر تقديم مفهوم شامل غير مفصّل للنزعة الإنسانية لأنّ هناك العديد من الدراسات التي ناقَشت هذا المفهوم بالتفصيل[3]؛ ولهذا يمكن القول بأنّ الاهتمام المستقلّ بالبحث في الإنسان والنزعة الإنسانية (الإنسية أو المذهب الإنساني/humanisme, humanism) بدأ في عصر النهضة من خلال تناول كرامة الإنسان المعرّف بالعقل وقدرته على الخَلق والإبداع والإرادة الحرة المستقلّة وهي عبارة عن: "حركة فكرية يمثّلها إنسانيّو النهضة (بترارك، بوغيو، لورنت ڤالاّ، إراسم، بوديه، أولريخ، دوهوتّن)، وتتميّز بمجهود لرفع كرامة الفكر البشري وجعله جديرا، ذا قيمة"[4]؛ أي أنّ النزعة الإنسانية هي ذلك المذهب الذي يؤكّد على قيمة الإنسان.

تقوم النزعة الإنسانية على تأكيد مكانة الإنسان ضدّ كلّ ما هو لاهوتي وميتافيزيقي وذو سيادة متعالية عن الإنسان ومضادّ للعقلانية والفكر المنفتح الذي لا يقصي الآخر، فهي: "أسلوب في التفكير يدور على إمكان تحكّم الإنسان في الكون، ورفض المهدّئات الدينية، وإنكار التفاؤل الخادع"[5]؛ ومن هنا فإنّها تخصّ الإنسان بمكانة متميّزة في العالم والتطور التاريخي.

لقد تطوّرت أفكار النزعة الإنسانية بصفة واضحة مع فلاسفة عصر الأنوار في القرن 18، من خلال التأكيد على حقوق البشر في الحرية والإبداع وضرورة المساواة بينهم، وترسّخت أكثر بظهور ميثاق حقوق الإنسان، وبالتالي حاربت الأفكار الظلامية التي تميّز بها العصر الوسيط، ولكن على الرغم من تطور النزعة الإنسانية في هاته الفترة وفي هذا المكان إلاّ أنّ انتشار أفكارها جعلها نزعة كونية عالمية لا ترتبط برقعة جغرافية معيّنة ولا بفترة محددة.

2-مفهوم الإسلام

يبدو من الوهلة الأولى أنّ مفهوم الإسلام واضح وجليٌّ ولا يحتاج إلى تعريف –خاصة عند المؤمنين-، إلا أنه من الضروري طرح السؤال الجوهري: ما هو الإسلام؟؛ والإجابة

البديهية التي يقدّمها أي شخص أنّ الإسلام هو شهادة أنّ لا إله إلا الله وأنّ مُحَمَّدا رسول الله ، وأنّ الإسلام لا يصحُّ من دون إيمان بالله وملائكته وكتبه ورُسله والقدر خيره وشرّه ، وهذا الإيمان بدوره يجب أن يكون قولا باللسان وتصديقا بالجِنان (القلب) وعملُ بالجوارح[6] ، وهناك من يذهب إلى أكثر من هذا ويرى أنه لمعرفة ما هو الإسلام؟ عليك أن "تدرس التوحيد والتجويد ، والتفسير والحديث والفقه والأصول"[7] ؛ وهذه هي النظرة التقليدية لمفهوم الإسلام.

أما المفهوم الحديث للإسلام فيحاول تجاوز هذه النظرة الضيقة إلى النظرة التاريخية ، فالمفكّرون العرب المعاصرون يذهبون إلى أنّ مفهوم الإسلام من الناحية التاريخية ينتمي إلى ما يصطلح عليه بـ "ديانات الوحي النبوي" (révélations prophétiques) ، فالإسلام هو خاتمة الديانات التوحيدية التي أسسها النبي ابراهيم –"الأب الأصلي"- أو –"أب التكوين"-[8]: «فهو إذن من هذا المنظور يشترك مع اليهودية والمسيحية في الإيمان بأنّ الله الواحد والمفارق قد تدخّل في التاريخ البشري وخاطب الناس عن طريق الأنبياء»[9] ؛ وعليه فإنّ المشاكل التي يعانيها المسلمون لا تختلف كثيرا عن المشاكل المطروحة في الديانتين اليهودية والمسيحية ، لأنّ الإسلام بمعناه الواسع يشمل الديانتين اليهودية والمسيحية في حين أنّ مفهومه الضيّق ينحصر في ظهوره مع النبي مُحَمَّد.

إنّ انتشار الإسلام في القارات الخمس أدّى إلى وجود العديد من الأنواع المختلفة والمتباينة للإسلام ، مثل الإسلام السني وآخر شيعي ، إسلام الفقهاء وإسلام المتصوفة ، إضافة إلى الإسلام الآسيوي وآخر عربي وغيرها من الأنواع ، وكلّ نوع ينتمي إلى البيئة التي يعيش فيها ممثّلوه ، ومن هنا يميّز "عبد المجيد الشرفي" بين ثلاثة مستويات لمعنى عبارة "إسلام" وهي:

أ-المستوى القرآني[10]: هذا المستوى الأول يمثّل مجموعة القيم الدينية والأخلاقية التي نصّ عليها القرآن ، وتعدّ القيم فكرة محورية في الإسلام ، بل هي جوهره ، خاصة قيمة الرحمة ، فما يميّز الإسلام هو هذه القيم الأنطولوجية التي تحاول تقديم حلول للمشاكل التي يعانيها الفرد في حياته.

ب-مستوى الممارسة التاريخية[11]: هذا المستوى يبدأ منذ انقطاع الوحي بوفاة النبي ، مما أدى إلى قيام مجموعة من المؤسسات غايتها تطبيق الدين في مختلف أوجه الحياة ؛ وهو ما يعرف بالفكر الإسلامي أو العلوم الإسلامية ، وهي ممارسة يمكن إخضاعها للدراسة والمراجعة والنقد والتقييم لأنها ذات طابع بشري.

ج-مستوى البُعد الفردي في الإيمان: ويتعلق هذا المستوى بالفهم الخاص لكل فرد من الأفراد للإسلام ، حيث يختلف هذا الفهم أو التأويل من شخص إلى آخر ، ولهذا ففهم الفقهاء للإسلام يختلف عن فهم الفلاسفة له ، ويختلف أيضا عن فهم المتصوفة.

وعليه فإنّ مفهوم الإسلام يختلف من النظرة الإيمانية إلى النظرة التاريخية ، وهو الإسلام الذي يدرسه المفكّرون ؛ أي بعيدا عن كون الإنسان مؤمن أو غير مؤمن بل الاهتمام أولا بالجانب التاريخي ومحاولة إعادة قراءته انطلاقا من تطبيق مناهج علمية مختلفة ، ووضعه في إطاره التاريخي الواسع وعدم النظر إليه نظرة ضيّقة وحصره في الزمن الذي جاء فيه النبي مُحَمَّد ، لأنّ الإسلام يحمل بين طيّاته أبعادا مختلفة لا بُعدا واحدا فقط ، ومن هنا يحاول "مُحَمَّد مجتهد شبستري" إعادة قراءة الدين الإسلامي قراءة جديدة تاريخية أكثر منها إيمانية.

ثانيا: القراءة الإنسانية للدين عند مُحَمَّد مجتهد شبستري

1-مفهوم القراءة الإنسانية

إنّ لفظة "القراءة" في اللغة تعني: الجمع ، فقَرَأَ يَقْرَؤهُ قَرْءًا وقِراءَةً وقُرآنا ، حيث "يسمى كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيّه ﷺ كتابًا وقرآنًا وفُرقانًا"[12] ، وقرأتُ الشيء قرآنا أي ؛ "جمعتُه وضممتُ بعضه إلى بعض"[13] ، وورد في "الموسوعة العربية الميسرة" أنّ القراءة هي "طريقة تلاوة القرآن الكريم ونطق ألفاظه ، مخففة أو مشدّدة ، ممالة أو مشمومة ، ممدودة أو مقصورة ، ولابد فيها من التلقي والسماع"[14] ، وهو المعنى الذي نجده في "تكملة المعاجم العربية" ، إذ أنّ لفظ قَرَأَ معناه: «تلا عن ظهر قلب»[15] ، والقراءة (Lecture) عند "التهانوي" (ت 1158هـ/ 1745م) هي: «أن يقرأ القرآن سواء كانت القراءة تلاوةً بأن يُقرأ متتابعا أو أداءً بأن يأخذ من المشايخ ويقرأ كما في الدقائق المُحكمة»[16].

وقد تعدّد المفهوم الاصطلاحي لكلمة "القراءة" عند المفكرين ، إذ لا يمكن تحديد مفهوم واحد دقيق لهاته

اللفظة، حيث يرى "علي حرب" أن المصطلح "يستخدم اليوم، بمعنى أوسع، لكي يشمل الأحداث والتجارب والأعمال التي تنتج حولها الكتابات والنصوص، بل هو بات يشمل أي معطى كان، لكي يتصدّر مفردات الخطاب المتعلقة بالفهم والتشخيص أو بالتقييم والتقدير"[17]؛ أي أنّ القراءة هنا وخاصة عند المفكرين العرب المعاصرين متعلقة بالنصوص الدينية سواء كانت: النص القرآني أو نصوص السنة النبوية، ولهذا يقول "نصر حامد أبو زيد" (1943-2010م): «في مقابل النصوص تقف القراءة أيضا محكومة بجدلية الإخفاء والكشف»[18]، فالقراءة هنا حسب "أبو زيد" هي عملية الكشف عن دلالات وإخفاء لأخرى حسب الظرف التاريخي.

أمّا القراءة الإنسانية حسب ما ذهب إليه "مُحَمَّد مجتهد شبستري" فيقصد بها تلك القراءة التي تُنزل الدين من الله إلى الإنسان والتي يتم فيها مُراعاة كل أبعاد الإنسان المعرفية والوجودية والقيمية، حيث يقول: «حِينما نقول قراءة إنسانية للدين، نقصد أن يفهم الإنسان دينه وتديُّنه بالشكل الذي تقتضيه كلّ أبعاد إنسانيّته، الدين للإنسان وليس لله، فالإنسان هو الذي يحتاج الدين وليس الله»[19]، ولهذا فإنّ الإنسان يضفي على حياته معنًى روحيًا من خلال توفُّرها على أبعاد مختلفة، من فلسفة وفنّ ودين وعلوم متعددة، فالدين ضروري في حياة الإنسان حتى يتحرر من العدميّة ويضفي عليها صبغة قيميّة روحية، إذ يقول "شبستري": «ينبغي أن لا يُزاحم (أي الدين) أيًّا من أبعاد وجود الإنسان، ولا يعطّله. ليس باستطاعة الدين أن يحلّ محل العلم أو الفلسفة أو الفن فيطردها، إنما يجب على الإنسان الذي يحمل كلّ هذه الأبعاد أن يكون متديّنا أيضا»[20].

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل من الإنسان خليفة له في الأرض، وبهذا فإنه يعطيه المكانة العالية ويجعل منه أساسا للوجود، بعد أن ترك له الدين كاملا مكتملا، فما عليه إلّا فهمه واستنباط القوانين منه، التي تنظّم حياته، وكلّ هذا يكون من خلال القراءة الإنسانية للدين، يقول "شبستري": «حينما أقول (قراءة إنسانية للدين) أروم فهم الإنسان للدين والتديّن وفق ما تمليه عليه إنسانيته»[21].

إنّ القراءة الإنسانية للدين عند "مُحَمَّد مجتهد شبستري" تندرج ضمن أحد فروع فلسفة الدين[22]، في إطار تعدد القراءات الدينية، وهو الذي كتب فيه الكثيرون ومن بينهم مواطنه "عبد الكريم سروش" (ولد 1945)، وذلك من خلال استعمالهم للمناهج الغربية الحديثة وتطبيقها على التراث، والمقصود بتعدد القراءات هو: «التفسير، أو ما يُعبّر عنه بالهرمينوتيك أو البلوراليسم»[23]، وهي القراءة التي تعطي قيمة لكل أبعاد الإنسان، مثل الثقافة والمعرفة والبعد الاجتماعي والسياسي...، كما أنها تفتح المجال أما تعدد المعاني، إذ أنّ كلّ قراءة تقدّم معنى مختلف للدين وبالتالي فلا ينحصر مفهوم الدين في معنى واحد دوغمائي.

2-مفهوم الدين

يعرّف "ابن منظور" (630هـ/1232م-711هـ/1311م) كلمة "الدين" في «لسان العرب» بقوله: «الدين ديّان، وهو القاضي والحاكم»[24]، والدّين بوضع الشدّة والكسرة فوق الدال، فدان دينا، ودان له، ودان بالشيء هي أوجه ثلاثة تعبّر عن الدين، وكلمة "الدين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظّم أحدهما الآخر ويخضع له"[25]، وكلمة "دين" في العربية انحدرت من كلمة "دين" الأكدية، التي كانت تعني القضاء والحساب، والحقيقة أنّ هذه الكلمة الأكدية هي ترجمة لكلمة "أور" السومرية، التي كانت تعني "المدينة"؛ لأنّ المدينة كانت هي مكان القضاء والعدالة، وهكذا فقد قفزت الكلمة الأكدية "دين" إلى معنى دلالي آخر، سرعان ما أخذ الكثير من المعاني في لغات العالم القديم، ويمكن الإشارة إلى أنّ كلمة "دين" العربية لم تأتِ مباشرة من اللغة الأكدية، بل جاءت من الكلمة الآرامية "دينو/Deno"؛ أي "الديّان" في العربية (القاضي والحاكم)[26].

لقد وجد الباحثون في علم الاجتماع أنفسهم أمام معضلة كبيرة، عندما شرعوا في تحديد معنى الدين، وقد أعلن "ماكس فيبر" (Max Weber 1864-1920) في دراسة أجراها بهذا الخصوص، بأنه يستطيع أن يضمّن مقدمة دراسته هذه، تعريفا محددا للدين، وإنّ عملا كهذا قد يمكن القيام به في نهاية الدراسة[27]، ونظرا لصعوبة تحديد مفهوم واحد للدين يمكننا ضبط مفهوم اصطلاحي عام، حيث يقول "عبد الله دراز": «الدين هو الاعتقاد بوجود ذات –أو ذوات- غيبية علوية لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة وفي خضوع وتمجيد»[28].

يرى "مُحَمَّد مجتهد شبستري" أن الدين يمكن تعريفه من خلال ثلاثة مستويات هي:

أولا: مستوى الممارسات والشعائر: من خلال الممارسة في الحياة السياسية والاجتماعية... بدوافع دينية.

ثانيا: يندرج تحت المستوى الأول وهو مستوى الأفكار والعقائد المتعلقة بالنبوة والتوحيد...، ويسميه مستوى المعرفة، والذي من خلاله تتم معرفة وتفسير التجارب الدينية المختلفة، إذ يجمع بين التجربة الدينية (ممارسة) والشعائر الدينية، حتى لا تصبح هاته الشعائر مجرد عادات وطقوس فارغة من المعنى.

ثالثا: مستوى أعمق من المستويين السابقين، وهو مستوى التجارب الدينية وهذا هو المستوى المركزي، إذ تختلف التجارب الدينية من تجربة الحب إلى تجربة الأمل إلى تجربة الهيبة...، وهذه التجارب هي لب وجوهر الأديان[29].

من خلال التجربة الدينية يسافر الإنسان من الذات إلى الآخر، من الإنسان إلى الله[30]، وهنا يشير "شبستري" إلى أنه يمكن النظر إلى الدين من زاويتين: من زاوية "الله إلى الإنسان" ومن زاوية "الإنسان إلى الله"[31]، وهو يفضل الزاوية الثانية والتي يقدّم من خلالها قراءته الإنسانية للدين، ينطلق فيها من الإنسان ويصل فيها إلى الله، حيث يقول: «في القراءة الإنسانية للدين، يُعرّف الدين بالسلوك المعنوي للإنسان في الحياة، إنه نوع من العيش والسلوك الإنساني»[32]؛ أي بالعودة إلى باطن الإنسان من أجل فهم الدين ومعايشته من خلال التجربة والسلوك[33]، وكل هذا من أجل تعميق العلاقة بين الله والإنسان، ومن أجل فهمها أكثر.

3/نقد القراءة الرسمية للدين

يقدّم "مُحَمَّد مجتهد شبستري" من خلال مشروعه الفكري نقدًا للقراءة الرسمية للدين، وهي تلك القراءة الإيديولوجية الفقهية السياسية للدين الإسلامي، حيث يقول: «ما قصدته في هذا الكتاب من القراءة الرسمية هو القراءة (الفقهية – الحكومية). إنها قراءة الذين إذا أرادوا تحديد علاقة الإسلام كدين بالسياسة والسلطة في العصر الراهن، استخدموا اللغة الفقهية، وطفقوا يحددون التكاليف الشرعية للمؤمنين في هذا الباب»[34]؛ بمعنى أنّ القراءة الرسمية يقصد بها تلك القراءة التي يقدّمها الإمام ويفرضها على المؤمنين، وفق ما يخدم السياسيين والسلطة الحاكمة، إنها تلك القراءة التي تحصر العلاقة بين الله والإنسان في خطاب التكليف، أي أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليعبده فقط، ولم يخلقه حتى يكون خليفته في الأرض، وهذا بتعبير "طه جابر العلواني" (1935-2016) الذي ذهب إلى أنّ خطاب التكليف يجعل من الإنسان عبدا (عبيدا) لله وليس عابدا له[35]، وهو ما لا نجده في الشريعة الإسلامية، شريعة الرحمة والعفو والمغفرة، لا شريعة الإصر والأغلال وفقه الحيل والمخارج.

إنّ لغة التكليف الشرعي تهتم فقط بالجائز وغير الجائز، الحلال والحرام، الصحيح والباطل، إنها لغة تهتم فقط بقشور الدين وأهملت لبّهُ وجوهره الروحي، فجعلت من الدين الإسلامي مجرد طقوس جوفاء خالية من المعنى، بل خالية من أي رسالة دينية، وهذه القراءة التكليفية موجودة على مستوى السياسة أيضا، إذ يقول "شبستري": «إنّ رسمية القراءة في الوقت الحاضر تساوي القراءة التكليفية لرسالة الدين في مضمار السياسة والحكومة»[36]، فالقراءة الرسمية هي قراءة واحدة ثابتة تمنع كل قراءة أخرى مخالفة لها، فتمنع تعدد المعاني وبالتالي تمنع الهيرمينوطيقا، وهو المنهج الذي نادى "شبستري" بتطبيقه في قراءة التراث الديني، حتى يجعل من الدين الإسلامي دينا عالميا يتقبل الآخر، ولا يتعامل معه بعنف، وهكذا فلن يكون الدين إيديولوجيًا متطرفا، فالهيرمينوطيقا أو المنهج التأويلي يهتمّ بالفهم وتعدد المعنى، واستخدام "شبستري" للتأويل هدفه التأكيد على أنّ الدين الإسلامي يحتمل العديد من القراءات، وأنّ أهمّ قراءة ينبغي اتّباعها هي القراءة الإنسانية؛ لأنّ النصوص وخاصة الدينية منها تحتوي على معنى ظاهري ومعنى باطني خفيّ يجب الكشف عنه واستخراجه، وليس "شبستري" الوحيد الذي اعتمد على التأويل كمنهج من أجل قراءة النص الديني، إذ يعتبر "نصر حامد أبو زيد" أحد أهمّ المفكرين العرب المعاصرين الذين استخدموا التأويل وآليات تحليل الخطاب بُغية إعادة قراءة التراث والنصوص الدينية، وهذا في ضوء المنهج العلمي الموضوعي الذي يبتعد عن الخرافة والأسطورة ويقدّس العقل.

يرى "شبستري" أن القراءة الرسمية للإسلام وليدة ثلاثة خصائص هي[37]:

-معارضة الديمقراطية.

-نزعة العنف.

-عدم اعتبار مبانيها الفلسفية.

فالمسلم المعاصر تغذّت لديه نزعة العنف وعدم قبول الآخر المغاير له والذي لا ينتمي إلى دينه ، بل قُل لا ينتمي إلى طائفته ، فانطلاقا من خطاب التكليف فإنّ كل من يخالفك في اعتقادك (إيديولوجيّتك) فهو كافر وَجَبَ قَتله ، وهذا لأنّ المسلمين يشعرون بأنهم يمتلكون الحقيقة ، وهو ناتج عن كونهم لا يعرفون منبعا آخر للمعرفة ، إلا منبعا واحدا وهو الدين (القرآن)، وهذا من الناحية الإبستيمولوجية[38]، وهوّ ماولّد لديهم نزعة العنف ، أمّا لو كانت لديهم منابع معرفية متعددة من فن وفلسفة وعلم... ، لكانت نظرتهم للعالم مختلفة تماما ، فالعنف هو النتيجة الحتمية المترتبة عن القراءة الرسمية للدين.

إنّ المسلمين —حسب ما ذهب إليه "شبستري"- ليس لديهم خيار آخر إلا خيار دخول دائرة الحداثة بالفعل ، و"السياسة والحكومة في الحداثة تعود إلى: العلم ، والفلسفة ، واختيار الإنسان ، ولهذا يتعذّر في كل المجتمعات المسلمة تحديد العلاقة بين الإسلام والسياسة والسلطة بلغة تكليفية"[39]، ومن هنا فإنّ الرسالة السياسية والاجتماعية للدين هي ضرورة تحقيق العدالة ، وهذا ما تعجز عن تأديته لغة التكليف ، لأنها ستجعل من الإنسان المسلم مستسلما لقدره فاقدا لحريته واختياره[40]، والحرية هي أهم خاصية تميز المجتمعات الحديثة ، والمسلم حتى يعيش الحداثة ينبغي عليه أن يكون حرًّا غير مقيّد.

إنّ تحقيق العدل يتطلّب عدم الفصل بين السياسة والأخلاق ، وضرورة مراعاة الأخلاق في السياسة[41]، وهذا يقتضي ضرورة حضور أبعاد مختلفة بالإضافة إلى الدين من فلسفة وقيم وحقوق... ، وهو ما يستدعي ضرورة تغيير القراءة الرسمية للدين ، واستبدالها بقراءة أخرى إنسانية أو كما يقول "شبستري": «العلاج يكمن في القراءة الإنسانية لهذه النصوص (أي الدينية) ، أي أن نقرأ النصوص في إطار ظروفها التاريخية»[42].

4/من القراءة الرسمية ... إلى القراءة الإنسانية للدين:

تؤدي القراءة الرسمية للدين إلى العنف والتعصّب في العالم الإسلامي ، ومن أجل الخروج من الأزمات التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية ، يقترح "شبستري" ضرورة تغيير هاته القراءة الرسمية للدين بقراءة أخرى إنسانية ، وهي القراءة القائمة على التجربة الدينية للإنسان ، والتي يفهم من خلالها دينه بالشكل الذي تقتضيه كل أبعاد إنسانيته.

إنّ المذاهب والجماعات الإسلامية بتشدّدها وفرضها لضرورة تبنّي آراء السلف ومواقفهم ، وعودتها دائما إلى الماضي ، وخوفها من كل ما هو غربي وحديث ، وابتعادها عن العقل والنقد هو السبب المباشر في كل ما يحدث في المجتمعات الإسلامية من عنف وإرهاب[43]، إذ قاموا بتحريم كل المعارف: فالفلسفة حرام ، والمنطق حرام ، والفنون الجميلة كالرسم والنحت والموسيقى حرام... ، وإذا عدنا إلى قيم الدين الإسلامي نجدها عكس ما تنادي به هذه المذاهب ، فالدين الإسلامي في جوهره النقي هو دين إنساني يقدّس الحياة البشرية ولا يدعو إلى القتل والعنف والدماء وإنما يدعو الإنسان إلى استعمال العقل كما يدعوه إلى التأمل.

تعدّ القراءة غير الإنسانية أو فوق الإنسانية للدين ، هي القراءة التي تولّد العنف والعدوان ، لأنّ الدين حسب هذه القراءة يعدّ مجموعة من المعارف والأحكام الغيبية المتعالية على عقل الإنسان ، أنزلها الله على البشر لكي يعملوا بها كأحكام شرعية[44] ، ولكن هذا الفهم للدين سيلغي كل معارف الإنسان العلمية والفلسفية والفنية ، ولكي يجمع الإنسان بين أبعاده المعرفية ودينه ينبغي أن يعطي أهمية كبيرة للقراءة الإنسانية.

يرى "شبستري" أن المشاكل التي يعانيها الإنسان المسلم المعاصر ، هي مشاكل خاصة بهذا العصر فقط ، ولهذا فإن الحلول لهاته المشاكل لا يمكن أن تكون نفسها الحلول التي طرحها أجدادنا منذ 14 قرنًا مضَتْ ، فما كان صالحًا لزمان أجدادنا وآبائنا ليس صالحًا لزماننا نحن ، وعليه فإن "شبستري" يدعو إلى "بناء كافة الأنظمة الاجتماعية على أساس حقوق الإنسان"[45]، وهنا فقط يمكن تطبيق الإسلام الحقيقي ، الذي ينبذ كل النزعات المتطرفة ويقدّس الإنسان والقيم الإنسانية.

إنّ "حقوق الإنسان" التي يقصدها "شبستري" هي الحقوق التي صادقت عليها منظمة الأمم المتحدة سنة 1948 وتتشكل من ثلاثين مادة[46]، والتي تنصّ على مبدأ "الحرمة الذاتية للإنسان" ، وهذا المبدأ الرئيسي الذي تأسس عليه ميثاق حقوق الإنسان ، هو مبدأ موجود في النصوص الدينية

التوحيدية الثلاثة (اليهودية ، المسيحية ، الإسلام) —حسب "شبستري"-، وما يهم هنا هو الدين الإسلامي بالأساس ، إذ توجد في القرآن آيات كثيرة تقدّس الحرمة البشرية مثل: "ولقد كرّمنا بني آدم" ، "إنّا خلقنا الإنسان في أحسن تقويم"...[47]، ومن هنا فإنّ حقوق الإنسان تتلاءم مع الدين الإسلامي ، ولهذا ينبغي إعادة بناء كافة الأنظمة الاجتماعية على أساس حقوق الإنسان من أجل تحقيق العدالة ، وهي الرسالة الأساسية التي جاء الدين من أجلها.

والقراءة الإنسانية للدين تتم عن طريق "تأويل مختلف للنصوص الدينية ، عبر قراءة شاملة لهذه النصوص ، تستلهم نظامها الدلالي والرمزي ، وما تختزنه من معانٍ ومداليل ، لا تبوح بها إلّا من خلال عبور المنظومة المغلقة للفهم التقليدي"[48]، وهذا يكون من خلال تطبيق المناهج الحديثة ، مناهج العلوم الإنسانية بصفة خاصة ، حتى لا نختزل الدين في إطار المدوّنة الفقهية التي تجاوزها الزمن ، حتى تُعطى للإنسان قيمته العليا التي خُلق من أجلها.

ثالثا: النزعة الإنسانية والعقلانية في الإسلام عند هشام جعيط

يُعدّ "هشام جعيط" من بين المفكّرين العرب والمسلمين المعاصرين القلائل الذين اهتموا بالنزعة الإنسانية في الإسلام من الدّاخل ، وهذا بعد الدراسة التي قدّمها المفكر الجزائري "مُحَمَّد أركون" (1928-2010) في كتابه: «نزعة الأنسنة في الفكر العربي»[49]، بالإضافة إلى الدراسة التي أعدّها المفكر الإيراني "علي شريعتي" (1933-1977) حول الإنسان والإسلام[50]، وتُعدّان من أهم الدراسات التي قدّمها المفكّرون المسلمون لموضوع الأنسنة في الإسلام ، وعليه كيف حاول "هشام جعيط" الإجابة عن سؤال النزعة الإنسانية والعقلانية في الإسلام ؟

1/المركزية الإنسانية في القرآن

إنّ القرآن هو العمود الأساسي الذي يقوم عليه الدين الإسلامي ككلّ ، ويهتمّ القرآن بالمركزية الإلهية (المقدّس) ووصف العلاقة التي تربط الله بالكائنات الأخرى من إنسان وحيوان ووجود... ، حيث يؤكّد القرآن على الصِّلة القائمة بين الله والطبيعة والإنسان وهي العلاقة المحوريّة التي يقوم عليها الخطاب القرآني ، فعلى الرغم من أنه يؤكد على المركزية الإلهية إلا أنه يؤكد أيضا من جهة ثانية على قيمة ومكانة الإنسان الرفيعة في الكون ، وهنا يقول "هشام جعيط": «توجد في القرآن مركزية إنسانية ، لكنها خاضعة للمقاصد والمخططات الإلهية. وهذا بحدّ ذاته يمثّل شكلا من أشكال النزعة الإنسانية. ففي القرآن درجة إنسانية أرفع ؛ إنها مكانة الإنسان في مغامرة الوجود ، في غائية الخالق ، وفي التاريخ»[51] ؛ أي أنّ النزعة الإنسانية القرآنية تتأسس على العلاقة بين الإنسان والله من جهة ، وبين الإنسان والطبيعة من جهة أخرى ، لأنّ الله سخّر الطبيعة من أجل خير الإنسان وخدمته: ﴿ **ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣** ﴾[52] ويقول أيضا في موضع آخر: ﴿ **۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠** ﴾[53]، وهذا التكريم لآدم ولِـ بنيه هو تكريم للإنسان وجوهره الحقيقي دون النظر إلى لونه أو دينه أو عِرقه.

من الشائع في الثقافة الحديثة أنّ النزعة الإنسانية تقوم على تحرير الإنسان من كلّ ما هو مقدّس وذو سيادة عليا ، بل تؤكّد على قيمته بوصفه إنسانا متميزا عن باقي الكائنات الأخرى بمجموعة خصائص ومميزات ، إلا أنّ "هشام جعيط" يؤكد على أنّ النزعة الإنسانية المتضمَّنة في الأديان الكبرى وخاصة الدين الإسلامي تتّخذ شكلا آخر من أشكال النزعة الإنسانية ، فالقرآن يعبّر عن الحرية الإنسانية حين يُحدّثنا عن قصة آدم وطردِه من الجنّة ومعها وُلدت جدلية الخير والشرّ في القرآن[54] ؛ لأنّ الإنسان حُرٌّ ومستقلٌّ ولديه القدرة على التحكّم في أفعاله ومصيره ، ولهذا تُطرح مسألة العدل الإلهي بالنسبة لعلاقة الله بالإنسان وليس بالنسبة لعلاقة الله بالطبيعة ، لأنها خاضعة لأوامر الله.

إنّ المركزية الإنسانية الموجودة في القرآن تُمثّل شكلا آخر متميّزا عن أشكال النزعة الإنسانية المعروفة ، حيث يؤكد "هشام جعيط" أن النزعة الإنسانية القرآنية بدأت بإعلان نزول آدم إلى الأرض ؛ وبالتالي فإنها ترمز إلى بداية الحرية البشرية[55]، والدليل على مكانة الإنسان في القرآن هو تكريمه بالعلم والعقل والإعلاء من مكانته مقابل الملائكة والشيطان:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾[56]؛ أي استخلاف الله للإنسان في الأرض.

2/المركزية الإنسانية في الثقافة الإسلامية

بعد تأكيد "هشام جعيط" على وجود نزعة إنسانية قرآنية تمثّل نوعا آخر مختلفا من أنواع النزعة الإنسانية التي عرفها تاريخ الفكر البشري، يحاول الآن التأكيد على أنّ النزعة الإنسانية متجذّرة في الإسلام من خلال الثقافة الإسلامية ما بعد القرآنية، والتي تشكّلت ببطء بسبب اهتمام العلماء والمفكّرين آنذاك بالبحث في القرآن وسيطرته على عقولهم.

تحمل الثقافة الدينية الإسلامية العديد من ملامح النزعة الإنسانية الثاويّة بين طيّات كتب الفقه والحديث وعلم الكلام العقلي والتصوّف الإسلامي الأوّلي؛ ويقدّم "جعيط" كتاب «الخراج» كمثال في مجال الفقه والحديث على وجود نزعة إنسانية في الإسلام؛ والكتاب عبارة عن رسالة أو مذكرة موجّهة لـ "هارون الرشيد" آنذاك والذي كان يهدف إلى: "رفع الظلم عن رعيّته، والصلاح لأمرهم"[57]، فالاهتمام الأول للكتاب هو الرفع من شأن كرامة الإنسان وقيمته، بخلاف الكتب الفقهية الأخرى التي تهتم فقط بكيفية تطبيق حدود الله على الإنسان دون مراعاة لكرامته.

يذهب "هشام جعيط" إلى أنّ أهم موضوعين أساسين في كتاب "الخراج" واللذان يؤكدان على اهتمامه بالنزعة الإنسانية؛ هما: الموضوع الأول الذي يتمثّل في: "مناشدة الخليفة بأن يعامل السجناء إنسانيا، وهي مناشدة يمكن أن تتبنّاها تماما رابطة حديثة لحقوق الإنسان"[58]، حيث يؤكد على مجموعة من الحقوق التي لابد من توفيرها للسجناء والأسرى؛ مثل منع ضربهم وإطعامهم وكسوتهم[59] وهي الطريقة التي اتّبعها الخلفاء والصحابة أثناء حكمهم، أما الموضوع الثاني فيخصّ تطبيق حدود الله على الإنسان، حيث يهتم "القاضي أبي يوسف" بالتأكيد على ضرورة الحذر في تطبيق العقوبات الجسدية التي تنصّ عليها الشريعة الإسلامية؛ أي عدم التطبيق الحرفي للعقوبات كما وردت وإنما ينبغي تأويلها بما يتفق وكرامة الإنسان، حيث يقدم مجموعة من الأمثلة والدلائل من السُنّة، مثل روايته لحديث عن عائشة أم المؤمنين نقلت عن النبي مُحَمَّد فقالت: «ادْرَؤوا الحُدودَ عنِ المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مَخرجٌ، فَخَلُّوا سبيله فإنّ الإمام إن يُخطئ في العفو، خير من أن يُخطئ في العقوبة»[60]؛ وهذا كلّه يمثّل مدى اهتمام الثقافة الإسلامية الدينية بالنزعة البشرية أو الإنسانية.

إنّ "هشام جعيط" ومن أجل التأكيد أكثر على البعد الإنساني للإسلام يقدّم مثالا آخر من الثقافة الدينية الإسلامية، وبالتحديد في مجال علم الكلام الإسلامي القائم على العقل، فعلى الرغم من أنه يهتم بالتوحيد الإلهي ومشكلة الله والدفاع عن العقيدة الإسلامية مقابل العقائد الأخرى، إلا أنهم اهتمّوا كثيرا بمشكلة الإنسان والحرية الإنسانية وقضايا المسؤولية، وأفضل مثال على ذلك هي فرقة "المعتزلة" التي تحدثت كثيرا عن العدل الإلهي ولكن غرضهم في ذلك هو الاهتمام بالإنسان والسعادة الإنسانية في الحياة الدنيا والآخرة.

ويُعدّ مفهوم الإرادة الإنسانية الحرة عند المعتزلة من أكثر المفاهيم التي تدلّ على وجود نزعة إنسانية في علم الكلام الإسلامي، حتى وإن كانت هذه النزعة الإنسانية غير واعية بذاتها وجاءت في سياق الحديث عن موضوع آخر مختلف تماما، ولكن التأكيد على حرية الإنسان في الفعل أو التّرك وإرادته الحرة الواعية هي أفضل مثال على اهتمام المعتزلة بالإنسان[61]، وقولهم بحرية الإرادة الإنسانية هو أساس العدل الذي يُعدّ أحد أهم الأصول الخمسة التي يقوم عليها الفكر المعتزلي ككلّ، فالحرية الإنسانية تمثّل الوجه الآخر للعدالة الإلهية؛ وبالتالي فإنّ النزعة الإنسانية في الثقافة الدينية ما بعد القرآنية لها علاقة مباشرة بالدين الإسلامي القائم على المركزية الإلهية.

إلاّ أنّ التصوّف يُعدّ أهمّ حقل من حقول الثقافة الدينية الإسلامية الذي يحتوي على مثال النزعة الإنسانية في الإسلام؛ فالفكر الصوفي يشغل حيّزًا واسعًا في الثقافة الإسلامية نظرًا إلى الإنتاج الفكري الواسع في هذا المجال، كما أنّه يمثّل الجانب الروحي للإسلام من أجل التأكيد على المفاهيم الإنسانية الإسلامية، ويؤكد "هشام جعيط" على أنّ النزعة الإنسانية الصوفية موجودة في تصوف العصر الكلاسيكي الفردي القائم على الأنا مثلما يوجد أيضا في التصوف الجماعي القائم على الزوايا مشكّلا بذلك نزعة صوفية إنسانية جماعية.

يعتبر التصوف أكثر جوانب الثقافة العربية والإسلامية انفتاحا على سؤال الإنسان، حيث اهتمّ التراث الصوفي منذ القديم بقضايا الإنسان الوجودية والمعرفية مثل "محي الدين ابن العربي" (558هـ/1164م- 638هـ/1240م) الذي اهتمّ كثيرا بالإنسان واعتبره فكرة مركزية تدور حولها الأفكار الأخرى، فالإنسان الأكبر أو الإنسان الكامل هو خليفة الله في الأرض: "وهو للحقّ بمنزلة إنسان العين الذي يكون به النّظر، وهو المعبَّر عنه بالبصر. فلهذا سميّ إنسانًا؛ فإنّه به ينظر الحقّ إلى خلْقِه فيَرحمُهم"[62]؛ أي أنّ الإنسان الكامل هو الصورة الظاهرة لله، ظهرت فيه الحقائق الإلهية، وهذا للتأكيد على قيمة ومكانة وشرف الإنسان الذي كرّمه الله في الإسلام.

يمثّل "ابن العربي" النزعة الإنسانية الكونية لأنه يسعى إلى وحدة الأديان ووحدة الإنسان من أجل إرساء قيم المحبّة والتسامح بين الناس من جهة، ومن جهة ثانية التأكيد على مكانة الإنسان ووعيه بذاته لأنّه يتميّز بالعقل، حيث يقول "ابن العربي":

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورةٍ

فمرعى لِغزلان، وديرٌ لرُهبان

وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائـــــفٍ

وألواحُ توراةٍ، ومُصحف قــرآن

أدينُ بدينِ الحبّ أنّى توجّهَـتْ

رَكائبُه، فالحبُّ ديني وإيمـــاني[63].

فالإنسان هو مركز الكون وهو العالم الأصغر مقابل العالم الأكبر الذي يمثّله الوجود: "فإنّ الله تعالى عَلِم نفسه فَعَلِمَ العالم، فلذلك خرج على الصورة وخلق الله الإنسان مختصَرًا شريفا جمع فيه معاني العالم الكبير، وجعله نسخة جامعة لِما في العالم، ولِما في الحضرة الإلهية من الأسماء"[64]؛ وهذا الإنسان الذي يريده "ابن العربي" هو الإنسان الكامل لا الإنسان العادي، وهو الإنسان الذي يدين بدين المحبّة بُغية القضاء على الطائفية وإلغاء الفروقات الظاهرة بين الناس، ولا يولد الإنسان كاملا بل يصل إلى الكمال عن طريق الإرادة والممارسة والمجاهدة الروحية.

بالإضافة إلى النزعة الإنسانية الفردية عند المتصوّفة التي يمثّلها أفضل تمثيل "محي الدين ابن العربي" من خلال نموذج "الإنسان الكامل"، نجد نوعا آخر وهو النزعة الإنسانية الجماعية والتي ترتبط بشكل أساسي بالزوايا؛ وهنا يتساءل "هشام جعيط" حول إمكانية وجود نزعة إنسانية صوفية جماعية فيقول: «بأي معنى تستطيع هذه الصوفية الجماعية، المُبَنْيَنة، اللاعقلانية في العمق، أن تحتوي بذورا معينة لمذهب إنساني؟»[65]، وللإجابة عن سؤاله يؤكّد على أنّ التصوف الجماعي منظّم في مؤسسة دينية تتمثّل في الزاوية والتي تقوم على العلاقة المنظَّمة بين الشيخ ومُريديه، يمكنه أن يحمل بين طيّاته بذورا للنزعة الإنسانية وذلك من خلال مجالين: المجال الأول هو الجانب الاجتماعي والأخلاقي مثل تربية الناس على التعاون والتآزر والتضحية وتثبيت قيم الخير والإحسان بينهم، وهو ما جعل رجال السلطة والسياسيين يستعينون بالمتصوفة كوسيط لحلّ العديد من المشكلات السياسية والاجتماعية نظرًا لمكانتهم لدى عامة الناس، أما المجال الثاني فهو الجانب الديني وفيه حاول المتصوّفة الابتعاد عن الإسلام المتشدّد الذي يقدّمه الفقهاء، فالإسلام الصوفي إسلام معتدل يقرّب كثيرا بين الإنسان والله دون أن يشعر بأنه متعالٍ عنه وبعيد كذلك، ولهذا فإنّ "جعيط" يؤكد على أنّ الإسلام يتضمّن بين طياته بذور النزعة الإنسانية منذ البداية، ويُعلي من قيمة الإنسان وكرامته وحريته.

إنّ اعتماد "هشام جعيط" على القرآن كأساس قدسي من أجل التأكيد على وجود نزعة إنسانية قرآنية، عرّضه للعديد من الانتقادات، لأنه لا ينطلق من العقل والنقد والمنطق بل ينطلق من المقدّس وبالتالي فإنّ تحليله أقرب إلى الدّاعية الإسلامي منه إلى المفكّر الحصيف الناقد، والسؤال الذي يطرحه النقّاد هو: «كيف يمكن لنصٍّ ديني متمحور على الله أن يؤسس لإنسانوية ما، في الوقت الذي يعني فيه هذا المفهوم في الثقافة الحديثة وضع الإنسان كقيمة عليا وتحريره من كلّ مرجعية إلهية؟»[66]؛ ومن أجل الإجابة عن هذا السؤال يُعاب على "جعيط" استخدامه للأسطورة الخرافية التي تؤكد أنّ الله استخلف الإنسان في الأرض من خلال خلق آدم، لأنها منافية للنتائج العلمية الحديثة في البيولوجيا وعلم الأجنّة وغيرها من العلوم التي تثبت نظرية التطور، فالمفكّر والباحث الجدّي عليه بضرورة الاعتماد على العلوم العقلية الصارمة والموضوعية من أجل الوصول إلى نتائج أكثر منطقية وعقلانية، لا الاعتماد على الخرافات المنسية في الكتب الدينية.

ولكن "هشام جعيط" يؤكّد منذ البداية في تحليله أنّ النزعة الإنسانية في القرآن تتخذ شكلا آخر مختلفا عن أشكال النزعة الإنسانية التي تؤكدها الثقافة الغربية الحديثة، والتي تعطي السيادة العليا والمركزية للإنسان وتحرره من كلّ مرجعية مقدّسة متعالية.

خاتمة

من خلال كلّ ما تقدّم يتبيّن لنا أنّه على الرغم من اهتمام الفلاسفة والمفكّرين اليوم بسؤال التقنيّة والعلم والتطوّر التكنولوجي والصناعي وكيفيّة تطوير قدرات الإنسان الفكرية والجسدية لمواكبة هذا التطور المتقدّم، إلاّ أنّ هناك من لا يزال يهتمّ بإشكالية النزعة الإنسانية وخاصة من المفكّرين المسلمين المعاصرين لأنّهم يعيشون داخل بلدان متخلّفة مقارنة بالدوّل الغربية المتقدّمة علميًّا وفكريًّا وتكنولوجيًّا، إذ يحاول هؤلاء المفكّرين التأكيد على قيمة الإنسان ومكانته بوصفه صاحب عقل وإرادة وهذا في علاقته بالإسلام.

وبناءً على هذا يُعدّ "مُحَمَّد مجتهد شبستري" أحد المفكّرين المسلمين المعاصرين الذين اهتموا بمكانة الإنسان وكرامته، ولهذا حاول تقديم قراءة إنسانية للدين الإسلامي بُغية القضاء على نزعة العنف والتطرّف واللاتسامح، وذلك من خلال مراعاة كلّ الأبعاد الإنسانية في الإنسان (المعرفية والوجودية والقيمية)؛ لأنّ الله خلق الإنسان وكرّمه بأن جعله خليفة له في الأرض، وما على الإنسان إلاّ محاولة فهم هذا الدين وفق المبادئ الإنسانية، وهنا يستبدل "شبستري" القراءة الرسمية للدين بالقراءة الإنسانية، لأنّ القراءة الأولى إيديولوجية تخدم السياسة والسلطة ولا تخدم مصالح الإنسان وتهتم بتكليف الإنسان فقط بعبادة الله دون مراعاة للجانب الروحي للدين الإسلامي، أما القراءة الإنسانية فإنها تجعل من الدين منفتحًا يحمل العديد من المعاني ولا يقبل معنى واجد فقط؛ وبالتالي يتقبّل الآخر ويتعايش معه بوصفه إنسان دون النظر إلى معتقده أو مذهبه أو دينه.

ومن بين النتائج التي توصّلنا إليها أيضا أنّ "هشام جعيط" حاول إثبات وجود نزعة إنسانية في الدين الإسلامي وذلك من خلال حقلين؛ الحقل الأول هو المركزية الإنسانية المتضمّنة في القرآن واعتبرها نوعا آخر من أنواع النزعة الإنسانية مختلف عن المفهوم المتعارف عليه في الحضارة الغربية لهذا المصطلح، فالقرآن يؤكد على حرية الإنسان واستقلاليته وقدرته على التحكّم في أفعاله وهو أكبر دليل على احترام القرآن للكرامة البشرية وحقوق الإنسان، أما الحقل الثاني فهو النزعة الإنسانية في الثقافة الإسلامية ما بعد القرآنية؛ ففي مجال الفقه والحديث اعتبر أنّ كتاب "الخراج" لـ "القاضي أبي يوسف" أفضل مثال جسّد حقوق الإنسان في ذلك العصر، أما في مجال علم الكلام الإسلامي القائم على العقل يذهب إلى أنّ فرقة المعتزلة تمثّل لحظة أساسية في تجسيد مفهوم الإرادة الإنسانية الحرة والعدل، كما يُعدّ مجال التصوف الإسلامي بشقّيه الفردي والجماعي أكثر جوانب الثقافة العربية والإسلامية انفتاحا ودراسة لسؤال الإنسان صاحب الإرادة الحرة والعقل.

وفي النهاية نخلص إلى أنّ "شبستري" اهتم بالنزعة الإنسانية في علاقتها بالإسلام من الخارج؛ وذلك من خلال محاولته إعادة قراءة الإسلام بمناهج غربية حديثة وتحديدا التأويلية من أجل إعطاء معاني متعددة للنصوص الدينية حتى تنفتح على الآخر، أما "جعيط" فاهتم بها من الخارج؛ وذلك من خلال محاولة إثباته لوجود نزعة إنسانية ثاوية ضمن الآيات القرآنية والنصوص الإسلامية ذات العلاقة بالقرآن والإسلام.

ومن هنا نوصي بضرورة دراسة النزعة الإنسانية عند المفكّرين العرب والمسلمين منذ القديم وحتى عصرنا هذا، والتي أكّدوا من خلالها على وجود نزعة إنسانية إسلامية، في مجالات متعددة كالفلسفة والأدب والجمال والتصوف وغيرها من المجالات المعرفية الأخرى.

الهوامش

1. "مُحَمَّد مجتهد شبستري" من مواليد 1936 بشبستر بايران ، فيلسوف وفقيه وباحث في مجال العلوم القرآنية ومتخصص في الإلهيات المقارنة ، كان أستاذا في كلية الإلهيات في جامعة طهران في مجال الكلام المقارن ، تأريخ الأديان وتأريخ العرفان ، ويعتبر من الأوائل الذين جاؤوا بالخطاب الهرمينوطيقي في إيران ، وتسببت آراؤه في هذا المجال في الكثير من الجدل والمناقشات.

يعدّ "شبستري" من أبرز دُعاة الحداثة الدينية في إيران ، وقد لعب دورا نشِطا بدءا من العام 1990 في نشر المقالات في الصحف اليومية الليبيرالية ، داعيا إلى تأسيس نهج جديد ، أكثر انتقادا للفهم الرسمي للدين ، بلور خلاصات حديثة انطلاقا من النص الديني حول الفردية وحقوق الإنسان والديمقراطية وحكم الشعب ، ورأى أهمية تقديم رؤية دينية تُحاكي شروط العصر ومتطلباته على قاعدة أنّ الأزمة التي يمر بها الإسلام اليوم إنما تشير إلى أنّ وجهات نظر الفقه التقليدي في أزمة.

لـ "شبستري" العديد من المؤلفات نذكر منها:

-نقد الفهم الرسمي للدين.

-قراءة بشرية للدين. أو تأملات في النزعة الإنسانية للدين.

وله أيضا مجموعة من المقالات من بينها:

-الفقه الإسلامي وحقوق المرأة.

-التعايش والحوار بين الديان والثقافات.

-الكلام الوحياني.

-حقوق الإنسان ونصوص الأديان الإبراهيمية.

Hiwarat.net/ ?p=2467 يوم: 2018/12/12على الساعة 12:38

www.mouminoun.com/articles/3650يوم: 2018/12/17 على الساعة 23.00

2. هشام جعيط ، مؤرخ ومفكر تونسي ، انشغل بأسئلة العصر وتحدياته ، وركّز في انتاجه على التاريخ العربي الإسلامي في الصدر الأول ، كما تطرّق في أعماله إلى أزمة الفكر العربي الإسلامي.

ولد يوم 6 ديسمبر 1935 بتونس العاصمة ، وقد نشأ في عائلة برجوازية مثقفة متدينة مقاومة ، درس في المدرسة الصادقية ، وتابع دراسته الجامعية في باريس ، في 1962 حصل على الإجازة في اختصاص التاريخ ، وفي 1981 حصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة باريس أيضا.

يحرص "جعيط" في أعماله على تأكيد وجود أزمة في الثقافة العربية الإسلامية ، وينجلي ذلك في كتبه "أزمة الثقافة الإسلامية" ، و"الشخصية العربية الإسلامية" ، و"أوروبا والإسلام".

اشتهر بثلاثيته في "السيرة النبوية" التي تناولت الوحي والنبوة وتاريخية الدعوة في مكة ومسيرة مُحَمَّد في المدينة ، وقد حاول سبر أعماق هذه المعاني من وجهة نظر تاريخية وفكرية نقدية لمختلف مصادر المعلومات ، وقال إن هدفه إعادة كتابة السيرة النبوية بطريقة علمية مغايرة لكل السير التي كُتبت قديما وحديثا.

من مؤلفاته:

*الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي (1984).

*الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية (1986).

*الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر (1992).

السيد ولد أباه ، أعلام الفكر العربي (مدخل إلى خارطة الفكر العربي الراهنة)، ط1 ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، بيروت ، 2010 ، ص ص 184 ، 191. وأيّوب أبو ديّة ، موسوعة أعلام الفكر العربي الحديث والمعاصر ، ط3 ، المكتبة الوطنية ، الأردن ، 2018 ، ص ص 733-735.

3. مثل دراسة: الشريف طاوطاو ، الإنسان في فلسفة "رجاء غارودي" ، دكتوراه العلوم في الفلسفة ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية- جامعة منتوري قسنطينة ، 2010 ، منشورة. وفتيحة بلعكروم ، منزلة النزعة الإنسانية النيتشوية في الفكر الألماني المعاصر ، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الفلسفة ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية- جامعة عبد الحميد مهري/ قسنطينة2 ، 2017-2018 ، منشورة. عبد الرزاق الدوّاي ، موت الإنسان (في الخطاب الفلسفي المعاصر)، ط1 ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1992 ، ص ص 189-191.

4. أندريه لالاند ، الموسوعة الفلسفية ، تر: خليل أحمد خليل ، ط2 ، منشورات عويدات ، بيروت-باريس ، 2001 ، ص 566.

5. مراد وهبة ، المعجم الفلسفي ، ط1 ، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2007 ، ص 105.

6. اختلف علماء الكلام كثيرا حول هذه المسألة ، فالأشاعرة مثلا ترى بأنه يكفي التصديق بالجنان حتى نقول عن الشخص أنه مؤمن. أبي بكر الباقلاني ، الإنصاف (فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به)، تح: مُحَمَّد زاهد الكوثري ، ط2 ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، 2000 ، ص 22.

في حين أنّ المعتزلة مثلا تذهب إلى انّ الايمان اعتقاد بالقلب وتصديق باللسان وعمل بالجوارح. أبو مُحَمَّد علي ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنّحل ، ج 03 ، تح: مُحَمَّد ابراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة ، ط2 ، دار الجيل ، بيروت ، 1996 ، ص 188.

7. علي الطنطاوي ، تعريف عام بدين الإسلام ، ط14 ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1992 ، ص 27.

8. مصطلح يطلقه "فتحي بن سلامة" على النبي ابراهيم باعتباره مؤسس الديانة التوحيدية ، وهو أول من أُطلق عليه اسم «المسلم» قبل الاسلام ، فالإسلام هو عودة إلى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ سورة الحج ، الآية 78. فتحي بن سلامة ، الإسلام والتحليل النفسي ، تر: رجاء بن سلامة ، ط1 ، دار الساقي ، بيروت ، 2011 ، ص 103.

9. عبد المجيد الشرفي ، الإسلام والحداثة ، ط2 ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1991 ، ص 13.

10. المرجع نفسه ، ص 15.

11. خصص "عبد المجيد الشرفي" لهذا الموضوع كتابا كاملا بعنوان "الإسلام بين الرسالة والتاريخ" ، ط2 ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، 2008.

12. ابن منظور ، لسان العرب ، تح: عبد الله علي كبير وغيره ، ط1 ، دار المعارف ، القاهرة ، (د.س.ن) ، ص 3563.
13. المرجع نفسه ، ص 3563.
14. الموسوعة العربية الميسرة ، المكتبة العصرية ، مج05 ، ط3 ، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 2009 ، ص 2544.
15. رينهارت دوزي ، تكملة المعاجم العربية ، ج8 ، تر: مُحَمَّد سليم النعيمي ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العامة — آفاق عربية ، بغداد ، 1997 ، ص 210.
16. مُحَمَّد علي التهانوي ، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تح: علي دحروج ، تر: عبد الله الخالدي ، ط1 ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، 1996 ، ص 1312.
17. علي حرب ، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2005 ، ص 09.
18. نصر حامد أبو زيد ، الخطاب الديني (رؤية نقدية) ، ط1 ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، 1992 ، ص 58.
19. مُحَمَّد مجتهد شبستري ، تأملات في القراءة الإنسانية للدين ، تر: حيدر نجف ، مرا: عبد الجبار الرفاعي ، ط1 ، مركز دراسات فلسفة الدين ودار التنوير للطباعة والنشر ، بغداد—تونس ، 2014 ، ص 72.
20. المصدر نفسه ، ص 71.
21. المصدر نفسه ، ص 72.
22. فلسفة الدين هي فرع جديد من فروع الفلسفة ، ظهر في الغرب ، وتعني القراءة العقلانية للدين ، الأديان عموما وليس دين واحد فقط ، سواء كانت هذه الأديان سماويةً أو وضعية. عبد الجبار الرفاعي ، تمهيد لدراسة فلسفة الدين ، ط1 ، مركز دراسات فلسفة الدين ودار التنوير للطباعة والنشر ، بغداد-تونس ، 2014 ، ص 246.
23. علي أحمد الكربابادي ، قراءة في تعدد القراءات ، ط1 ، دار الصفوة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 2010 ، ص 19.
24. ابن منظور ، لسان العرب ، م س ، ص 1367.
25. مُحَمَّد عبد الله دراز ، الدين (بحوث ممهِّدة لدراسة تاريخ الأديان ، ط1 ، دار القلم ومطبعة الحرية ، الكويت-بيروت ، (د.س.ن) ، ص 31.
26. خزعل الماجدي ، علم الأديان (تاريخه ، مكوناته ، مناهجه ، أعلامه ، حاضره ، مستقبله) ، ط1 ، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع ، الرباط ، 2016 ، ص 25.
27. حسن علي مصطفى ، نشأة الدين (بين التصور الإنساني والتصور الإسلامي) ، ط1 ، مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع ، قسنطينة ، 1991 ، ص 11.
28. مُحَمَّد عبد الله دراز ، الدين ، م س ، ص 13.
29. مُحَمَّد مجتهد شبستري ، "إحياء الدين وتطورات التجربة الدينية" ، مجلة قضايا إسلامية معاصرة ، دار الفلاح للنشر والتوزيع ، بيروت ، ع 16-17 ، ص 61.
30. المصدر نفسه ، ص 63.
31. مُحَمَّد مجتهد شبستري ، تأملات في القراءة الإنسانية للدين ، م س ، ص 05.
32. المصدر نفسه ، ص 71.
33. مُحَمَّد مجتهد شبستري ، "الإيمان والتجربة الدينية والحرية" ، تر: حيدر نجف ، مجلة قضايا إسلامية معاصرة ، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، ع 51-52 ، ص 132.
34. مُحَمَّد مجتهد شبستري ، تأملات في القراءة الإنسانية للدين ، م س ، ص 55.
35. طه جابر العلواني ، "مقاصد الشريعة" ، ضمن كتاب: مقاصد الشريعة (مشكلات الحضارة / دراسات إسلامية) ، إشراف: عبد الجبار الرفاعي ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق ، 2002 ، ص ص 127-128.
36. مُحَمَّد مجتهد شبستري ، تأملات في القراءة الإنسانية للدين ، م س ، ص 62.
37. المصدر نفسه ، ص 66.
38. مُحَمَّد مجتهد شبستري وآخرون ، "بنية العنف ومنابعه وأشكاله وتجلياته" ، مجلة قضايا إسلامية معاصرة ، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، ع 35-36 ، ص 85.
39. مُحَمَّد مجتهد شبستري ، تأملات في القراءة الإنسانية للدين ، م س ، ص 56.
40. المصدر نفسه ، ص 56.
41. المصدر نفسه ، ص 70.
42. مُحَمَّد مجتهد شبستري وآخرون ، "بنية العنف ومنابعه وأشكاله وتجلياته" ، ص 94.
43. عبد الجبار الرفاعي ، إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين ، ط2 ، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، 2013 ، ص 280.
44. مُحَمَّد مجتهد شبستري ، تأملات في القراءة الإنسانية للدين ، م س ، ص 72.
45. المصدر نفسه ، ص 62.
46. مُحَمَّد مجتهد شبستري ، "حقوق الإنسان ونصوص الأديان الإبراهيمية والسيادة الحقوقية الإلهية" ، مجلة قضايا إسلامية معاصرة ، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، ع 37-38 ، ص 94.
47. المصدر نفسه ، ص 95. سورة الإسراء ، الآية 70. سورة التين ، الآية 04.
48. عبد الجبار الرفاعي ، الدين والظمأ الأنطولوجي ، ط1 ، مركز دراسات فلسفة الدين ودار التنوير للطباعة والنشر ، بغداد-تونس ، 2016 ، ص 94.

49. مُحَمَّد أركون ، نزعة الأنسنة في الفكر العربي (جيل مسكويه والتوحيدي) ، تر: هاشم صالح ، ط1 ، دار الساقي ، بيروت ، 1997.
50. علي شريعتي ، الإنسان والإسلام ، تر: عباس الترجمان ، مرا: حسين علي شعيب ، ط2 ، دار الأمير للثقافة والعلوم ، بيروت ، 2007.
51. هشام جعيط ، أزمة الثقافة الإسلامية ، ط3 ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، 2011 ، ص 50.
52. سورة الزخرف ، الآية 10-13.
53. سورة الإسراء ، الآية 70.
54. هشام جعيط ، أزمة الثقافة الإسلامية ، م س ، ص 51.
55. المصدر نفسه ، ص ص 50-51.
56. سورة ص ، الآية 71-72.
57. القاضي أبي يوسف ، كتاب الخراج ، ط1 ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1979 ، ص 03.
58. هشام جعيط ، أزمة الثقافة الإسلامية ، م س ، ص 53.
59. القاضي أبي يوسف ، كتاب الخراج ، م س ، ص 149. يختلف موقف "هشام جعيط" في كتابه "الشخصية العربية الإسلامية" عن موقفه هذا من كتاب "الخراج" لأنه في الفترة الأولى أكّد على أنّه كتاب لا يدعو إلى العالمية ويحافظ على القومية ، في حين أنه في فترة لاحقة ونظرا لتطوّر أفكاره يؤكّد العكس من هذا ، حيث يرى بأنّ كتاب "الخراج" يمكن الاستفادة منه عالميا في مجال حقوق الإنسان. هشام جعيط ، الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي ، تر: المنجي الصيادي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط3 ، بيروت ، 2008 ، ص 31.
60. رواه الترمذي ، ضمن كتاب: عبد الرحمن السعدي ، بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار ، ط4 ، وكالة شؤون المطبوعات والنشر ، الرياض ، 2002 ، ص 119.
61. القاضي عبد الجبار ، المغني (في أبواب التوحيد والعدل) ، ج06 (الإرادة) ، تح: محمود مُحَمَّد قاسم ، مرا: ابراهيم مذكور ، ط1 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1962 ، ص 56.
62. محي الدين ابن العربي ، فصوص الحِكم ، تح: أبو العلا عفيفي ، ط1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (د.س.ن) ، ص 50. ويُعدّ "ابن العربي" أول من استعمل تعبير "الإنسان الكامل" في الفكر الصوفي والفلسفي الإسلامي ، هذا من ناحية اللفظ ، أما المضمون فقد استقاه من ينابيع متعددة لم تؤثّر في فرديّته وابتكاره ، وعبارة الإنسان الكامل تشير إلى مجموعة الصفات العالية الرفيعة التي تميّز الحقيقة الإنسانية. ومن هنا فإنّ "ابن العربي" يصف الإنسان "كما يجب أن يكون" وليس الإنسان "كما هو كائن" في الواقع الإنساني ؛ أي بطريقة مثالية يوتوبيّة ، ومن هنا فإنّ البحث في الإنسان عند المتصوّفة يختلف جذريًا عن البحث في مفهوم الإنسان في الفلسفات الحديثة والمعاصرة ، ولكن التأكيد على الكرامة الإنسانية والعقلانية هو ما يثبت النزعة الإنسانية في التصوف الإسلامي والثقافة الإسلامية عموما. سعاد الحكيم ، المعجم الصوفي (الحِكمة في حدود الكلمة) ، ط1 ، دار دندرة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1981 ، ص 160.
63. محي الدين ابن العربي ، تُرحمان الأشواق ، تح: عبد الرحمن المصطاوي ، ط1 ، دار المعرفة ، بيروت ، 2005 ، ص 62.
64. محي الدين ابن العربي ، رسائل ابن عربي (القطب والنّقباء وعقلة المستوفز) ، تح وتق: سعيد عبد الفتاح ، ط1 ، دار الانتشار العربي ، بيروت ، (د.س.ن) ، ص 45.
65. هشام جعيط ، أزمة الثقافة الإسلامية ، م س ، ص 56.
66. مُحَمَّد المزوغي ، منطق المؤرخ (هشام جعيط: الدولة المدنية والصحوة الإسلامية) ، ط1 ، منشورات الجمل ، بيروت- بغداد ، 2014 ، ص 28.

في التفكير حول فلسفة الدين عند رونيه ديكارت

Reflections on the philosophy of religion at René Descartes

تاريخ الإرسال: 09-09-2019 تاريخ القبول: 12-04-2020

هشام شراد، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف2
Cherrad.hichem@hotmail.fr

الملخص

إن الهدف من هذا المقال ، كما يتضح من خلال العنوان ، هو النظر في إمكانية وجود فلسفة للدين في المنظومة الفلسفية لديكارت من منظور العلاقة التي أقامها هذا الأخير بين العقل والإيمان من جهة ، وكذا العلاقة بين "الحقائق الموحى بها" و"الحقائق المكتسبة" من جهة أخرى. بالنظر إلى "محتوى الإيمان" الذي يتميز بغموض معناه ومغزاه بالنسبة للعقل ، وكذلك اليقين الذي تتميز به "الحقائق الموحى بها" بالمقارنة مع "الحقائق المكتسبة" ، فإن هذا المقال يخلص إلى نفي وجود فلسفة للدين عند ديكارت ، نظراً لغياب توظيف للعقل الفلسفي داخل مبحث الدين ، وكذا بسبب الغموض الذي يعتري محتوى الإيمان ومجاوزة "الحقائق الموحى بها" لحدود العقل. إن التباين بين "الحقائق الموحى بها" و"الحقائق المكتسبة" لا تفضي إلى التعارض بينهما ، بل إن ديكارت ينتهي إلى المصالحة بينهما ، وهو الهدف الذي وضعه مسبقا ، أي تبيان توافق الديانة الكاثوليكية وفلسفته وعدم تعارضهما ، ومن ثمة تقديم بديل عن فلسفة أرسطو.

الكلمات المفاتيح: فلسفة الدين ، العقل ، الإيمان ، الحقائق الموحى بها ، الحقائق المكتسبة.

Résumé

Le propos de cet article, comme l'indique son titre, est de s'interroger sur l'éventuelle existence d'une philosophie de la religion dans le système philosophique de Descartes sous le prisme du rapport qu'avait établi ce dernier entre la raison et la foi, d'une part, et de celui entre les « vérités révélées » et les « vérités acquises », d'autre part. Considérant la nature de la foi -dont le contenu se caractérise par sa nébulosité pour l'entendement humain- et la certitude des « vérités révélées » par rapport aux « vérités acquises », le présent article réfute l'existence d'une philosophie de la religion dans le système cartésien : d'abord, du fait de l'absence d'un investissement de la religion par le biais de la raison philosophique, ensuite parce que les « vérités révélées » transcendent la raison humaine. La ligne de démarcation séparant les deux ordres de vérités n'aboutit guère, dans le système de Descartes, à une contradiction, mais plutôt à une réconciliation et une complémentarité entre celles-ci. Il s'agit là d'un objectif tracé au préalable par cet auteur : montrer que la philosophie cartésienne était plus compatible avec le Catholicisme que la philosophie aristotélicienne.

Mots-clés : Philosophie de la religion, Raison, Foi, Vérités révélées, Vérités acquises.

Abstract

The content of this article, as indicated by its title, is to ask the possible existence of a philosophy of religion in Descartes' philosophical system under the prism of the report established by the latter between reason and faith on the one hand, and the relationship between « revealed truths » and « acquired truths », on the other hand. Given the nature of faith whose content is characterized by its obscurity for the human understanding, as well as by the certainty of «revealed truths » over «acquired truths », this article refutes the existence of a philosophy of religion in the Cartesian system; first, because of the fact of the absence of an investment of religion through philosophical reason, then, because « revealed truths » transcend human reason. The line of demarcation separating the two orders of truths does not lead, in Descartes' system, to a contradiction, but rather to reconciliation and a complementarity between them. This is an objective drawn beforehand by this author, that is to say, to show that Cartesian philosophy was more compatible with Catholicism than Aristotelian philosophy.

Keywords : Philosophy of religion, Reason, Faith, Acquired truths, Revealed truths.

مقدمة

يُعتبر موضوع الدين من أقدم مواضيع الفلسفة، إذ أن تاريخها برمته قد شكل مجالاً للجدل والمناظرة بخصوص مواضيع أصل ونشأة الكون ووجود الإله وخلود النفس والحرية الإنسانية. ومن ثمة ظهور مَوقِفين بخصوص هذه المواضيع: الموقف الدوغماطيقي الذي يُجزم بالنفي أو الثبات دون أي نقاش، والموقف الشكي الذي يُشدد على ضرورة الامتناع عن الإثبات أو النفي[1]. فظهور كل من "*علم اللاهوت*" و"*الميتافيزيقا*" لم يكن بمحض الصدفة، بقدر ما كان مرتبطا بالنقاشات الأولى التي عرفتها الفلسفة في بداياتها الأولى، أي منذ العصر اليوناني.

إن فلسفة الدين لها دور ووظيفة يمكن مقارنتهما بالميتافيزيقا والفلسفة الدينية وعلم اللاهوت من جهة، وكذا العلوم الاجتماعية التي تعالج ظاهرة الدين من جهة أخرى. بما أن الميتافيزيقا - وهي أحد فروع الفلسفة- تبحث في المبادئ الأولية للكائن، فإنها تتقاطع مع الانطولوجيا وعلم اللاهوت لاشتراكهم في الاشتغال في موضوع "*المطلق*"، أي الإله. لكن الميتافيزيقا لا تعتبر موضوعات الدراسة التي تتقاسمها مع فلسفة الدين جزءا من الدين. أما علم اللاهوت، فيبدو مرتبطا بالتزام فكري ومؤسساتي داخل الإطار العام لدين ما، فمهمته تبقى دفاعية وتبريرية للمعتقد، أما الفلسفة فإنها تضع بين قوسين "الحقائق الموحى بها"، من أجل تطوير نقد ايجابي أو سلبي للوحي. ومع ذلك، فان هذا التمييز بين الفلسفة وعلم اللاهوت يجب أن يأخذ بعين الاعتبار مكانة الفلسفة الدينية بصفتها مجالا لنظر الفيلسوف في الأفق الديني، يختلف تماماً مع مبادئ ووجهة عالم اللاهوت[2].

في المقابل، فان فلسفة الدين يتحدد معناها بمقارنتها بعلم اللاهوت الطبيعي، ففي حين يشير علم اللاهوت الطبيعي إلى ذلك الخطاب المستند إلى العقل في تناوله لمسائل الألوهية، فإن فلسفة الدين تعني فحص جوهر الدين بالاستناد إلى العقل الفلسفي، ففلسفة الدين تتسم بطابع الحياد الديني (neutralité religieuse)، وبالتالي نزع البعد الدوغماطيقي عن الدين، ومن ثمة فإنها تعتبر مكونات الدين التاريخية ومختلف تجلياته قابلة للفهم والمعرفة الفلسفية[3]. من هذا المنظور، فإن الحدود الفاصلة بين الميتافيزيقا وفلسفة الدين تكاد تزول، لأن الفحص الفلسفي للممارسات الدينية يؤدي حتما إلى مباشرة التفكير الميتافيزيقي حول موضوع "المبدأ الأول"، وبالتالي فان مُساءلة فلسفة الدين في حد ذاتها، يقود حتما إلى التساؤل عن طبيعة الاختصاصات ذات الصلة بهذه الأخيرة، أي مدى حضور العقلانية داخل هذه المباحث.

أما فلسفة الدين، كميدان من ميادين الفلسفة، فلم تعرف بداياتها الأولى إلا مع النصف الثاني من القرن الثامن عشر مع ايمانويل كانط (1724-1804)، حيث تكمن أصالة الفلسفة الكانطية في هذا المجال في كونه قد زحزح مسالة الدين من دائرة الميتافيزيقا (فمواضيع الميتافيزيقا كالإله والنفس لا سبيل لمعرفتها) ووضعها على أسس أخلاقية ومن ثمة قوله بالدين الأخلاقي الكوني. فكون العقل هو الجوهر الوحيد القادر على إنتاج القانون الأخلاقي، بدون الاستناد إلى الامبريقية (Empirisme)، فان الأخلاق ليست نتاج الدين، بل هي التي تقود إلى الدين. وقد عرض كانط أهم أفكاره بخصوص فلسفة الدين — والتي ليس بوسعنا التطرق إليها في هذا المقال- في كتابه "الدين في مجرد حدود العقل" (1793).

ورغم التقدم الهائل الذي عرفته فلسفة الدين منذ هذه المرحلة مع الكثير من الفلاسفة خاصة الألمان والانجلوسكسونيين، إلا أن هذا الميدان لا يزال اليوم يراوح مرحلة الإرهاصات الأولى، بسبب جملة من الأسباب التاريخية-الإيديولوجية والابستمولوجية. فخلال الفترة السوفيتية، على سبيل المثال، تم نشر كتب "*الإلحاد العلمي*" (l'athéisme scientifique) كالانطولوجيات من كلاسيكيات الماركسية حول مفهوم الدين وجوهره، وكان الهدف من ذلك محاربة الدين واستئصاله واجتثاثه من المجتمع بدلاً من أن يكون موضوعاً للتفكير والفحص الفلسفيين. أما فلاسفة الدين الغربيين فقد تعرضوا لانتقادات شرسة من طرف الحركات الماركسية الشيوعية العالمية، واعتبارهم بمثابة فلاسفة مساعدين (philosophes auxiliaires) في خدمة مصالح الطبقة البرجوازية، التي تجد هي الأخرى مصالحها في تحريك الدين. لذا فانه ليس غريبا أن النقاشات الأولى حول مواضيع فلسفة الدين لم تظهر في

روسيا إلا بعد سقوط وانهيار الإلحاد الرسمي ، وهنا نشير إلى كتاب يوري كيميلاف (Yuri Kimilev) المعنون "فلسفة الدين الغربية المعاصرة" الذي نشره عام 1989[4].

مما لا شك فيه ، فان الموضوعات الميتافيزيقية قد شكلت أحد اهتمامات الفيلسوف الفرنسي روني ديكارت (1596-1650)، فقد تعرض هذا الأخير إلى فكرة الإله ، والنفس والافخارستيا (Eucharistie) والإيمان. لكن التساؤل الذي يفرض نفسه هو كيفية وطريقة تعامل ديكارت مع هذه المواضيع ، التي تعتبر اليوم مواضيع تختص بها فلسفة الدين ، بعبارة أخرى ، هل يمكن الحديث عن فلسفة للدين في المنظومة الفلسفية لديكارت؟ ولماذا اهتم هذا الأخير بالميتافيزيقا ، وما هي الغايات من إدراجها في مباحث فلسفته ؟

ان البحث عن فلسفة للدين عند ديكارت يستوجب أولا التساؤل عن الملة التي كان يدين بها ديكارت ، والمكانة التي تحظى بها في فلسفته. بهذا الخصوص نجد الكثير من التضارب ، ففي كتاب " مقال عن المنهج" ، يبدو دين ديكارت مرتبطا بالتنشئة الاجتماعية والوراثة ، اذ يقول: " *فأنني وضعت لنفسي قواعد للأخلاق مؤقتة لا تشتمل إلا على ثلاث حكم أو أربع أدلي إليكم بها: الأولى أن أطيع قوانين بلادي وعوائدها ، مع ثبات في محافظتي على الديانة التي* أنعم *الإله على بأن نشأت فيها منذ طفولتي*[5]". أما أدريان بابيه Adrien Baillet ((1649-1706 الذي يعتبر أول من كتب سيرة ذاتية لديكارت ، فانه يرى أن هذا الأخير كان على " *دين المربية*" (La religion de sa nourrice). أما في "مراسلاته" ، فنجد ديكارت يفشي عن انتمائه الديني الكاثوليكي ، ففي إحدى رسائله التي بعث بها إلى صديقه الأب مارين مارسي Marin Mersenne (1588-1648)، في سنة 1640 ، يعتبر ديكارت نفسه "متحمسا للديانة الكاثوليكية"(Zélé à la religion catholique)، مستدلا في ذلك بالمواضيع الدينية الكبرى التي عالجها في فلسفته[6].

-1فلسفة الدين عند ديكارت من منظور العلاقة بين العقل والإيمان

إن الحديث عن موضوع الإيمان في المنظومة الديكارتية يستدعي أولا جرد كل النصوص التي عالج فيها ديكارت مبحث الإيمان مع تحديد موقعها داخل منظومته والمغزى من توظيفها. في هذا الصدد ، سنتطرق إلى كتابات ديكارت الأولى ثم المتأخرة. في هذا الصدد ، نشير إلى أن الكثير من الاقتباسات التي قمنا بتوظيفها في هذا المقال قد قمنا بترجمتها من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ، وذلك راجع لعدم توفر الترجمة.

في كتابه "*قواعد لتوجيه الفكر*" (Règles pour la direction de l'esprit) الذي نشره ديكارت في سنة 1629 ، يشير هذا الأخير في القاعدة الثالثة إلى كيفية تحصيل المعرفة والعلوم بتأكيده على عدم الاكتفاء بآراء الآخرين أو بمجرد الاحتمالات ، بل لا بد من تركيز اهتمامنا على الحقائق البديهية وكل ما هو ممكن استنباطه من خلالها. يقول ديكارت: "*ولا يجب فيما يتعلق بالفكر ، أن نقبل أكثر من ذلك ، بل يجب أن نطرح جانبا جميع السبل الأخرى باعتبارها مشبوهة معرضة للخطأ. غير أن ذلك لا يمنعنا من أن نعتقد أن ما كان موضوع كشف إلهي هو أكثر يقينا من أي معرفة أخرى. ونحن إذ نؤمن فيما يتعلق في كل الحالات بأشياء غيبية ، فان هذا لا يصدر عن فكر وإنما عن إرادة. وإذا كانت لها أسس في الفكر فنستطيع ، بل ويجب العثور عليها قبل كل شيء عبر أحد السبيلين (أي الحدس والاستنباط) اللذين أشرنا إليهما سابقا على الوجه الذي يمكن أن نوضحه في وقت لاحق توضيحا موسعا*[7]".

هذه الأسطر هي في الأصل عبارة عن مقتطفات من المذكرات اليومية لديكارت التي كتبها في فترة يتعذر علينا تحديدها ، ولكنه من المؤكد أن ديكارت قد ضمنها في مذكراته في مرحلة كان فيها اهتمامه موجها إلى القضايا الكبرى التي سيعالجها فيما بعد في كتبه المعروفة. ويمكن ، من خلال القاعدة الثالثة ، استنتاج ما يلي:

1. التنويه بموضوع الإيمان ارتبط بتناول ديكارت لقاعدة البديهة.
2. قيمة الإيمان: المواضيع المتعلقة بالإيمان تتميز باليقين ، واليقين هو أكثر اتساعا من البداهة.
3. سيكولوجية الإيمان: انه فعل الإرادة.

أما في " مقال عن المنهج" وكذا " تأملات ميتافيزيقية" ، فان الشك المنهجي (le doute méthodique) والشك الجذري (le doute hyperbolique) يمتدان إلى كل الأشياء ، باستثناء ما يطلق عليها ديكارت "بالحقائق الموحى

بها" (les vérités révélées). يقول في الفصل الأول من " مقال عن المنهج":

"*وإن الحقائق الموحى بها ، والتي هي تهدي إلى الجنة ، هي فوق فهمنا* (sont au-dessus de notre intelligence)، *لم يكن لي أن أجرؤ على أن أسلمها لضعف استدلالي ، ورأيت أن محاولة امتحانها امتحانا موفقا تحتاج لأن يمد الإنسان من السماء بمدد غير عادي ، وأن يكون فوق مرتبة البشر*[8]".

أما في الفصل الثالث من "مقال عن المنهج"، فإن ديكارت يضع لنفسه أخلاقا مؤقتة ، بمعنى جملة من المبادئ العملية التي تتجاوز كل من الحقيقة والخطأ ، لذا فإن ديكارت لا يُعاينها عندما يقوم باستعراض وفرز جميع معارفه: "*وبعد أن استوثقت كذلك من هذه الحكم ، ووضعتها ناحية مع حقائق الإيمان ، التي لها المنزلة الأولى في اعتقادي. حكمت بأن ما بقي من أرائي ، هو أن أعمل على التخلص منها*[9]".

في الجزء الأول من "مبادئ الفلسفة"، يبرهن ديكارت في "مبادئ المعرفة البشرية" على وجود الإله ، مؤكدا على أنه لا متناه ، وأن البشر متناهون (المبدأ 24)، ومن ثمة فإنه "*يجب علينا أن نؤمن بكل ما أنزله الإله ، وإن يكن فوق مداركنا*[10]"(المبدأ 25). أما في "تقديم" كتاب "مبادئ الفلسفة"، يعرف ديكارت الفلسفة على أنها دراسة للحكمة التي تكمن في أربعة أمور: الوعي ، وتجربة الحواس ، والنقاشات مع الآخرين ومطالعة الكتب ، وبالتالي ، يقول ديكارت "يبدو لي أن الحكمة التي يقع امتلاكها في مألوفنا مكتسبة بهذه الطرق الأربعة فقط ؛ لأني لا أضع الوحي الإلهي من بينها ؛ إذ إن هدايته ليست على درجات ، وإنما يرفعنا دفعة واحدة إلى إيمان لا يتزعزع[11]".

وبالتالي فان الحدس[12] (intuition) والاستنتاج (déduction) اللذين يشكلان عند ديكارت طريقا للمعرفة العقلية ، لا يمكن تطبيقهما على مبحث الإيمان ، لأن الإيمان يشتمل على أمور غامضة ، بمعنى أن "ما أوحي به" هو "فوق فهمنا". بيد أن ديكارت يميز بين "محتوى الإيمان" الذي يكتنفه الغموض اللافت للفهم البشري و"السبب الحقيقي" للإيمان الذي يعتبره واضحا ويقينيا: "*فإنني تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازما في شيء ما بحكم التقليد أو العادة ، وكذلك تخلصت شيئا فشيئا من كثير من الأوهام التي تستطيع أن تخمد فينا النور الفطري وتنقص من قدرتنا على التعقل*[13]".

هذه الاقتباسات ، التي قمنا بجردها من خلال النصوص الديكارتية ، ستمكننا من توجيه هذه الدراسة:

- لأي غرض يتكلم ديكارت عن الإيمان؟ يبدو أن الأمر متعلق بمشكلة الوضوح واليقين ؛ فتارة يقوم ديكارت بربط قناعاته عن الإيمان بتحليلاته لقاعدة البداهة (المبدأ 76)، وتارة أخرى يجعلها (قناعاته عن الإيمان) سابقة لطرحه لمبدأ البداهة ، حتى ينزه الإيمان من كل شك وريبة (في "مقدمة" كتاب "مبادئ الفلسفة")، أو أنه يضعها قبل الشك المنهجي الذي يتصف بنقضه كل المعارف ماعدا البديهيات (الفصلين الأول والثالث من "مقال عن المنهج"). وعلاوة على ذلك ، فديكارت يقوم كذلك بتمرير قناعاته عن الإيمان عند حديثه عن صفات الإله ، حتى لا تعكر أسرار الوحي ذوق البداهة بداخلنا (المبدأ 25).
- لماذا يتحدث ديكارت عن الإيمان؟ حتى يستثني الإيمان من المنهج ومن ثمة جعله الإيمان بعيدا عن فلسفته. إن مجال اليقين هو أكثر اتساعا من مجال البداهة ، ولما كان كذلك ، فإن الفلسفة ومختلف العلوم تختص فقط بمجال البداهة ، أما الإيمان فيدخل في دائرة اليقين ، دون أن يكون بديهيا ؛ فمحتوى الإيمان يتميز بالغموض وتجاوزه للعقل البشري.
- ما هو مصدر الإيمان؟ بما أن الإيمان هو امتثال وتقيد بحقائق "غامضة" ، فان قبول محتوى الإيمان لا يترتب عن مدى التأكد من مصداقيته ، بل هي الرحمة الإلهية la Grâce divine)) التي تتيح للذات العارفة النظر في هذه الأمور والتسليم بها دون أن تنير البداهة طريق العقل. فعل الإيمان هو فعل الإرادة (القاعدة الثالثة). في هذا الصدد ، تقر السيكولوجية الديكارتية على أن معرفتنا وإدراكنا بالأشياء محدودتان على عكس إرادتنا التي هي غير محدودة ؛ فالإرادة بإمكانها إذًا تجاوز ما يمكن للعقل أن يدركه ، فلا شيء يعوق الإرادة على بلوغ الحقائق الغامضة. ولكن السؤال المطروح: فيما يتعلق بالإيمان ، من أين يتأتى حافز الإرادة؟ من الإله ، يقول ديكارت ، فالإيمان هبة من الإله. لذا فإن "*طريق الجنة ليس ممهدا لأجل الجهلاء أقل مما هو ممهد لأعلم العلماء*[14]".

-1-1نمطان من الحقيقة ؟

وبالرغم من أن روني ديكارت يشير في كتاباته إلى التباين الكبير بين "الحقائق الموحى بها" و"الحقائق

المكتسبة"(les vérités acquises)، بتأكيده على التفوق الابستيمي (المعرفي) "للحقائق الموحى بها" على "الحقائق المكتسبة"، كونها فوق العقل البشري وفي منأى عنه، ومن ثمة تمتعها "بحصانة" على المستوى الابستمولوجي الذي يعفيها من الشك المنهجي والجذري[15]، إلا أنه يرفض، في الوقت ذاته، فكرة "ازدواجية الحقيقة". "فالحقائق المكتسبة" التي يتم الوصول إليها عن طريق العقل، و"حقائق الوحي" النابعة عن الرحمة الإلهية (La Grâce)، كلاهما وجهان لعملة واحدة، أي الحقيقة. وبالتالي، فإن "الحقائق المكتسبة" تعني تلك " التي نستطيع فهمها" من حيث أنها مُنْفَتِحَةٌ على العقل، أما "حقائق الوحي" فإنها تُحيل إلى تلك " التي وجب التصديق بها"، لأنها مستوحاة من الرحمة الإلهية. وبما أن "حقائق الوحي" ليست في متناول العقل، فإنها من اختصاص علم اللاهوت (théologie) وبالتحديد ما يطلق عليه ديكارت بعلم اللاهوت الايجابي (la théologie positive) المختص بالتعاليم الدوجماطيقية للكنيسة، في مقابل علم اللاهوت التأملي (la théologie contemplative) الذي تنبثق منه عادة مذاهب لاهوتية مختلفة. فالكنيسة الكاثوليكية، عند ديكارت، هي السلطة المعيارية الوحيدة التي يخول لها التعامل مع "الحقائق الموحى بها" والمتأتية من الكتابات المقدسة، بعبارة أخري، فان ديكارت، يحدد مجال تخصص اللاهوتي (Le théologien) بالاشتغال على المضامين المقدسة ومنعه العقل من الاشتغال بما ليس في وسعه إدراكه. فديكارت يمتنع عن النظر في المسائل اللاهوتية، كما يتضح ذلك من خلال الرسالة التي بعث بها إلى الأب مارسين بتاريخ 06 ماي1630: "فإنني لا أريد أن أقحم نفسي في علم اللاهوت، خشية أن تحكم على فلسفتي بالتحرر المفرط[16]". وفي رسالة أخرى موجهة إلى الأب ماسلاند (P. Mesland) بتاريخ 02 ماي 1644 يقول صاحب "*مقالة في المنهج*" مايلي : "فإنني أمتنع، قدر المستطاع، عن النظر في المسائل المتعلقة بعلم اللاهوت[17]".

مهما يكن، فإن ديكارت يؤكد على استحالة النظر في "حقائق الوحي" عن طريق العقل، وعلاوة على ذلك فإنه يستحيل على الفيلسوف توظيف واستخدام معطيات الوحي والاستناد عليها قصد وضع معارف علمية وفلسفية، بيد أن الفلسفة -كما يتبين ذلك من خلال محتوى الرسالة التي وجهها ديكارت إلى الأب مارسين في شهر مارس 1642- بإمكانها خدمة (علم اللاهوت) بإعدادها الوثنيين والجاحدين لاستيعاب محتوى الإيمان (La philosophie peut servir à préparer les infidèles à recevoir la foi).

في هذا الصدد، يقوم ديكارت من خلال نصه اللاتيني "المجهول" والمعنون: (Notae in programma quoddam[18])، بعد ضبطه للعلاقة بين الحقائق الموحى بها والحقائق المكتسبة، والتأكيد على "وحدة الحقيقة" ونبذ ازدواجيتها (l'unité de la vérité) من جهة، والتأكيد على استقلالية الميدان الفلسفي من جهة أخرى، بإضافة مستوى ثالث للحقيقة:

- الحقائق المشروطة بالوحي التي يختص بها علم اللاهوت، كمسائل أسرار الثالوث والتجسيد، كما تم ذكر ذلك سالفا.
- الحقائق المنفتحة على العقل.
- بعض الحقائق تحتل مرتبة وسطا، كونها من جهة تتعلق بميدان الإيمان، ومن جهة أخرى تبقى منفتحة على العقل، كما هو الحال بالنسبة لبعض القضايا الميتافيزيقية كفكرة وجود الإله وطبيعة النفس.

إن هذا التقسيم الديكارتي مهم جداً لنا، فهو يبين أن ديكارت كان شديد الحرص على احترام خصوصية كل ميدان: فهو يحدد مجال كفاءة عالم اللاهوت في حدود "الحقائق الموحى بها"، مشددا على ضرورة عدم تجاوز هذا الأخير لهذه الحدود المرسومة. في المقابل، فإن مجال كفاءة الفيلسوف هي الحقائق المكتسبة، فلا يسمح له كذلك النظر في "الحقائق الموحى بها". مهما يكن، فإن ديكارت يؤكد على استحالة النظر في حقائق الوحي عن طريق العقل، كما يستحيل توظيف الفيلسوف واستخدامه لحقائق الوحي في وضع حقائق علمية (الحقائق المكتسبة).

-1-2من اللاتعارض إلى المصالحة ثم التقاطع (أو المستوى الثاني من القراءة الديكارتية)

إن القول بالتمايز بين "الحقائق الموحى بها" والحقائق المكتسبة، والتفوق الابستيمولوجي "لحقائق الوحي" على الحقائق المكتسبة لا يحيل إلى التعارض والصدام والصراع بين هذين النمطين من الحقيقة، كون ديكارت يشدد على "وحدة الحقيقة"، فهو يشير في الكثير من

نصوصه إلى أن "*أي حقيقة لا يمكنها أن تكون مناقضة لحقيقة أخرى*" (Une vérité ne peut jamais être contraire à une autre vérité). ومن ثمة فإن عالم اللاهوت والفيلسوف لا يمكنهما الإتيان بحقائق قد تتعارض ، بعبارة أخرى ، استحالة التعارض بين العقل والإيمان ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن فكرة عدم التعارض تكتسي عن ديكارت معنىً أخر ، فهذه الفكرة تقترن بفكرة التقاطع بين هذين النمطين من الحقيقة خاصة في ميدان الميتافيزيقا: فمواضيع الميتافيزيقا يتقاسمهما العقل والإيمان ، حيث أن كلاً من الفيلسوف وعالم اللاهوت ، كل في حدوده ، ينتجان خطابين مختلفين ولكنهما متكاملان. وعلاوة على ذلك ، فإن ديكارت ، من خلال نصه المذكور أعلاه ، يشير إلى أن الفلسفة يمكن أن تشكل مدخلاً (propédeutique) لعلم اللاهوت. بتأكيده على التوافق بين الإيمان والعقل ، فإن ديكارت يُوَسِمُ فلسفته بانتصار كبير على المدرسة السكولاستيكية ، ففلسفته تتميز بالتوافق مع المسيحية أكثر من فلسفة أرسطو.

في هذا الصدد ، أمكن تفسير اهتمام ديكارت بالميتافيزيقا والانطولوجيا والمواضيع الدينية بضرورات أخلاقية وعملية:

- تهدف الفلسفة الديكارتية بِرُمَتِهَا إلى تقديم بديل لفلسفة أرسطو ، أي بعبارة أخري ، محاربة تعاليم المدرسة السكولاستيكية. فديكارت كان يسعى إلى تبيان أن منظومته الفلسفية هي أكثر توافقا مع الديانة المسيحية من فلسفة أرسطو[19].
- لم تشكل الميتافيزيقا عند ديكارت مدخلا للعلم ، بل سعى من خلالها إلى فهم الدين. فديكارت ، على حد تعبيره ، كان كاثوليكيا راغبا في تعزيز عقيدته الكاثوليكية المهددة بالكلفانيين والملحدين. لذا فإن التأسيس للفيزياء والدفاع عن الإله ، عند ديكارت ، يشكلان مهمة واحدة ، فالعلم الجديد ، - الذي بفضله فقط يصبح الإنسان سيدا ومالكا للطبيعة-، هو في نفس الوقت المبرر الوحيد للإله بصفته مشرعا للكون[20].

3-1-توافق الإيمان والعقل

يتبين مما سبق أن العقل لا يناقض معطيات الإيمان ، فديكارت يُذعن طوعاً لهذا الالتزام. ولقد تنبه إلى هذه القضية أحد تلاميذ ديكارت وهو هنري دي روي[21] (1598-1679) عندما تحدث ، في لحظة تهور ، في إحدى رسائله التي بعث بها إلى ديكارت عن "*النفس الثلاثية*" (l'âme triple) ، فرد عليه ديكارت في رسالة في شهر ماي 1641 قائلا: "*هذه الكلمة ضرب من الهرطقة في الدين الكاثوليكي*[22]" (« ce mot est une hérésie parmi ceux de ma religion»)، "*لأنه غير مسموح للكاثوليكي الروماني القول* بأن *الإنسان بداخله ثلاثة أنفاس ، وأنني أخشى أن تُنسب إلى شخصي كل ما وضعته في أطروحاتك ، أتمنى أن تمتنع عن الحديث بهذه الطريقة*[23]" .

في الفصل الرابع والمعنون " الفلسفة وعلم اللاهوت" (Philosophie et théologie)، من كتابه المعنون "الفكر الديني لديكارت" (La pensée religieuse de Descartes)، يقول الفرنسي هنري قوهيي (Henri Gouhier)، إن جهود ديكارت قد أفضت إلى وضع فلسفة حقيقة بصفتها حليفة للدين "الحقيقي"(Descartes avait apporté la vraie philosophie, celle qui est l'alliée naturelle de la vraie religion) ؛ فالفيزياء الديكارتية هي في جوهرها فيزياء مسيحية كونها تضع الإله كنقطة انطلاق لجملة استنباطاتها ، وأما النظرية الرياضية لديكارت فهي محظورة لدى الملحدين[24] ، وأما ميتافيزيقا ديكارت فهي تبرهن على وجود الإله على نحو أكثر يقينا من 2+2=4 ، وهذا ما يعتبره هنري كوهيي بمثابة إسهام حقيقي لديكارت بفلسفته في الكاثوليكية[25].

ولكن السؤال المطروح هنا هو كالأتي: إذا كان الوحي يُبْلغنا ببعض الحقائق كمسألة وجود الإله ، فلماذا نقوم في نفس الوقت بالبرهنة على ذلك (أي وجود الإله) عن طريق العقل الطبيعي؟ بعبارة أخرى ، لماذا نضيف البرهان إلى التعاليم الموحى بها؟ يجيب ديكارت على هذا السؤال في رسالة بعث بها إلى الفيزيائي والفلكي الهولندي قسطنطين هوغنس (Constantyn Huygens) بتاريخ 13 أكتوبر 1642 ، قائلا : "*ومع أن الدين يعلمنا أشياء كثيرة عن هذه المواضيع (الميتافيزيقية) ، إلا* أنني أعترف *في قرارات نفسي بالشعور بالضعف الذي يبدو لي* أنه *شائع كذلك لدى معظم الرجال ، أقصد بذلك ، أنه على الرغم من أننا نرغب في الإيمان وحتى أننا نعتقد أننا نؤمن إيمانا راسخا بكل ما يعلمه الدين ، ومع*

ذلك فإنه أصبح من عوائدنا أن لا نتأثر إلا بما نقتنع به لأسباب طبيعية واضحة (بديهية)[26]".

-1-4مثال ملموس على توافق فلسفة ديكارت مع الكاثوليكية

نظرية ديكارت حول "*أنفس (أرواح) الحيوانات*" تعتبر الشرح الأنسب لما جاء في الكتاب المقدس بخصوص هذا الموضوع ؛

كالإصحاح الثاني عشر من سفر التثنية، الذي جاء فيه: "*لكن أحترز أن لا تأكل الدم، لأن الدم هو النفس. فلا تأكل النفس مع اللحم*" (سفر التثنية 12،23) « *sanguis enim eorum pro anima est*» ،

أو ما جاء في سفر اللاويين: "لأن نفس كل جسد دمه هو بنفسه، لا تأكلوا دم جسد ما، لأن نفس كل جسد هي دمه" (سفر اللاويين 17: 14)« *Anima enim omnis carnis in sanguine est: et Sanguinem omnis carnis non comedetis, quia anima carnis in sanguine est*».

ففي رسالة بعث بها ديكارت الى بلامبيوس (A Plempius) بتاريخ 30 اكتوبر 1637، والتي ذاع صيتها آنذاك في كل أرجاء هولندا، يتحدى ديكارت السكولاستيكيين، وخاصة بلامبوس الذي كان يشغل وظيفة أستاذ بجامعة لوفان الكاثوليكية (بلجيكا)، أن يقدوا شروحا أفضل وأصلح من التي يقترحها. في هذا الصدد، يحتفي ديكارت- بعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ- بانتصاره على المدرسة السكولاستيكية في رسالة وجهها بتاريخ 11 جوان 1640 إلى الأب مارسين قائلا: "منذ فترة طويلة، اطلعت على نص سفر التثنية (*لكن أحترز أن لا تأكل الدم، لأن الدم هو النفس. فلا تأكل النفس مع اللحم*) ، وقد أدرجته في معرض ردي على اعتراضات بلامبيوس، واستعجلت هذا الأخير قصد إعطائي تفسيرا لهذا النص، ولكنه لم يرد[27]".

مما لا شك فيه أن للحيوانات أعضاء تشبه نفسها التي يمتلكها الإنسان، بل إن بعض الحواس عند الحيوانات كالنظر والسمع والشم هي أكثر تطورا مما هي عليه عند الإنسان، باستثناء الذوق. هذا التشابه في الأعضاء بين الإنسان والحيوان يستلزم تشابها بين الوظائف: فالحيوانات تتأثر مثل الإنسان وتستعمل الخداع، كما تكشف أصواتها وصورها تارة الألم والأسى وتارة أخرى المتعة والفرح كما أنها تستنجد أو تهدد بعضها البعض. بالرغم من هذه الحقائق، إلا أن ديكارت يقر بأن الحيوانات لا تمتلك فكراً ولا شعوراً ولا أحاسيس، لأن ما يصدر عن الحيوانات لا يمكن اعتباره رد فعل إرادي، بل مجرد فعل انعكاسي تستجيب من خلاله لمنبهات الوسط الخارجي. ففي نظر ديكارت، الحيوان هو عبارة عن "مادة" تفتقر للروح (النفس) وأن هذه الأخيرة هي وحدها المتصفة بالإحساس. فديكارت لا يقرر –شأنه في ذلك شان أرسطو وتوماس الاكويني- بوجود نفس حساسة (âme sensitive) منفصلة عن النفس العاقلة (âme raisonnable): في كتابه المعنون "عواطف الروح" ((Les passions de l'esprit ينفي ديكارت عن الحيوانات العواطف والأحاسيس كونه لا ينسب النفس العاقلة إلى الحيوانات. في المقابل، فإن الأحاسيس التي نلحظها عند الحيوانات هي نتيجة تأثير العالم الخارجي على الأعصاب التي تضع أرواح الحيوانات في حالة حركة ؛ فأرواح الحيوانية تشبه "غازا جد لطيف" (vapeur subtile) يُولده القلب فيصعد إلى الدماغ ثم يمر في الأعصاب التي تقوم بتوزيعه في العضلات فتحرك الآلة[28]. ومن ثمة أمكن القول، من خلال هذا المثال، بأن نظرية ديكارت الفلسفية حول البدن والروح تتماشى مع المسيحية الكاثوليكية ؛ فلما كانت الحيوانات آلات، فإن دماءها هي أروحها وهو سبب تحريم أكلها.

-2هل يمكن الحديث عن الاغنوستية (اللاأدرية) الديكارتية؟

أشار الفيلسوف الفرنسي موريس بلوندال (1861-1949) في كتاباته إلى الاغنوستية (Agnosticisme) الديكارتية[29]. والاغنوستية هو الاعتقاد بعدم قدرة العقل البشري على الوصول إلى المطلق (Absolu) ومختلف القضايا الغيبية كونها تتصف بالغموض. وقد كان ديكارت يصر غالبا على استعصاء إدراك غايات الإله ((desseins de dieu، لذا فإن الفيزيقا الديكارتية ألغت البحث عن "السبب النهائي" في تفسيرها للطبيعة (الكون المادي). إذ دأبت الفلسفة منذ أرسطو إلى المدرسة السكولاستيكية على اعتبار "السبب النهائي" المبدأ الوحيد الذي يمكن من خلاله شرح قوانين الطبيعة، وكان هذا نتيجة "للرؤية إلى العالم" (vision du monde) السائدة خلال هذه المراحل التاريخية، والتي

مفادها أن الكون هادف وهو لاهوتي، بمعنى أن هناك هدفا ونهاية وغاية لسيرورة (écoulement) وصيرورة (devenir) الكون، وهو ما يطلق عليه أرسطو "السبب النهائي"[30].

مع نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، ظهرت رؤية جديدة للطبيعة؛ أنه، على حد تعبير توماس صامويل كوهن (1922-1996)، تحول جديد في الباراديغم أو النمط الفكري، وهذا التحول لا يخص فقط محتوى مجمل الخطابات، بل يتميز بتغير نمط التساؤل الموجه للطبيعة. فأضحت الفلسفة لا تتساءل فقط حول عَلْمَويّة (scientificité) تفسيراتها، بل شمل ذلك حتى جملة التساؤلات الفلسفية في حد ذاتها. في هذا الإطار، تمثل جهود ديكارت صياغة لمتطلبات العلوم الطبيعة الجديدة، إذ يُعد هذا الأخير أول مفكر قام بوضع القواعد الأولى لهذه العلوم. لذا فإن رفض ديكارت لفكرة البحث عن "السبب النهائي" لا بد أن يُحظى بأهمية خاصة ويتم فحصه من حيث غاياته. مما لا شك فيه فإن هذا الرفض هو منهجي، ذو وجهتين متكاملتين؛ أولا، لأن رفض تفسير الكون بشكل غائي هو نتيجة (ضمنية ولكنها) حتمية للمنهج الجديد الهادف "*لإحكام قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم*" (حسب عبارات العنوان الفرعي لكتاب "مقال عن المنهج")؛ ثانياً، لأن هذا الرفض يمكن تبريره (بصورة صريحة) لاعتبارات منهجية، وليس لاعتبارات أنطولوجية[31]. يقول ديكارت، بشأن عقم التفسير الغائي، ما يلي: " ألا أعلم أن طبيعتي ضعيفة محدودة جدا، وأن طبيعة الله، بالعكس، واسعة شاسعة مجهولة؟ لا عجب إذن أن يقدر على ما يحصى من الأمور التي تتجاوز أسبابها أطر عقلي. هذا الاعتبار كاف وحده، لإقناعي بأن ما اصطلح على تسميته عللا غائية، لا محل له في الأشياء الفيزيقية، أو الطبيعة. إذ يبدو لي الخوض في غايات الله، ومحاولة الكشف عن أسراها، جرأة عليه[32]".

في هذا الصدد، يقول ديكارت أنه تصفح كتاب جون باتيست موران[33] ، ووجد أن عَيْبه الأساسي هو معالجته، في كل المواضع، للمتناهي (dont le principal défaut est qu'il traite partout de l'infini) ، وكأن ذهن مُؤلفه (أي موران) هو فوق المتناهي(comme si son esprit était au-dessus) ، وأن بإمكانه فهم خواص الإله. ويرى ديكارت أن هذا العيب يشترك فيه الجميع وأنه حاول تجنبه؛ فديكارت يعالج المتناهي بهدف الخضوع له، وليس لتحديده وتعريف خواصه[34].

بوجه عام، يقر ديكارت، بأنه يمكن أن نَضْمَن لأنفسنا أن الإله يفعل كل ما يمكننا فهمه، فالإله وضع قوانين في الطبيعة ثم طَبَعَ أفكار هذه القوانين في أذهاننا؛ إنها الأفكار الفطرية. وبالتالي، أمكن للعقل أن يفترض تطابقاً بين قوانين الطبيعة والأفكار الرياضية المطبوعة في أذهاننا، بصفتها مشروطة بالإله. وأنه لولا هذه الحقائق الخالدة كالأفكار الرياضية لما تمكن العقل الإنساني من فهم قوانين الطبيعة، أي بعبارة أخرى، فان الحقائق الرياضية المطبوعة في أذهاننا يمكن أن تتحقق في الطبيعة خارج نطاقنا وحتى خارج نطاق صورها المادية[35].

يرى موريس بلوندال أن عزوف ديكارت عن حقائق الإيمان بوضعه لها جانبا لم يكن من باب الحيطة والحذر (la prudence) ولا بغرض التخلص من القضايا المزعجة (les questions gênantes)، بل كان ذلك ثمرة إلهام ديني (inspiration religieuse)[36]. في هذا الإطار، لم يَنْفِ ديكارت، حسب موريس بلوندال، الأسباب النهائية لغاية علمية بل كان لدوافع دينية، كون حقائق الإيمان تتجاوز النور الطبيعي للعقل؛ إن فكرة اللامتناهي (الإله) هي الفكرة الأكثر يقيناً والأكثر إيجابية والأكثر غرابةً من بين كل معارفنا (La notion d'infini est la plus certaine, la plus positive et la plus mystérieuse de nos connaissances)، وعلاوة على ذلك، فإن الفكر الإنساني متناهٍ، ومن ثمة يستحيل عليه معرفة اللامتناهي[37].

في نفس السياق، يذهب توماس الاكويني إلى القول بأن الإله غير قابل للوصف (Dieu est ineffable) وأن البشر جاهلون، وأن المعرفة الأسمى التي يمكن أن نُكَوِّنَها عن الإله في هذه الحياة هي الوعي بأن معرفة الإله هي فوق كل ما يمكننا تصوره".

مما سبق، يمكن القول بأن الاغنوستية عند ديكارت تجد جذورها في؛

- وَعْيُ العقل المتناهي (La raison finie) باللامتناه (l'infini) وعدم القدرة على تصوره.
- النظرية الديكارتية التي قام من خلالها ديكارت بضبط العلاقة بين العقل والإيمان تتميز من جهة بإحداث قطيعة بين العقل والإيمان قصد عِصْمَةِ الإله من التَوْصِيف

(l'ineffabilité)، ومن جهة أخرى فإن هذه النظرية تستند إلى العقل قصد إضفاء شرعية على الميتافيزيقا.

ما نلتمسه من خلال فحص الفكر الديني لديكارت هو أن الميتافيزيقا - حتى بعد تجربة الشك المنهجي- لم تفقد من جاذبيتها داخل المنظومة الفلسفية الديكارتية ؛ فقد تَضَمَنَتْ هذه الأخيرة ، على سبيل المثال ، فكرة "كَرم الله"(La bonté divine) التي تعتبر سِمَةً من سِمَات الإله عند ديكارت دون أن يقوم هذا الأخير بتقديم برهان على ذلك. في هذا الصدد ، يشير عالم الاجتماع الفرنسي ألفريد فيكتور ايسبيناس (Alfred Victor Espinas) في كتابه "ديكارت والأخلاق: دراسات حول تاريخ فلسفة الفعل" (Descartes et la morale : études sur l'histoire de la philosophie de l'action) إلى أن ديكارت ذكر فكرة "كَرم الله" خمس مرات في "التأمل السادس" ، وكانت غاية هذا الأخير من ذلك هو نَزْع مسؤولية الإله عن الأخطاء التي تصدر عن البشر والبؤس الذي يعيشونه.

لم تشكل الأغنوستية بالنسبة لديكارت مَخْرجاً مناسباً للتخلص من القضايا الحساسة كما يدعيه بعض علماء اللاهوت الكاثوليك والسكولاستيكيين الذين وجهوا لديكارت جملة الاعتراضات. بل هذا يعني أنه فيما يخص طبيعة الإله وأسراره ، فإن ديكارت يَعي الكثير ، ولكنه يجد أن التعقيدات الفلسفية واللاهوتية التي طالت مواضيع الوحي غير مُجدية ولا لزوم لها. ما الفائدة من إهدار الوقت في البحث عما لا يُمكن معرفته (l'inconnaissable) في حين أن "ما نَجهله" (l'inconnu) يتيح لنا معرفة أسراره ، فالفيلسوف مُطَالَبٌ إذن بالتطلع إلى معرفة العالم الفيزيقي لأن الإله أوْجَدَهُ في متناول العقل البشري.

خاتمة

عالج ديكارت في نصوصه الكثير من القضايا الميتافيزيقية والدينية ، وأقحم قناعاته الدينية في نقاشاته الابستمولوجية ، فقد استثنى "الحقائق الموحى بها" من الشك المنهجي والشك الجذري لأنها فوق فهمنا ، وأكد ، في نفس السياق ، على غموض محتوى الإيمان ، وبالتالي فقد عَطل عمل العقل داخل مبحث الإيمان. فالتَصْدِيق والتَسليم بالحقائق الإيمانية لا يستند إلى النور الطبيعي للعقل ، بل يحتاج إلى معونة من السماء ، ومن ثمة الاعتراف بدوجماطيقية هذه الحقائق.

إن هذه المقاربة للإيمان وحقائق الوحي هي التي عَطلت قيام فلسفة للدين عند ديكارت ، وذلك لأن الإيمان يحتوي على أشياء غامضة تفوق العقل الفلسفي ، ومن ثمة فالإيمان لا يمكن أن يكون موضوعاً للمقاربة الفلسفية. بعبارة أخرى فإن التسليم بغموض محتوى الإيمان يجعل التعامل معه فلسفيا مستحيلاً. أما فيما يخص حقائق الوحي فهي الأخرى تتعالى على العقل وتستوجب الرحمة والعناية الإلهية ، ومن ثمة فلا بد من التصديق بها ، دون معرفتها معرفة عقلية والتعامل معها فلسفياً.

ولما كانت فلسفة الدين هي فحص للدين عن طريق العقل الفلسفي ، أي تحرير الدين من الدوجماطيقية والتزام الحياد الديني ، فإنه أمكن القول أن ديكارت جاء بفلسفة دينية كونه حاول إثبات مصداقية حقائق الوحي فلسفياً بقوله بعدم تعارض حقائق الوحي والحقائق المكتسبة ، أي توافق العقل والوحي. هذا ما جعل كذلك بعض الدارسين يذهب إلى أن ديكارت كان أقرب إلى علم اللاهوت من فلسفة الدين لأنه كان يدافع عن عقيدته الدينية باستعمال العقل ، وهو ما نلمسه من خلال البراهين العقلية التي وضعها في إثبات وجود النفس وخلود الروح وتعاطيه مع بعض المواضيع الدينية خدمةً لقناعاته الدينية ودفاعاً عنها.

وبالرغم من وضعه لهذه البراهين العقلية على وجود الإله وخلود النفس ، إلا أن ديكارت يُقِرُ بِتَعَذُرِ تَوْصِيف الإله والتعرف على مميزاته ، لأن الفكر البشري المتناهي لا يمكنه ، بل يستحيل عليه ، سبر أغوار وأسرار اللامتناهي ، أي الإله ، وهو ما جعل بعض الدارسين كموريس بلوندال يضع ديكارت في خانة الفلاسفة الاغنوسيين.

الهوامش

1. Dhilly, Olivier. (2011), *Comprendre la philosophie*, Edition Ellipses, Paris, p. 227.

2. Schmitt, Yann. (2016), « *Sur l'idée de philosophie de la religion* », *ThéoRèmes* [Online], 9 | 2016, Online since 20 December 2016. URL : http://journals.openedition.org/theoremes/848

3. Chukurian, Aurélien. (2016), « *A la recherche d'une philosophie cartésienne de la religion : le rapport raison - foi et l'ambivalence de la norme d'interprétation de la Bible* », *ThéoRèmes* [Online], 9 | 2016, Online since 20 December 2016. URL : http://journals.openedition.org/theoremes/858 ; DOI : 10.4000/theoremes.858

4. Kirillovitch, Shokhin Vladimir. (2008), *« La philosophie de la religion. Un nouveau domaine de la philosophie russe* », *Diogène*, 2008/3 (n° 223), p. 58-74. DOI : 10.3917/dio.223.0058. URL : https://www.cairn.info/revue-diogene-2008-3.htm-page-58.htm

5. رينيه ديكارت ، مقال عن المنهج ، ترجمة مُحَمَّد محمود الخضيري (الطبعة الثانية)، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1978 ، ص ص 137-138.

6. Chukurian, Aurélien., *« A la recherche d'une philosophie cartésienne de la religion : le rapport raison - foi et l'ambivalence de la norme d'interprétation de la Bible* », *op.cit.*

7. رينيه ديكارت ، قواعد لتوجيه الفكر ، (ترجمة وتقديم سفيان سعد الله)، دار سراس للنشر ، تونس ، 2001 ، ص 38.

8. رينيه ديكارت ، مقال عن المنهج ، ص 116.

9. المرجع نفسه ، ص ص 134-144.

10. رينيه ديكارت ، مبادئ الفلسفة ، (ترجمة عثمان أمين)، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، 2010 ، ص 68.

11. المرجع نفسه ، ص 34.

12. المقصود بالحدس هنا ، عند ديكارت ، هو البداهة. يقول ديكارت في كتابه *"قواعد لتوجيه الفكر"* : " ولا يوجد ما يمكن أن يحظى بالقبول سوى عمليتين اثنتين هما الحدس والاستنتاج. ولا أقصد بالحدس شهادة الحواس المتبدّلة أو حكما خادعا تولّده مخيّلة تركّب موضوعها بطريقة سيّئة ، وإنّما أقصد به التّصوّر الذي ينشئه الفكر الخالص المنتبه إنشاء على قدر من اليسر والتّميّز لا يبقى معه مجال للشك حول ما نفهمه أو ، وهو نفس الشيء ، هو التّصوّر الذي ينشئه الفكر الخالص المنتبه متولدا عن نور العقل وحده ، وبما انّه أكثر بساطة ، فإنه لذلك يكون موثوقا به أكثر من الاستنتاج ذاته الذي مع ذلك لا يمكن إجراؤه على نحو سيء..." ، أنظر ؛ رينيه ديكارت ، قواعد لتوجيه الفكر ، ص 36.

13. رينيه ديكارت ، مقال عن المنهج ، ص 119.

14. [1] المرجع نفسه ، ص 143.

15. Descartes, René. *Lettre à l'Hyperaspistes*, août 1641. Cf. Marion, Jean-Luc. (2009), « *Section 1. De la science à son fondement* », in. Marion, Jean-Luc. (coord.), *Sur la théologie blanche de Descartes. Analogies, création des vérités éternelles et fondement*, Paris cedex 14, Presses Universitaires de France, « Quadrige », pp. 229-346.

16. « *Je ne veux pas me mêler de théologie, j'ai peur même que vous ne jugiez que ma philosophie s'émancipe trop…* ».

17. « *Je m'abstiens, le plus qu'il est possible, des questions de théologie* ».

18. صدر كتاب Notae in programma quoddam في سنة 1647 والذي رد فيه ديكارت على أحد تلامذته ومساعديه وهو المدعو هنري دي روى (Hendrik De Roy) والمعروف كذلك Henricus Regius باللغة اللاتينية.

19. Chukurian, Aurélien., *« A la recherche d'une philosophie cartésienne de la religion : le rapport raison - foi et l'ambivalence de la norme d'interprétation de la Bible* », *op.cit.*

20. Cf. Gouhier, Henri. (1924), *La pensée religieuse de Descartes*, Librairie philosophique J. Vrin, Paris, 1924.

21. هنري دي روي (Henricus Regius) هو فيلسوف وطبيب هولندي ، يعتبر من بين الأطباء الأوائل الذين دافعوا عن فكرة الدورة الدموية وتدفق الدم في الجسم. في بداية مشواره العلمي والفكري ، تأثر كثيراً بديكارت وأصبح من طلبته الأوفياء وقد قدم بعض الدراسات حول الفلسفة الديكارتية ، لكنه سرعان ما انقلب ضد هذا الأخير. أنظر كتاب هنري دي روي المعنون (La philosophie naturelle) على الرابط https://books.google.dz/books:

22. Gouhier, Henri., *La pensée religieuse de Descartes*, *op.cit,* p. 217.

23. Gouhier, Henri., *ibid.,* p. 217.

24. عندما عَلِم ديكارت أن الملحدين يُسَلمون فقط بالحقائق الرياضية التي يعتبرونها الحقائق اليقينية الوحيدة ، فَنَدَ ديكارت ذلك قائلاً أنه بإلغاء إرادة الإله المتناهي فإن البداهة في حد ذاتها تصبح مُضَلِّلَةً وزائفة ، لأن الحقائق الرياضية هي خالدة ، قد وضعها الإله في تركيبة العقل والعالم الفيزيقي في آن واحد.

25. Gouhier, Henri., *La pensée religieuse de Descartes*, *op.cit,* p. 237.

26. نظرا لغياب وعدم توفر هذه الرسالة باللغة العربية ، فإننا قمنا بترجمة هذا الاقتباس من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية:

27. « *Quoique la religion nous enseigne beaucoup de choses sur ce sujet, j'avoue néanmoins en moi une infirmité qui, ce me semble, commune à la plupart des hommes, à savoir que, quoique nous veuillions croire et même que nous pensions croire fort fortement tout ce que la religion nous apprend, nous n'avons pas toutefois coutume d'en être si touchés que de ce qui nous est persuadé par des raisons naturelles fort évidentes* ».

28. Descartes, René., Beeckman, Isaac., Mersenne, Marin. (2015), *Lettere 1619-1648*, (Rédacteurs Giulia Belgioioso, Jean-Robert Armogathe), Giunti (Il pensiero occidentale), Milano, Italie, p. 1012.

29. « *Que l'âme des brutes n'est rien autre chose que leur sang, à savoir celui qui, étant échauffé dans leur cœur et converti en esprits, se répand des artères par le cerveau en tous les nerfs et en tous les muscles* ».

30. Cf. Blondel, Maurice. (1896), « *Le christianisme de Descartes* », in. Revue de Métaphysique et de Morale, Tome IV (n°4, 1896), pp. 551-567.

31. Dhilly, Olivier., *Comprendre la philosophie*, *op.cit,* p. 154.

32. Duflo, Colas. (1996), « *La mise à l'écart méthodique des causes finales* », in. Duflo, Colas. (coord.), *La finalité dans la nature. De Descartes à Kant*, Paris cedex 14, Presses Universitaires de France, « Philosophies », pp. 14-22.

33. رينيه ديكارت ، تأملات ميتافيزيقية ، (ترجمة الدكتور كمال الحاج)، منشورات عويدات ، بيروت-باريس ، 1988 ، ص 41.

34. جون بابتيست موران (1583-1656) طبيب ورياضي وعالم فلك فرنسي. تبادل هذا الأخير مع ديكارت الكثير من الرسائل التي تمحورت مواضيعها حول بعض القضايا الرياضية خاصة نظرية الضوء وكذا اللاهوتيات.

35. Descartes, René., Lettre au père Mersenne, 28 janvier 1641. Cf. Quillien, Philipe-Jean. (1994) *Dictionnaire politique de René Descartes*, Presse Universitaire de Lille, Lille, p. 163.

36. De Michio, Kobayashi. (1993), *La philosophie naturelle de Descartes*, Librairie Philosophique J. VRIN, Paris, p. 28.

37. Blondel, Maurice., « *Le christianisme de Descartes* », *op.cit,* pp. 551-567.

38. Blondel, Maurice., *ibid.,* pp. 551-567.

الحضور الأشعري زمن دولة المرابطين ﴿448-541هـ /1056-1147م﴾ قراءة في المواقف والتطور

El Ashaari Attendees in the time of Almoravids (448-541 h) (1056-1147 AC) Reading in attitudes and development.

تاريخ الإرسال: 28-06-2017 تاريخ القبول: 12-04-2020

عبد الغني حروز، جامعة محمد بوضياف المسيلة
harouz28@gmail.com

الملخص

إن المذهب العقدي والفقهي الذي كان سائدا بشكل رسمي في زمن المرابطين ، هو مذهب الإمام مالك- أهل التسليم والتفويض- الذي كان له أقطاب يدافعون عنه –الفقهاء على وجه الخصوص-، وممثلون يبسطون مبادئه ومحتوياته ؛ ولكن على الرغم من ذلك فقد عرفت هذه الفترة تمثيلا قليلا لأفكار الأشاعرة ، حيث انحصر علم الكلام الأشعري وأصبح له ممثلين قلائل ، بالمقابل برز علم الكلام السني وازدهر الفقه الاستدلالي ومن أعلام هذا التوجه ابن رشد الجد (ت520هـ)،كما شهدت هذه الفترة سيطرة كاملة للفقهاء على جميع مناحي الحياة ، وأصدروا قرارات خطيرة على المستوى الديني- حادثة إحراق كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي- التي انعكست نتائجها على المستوى السياسي ؛ حيث استغل ابن تومرت هذه الحادثة وانطلق من خلالها ومن خلال اقتصار أفكار هؤلاء الفقهاء على فروع الفقه المالكي ليحارب السلطة المرابطية.

الكلمات المفاتيح: الحضور ، الأشعري ، دولة المرابطين ، المواقف ، التطور.

Résumé

Le DOGME qui prévalait à l'époque dans les contextes de sa spiritualité et liturgie à l'époque, qui était reconnu officiellement durant l'ère des MOURABITINES était bien le DOGME de l'IMAM MALEK. Les populations l'avaient adopté tout en lui étant réceptifs et passifs également. Il avait également des pôles qui le défendaient, les THEOLOGIENS en l'occurrence et les disciples prêcheurs qui présentaient ses principes, valeurs et contenus d'une manière facile à sa compréhension. Or malgré cela, cette période avait connu une faible présentation du développement de l'idéal d'EL ACH'ARI, du fait que la science du terme (langage) se limita à quelque représentant peu nombreux. Par contre sorti vainqueur la science du terme sunnite qui vit l'épanouissement de la science des données. Parmi les hommes qui divulguèrent cette nouvelle science d'orientation IBN ROCHD (El Djed), décédé en l'an 520 de l'hégire. Cette période avait également connue la suprématie de ces hommes sur l'ensemble des modes de vie. Ils avaient pris des décisions dangereuses dans le domaine spirituel. On assista même à la mise au bûcher du livre « la renaissance des sciences religieuses » de l'IMAM EL GHAZALI, dont les résultats de cet acte eurent des répercussions sur le déroulement politique IBN TOUMERT tira avantage de cet acte, considérant que les théologiens Malékites étaient limités dans leurs idéaux, et ce afin de s'attaquer au pouvoir des MOURABITINES.

Mots-clés : Fréquentation, EL ACH'ARI, l'ETAT des MOURABITINES, Postes, Évolution

Abstract

The doctrinal and the doctrinal doctrine which was prevalent and official in the time of Al-moravids is a doctrine of El Imam Malek and the people of delivery delegation which had poles, they defend it- Jurists in particular, the representatives simplified its principals and contents, yet I knew that this period El Ashaari had little representatives. On the other hand, emerged El-sunna and flourished, and the most famous representatives of Sunna are, Ibn El-Rushd the grandfather (520). This period also witnessed full control of the scholars to all the sites of life, they issued dangerous decision in religion- The incident of the burning of the book6 Reviving the science of religion to El Imam El Ghazali whose results were reflected on the political level, Ibn Tomart used this incident to go thoroughly through the ideas of these Jurists to limit the branches of El- Maliki and fight El-Moravids authority

Keywords: Attendees , El-Ashaari , El-Moravids state , attitudes , Development.

مقدمة

عرفت بلاد المغرب الإسلامي مع منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بداية تحول تاريخي كبير ، أدى إلى تغيير في وجه التاريخ في المنطقة ككل ، هذا التحول التاريخي قامت به قبائل من صنهاجة اللثام بإنشائهم دولة المرابطين.

وقد شكلت دولة المرابطين في المغرب الإسلامي مثالا ناجحا في التصدي للخطر النصراني المحدق بالمسلمين بالأندلس ، ضاربة بذلك مثلا في أن جذوة الجهاد لن تنطفئ طالما توفرت الإرادة والعزم لدى القادة والجند .كما نجحوا في حفظه من التفكك الداخلي عن طريق إقرار سياسة إدارية وقضائية دقيقة ، إلا إن الوحدة الدائمة والاستقرار الحقيقي يجب أن تتوفر له شروط أخرى وذلك ما أدركه المرابطون ، فصاروا من أجل هذه الغاية يدعمون أعمال الفقهاء الرامية إلى محاربة كل ما هو خارج عن المذهب المالكي- مذهب الدولة الرسمي- بما في ذلك المذهب الأشعري ، حيث أن هذه الدولة الفتية طالما تجرعت المر من دعوة الموحدين الناشئة التي استهلها "المهدي" بن تومرت بالمناظرات- وفق العقيدة الأشعرية - مع الفقهاء واختتمها بالاقتتال والذي ازداد شراسة واتساعا في عهد عبد المؤمن بن علي الكومي الندرومي.

يعالج هذا البحث إشكالية تتعلق بجدلية التزمين والمواقف اتجاه المذهب الأشعري خلال العهد المرابطي ببلاد المغرب ويمكن صياغتها في تساؤلات فرعية كالأتي: ما موقف فقهاء المرابطين من تسرب ودخول الفكر الأشعري ؟ وكيف كان رد فعل السلطة المرابطية من المذهب الأشعري؟ وهل عرف المذهب الأشعري تطورا في هذه الفترة ؟

1- الوضع المذهبي في بداية العصر المرابطي

لم تعرف بلاد المغرب تنوعا مذهبيا في الفكر العقدي والشرعي مثل التنوع الذي شهده المشرق ، فهذه الأرض لم تكن ولودا للمذاهب ، ولا منشطة لما يتساقط من المشرق ، عزوفا في كلّ ذلك عماّ ينشأ من كثرة المذاهب من اللجاجة والصخب **(1)** ورغم ولوج أفكار بعض الفرق إلى بلاد المغرب ، ممثلة في كل من الشيعة والمعتزلة وحتى المرجئة وغيرها ، إلا أن هذه المذاهب لم يكن لها تأثير يذكر في عقيدة عامّة الأمّة ، وسرعان ما آل أمرها إلى الزوال.**(2)**

وما تلقّاه المغرب بالقبول وظلّ به شاملا وراسخا على الأيّام إنما هو مذهب السلف في العقيدة ، ومذهب مالك في الفقه. وقد أدّى افتقاد حركة الحوار التي يُحدثها تكاثر المذاهب واحتكاكها ببعضها إلى التشبث المفرط بهذين المذهبين والانغلاق عليهما ورفض ما سواهما حتى في نطاق مذاهب أهل السنة نفسها.

ولما استولى المرابطون**(3)** على المغرب ، وكان المؤسّس الروحي لدولتهم كما رأيناه فقيها مالكيا ، ازدادت تلك البنية الثقافية توطّدا بما أصبح لها من السند السّياسي ، وأصبح كافة الناس يحملون على السلفية في العقيدة والمالكية في الفقه بتوجيه من الفقهاء الذين كانت لهم السلطة في تقرير النمط الثقافي الذي ينبغي أن يسود.

وقد أدّى الانغلاق على الفقه المالكي إلى إيثار كتب الفروع المؤلفة في المذهب بعد الإمام مالك ، والاكتفاء بها عن أصولها من آثار مالك نفسه بل الرجوع إلى أصولها من نصوص القرآن والحديث ، فساد بذلك واستحكم منهج في الفكر الشرعي يقوم على التقليد باعتماد الأقوال والتفريعات التي أثرت عن أتباع مالك وخاصّة منهم ابن القاسم ، وإهمال النظر في الأصول النصية لاستنباط أحكام مناسبة للنوازل المستجدّة ، وقد صوّر المراكشي هذا الوضع خير تصوير في قوله: « ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عِلم الفروع أعني فروع مذهب مالك ، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ ، فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعتني بها كلّ الاعتناء ».**(4)**

وكما كان هذا المنهج الفروعي حائلا دون الاعتناء بالأصول النصية فقد كان حائلا أيضا دون الاعتناء بالعلوم التي من شأنها أن تربّي الملكة الفقهية المتحرّرة مثل علوم أصول الفقه ، وعلم الخلافيات القائم على المقارنة بين المذاهب ، بل كانت هذه العلوم تلقى المعارضة الشديدة من قبل سياسة المرابطين الثقافية ، فقد ذكر أن أبا الفضل بن النحوي (ت 513 هـ /1119) لمّا دخل سجلماسة انتصب لتدريس علم أصول الفقه ، فمرّ به أحد رؤساء البلد فقال: ما العلم الذي يقرئه هذا ؟ فأخبر ، فقال: هذا يريد أن يدخل علينا علوما لا نعرفها ، وأمر بإخراجه. **(5)**

ولم يكن الفكر العقدي في العهد المرابطي أكثر انفتاحا من الفكر الشرعي بل كان متأثرا به في الاكتفاء بالصور التي أثرت عن السّلف إمرارا للنصوص على ظواهرها على نحو ما قرّره مالك بن أنس في قوله: « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة»**(6)** ، ورفضا لكلّ تأويل أو استدلال عقلي على حقائق العقيدة ، ولذلك كانت المقاومة شديدة لعلم الكلام وأهله وهو ما صوّره المرّاكشي في قوله: « ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كلّ من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ، وقرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له ، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدّين ، وربما أدّى أكثره إلى اختلال في العقائد ، في أشباه لهذه الأقوال ، حتّى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه في كلّ وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه ، وتوعّد من وجد عنده شيء من كتبه ».**(7)**

وفي غياب الفكر العقدي الموصّل لمسائل العقيدة ، الجامع بين ما يبدو في ظاهره متنافرا من الآيات ، المفسّر لما ورد من الصفات الخبرية ، ربّما تكون قد نمت بعض الأفهام العقدية في اتجاه التجسيم والتشبيه خاصّة بين أولئك البدو الذين لم يحظوا بثقافة دينية متينة ، وهو ما أشار إليه ابن حوقل في وصفه لأهل السوس إذ يقول: « والمالكيون من فظاظ الحشوية »**(8)** ، وإذا كان وصف أهل المغرب والمرابطين خاصّة بأنهم من المشبهة والمجسّمة يعدّ من مبالغة الموحّدين فإنّ من الثابت أن الفكر العقدي في العهد المرابطي كان يقوم على منهج الأخذ بظواهر النصوص وحرفيتها ، والعزوف عن التأويل والاستدلال ، وربّما أدّى ذلك عند البعض إلى ما يقارب التشبيه. وقد كان الفكر الفلسفي يلاقيه الفكر الكلامي استمدادا في ذلك ممّا كان من العداء البالغ بين مالك وأتباعه وبين المنتحلين للعلوم الفلسفية ، وقد بلغ عداء أهل المغرب للفلسفة أن «كانت العامّة في المغرب والأندلس كلّما قيل فلان يشتغل بالفلسفة أطلقت عليه اسم زنديق ، فإن زلّ في شبهة رموه بالحجارة أو أحرقوه» **(9)** ولا شك أن هذه الروح كانت بتوجيه من الفقهاء الذين كانوا في عهد المرابطين على الخصوص المحدّدين للمنهج الثقافي للأمّة كما مرّ بيانه

يبدو مما تقدّم أن الوضع المذهبي بالمغرب أوائل القرن السّادس كان يتصف بخطية في الفكر الشرعي والعقدي ترفق المقارنة والنقد ، وتتنكب الحوار بين الوجهات المختلفة ، وتبتعد عن التعامل المباشر مع الأصول في سبيل استخلاص رؤى تستجيب لمستجدّات الأوضاع إيثارا في كلّ ذلك للرؤى الشرعية والعقدية الموروثة عن فقهاء المالكية. وربما يكون من أسباب هذا الوضع ما وضعه المرابطون نصب أعينهم من هدف أساسي تمثل في تحقيق الوحدة المغربية ، تلك الوحدة التي ظنوا أنها لا تتحقق إلا بهذا الضرب من الخطية والتقليد. **(10)**

2- الدولة المرابطية والمذهب الأشعري

لقد كان الإسلام في عهد المرابطين هو الإسلام السني على مذهب الإمام "مالك" ، ولكن هناك فارق كبير بين المذهب السني الذي ظهر في المغرب منذ الفتح واستمر أيام الأغالبة وبين التطور الذي شهده أيام المرابطين في القرنين الخامس والسادس.

ذلك أن الإسلام فيما سبق أيام الأغالبة والأدارسة كان إسلام للزهاد والمتعبدين الذين شغلوا أنفسهم بعلوم الآخرة القائمة على معرفة الله تعالى عز وجل والخوف منه ، أما الإسلام في عهد الملثمين (المرابطين) فتغيرت الصورة النقية للإسلام السني ، لأنهم انكبوا على فروع الفقه وخاضوا في الخلافيات خوضا جعلهم ينسون كتاب الله وعلوم الحديث وذلك لجهلهم بها وعدم تذوقهم لها. **(11)**

حيث تمكن المرابطون من القضاء على بقايا المذاهب التي كانت موجودة في المغرب ، ومحو أثار المذهبين الإباضي والصفري في ما سواه من بلاد المغرب الأوسط وإقليم سجلماسة **(12)**، واعتبروا أهل الكلام أهل بدع ولا تقبل لهم شهادة في الإسلام ، وأمروا بهجرهم وتأديبهم على بدعهم ، ويرجع موقفهم هذا إلى تأثرهم الشديد "بمالك بن أنس" ، حيث روي عنه أنه كان يقول: «الكلام في دين الله أكرهه ، ولا أحب إلا فيما تحته عمل ، أما الكلام في الله ودين الله فالسكوت أحب إلي... »**(13)**

كما نجد أن معظم الفقهاءقد اكتفوا بكتب ومؤلفات الفقه المالكي وانصرفوا عن الأصول ، من هذه المؤلفات "مدونة سحنون" وكتاب "أبي سعيد بن يونس" و"نوادر أبي زيد ومختصراته" وكتاب "التهذيب للبرادعي"، و"واضحة ابن حبيب" والتي كان معظم الفقهاء يقتصرون عليها وعلى تطبيق ما فيها دون تكليف أنفسهم الرجوع إلى أصول الشريعة وهي الكتاب والسنة ، فكان معظمهم لذلك مقلدين قد استغنوا عن الاجتهاد بالتقليد. **(14)**

وفي هذا الصدد يتحدث صاحب جذوة المقتبس عن التعجب الذي أبداه "عبد الله بن أبي زيد القيرواني" عندما سأل

أحد القادمين إلى القيروان من بغداد هل حضرت مجالس أهل الكلام؟ فوصف له مجلس من تلك المجالس اجتمع فيه بعض فرق المسلمين ، وجعلوا يتناظرون بحجج العقل والقياس إلا بأدلة النص ، هذا ما جعل "عبد الله بن أبي زيد" يتعجب ويقول: «ذهبت حرمة الإسلام وعلماؤه ».**(15)** ومن هنا يتضح أن الجدل في العقائد لم يكن ظاهرة ذات بال ببلاد المغرب ، ولم يكن وجوده إلا قليلا وشاذا ، إذ بقيت الساحة الفكرية فيه خالصة لعقيدة السلف عقيدة أهل السنة التي مثلها المذهب المالكي **(16)**

وعلى هذا الأساس نجد أهل المغرب يتقيدون بأراء "مالك" ولا يكادون يبرحون عنها قيد أنملة ، فاشتطوا في ذلك إلى درجة لم يعودوا يرجعون للأصول "القرآن والسنة" عند استنباط الأحكام ، وإنما اتجهت عنايتهم إلى كتب الفروع التي صنفها إمام المذهب وأتباعه. **(17)**

و قد صور لنا"المراكشي" ذلك في قوله: « ...و لم يكن يقرن من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم الفروع أعني فروع مذهب الإمام "مالك" ، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعُمل بمقتضاها ونُبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نُسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء...». **(18(**

وهذه الصورة الصادقة التي قدمها لنا صاحب "المعجب" وصور لنا فيها اهتمام المرابطين بعلوم فروع الفقه يؤكدها ما نطالعه من تراجم الفقهاء في كتب الطبقات ، ويروي لنا "الخشني" في كتاب "طبقات علماء إفريقية" هذه القصة ، والتي تبرهن لنا على ما وصل إليه ازدهار الدراسات الفقهية في عهد المرابطين ، مع إهمال تام لعلوم الحديث والسنة ، كما يورد لنا الخشني أن مغربيا جمعه الطريق بالحجاز برجل بغدادي ، وكان - إذ ذاك- يرى الإمام "مالك" ، فقال البغدادي: «رُوي عن النبي ﷺ كذا» فقال له المغربي: «فيما أنكر مالك لا يرى ذلك» ، فقال البغدادي: «شاهدت وجوهكم يا أهل المغرب ، تعارضون قول النبي بقول مالك».**(19)**

ومنه فقد شكل التمكن الفقهي للمغاربة نقطة تحول نحو التمكن في التصور العقدي ، وحدة مذهبية تقوم على الانتماء المذهبي العام إلى الإمام "مالك" ومذهبه. **(20)**

بالإضافة إلى اهتمام المرابطين بعلم الفتاوى والفروع وجمودهم عند الخلافيات الفقهية لجهلهم بأصول الفقه وعلوم الحديث والسنة ، فإن ثمة اتجاها أخر يميز فلسفة الإسلام في هذا العهد ، ويتمثل في تشدد المرابطين وتورعهم إلى التجسيم ، وهذا ما نلمسه في النقد الذي وجهه "ابن تومرت" لهم ، وقد أطلق عليهم "حشوية الفروع" ، و"ابن تومرت" عندما يصف المرابطين بالتجسيم والتشبيه لا يفصل القول كثيرا في ماهية هذا التجسيم والتشبيه ، إلا أننا نشتم من اتجاهه إلى تأويل الآيات المتشابهة في القرآن تأويلا عقليا يذكرنا بتأويل المعتزلة لها ، وإنه لم يتجه هذا الاتجاه إلا لأن المرابطين كانوا ينحون في تفسيرها منحى تجسيميا على نحو ما كانت تفعل الحشوية والكرامية مثلا. **(21)**

-و هنا يمكننا طرح التساؤل الآتي : ما هو موقف علماء الدولة المرابطية من دخول الفكر الأشعري إلي بلادهم؟

2-1- موقف فقهاء المرابطين من تسرب الفكر الأشعري

إن المذهب العقدي الذي كان سائدا ورسميا في زمن المرابطين كما رأينا هو مذهب أهل التسليم والتفويض الذي كان له أقطاب يدافعون عنه ، وممثلون يبسطون مبادئه ومحتوياته ؛ ولكن على الرغم من ذلك فقد عرفت هذه الفترة تراكما كميا لأفكار الأشاعرة ، كما نلاحظ ممثلين لهذا المعتقد أيضا. **(22)**

ومع بداية تسرب أفكار المذهب الأشعري لبلاد المغرب ، فقد قام علماء المرابطين بالرد على أفكار المذهب سواء على علمائه أو على المصنفات والكتب التي تحمل أفكار الأشعرية لمحاولة طمس أفكاره وأرائه منذ بدايتها.

حيث أن عقيدة المغاربة كانت تنفي كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الغوص في المسائل العقدية ، وكانت تقوم على إقصاء المذاهب الأخرى التي تخالفها في الاتجاه ، وفي مقدمتها المذاهب الكلامية ، ولما كان المذهب الأشعري مذهب كلامي فقد لقي معارضة شديدة من المذهب المالكي الممثل من طرف الدولة المرابطية. **(23)**

وقد وصف لنا "المراكشي" عداء أهل المغرب للعلوم العقلية الكلامية وخاصة أيام المرابطين فقال: «ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام... وتوعَّد من وجد عنده شيء من كتبه». **(24)**

إلا أنه إذا حاولنا أن نستقصي سبب هذا العداء ، وذلك بناء على ما ورد في بعض المصادر من معطيات سنأتي على ذكر سببين هما:

أحدهما: هو أن ذلك التشديد والمنع من الخوض في علم الكلام إنما كان المقصود به في الأساس حفظ عقائد العامة

من جمهور المسلمين وحجزهم عن الوقوع في الشبهات، ونحن نعلم أن درء الفساد عن العقول العامة مهمة كبرى من مهمات العلماء. وهي مهمة قاموا بها في كل أنحاء العالم الإسلامي وعلى مرّ العصور، إلا أن الفارق في عهد المرابطين هو وجود دولة وجهاز حاكم ساند توجيهات الفقهاء المالكيين وطبق تعليماتهم. **(25)**

ومن العلماء الذين أخذوا على عاتقهم حفظ عقائد العامة بمنعهم من الخوض في علم الكلام نجد الفقيه "أبو الوليد بن رشد"**(26)**، وعلى الرغم من أنه انتصر لأقطاب المذهب الأشعري في إحدى الأسئلة التي وجهت له، واعتبر كل من قال بجهلهم وضلالهم مبتدع زائغ، إلا أننا نجده فيما بعد يصدر فتوى يمنع فيها العامة من الإقبال على قراءة كتب المتكلمين بما فيهم الأشاعرة، وأكثر من هذا فقد أكد فيما بعد على أن كل مصرّ على ضرورة تعليم عامة الناس المعتقد الأشعري يعتبر كافرا، وقد برر "ابن رشد" موقفه هذا بأن العامة غير قادرين على معرفة الله معرفة صحيحة بطريقة الأشاعرة لغموضها، وأن محاولة خوض العامة في مثل هذا قد يؤدي بهم إلى المروق عن الدين، وفي المقابل أمرهم أن يقتصروا فيما يلزم الاعتقاد على الاستدلال الذي نطق به القرآن الكريم والسنة النبوية. **(27)**

أما الثاني: فهو خوف الفقهاء من أن يحتل أصحاب علم الكلام المكانة التي كانوا يحتلونها لدى الأمراء المرابطين. وعن المبلغ الذي بلغه الفقهاء المالكيين على عهد المرابطين يحدثنا "المراكشي" فيقول: «.... لم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم وأحكامها صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته، فعظم أمر الفقهاء وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت بذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم». **(28)** وما حادثة إحراق كتب "الغزالي" وفي مقدمتها كتاب "إحياء علوم الدين"**(29)** إلا أكبر دليل على ذلك.

فلما كان للفقهاء قوة نافذة في الدولة وفتواهم نافذة في السياسة ونافذة في الدين، فأقدم بعض العلماء المرابطين على التنديد بكتاب "إحياء علوم الدين" وقاموا بالرد عليه، ثم أفتوا بمنعه من التداول، ثم قام نفر منهم وخصوصا علماء قرطبة على رأسهم القاضي "ابن حمدين"**(30)** باستصدار أمر من الأمير "علي بن يوسف"**(31)** بإحراق كتاب "إحياء علوم الدين" فتم ذلك سنة 503 هـ/1109م بالمسجد الجامع بقرطبة**(32)**، واستمر التحريم وجدّد عام 538 هـ/1143م**(33)**، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أجريت عمليات تفتيش على مستوى المكتبات وتحليف الناس بأغلظ الأيمان أن ليس عندهم نسخ من الإحياء. **(34)**

وعلى الرغم من تعدد الأسباب التي حذت بالفقهاء المرابطين إلى القيام بعملية حرق هذا الكتاب كاشتماله على أحاديث ضعيفة وأخرى موضوعة، وكذلك احتوائه على أراء فلسفية لم تكن معروفة لدى أهل المغرب الإسلامي، إلا أنّ هناك سببا أخرا يعزز ما نبَّهنا إليه سابقا وهو تعريضه بالفقهاء وتشنيعه عليهم. **(35)**

ومما قاله الغزالي في هذا الصدد «شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان وإستغواهم الطغيان وأصبح كل واحد يعاجل حظه مشغوفا» **(36)**، وإلى غير ذلك من العبارات الجارحة بحق الفقهاء التي ملأ بها الغزالي مقدمة كتابه، وبثها في ثنايا أجزائه.

وهكذا لما رأى فقهاء قرطبة في كتاب الإحياء دعوة مباشرة للحد من نفوذهم والثورة عليهم تجندوا ضده وقاد الحملة كما أشرنا من قبل "ابن حمدين" الذي كان شغوفا بتزكية منصبه السياسي، ويذكر "مُحَمَّد عابد الجابري" أنّه كان على رأس الفقهاء في الأندلس في عصر المرابطين أسرتان "بنو حمدين" و"بنو رشد"، وكان "بنو حمدين" طموحين سياسيا ميالين إلى ترجمة مكانتهم العلمية والاجتماعية إلى نفوذ سياسي مباشر**(37)**، ومن مظاهر الطموح السياسي لبني حمدين قيام أحد أفراد هذه العائلة وهو أبو جعفر بإعلانه ثورة على والي قرطبة المرابطي، وتنصيب نفسه واليا عليها سنة 539هـ/1144م**(38)**

وفي الحقيقة أنه بالرغم من كون الفتوى التي أصدرها "ابن حمدين" في حق "الغزالي" كانت تهدف إلى طمس أفكار وأراء هذا الإمام والحيلولة دونها ودون عقول المغاربة، إلا أن النتيجة التي كان يرجى حصولها كانت نسبية للغاية، فعملية إحراق الكتب دفعت بالكثير من أهل المغرب إلى البحث في حقيقتها واستجلاء مضامينها، وبالتالي فقد ساعدت هذه العملية ولو على المدى البعيد على التعريف بالمذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي وليس الحد منه.

و زيادة على ذلك أن كتاب " إحياء علوم الدين" الذي نال القسط الأكبر من سخط "ابن حمدين" وأتباعه هو الذي رفع من شأنه وسما به إلى درجة الحجية في الإسلام (حجة الإسلام)، فهو يبين من ناحية تبحر "الغزالي" في معرفة المذاهب الإسلامية المختلفة من مذاهب أهل السنة والشيعة والمتكلمين، ثم الصوفية، وهو من ناحية أخرى يمثل مشروع

"الغزالي" الإصلاحي الذي يهدف إلى لمّ شمل الفرق الإسلامية المختلفة تحت مظلة واحدة تعيد إلى الدين حيويته وشبابه بفضل التفكير المنطقي الذي يمثل سمة المعرفة العقلية ، والشفافية الروحية سمة الوعي القلبي (الصوفي) ، وعن طريق التمسك بالعلم الأخرى ونبذ كل ما دونه من العلم الدنيوي الذي لا يبتغى به وجه الله عز وجل بل إرضاء السلاطين والملوك. **(39)**

لقد كان نفور المغاربة المالكيين من علم الكلام مقرونا بالابتعاد عن الرأي والتأويل وإقرار المتشابهات في الآيات الكريمة ملتزمين بالنص الحرفي أو التفسير الظاهري للآيات الخبرية ، ومرجعيتهم التي استندوا عليها فيما ذهبوا إليه هي الإقتداء بالسلف الصالح وعلى رأسهم "الإمام مالك بن أنس"**(40)** ، وقد كان لنزوعهم إلى مثل هذا الاتجاه أن ابتعدوا عن أولئك الذين نحوا منحى مخالفا للظاهر ، وتبنوا مقالات جديدة غير تلك التي هي متداولة عندهم. واعتبروهم زنادقة وأهل بدع **(41)** ، بل إنهم كانوا في كثير من الأحيان يحكمون عليهم بالإعدام. **(42)**

ومن كل ما سبق نستشف أن عداء الفقهاء المالكيين ببلاد المغرب الإسلامي لم يكن موجها للأشاعرة فحسب ، بل كان عاما ، فالمدرسة المالكية لم تكتف بعدم السماح لأي مدرسة فقهية أخرى بالازدهار فحسب ، بل عملت على استبعاد أي تغيير أو تطور فيها ، وكانت ترتاب من كل جديد في مجال المبادئ الفقهية والعلوم الدينية. إلا أن بعض المصادر أوردت إشارات متفرقة تدل على أنه كان هناك اتجاه خاص يعادي الأشعرية بالذات ، منها ما ذكره "إبن الفرضي" عند حديثه عن أحد الأئمة المالكيين ببلاد المغرب الإسلامي وهو الإمام "القحطاني"**(43)** أنه عدّ الأشاعرة كفارا وزنادقة ، وقال فيهم: «يا أشعرية يا زنادقة الورى». **(44)**

وفي هذا السياق طرح سؤال على أبي الوليد بن رشد (ت 520هـ/ 1126م) والذي سأل فيه عن رأيه في أئمة الأشعرية أمثال: أبي الوليد الباجي (ت 474هـ /1081م) وأبي المعالي الجويني (ت 478هـ/1085م) وغيرهم ممن ينتحلون الطريقة الأشعرية في العقيدة ، اهم أئمة إرشاد أم قادة ضلال؟ وماذا يقول في قوم يسبُّونهم ويسبُّون كل من ينتمي إلى الأشعرية ويكفّرونهم ويتبرؤون منهم ، ويحرفون بالولاية عنهم ويعتقدون أنهم على ضلالة ، وقد اعتبره أحد الباحثين على أنه دلالة واضحة على وجود إتجاه في المغرب كان أصحابه ينقمون على علماء الأشعرية خصوصا ، ومن ينتحل علم الكلام عموما ، وقد أدت بهم هذه النقمة إلى سب كبار الأشاعرة والانتقاص من قدرهم. **(45)**

و علاوة على ذلك الاتجاه العام المعادي للأشعرية وجد اتجاه آخر يمثله بعض الأفراد ، كانوا أكثر من شنع على الإمام الأشعري وأصحابه ، وفي مقدمتهم "ابن حزم الظاهري"**(46)** (ت 456 هـ/1064م) ، فقد حمل عليهم حملة عشواء ، وشنّع عليهم في العديد من مصنفاته ، ومن أقواله: «و تقصّينا الرد على هذه المقولة الملعونة (يعني الأشعرية) في كتاب لنا واسمه: "كتاب اليقين في النقض على الملحدين المحتجين عن إبليس اللعين وسائر الكافرين" تقصينا فيه كلام رجل من كبارهم من أهل القيروان اسمه "عطاف بن دوناس" في كتاب ألّفه في نصر هذه المقالة». **(47)**

وفي موضع آخر وصف الأشعرية بالفرقة الملعونة ، بل أنه لا يتوانى عن لعنهم بين الحين والآخر ، حيث يقول: «لعن "ابن فورك" وأشياعه وأتباعه» **(48)** ، كما أنه وصف "الباقلاني" بالجهل في قوله: «لقد كذب هذا الجاهل وأفك». **(49)** وانطلاقا من القاعدة التي تقول: «لكل فعل ردة فعل» ، لا يمكن تصور الأشاعرة ببلاد المغرب الإسلامي قد وقفوا أمام الحملات التي كانت تشن ضدهم موقف المتفرج ، وإنما كان لهم موقفا معاديا ، وكانت ردة فعلهم قوية. ومن صور ذلك الموقف المناهض ، المناظرة التي جمعت بين "أبي الوليد الباجي" و"ابن حزم" ، والتي تمكن فيها "الباجي" من إفحام "ابن حزم" ، وعنها يحدثنا القاضي "عياض" فيقول: «... فلما ورد "أبو الوليد" الأندلس وعنده من الإتقان والتحقيق والمعرفة بطرق الجدل والمناظرة ما حصّله في رحلته ، أمنه الناس لذلك، فجرت له معه مجالس كانت سبب فضيحة "ابن حزم"...» **(50)**

كما أن من صور دفاع أشاعرة بلاد المغرب الإسلامي عن أنفسهم هو وضعهم للمؤلفات والتصانيف لدرء شكوك واتهامات المعادين. من هذه المؤلفات كتاب "إحكام الفصول في أحكام الأصول" "للباجي" ، وقد وضعه بعد مناظرته مع "ابن حزم"**(51)** ، وكتاب "النكت القطعية في الرد على الحشوية" للمازري. **(52)**

2-2- موقف السلطة المرابطية من الأشعرية

يتأكد مما سبق أن علم الكلام الأشعري كان ضمن العلوم المعروفة في أوساط علماء المغرب في العصر المرابطي ، لكن إشارة عبد الواحد المراكشي التي يذكر فيها عداء أهل المغرب لمن ظهر عليه الاهتمام بالأشعرية تؤكد من جهتها أن

هذا العلم ظل يتحرك في دائرة ضيقة من المهتمين به. في حين كانت القاعدة العريضة من الفقهاء معرضة عن أي نوع من الجدل الكلامي ، إما لانعدام الدواعي إليه في البيئة المغربية ، التي وصلت بجهود المرابطين إلى تحقيق قدر لا بأس به من الانسجام المذهبي العقدي بعد القضاء على البجليين **(53)** وبرغواطة **(54)** وتوحيد المغرب الأقصى سياسيا ومذهبيا ، وإما لانحيازها لأطروحة السلطة المرابطية المتحفظة منه. **(55)**

لقد عرف المغرب خلال هذا العصر تيارين مالكيين متمايزين ، أحدهما يتمثل في التيار المالكي السلفي الذي يشكل استمرارا لمدرسة نفيس ومدرسة عبد الله بن ياسين ، وهو التيار الذي كان منحازا إلى المرابطين. التيار الثاني هو التيار المالكي الأشعري الأصولي الذي ظل متوثبا للتواصل مع مستجدات الفكر الإسلامي في المشرق ، كما كان منفتحا على التصوف ، وخير من كان يمثل هذا التيار في العصر المرابطي أبو بكر المرادي الحضرمي وأبو بكر بن العربي المعافري والقاضي عياض السبتي ومُحَمَّد بن تومرت والعلماء الذين ذكروا أعلاه.

أصبحت السيادة في العصر المرابطي للتيار السلفي لمساندته للسلطة ، واستطاع أن يفرض توجهه ، ودليل ذلك قول المراكشي الذي تمت الإشارة إليه: «دان أهل ذلك الزمان بتكفير من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام..... وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه» **(56)**. يبين هذا النص درجة الحدة التي بلغها رفض علم الكلام عند فقهاء المذهب المالكي المحيطين بأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، واستغلالهم القرب منه لإقناعه بموقفهم ، وتحويله بالتالي إلى موقف رسمي تتبناه الدولة المرابطية وتنشره وتدافع عنه ، فظهر الموقف العدائي من الأشعرية بشكل رسمي جماعي لدى الفقهاء ابتداء من عهد هذا الأمير الذي عرف عنه ميله الشديد إليهم.

ورغم أن المصادر لا تقدم تاريخا محددا أو تقريبيا لانطلاق حملة محاربة الأشعرية ، فإن هذا لا يمنع من القول بأنه تزامن مع بداية اقتحام أفكارها ومقولاتها للأوساط الفقهية المغربية بشكل أكثر نشاطا مع أوائل القرن السادس الهجري. التقت هذه العقيدة مع أفكار الإمام الغزالي الذي كان واحدا من أئمة الأشاعرة وأقطاب الصوفية في نفس الوقت ، الشيء الذي كان في حينه تحديا وإحراجا لهؤلاء الفقهاء الذين لم يكن لهم إلمام أو معرفة بمذهب الأشاعرة ، وكان لهم في الوقت نفسه عداء للتصوف ، فتبنوا موقف الرفض والإنكار للاحتماء به في مواجهة علم الكلام. ولم يترددوا في وصمه بالبدعة وتكفير المروجين له ، لمحاصرته وللحد من تأثيره ، حفاظا على خصوصيات الانتماء العقدي الذي كان المغاربة عليه منذ قرون ، وهو الذي كان بعض أصحاب الخلفيات الاعتزالية والشيعية والفلسفية يطلقون عليه اسم الحشوية **(57)**

وبما أن موقف الفقهاء الرافض للأشعرية قد تحول إلى موقف رسمي للدول المرابطية ، فقد تم تعميمه بأوامر أمير المسلمين وأصبح منع العلماء من تدريس علم الكلام أسلوبا متبعا في مختلف الجهات ، وكأمثلة على ذلك فقد قام أحد رؤساء سجلماسة بمنع العالم الصوفي **يوسف بن مُحَمَّد بن يوسف أبو الفضل بن النحوي (ت 513هـ/1119م) (58)**- الذي امتاز عن كثير من معاصريه بالأسفار الكثيرة التي قام بها في أنحاء المغرب ، وعاصر الدولة الحمادية بالقلعة**(59)** وبجاية والزيرية بالمهدية والمرابطية بمراكش ودخل سلجماسة - من التدريس ، وسبب ذلك أن ابن النحوي عندما دخل سجلماسة وأقرأ بها الأصلين: أصول الدين وأصول الفقه ، تضايق منه أحد رؤساء البلد ، وهو عبد الله ابن بسام ، فقال: هذا يريد أن يدخل علينا علوماً لا نعرفها ، يعني بذلك أبحاث العقائد على طريقة الغزالي ، فأمر بإخراجه من المسجد ، فقال له أبو الفضل: أمتَّ العلم أماتك الله هنا ، فجلس في اليوم الثاني لعقد نكاح في المسجد وقت السحر ، فقتل على يد جماعة من صنهاجة .فاضطر لمغادرتها إلى مدينة فاس**(60)** وانتصب بها للإقراء والتعليم فضايقه قاضيها أبي مُحَمَّد عبد الله بن دبوس اليفرني (ت 511هـ/1117م) ومنعه من تدريس هذا العلم بها ، وعلى إثر ذلك قرر مغادرة المغرب الأقصى والرجوع إلى بلده**(61)** ، ودعى عليه فأصابته أكلة في رأسه فوصلت إلى حلقه فمات منها ، وفي صبيحة يوم وفاته خرج أبو الفضل من فاس وجاء ولد ابن دبوس لتوديعه ، فقال له الشيخ: أرجع لتحضر جنازة والدك ، فرجع فوجده ميتاً ، وكان خروج الشيخ من فاس حوالي سنة 494هـ/1100م .لقد كان أبو الفضل متأثراً كثيراً بالغزالي في أبحاثه في العقائد والتصوُّف وغيرهما ، وقد حاول التمكين له من خلال نشره نظرية الغزالي في التصوف بالقلعة**(62)**

وبدأ في تطبيقها على نفسه ، حيث كان يلازم القيام والصيام والتهجد حتى أنه لا يشعر بما حوله وهذا ما يؤكده ابن مريم في قوله: "كان يصلي أكثر في داره اللغط وارتفعت الأصوات فقال ضيف لابنه أما تشغلون خاطر الشيخ فقال: إذ دخل في الصلاة لم يشعر من ذلك ثم أدنى السراج من عينه فلم يشعر لحضوره مع غيبته مع الخلق"**(63)** ، وكان لشدة

زهده لا يقبل من أحد شيء ولا يأكل إلا ما يأتيه من بلده الأصلي ، لبس خشن الصوف وقصر جانبيه حتى وصلت إلى ركبتيه**(64)**، وزهده هذا كان يجلب له نقد الآخرين حيث انتقده قاضي الجماعة بالقلعة أبي عبد الله بن عصمة المفتي الذي مر عليه يوما فلم يسلّم عليه لانشغال خاطره ، فعظم عليه ذلك ، فلما رجع ناداه محقراً: يا يوسف ، فجاءه ثم قال له: يا توزري ، صفرت وجهك ، ورققت ساقيك وصرت تمرّ ولا تسلّم. فأعتذر له فلم يقبل عذره وأغلظ له ، فقال له أبو الفضل: غفر الله لك يا فقيه ، يا أبا مُحَمَّد ، ثم أنصرف مغضباً عنه. **(65)**

لقد أشيع أنه كان مجاب الدعوة حتى قيل نعوذ بالله من دعوة ابن النحوي **(66)**وهو مناصر لكتاب الإحياء للغزالي ، حيث عارض إحراقه بشدة وكان يرى أن حلف الناس بالإيمان المغلظة على أن كتاب الإحياء ليس عندهم وليست ملزمة لهم. **(67)**

واستنسخ الإحياء في ثلاثين جزء. **(68)** ومن صور انتصاره له ، انه كان يبث كتبه أينما حل وارتحل ، في الوقت نفسه كان قد أفتى فقهاء الأندلس كابن حمدين ومن شايعه من علماء المغرب بإحراق كتاب الأحياء للغزالي وأحرق في صحن مراكش وغيرها. **(69)**

ووصل كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (500-537هـ) وفيه تحليف الناس بمغلظ الإيمان ، أن ليس عندهم كتاب الأحياء فانتصر للشيخ للغزالي وأحيائه ، وكتب إلى السلطان برأيه ، وأفتى بعدم لزوم تلك الإيمان ، ونسخ الأحياء ثلاثين جزءاً ، يقوم كل يوم في رمضان بنسخ جزء منها وهو يقول: **((وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَنْظُرْ فِي عُمْرِي سِوَاهُ))** وهكذا كان موقفه من الأحياء نصراً كبيراً له ولمبادئ الغزالي عامة **(70)**

عاد أبو الفضل بعد أسفاره بالمغرب إلى قلعة بني حماد ، وأخذ نفسه فيها بالتقشف ولبس الصوف ، وقصّر جبته حتى كانت لا تزيد عن ركبتيه. ولما استقر به المقام بقلعة بني حماد أخذ في التدريس والإقراء ، وأفاد أهلها كثيرا ، وتخرج على يديه جماعة من أعلام القرن السادس في هذه الفترة التي استقر بها بالقلعة ، فمنهم القاضي أبو عمران موسى الصنهاجي ، ومنهم أبو عبد الله مُحَمَّد الرمامي الفقيه رئيس الإفتاء بفاس ، ومنهم الفقيهان أبو بكر بن مخلوف بن خلف الله ومُحَمَّد ابن مخلوف بن خلف الله وغيرهم كثير. **(71)**

لقد ضرب أبو الفضل المثل في تقواه وزهده ، فكان شديد الخوف من الله ، دائم الإستحضار لجلاله ، كثير الورع ، لا يقبل من أحد شيئا إنما يأكل ما يأتيه من توزر ، وقد كان لتشدده في تعبده وزهده يقول:

أَصْبَحْتُ فِيمَنْ لَهُمْ دِينٌ بلاَ أَدبٍ

ومَنْ لَهُ أَدَبٌ عَارٍ منَ الدِّينِ

أَصْبَحْتُ فِيهِمْ غَرِيبَ الشِّكْلِ مُنْفَرِدًا

كَبَيْتِ حسَّانَ فِي دِيوَانِ سَحْنُون

ويعني ببيت حسان قوله:

وهان على سراة بني لؤيٍّ * حريقٌ بالبُوَيرَةِ مستطيرُ **(72)**

أجاد ابن النحوي قرض الشعر كما أجاد علوم الدين والفقه والكلام وغيرها ، وقد برع في نوع منه وقلّده فيه من أتى بعده وهو شعر التوسُّلات والابتهالات. وأشهر القصائد التي وصلتنا عنه قصيدة جيمية دُعيت بالمنفرجة ، من انفراج الأزمة ، وقد نالت من معاصريه وممن أتى بعدهم عناية كبيرة ، كما نالته قصيدة شيخه الشقراطسي التي دُعيت بالشقراطسية. وعاش ابن النحوي دارساً متعبّداً بقلعة بني حماد أكثر من ثلاث عشرة سنة كانت عاملاً قوياً على ازدهار الدراسات الفقهية والكلامية على عهد الموحدين فيما بعد ، وتوفي كما يقول أبو العباس النقاوسي بالقلعة سنة 513هـ/1119م وقبره بها مشهور. **(73)**

وينتمي أبو الفضل المعروف بابن النحوي إلى الفكر الجديد الذي سينفتح على كل ما هو جديد ، ويرجع ذلك إلى وفائه لمبادئ الغزالي ، وسوف يثأر له في المستقبل ، وما يزال ضريحه يقام على القلعة التي خربت عن آخرها. **(74)**

وجاء في كتاب الفاسي:" ...أنه دخل عليه يوما تلميذه ابن الرمامة وهو في مكتبة بيته فوجد عنده أسفار جديدة التسفير (الكتابة) ، فسأله عنها ، فقال له هي كتاب الإحياء للغزالي ولو اقتنيته قبل هذه الكتب لم أكتب كتابا منها "**(75)**. هذا وقد كان ابن النحوي في بلده بمنزلة أبي حامد الغزالي في العراق علما وعملا **(76)**

3- تطور الأشعرية في العصر المرابطي

يرى أحد الباحثين **(77)** أن تاريخ المرابطين طاله الكثير من التشويه ، ولحقه المزيد من التزوير من طرف. المؤرخين القدامى. وما ذلك إلا لكون تاريخهم لم يكتب إلا زمن خصومهم السياسيين أعني الموحدين ، فقد ساد في أفهام الناس ، وتكرس لديهم ، من خلال هؤلاء المؤرخين أن المرابطين كانوا على عقيدة التجسيم والتشبيه. كما أن مجتمعهم كان من طبيعة أمومية تسيطر فيه المرأة على الرجل.

أضف إلى ذلك أن عقيدة أهل الحل (الأشاعرة) لم تعرف طريقها إلى الغرب الإسلامي إلا زمن الموحدين. **(78)**

والواقع أنه بقدر ما انتاب تاريخ المرابطين من تحريف وتزوير، بقدر ما ازداد شغف الباحثين وتطلعهم لاستجلاء الوقائع، والكشف عن الحقائق. وتهمنا من جهتنا أن نقف على الجانب العقدي في اللحظة المرابطية لنتحقق هل بالفعل كانت العقيدة السائدة في زمن المرابطين هي عقيدة التجسيم والتشبيه؟ وهل المذهب الأشعري لم يعرف وجوده في هذه الفترة؟

الحقيقة أن تأسيس دولة المرابطين قام على شيء من الاعتقاد الأشعري، لكن الظروف كانت أقوى من أن تجعل المرابطين يستعيضون بهذا المذهب الجديد عن مذهب عقدي كان قد ترسخ وعرف جذوره في جميع أوساط الغرب الإسلامي. **(79)**

لقد أعطى لنا المؤرخ عبد الواحد المراكشي معلومات مفيدة عن وصف وضعية المذهب الأشعري بالمغرب في عصر المرابطين، وأكد أن أهل المغرب في هذا العصر كانوا ينافرون علم الكلام على الطريقة الأشعرية معتبرين إياه "بدعة في الدين"، لأنهم كانوا على خطى «السلف في ترك التأويل وإمرار المتشابهات كما جاءت» **(80)** يستنتج من هذه الشهادة أن المذهب الأشعري كان موجودا بالفعل خلال هذا العصر، لكن انتشاره كان يعاني من بعض الصعوبات. ومع ذلك نقف في كتب التراجم على أسماء عدد من علماء الكلام بالمغرب الأقصى في هذا العصر ممن درسوا الأشعرية وألفوا فيها، من أشهرهم أحد أئمة هذا العلم وهو **أبو بكر بن الحسن المرادي الحضرمي(81) (82)**، يعتبره ابن الزيات" من كبار الفقهاء الأصوليين، أصله من القيروان، وقد قربه أبو بكر بن عمر مؤسس دولة المرابطين بأغمات بعد وفاة عبد الله بن ياسين"**(83)**، وقد رحل من إفريقية إلى الأندلس ثم دخل المغرب الأقصى، وارتسم في سلك الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني ورافقه إلى صحراء المرابطين، وبقي هنالك قاضيا إلى أن توفي بأزكي سنة 489هـ/1096م. كان الإمام الحضرمي « رجلا نبيها عالما وإماما في أصول الدين، وله نهوض في علم الاعتقادات والأصول »**(84)**، وبسبب تبريزه فيها اعتبره ابن الزيات التادلي « أول من أدخل علوم الاعتقادات إلى المغرب الأقصى »**(85)**. وألف كتابا سماه "التجريد في علم الكلام".

وصاحب كتاب" الإشارة إلى أدب الإمارة" الذي اشتهر بهذا الكتاب وصنف ضمن العلماء الذين أسهموا في علم السياسة العربي الإسلامي. لكن في مجال العقائد ظل الالتباس يحوم حوله، بحيث لا يدري الباحثون أهو من أهل التسليم والتفويض أم من الأشاعرة؟ **(86)**

والحقيقة أن النصوص لتضن علينا في استجلاء موقف هذا الرجل العقدي والبت في انتمائه الكلامي، فكل ما ترويه عنه بعض النصوص القديمة أنه كان «أول من أدخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى» **(87)** علما أن علوم الاعتقادات كانت تعني في هذه الفترة علم الكلام الأشعري في مقابل أصول الديانة التي كانت تعني معتقدا أهل التسليم والتفويض.

بالإضافة إلى ما سبق فإن تلميذه المباشر الذي اختص به ولازمه، وخلفه في علوم الاعتقادات كما يؤكد على ذلك صاحب التشوف هو أبو الحجاج يوسف بن موسى الضرير (ت 520 هـ/1126م) كان أشعري العقيدة بلا جدال ولا ممارة، كما سنرى لاحقا.

ويؤكد أحد الباحثين أشعرية الحضرمي بقوله:"...ومما يزيد في تأكيد أشعرية المرادي الحضرمي — من جهتنا — هو أنه في زمنه وقع بالأندلس نقاش محتدم حول كلام الله هل هو حال في أحرف القرآن؟ وبالتالي فالكلمات والأصوات المنطوقة في القرآن هي كلام الله. وكان صاحب هذه الفكرة رجل من ألمرية بالأندلس يدعى وليد النفري الذي كان قد جمع إلى رأيه هذا جمعا كبيرا من الناس والأتباع. واختلف الناس في ذلك حتى صار «يكفر بعضهم بعضا، ويبرأ الوالد من ولده» فما كان من المعتصم بالله بن صمادح إلا أن استنجد من الأندلس بالفقيه المتكلم أبي بكر مُحَمَّد بن الحسن الحضرمي في المغرب كي يتولى الرد عليه «فذهب إلى أن يعبر البحر فهال عليه وكتب إلى ابن صمادح: «مسألة التلاوة والمتلو مبنية مفسرة مشروحة» وكأنه يحيل إلى ما قاله الأشاعرة في هذا الباب، لكنه لم يتوقف بل اتبع ذلك بقصيدة يرد فيها على وليد النفري يقول فيها:

لا در در سخافة شنعاء جاء بها وليد
كفر تكاد لها الجبا ل — على ثقالتها — تميد
وحماقة ممزوجة بمقيت جهل لا يفيد
أكلام ربك أحرف منظومة حمر وسود؟
لو باعها العطار أح يانا لجارتها الجلود "**(88)**

وهذا النص يحتوي على مجموعة من العلامات ويكفينا منها علامة المضمون المباشر التي تدور حول كلام الله. فإذا علمنا أن الأشاعرة يقولون بصدد خلق القرآن بأن المعنى قديم،

واللفظ محدث مخلوق ، فإن هذا هو الذي نجده مضمنا في هذه القصيدة. **(89)**

ومما يجعلنا أكثر يقينا بأشعرية الحضرمي ، لما اطلعنا على نص آخر مشهور يورده القاضي عياض يقول فيه " عن أبي منصور الثعالبي ، أنشدني أبو بكر المرادي لنفسه في الحجة على إثبات القدر" يقول فيه:

علمي يقبح المعاصي حين أركبها

يقضي بأني محمول على القدر

لو كنت أملك نفسي وأصرفها

ما كنت أطرحها في لجة العذر

كلفت فعلا ولم أقدر عليه ولم

أكن أفعل أفعالا بلا قدر

وكان في عدل ربي أن يعذبني

فلم أشاركه في نفع ولا ضرر

إن شاء نعمني أو شاء عذبني

أو شاء صورني في أقبح الصور

يا رب عفوك عن ذنب قضيت به

عدلا علي فهب لي صفح مقتدر **(90)**

وهذا النص أيضا - وإن كان لا يصرح بمفهوم الكسب الأشعري – فإننا نلحظ فيه ذلك التبرير العقلي الذي يسلكه الأشاعرة في هذا السياق استدلالا على أن فعل الله وخلقه لأفعال العباد هو فضل وعدل.

و يثبت أحد الباحثين أشعرية الحضرمي عندما ينفي كل الشكوك من طرف الباحثين الذين ينسبون المرادي إلى أهل التسليم والتفويض فيقول:"... إن هناك من الباحثين المعاصرين من يشكك في أشعري هذا الرجل ، وينسبه إلى مذهب أهل التسليم والتفويض واعتمادا على نص منقول عن ابن تيمية نقله من كتاب للمرادي عنوانه «الإيماء إلى مسألة الاستواء » عن معنى استواء الرحمن على العرش فقال: « قول ابن أبي زيد القيرواني المالكي ، والقاضي عبد الوهاب المالكي ، وجماعة من شيوخ الحديث ، والفقه ، وهو ظاهر بعض كتب الباقلاني ، وأبي الحسن الأشعري ، وهو أنه سبحانه مستو على عرشه بذاته. وأطلقوا في بعض الأماكن فوق على عرشه ، وهو الصحيح الذي أقول به من غير تحديد ولا تمكين في مكان ، ولا كون فيه ولا مماسة».

فها نحن أمام موقفين من انتماء المرادي العقيدي أحدهما ينسبه إلى الأشعرية ، والآخر إلى مذهب أهل التسليم والتفويض. إلا أنه من جهتنا ، لا يسعنا إلا أن نرجح الموقف الأول وحجتنا في ذلك أنه موقف رواه وأكده من هو أقرب إلى المرادي زمانا ومكانا. فابن الزيات صاحب كتاب التشوف عندما نسب المرادي إلى الأشعرية كان أقرب إليه زمانا إذا علمنا أن ابن الزيات توفي سنة 617 هـ/1220م ومكانا إذ كلاهما من مفكري الغرب الإسلامي. أما الموقف الثاني فقد جاء على لسان من هم أبعد من المرادي زمانا ومكانا. علاوة على أن النص المروي عنه يحمل أوجه في القراءة والتأويل ، ويحتمل تأويلات تزكي ما نذهب إليه لا سيما وهو يربط بين ما يقره الباقلاني وأبو الحسن الأشعري. **(91)**

كما شهد تاريخ المعتقد الأشعري في الغرب الإسلامي في العهد المرابطي ظهور أول عقيدة أو نص يلخص العقيدة الأشعرية في هذه المنطقة ، ويتعلق الأمر بعقيدة المفكر التونسي **أبو الطيب سعيد بن أحمد بن سعيد الأسفاقسي** (ت 501 هـ/1107م) عنوانها " **العقيدة السنية أو عقيدة الصالحين أو العقيدة الأسفاقسية**". والمتوفر من هذه العقيدة الجزء الثاني فقط ، وضع شرح له بعنوان «مشارق المهتدين في شرح عقيدة الصالحين» لشارح اسمه القطب الصنهاجي نرجح أن يكون من أعلام القرن الثامن الهجري. وقد تتبع الباحث أحد الباحثين مضمون هذا النص وحدد أبرز معالم عقيدة الأسفاقسي فيقول:"... ولقد قمنا من جهتنا بتتبع هذا الشرح لتجريد بعض مضامين هذه العقيدة فاتضح لنا بما لا يدع أي مجال للشك أنها أشعرية المضمون والمنهج. فالأسفاقسي يصدر في هذه العقيدة عن قناعة تامة بتنزيه الذات الإلهية عن الجهة ، والمكان ، والمحاذاة ، لأن هذه الصفات في صفات المخلوقات ويستعمل في استدلاله على هذه القناعة قياس الغائب على الشاهد فهو يقول: «إذا كان النوم واليقظة ، موجودين غير محدودين ، هما مخلوقان ولا كائنان في مكان ، وجهة ، ولا أطراف لهما ، ولا حدود. وإنما الحد لقبيل من المخلوقات ، وهي الجواهر والأجسام. وإذا كان في المخلوقات موجود بهذه الصفات ، فالخالق أحرى وأولى أن لا يجوز عليه ذلك ».**(92)**

فإذا كان النوم واليقظة في الشاهدة لا يتصفان بالجهة ، ولا بالمكان ، ولا بالمحاذاة وهما مخلوقان من مخلوقات الله ، فإنه من باب أولى وأحرى أن يكون في الغالب موجود غير مخلوق منزها عن هذه الصفات ، ولذلك فالله منزه عن الجهة ، والمكان ، والمحاذاة. وهذا كما نرى أشعري المضمون والمنهج. أما فيما يتعلق بإثبات وحدانية الله ، فإننا

نرى الاسفاقسي يحدد أربعة أوجه تعكس هذه الوحدانية وتؤشر عليها ، وهي:

1- الوجه الأول: أنه واحد غير محدود ، وغير منقسم ، لا تجوز عليه التجزئة والتقسيم.

2- الوجه الثاني: أنه واحد في ملكه ولا شريك له.

3- الوجه الثالث: أنه واحد في صفات الكمال لا أحد له صفات كصفاته.

4- الوجه الرابع: أنه واحد في الاختراع ، لا أحد يخترع معه شيئا.

فالوحدانية كما يستدل عليها الأسفاقسي وحدانية كمية ، ووحدانية كيفية ، فالله واحد غير مركب ، ولا تجوز عليه القسمة والتجزئة فهذه وحدانية كمية. أما باقي الأوجه الدالة على وحدانيته فهي صفات كيفية ينفرد بها الباري لا يشاركه فيها أحد من مخلوقاته..." **(93)**

أما بصدد الصفات الإلهية فإن الأسفاقسي يثبتها ويؤكد أنها قديمة بقدم الذات الإلهية. أما بصدد كلام الله الذي هو صفة من صفاته تعالى فإن الأسفاقسي يرى أنه كلام ليس بأصوات ، ولا قائم بلسان ، ولا لاهوت وهو ما يصطلح عليه الأشاعرة باسم الكلام النفسي.

إضافة إلى أن الإقرار بصفة البصر للذات الإلهية هو إقرار بأن الله مبصر لكن بغير مقلة ولا سواد. وبالجملة فإن الأسفاقسي يخلص في هذا الموضوع إلى تنزيه الذات الإلهية تنزيها أشعريا فيقول: إنه «تعالى عن الأضداد ، والأولاد ، ومشابهة الأجساد». وفي نفس الوقت نلخص إلى القول بأن هذه العقيدة المختصرة ذات الطبيعة الأشعرية اعتبرت من أوائل ما كتب في العقائد الأشعرية في الغرب الإسلامي. لكنها لم يكتب لها الشهرة ، والذيوع فظلت بذلك مغمورة مجهولة ، لا يعرفها حتى المهتمون ناهيك بغيرهم. وهي كفيلة بدراسة مفصلة ببحث أكاديمي يعرف بصاحبها ، وبسياقها ومضامينها."**(94(**

ومن أعلام الأشعرية في هذا العهد الزاهد **أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير (95)** ". تلميذ الحضرمي والذي لم تفصح لنا المصادر عن تاريخ ميلاده على وجه التحديد ، في حين نجد ابن الزيات يذكره في كتابه فيقول:".... أصله من سرقسطة وسكن مراكش ، وبها توفي سنة عشرين وخمسمائة. من أشياخه أبو مروان بن سراج وأبو علي الجباني.... كما أنه خلف المرادي في علوم الاعتقادات ، وغلب عليه الزهد في الدنيا وأهلها "**(96)** ، وقد نظم أرجوزة مطولة في العقيدة ، واستقر بالمغرب الأقصى إلى وفاته سنة**(520هـ/1126م)** ، واعتكف على تدريس علم الكلام بأغمات. وصفه تلميذه القاضي عياض بأنه «... كان من المشتغلين بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونُظار أهل السنة ، عارفا بالنحو والأدب له تصانيف مشهورة ، وسكن بلدنا مدة وتردد بالأندلس والمغرب ، وكان آخر المشتغلين بعلم الكلام. قرأت عليه أرجوزته الصغرى التي ألف في الاعتقاد وحدثني بالكبرى وبكتاب التجريد لأبي بكر المرادي وأجازني أرجوزته الكبرى وجميع تواليفه ورواياته منها تآليف الفقيه أبي بكر المرادي ، شيخه وعنه كان أكثر أخذه ومن ذلك كتاب فقه اللغة للثعالبي...» **(97)**

والحقيقة أنه لم يصلنا من عطاءات هذا الرجل العقدية إلا منظومة عقدية شهيرة سميت بمنظومة" التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد" ، ولكننا نرجح أن تكون له مؤلفات أخرى في هذا الفن بدليل أن أبا علي عمر السكوني (ت 717هـ/1317م) ينقل عنه هذه المناظرة التي جرت بينه وبين أحد أحبار اليهود ، يقول فيها على لسان الضرير" حضرني يوما بعض أحبار اليهود فتكلم في التعديل والتجوير ، وجاء بتخليط كثير ، وكان مما أحاله وأنكره أن يكون الله تعالى يأمر بما لا يريد كونه. فقلت: أليس قد أمر الخليل أن يذبح ابنه؟ فقال: بلى ، فقلت: فهل أراد ذبحه؟ فقال: لا ، فانقطع لوقته وأمسك لحيته. قال الأستاذ أبو الحجاج:" وهم في هذه المسألة إخوان المعتزلة ، وقد بسط القول فيها أئمة؟ أهل السنة والحمد لله ولي الطول والمنة"**(98)**

لقد سار الضرير على تنظيم قريب من التنظيم الذي نظم به الجويني مضامين كتابه الإرشاد ، لأن هذا الكتاب كانت له سلطة معرفية كبيرة لكن هذا لا يعني أنه نهج نفس نهجه ، والذي يهمنا هو أن هذه المنظومة هي في عقيدة الأشاعرة ، وأن صاحبها الضرير راعى فيها السهولة والتقريب إلى إفهام الناس وعقولهم وما ذلك إلا تحت وطأة الصراع الذي كان قائما بين ممثلي الأشاعرة ، والمدافعين عن مذهب أهل التسليم والتفويض**(99)** ، مما كان يدفع المفكرين الأشاعرة إلى التسهيل حتى يتمكن المبتدءون ، والعامة من فهمها ، والاعتقاد بها ، والتمسك بما جاء فيها ، فتتفشى أكثر في أوساطهم وتنتشر. وهذا ما دفع الضرير إلى نهج أسلوب الأراجيز السهل المنال ، والذي يطلع على منظومة " التنبيه والإرشاد" يجدها مستوعبة لجميع ما أثاره علم الكلام الأشعري من دقائق الأمور ، وكبيرها. فهي تحتوي على تسع وتسعين بابا ، بداءا من باب الكلام ، وانتهاء بباب ترتيب الصحابة. وقد خول لها استيعابها لكل ما يطرح من أمور العقيدة الأشعرية ، كذلك

بساطة مضامينها ، وصياغتها الرجزية أن تنهض بدور مهم وكبير في عملية انتشار المذهب الأشعري وتغلغله ، وتكريسه مذهبا رسميا للغرب الإسلامي ، فالضرير تولى تدريسها بنفسه في مراكش ، وقد أخذها عليه مجموعة من كبار علماء المغرب في هذه الفترة. **(100)** ومن بينهم تلاميذه أبو عبد الله مالك ابن مروان اللجوسي الضرير أخذ عنه وعن أبي بكر بن العربي **(101)**. وعلماء الأندلس وتتالت عملية تدريسها بعد الضرير في جوامع الأندلس والمغرب وغيرها ، ويسهر على تدريسها جمع كبير من كبار الأئمة في هذا المذهب ، فقد تولى تدريسها بالأندلس تلميذه المباشر أبو عبد الله مُحَمَّد بن خلف القرطبي الشهير الإلبيري (ت 537هـ/1143م) الذي «كان حافظا لكتب الأصول والاعتقادات واقفا على مذهب أبي الحسن الأشعري وأصحابه» **(102)** وألف تآليف عدة في الموضوع منها الرد على أبي الوليد ابن رشد في مسألة الاستواء **(103)**. ومن تلاميذه عيسى بن يوسف بن عيسى بن علي الأزدي المدعو بابن الملجوم (ت 543هـ/1148م) **(104)** وبعده أبو بكر مُحَمَّد بن عبد الرحمن الفخار (من أعلام القرن السابع الهجري)، ومُحَمَّد بن خليل السكوني صاحب أربعون مسألة في أصول الدين. **(105)**

ويشير بعض الباحثين إلى:" أن هذه المنظومة العقدية شكلت أوائل العقائد التي كتب لها أن يهتم بها من جاء بعد الضرير من المفكرين وأن تسهم بقسط وافر في تكريس هذا المذهب الأشعري مذهبا رسميا في الغرب الإسلامي" ، فما هي إذن أهم الأراء التي وردت في هذه المنظومة ؟

الواقع أن كل ما ورد في منظومة الضرير يحمل طابعا أشعريا لا غبار عليه ، لكن ما ينبغي الوقوف عنده هو ما يلي:

-**النظر** : وفيه يرى الضرير ضرورة تعليم علم الكلام الأشعري لعامة الناس دون استثناء حين يعتبر النظر العقلي واجبا عينيا على كل مسلم ومسلمة ، فلا يصح إيمان المرء إلا باعتقاده عن طريق النظر العقلي أمور العقيدة الأشعرية ، فالإيمان عنده كما هو عند سائر الأشاعرة ، تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، على أن العمل بالجوارح ليس شرطا أساسيا من شروط الإيمان ، وإنما اعتبر إضافته من المجوزات فقط فحتى إذا ما ظهر شخص يقر بلسانه إيمانه إلا أن أعماله لا تتطابق مع معتقده. يقول الضرير:

((فهو مؤمن بحكم الظاهر وغيبه عند العلم القاهر)) **(106)**

-**حدوث العالم** : يعتمد الضرير في إثبات هذه المسألة على نفي السببية. فما دامت السببية غير موجودة في ظواهر الكون بحيث لا يمكن للأشياء أن تخلق نفسها بنفسها ، أو تخلق بعضها ، ولا تكون سببا لبعضها فإن الله وحده هو الخالق ، والسبب الأوحد في هذا الكون ، فالزناد مثلا لا يتضمن نارا ولكنه يشعلها لا باعتباره سببا ولكن لعادة شاءها الله وأبدعها فيه. يقول الضرير:

وحدث النار عيانا يشهد إذ ليس في الزند نار توقد
وإنما يبدعها الإله عند اقتداح الزند أو سواه
أراد أن يكون هذا عادة من فعله يفعل ما أراده

- **خلق الأفعال (الكسب)** : يخصص الضرير بابا في منظومته لمسألة خلق الأفعال يتكلم بصراحة عن نظرية الكسب الأشعري فهو يثبت للإنسان القدرة على فعل ما يدخل تحت مقدوراته ، فهو يقول :

والعبد يكتسب صفاته ما هو من أجناس مقدوراته
وهذه القدرة والمقدور كلاهما ببدعة القدير **(107)**

-**الإمامة** : يرى الضرير وجوب قيام الإمامة في مجتمعات المسلمين ، لأن في ظلها تقام حدود الله ، ويتمكن المؤمنون من الجهاد والدفاع عن الحياض ، والإمام الذي يتولى شؤون المسلمين ينبغي أن يكون عاقلا ، عالما ، مستقيما ، سليم الحواس والتمييز بين الأمور ، وشجاعا مقداما وأن يكون قرشي النسب. لكنه في حالة ما عدا إذا وجد إمام يأمر بالظلم ، أو يأمر بإتيان الحرام جملة ، فلا يحل للمسلمين طاعته ، لكن بشرط أن يكون في ذلك مأمون السطوة والمكر. أما إذا كان في زجره وتخويفه فتنة للمسلمين ، فلا لجوء إلى ذلك بل إن القيام عليه يصبح حراما لأن فيه نقضا لعهد ، والله يأمر في كتابه بالوفاء بالعهود. وعلى العموم فأن أبا الحجاج الضرير تطرق في منظومته هذه إلى مجموع ما طرحته العقيدة الأشعرية من أمور سواء كانت أصلية أم فرعية. وأيا ما كان من الأمر فإن هذه المنظومة" التنبيه والإرشاد" قامت بدور كبير في عملية تغلغل المذهب الأشعري والسير به نحو الترسيم نظرا لطبيعتها التعليمية ، ولقرب فهمها من طرف المتعلمين فاكتسبت من هذا الجانب أهميتها التاريخية ، حيث مثلت طلائع العقائد التي دخلت في تكوين هذه المرحلة. **(108)**

وذكر القاضي أبو الفضل عياض في فهرسته الموسومة بالغنية عددا آخر من المتكلمين ، منهم أبو القاسم المعافري الذي اعتكف بسبتة على تدريس الأصول والكلام طول حياته. وذكر أيضا شيخه أحمد بن مُحَمَّد الجذامي المعروف

بالزنقي ، ووصفه بـ «شيخ المتكلمين على مذهب أهل الحق في وقته». وقد روى عياض عن هؤلاء الشيوخ عددا من الكتب في علم الكلام والعقيدة من تآليفهم ومما كانوا يرونه. ومما يستحق أن يذكر هنا هو أن أكثر المتعاطفين مع الأشعرية كانوا من ذوي الميول إلى الزهد والتصوف. **(109)** فهل تعتبر تلك مقدمات تحالف صوفي أشعري لمواجهة المرابطين الذين وقفوا ضد التوجهين معا؟

خاتمة

من خلال تناولنا لبحث الحضور الأشعري زمن دولة المرابطين ، فقد توصلنا للنتائج التالية :

أولا: أن مرحلة دخول المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي استغرقت مدة طويلة ابتدأت بأوائل من كان له السبق في هذا المجال في أواخر القرن الرابع الهجري لتستمر إلى بداية القرن السادس الهجري..

ثانيا: عكس ممثلي الفكر الأشعري في هذه المرحلة في الغرب الإسلامي التأثير الواضح لمتقدمي الأشاعرة وبخاصة تأثير أبي بكر الباقلاني وأبو المعالي الجويني ، وأبي حامد الغزالي ، فجعل أشاعرة هذه المنطقة الذين سافروا إلى المشرق واحتكوا وتلقوا عنهم الأصلين ، أو عمن كانت له صلة وطيدة معهم ، فأفرز لنا ذلك جيلا من الأشاعرة يتميز بما تميز به متقدمو الأشاعرة مضمونا ومنهجا.

ثالثا: أن كثير بعض الباحثين المعاصرين حينما تحدثوا عن ظهور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ركزوا على منطقة دون أخرى ، فجعلوا من المغرب الأدنى مثلا المنطقة التي مثلت الشرارة الأولى لانطلاق هذا المذهب وحضوره في كامل الغرب الإسلامي. ونحن من جهتنا لا ننكر الدور الذي قامت به هده المنطقة وبخاصة القيروان في هذا المجال عندما كانت منبعا ثقافيا فياضا ، وملتقى فكريا احتضن مجموعة من المفكرين المتطلعين نحو التغيير والإصلاح ، وتجديد الفكر وتطويره ، فكان منهم رجال قاموا بأدوار في نشر هذا المذهب بإفريقية ، والمغرب ، والأندلس. ولكن هذا لا يعني أن المغرب الأدنى وحده هو الذي قام بهذا الدور. وهناك من يجعل من المغرب الأقصى بمدنه فاس ومراكش وسبتة مرجعا أساسيا في الحديث عن الفكر الأشعري وممثليه وانتشاره وتطوره ، ونحن نقول أن كل من: دراس بن إسماعيل ، و القابسي ، والطلمنكي ، المرادي وأبو عمران الفاسي ، وأبو الفضل النحوي ، و الباجي ...وغيرهم كثير. كل هؤلاء هم تونسيون ، وجزائريون ومغاربة ، لكن بكلمة واحدة أصح هم مفكرون أنتجتهم تربة واحدة هي تربة المغرب الإسلامي.

وفي الأخير فإن ما يمكننا التأكيد عليه أكثر هو أن المذهب الأشعري عرف في هذه المرحلة بالغرب الإسلامي طابعا فرديا. يمثله أفرادا عادوا من المشرق وقد احتكوا بممثلي هذا المذهب هناك ، فيعملون على نشره بين أفراد آخرين تجمعهم بهم علاقات تعليمية وثقافية فلم يقووا على الظهور بمظهر جماعي ، فظل هذا المذهب إلى حين ظهور الدولة الموحدية. مذهب نخبة عالمة ، تسعى من جانبها إلى نشره بين الناس ؛ لكن مع قيام الدولة الموحدية سيعرف المذهب تغلغله وتفشيه الكبير ، لأنه مثل بالنسبة لها الشعار الإيديولوجي ، بحيث سيصبح المذهب الرسمي لهذه الدولة الجديدة ، ولباقي الدول التي ستتعاقب الحكم في الغرب الإسلامي. فكيف صار هذا المذهب العقدي الجديد مذهبا رسميا للموحدين؟ وهل سيعرف في ذلك تطورا؟

الهوامش

1- عبد المجيد النجار: **تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت (الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري)**، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن- فرجينيا، 1995، ص50.

2- المرجع نفسه، ص50.

3- تعددت الروايات التاريخية التي تروي نسب المرابطين، فقد ذكرت أنهم من قبائل صنهاجة، وهذه الأخيرة تنضوي تحتها أكثر من70 قبيلة بربرية أشهرها لمتونة وجدالة ولمطة ومسوفة وهي القبائل التي تشكلت على أساسها دولة المرابطين، ويقر بعض المؤرخين أمثال ابن عذاري بنسب المرابطين إلى لمتونة أحد بطون صنهاجة التي ترأست بقية القبائل، لذا اختصت لمتونة بلقب الملثمين، ثم صار هذا اللقب شعار يطلق على كل من ساند لمتونة. ويرى ابن عذاري المراكشي أن نسب أمراء دولة المرابطين ينتمي إلى جد مشترك يدعى منصور، وافترقت أفخاذهم من الجد « ترجوت بن ورتاسنبن منصور بن مصالة بن أمية بن وانمالي الصنهاجي »، وتفرق من أولاد ترجوت الثلاثة (مُحَمَّد ،حميد، إبراهيم) بطون كثيرة، ويرجع ابن عذاري أصل الصنهاجيين إلى حمير بقوله: « إن صنهاجة من ولد عبد شمس بن وايل بن حمير » ينظر: مجهول: **مفاخر البربر**، تحقيق: عبد القادر بوباية، ط1، دار أبي رقراق، الرباط، 2005، ص 144؛ مجهول: **الحلل الموشية في ذكر الأخبار** المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979، ص17؛ ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: إحسان عباس، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج4 (قسم المرابطين)، ص 17؛ ابن الأثير أبو الحسن علي الجزري: **الكامل في التاريخ**، تحقيق: مُحَمَّد يوسف الدقاق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج8، ص 327 وما بعدها؛ علي مُحَمَّد الصلابي: **دولة المرابطين**، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2007، ص09.

4- عبد الواحد المراكشي: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق: عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص236؛ عبد المجيد النجار: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، ص51.

5- عبد المجيد النجار: المرجع نفسه، ص51.

6- نفسه، ص52.

7- المراكشي: المعجب، ص151؛ عبد المجيد النجار: تجربة الإصلاح، ص52.

8- أبي القاسم ابن حوقل النصيبي: **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992، ص 90؛ عبد المجيد النجار: تجربة الإصلاح، ص53.

9- أحمد بن مُحَمَّد المقري التلمساني: **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، تحقيق: مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، ط1، مطبعة السعادة: مصر، 1949م ج1، ص102؛ عبد المجيد النجار: تجربة الإصلاح، ص53.

10- عبد المجيد النجار: تجربة الإصلاح، ص ص: 53، 54.

11- يحي هويدي: **تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية**، مكتبة النهضة العصرية، القاهرة، 1966م، ج 1، ص ص: 201، 202.

12- حسين مؤنس: **تاريخ المغرب وحضارته**، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، 1992م، ج 2، ص:110.

13- إبراهيم التهامي: **جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005، ص: 107.

14- حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ج 2، ص ص: 140، 141.

15- أبو عبد الله بن مُحَمَّد بن أبي نصر الحميدي: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، 9661م، ص ص: 110، 109.

16- ابن رشد: **مسائل أبي الوليد ابن رشد**، تحقيق مُحَمَّد الحبيب النجكاني، ط1، دار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء 1992، ج1، ص: 34.

17- أحمد شلبي: **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ط10، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1995م، ج4، ص185.

18- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 151.

19- الخشني: **طبقات علماء افريقية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ب.ت.، ص: 214.

20- عبد المجيد النجار: **فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب**، ط 1، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 9921م، ص ص: 42، 43.

21- يحي هويدي، المرجع السابق: ج 2، ص ص: 208 - 212.

22- يوسف أحنانة: **تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة اليديني، الرباط، المملكة المغربية، 2003، ص61.

23 - مُحَمَّد عبد الهادي شعيرة: **المرابطون وتاريخهم السياسي (430 - 539)**، ط1، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1969م، ص ص 15-37.

24 - عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 151.

25 - عبد الله بن بيه: **الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين**، ط 1، دار الأندلس الخضراء، المملكة العربية السعودية، 2000، ص: 120.

26- أبو الوليد مُحَمَّد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي، تفقه على يد أبي جعفر أحمد بن رزق، توفي سنة 520 هـ،و كان فقيها عالما حافظا للفقه مقدما فيه على جميع أهل عصره نافذا في علم الفرائض والأصول من أهل الرياسة في العلم والبراعة وقد تولى قضاء قرطبة تحت إلحاح أمير المسلمين علي بن يوسف وكان ابن رشد كارها لهذه التولية فاستعفى منها بعد أربع سنوات من ممارسته لها التي سار فيها بأحسن سيرة وأقوم طريقة ورجع إلى نشر العلم فرحل الطلبة إليه من أقطار الأندلس للتفقه وقد اجمع من ترجموا له بأنه كان ناسكا عفيفا سهل الحجاب وأستاذا بطبعه يحب التدريس ويحسن طرق التبليغ تسعفه مادة علمية غزيرة وتفكير منظم وحرص على نفع الطلب وقد أعطاه كل ذلك مكانة مرموقة عند الخاصة والعامة فكان مقدما عند أمير المسلمين علي بن يوسف عظيم المنزلة عنده معتمدا على فتواه استخدم ابن رشد هذه المكانة الرفيعة لرعاية أهل بلده وخدمتهم فكان الناس يلجئون إليه ويعولون في مهماتهم عليه كثير النفع لأصحابه جميل العشرة لهم كثير البّر بهم. وكانت له مواقف عظيمة مثل موقفه وبلاءه في إخماد ثورة أهل قرطبة وأواخر سنة 514هـ وقد أثرى ابن رشد الميدان الفقهي بمؤلفاته نذكر منها على سبيل المثال "البيان والتحصيل" وهو أهم مؤلفاته وهو كتاب جليل يعتبر احد أهم أمهات كتب المذهب المالكي ومن أهميته أن ابن رشد طلب الإعفاء من القضاء لأجل إملاء هذا الكتاب على الطلبة وكذلك كتاب المقدمات المهمات.

ينظر: ابن بشكوال: **الصلة** ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، 1966 ، ج2 ، ص:546. 547 ؛ مُحَمَّد بن مخلوف: **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ،1349هـ، ج1 ، ص:129 ؛ القاضي عياض: **الغنية** ، تحقيق: ماهر زهير جرار ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ،1982 ص:118 ؛ المقري: نفح الطيب ، ج2 ، ص:272 ؛ عصمت عبد اللطيف دندش: **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني** ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1988 ، ص390.

27- يوسف أحنانة: تطور المذهب الأشعري ، ص ص: 72- 73.

28 - عبد الواحد المراكشي: المعجب ، المصدر السابق ، ص: 150.

29- للمزيد حول نظرة الغرب الإسلامي أيام المرابطين والموحدين لهذا الكتاب ينظر: مُحَمَّد المنوني: **حضارة الموحدين** ، ط1 ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ،1989 ، ص191- 199.

30- أبو عبد الله مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبد العزيز بن حمدين الأندلسي المالكي ، قاضي قرطبة على عهد الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ، توفي سنة508 هـ. ينظر ترجمته: الذهبي: **سير أعلام النبلاء** ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط2 ، مؤسسة الرسالة ،1982م ، ج 20 ، ص: 422.

31- علي بن يوسف بن تاشفين ، رابع الأمراء المرابطين (500 - 533 هـ) ، راجع: مُحَمَّد شعيرة ، المرجع السابق: ص: 87.

32 - ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق**:ج.س.كولان وإ. ليفي بروفنسال ، ط3 ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ،1983 ، ج 4 ، ص: 59.

33- مُحَمَّد شعيرة: المرجع السابق: ص251.

34 - رابح بونار: **المغرب العربي تاريخه وثقافته** ، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981م ، ص 270.

35 - مُحَمَّد بيه: المرجع السابق ، ص: 126.

36 - أبو حامد الغزالي: **إحياء علوم الدين** ، تحقيق: السحاب الطحان وعبد الله المنشاوي ، ط1 ، مكتبة الإيمان ، القاهرة ، 1996 ، ج1 ، ص:08.

37-مُحَمَّد عابد الجابري: **ابن رشد- سيرة وفكر- دراسة ونصوص** ، ط 2 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2001م ، ص: 26

38 - عبد الكريم تواتي: **مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس** ، ط 1 ، مكتبة الرشاد ، الدار البيضاء ، 9671م ، ص ص: 359 - 361.

39 - سعد زغلول عبد الحميد: **تاريخ المغرب العربي** ، مطبعة أطلس ، القاهرة ، 1990 ، ج4 ، ص: 416.

40- أحمد محمود صبحي: **في علم الكلام- دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين-الأشاعرة**، ط5 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ،1985 ، ج 2 ، ص: 229.

41- انخل جنثالث بالنثيا: **تاريخ الفكر الأندلسي** ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، بورسعيد ، (د. ت) ، ص ص: 430 - 431.

42 - ماريا إيزابيل فييرو: **الزندقة والبدع في الإسلام** ، ضمن كتاب جماعي "الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس" بإشراف سلمى خضراء الجيوسي ، ط 1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1998م ، ج 1 ، ص: 1254.

43- أبو مُحَمَّد عبد الله بن مُحَمَّد الأندلسي القحطاني المالكي. انظر ترجمته: أبو الوليد عبد الله بن مُحَمَّد ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس** ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ،1966م ، ج2 ، ص89.

44- المصدر نفسه: ج 2 ، ص: 89.

45- كمال السيد أبو مصطفى: **دراسات أندلسية في التاريخ والحضارة** ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، 9971م ، ص:26.

46 - ابن حزم بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، كان صاحب حديث وفقه وجدل ، كان شافعيا ثم صار ظاهريا ، ولبث عليه إلى أن مات سنة 456 هـ من مؤلفاه "أخلاق النفس" و"طوق الحمامة". انظر ترجمته: المقري: نفح الطيب ، ج2 ، ص: 283.

47 - أبي مُحَمَّد علي بن احمد الأندلسي ابن حزم: **الفصل في الملل والأهواء والنحل** ، تحقيق مُحَمَّد ابراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة ، ط2 ، دار الجيل ، بيروت ،1996 ، ج4 ، ص: 207.

48- ابن حزم: المصدر السابق ، ج 4 ، ص: 221.

49-المصدر نفسه: ج1 ، ص:112.

50 - القاضي عياض: **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة رجال مالك** ، تحقيق: أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت 1967 ، ج 2 ، ص 805.

51- ماريا إيزابيل فييروا: المرجع السابق: ج2 ، ص 1246.

52 - إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ، ص 271.

53- **البجليين**: وهم قوم من الشيعة الرافضة استقروا في تارودانت- قاعدة بلاد السوس- يقال لهم البجلية نسبة إلى علي بن عبد الله البجلي الرافضي- ارتحل إلى بلاد السوس أيام قيام عبيد الله الشيعي بافريقية- فأشاع هناك مذهب الرافضة فتوارثوه عنه جيلا بعد جيل وعضوا عليه ، قضي عليهم من طرف عبد الله بن يلسين وأبو بكر بن عمر وبذلك عادت بلاد تارودانت إلى مذهب السنة والجامعة ، للمزيد ينظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى- الدولتان المرابطية والموحدية**-، تحقيق:جعفر الناصري ومُحَمَّد الناصري ،دار الكتاب ، الدار البضاء المغرب ،1954 ،ج2 ،ص13.

54- **برغواطة:** وهم أخلاط من قبائل شتى من البربر المصامدة ، اجتمعوا إلى صالح بن طريف ، كانت مواطنهم بين بسائط تامسنا وريف البحر ، حيث ادعى النبوة أيام هشام بن عبد الملك ، وأطلق على أتباعه أصحاب النحلة أو الديانة البراغواطية...للمزيد ينظر: ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج1 ، ص 56 ، 57 ؛ ألفرد بل: **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم** ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1981. ، ص-ص ، 173-179.

55- مُحَمَّد المغراوي: **تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي** ، فصل من كتاب التاريخ والفقه- أعمال مهداة إلى المرحوم مُحَمَّد المنوني- تنسيق مُحَمَّد حجي ، ط1 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ،2002 ، ص142.

56- المراكشي: المعجب ، ص151 ؛ مُحَمَّد المغراوي: تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي ، ص141.

57- نعت ابن حوقل المالكيين من أهل السوس الأقصى في القرن 4هـ/10م بقوله: «والمالكيون من فضاض الحشوية» ، صور الأرض ، ص.91 ؛ أما ابن رشد الحفيد (ت595هـ) فرأى أن الحشوي يعتقدون «أن طريق معرفة وجود الله تعالى هو السمع لا العقل» ، الكشف عن مناهج الأدلة ، ص:101-102 ؛ كما تعرف الحشوية: «الحشوية هم الذين يروون الأحاديث المحشوة أي التي حشاها الزنادقة في أخبار الرسول ﷺ ، ويقبلونها ولا يتأولونها ، وهم يصفون أنفسهم بأنهم أصحاب الحديث وأنهم أهل السن والجماعة ، ولا مذهب لهم منفرد. وأجمعوا على الخير والتشبيه ، وحسموا وصوروا وقالوا بالأعضاء ، وقدم مابين الدفتين من القرآن. ويدعون أن أكثر السلف منهم ، وهم برآء من ذلك. وينكرون الخوض في علم الكلام والجدل ، ويعملون على التقليد وظواهر الآيات» ، ينظر هامش: مُحَمَّد المغراوي: تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي ، ص144.

58- توزري الأصل ، عكف على طلب العلم في صغره بافريقية حتى نبغ فيه ، وقد أخذ صحيح البخاري عن اللخمي ، ويحكى أنه لما لقيه طالب علم سأله: ما جاء بك ؟ فقال له: جئت لأنسخ تأليف " التبصرة " فقال له: إنما تريد أن تحملني في كفك إلى المغرب ، أو كلاماً هذا معناه" ، وقد أشار بذلك إلى أن عمله كله في هذا الكتاب ، وأخذ أيضا عنده أعلام ذلك العصر كالمازري صاحب الصيت البعيد وأبي زكريا الشقراطسي وعبد الجليل الربعي ، وكان أبو الفضل بن النحوي عارفا بأصول الدين والفقه وأحد أعلام القرآن العاملين بحلاله وحرامه ، ويميل إلى النظر والاجتهاد ، وقد ترك تأليف حسنة . أخذ عنه جماعة من علماء ذلك العصر ، أشهرهم: أبو عمران موسى ابن حماد الصنهاجي الذي كان معجباً به كثيراً حتى قال عنه: إنه في بلادنا بمنزلة الغزالي في العلم والعمل.للمزيد ينظر: أبي يعقوب بن يحي التادلي ابن الزيات: **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي** ،تحقيق أحمد توفيق ،ط2 ،كلية الآداب الرباط ،1997 ، ص-ص:95-101 ؛ أبو عبد الله مُحَمَّد ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، مراجعة مُحَمَّد بن أبي شنب ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ،1907 ،ص-ص:299-304 ؛ أبي العباس أحمد الخطيب ابن قنفد القسنطيني: **أنس الفقير وعز الحقير** ، نشر مُحَمَّد الفاسي وأدولف فور ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ،الرباط ،1965 ،ص108 ،107 ؛ ابن القاضي: **جذوة الاقتباس** ،ج2 ،ص 552 ، 553 ؛ أحمد بابا التنبكتي: **نيل الابتهاج في تطريز الديباج** ، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ، ج 1و2 ، ط1 ،منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ،1989 ،ص-ص:622-625 ؛ ابن مخلوف: شجرة النور الزكية ،ص126 ؛ مُحَمَّد المغراوي: **فتوى لأبي الفضل بن النحوي حول إحياء علوم الدين للغزالي** ، ضمن متنوعات مُحَمَّد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،1998 ،ص-ص:116-121.

59- يرجع الفضل في اختطاط وتأسيس مدينة قلعة بني حماد عام 398هـ/1007م إلى الأمير حماد بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي (ت 419هـ/1028م) الذي اتخذها عاصمة لإمارته التي انفصلت عن الدولة الزيرية. وفي ذلك يقول ابن خلدون: «...واختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين ، وهو جبل عجيسة ، وولى العهد قبائل عياض من عرب هلال. ونقل إليها أهل المسيلة وحمزة وخربهما. ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها ، وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة. وشيد من بنيانها وأسوارها ، واستكثر فيها من المساجد والفنادق فاستبحرت في العمارة واتسعت بالتمدن. ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد وطلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها» ينظر: ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون** ، ج6 ، ص 202 ؛ عيسى بن الذيب وآخرون: **الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر في العصر الوسيط** ، ص ،ص 74 ، 75 ؛أحمد أبو عبد الرزاق: **الأدب في عصر دولة بني حماد** ، الأدب في عصر دولة بني حماد ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،1979م ،ص66.

60- ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف ، ص.98-99 ؛ مُحَمَّد المغراوي: تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي ، ص144.

61- مُحَمَّد المغراوي: تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي ، ص144 ، 145.

62- الطاهر بونابي: **التصوف في الجزائر - خلال القرنين 6 و7 الهجريين، 12 و13 الميلاديين**- ، دار الهدى للطباعة ، عين مليلة ، 2004 ، ص117.

63- ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء ، ص301.

64- التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ص623 ، 624.

65 - الطاهر بونابي: المرجع السابق ، ص211.

66- التنبكتي: المصدر السابق ، ص624 ، 625.

67- علي الفاسي ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1972 ، ج2 ، ص41.

68- التنبكتي: المصدر السابق ، ص624.

69- رابح بونار : المرجع السابق ، ص186.

70- التنبكتي: المصدر السابق ، ص624.

71- عبد الغني حروز: **الحياة العلمية في قلعة بني حماد 408-461هـ/1017-1070م** ، مذكرة ماجستير ، المدرسة العليا للأساتذة ، الجزائر ،2011 ، غير منشورة ، ص104 ، 105.

72- رابح بونار: المرجع السابق ، ص. ص186 ، 187.

73- رابح بونار: المرجع السابق ، ص ص 187 ، 188.

74- جورج مارسيه: **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى** ، ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل ، مطبعة الانتصار ، الإسكندرية ، 1991 ، ص 220.

75- أبي عبد الله مُحَمَّد مُحَمَّد بن عبد الكريم الفاسي التميمي: **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد** ، تحقيق مُحَمَّد الشريف ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، تطوان ، 2002م ، ص350.

76- عبد الحميد الخالدي: نبذة مختصرة لبعض علماء الجزائر في العهد الحمادي ، **مجلة الثقافة** ، العدد 112 ، وزارة الثقافة والاتصال ، الجزائر ، 1999م ، ص ص158-159.

77- يوسف أحنانة: أستاذ وباحث وأكاديمي مغربي متخصص في التاريخ الوسيط ، خاصة التاريخ المذهبي لبلاد المغرب ، له عدة مؤلفات أهمها كتاب تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي.

78- يوسف أحناتة: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ص61

79- المرجع نفسه ، ص61.

80- المراكشي: المعجب ، ص.172.

81- مُحَمَّد المغراوي: تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي ، ص140.

82- يحتمل أحنانة إمكانية أن يكون أبو بكر الحسن بن المرادي تلميذا للإمام أبو عمران الفاسي فيقول:" ...إن نبوغ أبي عمر الفاسي وتضلعه في الفقه المالكي ، والعقيدة الأشعرية دفعه إلى تأسيس دولة جديدة بالمغرب الأقصى كان يهدف منها أن تكون عقيدتها الرسمية هي عقيدة الأشاعرة لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، فقد تأسست فعلا دولة المرابطين الملثمين وفق تخطيطه وهندسته لكنه لم يعاصر ولم يواكب هذا التأسيس ، حتى يتمكن من الإشراف عليه ، وتوجيهه الوجهة التي يرتضيها. فقد مات قبل قيام هذه الدولة ، لكن شخصا من المحتمل أن يكون تلميذا له هو الذي سيتولى هذه المواكبة والتنظير لهذه الدولة الجديدة وتوجيهها توجيها سياسيا ، ويتعلق الأمر بأبي بكر مُحَمَّد بن الحسن الحضرمي المرادي..." تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ص65.

83- ابن الزيات التادلي: التشوف إلى رجال التصوف ، ص106.

84- مُحَمَّد المغراوي: تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي ، ص141.

85- ابن الزيات: التشوف ، ص106 ؛ القاضي عياض: الغنية ، ص226 ؛ مُحَمَّد المغراوي: تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي ، ص141.

86- يوسف أحنانة: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ص66.

87- ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف ، ص106.

88- يوسف أحنانة: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ،ص 66 ، 67.

89- المرجع نفسه:ص 67 ، 68.

90- القاضي عياض: الغنية ، ص227 ؛ يوسف أحنانة: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ص 68.

91- يوسف أحنانة: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ص 68 ، 69.

92- يوسف أحنانة: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ص 69 ؛ مُحَمَّد المغراوي: تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي ، ص138 ، 139.

93- يوسف أحنانة: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ص 70 ؛ مُحَمَّد المغراوي: تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي ، ص138 ، 139.

94- يوسف أحنانة: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ص70 ، 71.

95- ينظر ترجمته: القاضي عياض: الغنية ، ص 226 ؛ ابن شكوال: الصلة ، ج2 ، ص. 644 ؛ أحمد بن يحي بن احمد بن عميرة الضبي: **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس** ، مكتبة المثنى ، بغداد ، مؤسسة الخانجي ، مصر ، 1884م ، ص 492 ؛ ابن الزيات التادلي: التشوف ، ص.105 ، 106.

96- ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف ، ص105 ، 106.

97- القاضي عياض: الغنية ، ص 226 ؛ ابن شكوال: الصلة ، ج.2 ، ص. 644 ؛ ابن عميرة الضبي: المصدر السابق ، ص. 492 ؛ ابن الزيات التادلي: التشوف ، ص.105 ، 106.

98- عمر السكوني: **عيون المناظرات** ، تحقيق سعد غراب ، منشورات الجامعة التونسية ، 1976 ، ص290.

99- يوسف أحنانة: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ص83.

100- القاضي عياض: الغنية ، ص 226.

101- ابن الزيات: التشوف ، ص266.

102- مُحَمَّد المغراوي: تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي ، ص141.

103- المرجع نفسه ، ص142.

104- جمال علال البختي: **عثمان السلالجي ومذهبيته الأشعرية (دراسة لجانب من الفكر الكلامي بالمغرب من خلال البرهانية وشروحها)**، ط1 ، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر ، الرباط ،2005 ، ص130 ، 131.

105- يوسف أحنانة: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ص84.

106- المرجع نفسه ، ص86.

107- يوسف أحنانة: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي: ص86.

108- المرجع نفسه ، ص88 ، 89.

109- وكان القاضي عياض قد لقيه بقرطبة وأخذ عنه سنة 507هـ/1113م ، ينظر: القاضي عياض: الغنية ، ص: 117 و226 ؛

علميّة المنهج بين النقد الأدبي والهرمينوطيقا

Scientific method between literary criticism and hermeneutics

تاريخ الإرسال:12-04-2019 تاريخ القبول: 12-04-2020

وردية الجاصة، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف2
wardia.ledjassa@gmail.com
سفيان زدادقة، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف2
sofizeda@yahoo.fr

الملخص

حاولت العلوم الإنسانية الاستفادة من إنجازات العلم على غرار العلوم الوضعية ، لهذا ظهر منذ القرن التاسع عشر اتجاه يدعو إلى استغلال المنهج العلمي في النقد الأدبي ، في الوقت الذي كانت الهرمينوطيقا تشكك في ذلك ، وتحاول التفريق بين مجالي العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية. واستمر الطموح العلمي في النقد الأدبي ليصل إلى ذروته مع المنهج البنيوي ، غير أن الهرمينوطيقا استمرت في تأكيد شكوكها لتصل إلى هدمه مع غادمير. ليتخلى النقد الأدبي عن الهوس العلمي في ما بعد البنيوية ، وتكون الهرمينوطيقا من أهم الأسس التي بلورت تلك المرحلة. وعليه ، سنكشف في هذا المقال مظاهر التشابك في نظرة كل من النقد الأدبي والهرمينوطيقا للعلمية.

الكلمات المفاتيح: النقد الأدبي ، الهرمينوطيقا ، العلمية ، المنهج ، ما بعد الحداثة

Résumé

Les sciences humaines ont essayé d'utiliser les acquis des sciences telles les sciences naturelles. Depuis le XIXe siècle, on a eu tendance à exploiter la méthode scientifique dans la critique littéraire, tandis que l'herméneutique l'a mise en doute et a essayé de différencier les domaines des sciences naturelles des sciences humaines. L'ambition scientifique de la critique littéraire continuait jusqu'à l'atteinte de son sommet avec le structuralisme. Mais l'Herméneutique continuait d'affirmer ses soupçons, ce qui a conduit à sa fin avec Gadamer. Par la suite, la critique littéraire abandonne son obsession scientifique dans le post-structuralisme. L'herméneutique est l'un des fondements importants qui ont cristallisé cette période. Ainsi, nous allons explorer dans cette recherche les aspects de liaison entre la vision de la critique littéraire et L'herméneutique pour l'approche scientifique

Mots-clés : La Critique Littéraire, L'herméneutique, Scientifique, La Méthode, Postmodernisme.

Abstract

The humanities have tried to use the achievements of science in the same way as the natural sciences did. In the nineteenth century, a trend appeared to exploit the scientific method in literary criticism, while the hermeneutics has been questioning this, and trying to differentiate between the fields of natural sciences and humanities. The scientific ambition of literary criticism continued to its climax with structuralism. However, Hermeneutics continued to assert its suspicions to reach its demise with Gademir. Then, with post-structuralism, literary criticism has abandoned science and hermeneutics was one of the most important foundations that constructed that period. Thus, in this research, we will shed light on the similar aspects of the scientific approach between criticism and hermeneutics.

Keywords: Literary Criticism, Hermeneutics, Scientific, Method, Postmodernism.

مقدمة

شهد النقد الأدبي تطورات كبيرة منذ القرن التاسع عشر، تقاطع فيها مع مجالات معرفية متباينة؛ بدأها بالرغبة في مسايرة الازدهار العلمي الحاصل آنذاك، ثم الاندماج مع المقولات النفسية، فارتداء ثوب المنهج الاجتماعي، ليعود بعد لسانيات دوسوسير إلى الاكتفاء بذاته، والرضا بما تجوده عليه لغته، ليتنكر في النهاية لأفضال اللغة عليه ويتمرد عليها بإيعاز من التصورات الفلسفية ما بعد الحداثية.

وبينما كان النقد الأدبي يحاول تأسيس دراسة أدبية مستقلة، كانت الهرمينوطيقا هي الأخرى تشق طريقها الخاص في فهم النصوص، وقد وقع التقاطع بين المجالين فيما بعد الحداثة، حيث أصبحت الهرمينوطيقا من أهم المرجعيات التي تأسس عليها النقد ما بعد الحداثي، وذلك لاشتراكهما في موضوع الدراسة وهو النصوص اللغوية.

وعليه، سنكشف في هذا المقال كيفية بناء كل من النقد الأدبي والهرمينوطيقا للمنهج، ونظرتهما للجانب العلمي فيه، عن طريق تتبع نقاط التقاطع بينهما إلى غاية التقائهما فيما بعد البنيوية، أين سقطت العلمية وتحولت قراءة النصوص الأدبية من المعنى الأحادي إلى تعدد الدلالات.

1. المنهج في القرن التاسع عشر بين النقد العلمي والهرمينوطيقا

1.1 النقد الأدبي في القرن التاسع عشر

حقق المنهج التجريبي في القرن التاسع عشر إنجازات كبيرة، مما شجع الدراسة النقدية على مسايرة الازدهار العلمي الحاصل في العلوم الطبيعية، فظهر ما يسمى بالنقد العلمي للأدب، من رواده: سانت بيف (1804- 1869) Charles Augustin Sainte-Beuve ، هيبوليت تين) 1828- 1893) Hippolyte Taine ، فرديناند برونتيير (1849 – 1906) Ferdinand Brunetière

أما سانت بيف فقد "اتخذ طريقة في النقد تقوم على تتبع حياة الكاتب الشخصية والعائلية وتلاميذه وأصدقائه وأعدائه محاولا الكشف عن ذوقه وآرائه، فجاء نقده تصويرا لشخصية الكاتب واستطاع بيف بفضل جمعه بين العلم والفن، وبين المعرفة والحس، أو الذوق، في النقد أن يصور شخصيات الكتاب الذي تناولهم دون أن تطغى التفاصيل على الصورة العامة."[1] في حين أن تلميذه هيبوليت تين درس الأدب وفق مرجعية الجنس، والعصر، والبيئة، و"يقصد بالجنس العنصر (السلالة) المتمثلة في مجموعة الصفات التي يرثها الشخص أو الأديب من أمته فتمنحه خواصها، كأن يكون عربيا أو جرمانيا أو غير ذلك. ويعني بالبيئة (المكان) الذي يمنح الفرد مجموعة من الخصائص أو المميزات الجغرافية التي يعيش في ظلها وتترك بصماتها عليه. أما العصر فيقصد به (الزمان) وما يحدث فيه من علاقات اجتماعية أو ظروف سياسية أو حروب أو عوامل ثقافية ودينية أو تيارات سياسية."[2]

في حين أن برونتيير استقى جهازه المفاهيمي من نظرية النشوء والتطور"فقد لاحظ أن التطور في حقل الظواهر الأدبية كثيرا ما يؤدي إلى بزوغ نوع جديد تتضح فيه بقايا نوع سابق على النحو الذي تتطور فيه الكائنات العضوية في (نظرية داروين) من حيث إنها تنشأ بسيطة ثم ما تلبث أن تتعقد متفرعة إلى أجناس ثم يعتورها التطور والاكتمال فالتدهور فالتحلل."[3]

كان هدف هؤلاء النقاد الوصول إلى الموضوعية في دراسة الأدب، ورأوا بأنها لا تخرج عن إطار المؤلف وما يحيط به نفسيا وتاريخيا واجتماعيا، وخاصة عند كل من سانت بيف وهيبوليت تين، على خلاف ما نجده عند برونتيير الذي رأى بأنه "من بين كل المؤثرات التي تؤثر في تاريخ أدب ما، فإن المؤثر الأساسي هو أثر أعمال أدبية على أعمال أخرى."[4] وبهذا يخفف برونتيير من الاهتمام بخارج النص، ليؤكد على أهمية تفاعل النصوص فيما بينهما.

إذن، سعى النقاد في القرن التاسع عشر إلى بناء نقد أدبي على أساس علمي، حتى يكون مشابها للعلوم الطبيعية، بغض النظر عن الاختلافات بين المجالين، وهذا ما تفطن له دلثاي في مجال الهرمينوطيقا.

2.1الهرمينوطيقا في القرن التاسع عشر

في الوقت الذي بدأ فيه النقد الأدبي بالبحث عن المنهج المناسب للأدب، كانت الهرمينوطيقا هي الأخرى تبحث عن أنجع السبل لفهم وتأويل النصوص، وليس النصوص الدينية فقط؛ فقد تطورت على يد شلاير ماخر Friedrich Daniel Ernst (1768–1834)

Schleiermacher الذي أخرجها من الإطار المحدود للدراسات الدينية لتشمل النصوص الفلسفية والقانونية والأدبية. كما أنها على يده تجاوزت مرحلة قراءة نصوص معينة إلى البحث في عملية الفهم ككل، فأهم ما قدمه للهرمينوطيقا يكمن "في تجاوزه تفسير النصوص الفعلية والبحث عن معناها، ليسلط الضوء على «عملية الفهم» في حد ذاتها وعلى الشروط الضرورية لمقاربة النصوص وتفسيرها. على يد شلاير ماخر إذن تخلت الهرمينوطيقا عن مهمتها الأولية المتمثلة في متابعة المعنى لتصب جل اهتمامها على وضع القوانين والمعايير التي تضمن «الفهم المناسب» للنصوص أيا كانت هذه النصوص في تحققها الملموس."[5]

هذه الرغبة الملحة في وضع قوانين للتأويل من شلاير ماخر تتصل بمفهومه عن الهرمينوطيقا، التي يرى بأنها "فن تجنب سوء الفهم."[6] بوصف المؤول معرضا للفهم الخاطئ أكثر من الفهم الصحيح بسبب قدم النصوص، لذا عمد إلى وضع قوانين تمنع الوقوع في سوء الفهم؛ فميز بين صنفين من التأويل: "الأول ويسميه بالتأويل النحوي أو الموضوعي الذي يستند إلى الخصائص العامة للخطاب في ثقافة ما ويهتم بخصائص لغوية متميزة عن المؤلف ومستقلة عنه. والثاني وهو ما يسميه بالتأويل النفسي أو التقني، ويهتم بالطابع الفردي، بل العبقري للرسالة التي يريد الكاتب إبلاغها."[7] وتميز عمل شلاير ماخر في أنه اصطلح للهرمينوطيقا مفهوما محوريا هو «الفهم»؛ حيث أضحى هو جوهر العملية التأويلية بالبحث عن قوانينه وقواعده. وهو الأمر الذي فعلته البنيوية فيما بعد في القرن العشرين حين تخلت عن قراءة النصوص النوعية لصالح البحث عن النسق العام لها.

وإذا كان النقد العلمي في القرن التاسع عشر لم يفرق بين مجالي العلوم الطبيعية والأدب وحاول تطبيق مناهج الأولى على الثانية، فإن دلثاي (1833– 1911) Wilhelm-Diltheyاستمر بعد شلاير ماخر بالبحث عن قوانين وقواعد التأويل، إلا أنه طمح إلى جعل الهرمينوطيقا منهجا للعلوم الإنسانية من خلال التمييز بين العلوم الإنسانية والعلوم الوضعية، فقد كان أكثر وعيا من النقاد العلميين بطبيعة مشكلة العلوم الإنسانية، حيث نفى إمكانية تطبيق منهج إحداهما على الأخرى؛ فالعلوم الوضعية تحتاج إلى التفسير، أما العلوم الإنسانية فهي التي تحتاج إلى التأويل والفهم.[8] فهو يرى أن "الفهم، بما أنه المنهج العلمي المناسب لعلوم الفكر، يستجيب لما هو باطني عبر مسار تأويلي يستند إلى علامات خارجية، خلاف التفسير، كمنهج علمي مناسب للعلوم الصحيحة، الذي يعنى بما هو مادي خارجي."[9] والمنهج الجديد الذي أراد به دلثاي منح الاستقلالية للعلوم الإنسانية يقوم على الفهم، وهذا الفهم يقوم على استعادة تجربة المؤلف، على اعتبار أنه صاحب الحقيقة العليا، فقمة الفهم تحدث عندما يتحد القارئ مع المؤلف، فالفهم بالنسبة له هو محاولة " تحقيق تطابقه مع باطن المؤلف والتوافق معه وإعادة إنتاج العملية المبدعة التي ولدت النتاج أو الأثر الإبداعي."[10]

2. علمية المنهج في القرن العشرين بين البنيوية والهرمينوطيقا

1.2البنيوية والنسق

جاءت البنيوية تتويجا لجهود دوسوسير(1857– 1913) Ferdinand de Saussure في إضفاء الطابع العلمي على الدراسات اللغوية، وجهود الشكلانيين الروس في تأسيس علم للأدب، وجهود النقد الجديد في التحلي بالموضوعية في قراءة النصوص الإبداعية، وقد أدت كل هذه العوامل إلى ظهور البنيوية الأدبية التي كان شغلها الشاغل النسق والنظام، وقد كانت "البنيوية تسعى إذن إلى تأسيس مثال أو أنموذج «نظام» الأدب نفسه على أنه هو المرجع الخارجي للأعمال الفردية. وما محاولتها دراسة وتحديد مبدأ البنية التي تنتظم الأعمال الأدبية عموما (وليس العمل الفردي) والعلاقات القائمة بين مختلف فروع الحقل الأدبي، ما هذه المحاولة إلا محاولة تأسيس منهجية علمية لدراسة الأدب."[11] ويرى عبد العزيز حمودة[12] أن البنيويين "بارتدائهم مسوح العلم [يحاولون] في الواقع تبني المنهج العلمي القائم على أن يبدؤوا من التجربة الفردية داخل المعمل، للوصول إلى قوانين عامة ليعاد بعد ذلك تطبيقها على الحالات الفردية المماثلة. هذا ما يفعله العلم، وهذا ما يريد البنيويون تحقيقه، فهم يريدون عن طريق تحليل البنى الصغيرة داخل قصيدة ما الوصول إلى بنى تحكم علاقات القصيدة، ثم إلى بنى كلية يمكن تطبيقها على قصائد أخرى."[13]

وتدعو البنيوية إلى دراسة النص الأدبي في ذاته بعيدا عن كل المؤثرات الخارجية ، وهذه الدراسة الداخلية للنص ترتكز على اللغة ، فالحقيقة الوحيدة التي تعترف بها البنيوية هي أن النص الأدبي نص لغوي ، وليس إنتاج أديب ذي نفسية مميزة عاش في زمن ومجتمع محددين ؛ فهي تحلل النص في إطار بنيته اللغوية ، وتؤكد على العلاقات بين عناصره الداخلية. وارتكاز البنيوية على اللغة كان انطلاقا من لسانيات دوسوسير الذي هجر الدراسات اللغوية التاريخية ، وراح يضطلع بالدراسات الوصفية ، فاغتنى الدرس اللغوي الحديث بثائيات جديدة من طراز (اللغة والكلام) ، (الدال والمدلول) ، (الوصفية والتاريخية) وغيرها من الرؤى اللسانية التي شكلت المهد الفكري للمنهج البنيوي الذي ترعرع بعد ذلك في أحضان الفكر الشكلاني.[14]

فالعلمية والموضوعية والنسق كلها مفاهيم طبعت المنهج البنيوي ، لتكون البنيوية أوج ما وصل إليه النقد من علمية منذ القرن التاسع عشر ، لكن هذه العلمية سرعان ما تعرضت للمساءلة والتشكيك مع مقاربات ما بعد الحداثة.

2.2الهرمينوطيقا واللامنهج

في القرن العشرين كانت البنيوية والعلمية والمنهج والنسق والنظام أفكارا رائجة في فرنسا وقبلها في روسيا مع الشكلانيين ، وحتى في أمريكا وإنجلترا مع النقد الجديد ؛ حيث تفشت فكرة المحايثة والموضوعية في اللسانيات وبعدها في النقد الأدبي ، في ذلك الوقت كانت الفلسفة الألمانية ممثلة في غادامير (1900-2002) Hans-Georg Gadamerتسدد أولى الضربات القاضية على المنهج.

ويُعد غادامير الفيلسوف الألماني الذي بعث الدراسات الهرمينوطيقية من جديد ، ومنح لها صبغة جدلية. وتميز غادامير عن سابقيه من الهرمينوطيقيين في أنه سعى إلى تجاوز رحلة البحث عن «المنهج» ، بعد أن أدرك أن تشييد منهج قادر على الوصول إلى الفهم الحقيقي أثناء عملية تأويل النصوص أمر مستبعد ، فـ"لا يزعم غادامير أن هرمينوطيقيته تسعى إلى تأسيس أعراف التأويل الحق ، بل إنها محاولة وصف الكيفية التي بها نحقق فهم النصوص. كما أنها تنكر القول بإمكانية تحديد المعنى الثابت عبر العصور والأزمان بما أن المعنى عنده يبرز نتيجة محاورة تداخلية بين النص والقارئ في زمن محدد وحسب أفق شخصي معين وخاص. فالمعنى يظل نسبيا لاعتماده على خصوصية أفق القارئ الفرد وزمانيته ومكانيته."[15] فكان منطلقه الفلسفي التأويلي تحطيم فكرة المنهج والموضوعية ، فهناك نص ومؤول ، والفهم لا يخرج عن التحاور الثنائي الفعال بينهما.

فالمنهج العلمي الذي تأسست عليه العلوم الطبيعية وتلهث وراءه العلوم الإنسانية من منظور غادامير مجرد وهم ؛ ففي كتابه «حقيقة و منهج» الصادر سنة 1960 سعى إلى تحطيم فكرة الموضوعية ، فقد أوضح "بقول فصل لا يدع مجالا للشك قصور مناهج العلوم الصحيحة ، وعجزها في أن تكون إبدالا منهجيا في مجال علوم الفكر ، لا لشيء إلا لأن فهم وتأويل النصوص مهمة لا تضطلع بها المنهجية العلمية ، بقدر ما هي ، في الحقيقة ، من المهام التي ينهض بها الإنسان عبر تجربته العامة في هذا العالم ، كما أن طبيعة التجربة في العلوم الإنسانية ، بوصفها ذات طبيعة فنية ، بالدرجة الأولى ، فإنه يصبح ، في حكم المتعذر ، تسليط أدوات المنهجية العلمية عليها."[16] فقد أكد على قول دلثاي بضرورة الفصل بين العلوم الإنسانية والعلوم الوضعية ، لكنه تجاوز أبحاثه في أنه نفى إمكانية تأسيس منهج مؤدي إلى حقيقة النص.

فالقول بضرورة التوجه العلمي والموضوعي يعني عدم تدخل المؤول وأفكاره المسبقة ومفاهيمه الخاصة ، الأمر الذي يرى غادامير بأنه غير ممكن التحقق ؛ وبالتالي فهو يعيد للذات مكانتها من خلال الإقرار بدورها الفعال في عملية التأويل. فحتى لو تظاهرت هذه الذات بالموضوعية ، إلا أن تلك النوازع والأهواء ستظل تعمل في الخفاء ، لذا من الواجب ومن المستحسن الاعتراف بوجودها ؛ فبدلا من الإقصاء الوهمي للذات والدعوة إلى استبعادها في مهمة فاشلة ، لابد من الاعتراف بوجودها وبفروضها المسبقة حتى يُتمكن من تصحيحها ومراقبتها.[17] ومثلما دعا غادامير إلى ضرورة الاعتراف بتأثير الأفكار المسبقة للذات أثناء التأويل ، فهو يؤكد أيضا على ضرورة الاعتراف بوجودها التاريخي ، وهو ما تجاهلته فلسفات التأويل السابقة وحتى النقد الأدبي حين طالبوا المؤول/الناقد بالعودة إلى تجربة المؤلف الأولى ؛ فغادامير يصوغ "مفهومه عن الوعي المعرض لفعل التاريخ وآثاره ، والذي يعني أننا معرضون لتحديد التاريخ وتأثيره فينا بشكل لا نستطيع معه موضعة فعله فينا ، ومرجع ذلك أننا مندرجون

في سيرورته ومندمجون في حركيته بشكل يمتنع فيه علينا استثناء أنفسنا من هذا الفعل أو الانفصال عنه بصورة نتمكن معها من النظر إلى ماضينا كموضوع مستقل عنا."[18] فالمؤول/الناقد ليس بإمكانه أن يتنازل عن وضعيته التاريخية وهو يؤول نصوص الماضي، وبهذا فإن استخلاص المعنى لا يكون عن طريق خروج الذات من زمنها وتوغلها في زمن آخر، وإنما عن طريق المشاركة المثمرة بين زمنها من جهة وزمن النص من جهة أخرى، فالمعنى لا ينتمي إلى الماضي (زمن النص)، وليس منفصلا عن الحاضر(زمن المؤول)، وإنما هو نتاج تفاعل بينهما، وهو ما اصطلح عليه بانصهار الآفاق: أفق الحاضر (أفق المؤول) وأفق الماضي (أفق النص).[19] وبهذا يكون غادامير قد وجه أولى الضربات للمنهج والعلمية والحقيقة في العلوم الإنسانية، الأمر الذي سيكون له بالغ الأثر في عمليات قراءة النصوص (على وجه الدقة النصوص الأدبية) مع مناهج ومقاربات ما بعد الحداثة.

3. ما بعد العلمية ومظاهر تأثير الهرمينوطيقا في النقد الأدبي ما بعد الحداثي

بعد تقهقر البنيوية ظهر تأثير الهرمينوطيقا على النقد، فوجدت في الأدب أحسن النصوص لتطبق مفاهيمها. وقد تأثر النقد الأدبي ما بعد الحداثي بالفلسفة الهرمينوطيقية في أوجه عدة؛ بعضها مباشر، كتأثير أعلام الهرمينوطيقا (غادامير وهيدغر (1889- 1976) Martin Heidegger) في جماليات التلقي وإستراتيجية التفكيك، أو بطريقة غير مباشرة؛ وهو الجو العام الذي ازدهرت فيه الفلسفة الهرمينوطيقية والذي كان موازيا لسيطرة العلمية على الساحة الفكرية والنقدية، فما لبثت أن جاءت مرحلة الشك في كفاءة المنهج العلمي وقدرته على بلوغ الحقيقة، وقد كانت الهرمينوطيقا — مع غادامير - من أشد الدعاة إلى التخلي عن الموضوعية.

ويمكن أن نرصد مظهرين للتشابك بين الدراسات النقدية ما بعد الحداثية والهرمينوطيقا من خلال إسقاط صنمين هما:

1.3إسقاط صنم العلمية والمنهج والموضوعية

ظهر الاتجاه العلمي في النقد الأدبي مع الشكلانيين الروس، غير أنه تجسد في أبهى حلة له مع البنيوية، هذه الأخيرة التي كانت تتغنى بإنجازات العلم في العلوم الطبيعية، فجاء قيامها كمنهج نقدي ردا على الدونية التي لطالما وصمت بها العلوم الإنسانية عامة والنقد الأدبي على وجه الخصوص. فقد رأت أن السبيل للخروج من نفق الانطباعية وتحكم الدراسات الخارج نصية (علم التاريخ، علم النفس، وعلم الاجتماع) في الأدب هو تطبيق المنهج العلمي في أن يدرس الإبداع الأدبي بذاته ولذاته. غير أن صنم العلمية والمنهج ما لبث أن تحطم، وتحولت الدراسات النقدية إلى الاهتمام بالذات/القارئ، ومن ثم ابتعادها عن الموضوعية المدعاة، من خلال إشراك القارئ في عملية الفهم والتأويل، لأن تلك الصرامة العلمية أدت بالنص الإبداعي إلى الانغلاق على ذاته، وحولته إلى خطاطة تجريدية أبعد ما تكون عن الأدبية.

ويُؤرَخ لانقلاب الدراسات النقدية على الموضوعية والعلمية بإستراتيجية التفكيك أثناء محاضرة لدريدا (1930- 2004) Jacques Derridaعام 1966 بعنوان: «البنية والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية»[20]؛ فالتفكيك بوصفه أبرز معالم ما بعد الحداثة لا يدعي التأسس على منهج، ولا يطمح إلى وضع قوانين، وإنما ينعت نفسه بمجرد إستراتيجية أو مشروع؛ "فليس التفكيك منهجا، كما أنه ليس نظرية عن الأدب، ولكنه إستراتيجية في القراءة: قراءة الخطابات الفلسفية والأدبية والنقدية، من خلال التموضع في داخل تلك الخطابات، وتقويضها من داخلها، من خلال توجيه الأسئلة وطرحها عليها من الداخل."[21] ويظهر تأثر التفكيك بالهرمينوطيقا في أن هدم دريدا للميثافيزيقا كان استكمالا لمشروع هيدغر الذي يعترف له بالفضل، يقول دريدا في إحدى حواراته: "إن ديني لهيدغر من الكبر بحيث أنه سيصعب أن نقوم هنا بجرده والتحدث عنه بمفردات تقييمية أو كمية.. إنه هو من قرع نواقيس نهاية الميثافيزيقا وعلمنا أن نسلك معها سلوكا استراتيجيا يقوم على التموضع داخل الظاهرة وتوجيه ضربات متوالية لها من الداخل."[22]

ويعود إنكار وجود المنهج والموضوعية في عملية تأويل النصوص إلى غادامير الذي نفى إمكانية إنشاء منهج

قادر على الوصول إلى حقيقة النص، حين نوه إلى دور الفروض المسبقة والنوازع والأهواء المتصلة بالمؤول في تحديد الدلالة، وهو ما يتعارض مع التوجه العلمي. وليس التفكيك فقط من تخلى عن الصرامة المنهجية، فحتى جماليات التلقي وباقي تفرعات الدراسات الثقافية (النقد الثقافي، التاريخية الجديدة، النظرية ما بعد الكولونيالية)، تبتعد عن كونها مناهج مضبوطة لأنها لا تقوم على أسس محددة، ولا تعرض على الناقد مجموعة من الأدوات الإجرائية المكتملة الصيغة تمكنه من الوصول إلى قراءة شافية للنص. كما أن القول بتعدد التأويلات –الذي يطبع النقد ما بعد البنيوي- يتنافي هو الآخر مع مفهوم (المنهج)[23]، كون هذا الأخير يهدف إلى تحقيق قراءة موحدة صحيحة، وليس قراءات متعددة متباينة.

2.3إسقاط صنم المؤلف

أُعلِن نعي المؤلف على يد البنيوية انطلاقا من العلمية، أما ما بعد الحداثة فقد أعلنت وفاته انطلاقا من انتزاع السلطة من بين يديه ووضعها بين يدي القارئ. إلا أن الإرهاصات الأولى لموت المؤلف ترجع إلى هيدغر الذي منح اللغة (لغة الشعر) سطوة جعلتها تتفوق على الناطق بها، فالإنسان لا يتكلم اللغة، بل اللغة هي التي تتكلم من خلاله، وعليه، فالمؤلف "وإن يكن له دور، فهو لا يتجاوز دور الوسيط بين اللغة والعالم، من خلال فعل الإنصات الذي يتحول إلى أداة يتشكل كلمة أو عبارة قالها الوجود فحملها الإنسان بعد ذلك في ما يبدع، لا بوصفها خلقا على غير مثال أو صنعة ذاتية يفضل بها غيره، بل حسبه، إن كان له فضل، أن حظي بهذه الكرامة، كرامة تكشف العالم وتجليه له، من خلال اللغة، لينقله، جماليا في شكل رموز فنية، إلى عمله الإبداعي، فينتسب إليه نقلا وعبورا، لا إبداعا أو أصلا."[24] وهنا يمكن القول أن هيدغر قد "مهد لفكرة «موت المؤلف» التي أعلن عنها بارت(1915–1980) Roland Barthes في ما بعد، وأقيم عليها صرح المشروع البنيوي."[25] هذا الأخير الذي صرح في إحدى مقالاته بموت المؤلف، في حين بشر بميلاد القارئ[26].

من جهة أخرى فإن غادامير من بعد هيدغر عزز فكرة انتفاء قصد المؤلف، عندما أكد على أن الفهم لا يكون بالعودة للوراء إلى ذلك الزمن الذي ولد فيه النص، وإلى الحياة الأصلية للمؤلف، وللقارئ الأول، مثلما ذهب إلى ذلك شلاير ماخر ودلثاي؛ فالفهم هو نتاج انصهار أفق القارئ وأفق النص. كما أن النص - بالنسبة لغادامير- ينفصل ويتحرر عن مؤلفه بواسطة الكتابة، فيصبح حاملا لحقيقته، وهذا ما يدعوه إلى عدم اعتبار الفهم جزءا من فهم حياة المؤلف وعواطفه.[27]

كل هذه التمهيدات الهرمينوطيقية لموت المؤلف لاقت صداها عند تأويل النص الأدبي في النقد ما بعد الحداثي؛ حيث تحول التأويل من عملية يقوم بها القارئ انطلاقا من المؤلف، إلى ممارسة يقوم بها انطلاقا من ذاته. والمؤلف في الفلسفة الهرمينوطيقية بدءا من هيدغر لم يعد يصنع ويحدد معنى النص، فمهمته هي إنتاجه ومن ثم الإلقاء به إلى القارئ، فإذا كان المؤلف قد وكل بمهمة تجميع اللغة وإعادة إنتاجها بكيفية أدبية إبداعية، فإن مهمة الفهم وتعيين الدلالات هي من صميم شغل القارئ.

4. إشكاليات قراءة النص الأدبي فيما بعد العلمية

بعد سقوط العلمية فيما بعد الحداثة، كيف قرئ النص الأدبي؟

النص المفتوح هو الشعار الذي تبنته مقاربات ما بعد الحداثة، هو ذلك النص الذي لا تنهيه قراءة واحدة، وإنما بقدر ما يزيد عدد قرائه بقدر ما تتعدد تأويلاته؛ بحيث يطمر تحت البنيه اللغوية السطحية دلالات لا تنفتح إلا بعد عمليات حفرية عميقة يقوم القارئ بها. هو ذلك النص الذي يجادل القارئ ويصارعه، فيكشف له عن بعض ما يختزنه من معان، ويحجب عنه أخرى ليتركها لقارئ آخر. وقد جاء هذا المفهوم الجديد للنص الأدبي بوصفه نقيضا للنص المغلق على ذاته الذي شكلته المرحلة الحداثية المقدسة للعلمية، ذلك النص الذي يملك بنية واحدة يشترك فيها مع نصوص أخرى من بني جنسه.

ومن هنا انقسم تأويل/تفسير/قراءة النص الأدبي في النقد ما بعد الحداثي إلى اتجاهين: فهناك من يدعو إلى تعدد التأويلات إلى ما لا نهاية دون قيد أو شرط، تماشيا مع المرحلة الجديدة المناهضة للعلمية والموضوعية، وفي المقابل هناك **من** يرفض هذا التطرف القرائي ويدعو إلى ضرورة ضبط عملية التأويل والوقوف على حدود لها.

1.4لا نهائية التأويل

يتزعم التفكيك الاتجاه الداعي إلى لا نهائية التأويل ؛ فقد جاء ليحطم فكرة البنية المتعالية الصلبة التي صنعتها البنيوية ، فهو لا يصف نفسه كمنهج وينكر وهم الموضوعية التي تصبو إلى الوصول إلى حقيقة النصوص ومعناها النهائي ، على الرغم من أن "مهمة إستراتيجية التفكيك هي قراءة النصوص ، وفعاليتها الرئيسة هي فعالية القراءة ، وليس التأويل كما هو في الهرمينوطيقا وليس التحليل كما هو في السيميولوجيا. "[28] غير أن ممارسة التفكيك وإن كانت تسمى قراءة ، وممارسة الهرمينوطيقا وإن كانت تسمى تأويلا ، فإن الذي يجمعهما هو الاهتمام المشترك بالدلالات ، والدعوة إلى تعددها ، والتأكيد على الدور الفعال للذات في التأويل.

فالتفكيك هو تأويل لكنه ليس تأويلا بالمعنى المسالم الذي يبحث عن الدلالات الممكنة للنص ، وإنما هو "نبش للأصول وتعرية للأسس وفضح للبداهات. ومن هنا يشكل التفكيك إستراتيجية الذين يريدون التحرر من سلطة النصوص وإمبريالية المعنى وديكتاتورية الحقيقة."[29] بحيث تضطلع مهمة التفكيك بزعزعة تماسك النصوص ، ونقد الخطابات التي تدعي أنها محمية من المساءلة ، والتفتيش عن فجواتها الدلالية ، والبحث داخلها عن الآخر ، المستور ، المحتجب ، المسكوت عنه الذي لم تسمح له البنية السطحية المتمركزة حول ذاتها بالظهور ، فلم يعد في التفكيك حقيقة أو معنى نهائي ؛ فهو "قراءة مزدوجة تسعى إلى دراسة النص (مهما كان) دراسة تقليدية أولا لإثبات معانيه الصريحة ، ثم تسعى إلى تقويض ما تصل إليه من نتائج في قراءة معاكسة تعتمد على ما ينطوي عليه النص من معان تتناقض مع ما يصرح له. تهدف القراءة [التفكيكية] من هذه القراءة إلى إيجاد شرخ بين ما يصرح به النص وما يخفيه(بين ما يقوله صراحة وبين ما يقوله من غير تصريح)."[30] فرغم أن هدف التفكيك هو البحث عن التناقضات المخبوءة في النصوص ، وتقويض بناها ، والكشف عن زيف التماسك الذي تتظاهر به بنيتها ، فإنه لا يسلم من عملية تأويلية يمارسها القارئ على النص ، الأمر الذي "يجعل [النص من خلالها] ينبعث من جديد وكأنه ولد لتوه ، إذ النص هو من يملك قرار نفسه ، يبدي ما يشاء ويخفي ما يشاء ، فتتعدد ، إذ ذاك ، القراءات والتأويلات ، وتتداخل النصوص مشكلة نص جامعا يلم شتاتها هو «نص التأويل»."[31]

ومن هنا فالتأويل في إستراتيجية التفكيك يتأسس على القول أن كل تأويل هو تأويل مغلوط ، وكل قراءة هي إساءة قراءة ، فلا وجود لمعنى محدد كامن في النص يجب الكشف عنه ، كما أنه لا حد ولا نهاية لسيرورة التأويل. ويرجع التفكيكيون هذا التأويل اللا نهائي إلى عدم إمكانية بناء دلالة قصدية ، فيؤدي بالنص إلى أن يحيل على نص آخر ، ومن هنا تتمثل مهمة التأويل في تفكيك الخطاب والكشف عن شروخاته وتناقضاته.[32] فالنص يمتلك تأويلات لا نهائية ، وكلها متساوية من ناحية الصحة والخطأ ، لأنه لا وجود لمعنى نهائي متعال يمكننا استنادا عليه أن نقيّم باقي التأويلات.[33] وهو الأمر "الذي جعل الفكر التفكيكي يخلص إلى أن النص يمكنه أن يقول «أي شيء» ، وأنه لن يستطيع أن «يراقب» هذا الانزلاق المستمر في المعنى أو يتحكم فيه ، لأنه ليس هناك أصلا «أي معنى» ، بل ومادام معنى النص ليس إلا «معنى فارغا» فلن يكون بإمكانه (أو بإمكان أي أحد) أن يفند معنى معينا ويقر معنى آخر."[34] فالتأويلات في إستراتيجية التفكيك متعددة ، لا نهائية ، فليست هناك حقيقة كامنة في النص تسعى القراءة التفكيكية للوصول إليها ، فحسب القارئ أن يقدم قراءة للنص هي على الأغلب قراءة خاطئة ، فكل التأويلات متساوية ، ولا نستطيع أن نميز بين الصحيح والمغلوط منها ، لأن النص لا يمتلك معنى مرجعيا يمكننا أن نحتكم إليه.

2.4ضبط الممارسة التأويلية

هل تعني موضوعية التأويل وضبط مساراته العودة إلى المعنى الأحادي؟ قطعا لا ، إن تعدد التأويلات من أهم المكاسب التي نالها النص فيما بعد الحداثة ، فرغم تعدد الاتجاهات الفكرية المهتمة بالنص والخطاب عامة ، إلا أنها تشترك في أمرين ، أولهما: انقطاع الحبل السري بين النص والمؤلف ؛ فتأويل النص لم يعد له صلة به ، وثانيهما: الابتعاد عن النظرة الدوغمائية للنص ، التي ترى أنه يمتلك معنى واحدا متعاليا ، والإقرار بأن تعدد التأويلات حقه المشروع.

وهل هذا الاتجاه يدعو إلى العودة إلى العلمية؟ في الحقيقة هو لا يدعو للعودة إلى العلمية وإنما يطالب ببعض من الموضوعية.

إذن هذا الاتجاه الثاني ينظر إلى التأويل كنشاط حر، لكن دون الانعزال به عن عمران الموضوعية، ونجد هنا بول ريكور (1913-2005) Paul Ricœurانطلاقا من الفلسفة الهرمينوطيقية في دعوته إلى استثمار مقولات البنيوية للتخفيف من الذاتية، وإمبرثو إيكو (1932–2016) Umberto Ecoممثلا للسيميائية في اتجاهها التأويلي، الذي وإن كان يبارك تعدد التأويلات، إلا أنه يرفض السماح لها بالانجراف دون قيد أو ضابط.

1.2.4بول ريكور

بالرغم من سقوط البنيوية بمجيء مناهج معاكسة لها، إلا أن الإرث البنيوي ظل يلقي سحره عليها، ومن هنا ظهر بول ريكور كمفكر هرمينوطيقي أبى إلا أن يستثمر مقولات البنيوية لتأسيس تأويل قائم على الموضوعية.

يسائل ريكور البنيوية والهرمينوطيقا على حد سواء، فهو من جهة "يرفض الفهم البنيوي للغة على أساس أنها نظام مغلق من العلاقات لا يدل على شيء خارجه. لقد انتهت البنيوية – فيما يرى ريكور – إلى أن جعلت اللغة تؤسس عالما بذاتها، عالما تشير فيه كل وحدة إلى وحدات أخرى داخل النظام طبقا للتفاعل بين التعارضات والخلافات المؤسسة للنظام."[35] ومن جهة أخرى "يحاول إقامة الهرمينوطيقا علما لتفسير النصوص يعتمد على منهج موضوعي صلب، يتجاوز عدم الموضوعية التي أكدها غادامير."[36] وبول ريكور على وعي بهذا الاختلاف الواقع بين موضوعية البنيوية، وذاتية الهرمينوطيقا؛ حيث أن "البنيوية بوصفها مدعية للموضوعية العلمية، ترمي إلى الإبعاد، إلى الموضعة، إلى إقصاء الذاتية من منهجها. أما الهرمينوطيقا فهي في المقابل تؤكد موقعية الملاحظ وضرورة اعتبار التصورات المسبقة التي لا مناص منها."[37] ومن هنا فهو لا يرى "أنه من الممكن أن نجاور بين [هاتين] الطريقتين من الفهم. بيد أن القضية تكمن في جعلهما متسلسلتين."[38] فريكور في مسعاه التأويلي يصبو إلى تجاوز المأزق الدلالي الذي وقعت فيه البنيوية، والمأزق المنهجي الذي وقعت فيه الهرمينوطيقا، فكلاهما منفردا قاصر عن الوصول إلى الفهم، فشبكة العلاقات الداخلية التي ترصدها البنيوية بحاجة إلى تفسير حتى لا يبقى التحليل مجردا مفرغا "وذلك أن طريقة الفهم البنيوي لا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة دون درجة دنيا من الفهم التأويلي، بما أن التأويل متضمن أو متخف باستمرار في حقل المعنى الذي يؤسس علاقات التشابه والتناظر البنيوية."[39] ومن جهة أخرى، فإن "التأويلية يجب أن لا تستبعد مرحلة الفهم الموضوعي البنيوي، وإنما فحسب أن تضعها في حدودها الطبيعية أي كمرحلة في طريق الفهم والتأويل."[40]

وهكذا، فقد اشتغل ريكور على الرمز في النصوص ذات الطبيعة اللغوية بوصفها رموزا دالة يمكن الوثوق بها، فالنصوص تحمل معان باطنية يعبر عنها برموز تحمل معان مباشرة، وتحليل تلك الرموز هي الوسيلة الوحيدة الموصلة إلى المعاني الحرفية ومن ثم المعاني المخبوءة.[41] والرمز عند بول ريكور هو "كل بنية دالة، يشير فيها المعنى المباشر، والأولي، والحرفي، فضلا عن نفسه إلى معنى آخر غير مباشر، وثانوي، ومجازي، ولا يمكن أن يفهم إلا من خلال المعنى الأول."[42] وبهذا يعطي ريكور للتأويل آلية منهجية إجرائية مشيدة على محطتين: الأولى تحلل البنية السطحية والثانية تغوص في البنية العميقة، "وتصبح مهمة المفسر هي النفاذ إلى عالم النص وحل مستويات المعنى الكامن فيه، الظاهر والباطن، الحرفي والمجازي، المباشر وغير المباشر."[43] ومن هنا فالممارسة التأويلية عند ريكور تبدأ بالاهتمام بالتفسير الذي يرتبط بالجانب اللغوي البنيوي؛ فلم يعد هناك متعارض بين التفسير والتأويل لأنه أضحى هو الآخر من صميم اشتغال اللغة والبنيوية وبالتالي العلوم الإنسانية، بوصفه المرحلة السابقة على التأويل، ولم يعد معبرا عن العلوم الوضعية فحسب مثلما قال بذلك دلثاي.[44] فالنص بناء على ما يريد ريكور أن يصوغه يفسر أولا بدراسة علاقاته الداخلية بكيفية بنيوية، غير أن مرحلة التفسير الأولية الخاصة بالمعنى الظاهر لابد أن تتبع بمرحلة التأويل، التي تكشف عن المعنى الثاني المجازي وغير المباشر، عن طريق منح دلالات لتلك العلاقات البنيوية السطحية، وإلا كانت عديمة الجدوى، فيقع هنا التكامل بين التفسير الموضوعي والتأويل.[45]

هذا الجمع بين الدراسة اللغوية والممارسة التأويلية يضمن للنص الانفتاح على تعدد التأويلات، لكن في الوقت

ذاته الاتكاء على عدة منهجيات مستنبطة من تحليل شبكة العلاقات النصية الداخلية.

2.2.4التأويل من المنظور السيميائي

يندرج مشروع إمبرثو إيكو في الجهة المناهضة للتفكيك والبراغماتية ولكل مشروع يسحب البساط من تحت النص، فهو "أحد الباحثين الذين أولوا أهمية للممارس التأويلية ضمن مشروعه السيميائي، وهو كغيره من أعلام التأويل يبحث عن إيجاد إجراءات تعصم المؤول والعملية التأويلية من الإفراط الذي يجعل النص مسرحا لمختلف صنوف التجارب، وهو الأمر الذي دفعه إلى وضع مقاييس موضوعية تمكن الباحث من تمييز التأويلات المناسبة من غير المناسبة والخاطئة."[46] كما أنه من المدافعين عن سلطة النصوص، حيث كرس جهدا واضحا في مؤلفاته للدفاع عن حدود التأويل وضبط مساراته.

تظهر حدود التأويل التي رسمها إيكو من خلال التركيز على فكرة جوهرية هي قصدية النص عن طريق "إخضاع هذه القصدية لسلطة النص باعتباره كلا منسجما."[47] تبدأ القصدية بالوثوق بأن النص ذو دلالة وانسجام على النقيض مما يذهب إليه التفكيك الذي يرى أن المعنى يسير نحو التفكك والتناقض والهدم، فالانسجام بين عناصر النص هو الذي يوجه القارئ ويحد من التأويلات المغلوطة التي قد يطلقها عليه. وتتبدى قصدية النص من خلال مقولة للقديس أغسطين: "إن كل تأويل يعطى لجزئية نصية ما يجب أن يثبته جزء آخر من النص نفسه، وإلا فإن التأويل لا قيمة له."[48] كما أن النص يخلق حقلا "يثير إيحاءات معينة وينشطها ويؤكدها ويدعمها، ويعطل الإيحاءات الأخرى ويبين أنها غير ممكنة."[49] فكل حكم يطلق على دلالة ما يجب أن يجد أساسه اللغوي في النص وأن يعزز من طرف عناصر داعمة، أو على الأقل ألا يقع في تناقض مع عناصر متنافرة وإلا انتقض وأضحى حكما لا قيمة له. الأمر الذي يقود إلى أن النص يمتلك كلية ووحدة عضوية، فـ"عناصر الشكل الفني مرتبطة فيما بينها بواسطة مجموعة هائلة من العلاقات المتشابكة والمتنوعة، بحيث يكون من غير الممكن فصل أي عنصر ومنحه دلالة معينة تكون مستقلة عن الأبعاد الدلالية التي امتلأت بها العناصر الجمالية الأخرى"[50] فهذا الانسجام يجعل عناصره تعمل متضامنة على توجيه المعنى في مسار معين.

ويعترف إيكو بتعدد التأويلات لكنه لا يقر بتساويها من ناحية الصحة والخطأ، فنحن "وإن كنا لا نستطيع أن نقول أي تأويل هو الأفضل والأنسب، وحتى إذا تخلينا عن فكرة وجود قراءة جيدة ومناسبة للنص، فإننا نستطيع في المقابل أن نتعرف بالفعل على التأويلات المغلوطة أو غير المقبولة"[51] جاء هذا القول ردا على أهل التفكيك، الذين يرون أن عدم القدرة على معرفة صحة أو خطأ التأويلات يتأتى من عدم معرفة التأويل الصحيح المرجعي، في حين أن إيكو يحكم على التأويل بأنه صحيح انطلاقا من كونه غير خاطئ، بحيث إن لم يكن التأويل ظاهرا وبين الخطأ فهناك احتمال بأن يكون صحيحا، هذا لأن إدراك التأويلات الخاطئة أيسر من إدراك التأويلات الصحيحة.

وينعت إيكو التأويل الذي يتجاوز المعقول ويتحدى النص بالتأويل المضاعف أو المفرط، وهو ذلك التأويل الذي يغدو معه النص أداة في يد المؤول، فتأتي استنتاجاته معزولة عما يقوله النص حقيقة. ويسوق إيكو أمثلة عن التأويل المضاعف إحداها ما كتبه روسيتي عن الكوميديا الإلهية لدانتي والتي كان يهدف من ورائها ضرب عصفورين بحجر واحد — على حد تعبير إيكو- أولهما ظهور الماسونية قبل القرن 18، وثانيهما تأكيد تأثر دانتي بها، بحيث راح يفتش عن رموز الماسونية داخل الكوميديا الإلهية، التي هي: زهرة، صليب، وطائر البجع. ففي قراءة روسيتي لدانتي تنتفي قواعد التأويل التي وضعها إيكو، فروسيتي أطلق حكما هو انتساب دانتي إلى الماسونية، غير أن هذا الحكم لم يجد ما يعززه لغويا، فراح روسيتي يتجاوز سلطة النص في أن يخلق عنوة تلك الرموز الدالة على الماسونية، لكن قصد النص قاوم قراءته وأبدى اعتراضه عليها من خلال غياب ما يدعم قوله، الأمر الذي أدى به إلى إخضاعه لتصوراته المسبقة بطريقة تعسفية لا منطقية والوقوع في إسقاطات بعيدة عن المعنى، وهو ما أدى بإيكو إلى إطلاق التأويل المضاعف على قراءته.[52]

الخاتمة

انطلاقا مما سبق، أضحى النص مع الطموح العلمي للبنيوية بنية مغلقة، كمالها في انكفائها على ذاتها، وهذا

التوجه العلمي لم يستطع الوصول إلى قراءة شافية تقنع النقاد والقراء، لارتكازه على الوصف والتحليل المحايث لشبكة العلاقات الداخلية مع إهمال لجانبي الدلالة والتأويل ؛ وهكذا كان لابد من الثورة على العلمية لتقييدها النصوص من جهة، وتقييدها الذات القارئة من جهة أخرى. فظهرت المقاربات التي أطلق عليها ما بعد البنيوية أو ما بعد الحداثة لتطيح بالموضوعية والانغلاق، وتعيد المكانة للذات والدلالة والتأويل، وتعلي من شأن التعدد والحوارية والانفتاح. وبهذا تكون المقاربات النقدية ما بعد الحداثية قد ارتحلت من صرامة العلم لتجد الأنس في التأمل الفلسفي. والجدير بالذكر أن الأساس الفلسفي الهرمينوطيقي لكل من هيدغير وغادامير كان له يد في بلورة هذه المقاربات ما بعد الحداثية، من خلال التخلص من عبء الموضوعية المدعاة من قبل المقاربات النقدية السابقة، بالإضافة إلى الاهتمام بالدلالة عوضا عن الشكل فحسب، والقول بتعدد الدلالات، وإتاحة الفرصة للقارئ للمشاركة المثمرة في إنتاجها، هذا الأخير الذي أقحم طوعا وكرها في ساحة الصراع النصي، ووكل بالبحث عن المعاني المتباينة، ومنح من القوة والسلطة ما جعله يتجاوز حق النصوص في بعض المقاربات.

وعليه، نخلص من هذا العرض أن العلوم الإنسانية لطالما وضعت في مقارنة مع العلوم الطبيعية، وبينما وصلت الأخيرة إلى ضبط منهجها فإن الثانية ظلت تبحث عن منهج مناسب لها، وقد رأت في المنهج العلمي وسيلة للحاق بالعلوم الطبيعية، وهذا ما وقع منذ القرن التاسع عشر إلى غاية سقوط البنيوية في أواخر الستينات، لتكون المرحلة ما بعد البنيوية أو ما بعد الحداثية أو إذا شئنا القول المرحلة ما بعد العلمية قد حسمت النقاش الذي استمر حوالي قرن من الزمان حول المنهج العلمي ودوره في العلوم الإنسانية عامة والنصوص اللغوية خاصة أيا كانت هذه النصوص. ومع سقوط المرحلة العلمية البنيوية ظهرت الهرمينوطيقا من جديد بحلة أقرب إلى النص الأدبي وجعلت مجال اشتغالها النقد، لتعوض العلمية التي كانت من قبل وتضفي على قراءة النصوص طابعا جدليا، وقد أثرت في مناهج نقدية على نحو التفكيك وذلك في تأثر دريدا بهيدغر، أو تأثير غادامير في جماليات التلقي، أو تأثر إمبرثو إيكو بالهرمينوطيقا وجمعه بينها وبين السيميائية، أو حتى مشروع بول ريكور الهرمينوطيقي الذي ظل وفيا للمرحلة البنيوية. ولعل اللحمة الكبرى بين الهرمينوطيقا كفلسفة والنقد الأدبي هو اهتمامهما المشترك باللغة والنصوص، فمقولات الفلسفة الهرمينوطيقية حول تأويل النصوص الدينية والتاريخية يمكن سحبها من مجالها وتطبيقها على النص الأدبي بليونة ويسر. لهذا فقد وجد النقد الأدبي في الأساس الفلسفي الهرمينوطيقي دعما جديدا، أغنى مناهجه وأثرى مصطلحاته، وكشف له قراءات أعمق من مجرد الاهتمام بالجانب اللغوي الجمالي، ليفتح له آفاقا رحبة على تعدد التأويلات.

الهوامش

1. - إبراهيم محمود خليل ، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك ، ط2 ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، الأردن ، 2007. ص 42

2. - بسام قطوس ، المدخل إلى مناهج النقد المعاصر ، ط 1 ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الاسكندرية ، مصر ، 2006. ص 46

3. - المرجع نفسه ، ص 43

4. - مجموعة من المؤلفين ، نظرية المنهج الشكلي ، نصوص الشكلانيين الروس ، تر: إبراهيم الخطيب ، ط1 ، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، مؤسسة الأبحاث العربية ، 1982 ، ص47

5. - عبد الكريم شرفي ، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة ، ط1 ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ، بيروت ، الجزائر ، 2007 ، ص 25

6. - هانز جورج غادامير ، الحقيقة والمنهج ، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية ، تر: حسن ناظم ، علي حاكم صالح ، ط1 ، دار أويا للطباعة والنشر ، طرابلس ، 2007 ، ص 271

7. - حسن بن حسن ، النظرية التأويلية عند ريكور ، ط1 ، دار تينمل للطباعة والنشر ، مراكش ، 1992. ص 33

8. - ينظر: عبد الكريم شرفي ، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، ص 32

9. - عبد الغني بارة ، الهرمينوطيقا والفلسفة ، نحو مشروع عقل تأويلي ، ط1 ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ، بيروت ، الجزائر ، 2008 ، ص 188

10. - بول ريكور ، النص والتأويل ، تر:منصف عبد الحق ، مجلة العرب والفكر العالمي ، ع 3 ، صيف 1988 ، ص 42

11. - ميجان الرويلي ، سعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي ، ط3 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، 2002 ، ص 72

12. عبد العزيز حمودة حاصل على درجتي الماجستير والدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة كورنيل الأمريكية عامي 1965-1968 ، له مجموعة من الكتب أهمها: علم الجمال والنقد الأدبي ، المسرح السياسي ، المرايا المحدبة ، المرايا المقعرة ، الخروج من التيه ، توفي عام 2006 ينظر: عبد العزيز حمودة ، المرايا المحدبة ، من البنيوية إلى التفكيك ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1998 ، ص 423.

13. - عبد العزيز حمودة ، المرايا المحدبة ، ص 50

14. - ينظر: يوسف وغليسي ، مناهج النقد الأدبي ، جسور للنشر والتوزيع ، ط3 ، 2015. ص 65

15. - ميجان الرويلي ، سعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي ، ص 93

16. - عبد الغني بارة ، الهرمينوطيقا والفلسفة ، ص 283

17. - عبد الكريم شرفي ، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، ص 44

18. - حسن بن حسن ، النظرية التأويلية عند ريكور ، ص 36

19. - عبد الكريم شرفي ، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، ص 40

20. - ينظر: يوسف وغليسي ، مناهج النقد الأدبي ، ص 176.

21. - بسام قطوس ، استراتيجيات القراءة ، التأصيل والإجراء النقدي ، مؤسسة حمادة ، دار الكندي ، الأردن ، 1998. ص17

22. - M.Merleau —Ponty-phenomenology of perception — trans — colin —smith. D.G.P.9 نقلا عن عادل عبد الله ، التفكيكية ، إرادة الاختلاف وسلطة العقل ، ط1 ، دار الحصاد ، دار الكلمة ، دمشق ، 1998 ، ص162.

23. تعريف المنهج: "مجموعة من القواعد والإجراءات والأساليب التي تجعل العقل يصل إلى معرفة حقة بجميع الأشياء التي يستطيع الوصول إليها بدون أن يبذل مجهودات غير نافعة." مروان عبد المجيد إبراهيم ، أسس البحث العلمي لإعداد الرسائل الجامعية ، ط1 ، مؤسسة الوراق ، عمان الأردن ، 2000. ص 60

24. - عبد الغني بارة ، الهرمينوطيقا والفلسفة ، ص 227

25. - المرجع نفسه ، ص 228

26. - ينظر: رولان بارط ، درس السيميولوجيا ، تر: عبد السلام بنعبد العالي ، ط3 ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، 1993 ، ص 81

27. - عبد الكريم شرفي ، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، ص 40

28. - عبد الغني بارة ، الهرمينوطيقا والفلسفة ، ص 41

29. - علي حرب ، الممنوع والممتنع (نقد الذات المفكرة) ، ط2 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، 2000 ، ص 22

30. - ميجان الرويلي ، سعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي ، ص 108

31. - عبد الغني بارة ، الهرمينوطيقا والفلسفة ، ص 42

32. - عبد الكريم شرفي ، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، ص 20

33. - المرجع نفسه ، ص 59

34. - المرجع نفسه ، ص 69

35. - نصر حامد أبو زيد ، إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، ط7 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، 2005 ، ص 45

36. - المرجع نفسه ، ص 44

37. - موسوعة كمبردج في النقد الأدبي ، من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية ، المجلد الثامن ، العدد 1045 ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، 2006 ، ص 434

38. - بول ريكور ، صراع التأويلات ، دراسات هرمينوطيقية ، تر منذر عياشي ، ط1 ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، 2005. ص 62

39. - حسن بن حسن ، النظرية التأويلية عند ريكور ، ص 40

40. - المرجع نفسه ، ص 48
41. - ينظر: نصر حامد أبو زيد ، إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، ص ص 44 ، 45
42. - بول ريكور ، صراع التأويلات ، ص 44
43. - نصر حامد أبو زيد ، إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، ص 47
44. - ينظر: بول ريكور ، من النص إلى الفعل ، أبحاث التأويل ، تر: مُحَمَّد برادة ، حسان بورقية ، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، مصر ، 2002 ، ص 112
45. - ينظر: عبد الكريم شرفي ، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، ص 19
46. - عبد الغني بارة ، الهرمينوطيقا والفلسفة ، ص 370
47. - أمبرتو إيكو ، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، تر: سعيد بن كراد ، ط2 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، 2004 ، ص79
48. - المرجع نفسه ، ص 79
49. - عبد الكريم شرفي ، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، ص 60
50. - المرجع نفسه ، ص 63
51. - المرجع نفسه ، ص 59
52. - ينظر: أمبثو إيكو ، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، ص ص 65 ، 72

آليات وضع المصطلح العربي

Mechanisms for developing the Arabic term

تاريخ الإرسال: 05-02-2019 تاريخ القبول: 12-04-2020

سهام ضامن، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2
sihemdamene@hotmail.com

الملخص

تتميز اللغة العربية بالمرونة ، بسبب ما تعتمد عليه من وسائل متعددة للاستفادة من المصطلحات الأجنبية ، التي تستجد تباعا ، ما يعني أنها قادرة على استيعاب عدد لا يحصى من هذه المصطلحات ، وفق مختلف الآليات التي تلجأ إليها ، والتي اختلف بعض الباحثين في ضبط بعضها ، كما اختلفوا في أهمية وأولوية بعضها عن بعض ، غير أن المجامع اللغوية العربية حسمت أمر هذا الاختلاف ، وذلك بتفضيل بعضها على بعض وفقا لمقاييس ومعايير تتماشى مع متطلبات وضع المصطلحات ، وبهذا يمكن الاعتماد على مبدأ الأفضلية في الاعتماد على وسائل وضع المصطلحات الذي أقرته هذه المجامع في مؤتمر من مؤتمراتها ، طبقا للترتيب الآتي: التراث فالتوليد وفيه الاشتقاق ، المجاز ، التعريب ، الترجمة ، النحت.

الكلمات المفاتيح: الآليات ، المصطلح العربي ، الاشتقاق ، الترجمة ، النحت.

Résumé

La langue arabe se caractérise par sa flexibilité grâce aux différents moyens utilisés afin de bénéficier des termes étrangers qui sont en perpétuelle renouvellement. Ce qui signifie qu'elle est capable d'assimiler un nombre incalculable de ces termes suivant différents mécanismes, dont les chercheurs ne sont pas parvenus à ajuster quelques-uns d'entre eux. Aussi, ils ont eu des différents concernant leur importance et leur priorité les uns par rapport aux autres. Sauf que les assemblés linguistiques de l'arabe ont mis fin à ce différent en privilégiant quelques-uns suivant des normes et standards qui répondent aux exigences du développement des termes. Il est possible donc de compter sur le principe de priorité parmi les moyens de développement des termes, et qui a été approuvé par ces assemblées dans une de leurs conférences selon cet ordre : le patrimoine, la génération qui contient la dérivation, la métaphore, l'arabisation, la traduction et la sculpture.

Mots clés : les mécanismes, le terme arabe, la dérivation, la traduction, la sculpture.

Abstract

The Arabic language is characterized by its flexibility thanks to the different means used in order to benefit from foreign terms which are in perpetual change. This is attributed to the fact of being able to assimilate a large number of these terms, according to different mechanisms, that the researchers failed to adjust some of them. Also, they did not agree on their importance and priority to each other. Except that the language assemblies put an end to these differences favoring a few according to standards that meet the requirements of terms development. For that, it is possible to count on the principle of priority among the means of terms development and which was approved by these assemblies in one of their conferences according to this order: heritage, generation that contains derivation, metaphor, arabisation, translation and sculpture.

Key words: mechanisms, Arabic term, derivation, translation, Arabization, sculpture.

مقدمة

غني عن الذّكر أن المصطلح العربي الحالي رهين المصطلح الأجنبي، فجلّ الاختراعات والابتكارات تتم برعاية أجنبية ما يعني أنّ المصطلحات المرافقة لهذه المخترعات تكون أجنبية أيضا، ولنقلها إلى العربية لابدّ من اعتماد إحدى طرق توليد المصطلح المتاحة في اللغة العربية، وليس الأمر على الخيار في ذلك، بل لابدّ من مراعاة الأفضلية في اختيار الطريقة الأنسب لوضع المصطلح العربي المقابل للمصطلح الأجنبي المراد الإفادة منه، حيث أجمعت مؤتمرات التعريب في توصياتها باستخدام الوسائل اللغوية في توليد المصطلحات العلمية الجديدة بالأفضلية، طبقا للترتيب الآتي: التراث فالتوليد وفيه الاشتقاق، المجاز، التعريب، الترجمة، النحت[1].

وقد اختلف الباحثون المحدثون في بعض هذه الوسائل، فنجدهم يشيرون إلى وسائل متنوعة نحو: الإحياء، الوضع، الاقتباس، الاشتقاق، المجاز، التوليد، التعريب، الاقتراض اللغوي، النحت، الترجمة... وعند الوقوف عند هذه الآليات نجدها متداخلة، فالوضع هو التوليد، والمجاز شكل من أشكال التوليد المعنوي، بينما تنصهر آليات الاقتباس والاقتراض اللغوي فيما يعرف بالتعريب.

وحتى لا نقف كثيرا عند الفروق الدقيقة التي تميز كل وسيلة عن الأخرى، اخترنا أن نطرق الوسائل الآتية: التراث أو الإحياء، الاشتقاق، المجاز، التعريب، الترجمة، النحت، التركيب.

1.التراث

ويقصد به العودة إلى القديم من ألفاظ العربية وبعثه في صورة جديدة تساير تطورات العصر، لذلك يشار إلى هذه الوسيلة أيضا بـ "الإحياء"، نظرا إلى إحياء الألفاظ القديمة المهجورة، وإلباسها حلة جديدة لجعلها في متناول المستعمل العربي، بعدما كانت حبيسة المعاجم والقواميس القديمة.

ويشترط في إحياء اللفظ القديم وجود قدر من الاشتراك الدلالي بينه وبين المفهوم المراد تسميته ولو على سبيل التشبيه أو المجاز، حتى يمكن الاستفادة منه، ومن الأمثلة على ذلك استعمال اللفظ العربي القديم "القطار" الذي أصل معناه "جماعة الإبل يلي بعضها بعضا في نسق واحد واصطلح به للدلالة على السلسلة المتصلة من مركبات النقل المتحركة على سكة الحديد"[2]، وذلك على سبيل التّشبيه.

وتعدّ هذه الطّريقة السّبيل الأوّل لوضع المصطلح في اللّغة العربية، إذ بواسطتها تحافظ اللّغة على خصائصها وتستغل تراثها أفضل استغلال، ذلك أن "المصطلحات التّراثية تشكل رصيدا مشتركا لابد من الإفادة منه على نحو واضح في إيجاد المصطلحات اللغوية الحديثة"[3]، ولاسيما الألفاظ السّهلة التي يستسيغها الذّوق، والتي لا تتنافى مع معايير وضع المصطلح الحديث.

ورغم أهمية التراث في وضع المصطلح العربي إلا أنه لم يعتمد عليه كآلية من آليات الصياغة المصطلحية إلا مؤخرا، يقول علي القاسمي: "لم يعتمد (التراث) مصدرا من مصادر المصطلحات الجديدة إلا في وقت متأخّر، وظهر النص عليه في (ندوة توحيد وضع المصطلحات العربية) التي عقدت في مكتب تنسيق التعريب بالرباط عام 1981"[4]، ثم ما لبث أن احتل مكان الصدارة في ترتيب وسائل وضع المصطلح العربي في الندوات اللاحقة التي اهتمت بهذا الموضوع.

2.الاشتقاق

يعدّ الاشتقاق خاصية من خصائص اللّغة العربية بوصفها لغة اشتقاقية، مما يعني أنها ترتكز عليه في نمائها وتطورها، وهو من أقدم وسائل تكاثر وتوالد الألفاظ فيها، و"الاشتقاق أخذ صيغة من أخرى مع اتّفاقهما معنى ومادة أصلية، وهيئة تركيب لها ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة، لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة كضارب من ضرب، وحذِرٌ من حذِرَ"[5]. أي أن هذه الطريقة تعتمد على تكوين لفظ عربي جديد من مادة لغوية عربية أصيلة، وذلك بالتصرف فيه عن طريق وضعه ضمن وزن من الأوزان العربية الشائعة مما يكسبه معنى جديدا هو القصد من الاشتقاق.

ويتضح مما سبق أنّ الاشتقاق تحكمه شروط هي[6]:

أ- الاشتراك في عدد الحروف، وهي في اللّغة العربية ثلاثة، وأما الاشتراك فيما دون ذلك فله بحثه.

ب- أن تكون هذه الحروف مرتبة ترتيبا واحدا في هذه الألفاظ.

ج- أن يكون بين هذه الألفاظ قدر مشترك من المعنى ولو على تقدير الأصل.

ولما كان الاشتقاق هو عملية توليد لفظ من آخر وفق الشّروط المنصوص عليها، فإنّ "القياس هو الأساس الّذي تبنى عليه هذه العملية (...) كي يصبح المشتقّ مقبولا معترفا به بين علماء اللغة"[7]، بمجيئه على وزن من أوزان العربية المألوفة وتركيبه من بعض أصواتها المعهودة.

وقد أشار ابن فارس (ت 395) إلى اعتماد العرب على القياس في قوله: "أجمع أهل اللغة إلا من شذّ منهم، أنّ للغة العربية قياسا، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض"[8]

أما المقصود بالقياس فهو "صوغ الألفاظ الجديدة على نمط ما ورد في جنسها في كلام العرب بتواتر واطراد، بحيث أصبح قاعدة لا يجوز الاستثناء منها إلا ما سمع عن العرب مما يخالفها"[9].

فبتفعيل هذه الأداة تحافظ العربية على خصائصها ومميزاتها من أوزان وأصوات، ولذلك يعدّ الاشتقاق وسيلة نمو داخلية فهو يقوم على أصوات وأوزان عربية مألوفة، أما الجانب الإبداعي فيه فيكمن في وضع أصوات عربية معينة ضمن صيغة صرفية لم تكن قد وضعت فيها، وهذا ما يعطيها معنى جديدا، ومن المعاني التي تضفيها الصيغ الصرفية للمعنى الأصلي: المبالغة والمطاوعة والتعدية والمشاركة والطلب والصيرورة... فالفعل (فتح) يدل على (الفتح)، وعندما نشتق منه الفعل (انفتح) يصبح دالا على المطاوعة، وما هذه الدلالة الجديدة إلا نتيجة الصيغة الجديدة.

" وقد ازداد الاشتقاق خصوبة وثراءً مع انفتاح التشريع اللغوي العربي الحديث على الاشتقاق من أسماء الأعيان والمعربات والأسماء الجامدة، ووضع أوزان قياسية جديدة لكثير من المشتقات، ووضع ضوابط قياسية لتكوين أفعال جديدة لم تذكرها المعجمات القديمة"[10]، وهذا كله مع مراعاة القياس واستمراره.

ومن هنا تتضح أهمية الاشتقاق ودوره في تنمية اللغة العربية ، ذلك أنه من "أيسر وسائل الوضع اللفظي وأكثرها طواعية لتوليد الاصطلاحات العربية"[11]، فهو نوع من التوسع في اللغة، ووسيلة من وسائل استمراريتها وبقائها مع ما تملكه من خاصية المرونة التي تسمح لها بالتعبير عما استجد من مدلولات، "فمفهوم الاشتقاق الذي يتصل رأسا بقضية صوغ المصطلحات ونماء رصيد اللغة من الألفاظ إنما هو هذا التقولب الصرفي المظهري في نطاق المادة اللغوية الواحدة، والذي لولاه لتعذر على العربية أن تحيا اللهم إلا أن تستعيض عنه بطواعية أخرى"[12]، وقد أثبتت آلية الاشتقاق على مرّ الزمان أهليتها وإمكانياتها الكبيرة لاستيعاب الكم الهائل من المصطلحات الطارئة في تاريخ المعرفة البشرية.

3.المجاز

يعدّ المجاز نوعا من التوليد المعنوي للألفاظ فهو مرتبط باستعمال اللفظ في غير ما وضع له، بدافع الحاجة والضرورة، وقد عرّفه عبد القاهر الجرجاني بقوله "كلّ كلمة أريد بها غيرها وضعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول، فهي مجاز"[13].

فالمجاز هو نقل دلالة اللفظ الأصلية إلى دلالة مجازية جديدة لوجود مشابهة أو مناسبة بين المعنيين، وبمرور الزمن تصبح الدلالة الجديدة أصلية وذلك بابتعادها عن أصلها عن طريق الاستعمال، وهذا ما عبّر عنه ابن جني بقوله: "المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة"[14].

وقد اعتمدت هذه الطريقة في وضع كثير من مصطلحات العلوم الشرعية عند ظهور الإسلام، للدلالة على مفاهيم دينية جديدة، ومن المصطلحات العربية الموضوعة بهذه الآلية نذكر: الصيام، الصلاة، الإسلام...

والمجاز وسيلة من وسائل نمو اللغة دلاليا لا لفظيا، وبمعنى آخر هو نوع من أنواع التطور الدلالي، إذ لا يؤدي الاعتماد على المجاز إلى زيادة في عدد ألفاظها، بل الزيادة تكون في معاني الألفاظ الموجودة أصلا، ويترتب عن ذلك حدوث الاشتراك اللفظي، أي دلالة اللفظ الواحد على معنيين أو أكثر، وهو ما تحاول هيئات وضع المصطلح تفاديه، لأنه يؤدي إلى الخلط والتشويش في استعمال المصطلح، ومع ذلك كثيرا ما اعتمد على المجاز في وضع المصطلح العربي، رغم أنه لم يحظ بأهمية كبيرة مقارنة بالاشتقاق والتعريب، ويرجع ذلك .في نظرنا إلى:

أولا: الفوضى التي يثيرها في الدلالة بسبب الاشتراك اللفظي.

ثانيا: طول مدة ترسيخه بمعناه الجديد لدى مستعمليه.

ولذلك لم تعتمد عليه المجامع اللغوية كثيرا في صوغ مصطلحاتها "كونه يمثل انزياحا أو انحرافا على معيار اللغة، ويتجلى ذلك في أن المجاز يرتبط بإسناد صفات غير معهودة للكلمات ترتبط أساسا بالسياق والمقام"[15].

ولتحقيق نوع من التوازن في هذا الصدد يفضل اللجوء إلى طرق أخرى أكثر دقة، وذلك تلافيا للاشتراك اللفظي من جهة، والحفاظ على الموروث الحضاري من الألفاظ العربية القديمة التي تعج بها المعاجم وكتب اللغة القديمة، والتي يمكن أن تستغل في طريقة "الإحياء" أفضل استغلال، وهذا كله توخيا للدقة العلمية والوضوح المطلوبين في صوغ المصطلحات، ذلك أن المقصود بالمجاز على نحو ما تقدم ذكره قد يفهم منه أنه نوع من بعث القديم، فاللفظ الموضوع للتعبير عن المعنى الجديد هو لفظ تراثي بغض النظر عن المعنى الذي وضع له سواء كان حقيقيا أو مجازيا.

4.التعريب

ويسمى أيضا الاقتراض اللغوي، لدلالته على اقتراض الألفاظ من لغة إلى أخرى، واستخدامها في اللغة المنقول إليها بلفظها، مع تكييفها من الناحية الصوتية إذا اقتضى الأمر وفق خصائص اللغة الهدف.

ويعرف التعريب بأنه "نقل اللفظ من العجمية إلى العربية، والمشهور فيه التعريب، وسماه سيبويه وغيره إعرابا"[16]، أو هو "صبغ الكلمة بصبغة عربية عند نقلها بلفظها الأجنبي إلى اللغة العربية، وقد استعملت كلمة المعرّب بمعنى اللفظ الأجنبي الذي غيره العرب ليكون على منهاج كلامهم"[17]، كما استخدم آخرون لفظ (المعرَب) للدلالة على نفس اللفظ.

والتعريب أو الاقتراض اللغوي ظاهرة موجودة في كل اللغات قديما وحديثا بسبب الاحتكاك، لضرورة التواصل بين شعوب العالم، وهو مطلب حضاري، فقد عربت بعض الألفاظ في الجاهلية، والدليل على ذلك كلمات (فردوس، استبرق، أرائك...) التي ظهرت فيما بعد في السور القرآنية، ورغم أن اللفظ المقترض من لغة أخرى قد لا يتناسب مع خصائص اللغة المنقول إليها، إلا أنه يعد وسيلة فعالة في وضع المصطلحات حينما تستنفد آليات الإحياء والاشتقاق والمجاز، وذلك طلبا للدقة والوضوح في المصطلح، إذ يتعذر في بعض الحالات إيجاد المقابل الدقيق باعتماد الطرق السابقة، فيتحتم إذ ذاك اللجوء إلى طريقة التعريب كحل لوضع المصطلح.

وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى نوعين من الألفاظ المقترضة من اللغات الأجنبية، ويتعلق الأمر بـ(المعرب) و(الدخيل)، وقد ميز القدماء بين النوعين حيث "أسموا الظاهرة العامة "دخيلا"، وخصصوا قولبة اللفظ الدخيل بمصطلح "التعريب"، فقالوا: تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على مناهجها"[18]، ومن هنا يتضح الفرق بين اللفظ المعرب واللفظ الدخيل، فالمعرب يخضع لتغييرات في بعض جوانبه خاصة من ناحية الأصوات والوزن ليكون متماشيا مع الذوق العربي، ومن الكلمات المعربة نذكر: تلفزة، أنيميا...

أما الدخيل فهو استعمال اللفظ الأجنبي دون إحداث تغيرات فيه، بل ينقل كما هو برسم أصواته بحروف عربية تقابل الحروف الأجنبية في اللفظ المنقول، مما يؤدي إلى عدم انسجام النصوص التي تحتوي على ألفاظ دخيلة، ويمكن تمييزها عن الألفاظ العربية بسهولة، بسبب عدم اندماجها في النص العربي، ويظهر ذلك خاصة من ناحية الأوزان، حيث تكون هذه الألفاظ غالبا على أوزان غير عربية، وهو ما يجعلها نشازا صرفيا، ومن أمثلة الكلمات الدخيلة في اللغة العربية: تلفون، فاكس، إنترنيت...

ومن الباحثين من دعا إلى رفض "التعريب" لما فيه من إتاحة الفرصة لاكتساح الألفاظ الأجنبية اللغة العربية، وهو ما يؤدي- على المدى البعيد - إلى تكون لغة هجينة، فاقدة لخصائصها، وهو أمر يهدد اللغة العربية، وبالتالي يجب أخذ الاحتياطات اللازمة باعتماد وسائل أخرى آمنة في التنمية اللغوية.

وهناك من يرى أنه لا ضير من الاقتراض اللغوي مادام التحكم فيه ممكنا مع إلزامه بشروط وضوابط، ومن هؤلاء أحمد مطلوب، الذي وقف موقفا وسطا بين التعريب وعدمه عندما دعا صراحة إلى عدم "الأخذ بالتعريب إلا عند الضرورة القصوى، لأن فتح الباب أمامه يعني إشاعة الدخيل والقضاء على فاعلية اللغة العربية"[19]، وإذا حدث وأن اعتمد على التعريب ينبغي مراعاة الشروط الآتية[20]:

أ- الاقتصاد في التعريب

ب- أن يكون المعرب على وزن عربي من الأوزان القياسية أو السماعية

ج- أن يلائم جرس المعرب الذوق العربي، وجرس اللفظ العربي

د- أن لا يكون نافرا عما تألفه اللغة العربية

إن موقف أحمد مطلوب مبني على اعتزازه بسابقيه من العرب القدماء الذين اعتمدوا على المعرب، وأدخلوه في لغتهم فكان جزءا منها لا يمكن نكرانه وقد ساعد ذلك في نمو وتوسع اللغة العربية.

وتزداد الحاجة إلى التعريب في أيامنا هذه، حيث يُعدّ وسيلة فعالة في نقل العلوم والمعارف من اللغات الأخرى، في ظل التهاطل المتزايد للمصطلحات المعبرة عن مظاهر الثورة العلمية في مختلف المجالات، وعجز الهيئات العربية الوصية عن مواكبة هذا التراكم من المصطلحات باعتمادها على الوسائل الأخرى في وضع المصطلحات العربية المقابلة، ولهذا كثيرا ما يكون التعريب الحل الأمثل لهذه المعضلة، بسبب السهولة في وضع المصطلح بطريقة التعريب.

5.الترجمة

تعد الترجمة شكلا من أشكال التواصل بين الثقافات، وذلك عن طريق نقل المدلولات من لغة إلى أخرى مع التصرف في اللفظ حسب ما يقتضيه نظام اللغة المنقول إليها، ما يعني ضمنيا أنه لا حدود للترجمة، وإنما المعول عليه هو المحافظة على جوهر الألفاظ المترجمة وروحها التي ينبغي أن تراعى إلى أبعد حدّ.

وتقتضي الترجمة "نقل المحتوى الدلالي للنص من لغة الأصل إلى لغة النقل، حيث يتغير شكل الدلالة، وينتقل معه المعنى بوصفه عاملا سابقا على الكتابة واللغة"[21].

ولا يمكن أن تؤدي الترجمة وظيفتها بالحفاظ على معنى النص الأصلي، إلا إذا كان المترجم على دراية وإلمام بخصائص اللغتين المنقول منها والمنقول إليها، لأنه لا يبقي على تراكيب اللغة الأصل، بل يعيد بناء النص حسب خصائص اللغة الهدف.

هذا عن ترجمة النصوص بشكل عام، غير أنّ الذي يعنينا من الترجمة في هذا المقام هو اتخاذها كشكل من أشكال النمو اللغوي، وبشكل آخر اعتبارها طريقة من طرق وضع المصطلح.

إنّ المتتبع لتاريخ الترجمة يدرك حتما أنّ عملية ترجمة مختلف النصوص العلمية، تستدعي البحث عن مقابلات المصطلحات الحديثة التي تعجّ بها هذه النصوص ويعتمد في ذلك على آلية الترجمة، وهي تعني في هذا الإطار "نقل المصطلح الأجنبي إلى اللغة العربية بمعناه لا بلفظه، فيتخير المترجم من الألفاظ العربية ما يقابل معنى المصطلح الأجنبي"[22].

إنّ الاعتماد على ترجمة المصطلح بهذا المعنى لا يخلو من تشويش، إذ المشار إليه هو قيام المترجم بنفسه باختيار اللفظ الذي يراه مناسبا للمصطلح المراد ترجمته، مما يؤدي إلى بروز المترادفات، واللغة العربية تعج بالأمثلة على ذلك، فقد ترجم لفظ "linguistique"، على سبيل المثال إلى (لسانيات، ألسنية، علم اللسان، علم اللغة...)

ومن جهة أخرى توحي كلمة "اختيار" إلى التصرف في الطريقة المعتمدة في وضع المصطلح، وهذه الطريقة لا تخرج عما ذكرنا سابقا من اشتقاق وإحياء، وتعريب، إضافة إلى النحت، وهذا ما يعطي انطباعا بأن الترجمة كآلية من آليات وضع المصطلح، لا تعدو أن تكون همزة وصل بين المصطلح الأصلي ونظيره في اللغة المنقول إليها.

وربما هذا ما جعل بعض المهتمين بالمصطلح يقصون الترجمة من آليات وضع المصطلح، ومن هؤلاء: على القاسمي في كتابه "علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية"، ويوسف وغليسي في كتابه "إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد"، رغم أن هذا الأخير قد أشار إليها إشارة مقتضبة.

ترجمة السوابق واللواحق

تعد ترجمة السوابق واللواحق (suffixes et préfixes)[23] من بين أهمّ مشكلات ترجمة المصطلح الأجنبي إلى اللغة العربية، فكثيرا ما يحتوي هذا المصطلح على لاصقة (سابقة أو لاحقة) بسبب انتمائه إلى لغة من اللغات الأوربية على وجه الخصوص، إذ تتميز هذه اللغات بكونها لغات مزجية أو إلصاقية (langues agglutinantes)، بمعنى أنها تعبر عن المعنى الجديد بزيادة وحدة صرفية أول الكلمة أو

آخرها ، من ذلك مثلا تحول الفعل الإنجليزي (act) إلى الاسم (Actor) بإضافة اللاحقة "or".

غير أنّ المشكل الحقيقي لا يكمن في تصنيف اللغات إلى إلصاقية أو اشتقاقية ، لأنّ هذا التقسيم مبني على التغليب لا غير ، بمعنى أنّ اللغات الإلصاقية أيضا تعتمد أيضا على طريقة الاشتقاق في توليد الألفاظ الجديدة ، ولكن بدرجة أقل من اللغات الاشتقاقية ، كما أنّ اللغات الاشتقاقية وعلى رأسها العربية تستند إلى طريقة السوابق واللواحق في توليد الألفاظ ، ولكن بنسبة أقل من اللغات الإلصاقية[24].

واللغة العربية لا تخلو من السوابق واللواحق الأصلية ، بدليل وجود بعض اللواحق كالتاء المربوطة التي تعدّ علامة التأنيث في الغالب ، وألف المد والنون التي تعدّ علامة التثنية ، وياء النسبة المشددة ، والياء المشددة المتبوعة بالتاء المربوطة للمصدر الصناعي ، ومن السوابق الأصلية الألف والسين والتاء (است) التي تضاف إلى الفعل المجرد لتحول معناه إلى معان جديدة كالطلب والتحول...

ومن هنا يمكن القول بأن ما يواجه المترجم حقا هو عدم تناظر اللغات من حيث أصواتها وصرفها وتراكيبها ، تبعا لعدم تماثل المفاهيم بينها ، والسوابق واللواحق جزء من بنية اللغة بشكل عام ، مما يعني منطقيا عدم تناظرها بين اللغات المختلفة سواء من حيث الشكل أو الدلالة أو العدد.

ومن أجل ترجمة المصطلح الأجنبي الذي يحتوي على سابقة أو لاحقة ، لجأ الباحثون إلى طرق متعددة ، فمنهم من دعا إلى اتخاذ صيغة صرفية معينة لكل سابقة أو لاحقة أجنبية ، وهو ما ذهب إليه مجمع القاهرة حيث اقترح "إعطاء مقابلات للواصق المهمة مثل مِفعال ل scope، فيقال télescope منظار ، ومِفعلة ل graph ، فيقال télégraphe مبرقة..."[25] ، كما نجد اعتماد صيغة اسم الفاعل للاحقة (or) الانجليزية ، و(eur) الفرنسية ، وذلك في نحو:(transformateur) المحوّل و(réacteur) المفاعل... غير أنّ هذا الإجراء لا يصلح مع جميع الكلمات التي تنتهي بنفس اللاحقة ، ونفس الأمر ينطبق على الكلمات التي لها سابقة واحدة.

أما الطريقة الثانية المعتمدة للترجمة في هذه الحالة ، فهي وضع مقابل للسابقة أو اللاحقة الأجنبية ، ثم إلحاقها باللفظ العربي ، علما بأن هذه اللواصق لا تؤدي دائما المعنى نفسه ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد ترجمت السابقة (hyper) ب(فرط) ، فيقال مثلا: hyperidrose (فرط العرق) ، و(hypertension) (فرط التوتر)... ، وترجمت اللاحقة (logy) الانجليزية و(logie) الفرنسية بكلمة علم ، ومثال ذلك:(biologie) (علم الأحياء)، و(zoologie (علم الحيوان) ، لكن هذا الإجراء لا يصلح دائما والدليل على ذلك السابقة demi في اللغة الفرنسية ، تدل على النصف ، ولا يصح استعماله في اللغة العربية في بعض الأحيان ف demi-frère أي الأخ غير الشقيق ، لا يمكن أن يطلق عليه نصف أخ ، وكذلك demi-savoir أي معرفة سطحية ، لا يمكن أن نطلق عليها نصف معرفة[26].

أما الرأي الثالث فهو الذي "يدعو إلى إلصاق السابقة أو اللاحقة الأجنبية (في صورتها الدخيلة) بالكلمة العربية إذ يقول الميتالغة (métalangue)، والميتانص métatexte) ..."[27]، ومنه (macrophysique) التي ترجمت ب مكروفيزياء ، أي فيزياء الأجسام الكبيرة.

غير أن هذه الطريقة لم تلق رواجا ، بقدر ما لقيت من انتقادات بسبب تغييب المعنى المقصود من المصطلح المترجم ، إذ يتعذر على القارئ وضع الإطار المناسب الذي يؤدي من خلاله المصطلح المترجم دوره الفعال في إيصال المقصود منه.

ولهذا كله يفضل ترجمة المصطلحات ذات اللواصق بحسب معانيها ، وفي سياقاتها التي وردت فيها ، مع الاعتناء باللواصق وما تؤديه من معنى فيها ، وعدم إسقاط ترجمة لاصقة في مصطلح معين بنظيرتها في مصطلح آخر ، بسبب الاختلاف الذي قد يترتب عن هذا الإسقاط.

6.النحت

النحت جنس من الاختصار والاختزال في اللغة العربية ، وهو وسيلة من وسائل نمو اللغة وتوسعها ، ونوع من الاشتقاق (الاشتقاق الكبار لدى ابن جني وآخرين)، أما الخليل بن أحمد الفراهيدي فيسميه "التركيب" ، وسماه بعض المحدثين "التركيب والاختزال"[28].

وقد ذكر الثعالبي أن "العرب تنحت من كلمتين أو ثلاث كلمة واحدة ، وهو جنس من الاختصار ، كقولهم رجل عبشمي نسبة إلى عبد شمس ، وأنشد الخليل:

أَقولُ لَها وَدَمْعُ الْعَيْنِ جارٍ
أَلَمْ يُحْزِنْكِ حَيْعَلَةُ الْمُنادي

من قولهم حيّ على الصلاة"[29].

ورغم أن الثعالبي في قوله هذا لم يشر إلى ضرورة وجود التناسب اللفظي والمعنوي، بقدر ما ركز على عدد الكلمات المنحوت منها، إلا أن الدراسات الحديثة تصر على وجوب وجود هذا التناسب كشرط من شروط النحت.

ففي تعريف حديث للنحت نجد أنه "تشكيل أصوات كلمة من كلمتين أو أكثر ، أو من جملة للدلالة على معنى مركب من معاني الأصول التي أخذ منها، أو من الكلمات الأعجمية التي ننحت منها إما عن طريق النقل أو التعريب، ومن ثم إلحاقها بالعربية"[30]، ففي هذا التعريف إشارة إلى ضرورة المحافظة على معنى الكلمات المنحوتة، فضلا عن الإبقاء على بعض أصواتها من جهة، كما نجد في إشارة إلى أن النحت لا يختص بالكلمات العربية، بل يمكن أن يمس الكلمات الأعجمية المنقولة إلى العربية عن طريق النقل أو التعريب، ووفقا لذلك يمكن أن نميز عدة أنواع من النحت، أي بالاعتماد على نوع الكلمات المراد النحت منها وعددها، ونوع التركيب الذي يجمع بينها، وذلك على النحو الآتي[31]:

أ- نحت ينتج عنه استخراج كلمة من كلمتين فأكثر، وربما كانت الكلمتان مستقلتين، أو من أصول مستقلة للدلالة على معنى مركب في صورة ما من معاني هذين الأصلين أو هذه الأصول، نحو كلمة كهروطيسية المنحوتة من كهرباء مغناطيس، وكلمة جيوفيزيائية المنحوتة من كلمتي جيولوجيا فيزياء.

ب- نحت مؤلف من مضاف ومضاف إليه (مركب إضافي)، نسبة إلى هذا العلم، أو للدلالة على الاتصال به (وهو قليل نادر في اللغة)، ومنه: مرقسي، نسبة إلى امرئ القيس، درعمي، نسبة إلى دار العلوم.

ت- نحت من جملة للدلالة على التحدث بهذه الجملة نحو: بسمل أي قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حوقل إذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ث- وهناك أمثلة على النحت من اللغات الأخرى، وهي تسير في مسارين:

ث-1- تبقى على أصلها الأعجمي مثل: ابستمولوجيا: علم الدلالة، جيولوجيا: علم طبقات الأرض.

ث-2- تسير وفق النحو العربي نحو: كهرومائية: كهرباء ماء، بترو كيماوية: بترول ماء.

ج- وقد اشتق القدامى وبعض المحدثين من الكلمات المنسوبة أفعالا تعد من النحت، نحو: تحضرم بمعنى انتسب إلى حضرموت، تعبشم أي انتسب إلى عبد شمس.

إنّ النحت بهذا الشكل لا يعطي صورة واضحة لإجرائه، خصوصا وأنّ النحت سماعي وليس قياسيا، وهذا يترتب عنه عدة مشاكل أهمها تحديد عدد الحروف التي تؤخذ من العبارات المنحوتة ومواقعها، ثم ترتيبها في الكلمة الجديدة، إضافة إلى عدم التعرف على ماهية الكلمات المنحوتة ببساطة بسبب جهل أصلها في الغالب، مما يصعب مهمة توليد المصطلح بهذه الطريقة.

وقد أدت هذه الصعوبات إلى رفض النحت من قبل بعض الدارسين بحجة أنه "قلما وفق اللاجئون إليه، ولو في ضرورات المصطلح العلمي، كما حصل في علم الكيمياء، عندما قيل شارجبة وشارسبة، بدل شاردة موجبة وشاردة سالبة"[32]، فهذه المصطلحات تبدو غامضة وغير مفهومة بسبب جهل مصدرها.

إنّ النحت بهذا المعنى يؤدي إلى فقدان الصلة بين الأصل والكلمة الجديدة المنحوتة، وهو أمر يُحذر منه عند وضع المصطلحات، لأنه قد يكون سببا في الحكم على عدم فاعلية ونجاعة هذه الطريقة في وضع المصطلحات، لأن "المنحوتات لا توحي بشيء من إيحاء المشتقات بمضامينها"[33].

ومع ذلك هناك من اللغويين من أجازه بشروط، على غرار مصطفى الشهابي، الذي يقول: "نحن بحاجة إلى النحت في ترجمة بعض الأسماء العلمية، ولكن النحت يحتاج إلى ذوق سليم"[34].

رغم أنّ شرط الذوق السليم (من منطلق الانسجام والتلاؤم الصوتي والصرفي مع قواعد اللغة)، ليس هو المطلب الأساس من النحت، بقدر ما ينبغي التركيز على وضع آلية فعالة في الإفادة من التراكيب اللغوية المختلفة، ومحاولة إخضاعها لقواعد موحدة تمكن من فهم المصطلح المنحوت.

فالنحت على أهميته في تنمية الثروة اللغوية، إلا أنه لازال يفتقر إلى آليات واضحة، أو لنقل قواعد محددة، فأقصى

ما نجده في هذا الصدد، هو الحث على مراعاة شرطين أساسيين هما[35]:

أ- مراعاة أوزان الكلمات العربية، لتيسير الاشتقاق منها

ب- مراعاة الانسجام بين حروف الكلمة المنحوتة، لكي يقبلها الذوق العربي، ولا ينفر منها السامع.

إنّ النحت بغير قواعد محددة قد أدى إلى ظهور كلمات هجينة مستغلقة الفهم وغريبة على أهل اللغة ذاتها، وهو ما قد يكون وراء دعوة على القاسمي إلى "عدم التوسع باستعماله في توليد المصطلحات الجديدة لأنه يتنافى مع الذوق العربي، ولأن المنحوت يطمس معنى المنحوت منه"[36].

وهذا ما جعل النحت يحتل المركز الأخير من حيث الأهمية في الصياغة المصطلحية، حيث "وضعته المؤسسات المصطلحية في آخر المطاف، ويمكن اللجوء إليه بعد تعذر كل الوسائل الممكنة لصياغة المصطلح"[37].

ومع ذلك يمكن عدّ النحت ذا أهمية بالغة من حيث كونه الوسيلة الوحيدة التي اختصت "بالاقتصاد اللغوي" عن طريق الاختصارات التي تصاحبه، فإذا علمنا أنّ ميزة الاختصار تعدّ مبدأ من مبادئ من وضع المصطلحات، فإن النحت يغدو بذلك أداة اصطلاحية بامتياز خصوصا إذا اقترن بوضوح اللفظ.

7.التركيب

يعد التركيب وسيلة من سائل وضع المصطلحات، إذ تلجأ المجامع اللغوية إلى طريقة التركيب في وضع بعض المصطلحات، وذلك عن طريق "ضم كلمة إلى أخرى بحيث تصبحان وحدة معجمية واحدة ذات مفهوم واحد، وتحتفظ الكلمتان المكونتان للكلمة المركبة الجديدة بجميع صوامتهما وصوائتهما"[38]، وأمثلة ذلك كثيرة في اللغة العربية نحو: اسم العلم (شمس الدين) الذي يتكون من كلمتي (شمس) و(الدين)، وكذا الأسماء المركبة من أحد عشر إلى تسعة عشر...

ويعرّف المصطلح المركب في علم المصطلح بأنه "المصطلح المكون من كلمتين أو أكثر، ويدل على معنى اصطلاحي جديد، مؤلف من مجموع معاني عناصره"[39].

ويعدّ التركيب ذا أهمية بالغة في وضع المصطلحات الحديثة، المقابلة للمصطلحات الأجنبية دون الإخلال بعنصر الفهم فيها، ورغم أن التركيب لا يحقق الاقتصاد اللغوي، إلا أن العربية تميل إلى الاعتماد عليه أكثر من النحت، لما فيه من احتفاظ كلي بصوامت الكلمات المركبة وصوائتها، وهو ما عبر عنه أحد الباحثين بقوله: "إن موضوع التركيب سيظل أقرب إلى العربية من موضوع النحت"[40].

وقد استخدمت طريقة التركيب في "ترجمة العناصر المكونة لمصطلح أوربي مركب إلى اللغة العربية، وتكوين تركيب عربي من أكثر من كلمة يؤدي معنى المصطلح الأوربي"[41].

فالتركيب إذن يحل كثيرا من المشاكل المتصلة بوضع المصطلح، عن طريق اللجوء إلى مختلف أنواع التراكيب المتاحة في اللغة العربية، والتي بواسطتها يمكن التعبير عن كثير من المفاهيم الجديدة، وهو ما يؤدي إلى نشوء مصطلحات مركبة بطرق مختلفة.

أنواع المركبات

إن اعتماد التركيب كوسيلة لوضع المصطلحات في اللغة العربية، أدى إلى تمييز ثلاثة أنواع من المركبات الناتجة عن هذه العملية وهي:

أ- **المركبات الدخيلة:** وهي "المركبات المنقولة بملفوظها عن لغات أجنبية"[42]، أي أن الكلمات المركبة لها كلها أجنبية النطق، ومنها: فيروس الإيدز.

ب- المركبات الخليطة: وتعرف عند البعض ب "المركبات المؤشبة" وهي "التي تتألف من كلمات عربية أصيلة وأخرى أجنبية دخيلة"[43]، بغض النظر عن ترتيب الكلمات فيها، فقد تكون الكلمة العربية أولا نحو: اللعب الميكانيكية، وقد ترد ثانيا نحو: سيكولوجية الطفل.

ج- المركبات العربية الأصيلة: وهي المكونة من كلمات عربية فقط، وهي أنواع:

ج – 1- المركب الإضافي: وهو الذي يتألف من كلمتين، تضاف الأولى إلى الثانية ليصبحا وحدة معجمية واحدة، نحو: عدم التوازن .غير محدود.

ج – 2- المركب الوصفي: ويتألف من "لفظين أو أكثر، ويكون اللفظ الثاني وما بعده وصفا للأول، ويحتفظ كل لفظ في التركيب باستقلاله"[44]، وله استخدامات متعددة في المجالات العلمية والتقنية الحديثة، من ذلك: آلة حاسبة، قروض بنكية ميسرة...

ج -3- المركب الإضافي الوصفي: وهو "مزيج من التركيب الإضافي والتركيب الوصفي"[45]، أي أنه يتألف من ثلاثة أجزاء فيكون على شكل (اسم مضاف+ مضاف إليه + صفة)، نحو: إدارة المصادر الطبيعية، أو على شكل (اسم + صفة مضافة + مضاف أليه) نحو: عين سديدة النظر.

ج – 4- المركب الإسنادي: وهو الناتج عن وجود علاقة إسنادية بين الكلمتين المكونتين له، ومن أمثلة ذلك في العربية: تأبط شرا، وجاد الحق...

ج – 5- التركيب المزجي: وهو ضمّ كلمتين إلى بعضهما لتصبحا كلمة واحدة، دون أن تفقدا شيئا من صوامتهما وصوائتهما، ونجد ذلك في التراث العربي خاصة في أسماء العلم نحو: بعلبك وحضرموت... أما حديثا فقد استخدم بكثرة على هيئة (لا + اسم)، نحو: لانهاية.لا وجود...

وإضافة إلى هذه الأنواع، نجد ما يسمى ب"التركيب العددي" الذي يتعلق بالأعداد المركبة من أحد عشر إلى تسعة عشر، ولكننا لم نعتمده في تصنيفنا لكونه ثابتا، لا يخدم موضوع طرق صياغة المصطلح العربي، بخلاف الأنواع الأخرى التي يمكن استخدامها في الصناعة المصطلحية.

فالتركيب إذن يعدّ آلية فعالة في وضع المصطلح العربي، رغم أن الكثير من الدارسين أهملوه وأقصوه من بحوثهم دون تبرير يذكر، ودون الإشارة إليه حتى.

خاتمة

وبعد، فإنّ تعدّد طرق وآليات وضع المصطلح العربي يعدّ عاملا إيجابيا وسلبيا في الوقت نفسه، ذلك أنّ هذا التعدّد يسمح لواضعي المصطلح باختيار الطريقة الأنسب التي تتلاءم مع المكونات المادية للمصطلح، والتي بواسطتها يحافظ المصطلح على خصائصه ومفهومه في صورة واضحة لا تدعو إلى الشك والافتراض والتأويل، فوضع مقابل عربي لمصطلح أجنبي مركب – على سبيل المثال- ينبغي أن يكون بمصطلح عربي مركب، وذلك لضمان الحفاظ على المعنى الأصلي للمصطلح الأجنبي، وبالتالي فإنّ الطريقة المثلى في هذه الحالة ستكون "طريقة التركيب"، رغم أنها من الطرق الأقلّ شيوعا واعتمادا من قبل المهتمين بوضع المصطلحات العربية.

أما كون تعدّد طرق وضع المصطلح عاملا سلبيا، فيرجع إلى عدم الاتفاق بين واضعي المصطلحات في الهيئات المتعدّدة على طريقة واحدة في وضع المصطلح العربي المقابل للمصطلح الأجنبي المراد نقله إلى العربية، بسبب الخيارات المتعدّدة المتاحة، وهو ما أدّى إلى مشاكل جمّة، أثرت بشكل واضح في البحوث والدراسات العربية، حيث يجد الباحث والدارس نفسيهما أمام عدد من المقابلات العربية لمصطلح أجنبي واحد، وهو ما قد يؤدّي إلى التشويش والخلط وعدم التمثل الجيّد لمفاهيم هذه المصطلحات.

الهوامش

1. ينظر مثلا مجلة اللسان العربي ، الرباط ، المجلد 18 ، ج1 ، 1981 ، ص175.
2. جميل الملائكة ، المصطلح العلمي ووحدة الفكر ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، مج 34 ، ج3 ، 1983 ، ص99.
3. محمود فهمي حجازي ، الأسس اللغوية لعلم المصطلح ، د.ط ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، د.ب.ن ، د.س.ن ، ص233.
4. علي القاسمي ، لماذا أهمل المصطلح التراثي ، مجلة المناظرة ، الرباط ، س4 ، ع6 ، 1993 ، ص37.
5. السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ج1 ، تح فؤاد علي منصور ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 1998 ، ص275.
6. صالح بلعيد ، محاضرات في فقه اللغة ، الجزائر ، د.ط ، دار هومة ، 2004 ، ص14.
7. إبراهيم أنيس ، من أسرار اللغة ، ط7 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1994 ، ص8.
8. أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسن ، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، ط1 ، مطبعة مُحَمَّد علي بيضون ، 1997 ، ص 35.
9. علي القاسمي ، علم المصطلح أسسه العلمية وتطبيقاته العملية ، ط1 ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، لبنان ، 2008 ، ص 383.
10. يوسف وغليسي ، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد ، ط1 ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2008 ، ص 83.
11. جواد حسني سماعنة ، المصطلحية العربية بين القديم والحديث ، مجلة اللسان العربي ، مكتب تنسيق التعريب ، الرباط ، ع49 ، 2000 ، ص99
12. عبد السلام المسدي ، قاموس اللسانيات ، عربي فرنسي ، فرنسي عربي ، مع مقدمة في علم المصطلح ، د.ط ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1984 ، ص 32.
13. عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، شرح وتحقيق وتعليق مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف ، د.ط ، دار الجيل ، بيروت ، 1991 ، ص 438.
14. ابن جني ، الخصائص ، ج2 ، تحقيق مُحَمَّد علي النجار ، د.ط ، المكتبة العلمية ، د.ب. ن ، د.س.ن ، ص447.
15. لعبيدي بوعبد الله ، مدخل إلى المصطلح والمصطلحية ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع ، تيزي وزو ، الجزائر ،2012 ، ص 139.
16. شهاب الدين بن مُحَمَّد بن عمر الخفاجي ، شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.س.ن ، ص 34
17. جواد حسني سماعنة ، التركيب المصطلحي طبيعته النظرية وأنماطه التطبيقية ، مجلة اللسان العربي ، مكتب تنسيق التعريب ، الرباط ، ع 50 ، 2000 ، ص 46
18. عبد السلام المسدي ، المرجع السابق ، ص 82.
19. أحمد مطلوب ، في المصطلح النقدي ، د.ط ، مطبعة المجمع العلمي ، بغداد ، 2002 ، ص 18.
20. نفس المرجع ، ص 18.
21. رشيد برهون ، الترجمة ورهانات العولمة والمثاقفة ، مجلة عالم الفكر ، ع1 ، مج 31 ، سبتمبر ، 2002 ، ص 171.
22. علي القاسمي ، مقدمة في علم المصطلح ، د.ط ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة ، د.ب.ن ، د.س.ن ، ص101.
23. السوابق جمع سابقة ، وهي تعني "كل عنصر لا يتغير بأخذ مكانه في الكلمات التي يدخل عليها قبل الجذر ، فيتغير معناها وتصير الكلمة مركبة" ، التهامي الراجي الهاشمي ، كيفية تعريب السوابق واللواحق في اللغة العربية ، مجلة اللسان العربي ، ع21 ، 1983 ، ص63.

أما اللواحق فهي جمع لاحقة وهي "لاصقة تلي الجذع فتكون كلمة جديدة ذات دلالة جديدة" علي القاسمي ، علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية ، ص461.

24. ينظر نفس المرجع ، ص460.
25. وجيه حمد عبد الرحمان ، منهجية وضع المصطلحات الجديدة في الميزان ، مجلة اللسان العربي ، ع 24 ، ص 57.
26. ينظر صافية زفنكي ، المناهج المصطلحية مشكلاتها التطبيقية ونهج معالجتها ، ط1 ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، د.ب.ن ، 2010 ، ص7374.
27. يوسف وغليسي ، المرجع السابق ، ص 494.
28. ينظر مُحَمَّد عبد الغني المصري ، مجد البرازي ، اللغة العربية دراسات تطبيقية ، ط1 ، دار المستقبل ، عمان ، المملكة الأردنية الهاشمية ، 2008 ، ص97.
29. أبو منصور الثعالبي ، كتاب فقه اللغة وأسرار العربية ، د.ط ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت ، ص253.
30. مُحَمَّد عبد الغني المصري ، مجد البرازي ، المرجع السابق ، ص97.
31. ينظر نفس المرجع ، ص ص97 99.
32. عبد السلام المسدي ، المصطلح النقدي ، ص25.
33. جواد حسني سماعنة ، المصطلحية العربية بين القديم والحديث ، ص100.
34. محمود فهمي حجازي ، الأسس اللغوية لعلم المصطلح ، ص 75.
35. ينظر علي القاسمي ، علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية ، ص 435.
36. .علي القاسمي ، مقدمة في علم المصطلح ، ص 103.
37. صالح بلعيد ، مشكلة المصطلح العلمي في الوضع أم في الاستعمال ، مجلة اللسانيات ، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية ، ع8 ، 2003 ، ص84 ، (الهامش رقم 13).

38. علي القاسمي ، علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية ، ص449.
39. جواد حسني سماعنة ، التركيب المصطلحي طبيعته النظرية وأنماطه التطبيقية ، ص 43.
40. .جواد حسني سماعنة ، المصطلحية العربية بين القديم والحديث ، ص42.
41. محمود فهمي حجازي ، الأسس اللغوية لعلم المصطلح ، ص 77.
42. جواد حسني سماعنة ، التركيب المصطلحي طبيعته النظرية وأنماطه التطبيقية ، ص42.
43. علي القاسمي ، علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العمليه ، ص 455.
44. نفس المرجع ، ص 450 451.
45. نفس المرجع ، ص 451.

تبعيّة البنية للوظيفة بين المفهوم والتّصييق في ضوء اللّسانيّات الوظيفيّة

The linguistic Structure's dependency of the function, between concept and practice in light of functional linguistics

تاريخ الإرسال:26-04-2019 تاريخ القبول: 12-04-2020

صافي الدّين لعبابسة، جامعة محمّد لمين دبّاغين سطيف2
slababsa@yahoo.fr

الملخّص

يبحث هذا المقال في المبدأ القائل بأنّ بنية اللّغات الطّبيعيّة ترتبط بوظيفتها ارتباطا يجعل البنية انعكاسا للوظيفة ، ويتّخذ من نظريّة النّحو الوظيفي بجانبيه البنيوي والتّداولي ؛ إطارا نظريّا ومنهجا إجرائيّا في تحليل بنيات لغويّة من القرآن الكريم ، مركّزا على مدرسة براغ وأندريه مارتيني عن الاتّجاه البنيويّ الوظيفيّ ، وعلى نظريّة النّحو الوظيفي بزعامة سيمون ديك عن الجانب التّداولي.

الكلمات المفاتيح: النّحو ، البنية ، الوظيفة ، التّواصل ، التّداولي.

Résumé

Le présent article vise à examiner le principe selon lequel la structure des langues naturelles est étroitement liée à ses fonctions ce qui fait que la structure devient le reflet de la fonction.

En se basant sur le fonctionnalisme (Ecole de Prague et Andrés Martinet) et sur l'approche pragmatique (Grammaire fonctionnelle de Simon Dik), cette étude investit la théorie fonctionnaliste, au double plan - structural et pragmatique- et trace le cadre théorique d'une approche procédurale dans l'analyse des structures linguistiques du Saint Coran.

Mots-clés : grammaire, Structure, Fonction, Communication, Pragmatique.

Abstract

This article examines the principle that claims that the structure of natural languages is linked to its function, which makes the structure a reflection of the function, and it takes from functional grammar theory with its structural and deliberative aspects a theoretical framework and a procedural approach in analyzing linguistic structures of the Holy Quran, focusing on the school of Prague and André Martin on the functional structural trend and on Simon Dick's theory of functional grammar on the deliberative side.

Keywords : grammar, Function, Communication, Structural, Pragmatic.

مقدّمة

تعنى النّظريّات الوظيفيّة بدراسة بنية اللّغات الطّبيعيّة ونظامها، وكيفيّة استخدامها كأداة تسخّر لتحقيق التّواصل وأداء وظائف أخرى داخل المجتمعات البشريّة، فتقارب خصائصها البنويّة على هذا الأساس، ويكون موضوعها القدرة التّبليغيّة بدل القدرة اللّغويّة، لأنّ اللّغة ليست تراكيبا مقصودة لذاتها، وإنّما هي موجودة للتّعبير عن وظائف مختلفة، ضمن نظام لغويّ مرتبط بظروف وسياق.

وقسّمت النّظريّات الّتي اعتمدت مبدأ الوظيفة إلى اتّجاهين: اتّجاه وظيفيّ بنيويّ؛ يركّز على الأشكال البنيويّة، ويرى أنّ دراسة اللّغة باعتبار الوظيفة يكون من خلال تحديد الوظائف اللّغويّة الدّاخليّة للبنية، على مستوى الصّوت والتّركيب والدّلالة، وتعدّ مدرسة براغ وأندريه مارتيني، أفضل من مثّله، والاتّجاه الثّاني؛ وظيفيّ تداوليّ، ينظر إلى اللّغة مرتبطة بالظّروف المقاميّة الّتي تنتج فيها الجمل لأداء وظيفة التّواصل، وظهر مع نظريّة النّحو الوظيفي بزعامة سيمون ديك، الّذي أضاف المكوّن التّداولي إلى جانب المكوّن التّركيبي والدّلالي في تحليل البنية.

ويعدّ مبدأ دراسة اللّغة على أساس أنّ الوظيفة تحدّد البنية، أهمّ مبدأ إجرائي وتطبيقي لهذه النّظريّات، ومفاده أنّه لا يمكن رصد خصائص العبارة اللّغوية إلّا إذا ربطت بنيتها بوظيفتها التّواصليّة، والوظائف الأخرى.

والمطّلع على التّراث العربي اللّغوي، يجد أنّ ثمّة قدرا معقولا من توافق النّظر مع هذه الدّراسات، ولا يخفى علينا ما طرحه علماء العربيّة من أوصاف بنيويّة لظاهرة القصر والعناية، والتّوكيد والتّقديم والتّأخير، والنّفي والحذف...، والّتي تتّخذ بنياتها أشكالا تلائم المقام والوظائف التّبليغيّة، وقد أطلقوا مبادئ تؤكّد وظيفيّتهم؛ منها: لكلّ مقام مقال، مطابقة الكلام لمقتضى الحال، الوجوه والفروق ...

ومن هنا تأتي شرعيّة إمكانيّة اعتماد مقولات النّحو الوظيفي أداة لدراسة ظواهر اللّغة العربيّة، وإقامة حوار تقارضي بين الفكرين، وهذا ما أحاول فعله فيدراسة هذا المبدأ، والتّطبيق على بنيات لغويّة من القرآن الكريم، مازجا بين آراء الوظيفيّين وتحليلات علماء التّراث.

ولنا أن نسأل: ماذا نعني بالوظيفة والبنية؟ وإذا كانت للّغة وظيفة؛ فهل لهذه الوظيفة علاقة بالتّركيب؟ أم إنّ التّركيب مستقلّ تحكمه ضوابط داخليّة لا تأثير للوظيفة فيها؟ وما المقصود بمبدأ؛ الوظيفة تحدّد البنية؟ ويحاول هذا المقال الموسوم بـ: تبعيّة البنية للوظيفة بين المفهوم والتّطبيق، الإجابة عنها.

1.مفهوم البنية

من بَنَى يَبْنِي بِنَاء، وبِنْيَةً؛ جاء في لسان العرب: (البِنْيَةُ والبُنْيَةُ ما بَنَيْتَه،.. يقال: بِنْيَة؛ وهي مثل رِشْوَة ورِشًا، كأنّ البِنْيَةَ الهَيْئَة الّتي بُنِيَ عليها؛ مثل المِشْيَة والرِّكْبَة... يقال بُنيَة وبُنًى وبِنْيَة وبِنًى)[1]، وبِنْيَةُ الشَّيْءِ: ما هو جوهري فيه، أو ما هو أصيل فيه وثابت لا يتبدّل بتبدّل الأوضاع والحالات[2]، وهي أنواع: بنية كلمة وبنية جملة وبنية نصّ، وبنية الكلمة عند النّحاة العرب هي صيغتها أو وزنها أو هيئتها المتمثّلة في عدد حروفها المرتّبة؛ أصليّة وزائدة، وحركاتها المعيّنة وسكونها[3].

والبنية في اللّسانيّات البنيويّة مجموعة من العلاقات النّظميّة الّتي تربط العناصر بعضها ببعض، وتقوم على قوانين داخليّة، والمعنى يستخرج من مجموع تلك العلاقات وفق أحكام لغويّة معيّنة تبعا لنظام تلك اللّغة[4].

وفي اللّسانيّات الوظيفيّة تعني التّرتيب الدّاخلي للوحدات الّتي تكوّن النّظام اللّساني، أو هي أجزاء مفردة تترابط ترابطا غير مستقلّ، لتشكّل نظاما من العلامات له علاقة وارتباط وثيق بأنظمة علاماتيّة أخرى محيطة بها من الواقع غير اللّغويّ، لها وظيفة تواصليّة ووظائف أخرى، فصارت تعني الأجزاء وعلاقتها المستقلّة بالعلم غير اللّغوي[5].

2.مفهوم الوظيفة

يقول ابن منظور (ت711هـ): (وَظُفَ: الوَظِيفَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ مَا يُقَدَّرُ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ رِزْقٍ، أَوْ طَعَامٍ، أَوْ عَلَفٍ، أَوْ شَرَابٍ، وَجَمْعُهَا الوَظَائِفُ والوُظُفُ، وَوَظَفَ الشَّيْءَ عَلَى نَفْسِهِ وَوَظَّفَهُ تَوْظِيفًا؛ أَلْزَمَهَا إِيَّاهُ، وقد وَظَّفْتُ لَهُ تَوْظِيفًا؛ عَلَى الصَّبِيِّ كُلَّ يَوْمٍ حِفْظَ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)[6]، وكلمة (وظيفة) في الدّراسة اللّغويّة لها معنيان[7]:

أ . الوظيفة بمعنى الدّور والغرض الّذي تؤدّيه اللّغة كظاهرة اجتماعيّة في الإفهام والتّواصل.

ب . الوظيفة بمعنى العلاقة القائمة بين مكوّنات المركّب الاسمي أو الجملة؛ كعلاقة الإسناد في الدّراسة الوظيفيّة للجملة، وكالعلاقات المقترحة في إطار الجهاز الوظائفي عند سيمون ديك، وتعني بدورها الوظائف الثّلاث:

الوظائف الدّلاليّة (المنفّذ والمتقبّل، والمستقبل...)، والوظائف التّركيبيّة (وظيفة الفاعل والمفعول)، والوظائف التّداوليّة (المبتدأ، المنادى، المحور، البؤرة، الذّيل)، وكالعلاقات الّتي بين العناصر اللّغويّة في البنية النّحويّة للتّعبير (الفونيم، المورفيم، الكلمة، المركّب...).

ومفهوما العلاقة والدّور مفهومان متباينان، فالعلاقة رابط بنيوي قائم بين مكوّنات الجملة، والدّور يخصّ اللّغة بوصفها نسقا كاملا، وهذا التّباين لا يلغي ترابطهما، إذ للّغة دور تسخّر لأجله كدور التّواصل، وهذا الدّور حاضر في العلاقات الدّلاليّة والتّداوليّة القائمة بين مكوّنات العبارات اللّغويّة، ويجب أخذه بعين الاعتبار في وصفها وتفسيرها، والرّبط بين بنياتها التّركيبيّة ووظيفتها التّواصليّة على أساس أنّ الثّانيّة تحدّد سمات الأولى؛ مكوّناتٍ ورتبةً[8].

والوظيفة عموما (هي الدّور الّذي يلعبه عنصر من العناصر (فونيم، مورفيم، مركّب، شبه جملة...) في البنية النّحويّة للنصّ، ومن بين هذه الوظائف وظيفتا المسند والمسند إليه المحدّدتان للعلاقات الأساسيّة في الجملة، ووظيفة المفعول الّتي هي مكمّلة لمعاني بعض الوحدات)[9].

3 . وظيفيّة حلقة براغ؛ (Prague Linguistique cercle)

3 . 1 توطئة

بدأ الاتجاه الوظيفي يبرز إلى الوجود وتتكوّن ملامحه مع حلقة براغ الّتي استفادت من آراء دي سوسير، واشتهرت في ميدان اللّسانيات بدراساتها الصوتية، وكوّنت لنفسها نظريّة لغويّة تَحدّدَ منهجها انطلاقا من عدّ اللّغة نظامًا وظيفيًّا يرمي إلى تمكين الإنسان من التّعبير والتّواصل، وفسّر أصحابها اللّغة بأنّها بنيات وظيفيّة يمكن تقطيعها إلى وحدات صغيرة لها وظائف خاصّة ومتميّزة، فضبطوا منهجًا للتّمييز بين ما هو وظيفي فيها وما ليس وظيفيًا[10].

فإذا كان دور اللّغة هو توفير أسباب التّواصل فإنّ دراسة اللّغة ينبغي أن تراعي ذلك، فكلّ ما يضطلع بدور في التّواصل ينتمي إلى اللّغة وكلّ ما ليس له مثل هذا الدّور فهو خارج عنها)[11]، ونظروا إلى اللّغة كما ينظر المرء إلى محرّك محاولا فهم الوظائف الّتي تؤدّيها أجزاؤه المختلفة، وكيف تحدّد طبيعة جزء معيّن طبيعة الأجزاء الأخرى[12].

فالبنى الصيّاتية والقواعدية والدّلالية محكومة بالوظائف الّتي تؤدّيها في مجتمعاتها، ومن الصّعوبة الفصل بين البنية اللّغوية، والوظيفة الّتي تؤدّيها فيسياقها، ويجب على الباحث أن يكشف ما إذا كانت كلّ القطع الصّوتيّة في البنية تؤدّي وظيفة في التّبليغ أم لا [13]، وكلّ وظيفة هي نظام من العلامات، أو وحدات لغويّة صوتيّة، وكلّ وحدة لغويّة لا حقيقة لها لغويّا إلاّ إذا ثبت أنّ لها وظيفة، أي أنّها تساهم بنصيبها في تبليغ المعنى[14].

3 . 2 . نظرتها الوظيفية للجملة (علاقة البنية بالوظيفة)

عبّر ماثيوس (Mathesius) عن نظرته الوظيفيّة في شكل ثنائيّات متمايزة تتعلّق بالطّرفين الأساسيين للجملة، وتأثير كيفيّة ترتيبهما في الوظيفة الّتي تؤدّيها الجملة، وهذه الثّنائيّات هي ثنائيّة الموضوع، والتّعليق أو البؤرة، وثنائيّة المتقدّم والمتأخّر، وثنائيّة المسلّمة والإضافة، فـ(المتقدّم) هو الشّيء المتحدّث عنه الّذي يفترض المتكلّم معرفة المخاطب له، و(المتأخّر) هو الجزء المتمّم للجملة الّذي يضيف إلى معلومات المخاطب السّابقة معلومات جديدة تتّصل بالمتقدّم، والمسلّمة هي ما يقدّمه المتكلّم من معلومات يدركها السّامع من مصدر ما في المحيط (المقام، أو النصّ السّابق)، والإضافة ما يقدّمه المتكلّم من معلومات لا يدركها السّامع[15]، وقد يحدث تغيير في البنية الواحدة بالتّقديم والتّأخير، ممّا يؤدّي إلى تغيير في المعنى، ويدلّ على تغيّر السيّاق، ونوضّح ذلك بهذا المثال؛ قوله تعالى: " **وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ۝٢٨** "(28 فاطر)، ونقارنه بقول العلماء في شرحها: إنّما يخشى العلماءُ اللهَ.

نجد أنّ المعنى ألإسنادي (أو النّسبة الخارجيّة) واحد فيهما، إذ كلاهما يفيد أنّ خشية الله تعالى تكون من العلماء، وبناء على ذلك فهما مترادفان تقريبا، ولكن من الواضح أنّهما يستعملان في سياقين مختلفين، ففي تبادل الرّتب يحدث

تغيير في المعنى، وفي ضوء هذا التّفريق يكون تفسير معنى القصر؛ إذ إنّه مع تقديم اسم الله تعالى يكون الغرض تبيين الخاشعين من هم، ويخبر بأنّهم العلماء دون غيرهم، وفي تأخير ذكر اسم الله تعالى وتقديم العلماء؛ يصبح الغرض بيان المخشى من هو، والإخبار بأنّه الله تعالى دون غيره[16]، فاختلاف البنيتين لاختلاف السيّاقين يفسّر ما يعرفه المخاطب حول موضوع الجملتين، وهو المقدّم، وأنّ الطرف الثاني غير معروف، وكما هو واضح فإنّ بنية كلّ جملة محكومة بالوظيفة الّتي يريد المتكلّم أن يؤدّيها خطابه أي الغرض الإبلاغي.

وقد تشترك بنيتان في الدّلالة العامّة، وتختلفان في بعض مكوّناتهما؛ كقوله تعالى: " **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٣٣﴾" (الأعراف 33)؛ في مقابل قول العلماء: ما حرّم ربّي إلاّ الفواحش، وهذا التّقابل لا يعني المطابقة وإسقاط الفرق بينهما، رغم أنّ الموضوع (المتقدّم) واحد هو: (حرّم ربّي)، والبؤرة (المتأخّر) في كليهما هو: (الفواحش)، لكنّهما ليستا سواء، فكلّ بنية تحمل دلالة خاصّة، بدليل اختلاف الأدوات الّتي تعيّن الهيئة أو الجهة وتحدّد المعنى بدقّة، فالأداة (إنّما) تدلّ على اللّين، وتشير إلى أنّ المتحدّث عنه ظاهر معلوم مسلّم به لا يحتاج إلى مشاحّة، ومن ثمّة فهو موجّه إلى فئة غيرم نكِرة ولا معاندة، عكس البنية (ما وإلاّ)، الّتي تدلّ على الشدّة، وأنّ الأمر فيه إنكار، فتستعمل مع متلقّ معاند، أو يجهل الأمر، فيتغيّر المعنى بتغيّر البنية.

ورغم إمكانيّة اشتراك هذه الأدوات في الدّلالة، وإمكانيّة تبادلهما في مواضع، فإنّه في مواضع أخرى غير ممكن بنويّا ودلاليّا، ففي قوله تعالى: " إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ " (آل عمران 62)؛ بنيويّا لا يصحّ أن تقول: إنّما من إله الله، لأنّ ذلك كلام لا معنى له، وتعليل النّحاة يؤكّد ذلك، فـ(من) في الآية الكريمة لا تكون إلاّ في النّفي، والنّفي في (إنّما) ضمنيّ[17].

وأمّا دلاليّا؛ فيمتنع التّبادل، لأنّه محكوم بمبدأ دلاليّ، يؤدّي إلى تغيير المعنى، وإذا وقع تبادل فذلك يعبّر عن وظيفة تبليغيّة أخرى؛ كقوله تعالى: " **إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ** ﴿٢٣﴾" (فاطر 23)، فرغم أنّ القصد هنا إعلام المخاطب بأمر يعلمه، وقد دلّ على ذلك مواضع أخرى؛ كقوله تعالى: " **وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴿٧﴾" (الرّعد 07)، إلّا أنّ الجملة جاءت بالبنية (إن وإلّا) الّتي تأتي في مواضع الإنكار والجهل، بدلا من (إنّما)، لغرض تأكيد النّفي، وتنبيه المخاطب ولفته إلى أنّه ليس له طاقة فوق ذلك، كما أنّ (إنّما) تفيد في مواضع أخرى التّعريض بأمر هو مقتضى الكلام، ويفهم من مضمون الجملة، وإسقاطها واستبدالها من شأنه سقوط ذلك المعنى المستفاد من النّفي المتضمّن.

ويمكن القول؛ إنّ الفروق الدّقيقة بين تلك الأبنيّة؛ غير مستقرّة، وغير مطّردة، ولكن مخالفتها يؤدّي إلى إسقاط هذه الفروق، والابتعاد عن المعنى المقصود[18].

إنّ مراعاة المتكلّم في اختياره لمكوّنات البنية اللّغويّة والتّأليف بينها؛ لأداء معنى بعينه، يريد أن يقع في ذهن المخاطب على هيئة تكوّنه في نفس المتكلّم، يحافظ على تفاعل المخاطب معه في عمليّة التلقّي والفهم والتّواصل والتّفسير، كما أنّ مراعاة سياقها من الكلام السابق واللاّحق يبرز موضع الدقّة، وينفذ إلى المعاني الظّاهرة والخفيّة ويرصد الدّلالات المختلفة لها[19]، فهو يؤذن بأنّ طرفي الكلام إمّا مرتبطين، وإمّا منقطعين فيستقلّ كلّ منهما، كقوله تعالى: "**يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا** ﴿١٧١﴾" النّساء، فقوله: "لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ" لا يتعلّق بجملة: " سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ"، وإنّما يتعلّق باسم الجلالة قبلها، ولذلك يجب الوقف على كلمة "وَلَدٌ" لأنّه لو وصل، لأوهم أنّه صفة لـ"ولد"، وأنّ المنفيَّ ولد موصوف بأنّ له ما في السّموات، والمراد نفي الولد مطلقا لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ" لا يتعلّق بجملة: " سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ"، وإنّما يتعلّق باسم الجلالة قبلها، ولذلك يجب الوقف على كلمة "وَلَدٌ" لأنّه لو وصل، لأوهم أنّه صفة لـ"ولد"، وأنّ المنفيَّ ولد موصوف بأنّ له ما في السّموات، والمراد نفي الولد مطلقا[20].

وتختلف مكوّنات الجملة من حيث درجة حركيّة التّبليغ، طبقا لقدم وجدّة ما تحمله من معلومات، فتتقدّم المكوّنات الحاملة لمعلومات قديمة (المعطاة)، وتأخذ أدنى درجات الحركيّة التّبليغيّة، وتتأخّر أو تتوسّط المكوّنات الحاملة معلومات جديدة، وتأخذ أعلى درجات الحركيّة التّبليغيّة[21].

ففي قوله تعالى: " **وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾** " (البقرة 49)، الجملة هنا مركّبة والمكوّن الحامل لوظيفة المحور هو: "يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ "، يحمل معلومات قديمة (معطاة)، وهو المتحدّث عنه، والمكوّن الحامل لوظيفة التّعليق هو: " يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ " تعليق مركّب، وهو الجزء المتمّم للجملة يحمل معلومات جديدة، يضيفها إلى معلومات قديمة متّصلة بها.

ونلاحظ هنا أنّ التّعليق يأخذ أعلى درجات الحركيّة التّبليغيّة، لما يحمله من معان تفصّل و توضّح ما جاء مجملا من معلومات في المكوّن المحور، يؤكّد ذلك أنّ البنية (الاستحياء) الّتي على وزن استفعال، ظاهرها يدلّ على الطّلب للحياة، أي: يبقوهنّ أحياء أو يطلبون حياتهنّ، وهذا الاستحياء للإناث كان القصد منه خبيثا، وهو أن يعتدوا على أعراضهنّ، ولا يجدن بدّا من الإجابة بحكم الأسر، فيكون قوله: " وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ " كناية عن استحياء خاصّ، ولو كان المراد منه ظاهرهل ما كان وجه لعطفه على تلك المصيبة[22].

ومن ملاحظة هذه البنيات ـ على المستوى ألإفرادي ـ تظهر أنّ ثمّة وحدات لسانيّة مختلفة من حيث البناء، والتّقابل بينها يعكس الفوارق الدّلاليّة بينها، ممّا يؤكّد أنّ لكلّ كلمة وظيفة داخل التّركيب، وينطبق نفس المنهج على المستوى الصّوتي وهذا ما نلاحظه عند أندريه مارتيني.

4. التّحليل الوظيفي للجملة عند أندريه مارتيني

ينحصر في بيان الوظائف الّتي تؤدّيها اللّغة في بيئتها، من خلال دراسة الأصوات الوظيفية وتفاعلها مع الواقع الّذي توجد فيه، والّذي يعبّر عن المستوى الكلامي، حيث يتجلّى المنظور الوظيفي والقيمة الاتّصاليّة للّغة[23].

1.4. عناصر تحليل العبارة اللّغويّة عند مارتيني

تظهر في:

أ. التّركيب الإسنادي

والنّهج الّذي جرى عليه مارتيني، في تحليله، لا يبعد عن سابقيه، وفيه ثلاثة عناصر لتحليل الجملة، هي[24]:

/ العنصر المركزي وهو المحمول، أي المسند: لا يمكن حذفه؛ يدلّ على فحوى الكلام، يحمل معلومات معروفة.

/ أداة التّحصيل، أي المسند إليه: عنصر إلزاميّ لا يمكن حذفه، له موقع في الجملة، يدخل على المسند، وقد يكون مستقلاّ عنه، يُشترط فيه حمل معلومات جديدة للسامع.

/ أنماط الإلحاق، أي التكملة؛ نحو: النّعت والعطف والإضافة والظّرف...

كقوله تعالى: " **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾** "(آل عمران 144)؛ فرسول مسند، ومحمّد مسند إليه، و" قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ" تكملة (نعت)، وهذه التّكملة تتكوّن من مسند (خلت) ومسند إليه (الرّسل) وأنماط إلحاق (قد، من قبله)، وفي قوله تعالى:" وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾**" (الشّورى 10)، المسند: توكّل، والمسند إليه: تاء الفاعل، والجار والمجرور: تكملة، و(عليه وإليه) أداة تحصيل تقدّمت على المحمول (توكّلت، أنيب) لأداء وظيفة التّخصيص.

وقد اختلفت بنيات هذه الآيات لأداء وظائف تواصليّة مختلفة، وهي تتكوّن من وحدات، وكلّ وحدة منها تخضع إلى نوعين من الضّغوط المتقابلة[25]:

ضغط أفقي قائم على التّماثل؛ ناتج عن تعاقب الألفاظ في سلسلة الكلام وفيه (تجاذب) بين الوحدات المتجاورة، وضغط عمودي قائم على التّباين تفرضه الوحدات المنحدرة والّتي كان بالإمكان ـ في غير القرآن الكريم ـ أن تحلّ في موضعها، وبذلك يمكن التّمييز بين الكلمات الوظيفيّة، أي بين العناصر الّتي لها الصّدارة والعناصر المتمّمة، أو

التّمييز بين الصّيغ الصّرفيّة الّتي تعيّنُ الهيئة أو الوجهة أو العدد...

وهذه الوحدات ترتبط فيما بينها بعلاقات دلاليّة تلاؤميّة مختلفة، تتّفق مع منطق الأشياء خارج اللّغة، وتتضمّن معانيَ نحويّة وظيفيّة كوظيفتي المسند إليه والمسند كما فيقوله تعالى: " **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝** " (البقرة 50)، فالمسند إليه والمسند " أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ"، ارتبطا بعلاقة الإسناد وهي علاقة نحويّة سياقيّة دلاليّة، فلكلّ مكوّن معنى معجميّ، وبطريق التّجاور والتّأليف حدث بينهما اقتران دلاليّ نحويّ، فهاتان العلاقتان (الدّلاليّة والنّحويّة) نشأتا من خلال التّركيب الإسنادي، ولولا هذه العلاقة لوقع انفصال بينهما، ولما كان ارتباط وتواصل[26].

وكذلك ما بين الفعل: (فرق) و(نا الفاعل) و(البحر)، فعلى مستوى الإفراد يقع الانفصال، وعلى مستوى التّركيب يكون الارتباط، وهذا التّركيب ناشئ عن علاقة إسناديين الفعل "فرق" والفاعل "نا"، بالإضافة إلى علاقة التّعديّة بين هذا الفعل والمفعول "البحر"، وأنماط الإلحاق كالرّبط بالأداة، والّتي تؤدّي إلى تغيير في المعنى أو تقييده، فالأداة (الواو) في: " أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ" أدّت علاقة الملابسة، أي: إفادة الحال[27]، أو ما يسمّى (المعنى النّحوي الوظيفي).

ونوضّح أكثر بقوله تعالى: " يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ **وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ** ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ " (البقرة 20)، وقع الإسناد بين الفعل (شاء) واسم الجلالة (الله)، وأنماط إلحاق مختلفة؛ كالعطف بالواو بين "سمعهم" و"أبصارهم" والّتي أغنت عن تكرير الفعل "ذهب"، ولو حذفت لحصل معنى مختلف عن المعنى المقصود، وتصير العلاقة بين سمعهم وأبصارهم دالّة على الوظيفة النّحويّة (بدل الغلط) جلّ الله سبحانه وتعالى عن ذلك، أو تحمل وظيفة إضراب عن المعنى الأوّل، فيفهم أنّه ذهب بأبصارهم لا بسمعهم، ومن أجل أمن اللّبس في فهم ذلك، جاءت الواو لإفادة المغايرة والدّلالة على الشّركة بين "سمعهم وأبصارهم"[28].

ويتّضح لنا ممّا سبق أنّ المستوى الدّلالي المستفاد من المعنى المعجمي للألفاظ مسؤول على إبراز التّركيب النّحوي، والمستوى التّركيبي مسؤول على إبراز المعنى الدّلالي، وأنّ هذه العلاقات النّحويّة وظيفتها أمن اللّبس، وإنشاء التّركيب، وأنّ معنى الجملة ينشأ عبر تضافر علاقات نحويّة سيّاقيّة تسير في خطّ أفقيّ متواز مع علاقات دلاليّة، وبهما معا يكون التّركيب الإسنادي، فيتحقّق التّواصل.

ب.الوظيفة الصياتيّة

اللّغة ظاهرة صوتيّة، ولها وظائف تظهر من خلال التّقطيع والاستبدال، وهذا ما قام به أندريه مارتيني فيما أسماه بقانون المقابلة والتبديل، إذ على الباحث أن يسعى إلى الكشف عن القطع الصّوتيّة الّتي يمكنها أن تغيّر المعنى كلّما استبدلت بأخرى، وذلك دليل على أنّ لها وظيفة، وإذا أراد الباحث تحليل مدوّنة تحليلا وظيفيّا عليه أن يحصي مجموعة من الوحدات اللّغويّة، ثمّ يرتّبها من حيث الشّبه والاختلاف ويقابل بينها، فتتّضح له الفوارق الّتي تعكس قيمتها؛ أي وظيفتها[29]، ويظهر ذلك من خلال:

.التّقطيع المزدوج:(ladouble Articulation)

هو من أهمّ المبادئ المميّزة للأنظمة اللّسانيّة البشريّة عن التّنظيمات الاتّصاليّة الأخرى؛ كلغة الحيوان والطّبيعة والإشارات، وهو القطب الّذي تدور عليه رحى الوظيفيّة، وفيه تعزل القطع إلى وحدات وتكتب على شكل تسلسلي، ثمّ يتمّ تحديد دلالاتها ومعانيها واستبدالها لاكتشاف وظائفها، وبفضل هذا التّقطيع يمكن الحصول على تراكيب غير محدودة من العبارات انطلاقاً من عدد محدود من المقاطع، وتحليل الوحدات اللّغويّة يتمّ على مستويين[30]:

.التّقطيع الأوّل

تقطيع مكوّنات الجملة إلى وحدات ذات دلالة ومعنى، أي المونيمات (les monèmes)؛ وهي الّتي عن طريق التّأليف بينها يمكننا التّواصل، ويتناول الكلمات في صورتها اللّفظية ومن حيث مضمونها؛ مثل: " **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ** رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ "(الفاتحة 02):/ال/ حمد/ ل/ الله/ فـ(ال) محدّد تركيبي **لمجال** الاسم؛ له وظيفة التّخصيص، وتعريف الجنس وتحيل على ما بعدها، وتمنحه وظيفة/ و(حمد) اسم للجنس بمعنى الشّكر والثّناء؛ له وظيفة نحويّة (المسند إليه)، يتّحد مع (ال) ليدلّ بمعناه المعجمي على القصر على ما بعده/ و(الله) اسم الجلالة اسم للإله الواحد الخالق المتحكّم في

الكون والنّاس ، له وظيفة نحويّة (المسند)، ومعناه المعجمي ورتبته يجعله مقصورا عليه.

نلاحظ أن هذا المثال يحتوي على مونيمات متتابعة ، ويسمّى معنى كلّ لفظة مدلولا ، وصيغتها الصّوتية دالاّ ، وهي وحدات دنيا يستحيل تحليلها إلى وحدات أصغر منها وذات معنى ، ويمكن استبدالها بوحدات أخرى - في غير القرآن الكريم - ضمن قائمة مفتوحة ، فالوحدة "الحمد" وحدة معجميّة ، تنتمي عموديّا إلى قائمة مفتوحة ، لأنّ عدد وحداتها متزايد ؛ مثل: الشّكر ، الثّناء ، الطّاعة ، العبادة.... وتنتمي أفقيّا إلى قائمة نحويّة صرفيّة مغلقة ، يمكن استبدالها بها (في غير القرآن الكريم) مثل: حمدي لله ، حمدك ، حمده... فالوحدة (ي) وحدة نحوية صرفيّة تنتمي إلى قائمة مغلقة لأنّ عدد وحداتها محدود.

وقوله تعالى: "قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ** ﴿٥٤﴾" (النّور 54)،←/إن/ تدلّ على الشّرط لها وظيفة تقيد ربط جملتين متلازمتين ، /تطيع/ وحدة معجميّة نحويّة صرفيّة تدلّ على المسند ، ولها وظيفة استبداليّة/ الواو في تطيعوا/ وحدة صرفيّة ؛ لها وظيفة نحويّة تدلّ على المسند/ الهاء/ وحدة صرفيّة نحويّة تدلّ على المفعول/ تهتدوا/ وحدة معجميّة صرفيّة نحويّة ، /ما/ تدلّ على النّفي لها وظيفة استبداليّة /على/ تدلّ على الاستعلاء لها وظيفة استبداليّة ، تحدّد وظيفة ما بعدها /ال/ تدلّ على التّعريف لها وظيفة تركيبيّة /رسول/ لها معنى معجمي ، لها وظيفة نحويّة تشكّل مع الجار مسندا /إلاّ/ تدلّ على الحصر لها وظيفة استبداليّة /ال/ تدلّ على التّعريف /بلاغ/ له معنى معجمي ؛ له وظيفة نحويّة تحيل على الجدول التّركيبي /ال/ تدلّ على التّعريف/مبين/ تدلّ على التّكملة (نعت)، تحيل على الجدول التّركيبي لها وظيفة نحويّة وهو محدّد معجمي مخصّص للاسم[31].

وتتحدّد وظيفة كلّ مونيم داخل الجملة انطلاقا من الصّلات والعلاقات القائمة بين الوحدات اللّسانية ، وما ينتج عنها من تأثير في طبيعة التّركيب ، ويجب معرفة موقعها وانتظامها لمعرفة وظيفتها التّركيبيّة والدّلاليّة ، فيتحدّد دورها في التّواصل[32].

وتلعب السّمات المعجميّة والدّلاليّة للمكوّن دورا في تحديد وظيفته النّحويّة ، فالسّمات المعجميّة والدّلاليّة للفعل يزأر مثلا جعلته مفتقرا إلى منفّذ (فاعل)، وفي غنى عن هدف (مفعول)، وهكذا الحال مع كلّ الوحدات ، فسمات التّعدّي واللّزوم والمشاركة سمات دلاليّة تتوقّف على المعنى المعجمي للكلمة ، ولها تأثير في الوظيفة النّحويّة ، ولهذا يجب ألا يكون الوصف النّحوي للجملة شكليّا منعزلا عن معناها وعن العلاقات التّلاؤميّة بين مكوّناتها ، بل يركّز على العلاقات السيّاقيّة النّاشئة بين المكوّنات[33].

2.التّقطيع الثّاني

يقوم بتحليل تلك الوحدات المستقلّة ذات المحتوى الصّوتي والدّلالي إلى فونيمات (phonèmesles)، أي إلى أصغر وحدات صوتيّة ليس لها معنى معجمي[34]، ولكنّها قد تدلّ ، ولها قيمة ووظيفة ، وهناك تقطيع آخر في العربيّة أقلّ من هذه الوحدات الصّوتيّة ؛ وهي العلامات التّشكيليّة ، وهي الكسرة ؛ أقلّ من الياء ، والفتحة أقلّ من الألف ، والضمّة أقلّ من الواو ؛ وهي تدلّ ولها وظائف كتحقيق الحالات الإعرابيّة ، ولا تحمل معاني ، يسمّيها المتوكّل لواصق وصرفات تلحق بوحدة معجميّة لتحقيق وظائف[35].

كقوله تعالى: " **وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا** نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾"(الجاثية 24) ← و/ ق/ ا/ ل/ و/ ا/ م/ ا/ ه/ ي/ إ/ ل/ ل/ا ... فالواو لها وظيفة الاستئناف وتدلّ على عدم اشتراك اللّاحق في حكم ما قبلها/ والقاف لا معنى لها ولا تدلّ ، لها وظيفة تمييزيّة استبداليّة ذات طبيعة اقتصاديّة ، إذا استبدلت بحرف آخر تغيّر المعنى/ وكذلك الألف واللّام/ بينما الواو الثّانيّة (لها وظيفة تحيل على الجدول التّركيبي الصّرفي)، تدلّ على الفاعليّة والجمع ، ولها وظيفة استبداليّة لأنّه يمكن استبدالها باسم ظاهر في غير القرآن الكريم ، والضمّة لا معنى لها ، ولها وظيفة استبداليّة اقتصاديّة ، تنتمي إلى الجدول الصّرفي ، وبالاستبدال يظهر دورها.

وهذا التّقطيع لا يعنى فيه إلاّ بالصّورة اللّفظيّة ، فاستبدال مقطع صوتيّ بمقطع من نفس النّوع لا يؤدّي في كلّ حالة إلى نفس التّغيير المعنويّ فنقل «ا» من قال إلى زال ، لا يغيّر صورة المدلولات الّتي هي مختلفة في أصلها ، عكس ما هو

الحال عليه في التّقطيع الأوّل[36]، فالفونيم عبارة عن نماذج صوتيّة لها سمات خاصّة، ولها القدرة على التّمييز بين الكلمات وأشكالها في كلّ اللّغات بإبدالها بفونيمات أخرى وتغيير رتبتها، وهو ما يشبه فكرة التّقاليب والتّبادل في الاشتقاق الأكبر في العربيّة.

ولهذا المبدأ قيمة لسانيّة، لأنّه يمنح اللّغة القدرة على التّعبير عن اللاّمتناهي من الأفكار والمعاني بواسطة هذا العدد المحصور من الفونيمات، وهذا ما يؤسّس مفهوم الاقتصاد اللّغوي في اللّسانيّات، ويؤدّي إلى تحسين المردود الوظيفي؛ الّذي هو وظيفة لسانيّة[37].

فلو أخذنا مدوّنة مكوّنة من قاد، عاد، ساد، ثمّ قمنا بتقطيعها إلى أصغر وحدات غير دالّة (فونيمات)، لاتّضحت الفوارق وأوجه التّشابه على مستوى المخرج أو الصّفة[38]، على هذا النّحو:/ ق/ = لهوي + مجهور + شديد + مستعل.

/ ع/ = حلقي + مجهور + بيني.

/س/ = أسناني + مهموس + صفيري. فهذا التّقابل بين الفونيمات على مستوى الصّفة والمخرج؛ يؤكّد أنّ لها جميعا وظيفة، وهي قدرتها على تغيير معاني هذه الكلمات، والتّعبير عمّا يختلج النّفس؛ قال تعالى. على لسان قارون: "**قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ** أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ " (القصص 78)، هذا التّجمّع الأصواتي أو الفونيمي يتّفق مع إيقاع النّفس، وفيه تصوير لصلافة صدر قارون وكبره؛ يظهر من خلال بطء المقاطع وتأتأته وعلعلته[39].

وقال تعالى: " **هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ " (الحشر 23)، هذا التّعبير مبنيّ على حروف اللاّم والألف والهاء والواو، وقد تعدّد في القرآن الكريم حين يكون المقام أو النّسق شديد التوهّج والجلال، والأصوات خارجة من الأعماق دون عائق يصل بها النّفس إلى منتهاه، ولا يبقى إلاّ قلب نابض بالتّوحيد[40].

2.4. علاقة البنية بالوظيفة عند مارتيني

تظهر من خلال ازدواجيّة التّقطيع الّتي تقتضي من المتكلّم أن يختار من اللّغة ما به يعبّر ويبلّغ، ولا مبرّر لاختياره علامة دون أخرى إلاّ لأنّها تستجيب لغايته، ولا يقيم بينها وبين غيرها علاقات معيّنة في خطابه إلاّ لأنّها تساهم معها في أداء الرّسالة، ممّا يدعو إلى البحث عن نوع العلاقات الحاصلة بين الوحدات[41]، أي البحث عن وظيفة كلّ وحدة منها، دون تجاوز الصّيغة الخطيّة في الكلام (تتابع الوحدات)، فمرتبة الوحدات مفيدة بقدر ما تفيد الفروق الصّوتيّة، إذ تكشف عن نوع العلاقات الّتي تقوم بينها في سلسلة الكلام، ولذلك يصنّف مارتيني الوحدات اللّغويّة إلى مونيمات انطلاقا من وظائفها، وتظهر في[42]:

أ. المونيم الوظيفي (m.fonctionnel): وهو الّذي يساعد على تحديد وظيفة عناصر أخرى مشاركة له في التّركيب، ولا يمكن لها أن تستقلّ بنفسها في السيّاق الّذي ترد فيه؛ كوظيفة: (ما وإلاّ)، و(إنّما) و(ال) التّعريف وضمير الفصل، وحروف العطف وغيرها، فـ(ما/ إلاّ)؛ تدلّ على تعبير خاصّ لغرض خاصّ، يختلف عن تعبير وغرض (إنّما) الّتي يؤدّي وجودها وظيفة ومعنى يختلف عن البنية المجرّدة منها، فلكلّ منها وظيفة في التّركيب، ولا معنى لها في ذاتها، لأنّها مخصّصات تساعد على تحديد وظيفة عناصر أخرى، ولها دور في تحديد الموضوع والبؤرة وتحديد المعنى[43].

ومن المخصّصات ضمير الفصل؛ ففي قوله تعالى: "**إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ** ﴿١٣﴾ "(البروج 13)، تحدّد العلاقة بين المونيم: "هو" والمونيم المتقدّم عليه والمتأخّر وظائفهم، فالهاء في "إِنَّهُ" (مسند إليه)، و"يُبْدِئُ" (مسند)، والضّمير "هو" جاء للفصل في الدّلالة، لأنّ الفعل بعده متنازع فيه، فهناك من كان يعتقد بأنّ هذا الفعل مشترك فيه، فجاء ضمير الفصل لأداء وظيفة التّخصيص، والفصل في الأمر وليدلّ على قصر الفعل على الله سبحانه وتعالى، فيتحدّد المعنى المقصود، وفي حذفه لا يظهر هذا الغرض الإبلاغي، فالمحتوى الدّلالي للمونيم يكسبه وظيفة خاصّة مستقلّة، ومميّزة داخل التّركيب؛ لا يمكن استبدالها.

والأدوات السّابقة الذّكر تحوّل معنى الجملة الإعلامي الصّرف، وتصبغ عليها معنى آخر، وتدخلها في أسلوب خاصّ من أساليب التّعبير، رغم افتقارها إلى غيرها، ولها وظائف تؤدّيها؛ فهي واصلة لأجزاء الكلام، ويسمّى أسلوب تعبير الجملة باسم الوظيفة الّتي تؤدّيها الأداة[44]، ويستخدمها المتكلّم لإحكام دلالة الجملة، وإتمام إفادتها حتّى يطابق

الكلام مقتضى الحال، إذ يتوسّل بها لإنشاء معان مختلفة تقتضيها ظروف التّعبير[45].

ب. التّركيب الإسنادي (le syntagme prédiatif):

لا يوحي بذاته عن نوع العلاقة الّتي تحصل بين الوحدات، كالرّتبة، والتّقديم والتّأخير، وقد سبق التطرّق إليه.

5. نظريّة النّحو الوظيفي التّداولي

1.5. توطئة

يتزعّم هذه النّظريّة سيمون ديك الهولندي، ومن العرب أحمد المتوكّل، وقد تأثّر هذا الاتّجاه بالفلسفة التّحليليّة ذات الفروع اللّسانيّة واتّجاهها الوظيفي في دراسة الظّواهر اللّغويّة، والّتي لا تفصل الإنتاج اللّغوي عن شروطه الخارجيّة[46]، ومن الفلاسفة الّذين تأثّرت بهم الفيلسوف الإنجليزي أوستن Austin في نظريّته (أفعال الكلام)، وسيرل Searle وغرايس Grice، وخلافا للاتّجاه الوظيفي الأوّل ترى هذه النّظريّة وجوب العودة إلى السّياق اللّغوي والحالي لفهم المعنى، ودراسة ظواهر اللّغة بوصفها كلاما مستعملا من قبل شخص معيّن في مقام معيّن، موجّه إلى مخاطب معيّن، لأداء غرض معيّن، مهتمّة بالنّظام وبالكلام وما يتبعه من ملابسات خطابيّة أثناء الأداء.

فخصّصت للجانب التّداولي في نموذجها الوصفيّ مستوى إجرائيًا، ينطبق على مختلف الألسنة البشريّة، دوره التّمثيل لأثر المقام في صياغة الجملة وتفسيرها[47].

وانبثق عنها نموذج وصفيّ تفسيري أهمّ ما فيه المبدأ الوظيفي الّذي نصّه: بنية اللّغات الطّبيعيّة ترتبط بوظيفتها ارتباطا يجعل البنية انعكاسا للوظيفة[48]، أي أنّ خصائص بنيات اللّغات تحدّد بحسب الأهداف التّواصليّة الّتي تستعمل هذه اللّغات لتحقيقها، ومن مبادئها أيضا أنّ النّحو الأكفؤ هو النّحو الّذي يسعى إلى تحقيق الكفاية النّفسيّة والنّمطيّة والتّداوليّة، وأنّ موضوع الدّرس اللّساني هو وصف القدرة التّواصليّة للمتكلّم/ المخاطب[49].

2.5. تبعيّة البنية للوظيفة

أهمّ المبادئ وظيفيّة وأشدّها إجرائيّة وأقواها حضورا في الممارسة التّطبيقيّة هو مبدأ؛ بنية اللّغات الطّبيعيّة تابعة إلى حدّ بعيد لوظيفتها، وعليه فإنّ علاقة البنية بالوظيفة تعني ارتباط التّراكيب اللّغويّة بمقاصد الخطاب ومقتضيات الحال ارتباطا يجعل الأولى تابعة للأخيرة تبعيّة قويّة، ذلك أنّ الخصائص التّداوليّة للعبارات اللّغويّة تتفاعل في تحديد خصائصها البنيويّة، أي تتحدّد الخصائص البنيويّة للعبارات اللّغويّة (صرفا، وتركيبا، وتنغيما) انطلاقا من الأغراض التّواصليّة الّتي تستعمل هذه العبارات وسائل لتحقيقها[50].

فلكلّ مقام تركيب، وباختلاف المقامات تختلف وجوه التّراكيب، كما أنّ كلّ أداة من الأدوات الّتي يستعملها المتكلّم تلائم الوظيفة المستعملة من أجلها، ولا يمكن وصف الخصائص البنيويّة وصفا مُرضيا دون الرّجوع إلى الخصائص الوظيفيّة، والدّلاليّة، والتّداوليّة[51].

فتقديم المفعول على الفعل مثلا يغيّر في شكل الجملة، لأداء وظيفة تواصليّة تداوليّة يقصد من ورائها المتكلّم ردّ خطأ أو شكّ وقع فيه المخاطب، أو تصحيح وهمه في تعيين المفعول، كأن يعتقد هذا المخاطب إمكانيّة وقوع الفعل على أيّ مفعول كان، ممّا يجعله يضع المفعول في رتبته الأصليّة، فيصحّح له المتكلّم خطأه بتقديم المفعول، لتخصيصه؛ كقوله تعالى: "**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝**" (الفاتحة 05)، بمعنى نخصّك بالعبادة، لا نعبد غيرك، ونخصّك بالاستعانة فلا نستعين بغيرك، فبنية الجملة بتقديم المفعول على الفعل تابعة لوظيفة مكوّناتها.

وبناء العبارة في الحقيقة هو بناء اختلاجات قبل أن يكون تصميم قوالب، ويقود هذا إلى معرفة طبقات مقاميّة معيّنة تمثّل القواعد التّداوليّة، إضافة إلى القواعد التّركيبيّة والدّلاليّة والصّوتيّة، والّتي تمكّن من تحقيق الأهداف التّواصليّة، وهي مفاهيم تستعمل الوظيفة بمفهوم العلاقات البنيويّة القائمة بين مكوّنات الجملة بدرجات متفاوتة[52].

والعلاقة بين البنية والوظيفة مرتبطة بالفروق بين ضروب التّراكيب الّتي لا تستعمل في نمط مقاميّ واحد، بل في أنماط مقاميّة متباينة استجابة لمقتضيات الحال، فالتّباين في الأنماط المقاميّة يستلزم التّباين في التّراكيب[53].

ونوضّح هذه العلاقة بهذه الموازنة بين آيتين تشابهتا حكما وألفاظا واختلفتا في المعرض، فجاءت إحداهما خاليّة من التّوكيد، والثّانية توالت فيها أساليب التّوكيد بالقصر:

قال الله تعالى : " **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧** (الأحقاف 07)، وقال: " وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٤٣" (سبأ 43)،

فآية (الأحقاف) ضمن آيات تناقش في هدوء فكرة الخلق والوحدانيّة، وإبطال عبادة الأصنام، فجاءت البنية إخباريّة خالية من التّوكيد، أمّا آيات (سبأ) فالأسلوب أعنف، ويتحدّث عن موقف المشركين من النّبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) في الدّنيا، مصوّرا انفعالاتهم الصّبيانيّة في ثلاث جمل متواليّة ثائرة بأسلوب القصر لأداء وظيفة التّأكيد؛ ودلالة على الغضب، فكان النّفي بـ(ما) و(إلاّ) مرّتين ثمّ بـ(إن) و(إلاّ)، وتكرار اسم الإشارة وتنكير "رجل" يظهر ثورتهم وتوقيرهم المتكلّف لشرك الآباء، ووصف الإفك بالافتراء والسّحر بالإبانة[54].

فترتيب المتكلّم لعبارته مرتبط بشروط مقاميّة تعود إلى قصده وإرادته، فقد يقصد من وراء حديثه إضافة معلومة لم تكن متوفّرة عند المخاطب، أو يريد الحصر ورفع التوهّم أو الشكّ أو توكيد معلومة يعتقد أنّها الواردة، فيقدّمها مصحوبة بإحدى أدوات التّوكيد، أو يصدّرها في أوّل الحمل، أو يسقط كلمة أو يحذف مكوّنا لتأديّة وظيفة يريد من المخاطب أن يقع عليها، وكلّها أغراض تواصليّة لها دورها المؤثّر في البنية اللّغويّة.

ففي قوله تعالى: "**وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤**" (النّجم 43-44)، جيء بضمير الفصل، لأداء وظيفة الحصر، وتأكيد أنّ هذا المعنى من شأن الله تعالى، وأنّه لا يكون إلاّ منه، فيبطل الشّريك، فمن الله تعالى الإحياء والإماتة، ونزلت الأفعال منزلة الفعل اللّازم، فلم يذكر المفعول به رغم أنّها متعديّة لأداء وظيفة تخصيص الفاعل بالفعل، وإثبات انفراد الله سبحانه وتعالى وحده بالتصرّف في الإنسان وأحواله[55].

ومثله في قوله تعالى: "**وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝٢٣** " (القصص 23)، حذف المفعول به في أربعة مواضع؛ بعد الأفعال: يسقون، تذودان، نسقي، سقى، لأنّه لا يهمّ المتلقّي، بل يهمّه من قام بها، إذ المعنى: يسقون أغنامهم أو مواشيهم، وتذودان غنمهما، لا نسقي غنما، فسقى لهما غنمهما، فحذفه كان لأداء وظيفة لن تكون بوجوده، وهي أن يعلم أنّه كانت هذه الأفعال، أمّا المفعول فخارج عن الغرض[56].

وتغيّر أشكال الرّتب؛ يدلّ على اختلاف البنيات اللّغويّة لاختلاف الوظائف التّواصليّة، وهي محكومة تداوليّا، وإن بدت حرّة في المقاربات غير الوظيفيّة، والرّتبة نوعان[57]؛ محفوظة يتحتّم الإتيان بها في موقعها؛ كحروف الجرّ، وحروف النّفي والاستفهام، والعطف.

وغير محفوظة؛ يمكن فيها لإحدى الكلمتين أن تتقدّم أو تتأخّر بحسب حاجة الاستعمال؛ أو لغرض يتعلّق بالمعنى لا بالبنية الشّكليّة، وموجّهة لمستمع محدّد؛ ومنها تقديم المسند إليه لغرض إبلاغي ولتأديّة وظيفة تواصليّة كالتّخصيص؛ كما في قوله تعالى: " **ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥** " (البقرة 15)، تقدّم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقويّة الحكم وإفادة التّخصيص، أي: الله العظيم سبحانه وتعالى يتولّى أمرهم ومقابلة سوء صنيعهم[58].

وقوله تعالى: " **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٤** " (البقرة 134)، تقديم المسندين على المسندين إليهما في: " لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ "؛ أي ما كسبت الأمّة لا يتجاوزها إلى غيرها، وما كسبتم لا يتجاوزكم، وهو قصر إضافي جاءت بنيته على هذه الصّورة لأداء وظيفة أساسيّة؛ هي قلب اعتقاد المخاطبين، الّذين يزعمون أنّ ما كان لأسلافهم من فضائل يزيل ما ارتكبوه هم من المعاصي أو يحمله عنهم أسلافهم[59].

وتقديم ما حقّه التّأخير يستخدم في مواطن فيها إهانة وتحقير، أو تعظيم وتفخيم، وتحديد ملامح هذا الطّريقلا يسدّها غيره، حيث لا تكون الحقيقة المخبر بها ممّا يجهله المخاطب، ولا تكون ممّا يعلمه، والمقامات هنا أشبه بالمقامات المقتضيّة للأساليب الحقيقيّة، ولذلك يعدّ مظهرا يمثّل قدرات تعبيريّة يديرها المتكلّم للبوح بأفكاره[60]، ومن أشكال التّقديم الّذي تحكمه الوظيفة التّداوليّة:

تقديم المسند على المسند إليه للتّخصيص أو الاهتمام، وقد يتعدّى إلى وظيفة أخرى؛ كإفادة التّوبيخ كما في قوله تعالى: " **وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ**

مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتَّكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ " (الحجرات 07)، فهو توبيخ للقوم على فرط منهم ورسول الله بينهم لذلك قدّم الخبر (فيكم) لأنّه مناط التّوبيخ والزّجر[61].

وتقديم المفعول به لأداء وظيفة العناية والاهتمام والحصر، وردّ الخطأ في التّعيين؛ كقوله تعالى: " يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ **وَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ** ٤٠ " (البقرة 40)، فتقديمه متعيّن للاختصاص، ليحصل من الجملة إثبات ونفي، إثبات حاصل بالمنطوق هو الأمر برهبة الله تعالى، ونفي يكون بالنّهي عن رهبة غيره حاصل بالمفهوم في صيغة واحدة[62].

تقديم المجرور على المتعلّق به، لغرض تحقيق الاهتمام به، أو تخصيصه؛ كقوله تعالى: "ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ **لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ** مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ " (البقرة 255)، لأداء وظيفة الردّ على أصناف المشركين وإبطال العقائد الضالّة وتعليم التّوحيد[63].

خاتمة

تعدّ نظريّة النّحو الوظيفي نظريّة ذات فائدة لسانيّة هامّة؛ فقد اهتمّت بتغطيّة جوانب أساسيّة في الظّاهرة اللّغويّة، ونجحت في سدّ ثغرات خلّفتها النّظريّات غير الوظيفيّة في جوانب حيويّة كالكلام وملابساته، وسياق الحال، ومن النّتائج الّتي وصل إليها هذا المقال:

. مبدأ (تبعيّة البنية للوظيفة) أقوى المبادئ حضورا في الممارسة التّطبيقيّة، واعتماده في دراسة اللّغات بما فيها اللّغة العربيّة، يسهم في وصف ورصد خصائصها وتفسير ظواهرها التّواصليّة، ويساعد على تعليمها.

. البنية لا تعني شكل الجملة والعلاقة القائمة بين مكوّناتها فقط، بل هي نظام يربطها بالعالم الخارجي ويسمح لها بالتّفاعل مع الظّروف، فتتّخذ شكلا أوسع يفوق السّياق.

. تآلف البنيات في كونها أنماطا مقاميّة؛ لا يعني أنّها مترادفة يحلّ بعضها محلّ بعض، فكلّ بنية تستعمل في طبقة مقاميّة لغرض تخاطبيّ يباين أغراض البنيات الأخرى، ويعطي مساحة واسعة للتّعبير عن المعنى، نحو: إنّما أنت شاعر/ ما أنت إلاّ شاعر/ شاعر أنت/ أنت هو الشاعر/ شاعر أنت لا كاتب/ أنت شاعر لا كاتب... فيفسح المجال للخيارات التّعبيريّة، ويكشف فاعلية السّياق والمواقف الوجدانيّة الّتي تربط هذه الصّور.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

1. أحمد محمّد قدور ، مبادئ اللّسانيّات ، ط 3 طبعة مزيدة منقّحة ، دار الفكر ، دمشق ، 2008م.
2. بحيري سعيد حسن ، دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنية والدّلالة ، دط ، مكتبة زهراء الشّرق ، د س ن ، القاهرة.
3. بنّاني محمّد الصّغير ، المدارس اللّسانيّة في التّراث العربي وفي الدّراسات الحديثة ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2001م.
4. بوقرة نعمان ، المصطلحات الأساسيّة في لسانيات النصّ وتحليل الخطاب ، دراسة معجميّة ، ط 1 ، جدارا للكتاب العالمي ، عمّان الأردن ، 2009م.
5. تمام حسان ، البيان في روائع القرآن ؛ دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنصّ القرآني ، ط 1 ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1993م.
6. الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، تع: محمود محمّد شاكر ، دط ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د س ن.
7. جفري سامسون ، مدارس اللّسانيّات ، التّسابق والتطوّر ، ترجمة: محمّد زياد كبة ، مطابع جامعة الملك سعود ، المملكة العربيّة السّعوديّة ، 1417هـ
8. حركات مصطفى ، اللّسانيّات العامّة وقضايا العربيّة ، ط 1 ، المكتبة العصريّة ، بيروت ، 1998م.
9. دراز صبّاح عبيد ، أساليب القصر في القرآن الكريم ؛ وأسرارها البلاغيّة ، ط 1 ، مطبعة الأمانة ، مصر ، 1986م.
10. دفة بلقاسم ، بنية الجملة الطّلبيّة ودلالتها في السّور المدنيّة ، ج 1 ، منشورات مخبر الأبحاث في اللّغة والأدب الجزائري ، جامعة محمّد خيضر بسكرة ، 2008م.
11. الرازي محمّد فخر الدّين ، التّفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، ج: 25 ، ط 1 ، دار الفكر ، لبنان بيروت ، 1981م.
12. زيدان محمود فهمي ، في فلسفة اللّغة ، دط ، دار النّهضة العربيّة ، بيروت لبنان ، 1985م.
13. السّيوطي أبو الفضل جلال الدّين عبد الرّحمان بن أبي بكر ، الإتقان في علوم القرآن ، ج2، مركز الدّراسات القرآنيّة ، المملكة العربيّة السّعوديّة دط
14. عبد الرّحمن الحاج صالح ، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة ، ج 1 ، موفم للنّشر الجزائر ، 2007م.
15. العلوي شفيقة ، محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة ، ط 1 ، أبحاث للتّرجمة والنّشر والتّوزيع ، بيروت لبنان ، 2004م.
16. المتوكّل أحمد: الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة ، ط 1 ، دار الثّقافة ، الدّار البيضاء ، 1985م.
17. المتوكّل الوظيفة والبنية ؛ مقاربات وظيفيّة لبعض قضايا التّركيب في اللّغة العربيّة ، منشورات عكاظ ، الرّباط ، 1993م.
18. المتوكّل آفاق جديدة في نظريّة النّحو الوظيفي ، ط 1 ، كليّة الآداب ، الرّباط المغرب ، 1993م.
19. المتوكّل الوظيفيّة بين الكليّة والنّمطيّة ، ط 1 ، دار الأمان ، مطبعة الكرامة ، الرّباط ، 2003م.
20. المتوكّل التّركيبات الوظيفيّة ؛ قضايا ومقاربات ، ط 1 ، مكتبة دار الأمان ، الرّباط ، 2005م.
21. المتوكّل اللّسانيات الوظيفيّة (مدخل نظري) ، ط 2 ، دار الكتاب الجديد المتّحدة ، ليبيا ، 2010م.
22. ابن عاشور محمّد الطّاهر ، تفسير التّحرير والتّنوير ، د ط ، الدّار التّونسيّة ، تونس ، 1984م.
23. محمّد محمّد يونس علي ، مدخل إلى اللّسانيّات ، ط 1 ، دار الكتاب الجديد المتّحدة ، بيروت لبنان ، 2004م.
24. مصطفى حميدة ، نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجملة العربيّة ، ط 1 ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، 1997م.
25. ابن منظور ، لسان العرب ، مج 1 ، ج 5 ، طبعة جديدة محقّقة ، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، د س ن.
26. مهيبل عمر ، البنيويّة في الفكر الفلسفي المعاصر ، ط 3 ، ديوان المطبوعات الجامعيّة ، الجزائر ، 2010م.
27. المهيري عبد القادر وآخرون ، أهم المدارس اللسانية ، ط 2 ، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية ، تونس ، 1990م.
28. أبو موسى محمّد محمّد ، دلالات التّراكيب ؛ دراسة بلاغيّة ، ط 2 ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1987م.

المقالات

محمّد خان ، الأدوات النّحويّة ؛ بنيتها ووظيفتها ، مجلّة كليّة الأداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة ، جامعة محمّد خيضر بسكرة ، العدد: 4 ، 2009م.

الهوامش

1. ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، مج1 ، ج5 ، باب: الباء ، مادّة (بنى) ، طبعة جديدة محقّقة ، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، د س ن ، ص: 365.
2. ينظر: مهيبل عمر ، البنيويّة في الفكر الفلسفي المعاصر ، ط3 ، ديوان المطبوعات الجامعيّة ، الجزائر ، 2010م ، ص: 19.
3. ينظر: عبد الرّحمن الحاج صالح ، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة ، ج1 ، موفم للنّشر الجزائر ، 2007م ، ص: 207 ، وهامش: 213.
4. .ينظر: دفة بلقاسم ، بنية الجملة الطّلبيّة ودلالتها في السّور المدنيّة ، ج1 ، منشورات مخبر الأبحاث في اللّغة والأدب الجزائري ، جامعة محمّد خيضر بسكرة ، 2008م ، ص: 6.
5. .ينظر: بوقرة نعمان ، المصطلحات الأساسيّة في لسانيات النصّ وتحليل الخطاب ، دراسة معجميّة ، ط1 ، جدارا للكتاب العالمي ، عمّان الأردن ، 2009م ، ص ص: 94 ، 95.
6. .ابن منظور ، لسان العرب ، مج: 6 ، ج: 51 ، باب: الواو ، مادّة (وظف) ، ص: 4869.
7. .ينظر: المتوكّل ؛ أحمد: التّركيبات الوظيفيّة ؛ قضايا ومقاربات ، ط1 ، مكتبة دار الأمان ، الرّباط ، 2005م ، ص ص: 21 ، 23/ واللّسانيات الوظيفيّة (مدخل نظري) ، ط2 ، دار الكتاب الجديد المتّحدة ، ليبيا ، 2010م ، ص: 50.
8. .ينظر: المتوكّل ؛ أحمد ، التّركيبات الوظيفيّة ، قضايا ومقاربات ، ص ص: 23 ، 43.
9. .حركات مصطفى ، اللّسانيّات العامّة وقضايا العربيّة ، ط1 ، المكتبة العصريّة ، بيروت ، 1998م ، ص: 139.
10. .ينظر: المهيري ؛ عبد القادر وآخرون ، أهم المدارس اللسانية ، ط2 ، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية ، تونس ، 1990م ، ص ص: 40 ، 41.
11. .المرجع السّابق ، ص: 40.
12. .ينظر: جفري سامسون ، مدارس اللّسانيّات ، التّسابق والتطوّر ، ترجمة: محمّد زياد كبة ، مطابع جامعة الملك سعود ، 1417هـ ، المملكة العربيّة السّعوديّة ، ص: 106.
13. .ينظر: محمّد محمّد يونس علي ، مدخل إلى اللّسانيّات ، ط1 ، دار الكتاب الجديد المتّحدة ، بيروت لبنان ، 2004م ، ص: 70.
14. .ينظر: المهيري ؛ عبد القادر وآخرون ، أهمّ المدارس اللّسانيّة ، ص: 42.
15. .ينظر: محمّد محمّد يونس علي ، مدخل إلى اللّسانيّات ، ص ص: 71.
16. .ينظر: الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، تع: محمود محمّد شاكر ، دط ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د س ن ، ص ص: 338 ، 339/ وبحيري سعيد حسن ، دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنية والدّلالة ، دط ، مكتبة زهراء الشّرق ، د س ن ، القاهرة ، ص: 261.
17. .ينظر: أبو موسى محمّد محمّد ، دلالات التّراكيب ؛ دراسة بلاغيّة ، ط2 ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1987م ، ص: 145 ، 146.
18. .ينظر: بحيري سعيد حسن ، دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنية والدّلالة ، ص: 268.
19. .ينظر: المرجع السّابق ، ص: 268.
20. .ينظر: السّيوطي أبو الفضل جلال الدّين عبد الرّحمان بن أبي بكر ، الإتقان في علوم القرآن ، ج2 ، تح: مركز الدّراسات القرآنيّة ، المملكة العربيّة السّعوديّة ، د س ن ، ص: 546.
21. .ينظر: المتوكّل أحمد ، اللّسانيّات الوظيفيّة (مدخل نظري) ، ص: 118.
22. .ينظر: ابن عاشور محمّد الطّاهر ، تفسير التّحرير والتّنوير ، ج1 ، دط ، الدّار التّونسيّة ، تونس ، 1984م ، ص: 492 ، 493.
23. .ينظر: أحمد محمّد قدور ، مبادئ اللّسانيّات ، ط 3 طبعة مزيدة منقّحة ، دار الفكر ، دمشق 2008م ، ص: 298.
24. .ينظر: المرجع السّابق ، ص ص: 302 ، 303.
25. .ينظر: بنّاني محمّد الصّغير ، المدارس اللّسانيّة في التّراث العربي وفي الدّراسات الحديثة ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2001م ، ص: 71.
26. .ينظر: مصطفى حميدة ، نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجملة العربيّة ، ط1 ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، 1997م ، ص: 134.
27. .ينظر: المرجع السّابق ، ص: 139.141.
28. .ينظر: المرجع السّابق ، ص: 142.
29. .ينظر: محمّد محمّد يونس علي ، مدخل إلى اللّسانيات ، ص ص: 74 ، 75/ والعلوي شفيقة ، محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة ، ط 1 ، أبحاث للتّرجمة والنّشر والتّوزيع ، بيروت لبنان ، 2004م ، ص: 17.
30. .ينظر: العلوي شفيقة ، محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة ، ص: 19/ وبنّاني محمّد الصّغير ، المرجع السّابق ، ص: 70.
31. استأنست في ذلك بكتاب مصطفى حركات ، اللّسانيّات العامّة وقضايا العربيّة ، ص: 88 .90 وما بعدها.
32. .ينظر: محمّد محمّد يونس علي ، مدخل إلى اللّسانيات ، ص ص: 75 ، 78.
33. .ينظر: مصطفى حميدة ، نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجملة العربيّة ، ص: 121 ، 122 ، 128 ، 129.
34. .ينظر: العلوي ؛ شفيقة ، محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة ، ص: 19
35. .ينظر: المتوكّل ؛ أحمد ، التّركيبات الوظيفيّة ، قضايا ومقاربات ، ص: 92.
36. .ينظر: بناني ؛ محمّد الصّغير ، المدارس اللّسانيّة في التّراث العربي وفي المدارس الحديثة ، ص: 70.
37. .ينظر: العلوي ؛ شفيقة ، محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة ، ص: 19.
38. .ينظر: المرجع السّابق ، ص: 18.
39. .ينظر: دراز صبّاح عبيد ، أساليب القصر في القرآن الكريم ؛ وأسرارها البلاغيّة ، ط1 ، مطبعة الأمانة ، مصر ، 1986م ، ص: 236.
40. .ينظر: المرجع السّابق ، ص: 190.

41. يستعمل مصطلح (الوحدة) بدل (الكلمة) في التّحليل التّركيبي، اجتنابا للخلط بين المفاهيم، وهو يطلق على وحدات دنيا من مثل: من، على، هل، ووحدات ليست دنيا؛ مثل: أُخرُجْ، الّتي تتضمّن الحروف الأصول، والصّيغة الدالّة على الأمر، (ينظر: المهيري، أهمّ المدارس اللّسانيّة، ص: 46).

42. ينظر: المهيري عبد القادر وآخرون، أهمّ المدارس اللّسانيّة، ص ص: 45، 48.

43. ينظر: حركات مصطفى، اللّسانيّات العامّة وقضايا العربيّة، ص: 97، 98، وما بعدها.

44. ينظر: محمّد خان، الأدوات النّحويّة؛ بنيتها ووظيفتها، مقال، مجلّة كليّة الأداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة محمّد خيضر بسكرة، العدد: 4، 2009م، ص ص: 7، 10.

45. المرجع السّابق، ص: 2.

46. ينظر: زيدان محمود فهمي، في فلسفة اللّغة، دط، دار النّهضة العربيّة، بيروت لبنان، 1985م، ص: 43، وما بعدها.

47. ينظر: المتوكّل أحمد، الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة، ط1، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، 1985م، ص ص: 8، 9، وما بعدها.

48. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، الوظيفة والبنية؛ مقاربات وظيفيّة لبعض قضايا التّركيب في اللّغة العربيّة، منشورات عكاظ، الرّباط، 1993م، ص: 10.

49. ينظر: المتوكّل أحمد، الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة، ص: 11/ والمتوكّل، اللسانيّات الوظيفيّة، (مدخل نظري)، ص: 89.

50. ينظر: المتوكّل أحمد، اللّسانيّات الوظيفيّة، (مدخل نظري)، ص ص: 15، 58/ المتوكّل، الوظيفة والبنية، مقاربات وظيفيّة لبعض قضايا التّركيب في اللّغة العربيّة هوامش، ص: 25/ والمتوكّل أحمد، آفاق جديدة في نظريّة النّحو الوظيفي، ط1، كليّة الآداب، الرّباط المغرب، 1993م، هامش ص: 21.

51. ينظر: المتوكّل أحمد، اللّسانيّات الوظيفيّة، ص: 58، والمتوكّل، التّركيبات الوظيفيّة، قضايا ومقاربات، ص: 48.

52. ينظر: المتوكّل أحمد، الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة، ص ص: 9، 11، والوظيفة بين الكليّة والنّمطيّة، ص: 29.

53. ينظر: المتوكّل أحمد، الوظيفة والبنية، مقاربات وظيفيّة، ص: 10، والمتوكّل، الوظيفيّة بين الكليّة والنّمطيّة، ط1، دار الأمان، مطبعة الكرامة، الرّباط، 2003م، ص: 29/ والمتوكّل، اللسانيّات الوظيفيّة، (مدخل نظري)، ص: 96.

54. ينظر: الرازي محمّد فخر الدّين، التّفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج: 25، ط1، دار الفكر، لبنان بيروت، 1981م، ص: 267، 268، وج: 28، ص: 5، 6، 7/ ودرّاز صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 92.

55. ينظر: ابن عاشور محمّد الطّاهر، تفسير التّحرير والتّنوير، ج27، ص ص: 143، 144.

56. ينظر: الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تع: محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، دت، ص: 161.

57. ينظر: تمام حسان، البيان في روائع القرآن؛ دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنصّ القرآني، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1993م، ص ص: 91، 92، وما بعدها/ والمتوكّل؛ أحمد، التّركيبات الوظيفيّة، قضايا ومقاربات، ص: 33.

58. ينظر: ابن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير، ج: 1، ص: 293.

59. ينظر: المصدر السّابق، ج: 1، ص: 735.

60. ينظر: أبو موسى محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 170.

61. ينظر: المرجع السّابق، ص: 172.

62. ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج: 1، ص: 454.

63. ينظر: المصدر السّابق، ج: 3، ص: 20.

ترجمة الكناية القرآنيّة إلى اللغة الفرنسيّة دراسة في ترجمات ريجيس بلاشير ومحمد حميد الله وجاك بيرك

Translation of the Quranic periphrasis into french A Stady on the translations of Régis Blachère, Muhammad Hamidullah and Jacques Berque

تاريخ الإرسال: 25-04-2019 تاريخ القبول: 12-04-2020

صلاح الدين بن دريميع، معهد الترجمة جامعة الجزائر2
salahbendrimia@gmail.com

الملخص

معاني القرآن الكريم على ضربين واضحةٌ بيّنة يستطيعُ كُلُّ قارئٍ أن يفهمَها ، وخفيةٌ دقيقة لا يصل إليها إلاَّ من عَرَفَ مُفردات اللُّغة وفَهِمَ تراكيبَها وتمكَّنَ من أساليبها وبلاغتها ، ومنها المجاز والكناية ، وهذا ما يجعل المتخصصَ في لغة القرآن يغيبُ عنه التمييزُ بينهما وعلى أيّهما يُخرِج المعنى فما ظنُّك بمَنْ أرادَ أن يترجمَ الكنايةَ والمجازَ إلى لغة غير لغته ؛ فإنه يجد نفسَه أمام خيارَيْن: إمّا أن يجد لها مناسباً يكافئها صورةً ولفظاً في تلك اللُّغة ، وإمّا أن يسعى في نقل المعنى دون الالتفات إلى رونق اللَّفظِ وجَرَسِ الصَّوْت ، وهذا ما جعلني أطرحُ هذه المسألة البلاغية والترجمية المهمّة في إشكالية متمثلة في: ما مدى توفيق المترجم في نقل الكناية من القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية ؟

الكلمات المفاتيح: الكناية ، المعنى ، معنى المعنى ، ترجمة الكناية القرآنية ، الأمانة في نقل الكناية القرآنية.

Résumé

Les sens du saint Coran sont de deux catégories. Un sens primitif ou premier, clair et explicite que tout lecteur peut comprendre, c'est ce qui appelé de la dénotation et un sens secondaire et implicite auquel ne peut accéder que celui qui possède une connaissance très approfondie des mots et de la culture de cette langue coranique ainsi qu'une très bonne maîtrise de ses tournures, c'est de la connotation et plus particulièrement « la Kinaya » et « Al Madjaz ». Ces dernières posent des problèmes de compréhension pour un spécialiste de la langue coranique et des problèmes de traduction pour le traducteur du texte sacré voulant les rendre dans une autre langue. Le traducteur est donc perplexe entre trouver dans la langue d'arrivée une figure équivalente porteuse de connotation et de rythme et de rendre son sens explicité en le paraphrasant et en faisant abstraction de l'esthétique des mots et de la prosodie du son qui la compose. C'est cela qui m'a conduit à poser la problématique suivante : jusqu'à quelle mesure le traducteur peut-il réussir dans la traduction des versets coraniques, périphrase ou connotation, en langue française ?

Mots clés : Périphrase, dénotation, connotation, traduction de la périphrase coranique, la fidélité dans la traduction de la périphrase.

Abstract

The meanings of the Holy Qur'an have two categories: a primitive or first, clear and explicit meaning that any reader can understand its denotation, and a secondary implicit meaning that can only be accessed by one who has a very thorough knowledge of the words and culture of this Quranic language and its connotations, and more particularly the metonymy and trope, which pose problems of comprehension for the specialist of the Quranic language and problems of translation for the translator of the sacred text, wanting to translate them into another language. The latter is therefore perplexed between finding an equivalent figure of speech in the target language, or finding meaning without paying attention to the aesthetics of words and the prosody of sound. That is what led me to ask the following question: To what extent can the translator succeed in the translation of the Quranic periphrasis or connotation into French?

Keywords : Periphrasis, denotation, connotation, translation of the Quranic periphrasis, fidelity in the translation of the periphrasis.

1. مقدمة

تُعَدُّ الكنايةُ (وتُسمى– أيضا - معنى المعنى) دلالةً باطنيةً وهي من الصور البيانية التي تُستخدم في تحسين العبارة ليس بالتصريح وإنما بالإشارة ، ومن ثمَّ السيطرة على تبليغ الأفكار بأسلوب خفيّ وساحر ؛ كما أنّ لها منفذا للنفس السويّة التي تُنكِر ما يَقبُح التصريح به فتلجأ للتكنيّة ؛ ولعلَّ هذا ما جعل من ترجمتها ما يشبه المغامرة أي أنَّ إيجاد المقابل لها في اللغة الفرنسية ليس بالأمر الهيّن ؛ وهذا ما يجعلنا نتساءل كيف يمكن للمترجم الحاذق أن يُحقِّقَ ما يلي:

- الجانب الجمالي والفني للكناية من لغة القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية.

- نقل الكناية إلى اللغة الفرنسية مع حفاظه على اللفظ والمعنى.

وهذا ما دفعني لمعالجة هذه المسألة البلاغية والترجمية المهمّة من خلال ثلاثة نماذج اعتنت بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية تحت إشكالية: -هل يمكن للمترجم نقل الكناية القرآنية إلى اللغة الفرنسية دون خسارةٍ في اللفظ والمعنى ؟

-ما مدى تحقيقه للأمانة العلمية مع مراعاته لبنية الكناية ؟

وسنتبع في دراستنا المنهجَ الوصفي التحليلي المقارن في الترجمة الذي يرمي إلى مقارنة ترجمات الكناية القرآنية معتمدين على تفاسير الآيات القرآنية من أجل فهم معناها اللغوي والسياقي ، محاولين عرض بعض الأمثلة وكيفية ترجمتها والقول ما إذا كان المترجمون أحسنوا نقل معنى الكناية القرآنية أم لا.

لذلك فإشكالية بحثنا هي ما مدى توفيق المترجمين في نقل محتوى الكناية القرآنية بمعناها ومبناها وجماليتها ومغزاها ، في ظل اختيارهم الترجمة الحرفية أو ترجمة المعنى.

يتجلى جمال العربية في بيانها ومن أهم مظاهر هذا البيان الكناية التي شغلت علماء البلاغة منذ القديم إلى يوم النّاس هذا ، وفي ذلك يقول **عبد القاهر الجرجاني**:((قد أجمع الجميعُ على أنَّ الكِنايَةَ أبلغُ من الإفصاح ، والتعريضَ أوقعُ من التصريح ، وأنَّ للاستعارة مَزِيَّةً وفَضْلاً ، وأنَّ المَجازَ أبداً أَبْلَغُ مِنَ الحقيقة)) ([1])، فيُفهم من كلامه أنّ للكناية قدراً وفضلاً أي: أنّ لها جانباً جماليّاً فنّياً ؛ وجانباً آخر متمثلا في القدرة على إيصال المعاني إلى المتلقي بأقصر سبيل ، وخصوصاً إذا تعلَّقت بالقُرآن الكريم الذي امتلأتْ سُطورُهُ بالكناية وهذا ما جعل المنشغلين بترجمة معاني القرآن يُعنون بنقل معانيها إلى اللغات الأُخرى وبالتحديد اللغة الفرنسية ، لذلك سيُحاولُ هذا المقالُ البحثَ عن بعض كنايات القرآن المُترجمة إلى الفرنسية للوقوف على أبعادها الجمالية والتعبيرية ، وكيف تُرجمت لفظا ومعنى ؛ ومدى تأثيرها في الأمانة العلمية للترجمة ، معتمدين لتوضيح ذلك على ثلاث ترجمات مختلفة للقرآن الكريم ؛ تصدى لها فرنسيان نصرانيان هما **ريجيس بلاشير Régis BLACHÈRE وجاك بيرك Jacques BERQUE** ، وهنديٌّ مسلم هو **مُحَمَّد حميد الله** ،

وسندرج هذه الترجمات في جداول نبيّن فيها رقم الآية المختارة واسم السورة ومقطع الآية المدروسة ومترجمها.

وأهم مباحث المقال ما يلي:

-مفهوم الكناية وأنواعها في العربية وفي الفرنسية.

-بلاغة الكناية والغرض منها والفرق بينها وبين المجاز وبينها وبين التعريض.

-نظريات الترجمة الحديثة وترجمة معاني القرآن الكريم.

-التطبيق على النماذج المختارة وتحليل الترجمات ونقدها.

2. الكناية في العربية

1.2 تعريف الكناية

لغة: كنى: كنيت عن الأمر ، إذا تكلمت بغيره مما يستدل به عليه ولذلك تسمى الكُنية كأنها تورية عن الاسم([2]).

اصطلاحا: يُعرِّفُ **السكّاكي** الكنايةَ قائلاً: (الكنايةُ هي تركُ التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه ، لينتقلَ من المذكور إلى المتروك ، كما تقول: فلانٌ طويلُ النِّجادِ ، لينتقلَ منه إلى ما هو ملزومه وهو طولُ القامة ، وكما تقول: فلانةٌ نؤومُ الضُّحى ، لينتقلَ منه إلى ما هو ملزومه ، وهو كونها مخدومة ، غيرُ مُحتاجةٍ إلى السَّعي بنفسها في إصلاح المهمّات ، وذلك أنَّ وقتَ الضُّحى وقتُ سَعيِ نساءِ العرب من أمر المعاش وكفاية أسبابه ، وتحصيل ما تحتاجُ إليه في تهيئة المتناولات ، وتدبير

إصلاحها ، فلا تنامُ فيه من نسائهم إلاَّ مَنْ يكونُ لها خدمُ ينوبون عنها في السَّعي لذلك)([3]).

وعليه فالمناسبة بين التعريف اللغوي والاصطلاحي واضحة وهي أنّك تعبر عن الشيء بغير لفظه وإنّما تعبر عنه بما يُستدل به. وما يوضح ذلك قول **الجرجاني**:(والمرادُ بالكناية هاهنا أن يريدَ المتكلِّمُ إثباتَ معنىً من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيءُ إلى معنى هو تاليه وردِفه في الوجود ، فيومئُ به إليه ، ويجعله دليلاً عليه ،

مثال ذلك قولهم: هو طويلُ النِّجادِ ، يريدون طويلَ القامة (وكثيرُ رَمادِ القِدْرِ) ، يعنون كثيرَ القِرَى وفي المرأة:(نؤومُ الضُّحَى) ، والمراد أنَّها مُتْرَفَةٌ مَخْدومَة ، لها مَنْ يكفيها أمرَها ، فقد أرادوا في هذا كُلِّهِ ، كما ترى ، معنىً ، ثمَّ لم يذكروهُ بلفظه الخاص به ، ولكنَّهم توصَّلوا إليه بذكر معنىً آخر من شأنه أن يردَفَهُ في الوجود ، وأن يكون إذا كان. أفلا ترى أنَّ القامةَ إذا طالت طالَ النِّجادُ؟ وإذا كَثُرَ القِرَى كَثُرَ رَمادُ القِدْرِ؟

وإذا كانت المرأةُ مُتْرَفَةً لها مَنْ يكفيها أمرَها ، رَدِفَ ذلكَ أن تنامَ إلى الضُّحَى؟). ([4])

2.2 أقسام الكناية وبلاغتها والغاية منها

((أطبقَ العُلماءُ على تقسيم الكناية إلى أقسامٍ ثلاثةٍ ، ذلك لأنهم بعد البحث والاستقصاء وجدوا أنَّ المعنى المكنى عنه إمَّا أن يكونَ صفةً كقولهم: " كثيرُ الرَّماد" فإنه كنايةٌ عن الكَرَمِ ، والكرَم صفة وإمَّا أن يكون موصوفاً وذلك كقول أمير الشعراء:

وَلِي بَيْنَ الضُّلُوعِ دَمٌ ولَحْمٌ***هُما الوَاهِي الذّي ثَكِلَ الشَّبَابا

فقد كنَّى بقوله هذا عن القَلْبِ ، وإمَّا أن يكون نسبةً والنسبةُ هي إثباتُ شيءٍ أو نفيُه عنه ، وذلك كالمثال المتقدِّم "الكَرَمُ بين بُردَيه" والمرادُ إثباتُ الكَرَم للممدوح.)) ([5])

أ/ الكناية عن صفة

هي أن تذكرَ الموصوفَ وتنسبَ له صفة ، ولكنك لا تريد هذه الصفة وإنّما تريد لازمَها ففي قولك: "فلانٌ كثيرُ الرَّماد" ذكرٌ للموصوف وهو فلان ، وذكرٌ لصفته وهي كثرة الرماد ، ولكنك لم ترد هذه الصفةَ نفسها ، بل أردتَ صفةً لازمةً لها وهي الكَرَم ؛ لأنَّ كثرة الرماد تنشأ عن كثرة النار ، وهذه تنشأ عن كثرة الحطب ، وهي تنشأ عن كثرة الطبخ ، وذلك نتيجة كثرة الضيفان ، والكَرَم لازم لذلك كله([6]).

ب/: الكناية عن موصوف

عناصر الكناية ثلاثة هي الموصوف والصفة والنسبة ، ففي الكناية عن الصفة نذكر هذه الثلاث ، إلاَّ أنَّ الصفة المذكورة غير الصفة المرادة ، وفي هذا القسم فنحن نذكر الصفة والنسبة فحسب ولا نذكر الموصوف المحذوف المُكنَّى عنه ، ففي قول **أحمد شوقي**:

وَلِي بَيْنَ الضُّلُوعِ دَمٌ ولَحْمٌ **** هُما الوَاهِي الذّي ثَكِلَ الشَّبَابا

كنايةٌ عن القلب ، وكذلك في قول **عمرو بن مَعْدي كرب**:

والقَادِسِيةُ حَيْثُ زاحَمَ رُسْتُمٌ**** كُنَّا الحُمَاةَ نَهُزُّ كَالأَشْطَانِ

الضَّارِبينَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مُخْذَمٍ****وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الأَضْغَانِ

فإنَّ مجامعَ الأضغان كنايةٌ عن القَلْبِ ، لأنها صفةٌ له في الحقيقة ، ومنه قول **البُحتري**

في قصيدته التي يتحدَّث فيها عن طعنه للذئب ([7]):

فَاَتْبَعْتُها أُخْرَى فَأَضْلَلْتُ نَصْلَها***بِحَيْثُ يَكُونُ اللُّبُّ والرُّعْبُ والحِقْدُ

يريد أنه طَعَنَهُ في قلبه ولكنه لم يذكر القلبَ ، وإنَّما ذَكَرَ صفةً كَنَّى بها عن القلب ، وهي قوله:

''حيث يكون اللُّبُّ والرُّعْبُ والحِقْدُ'' ، ومنه قول آخر:

قَوْمٌ تَرَى أَرْمَاحَهُمْ يَوْمَ الوَغَى****مَشْغُوفةً بِمَواطِنِ الكِتْمَانِ

فـ (مواطن الكتمان) صفة القلوب وقد كنى بها عنه([8])

ومنه الآية الكريمة: ﴿**أَوَ مَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾**﴾ [الزخرف 18] كنايةٌ عن النساء.

ومنه قول **المتنبي**:

وَمَنْ في كَفِّهِ مِنهمْ قَناةٌ **** كَمَنْ في كَفِّهِ منهم خِضابُ

وفيه كنايةٌ عن الموصوف كذلك ، فهو يقول: إنَّ رجالَهم أصبحوا كالنساء لأنَّ قوله:

'' مَنْ في كفِّه قَناةٌ '' كنايةٌ عن الرِّجال ، و'' مَنْ في كفِّه خِضابٌ '' كنايةٌ عن النساء ([9])

ج/ الكناية عن نسبة

النسبة هي إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه ، فالنسبة في قولنا: "المؤمنون أعزّاء" هي إثبات العزّ للمؤمنين ، وفي قولنا: " المؤمنُ ليسَ جباناً" النسبة نفي الجُبن عن المؤمن. فمن الأول: قول **زياد الأعجم**

إنَّ السَّمَاحَةَ والمُرُوءَةَ والنَّدَى**** في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابْنِ الحَشْرَجِ

فقد ذَكَرَ هذه الصفات ولم ينسبها لابن الحشرج مباشرةً وإنما جعلها في قبة مضروبة عليه ، ومنه قول **أبي نواس**:

فَمَا جَازَهُ جُودٌ ولاَ حَلَّ دُونَهُ **** وَلَكِنْ يَسيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَسيرُ

ففي الشطر الثاني من البيت كناية عن نسبة لأنه يريد أن يثبتَ الجودَ للممدوح ولكنه كنى عن ذلك فجعلَ الجودَ مُلازِماً له يسير حيث يسير ([10])، ومن الثاني: قول النبي صلى الله عليه وسلَّم: (المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده) وهي كنايةٌ عن أنَّ مَنْ يؤذي المسلمين ليسَ مسلماً ، وإن لم يذكر الموصوف هنا إلاّ أنه فهِمَ من الحديث الشريف([11])

بلاغة الكناية

يقول **المراغي**: (الكنايةُ فنٌّ من التعبير تَوَخَّاهُ العَرَبُ استكثاراً للألفاظ التي تؤدّي ما يُقْصَدُ من المعاني ، وبها يتنوفون في الأساليب ، ويزينون ضُروبَ التعبير ، ويكثرون من وجوه الدلالة ، انظر إلى **امرئ القيس** تجدْه كنَّى عن المرأة ببيضة الخِدر في قوله: وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لاَ يُرَامُ خِبَاؤُهَا***تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْر مُعْجَلِ

وإلى **حميد بن ثور** نراه كَنَّى عنها بالسَّرْحَةِ في قوله:

أبى الله إلاّ أنَّ سَرْحَةَ مالك **** على كل أفنان العضاه تروق

فيا طيب رياها وبرد ظلالها**** إذا حان من حامي النهار وديق

وإلى النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلم وقد كَنَّى عنها بالقارورة في قوله **لأنجشة** وهو يحدو بنسائه:

'رِفْقاً بالقَوارير' ، وبها ينصبون الدَّليلَ على كل قضية ويقيمون البرهان على كل مدَّعي ، انظر إلى **المتنبي** وهو يذكرُ وقيعةَ سيف الدولة بأعدائه: فَمَسَّاهُم وبُسُطُهم حَريرٌ**** وَصَبَّحَهُم وَبُسُطُهُمْ تُرابُ

تجدْه قد أرادَ أن يبيّنَ أنه قَهَرَهم وأَذَلَّهُم بعد أن كانوا أَعِزَّةً ، لكنَّه تلطَّفَ في التعبير ونصب الدليل على صحة دعواه ، فأشارَ إلى عِزَّتهم أولاً بافتراشهم بُسُط الحرير ، ثمَّ إلى ذِلَّتهم بعد بافتراشهم بُسُطَ التراب ([12])

الغرض من الكناية

ما يوضح لنا الغرض من الكناية صنيع **المُبرَّد** الذي تكلَّم عن أغراض وفوائد الكناية فجعلها ثلاثة أوجه هي:

1-التعمية أو التغطية 2-الابتعاد عن اللفظ الخسيس إلى غيره.3- للتفخيم والتبجيل. فأما الأولى فمثل قول **النابغة الجعدي**:

أكنّي بغير اسمها وقد عَلِمَ اللَّ **** ـهُ خَفِيَّاتِ كُلِّ مُكتتم

وأمّا الثانية فَكَقوله تعالى عن عيسى ومريم عليهما السلام: ﴿ مَّا **ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ** ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ ﴾[المائدة ، 75] كنايةٌ بإجماعٍ عن قضاء الحاجة ، لأنَّ كُلَّ مَنْ أَكَلَ الطَّعامَ في الدُّنيا أَنْجى ، يقالُ نجا وأنجى ، إذا قام لحاجة الإنسان.([13])

الفرق بين الكناية والمجاز

يقول **الجرجاني**: وأمَّا (المجاز) فقد عَوَّلَ النَّاسُ في حَدِّهِ على حديث النَّقل ، وأنَّ كُلَّ لَفْظٍ نُقِلَ عن موضوعه فهو مجاز والاسم والشهرة فيه لشيئين:(الاستعارة) و(التمثيل) مجازاً إذا جاء على حَدِّ (الاستعارة).([14]) وأمّا الكناية: فقد أجمعَ الجميعُ على أنَّ (الكناية) أبلغُ من الإفصاح ، والتعريضَ أوقعُ من التصريح ، وأنَّ للاستعارةَ مزيَّةً وفَضْلاً ، وأنَّ المجازَ أبداً أبلغُ من الحقيقة فنحنُ وإن كُنَّا نعلمُ أنك إذا قلت:

"هو طويلُ النِّجاد ،وهو جمُّ الرَّماد" كان أبهى لمعناك ، وأنبلَ مِنْ أَنْ تَدَعَ الكنايةَ وتُصَرّحَ بالذي تريد.([15]) فالتفريق بين الكناية والمجاز من وجهين: الأول أنّ الكناية يقابلها التصريح والمجاز تقابله الحقيقة ومن جهة أخرى هو أنّ اللفظ المستخدم في الكناية يكون قريبا منها بخلاف اللفظ المستعمل في المجاز فهو غيره ، يقول **المراغي**: (اعلم أنَّ

اللَّفظَ إن استُعملَ في معناه الموضوع له فحقيقة، وإن استعمل في غيره لعلاقة مع قرينة، فإمَّا مانعةٍ من إرادة المعنى الأصلي فَمَجازٌ، وإمَّا غير مانعة فَكِناية. والمَجازُ إن كان لعلاقةِ المُشابهة فإن كان مُفْرَداً سُمّيَ مَجازاً مُرسَلاً، وإن كان مُرَكَّباً قيل له: مجاز مركَّب مُرسَل). ([16])

الفرق بين الكناية والتعريض

إنّ هذه المصطلحات وإن كانت تبدو متشابهة ومتداخلة إلا أنّها مختلفة من حيث الدلالة، وقد قدمنا الكلام عن الفرق بين الكناية والمجاز وسنورد هنا الفرق بين الكناية والتعريض؛ الذي يعدّ واسطة بين الكناية والمجاز وفي هذا يقول **السكّاكي**: (واعلم أن التعريض تارة يكون على سبيل الكناية وأخرى على سبيل المجاز، فإذا قلت آذيتني فستعرف وأردت المخاطب إنسانا آخر معتمدا على قرائن الأحوال كان من القبيل الأول وإن لم ترد إلا غير المخاطب كان من القبيل الثاني فتأمل، وعلى هذا فقس وفرع إن شئت فقد نبهتك) ([17]).

ومن خلال كلام **السكاكي** فالتعريض على سبيل الكناية هو أن تذكر شيئًا وأنت تريد غيره لقرينة، والتعريض على سبيل المجاز هو وضعك الشيء في غير موضعه وأنت تريد غيره.

وأدق تفريق بين الكناية والتعريض ما جاء عن **ضياء الدين بن الأثير**: ((واعلم أنَّ الكنايةَ تشمل اللَّفظَ المفرد والمركَّب معاً، فتأتي على هذا تارة، وعلى هذا أخرى، وأمَّا التعريضُ فإنه يختصُّ باللَّفظ المركَّب، ولا يأتي في اللَّفظ المفرد البتَّة)). ([18])

الكناية في اللغة الفرنسية

تَعرِف اللغة الفرنسية العديد من الصور البيانية التي تقابل الكناية العربية منها المصطلحات الثلاثة التالية:

La périphrase/L'antonomase/L'euphémisme

يُعرِّف بيير فونتانييه (Pierre FONTANIER) La périphrase قائلاً:

((La Périphrase consiste à exprimer d'une manière détournée, étendue et ordinairement fastueuse, une pensée qui pourrait être rendue d'une manière directe et en même temps plus simple et plus courte)) ([19]).

أي أنَّ:((الكنايةُ هي التعبيرُ بمواربة وتوسُّع وتفخيم عادةً، عن فكرةٍ كان يمكن التعبير عنها بطريقة مباشرة وفي الوقت ذاته بطريقة أيسر وأوجز))، ويُتابعُ **فونتانييه** حديثه قائلاً:

((Il en résulte que la périphrase apparaît comme une reformulation figurative d'un terme monoverbal, dont on modifie les proportions (par rapport au "plus court" et au "plus simple" aux niveaux morphologique et syntaxique) et la manière d'exprimer le contenu conceptuel (par rapport au "plus direct", aux niveaux rhétorique et sémantique). Cette reformulation relève d'une conception esthétique de l'élocution : il s'agit d'une phrase de circuit, selon l'étymologie latine circuitio, et de détour, selon la racine originelle du mot grec, peri. Elle se caractérise par l'ambiguïté sémantique, l'amplification syntaxique et l'élégance expressive où elle représente, dans le pire des cas, une chute gratuite dans l'enflure)) ([20])

ومعنى ذلك أنَّ الكنايةَ تبدو كإعادة صياغة خيالية لِلَفظ واحد، نقوم بتعديل نِسَبه (مقارنة بما هو"أقصر" و "أيسر" على المستوى الصرفي والتركيبي) وطريقة التعبير عن المحتوى المفهومي (مقارنة "بما هو أكثر مباشرة"، على المستوى البلاغي والدلالي) إعادة الصياغة هذه أصلها مفهوم جمالي للفصاحة: هي جملة ملتوية من الكلمة "circuit" حسب الأصل اللاتيني circuitio، والمواربة حسب الجذر الأصلي للكلمة الإغريقية peri.تتميَّزُ بالغموض الدلالي والإطناب التركيبي، والأناقة التعبيرية، حيث تشكل في أسوء الحالات سقوطاً في التفخيم. ولذلك تسمى أيضا La circonlocution وفيما يلى أمثلة عن La périphrase:

« La langue de Shakespeare » (pour désigner la langue anglaise)

« Le roi soleil » (pour désigner Louis XIV)

« Les forces de l'ordre » (pour désigner les policiers)

هي استبدال لفظة بتعريفها أو بعبارة أطولَ ولهما المعنى نفسه. وتستعمل عادة لغاية شعرية أو مجازية. وأمثلة ذلك:

"لغة شكسبير" (ونعني بها اللغة الإنجليزية)

" الملك الشمس" (ونقصد به لويس الرَّابع عشر)

"قوات حفظ النظام" (ونقصد بهم الشرطيين-أو الشرطة-)

ويقدّم القاموس الإلكتروني المسمَّى: المركز الوطني للموارد النصية والمعجمية: Centre Nationale des Ressources Textuelles et Lexicales تعريفاً لمصطلح: L'antonomase:

هي صورة بيانية تعتمد على استبدال اسم عَلَم باسم جنس أو العكس ، للتخصيص في التعبير أو الإيحاء فيه.

Antonomase, subt.fém. : Rhét. : Figure qui consiste à remplacer, en vue d'une expression plus spécifiante ou plus suggestive, un nom propre par un nom commun (le Sauveur pour Jésus-Christ) ou un nom commun par un nom propre (un Tartuffe pour un hypocrite).([21])

المُخَلِّص: كناية عن المسيح عيسى ، تَرْتيف(Tartuffe): كنايةٌ عن المُنافق (شخصية **موليير(Molière)** الرئيسية في مسرحيته: ''Le Tartuffe'') وكذلك: أرباقون (Un harpagon): كناية عن البخيل وهو شخصية أساسية في مؤلَّف **موليير**:''L'avare''،

تعريف L'euphémisme

L'euphémisme est une figure de rhétorique, du grec phêmi (« je parle ») et eu (« bien, heureusement »), qui était utilisée dans l'Antiquité pour éviter les termes qui pouvaient attirer le malheur. L'utilisation de l'euphémisme à cette période est assez simple à expliquer : il fallait cacher des réalités un peu tendancieuses à l'époque, comme tout ce qui touchait à la sexualité, au corps etc ([22])

وهى تورية (أو تلطيف) من الصور البلاغية ، أصلها من الإغريقية''phêmi'' التى تعنى: ''أتكلَّمُ'' و''eu'' التى تعنى: ''بحسنٍ ، بسعادة'' كانت مستعملة فى القديم من أجل تجنُّب الألفاظ التى قد تأتى بالمصيبة. وما يُفسِّر هذا الاستعمال الذي كان موجوداً فى هذه الحقبة: أنَّه كان لا بدَّ من إخفاء الحقائق المُغرِضَة بعض الشيء فى ذلك الوقت ، ككل ما يمس العلاقات الجنسية والجسد...إلخ

On peut, à ce propos, citer l'un des célèbres euphémismes du Tartuffe de Molière, quand celui-ci dit:« Je ne suis pas un ange » pour signifier ses envies sexuelles. Le dramaturge doit passer par des euphémismes pour montrer que son personnage est libidineux, parce que la sexualité faisait partie des tabous de l'époque. ([23])

ومن أشهر التوريات (أو التلطيفات) ما ورد على لسان **موليير"Molière":** ''ترتيف'' Tartuffe عندما قال ،كنايةً :

« Je ne suis pas un ange » أي: ''لستُ مَلَكاً'' يقصد بذلك أنَّ له كسائر البَشَر رغباتٍ جنسية ، لأنَّ الكاتب المسرحى كان عليه أن يستعملَ هذه التوريات ليُبيّنَ أنَّ شخصيتَهُ غِلّيمَةٌ ، لأنَّ الجنسَ فى ذلك العهد كان من الطابوهات(المُحرَّمات). ومن الكناية عن الموت ما يلي:

Il est parti, il nous a quitté, il s'est éteint …= il est mort

رَحَلَ عنَّا ، رحل ، انطفأت شمعته= توفي ، مات.

نظريات الترجمة الحديثة وترجمة معاني القرآن الكريم

ارتكزت نظريات الترجمة قبل القرن العشرين عند العرب والغرب على ثنائية الترجمة الحرفية والترجمة الحرة ، بين ترجمة "كلمة بكلمة" وترجمة "معنى بمعنى" انطلاقا من **شيشرون Cicéron** و**القدّيس جيروم Saint Gérôme** عند الغرب ، و**ابن البطريق** عند العرب ، ثم بعد ذلك ما فتئ المنظّرون للترجمة يتطرَّقون لمفاهيم أخرى " فكان النموذج الثلاثي (الذي يضم النقل الحرفي والنقل بتصرف والمحاكاة) والذي وضعه **درايدن Dryden** في آخر القرن السابع عشر يمثل أول محاولة للدراسة المنهجية للترجمة ، كما كان تأكيد **شلايرماخر Schleiermacher** على الطابع الأجنبي للنص المترجم ذا تأثير كبير على دارسي الترجمة حتى عصرنا الحالي"([24]) ، ثم جاء الأمريكي **يوجين نايدا Eugene Nida** الذي اهتمّ بترجمة الإنجيل ونظَّر للترجمة انطلاقا من ذلك وتكلَّم عن مصطلحين خُلِّدَ ذكرهما عند المهتمّين بالترجمة من ممارسين ومنظِّرين ألا وهما مصطلح التعادل أو المكافئ الصوري أو الشكلي (Equivalence formelle) والتعادل (أو المكافئ) الدينامي (Equivalence dynamique)، وتكلَّم أيضاً عن التأثير المشابِه (Le même effet).

أمّا التعادل الصوري فيحدِّده **نايدا** ، كما يذكر ذلك **مُحَمَّد عناني** في كتابه عن نظريات الترجمة الحديثة على النحو التالي :([25])

"التعادل الصوري يركز الانتباه على الرسالة نفسها ، في الشكل والمضمون...إذ ينصبُّ اهتمامنا على التماثل الدقيق ،

قدر الطاقة ، بين الرسالة في لغة التلقي وشتى عناصر تلك الرسالة في اللغة المصدر." ومن ثمّ فإن التعادل الصوري موجه إلى اللغة المصدر وأبنيتها التي تتحكَّم إلى حد بعيد في مدى دقة الترجمة وصحَّتها ، وأصدق الأمثلة ، يضيف **مُحَمَّد عناني** ، على هذا النوع من الترجمة هو ما يسمى" بالترجمة ذات الحواشي" gloss translation أي ذات الشروح الملحقة بها. وأمّا التعادل الدينامي فيستند إلى ما يسمّيه **نايدا** " مبدأ تعادل التأثير"-ويشرحه **نايدا** قائلاً ، يضيف **مُحَمَّد عناني**:

"يجب أن تكون العلاقة بين المتلقي والرسالة مطابقة إلى حد كبير للعلاقة التي كانت بين المتلقي الأصلي والرسالة نفسها"([26])، ويرى **نايدا** نجاح الترجمة في أربعة متطلبات أساسية هي:

1-أن يكون لها معنى.
2-وأن تنقلَ روحَ الأصل وأسلوبَه.
3-وأن يكونَ شكل التعبير بها طبيعياً ويسيرَ المأخذ.
4-وأن تُحدثَ تأثيراً مماثلاً.

لكن نظرية **نايدا** تعرضت للنقد فكيف يمكن أن يُحدِث النصُّ تأثيراً مماثلاً وبخاصَّة إذا تعلق الأمرُ بترجمة النصوص الدينية وبإحداث الأثر المماثل عند ترجمة معاني القرآن الكريم وهو كلام الله المعجز في ألفاظه ومعانيه ؟

ثم أتى الإنجليزي **بيتر نيومارك Peter NEWMARK** الذي تأثر بنايدا الذي عُرف بنظريته عن الترجمة الدلالية(sémantique) والترجمة التوصيلية (communicative)، حيث انتقد **نيومارك نايدا** فيما يخص مصطلح التأثير المعادل ووصفه النجاح الذي تكلم عنه **نايدا** بالنجاح "الوهمي" لذلك فضَّل استعمال المصطلحين الأخيرين عوضاً عن مصطلحي التعادل الصوري والتعادل الدينامي ، وقد تكلَّمَ عن ذلك **مُحَمَّد عناني** في الكتاب المذكور آنفا: "ومن ثمَّ فهو 'نايدا' يقترح تضييق الفجوة بالاستعاضة عن المصطلحات القديمة بمصطلحين آخرين هما الترجمة الدلالية والترجمة التوصيلية قائلاً:" إن الترجمة التوصيلية تحاولُ أن تؤثر في قرّاء الترجمة تأثيراً يقتربُ قدر الطاقة من تأثير النص الأصلي في قرائه. وأما الترجمة الدلالية فهي تحاولُ أن تنقلَ-بقدر ما تسمح به الأبنيةُ الدلالية والتركيبية للغة الثانية من الأمانة-المعنى السياقي الدقيق للأصل" ([27])

وسنحاول اعتماد هذا النوع من النظريات وهي الترجمة الدلالية لأنها تركز على المعنى المرتبط بسياقات الكلام ، لأن فهم الكناية مرتبط بفهم السياق الذي قيلت فيه ، لذلك فنظرية المعنى في الترجمة مرتبطة بدلالة الألفاظ ودور السياق في تحديد المعنى وفهمه ومن ثمّ نقله نقلا يقترب من الأصل حتى لا نقول يماثله مثلما قال **نايدا**.

ترجمة الكناية القرآنية من خلال النماذج المختارة من ترجمات (ريجيس بلاشير Régis BLACHÈRE

ومُحَمَّد حميد الله وجاك بيرك Jacques BERQUE):

1/ الكناية عن صفة البخل والتبذير

قال تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩**﴾ [الإسراء: 29]

كناية عن صفة البخل في قوله تعالى وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ، وعن صفة التبذير في قوله وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ.

مثال 1: الكناية عن صفة البخل والتبذير					
مقطع الآية				ترجمتها	
السورة	الإسراء	الآية	29	Ne place point ta main fermée à ton cou pour ne point donner [et ne l'étends pas non plus trop largement, [sans quoi tu te trouveras honni et misérable ! ([28])	**بلاشير**
وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩				Ne garde pas la main entravée à ton col et ne l'ouvre non plus trop large, ce qui t'exposerait ou au blâme ou à la déchéance ([29])	**بيرك**
				Ne porte pas ta main enchainée à ton cou[par avarice [et ne l'étend [sic [pas non plus trop largement,sinon tu te trouveras blâmé et chagriné ([30])	**حميد الله**

هذا التعبير القرآنيُّ كنايةٌ عن البخل: (مغلولة إلى عنقك) وعن التبذير: (تبسطها كل البسط) نلحظ أن كثيرا من المترجمين بما فيهم الثلاثة الذين اخترتهم نماذجا (**بيرك وبلاشير وحميد الله**) ترجموها ترجمةً حرفيةً نَقَلت التعبيرَ والكنايةَ العربية كما هي ، وهذا ما أدى إلى فساد المعنى في

اللغة المنقول إليها لذلك فقد أخطأ من ترجمها ترجمةً حرفية تحيد عن المعنى.

فلم تنقل هذه الترجماتُ الحرفيةُ إلى القارئ الفرنسيّ، الذي لا يعرف العربيةَ ولا أساليبَها، المعنى المُرادَ باللَّفظ الذي تستسيغه الفرنسيةُ الذي لا يفهمُ المتكلمون بها هذه الكناية ويَقْبَلونها فقد بحثت فما ووجدتُ من العبارات الجاهزة التي فيها كلمة 'main' فلم أجد هذا المعنى، غير:

Avoir les mains libres, avoir les mains liées, avoir, ne pas avoir de liberté d'action ([31]).

ومعناها: عدم وجود الحرية في التصرّف، ولا تعني البخلَ-فيما علمت-والأدهى أن كثيراً من المترجمين حافظوا على هذه الكناية ونقلوها إلى الفرنسية كما هي دون محاولة إفهام المتلقي الفرنسي معنى هذه الكناية، مكتفين بمحاكاتها ونسخها. وعند البحث في أكثر القواميس ثراءً وعمقاً نجد في قاموس CNRTL في مادة 'main' فيما نجد في التعابير المحتوية على هذه الكلمة، هذه العبارة:

L'argent ne lui tient pas, lui fond dans les mains. Il dépense sans nécessité, sans modération([32])

وهي عبارة نرى أنها تؤدي أحسن معنى: ((ولا تبسطها كلَّ البسط)) (للتعبير عن التبذير)، أو كان الأحرى استعمال الصفات: dépensier, gaspilleur, dissipateur, prodigue

وفي قاموس (Le GR): في مادة "fondre" نجد هذه العبارة الجاهزة:

3- (Sujet n. de chose). Diminuer rapidement. Disparaître. | Brumes qui s'amincissent. →Dissiper (se). a Loc. fam. L'argent lui fond dans les mains. → Couler des doigts. a Fondre comme neige au soleil. Richesses qui fondent plus vite qu'on ne les amasse. ([33])

أمَّا التعبيرُ عن البخل فهناك تعابيرُ أخرى كان يمكن استعمالُها لإفهام القارئ الفرنسي مثل الصفات: avare، avaricieux، ladre، أو الظروف: chichement, parcimonieusement،

فكان يمكن ترجمة الآية مثلاً كالآتي: = Ne vis pas chichement mais ne sois pas non plus prodigue

2/الكناية عن صفة التكبُّر والخُيَلاء

تصعير الخدّ

كنّى اللهُ عزَّ وجلّ عن صفة المتكبّر بتصعير الخدّ وهو إمالَتُه وصَرْفُه عن الناس خُيلاء وعُجْباً. قال تعالى:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾[لقمان: 18]

مثال **2** : الكناية عن صفة التكبُّر والخُيَلاء: تصعير الخد					
مقطع الآية		ترجمتها			
السورة	لقمان	الآية	18	Des hommes, ne détourne point le visage ! Ne va pas sur la terre plein de morgue ! Allah n'aime point l'insolent plein de gloriole.([34])	**بلاشير**
وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾				« ne te rengorge pas sur les autres. Ne marche pas sur terre avec pétulance » ... --Dieu déteste l'outrecuidant, le fanfaron([35])	**بيرك**
				Et ne renfrogne par ta joue, pour les gens, et ne foule pas la terre avec arrogance : Dieu n'aime pas du tout, vraiment, le présomptueux plein de gloriole([36])	**حميد الله**

جاء في تفسير **الطبري** ([37]): ((وتأويل الكلام: ولا تُعْرِضْ بوجهك عمَّنْ كلَّمتَه تكبُّرا واستحقاراً لمن تكلّمه، وأصل(الصّعر) داءٌ يأخذُ الإبِل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفتَ أعناقُها عن رءوسها، فيشبّه به الرجل المتكبّر على الناس، ومنه قول **عمرو بن حُنَيّ التَّغلبيّ:** وكُنَّا إذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ **** أَقَمْنا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقوَّما

لقد أحسنَ **بيرك** ترجمةَ الكناية بكنايةٍ فرنسية وهي رفع الرأس إلى أعلى وتقديم الرقبة إلى الأمام، أو نقل الذقن إلى الحلقوم خُيلاء كما يفعلُ الطَّاووس، وذلك عندما استعمل الفعل:"Se rengorger" الذي معناه كما ورد في قاموس: (Le GR):

2-(1660). Prendre une attitude avantageuse (cf. Bomber le torse, etc.) par affectation d'importance, par fierté, par orgueil*. Beau, important (faire le beau, l'important), poser. Se rengorger comme un paon (par métaphore). Pavaner (se), roue (faire la). | Se rengorger et marcher fièrement.

ومعناه: هو سلوك المَرَح بدافع التصنُّع والعُجب، والخُيلاء، مثاله: تبخترَ كالطاووس، أو تبخترَ ومَشَى باختيال. أمَّا **بلاشير** فاختار نقل المعنى بطريقة مباشرة دون الأسلوب

الكِنائي ، فَنَقَلَ المعنى لكنَّه لم ينقل الصورةَ البيانيةَ التي في القُرآن فلا أراه وَفَّى بالمعنى كاملاً ولا أَحدثَ الأثرَ نفسه في المُتلقي الفرنسي. وأمّا **حميد الله** ، فقد ابتعدَ عن المعنى ،

إذِ استعمل الفعلَ:"se renfrogner" الذي معناه قَبْضُ الوجه بسبب عدم الرّضا والاستياء كما في قاموس: (Le GR):

1 11-1Vx. Contracter* (une partie du visage) en signe de mécontentement.

Se renfrogner v.pron. Mod. Témoigner son mécontentement par une expression contractée, maussade… du visage. Assombrir (s'), chagriner (se), grimace (faire la), rechigner. Son visage s'est renfrogné ; il s'est brusquement renfrogné.

3/-الكناية عن صفة النَدَم والحسرة

والكناية عن صفة الحسرة والندم جاءت في القرآن الكريم بصيغ عديدة منها:

1عض الأنامل

قال تعالى:﴿ **هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾** ﴾ **[آل عمران: 119]**

جاء في تفسير **القرطبي**: (وَإِذَا خَلَوْاْ) فِيمَا بَيْنَهُمْ (عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ) يَعْنِي أَطْرَافَ الْأَصَابِعِ (مِنَ ٱلْغَيْظِ) وَالْحَنَقِ عَلَيْكُمْ ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى هَؤُلَاءِ ظَهَرُوا وَكَثُرُوا. ([38])

مثال 3 : الكناية عن صفة النَدَم والحسرة: 1-عض الأنامل					
مقطع الآية				ترجمتها	
السورة	آل عمران	الآية	119	..., ils se mordent les doigts de rage, à cause de vous. Dis [à ces gens]: « Mourez de rage ! Allah connaît les pensées des cœurs. »([39])	**بلاشير**
هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾				Eux, quand ils vous rencontrent, disent : « Nous croyons ». Puis, une fois seuls, de rage contre vous ils se mordent les doigts. Dis : « Crevez de votre rage ! » -Dieu est Connaissant de l'être des poitrines.([40])	**بيرك**
				Et lorsqu'ils vous rencontrent, ils disent « Nous croyons » ; et une fois seuls, de rage contre vous ils se mordent les doigts. ---Dis « Mourez de rage ! » En vérité Dieu connaît fort bien le contenu des poitrines.([41])	**حميد الله**

نجد أنّ هؤلاء المترجمين الثلاثة في ترجمتهم لهذه الكناية نجحوا في تحقيق الهدف ، حيث استعملوا العبارة:

"S'en mordre les doigts" التي تعني الندم والرجوع والأَوْبة ، كما في قاموس: (Le GR): في مادة "mordre":

Loc.fig.Se mordre les doigts de qqch., s'en mordre des doigts, regretter, se repentir.

Ex. : Tu t'es ingénié à lui déplaire et maintenant tu te mords les doigts de ton imprudence

2-عض اليدين

قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ** يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ **[الفرقان: 27]**

مثال 4 : الكناية عن صفة النَدَم والحسرة: 2-عض اليدين					
مقطع الآية				ترجمتها	
السورة	الفرقان	الآية	27	Et ce jour-là, l'Injuste se mordra les mains en disant: «Plût au ciel que j'eusse fait chemin avec l'Apôtre !([42])	**بلاشير**
وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾				au Jour où l'inique se mord les mains, disant: « Ah ! si j'avais pris avec l'Envoyé mon chemin !([43])	**بيرك**
				Jour où le prévaricateur se mordra les deux mains et dira « Hélas pour moi ! si j'avais pris route avec le Messager !...([44])	**حميد الله**

وهي كنايةٌ (تكشفُ عن الحالة النفسية المنفعلة للكافر الظالم في يوم القيامة حتى يعاين عذابه ومصيره) ([45]).

وعبارة:"عض على يديه" عربية أصيلة وهي كناية تختلف عن كناية "العضّ على الأنامل" في شدة التعبير عن الندم حيث لا تكفي الأنامل وحتى اليد الواحدة للتعبير عن

شدة الغيظ ، بل يلزم الكافر يدين اثنتين للتعبير عن الحسرة والندامة.

أمّا بالفرنسية فالأصل أن يُقال:" S'en mordre les doigts" وتعني الندم الشديد،"Regretter amèrement" وكانت ربما تكفي لترجمة الآية غير أن المترجمين فضَّلوا استعمال اليد فنقلوا الكناية نقلاً حرفياً ، للتفريق بينها وبين الكناية الأولى(العض على الأنامل) لكن هذا التعبير"عض على يديه" غير موجود ولا مفهوم عند الفرنسيين ، فكان الأحرى ترجمتها " S'en mordre les doigts" وهي عبارة يفهما ويستسيغها الفرنسيون والمتكلمون بالفرنسية مع إضافة ظرف(adverbe) يقوّي المعنى من حيث شدة الندم مقارنة بمن يعض أنامله ، كأن نقول مثلاً:

Le jour où l'Injuste s'en mordra très amèrement les doigts en disant :

« Si seulement j'avais pris chemin avec le messager (d'Allah) !

جانب **بلاشير** الصوابَ حينما ترجم "رسول" بكلمة "Apôtre" وهذه الكلمة تعني الحَواريّ كحواريّ سيدنا عيسى عليه السلام ولا تعني الرسول الذي يحمل رسالة ربانية جديدة ويُوحَى إليه منه.

4/-الكناية عن صفة الخوف: قال تعالى:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب: 10]

مثال 5: الكناية عن صفة الخوف

مقطع الآية				ترجمتها	
السورة	الأحزاب	الآية	10	quand ils marchèrent contre vous, de toutes parts, quand vos regards se détournèrent [de terreur], que vos cœurs remontèrent à votre gorge ...([46])	**بلاشير**
إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾				_lors elles surgirent (les armées) pour vous de dessus et de dessous, et que fléchirent les regards, et que les cœurs montèrent dans les gorges....([47])	**بيرك**
				Quand ils vous vinrent d'en haut et d'en bas, et que les regards chaviraient, et que les cœurs remontaient aux gorges,...([48])	**حميد الله**

في هذه الآية ثلاث كنايات:(**إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم**) كناية عن صفة كثرة عدد الكفار ،

و:(**إذ زاغت الأبصار**) كناية عن صفة الحيرة و:(**بلغت القلوب الحناجر**) كناية عن صفة الخوف والفزع ، قال **القطّان**:(زاغت الأبصار: تحيَّرتْ من الدهشة والخوف. بلغت القلوب الحناجر: فزعت فزَعاً شديداً كأنها قفزت إلى الحُلُوق من الخوف))([49])

نرى أن المترجمين الثلاثة حافظوا على الكناية القرآنية وترجموها ترجمة حرفية مع إضافة شرح معناها وهذا تغريبٌ انتهجه المترجمون لهذا الصورة البيانية ولا أظنها تُحدِث الأثر عينه في نفس المتلقي الفرنسي.

وأفضِّلُ العبارة التي استعملها **بلاشير** Ils marchèrent contre vous لترجمة(وجاؤوكم) التي فيها معنى الهجوم ، وفي فعل marcher à l'ennemis أو marcher contre l'ennemi معنى الهجوم في المعركة كما في قاموس

(Le GR): في مادة: marcher المعنى 2:

Avancer, faire mouvement (en parlant de troupes qui manœuvrent ou qui font campagne). Marcher l'arme à la bretelle, au pas de route. Marcher sur une ville, contre un adversaire supérieur en nombre. Marcher à l'ennemi.

Marcher à l'assaut, au combat.

ولا أرى أحداً من المترجمين أحسن في ترجمة العبارة:((زاغت الأبصار)) فجميعُ الأفعال المستعملة لا تؤدّي معنى هذه الكناية عن القلق والخوف والحيرة ، والدليل هو قوله تعالى: ﴿**مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾**﴾ [النجم ،17] ، ما زاغ البصر أي ما مال بصر الرسول ﷺ وما حاد عن مكانه وذلك من الثبات ، جاء في تفسير **القطان**: ((ما زاغ البصرُ: ما مال بصر مُحَمَّد عمَّا رآه. وما طغى: وما تجاوز ما أُمر به. آيات ربه الكبرى: عجائب ملكوته)) ([50]). لذلك أقترح هذه الترجمة:

Lorsqu'ils marchèrent contre vous de dessus et de dessous, les yeux, perplexes, se détournèrent et les cœurs, de terreur, avaient atteint les gorges.

5/الكناية عن صفة الوَقار والتواضع واللِّين

قال تعالى: ﴿**وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾**﴾[الفرقان: 63]

مثال 6: الكناية عن صفة الوَقار والتواضع واللّين					
مقطع الآية				ترجمتها	
السورة	الفرقان	الآية	63	Les serviteurs du Bienfaiteur sont ceux qui marchent sur la terre, modestement, et qui, interpellés par les Sans Loi répondent : « Salut ! »,([51])	بلاشير
وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣				Les adorateurs du Tout Miséricordieux sont ceux qui vont par la terre modestement… --si des païens les interpellent, ils disent : « Salut »([52])	بيرك
				Et voici quels sont les esclaves du Très Miséricordieux ils marchent humblement sur terre ; et, lorsque les ignorants s'adressent à eux, ils disent « Paix ! »([53])	حميد الله

وتشير هذه الكناية إلى معنى (الرفق الذي يتحلَّى هؤلاء الموصوفون بأنهم: "عباد الرحمن" بهذه الإضافة التي ترفعهم وتخصّصهم ، قال **الزمخشري**: " هَوْناً " حال ، أو صفة للمشي ، معنى: هينين. أو: مشياً هيّناً ، إلاَّ أنَّ وضع المصدر موضع الصفة مبالغة. والهون: الرفق واللّين ، والمعنى المُكنَّى عنه: السكينة والوَقارُ والتواضع ، فهم لا يضربون الأرضَ بأقدامهم ولا يثنون أعطافهم ويلوون رؤوسهم) ([54]). وقد نقل المترجمون الثلاثة معنى الوقار والتواضع الذي يميّز سلوك عباد الرحمن المؤمنين باستعمال لفظيْ "modestement " و" humblement "

6/الكناية عن صفة المتعة والجماع: ورد في القرآن الكريم العديد من الكنايات للتعبير عن الجماع منها:

أ-**الإفضاء**

قال تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ [النساء: 21]

مثال 7: الكناية عن صفة المتعة والجماع: أ-الإفضاء					
مقطع الآية				ترجمتها	
السورة	النساء	الآية	21	Comment retiendriez-vous cela alors que vous êtes liés l'un à l'autre et [que vos épouses] ont reçu de vous une alliance solennelle ?([55])	بلاشير
وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١				Le feriez-vous, au prix d'une infamie, d'un péché flagrant ? Et comment le feriez-vous, quand vous avez accédé l'un à l'autre, et qu'elles ont reçu de vous un si grave engagement ?([56])	بيرك
				Et comment le reprendre, une fois que vous vous êtes découverts l'un l'autre, et qu'elles ont obtenu de vous une alliance ferme ?([57])	حميد الله

قال **ابن عباس** في تفسيره للآية: ({وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ} تستحلّونه يَعْنِي الْمهْر على وَجه التَّعَجُّب {وَقَدْ أفْضى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ} يَقُول وَقد اجْتَمَعْتُمْ فِي لِحَاف وَاحِد بِالْمهْرِ وَالنِّكَاح {وَأَخَذْنَ مِنكُم} يَقُول أَخذ الله مِنْكُم عِنْد النِّكَاح للنِّسَاء {مِّيثَاقاً غَلِيظاً} وثيقاً إمْسَاك بِمَعْرُوف أَو تَسْرِيح بِإِحْسَان) ([58]) وقال **الفرَّاء** في "معاني القرآن":(الإفضاء أن يَخْلُوَ بها وإنْ لَمْ يُجامِعْها) ([59]).

لم يترجم **بلاشير** معنى الكناية المُتَضَمَّنَة في الإفضاء وهو الجِماع أو أقلّه الخلوة التامّة بين الزوجين.

أمّا **بيرك** فكأنه أرادَ أن يُحافظَ على المعنى بكناية مُقابِلة: quand vous avez accédé l'un à l'autre ،

ب-**الدخول**

قال تعالى:﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾[النساء: 23]

مثال 8: الكناية عن صفة المتعة والجماع: ب-الدخول					
مقطع الآية				ترجمتها	
السورة	النساء	الآية	23	…toutefois, si vous n'avez pas consommé le mariage avec (ces épouses), nul grief à vous faire (si vous épousez ces belles-filles)([60])	بلاشير
فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ				si vous avez consommé l'union avec ces dernières (au cas inverse, nulle faute à vous), ([61])	بيرك
				_si le mariage n'a pas été consommé, alors, pas de grief contre vous ;([62])	حميد الله

قال **الزمخشري**: ﴿**دَخَلْتُمْ بِهِنَّ**﴾: كناية عن الجماع، كقوله بنى عليها وضَرَبَ عليها الحجاب، يعني: أدخلتموهنّ الستر، وما يؤيد كلام **الزمخشري** ما جاء في تفسير **الجلالين**: ﴿**دَخَلْتُمْ بِهِنَّ**﴾: جامعتموهنّ))(63)

أحسنَ المترجمون الثلاثةُ في ترجمةِ الكناية عن الجِماع "الدخول بالزوجة" باستعمال: إمَّا الفِعْل ''Consommer''

أو الاسم''Consommation'' الذي معناه حسب (Le GR):

Didact. ou littér. Action d'amener une chose à son plein accomplissement. Achèvement, couronnement, fin, terminaison. | La consommation d'un sacrifice, d'un forfait, d'une ruine. Consommation d'un mariage, par l'union charnelle des époux.

وبالعربية: استكمال الأمر أو إنجازه وتتويجه ونهايته أو إنهاؤه. كإنجاز تضحية، أو جريمة، أو إفلاس. إتمام الزواج (الدخول بالزوجة)، بالمباشرة الجسدية. وهذا معناه بالضبط الجِماع.

ت-التمتُّع

قال تعالى: ﴿**وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٢٤**﴾ [النساء: 24]

مثال **9**: الكناية عن صفة المتعة والجماع: ت-التمتع					
مقطع الآية				ترجمتها	
السورة	النساء	الآية	24	Celles des femmes dont vous avez tiré jouissance, donnez-leurs douaires comme imposition (farida) !(64)	**بلاشير**
فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً				En tant que vous jouirez de ce qu'elles vous accordent, donnez-leur salaire (nuptial) : c'est obligatoire.(65)	**بيرك**
				Puis, de même que vous jouissez d'elles, donnez-leur leurs salaires d'honneur, comme une chose due.(66)	**حميد الله**

والتمتع هو التلذُذ بالجِماع، واتصال الزوجين كأنهما جسدٌ واحد تحت سقف الحلال الطيب والراحة الجسدية والنفسية والمعنوية. لقد أَحْسَنَ المترجمون في نقلِ معنى الجماع والاستمتاع بكل ما يعنيه الفعل jouir في الفرنسية من كمال اللذَّة وطيب الإحساس وتمام الشهوة الذي أراه حسب علمي يوفي الغرض.

ث-الطَّمْثُ

قال تعالى: ﴿**فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦**﴾ [الرحمن: 56]

مثال **10**: الكناية عن صفة المتعة والجماع: ث-الطمث					
مقطع الآية				ترجمتها	
السورة	الرَّحمن	الآية	56	Dans ces jardins seront des [vierges] aux regards modestes que ni Homme, ni Démon n'aura touchées, avant eux,(67)	**بلاشير**
فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝				...il y a là de celles au regard contenu, que nul homme, nul djinn avant eux n'auront ensanglantées...(68)	**بيرك**
				Partout, des belles aux regards chastes, qu'homme ni djinn avant eux n'aura souillées.(69)	**حميد الله**

والطّمث هو الجماعُ الأوَّلُ بالنسبة للمرأة وفضُّ بكارتها. قال **الطبري**:(وكان بعضُ أهل العِلم بكلام العرب من الكوفيين يقول: الطمث هو النكاح بالتدمية، ويقول: الطمث هو الدم، ويقول: طَمَثَهَا إذا دماها بالنكاح. وإنَّما عنى في هذا الموضع أنه لم يجامعهنّ إنس قبلهم ولا جانّ)) (70).

لعلَّ **ريجيس بلاشير وجاك بيرك** قد جانبا الصوابَ في اختيارهما فِعْلَيْنِ لا يؤدّيان المعنى المُراد ولا يقتربان منه.

أمّا **بلاشير** فقد استعمل الفعلَ 'Toucher' الذي من معانيه الجِماع لكنَّه لا يؤدّي معنى الافتضاض، كما نجد في مادة 'Toucher' في قاموس: (Le GR):

Avoir des relations sexuelles avec…

Ex. : Lui (Jean), ne la touchait plus du tout, la traitait en camarade avec qui l'on a des intérêts communs. Zola, La Terre.

وأمّا **بيرك**: فاعتمدَ الأصلَ اللغويَّ وأخَذ مباشرة بالمعنى اللغوي لكلمة 'الطمث' وهو الجماع بالتدمية كما سبق الكلامُ عنه ، فاستعملَ فعلاً فيه فضاضةٌ وعُنْفٌ وإن كان نتيجةً لهذا الجِماع ، وهو الفعل "ensanglanter" ،

ولو أنه استعمَلَ الفعلَ "déflorer" لكان خيراً وأحسنَ تعبيراً. فانظرْ كيف كنَّى اللهُ عن الفِعل المُؤَدِّي إلى افتضاض الزوجة.

وانظر إلى ترجمة **جاك بيرك** كيف صَرَّحَ فيها وفَضَحَ ، مع ما لهذا التصريحِ من تَنْفيرٍ وتشنيع للفعل الذي أصله اللذَّةُ والسعادةُ والخُلود (في الآخرة)!

ج- اللّمس والمسّ: كنَّى اللهُ تعالى عن صفة اللذّة والمتعة في الجِماعِ بكلماتٍ أخرى كاللَّمْسِ والمَسِّ.

-**اللّمس:** قال تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾**﴾ [النساء: 43]

مثال 11: الكناية عن صفة المتعة والجماع: ج-اللمس					
مقطع الآية				ترجمتها	
السورة	النساء	الآية	43	ou [si] vous avez caressé vos femmes(71)	بلاشير
أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ				ou ayant touché à une femme, (72)	بيرك
				ou si vous vous êtes entre touchés avec vos femmes.(73)	حميد الله

نلحظ أنّ **بلاشير** غَيَّرَ معنى الجِماع وما يَسْبِقُهُ من مُداعَبَةٍ باللَّمس ، فلم يأتِ بشيءٍ من ذلك كُلِّهِ في ترجمتِه حين استعملَ الفِعْلَ: Caresser ولا يوجد في جميع معاني هذا الفعل معنى الجِماع. وقد أحسنَ **بيرك** عندما استعملَ الفعل: toucher لِمَا يؤدّيه من معنى الجِماع واللَّمس. أمَّا **حميدُ الله** فكان الأقرب إلى معنى المفاعلة الموجودة في الفعل " لامس" أي " فاعل"

لذلك فقد أصاب حين استعمل الفعل entre-toucher ومعناه:" لامسَ بعضُكُم بعضاً ".

-**المس**

قال تعالى: ﴿**قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾**﴾ [آل عمران: 47]

مثال 12: الكناية عن صفة المتعة والجماع: ج-المس					
مقطع الآية				ترجمتها	
السورة	آل عمران	الآية	47	« Seigneur!», répondit[Marie],«comment aurais-je un enfant alors que nul mortel ne m'a touchée ?(74)	بلاشير
وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ				« Mon Seigneur, dit-elle, comment enfanterais-je sans qu'un homme m'ait touchée ?(75)	بيرك
				Elle dit « Seigneur ! comment y aurait-il pour moi un enfant, quand aucun homme ne m'a touchée ? ».(76)	حميد الله

قال **الطبري** في تفسيره: قال أبو جعفر: يعني بذلك جَلَّ ثناؤه ، قالت مريم: إذ قالت لها الملائكة أنّ الله يبشرك بكلمة منه: "**ربِّ أنَّى يكون لى ولد**" ، من أيِّ وجه يكون لي ولد؟ أمِن قِبَلِ زَوْجٍ أتزوَّجه وبَعْلٍ أنكِحُهُ ، أمْ تبتدئ فِيَّ خَلْقَهُ مِنْ غير بَعْلٍ ولا فَحْلٍ ، ومن غير أن يَمَسَّنِي بشر؟ فقال الله لها:"**كذلك الله يَخْلُقُ ما يشاء**" ، يعني: هكذا يخلق الله منك ولدًا لك من غير أن يمسَّك بَشَرٌ ، فيجعله آيةً للناس وعبرة ، فإنه يخلق ما يشاء ويصنعُ ما يريد ، فيعطي الولد))(77)

جاء في:"زهرة التفاسير":((**أَنَّى يَكُونُ لِى وَلَدٌ**) هي بمعنى كيف ، أي كيف يكون منّي ولدٌ ولم يمسسني بشرٌ أي لم يكن منّي ما يكون بين الرجل والمرأة ممّا يكون منه ولد.))(78).

لقد أحسنَ المترجمون في اختيار الفِعل Toucher الذي أراه حسب علمي أنَّهُ فعلٌ يؤدّي معنى إتيان المرأة وهو منشأ الولد في الأصل ، سواءٌ كان نِكاحاً (زواجاً حلالاً) أو

سِفاحاً(زِنى)، ولذلك قالت: "ولم أكُ بغِياً" وهذا يليق بسياق الآية.

خاتمة

من أهم النتائج التي تحصلت عليها ما يلي:

-ليس من السهل نقل الأساليب من لغة إلى لغة خصوصا اللغة العربية التي تمتاز بكثرة الأساليب.

-أنّ لكل لغة مفرداتها وتراكيبها التي تمتاز بها عن غيرها.

- يستحيل تحقيق ترجمة الكناية قلبا وقالبا وإنّما يكفي المترجم الحفاظ على المعنى ونقله إمّا بكناية مكافئة إن وُجدت وإمّا شرح معناها باللغة الفرنسية، أو ترجمتها ترجمة حرفية مع توضيح معناها. ولو على حساب جمال الكناية، حيث لا فائدة من الجمال إذا كان المعنى يفسد.

- ينبغي لمن يترجم الكناية من القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية أن يكون عارفا باللغة العربية نحوها وصرفها وبلاغتها وبطرائق العرب في كلامهم وبثقافتهم بالإضافة إلى تفاسير القرآن الكريم، كما ينبغي عليه أن يكون مُلمّاً بالكناية في اللغة الفرنسية وهذا ما يجعله قادراً على إيجاد ما يقابلها أو يكافئها في اللغة الفرنسية.

الهوامش

1. -عبد القاهر ، الجرجاني ، **دلائلُ الإعجاز** ، تح: محمود مُحَمَّد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة-دار المدني بجدة ، ط.3، 1992 ، ص.70.
2. - أحمد بن فارس ، **مجمل اللغة** ، تحق: عبد المحسن سلطان ، ط2 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1406هـ-1986م ، ج1/771.
3. - يوسف بن أبي بكر بن علي ، السكاكي ، **مفتاح العلوم** ، ط2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1987 ، ص. 402.
4. - عبد القاهر الجرجاني ، **دلائلُ الإعجاز** ، تح : محمود مُحَمَّد شاكر ، ط3، مطبعة المدني بالقاهرة-دار المدني بجدة ، 1992 ،ص66.
5. -فضل حسن عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع** ، ط.12 ، دار النفائس ، الأردن ، 2009 ، ج2 ، ص 285.
6. - المرجع السابق ، الصفحة نفسها 285.
7. - المرجع نفسه ، ص.293.
8. - فضل حسن ، عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع** ، نفس الصفحة.
9. - **المرجع نفسه** ، ص.292.
10. - **المرجع نفسه** ، ص.295.
11. - **المرجع نفسه** ، ص.296.
12. - أحمد مصطفى المراغي ، **علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع** ، ط3، دار الكتب العلمية بيروت ، 1993 ، ص ص308- 309.
13. -أبو العبّاس مُحَمَّد بن يزيد ، المبرّد ، **الكامل في اللُّغة والأدب** ، معارضة وتعليق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2002 ، ج2 ، ص.387
14. -ينظر: عبد القاهر ، الجرجاني ، **المرجع السابق** ، ص.ص 66-67.
15. - ينظر: عبد القاهر ، الجرجاني ، **المرجع السابق** ، ص 70.
16. - أحمد مصطفى المراغي ، **علوم البلاغة** ، البيان والمعاني والبديع ، ط3، دار الكتب العلمية بيروت ، 1993 ، ص.11.
17. 7- يوسف بن أبي بكر بن علي ، السكاكي ، **مفتاح العلوم** ، ص: 412.
18. - ينظر: ضياء الدين بن الأثير ، المرجع **نفسه** ، ج3/57.
19. -Pierre, FONTANIER, Les Figures du discours, Flammarion, Paris,2002, P.361.
20. - Federica, LOCATELLI, La périphrase entre rhétorique et stylistique : l'exemple de Charles Baudelaire, thèse de doctorat, Université catholique, 2011.P. 110.
21. -http://www.cnrtl.fr/definition/antonomase (consulté le 27/09/2018 à 20h :10 m)
22. -Le site de référence sur le français : https://www.lalanguefrancaise.com/litterature/euphemisme-definition-exemples/
23. -Ibid
24. - مُحَمَّد عناني ، **نظرية الترجمة الحديثة ، مدخل إلى مبحث دراسات الترجمة** ، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان ، مصر ،2003 ، ص.45.
25. - مُحَمَّد عناني ، **المرجع السابق**، ص.63.
26. - مُحَمَّد عناني ، **المرجع السابق**، نفس الصفحة63.
27. - مُحَمَّد عناني ، **المرجع السابق**، ص. 67.
28. —Régis BLACHERE, Le Coran, Maisonneuve et Larose, Paris, 1966, p. 309.
29. —Jacques BERQUE, Le Coran, essai de traduction, Albin Michel, Paris, 1995, p.297.
30. —Muhammad HAMIDULLAH, Le Coran, Le club français du livre, Paris, 1977, p.264-265.
31. -Dictionnaire Larousse Expression (CD). Main/Expressions
32. -http://www.cnrtl.fr/definition/main (consulté le 27/09/2018 à : 15h 04m.)
33. -http://www.cnrtl.fr/definition/main (consulté le 27/09/2018 à : 15h 06m.)
34. —Régis BLACHERE, op. cit., p. 438.
35. —Jacques BERQUE, op. cit., p.440.
36. —Muhammad HAMIDULLAH, op. cit., p.395.
37. -بن جرير الطبري ، **جامع البيان في تأويل القرآن** ، تح: أحمد مُحَمَّد شاكر ، ط1 ، مؤسسة الرسالة ، 2000 ، (143/20)
38. -شمس الدين القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، ط.2 ، دار الكتب المصرية — القاهرة ، 1964 ، ص. (182/4)
39. —Régis BLACHERE, op. cit., p. 92.
40. —Jacques BERQUE, op. cit., p.83.
41. —Muhammad HAMIDULLAH, op. cit., p.62.
42. —Régis BLACHERE, op. cit., p. 388.
43. —Jacques BERQUE, op. cit., p.384.
44. —Muhammad HAMIDULLAH, op. cit., p.346.

45. -أحمد فتحي رمضان ، الحياني ، **الكناية في القرآن الكريم، موضوعاتها ودلالاتها البلاغية** ، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2014. ص. 140.

46. —Régis BLACHERE, Le Coran, Maisonneuve et Larose, Paris, 1966, p. 445.

47. —Jacques BERQUE, Le Coran, essai de traduction, Albin Michel, Paris, 1995, p.448.

48. —Muhammad HAMIDULLAH, Le Coran, Le club français du livre, Paris, 1977, p.401.

49. - إبراهيم القَطَّان ، **تيسير التفسير** ، (الموسوعة الشاملة الإلكترونية) (3/ 100).

50. - إبراهيم ، القَطَّان ، **المرجع السابق** ، (3/ 279)

51. —Régis BLACHERE, op. cit., p. 391.

52. —Jacques BERQUE, op. cit., p.387.

53. —Muhammad HAMIDULLAH, op. cit., p.349.

54. - أحمد فتحي رمضان ، الحياني ، **المرجع السابق** ، ص. 183.

55. —Régis BLACHERE, op. cit., p. 107.

56. —Jacques BERQUE, op. cit., p.98.

57. —Muhammad HAMIDULLAH, op. cit.p.76.

58. - عبد الله بن عباس ، **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس** ، جمعه: مجد الدين أبو طاهر مُحَمَّد بن يعقوب الفيروزآبادى ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ص67.

59. - عبد الله بن منظور الديلمي ، الفراء ، **معاني القرآن** ، ط.1 ، دار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر ، (259/1)

60. —Régis BLACHERE, op. cit., même page 107.

61. —Jacques BERQUE, op. cit., p.99.

62. —Muhammad HAMIDULLAH, Le Coran, Le club français du livre, Paris, 1977, p.76.

63. - أحمد فتحي رمضان ، الحياني ، **المرجع السابق** ، ص.: 96.

64. —Régis BLACHERE, op. cit., p. 107.

65. —Jacques BERQUE, op. cit., même page 99.

66. —Muhammad HAMIDULLAH, op. cit., p.76.

67. —Régis BLACHERE, op. cit., p. 570.

68. —Jacques BERQUE, op. cit., p.586.

69. —Muhammad HAMIDULLAH, op. cit., p.524.

70. - بن جرير الطبري ، **جامع البيان في تأويل القرآن** ، 2000 ، (23/ 64)

71. —Régis BLACHERE, op. cit., p. 112.

72. —Jacques BERQUE, op. cit., p.102.

73. —Muhammad HAMIDULLAH, op. cit., p.79.

74. —Régis BLACHERE, op. cit., p. 81.

75. —Jacques BERQUE, op. cit., p.75.

76. —Muhammad HAMIDULLAH, op. cit., p.54.

77. - بن جرير الطبري ، **المرجع نفسه** ، (6/ 420).

78. -ابن مصطفى ، مُحَمَّد بن أحمد الكتاب ، **أبو زهرة (المعروف بـ)، زهرة التفاسير** ، دار الفكر العربي ، (3/ 1224)

القواعد الوقائية لتحقيق أمن المنتوجات الغذائية

Preventive rules of food products security

تاريخ الإرسال:2019-01-01 تاريخ القبول: 2020-04-12

فاتح بن خالد، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2
fbenkhaled@yahoo.fr

الملخص

أوْلَى المشرع الجزائري في قانون حماية المستهلك وقمع الغش ، إهتماما خَاصًّا بالمنتوجات الغذائية ، لا سيما بعد تدخل التكنولوجيا في الصناعة الغذائية. وهو ما دفعه إلى وضع قواعد وقائية تهدف لمنع وقوع أضرار في المستقبل من جَرَّاءِ تناولها ، إذ أَوْجَبَ على المتدخل أن يسهر على إحترام هذه القواعد ، من أجل تقديم منتوجات غذائية غير مضرة بالمستهلك.

وسنحاول في هذه الدراسة: أولا ، توضيح القواعد الوقائية الخاصة باستعمال المواد المضافة ، وثانيا معرفة القواعد الخاصة بوسم المواد الغذائية وعرضها للإستهلاك ، ثم التعريج على قواعد استعمال المواد التي تلامس المنتوجات الغذائية.

الكلمات المفاتيح: المنتوجات الغذائية ، القواعد الوقائية ، المواد المضافة ، الوسم الغذائي ، المواد المعدة لملامسة الأغذية.

Résumé

Le législateur algérien, dans le code de la protection du consommateur et de la répression des fraudes, donne une importance significative aux produits alimentaires, notamment après que la technologie soit devenue partie prenante dans l'industrie alimentaire. À cet effet, il fallait prévoir des règles préventives tendant à éviter les dommages au futur et amener les industriels à veiller à ce que ces règles soient respectées pour offrir des aliments sains au consommateur. Nous tentons par cette étude, d'abord, à préciser les règles préventives relatives à l'utilisation des produits ajoutés (les additifs). Ensuite, à prendre connaissance des règles d'étiquetage des produits alimentaires et leur mise en circulation en vue de leur consommation, puis expliquer les règles d'utilisation des matières entrant en contact avec les aliments.

Mots clés **:** produit alimentaires, règles préventives, les additifs, étiquète alimentaire, matières qui sont en contact avec les aliments.

Abstract

In the Consumer Protection and Fraud Prevention Act, the Algerian legislator has paid special attention to food products, especially when technology has become a part of food industry. For that reason, the Algerian legislator introduced preventive rules in order to avoid future damage, and to provide food products that are not harmful to the consumer. In this study, we will try: First, to clarify the protective rules related to the use of additives, and secondly to know the rules for labeling foodstuffs and presenting them for consumption, then the rules of the use of materials that come into contact with food products.

Keywords: Food Product, preventive rules, added Products, labeled products, matters in contact with food products

مقدمة

يَتَمَيَّزُ العصر الحالي بِتَطَوُّرٍ كبير في الصناعة بصفة عامة، والصناعة الغذائية بصفة خَاصَّة، وقد تَوَلَّدَ عن هذا التَّطَوُّرْ تَقَدُّمَ طرق تصنيع المواد الغذائية وإنتاجها. كاستخدام التقنيات البيولوجية، والهندسة الوراثية، والتجميد والحفظ والتخزين لمدة طويلة، مما أدى إلى ظهور منتوجات غذائية مجهولة المصدر، تتميز بالتنوع والتعقيد ونَقْصِ الجودة، وقد نتج عن استعمالها العديد من الحوادث[1]، والأمراض الخطيرة[2] بالنسبة للمستهلك.

وَقَدْ حَرَصَ المشرع الجزائري على أن توجد في الأسواق منتوجات غذائية خالية من أَيِّ عيب يجعلها خطيرة على صِحَّةِ وأمن المستهلك وتُلْحِقُ به أضرارا جسيمة، مما أَدَّى بِهِ إلى سَنِّ مجموعة من القواعد القانونية أُطْلِقَ عليها تسمية: "القواعد الوقائية لتحقيق أمن المنتوجات الغذائية"، الهدف من هذه القواعد هو منع الأضرار قبل وقوعها.

وَيُقْصَدُ بالغذاء(Aliment) أو المنتوجات الغذائية (produit Alimentaire) حسب المادة 03 فقرة 02 من القانون رقم 03/09 المتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش المعدل والمتمم[3]: "**كُلُّ مَادَّةٍ معالجة أو معالجة جُزْئِيًّا، مُوَجَّهَةٌ لتغذية الإنسان والحيوان، بما في ذلك المشروبات وعلك المضغ، وكل المواد المستعملة في تضيع الأغذية وتحضيرها ومعالجتها، باستثناء المواد المستخدمة فقط في شكل أدوية أو مواد تجميل أو مواد تبغ**".

نَظَرًا للخطورة البالغة التي قد تشكلها هذه المنتوجات الغذائية على صحة وأمن المستهلك، فقد تم تنظيمها بموجب قواعد وقائية خاصة وصارمة، لا تتسامح مع المتدخلين. وذلك من خلال إصدار العديد من النصوص التنظيمية، فمنها ما هو عام يطبق على جميع المواد الغذائية، أهمها على سبيل المثال لا الحصر المرسوم التنفيذي رقم 12-214 المتعلق بتحديد شروط وكيفيات استعمال المضافات الغذائية في المواد الغذائية الموجهة للاستهلاك البشري، المرسوم التنفيذي رقم 140/17 يحدد شروط النظافة والنظافة الصحية أثناء عملية وضع المواد الغذائية لاستهلاك البشري، المرسوم التنفيذي رقم 299/16 الذي يحدد شروط وكيفيات استعمال الأشياء واللوازم الموجهة للملامسة المواد الغذائية ومستحضرات تنظيف هذه المواد، ومنها ما هو خاص يتناول بالتنظيم كل منتوج غذائي على حدى، حيث يتضمن المرسوم قواعد تَخُصُّ فقط المنتوج موضوع التنظيم ومثال ذلك: البن[4]، الحليب الصناعي[5]، الفواكه الطازجة[6].

أَمَّا بالنسبة للمواد الغذائية المستوردة فقد أوجب المشرع أن تتوفر فيها مقاييس الدليل الغذائي الصادر عن هيئة الدستور الغذائي Codex Alimentarius[7]وذلك بموجب القرار الوزاري المؤرخ في07 نوفمبر 1995 المتعلق بالمواصفات التقنية التي تطبق على المواد الغذائية عند استيرادها[8].

أَمَامَ هذا التنوع والتَّعَدُّدِ للنصوص التنظيمية، فإن دراستنا للقواعد الوقائية لتحقيق أمن المنتوجات الغذائية ستتم في إطار عام أي بخصوص القواعد الوقائية المطبقة على جميع المنتوجات الغذائية، ونستبعد القواعد الخاصة بكل مادة غذائية على حدي.

مِنْ خلال ما تَقَدَّمَ، فإن أهمية موضوع البحث تَبْرُزُ بشكل جَلِيٍّ من الناحيتين العلمية والعملية:

فمن الناحية العلمية وجدنا أن موضوع الدراسة يُشَكِّلُ مجالا خصبا لفتح مجالات عديدة للبحث العلمي، من خلال التَّوَسُّعِ في دراسة الإشكالات المطروحة من خلال هذا البحث بشكل أعمق وأكثر تَخَصُّصًا.

أما من الناحية العملية، فإننا حاولنا بهذه الدراسة إضافة الجديد إلى قائمة الموضوعات المتخصصة في دراسة حماية المستهلك من أخطار المنتوجات الغذائية، لا سيما في ظل النقص الملحوظ في المراجع المتخصصة التي عالجت هذا الموضوع بصفة منفصلة، على النحو الذي انتهجناه في هذه الدراسة، وهو ما يجعله إثراء للمنظومة المعرفية.

تَهْدِفُ هذه الدراسة بشكل أَسَاسِيّ إلى بيان الدور الهام والفَعَّال الذي تلعبه هذه القواعد الوقائية في تحقيق السلامة الصحية لمستهلك المنتوجات الغذائية بحصوله على سلع غذائية سليمة وآمنة وتُحَقِّقُ له رغبته المشروعة، في ظل تطور الصناعة الغذائية، وإدخال التكنولوجيا الحديثة على المنتوجات الغذائية.

وتبرز إشكالية الدراسة من خلال التساؤل التالي:

إِلَى أَيِّ مَدَى تُسَاهِمُ القواعد الوقائية الهادفة لتحقيق أمن المنتوجات الغذائية التي وضعها المشرع

الجزائري على عاتق المتدخل، في تحقيق الحماية الفَعَّالَة والكافية للسلامة الصحية والجسدية للمستهلك أثناء إقتنائه للمادة الغذائية ؟

وقد اقتضت هذه الدراسة استخدام المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم أساسا على قاعدة" الوصف الدقيق، التحليل المعمق للنصوص القانونية لبيان مدى كفايتها أو قصورها، قصد إيجاد الحل المناسب" في حل ومعالجة كل عنصر من العناصر التي سوف نتطرق لها.

ومن أجل المعالجة السليمة لهذا الموضوع فقد قمنا بتقسيم البحث إلى ثلاث مباحث رئيسية:

المبحث الأول: القواعد الوقائية الخاصة باستعمال المواد المضافة في المنتوجات الغذائية.

المبحث الثاني: القواعد الوقائية الخاصة بوسم المنتوجات الغذائية وعرضها للاستهلاك.

المبحث الثالث: القواعد الوقائية الخاصة بالمواد المعدة لكي تلامس المواد الغذائية ومستحضرات تنظيفها.

المبحث الأول: القواعد الوقائية الخاصة باستعمال المواد المضافة في المنتوجات الغذائية

مَعَ التَّطَوُّرِ الحاصل في الصناعة الغذائية، وانتشارها في العصر الحالي، إزداد استعمال المواد المضافة في المنتوجات الغذائية، لذا تَدَخَّلَ المشرع الجزائري من أجل ضبط وتنظيم استخدام هذه المضافات في المنتوجات الغذائية، حماية لصحة المستهلك وأمنه الجسدي.

وَلِتَوَقِّي خطورة هذه المواد المضافة على صحة وسلامة المستهلك، فقد نَظَّمَ المشرع الجزائري، استعمال المواد المضافة إلى المنتوجات الغذائية بموجب المرسوم التنفيذي رقم 25/92 والمتعلق بشروط استعمال المواد المضافة إلى المنتوجات الغذائية[9]، والذي تَمَّ إلغاؤه بموجب المرسوم التنفيذي رقم 214/12 الذي يحدد شروط وكيفيات استعمال المضافات الغذائية في المادة الغذائية الموجهة للاستهلاك البشري[10]، والَّذِي صدر تطبيقا لنص المادة 08 من قانون 03/09 المتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش[11].

فما هو المقصود بالمواد المضافة؟ وما هي أنواعها؟ وما هي الحدود التي رسمها المشرع الجزائري للمتدخل باستعمال المواد المضافة؟

تَقْتَضِي الدراسة بداية التطرق إلى معنى المواد المضافة وأنواعها في (المطلب الأول)، ثم نُعَرِّجُ على أهداف وشروط استعمال هذه المواد في (المطلب الثاني).

المطلب الأول: تعريف المواد المضافة وأنواعها

تَعَدَّدَتْ التعريفات المُتَعَلِّقَةُ بمصطلح المواد المضافة، وذلك بحسب الزاوية التي ينظر منها إلى هذه المواد، فهناك تعريفات تشريعية وأخرى علمية، كما أن تنوع هذه المضافات جعل من الصعب حصر هذه الأنواع، لذلك سنركز على تعريفها (الفرع الأول) ثم أنواعها (الفرع الثاني).

الفرع الأول: تعريف المواد المضافة

بِدَايَةً تَجِبُ الإشارة إلى أن موضوع المواد المضافة في المنتوجات الغذائية، تَمَّ تنظيمه على المستوى الدولي من طرف لجنة خبراء للمواد المضافة في مُنَظَمَتَيْ الصِّحَة والأغذية والزراعة الدوليتين (الجيكفا)[12]، بالإضافة للإتحاد الأوروبي، وقد اعتمدت الجزائر على النظام الدولي للمواد المضافة. لذا سيتم التركيز على التعريف الدولي، ثم التعريف في التشريع الوطني الداخلي.

أولا- التعريف الدولي للمواد المضافة

أَصْدَرَتْ لجنة الجيكفا أَوَّلَ تنظيم دولي للمواد المضافة لأول مرة عام 1956، وجاء في تعريف المواد المضافة بأنها: "أية مادة ليست لها قيمة غذائية تُضَافُ بقصد إلى الغذاء وبكميات قليلة لتحسين مظهره أو طعمه أو قوامه أو قابليته للخزن"[13].

وَنَظَرًا للتزايد المستمر لاستعمال المواد المضافة وتطورها فقد تَمَّ تَحْيِينُ هذا التعريف وصدر التعريف الدولي الجديد الذي عَرَّفَ المواد المضافة بأنها: "أَيَّةُ مادة لا تُسْتَهْلَكُ بذاتها كغذاء ولا تُسْتَعْمَلُ عادة كَمُكَوِّنٍ غذائي، سواء لها قيمة غذائية أم لا، وتُضَافُ هذه المواد لتحقيق أغراض تكنولوجية سواء أثناء التَّصْنِيعْ أو التَّعْبِئَةِ أَوْ التَّغْلِيفِ أو النَّقْلِ، وَيُتَوَقَّعُ أن تُصْبِحَ هذه المواد جزءا من الغذاء وتُؤَثِّرُ على خَوَاصِّهْ"[14].

ثانيا- التعريف الوطني للمواد المضافة

عَرَّفَ المشرع الجزائري المادة المضافة بموجب المادة 03 فقرة 01 من المرسوم التنفيذي 214/12 السالف الذكر بأنها: "**كُلُّ مَادَّةٍ:**

– لا تُستَهْلَكُ عادة كمادة غذائية في حد ذاتها ولا تستعمل كمكون خاص بالمادة الغذائية،

– تحتوي أَوْ لا على قيمة غذائية،

– تؤدي إضافتها قَصْدًا إلى المادة الغذائية لغرض تكنولوجي أو ذوقي عضوي في أي مرحلة من مراحل الصناعة أو التحضير أو المعالجة أو التوضيب أو التغليف أو النقل أو التخزين لهذه المادة إلى التأثير على خصائصها وتصبح هي أو أحد مُشْتَقَّاتِهَا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مُكَوِّنًا لهذه المادة الغذائية".

وَيُلاَحَظُ على المشرع الجزائري في تعريفه هذا أنه تَأَثَّرَ بالتعريف الدولي للمضافات مع تَغْيِيرٍ جزئي في الصياغة، كما يظهر تَأَثُّرُ المشرع الجزائري بالتنظيم الدولي للمواد المضافة من خلال المادة 08 من المرسوم التنفيذي سالف الذكر الذي أَكَّدَ على ضرورة التَقَيُّدِ بمواصفات التعريف والنَّقَاءِ المحددة في المقاييس الجزائرية وفي حالة عدم وجودها تُسْتَعْمَلُ المقاييس المعمول بها على المستوى الدولي.

الفرع الثاني: أنواع المواد المضافة

هُنَاكَ العديد من التقسيمات للمواد المضافة، حيث أن جُلَّهَا تقسيمات علمية، لكن بالرجوع للقرار الوزاري المشترك الصادر بتاريخ 14 فيفري 2002 الذي يُحَدِّدُ قائمة المواد المضافة المرخص بها في المنتوجات الغذائية، نجد أن المشرع الجزائري قد قَسَّمَ المواد المضافة المرَخَّصِ بها في المواد الغذائية إلى ثلاثة عشر قسم حسب المادة 02 من القرار الوزاري المشترك السابق الذكر، كما أنه لا تُدْمَجُ في المنتوجات الغذائية إلاَّ المواد المضافة التي تُحَدَّدُ قائمتها بقرار من الوزير المكلف بالجودة[15]، وتتمثل هذه الأقسام في :

1- **المواد الحافظة**: يُقْصَدُ بها تلك المواد التي تُضَافُ إلى المادة الغذائية قصد إطالة مدة الحفظ وثبات الطعم ومنع تأخير حدوث فساد ميكروبي أو كيميائي للمادة الغذائية[16]، ونظرا لاستحداث العديد من المواد الحافظة عن طريق تحديدها وتبيان النِّسَبِ القصوى لها حتى لا تؤدي لتغييرات ضارة على المادة الغذائية.

2- **مضادات الأكسدة**: تعمل هذه المواد على منع أو تأخير فترة التَغَيُّرَاتِ الكيميائية التي تحدث نتيجة تفاعل الأوكسجين مع الزيوت أو الدهون، وكذا الفيتامينات الذائبة في الدهون والتي تؤدي إلى التَزَنُّخِ[17].

3- **المثبتات**: هي مواد تعمل على تثبيت المزيج المتجانس أو ما يُسَمَّى بِالمُسْتَحْلَبْ بعد تكوينه[18]، ومن أهم المثبتات الطبيعية نجد الأصماغ كالصمغ العربي وصمغ الكارايا التي تعمل على تثبيت المزيج المتجانس من المادة الغذائية، ومن أهم المواد المثبتة صناعيا سترات الصوديوم وترترات البوتاسيوم[19].

4- **مُضَادَّاتُ التَكَتُّلِ**: تُضَافُ هذه المواد خلال العمليات التصنيعية المختلفة للغذاء وأثناء التعبئة والتغليف، ومن أهمها مانعات الرغوة ومانعات الإلتصاق ومانعات الطشاش وغيرها، وهناك مواد تمنع المواد الأخرى أن تكون في شكل كتل صغيرة، وهناك مواد تُضَافُ حَتَّى يَسْهُلَ سريان المواد الغذائية عبر خطوط التصنيع في المصنع أو المنشأة الغذائية[20].

5- **عوامل الإستحلاب والرغوة والمواد المثبتة والمغلظة للقوام**: تعمل عوامل الإستحلاب على مزج مواد لا يمكن مزجها معا مثل الزيت والماء، وتمنع المواد المثبتة فصل أحدهما عن الأخرى مرة أخرى، أما المواد التي تساعد على الرغوة فتعمل على مزج الغازات مع السوائل كما في المشروبات الغازية، كذلك فإن المواد المغلظة للقوام التي تستعمل في منع الحلويات والأيس كريم حيث تزيد من الحجم وتُحَسِّنُ القوام والمظهر.

6- **المواد المبيضة والمساعدة على النضج**: لبعض المواد المضافة خاصية زيادة سرعة التَبْيِيضْ والمساعدة على النضج في وقت أقل مما يوفر نفقات التخزين ويُجَنِّبُ المخزون من خطورة الإصابة بالحشرات الضَارَّةِ والقوارض، حيث تضاف هذه المواد للعجائن للغرض السابق الذكر.

7- **المواد الحمضية والمحاليل المنظمة**: المواد الحمضية هي تلك المواد التي تضاف للأغذية من أجل إعطاء الحموضة، وبالرجوع إلى مواصفة المواد المضافة الدولية المُعَدَّلَةِ عام 2004 نجد أنها لم تُجِزْ سوى مادتين منظمتين للحموضة وهما جلو كونات الحديد ورقمها الدولي 579، ولاكتات الحديد ورقمها الدولي 585، مما يوحي أن بقية مواد تنظيم الحموضة هي قيد المراجعة وإعادة التقييم[21].

8- **المواد المعطرة**: توجد الكثير من المواد المضافة اَلمُعَطِّرَة سواء كانت طبيعية أم مُصَنَّعَة تُسْتَعْمَلُ كمواد مُعَطِّرَةٍ في صناعة الغذاء، وتُضَافُ هذه المواد عادة بتركيز منخفض قد يصل إلى أجزاء من المليون.

9- **الملونات**: تلعب الملونات الغذائية دورا فعالا في جذب المستهلكين لا سيما الأطفال[22]، لأن أول ما يقع على البصر هو المظهر. لذا اهتم المشرع بتنظيمها حيث أباح إضافة الملونات للمادة الغذائية لكن بكميات مقبولة كما قام بتحديدها على سبيل الحصر، حفاظا على صحة المستهلك وأمنه الجسدي، فيمكن إضافة الملونات الغذائية للحليب المُعَطَّرِ على أن يكون مرخصا بها كما جاء في المادة 37 من القرار الوزاري الخاص بتحديد مواصفات بعض أنواع الحليب المعد للاستهلاك وعرضه[23]، كما وضع منهجا للكشف عن العوامل الملونة في المواد الغذائية والتي تكون من اختصاص مخابر التحليل لمراقبة مدى احترام النسب المسموح بها[24].

10-**المحليات**: تُضَافُ لإعطاء الطعم الحلو للمواد الغذائية، ومن أشهرها: السكر، وسكر فركتوز الذرة، ومن أهم المحليات الإصطناعية البديلة للسكر الطبيعي نجد "الساكرين" وقد تصل حلاوته قدرة حلاوة السكر الطبيعي مئات المرات.

11-**الخمائر**: من بين هذه المواد الخميرة أو البيكنج باودر، ومعلوم أن الخميرة غير كيميائية (طبيعية) في حين أن البيكنج باودر عبارة عن أحماض وقواعد كيميائية.

12-**أملاح الإذابة**: تُضَافُ المغذيات لرفع القيمة الغذائية، وقد تأخذ عدة اعتبارات مثل استعمال مغذيات فقدت في التصنيع وكانت موجودة أصلا بكمية كافية قبل التصنيع ومثال ذلك الفيتامينات والمعادن، أو إضافة مغذيات إلى غذاء يفتقر أصلا إليها في حالته الطبيعية ومثال ذلك إضافة اليود إلى ملح الطعام.

13-**مواد النكهة ومُحَسِّنَاتُ الطعم**: تُعْتَبَرُ من أهم المواد المضافة الَّتِي تُدْمَجُ في المنتوجات الغذائية نظرا للدور الذي تقوم به، إذ تعمل على تحسين طعم المنتجات المصنعة ومذاقها.

ومن أهم مواد النكهة الأكثر استعمالا الفانيلا والقرفة واليانسون والزنجبيل وزيت الكمون[25].

المطلب الثاني: أهداف وشروط استعمال المضافات المرخص بها في المنتوجات الغذائية

لَقَدْ أَثَارَتْ المواد المضافة في المنتوجات الغذائية جدلا كبيرا حول تأثيرها على أمن المنتوج الغذائي، وتباينت الآراء حول قبول أو رفض هذه المضافات، لكن جميع قوانين الدول أخذت بحل وسط، والمتمثل في السماح باستخدام المضافات الغذائية لكن بشروط جِدُّ صارمة، تعتمد أساسا على أخذ أكبر قدر من الوقاية. فَيَتَوَجَّبُ قبل الشروع في استخدام أي مادة كمضاف غذائي، دراسة تركيبها الكيميائي وطرق تفاعلها مع جسم الإنسان، لتقييم مدى تأثيراتها السَيِّئَةِ، مع إحترام مقادير وكميات تواجد هذه المضافات في المنتوج الغذائي، لأن تجاوز الحدود القصوى يؤدي إلى تراكم هذه المضافات في جسم المستهلك، مما يُسَبِّبُ له الإضرار بصحته وأمنه الجسدي.

الفرع الأول: أهداف استعمال المواد المضافة

نظرا للخطورة البالغة التي يمكن أن تُشَكِّلَهَا المواد المضافة، فإنه لا يمكن استعمالها بصفة عشوائية، وإنما يجب أن يكون إدماج هذه المواد بغرض تحقيق أهداف نفعية لا يمكن تحقيقها بطرق اقتصادية أخرى آمنة، وتتمثل هذه الأهداف حسب نص المادة الخامسة من المرسوم التنفيذي رقم 214/12 السابق الذكر فيما يلي:

1- الحفاظ على القيمة الغذائية للمادة الغذائية،

2- اعتبارها كَمُكَوِّنْ ضروري في أغذية الحِمْيَةِ،

3- تحسين حفظ أو تثبيت المادة الغذائية أو خصائصها الذوقية العضوية،

4- استعمالها كمادة مساعدة في مرحلة معينة من عملية العرض للاستهلاك بشرط ألا يكون استعمال المضاف الغذائي لإخفاء مفعول استعمال مادة أولية ذات نوعية رديئة أو مناهج تكنولوجية غير ملائمة.

الفرع الثاني: شروط استعمال المواد المضافة في المنتوجات الغذائية

بِهَدَفْ حماية صحة المستهلك وأمنه الجسدي، أخضعت التشريعات الخاصة بالأغذية استعمال المواد المضافة لعدة شروط ؛ سواء على المستوى الدولي(أولا) أو الوطني(ثانيا).

أولا- شروط استعمال المواد المضافة على المستوى الدولي

وضعت مُنَظَمَتَيْ الأغذية والزراعة ومنظمة الصحة العالمية ممثلة في لجنة الجيكفا (Jecfa) شروط استعمال المواد المضافة إلى المنتوجات الغذائية بِنَاءًا على معادلة الضرر والمنفعة التي تقتضي معرفة [26]:

- مقدار الضرر المُحْتَمَلْ للمستهلك ،
- حاجات ورغبات المستهلك التي لا تكون دائما على صواب ، فالمثلجات الملونة والنكهة ضارة ، ورغم ذلك يقبل عليها المستهلك بشراهة لا سيما الأطفال ،
- متطلبات توفر الغذاء (الأمن الغذائي) ،
- متطلبات منتجي ومصنعي الأغذية والعوامل الاقتصادية ،
- مدى توافر الطرق التحليلية لتنظيم عملية الرقابة.

بالإعتماد على معادلة الضرر والمنفعة سالفة الذكر فإنه يُسْمَحُ باستخدام المضافات في الحالات التالية[27]:

- إذا كانت تؤدي إلى تحسين القيمة الغذائية للمنتوج الغذائي أو المحافظة عليه ورفع جودته ،
- إذا كانت بغرض تحسين قابلية حفظ الغذاء ،
- زيادة تَقَبُّلْ المستهلك للغذاء ،
- جعل توفير الغذاء أيسر وأسهل.

ثانيا- شروط استعمال المواد المضافة على المستوى الوطني

لَقَدْ سمح المشرع الجزائري بإدماج المواد المضافة في المنتوجات الغذائية الموجهة للإستهلاك البشري أو الحيواني ، وذلك من خلال نص المادة 08 من قانون 03/09 المتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش ، كما تَكَفَّلَ المشرع الجزائري من خلال المرسوم التنفيذي 214/12 الذي يحدد شروط وكيفيات استعمال المضافات الغذائية في المواد الغذائية الموجهة للإستهلاك البشري[28]، بتحديد نسبة المضافات الواجب توفرها من خلال إدراجه لملاحق وجداول خاصة بمقادير الإستعمال القصوى المرخص لها[29]، كما وضع قائمة بالمضافات المسموح بها[30].

وَبِقَصْدِ تحقيق أمن المنتوجات الغذائية أمنا مُتَكَامِلاً فقد أخضع المشرع الجزائري المواد المضافة للمواصفات المُحَدَّدَة في المقاييس الجزائرية ، وفي حالة عدم وجودها تُسْتَعْمَلُ المقاييس المعمول بها على المستوى الدُّوَلِي[31].

كَمَا أوجب المشرع الجزائري أن يكون كُلُّ مُضَافٍ غذائي حلال ، أَيْ مباح استهلاكه حسب أحكام الشريعة الإسلامية[32].

كَمَا أوجب أَلاَّ تُغَيِّرَ المادة المضافة من طبيعة المنتوج الغذائي أو نوعيته بصورة من شأنها تغليط المستهلك. بمعنى أنه يجب أَلاَّ تُسْتَعْمَلَ المادة المضافة بهدف خداع المستهلك أو تغطية عيب في المنتوج الغذائي ، كأن تُضَافَ مادة مُنَكِّهَة لإخفاء فساد المنتوج الغذائي.

كما ألزم المشرع المتدخل في هذا المجال أَلاَّ تقلل المادة المضافة من القيمة الغذائية للمنتوج الغذائي الذي أضيفت له.

لاَ بُدَّ أن يَثْبُتَ علميا أن هذه المواد المضافة غير مُضِرَّةٍ بالصحة بناء على المعلومات العلمية المتوفرة والمتاحة ، وأن تكون مصرحا بها للاستخدام من المنظمات العالمية.

المبحث الثاني: القواعد الوقائية الخاصة بوسم المنتوجات الغذائية وعرضها للإستهلاك

مِنْ أَجْلِ ضمان أمن المنتوجات الغذائية ، يجب الأخذ بعين الإعتبار جميع مراحل الإنتاج في السلسلة الغذائية ، بِدْءًا من الإنتاج الأولي ، وصولا للتوزيع النهائي للمادة الغذائية للمستهلك ، فَكُلُّ عنصر يمكن أن يشكل تهديدا محتملا على أمن المنتوجات الغذائية ، فالتجربة أثبتت أنه من الضروري الأخذ بعين الإعتبار إمكانية أن يلحق المواد الغذائية التلوث أو الفساد في أي مرحلة من مراحل الإنتاج ، النقل ، وتوزيع هذه المواد. وبناء على هذا تَتَنَوَّعُ الأحكام القانونية التي تهدف إلى وضع قواعد وقائية ، منها ما يتعلق بوسم المنتوجات الغذائية (المطلب الأول) ومنها من تحدد قواعد عرض المنتوجات الغذائية للاستهلاك (المطلب الثاني).

المطلب الأول: القواعد الوقائية الخاصة بوسم المنتوجات الغذائية

يُعْتَبَرُ وسم المنتوجات وسيلة تسويقية أُسْتُعِيضَ بها عن أسلوب العرض في الهواء الطلق[33]، ومن بينها المنتوجات الغذائية ، ونظرا للمخاطر التي تلحق بالمستهلك

نتيجة الأضرار التي تنجم بفعل معلومات كاذبة وخاطئة عن السلع والخدمات المقَدَّمَةِ شفاهة للمستهلك، فرض المشرع على المتدخل إعلام المستهلك بواسطة الوسم بشأن المنتجات التي يقدمها[34]، وبالتالي فمن باب الوقاية يَتَوَجَّبُ على منتجي السلع الغذائية الإلتزام عن طريق الوسم ليكون وسيلة لإعلام المستهلك عن المنتوج الغذائي بشكل مُسْبَقٍ وعادل وحقيقي ومُفَصَّلٍ ودقيق بكافة البيانات والخصائص.

وَتَتَعَاظَمُ أهمية الإدلاء بالبيانات للمستهلك وإمداده بالمعلومات في مجال السلع ذات الصلة الوثيقة بالصحة مثل المنتوجات الغذائية[35]، فمعرفة المكونات التي تدخل في تركيب بعض الأغذية، لها أهمية كبيرة بالنسبة لبعض الأشخاص مِنْ ذوي الحساسية لبعض المركبات أو المكونات، حيث يلتزم المتدخل بأن يضع على المنتوجات الغذائية والمواد السابقة التغليف نشرة تتضمن كل البيانات والمعلومات المتصلة بها.

فَالوَسْمُ يلعب دورا وقائيا في حماية المستهلك من المخاطر التي قد يتعرض لها بسبب استهلاكه للمواد الغذائية، وحتى يؤدي الوسم هذا الدور الوقائي يجب أن يتم وفقا للشروط المحددة (الفرع الأول) وأن يكون مشتملا على البيانات المقررة (الفرع الثاني).

الفرع الأول: شروط وسم المنتوجات الغذائية:

عَرَّفَ المشرع الجزائري الوسم في المادة 03 فقرة 04 من قانون حماية المستهلك وقمع الغش على أنه: "**كل البيانات أو الإشارات أو العلامات أو المميزات أو الصور أو التماثيل أو الرموز المرتبطة بسلعة، تظهر على كل غلاف أو وثيقة أو لافتة أو سمة أو ملصقة في بطاقة أو ختم أو معلقة مرفقة أو دالة على طبيعة المنتوج مهما كان شكلها أو سندها، بغض النظر عن طريقة وضعها**"[36].

كَمَا تطرق المشرع الجزائري من خلال المرسوم التنفيذي 378/13 المتعلق بشروط وكيفيات إعلام المستهلك لتعريف وسم المنتوجات الغذائية في المادة 03 فقرة 15 على أنه: "**الوسم الغذائي: هو وصف لخصائص التغذية لمادة غذائية قصد إعلام المستهلك**"[37].

فَالوَسْمُ إذن هو وسيلة يُنَفِّذُ من خلالها المتدخل لإلتزامه بإعلام المستهلك، وذلك بإحاطته علما بالمنتوج الذي بين يديه، بتبيان مكوناته وخصائصه، وكيفية استعماله وتحذير المستهلك من المخاطر التي قد تنجم عن سوء استعماله.

هَذَا، وقد نَصَّ المشرع على مجموعة من الشروط المتعلقة بوسم المنتوجات الغذائية، وذلك لوقاية المستهلك من مخاطر المنتوج الغذائي من خلال إعلامه بمختلف البيانات والمعلومات حول المنتوج الغذائي الذي هو في متناوله، ويمكن تقسيم هذه الشروط إلى نوعين، شروط تتعلق ببطاقة الوسم(أولا)، وشروط تتعلق ببيانات الوسم (ثانيا).

أولا- الشروط المتعلقة ببطاقة وسم المنتوجات الغذائية:

عَرَّفَ المشرع الجزائري بطاقة الوسم من خلال نص المادة 03 الفقرة 14 من المرسوم التنفيذي رقم 378/13 السالف الذكر بأنها: "**كُلُّ استمارة أو علامة أو صورة أو مادة وصفية أخرى، مكتوبة أو مطبوعة أو ملصوقة أو موضوعة أو مرسومة أو مطبقة على تغليف المنتوج أو مرفقة بهذا الأخير**"[38]. مما سبق يتضح أن بطاقة الوسم ليست هي الوسم، بل هي الشيء الذي توضع عليه بيانات الوسم، أما الوسم فهو البيانات الواجب إدراجها في بطاقة الوسم.

كَمَا حَدَّدَ المشرع الجزائري الشروط الواجب توافرها في بطاقة الوسم بموجب المادة 18 من قانون 03/09 بنصه: "..... **وبطريقة مقروءة مُتَعَذِّرٍ محوها**"، وعليه يجب أن تكون البطاقة مكتوبة بطريقة يسهل فهمها، وواضحة وظاهرة للعيان، سهلة القراءة، غير قابلة للمحو أو الإزالة، ولصيقة بالشيء المبيع، ويمكن حصرها في:

1- أن تكون البطاقة لصيقة بالمنتوج الغذائي: بحيث تكون مرتبطة بالمنتوج الغذائي ملازمة له[39]. ويتحقق ذلك من خلال تدوين البيانات الإجبارية على البطاقة الإعلامية وتُثَبَّتْ على الغلاف بطريقة يَتَعَذَّرُ معها إزالتها من التغليف[40].

وَيُشْتَرَطُ كذلك أن تكون الكتابة بخط مُحَدَّدِ المقياس واضح، كما يشترط أن تجمع البيانات أو البعض منها في نفس المجال النظري، ويجب أن يكون البيان المتعلق بتسميته المبيع والكمية الصافية في نفس المجال البصري مما يسهل قراءتها من نفس الزاوية[41].

2- أن تكون بيانات الوسم الواردة في البطاقة غير قابلة للمحو: أي يَتَعَذَّرُ مَحْوُ هذه البيانات في الحالات الطبيعية، وتكون البيانات قابلة للمحو كحالة الكتابة على نوع من الورق الذي يَتَأَثَّرُ بالماء بسهولة، أوأن تكون البطاقة محمية من تأثير العوامل الخارجية التي تَحْتَكُّ بها كالماء[42]، مما يُؤَدِّي لمحو بيانات الوسم، كما يجب أن تكون البيانات بخط غير قابل للمحو[43].

ثانيا- الشروط المتعلقة ببيانات وسم المنتوجات الغذائية

لَمْ يقتصر المشرع الجزائري على تنظيم بطاقة الوسم فقط، بل نَظَّمَ أيضا البيانات المتعلقة بالوسم الغذائي أيضا، واشترط على المتدخل إدراج البيانات الإجبارية، وألزمه أن تكون بيانات الوسم واضحة مفهومة، وافية، غير مُغَلَّطَةٍ، مكتوبة باللغة العربية.

1- أن تكون بيانات الوسم واضحة مفهومة: يُقْصَدُ بواضحة وضوح الخط وبروزه، أي يشترط أن تُكْتَبَ بيانات الوسم بخط واضح ومقروء، وأن يكون حجم الخط مناسبا للرؤية فلا يكون رقيقا جدا تصعب قراءته. فلا يمكن أن نَتَكَلَّمَ عن الوضوح دون أن تكون البيانات ظاهرة تجلب إنتباه المستهلك من الوهلة الأولى[44].

أَمَّا مفهومة أن تكون غير غامضة، ويُقْصَدُ بهذا الشرط أن تكون البيانات المتعلقة باستعمال المنتوج الغذائي، والتحذير من أخطاره والتنبيه إلى الاحتياطات الواجبة، في عبارات سهلة تتناسب مع المستوى العلمي والمعرفي المفترض توافره لدى الأشخاص من الذين يوجه إليهم المنتوج الغذائي عادة.

كَمَا يجب أن تكون العبارات المستعملة دَالَّةٌ على معنى التحذير، فلا يُفْهَمُ منها أنها مُجَرَّدُ توصية مثل عبارة «يحفظ في مكان بارد"، التي توضع على زجاجة الألبان والعصير، قد يُفْهَمُ منها أن وضع الزجاجة في مكان بارد هو بهدف احتفاظ اللبن أو العصير بخواصه الطبيعية، في حين أن المنتج يَقْصِدُ بها تجنب تَخَمُّرِهِ وفساده، بما يؤدي ذلك من احتمال انفجار الزجاجة، لذلك كان على المنتج إضافة عبارة "خطر تخمر وانفجار"[45].

2- أن تكون بيانات الوسم وافية: أي احتواء بطاقة الوسم لجميع البيانات الإجبارية الواجب ذكرها[46]، فَأَيُّ اقتضاب في البيانات أو إدراج بيان دون آخر من البيانات المحددة بالنصوص القانونية الملزمة، نكون بصدد وسم غير قانوني، إلا ما اسْتُثْنِيَ بنص خاص، راجع لطبيعة السلعة أو حالتها. عن طريق إضافة بيانات إضافية أو عن طريق إسقاط بيانات.

3- أن تكون بيانات الوسم غير مُغَلِّطَة: يُحْظَرُ استعمال كل بيان أو إشارة أو كل تسمية خيالية أو كل طريقة تقديم وسم من شأنها أن تُدْخِلَ لبسا في ذهن المستهلك[47]. وفي المقابل فُرِضَ على المتدخل الإلتزام بالشفافية والصدق في بيانات الوسم، والابتعاد عن كل ما يجعل المستهلك يقع في غلط أو يُدَلَّسُ عليه.

كَمَا يُمْنَعُ ذكر أي بيانات بهدف التمييز بشكل تعسفي بين سلعة معينة وسلع مماثلة، أو الإشارة إلى مواصفات علاجية من الأمراض التي تصيب الإنسان باستثناء ما يتعلق بالمياه المعدنية والطبيعية والسلع الغذائية المعدة لتغذية الإنسان، أو الإدعاء في الوسم بأن المنتج له القدرة على الوقاية أو الشفاء من بعض الأمراض، لاسيما في مجال السلع الغذائية[48].

4- أن تكون بيانات الوسم مكتوبة باللغة الوطنية: الهدف من الوسم هو إعلام المستهلك بالبيانات المتعلقة بالمنتوج الغذائي، ولن يتحقق ذلك إلا إذا كان مكتوبا في بطاقة أو على غلاف، ومُتَّصِلَةٍ بالسلعة[49]. وتُعَدُّ الكتابة أهم وسيلة في الإعلام والأكثر فعالية من المعلومات المقدمة شفويا.

أَمَّا لغة التحرير فهي اللغة العربية طبقا لنص المادة 18 من القانون 03/09، والمادة 07 من المرسوم التنفيذي رقم 78/13، بالإضافة إلى المادتين 21 و22 من القانون 05/91 المتضمن تعميم استعمال اللغة العربية المعدل والمتمم[50].

الفرع الثاني: بيانات الوسم الخاصة بالسلع الغذائية

أَلْزَمَ المشرع الجزائري المُتَدَخِّلَ بإدراج بيانات مُحَدَّدَة على سبيل الحصر، بنصوص قانونية آمرة تتعلق بالمنتوجات الغذائية المعروضة للاستهلاك، وَنَظَّمَ هذه البيانات بقواعد عامة تَحْكُمُ المنتوجات الغذائية بصفة عامة(أولا)، كما راعى المنتوجات الغذائية ذات الطبيعة الخاصة، حيث أضاف

بيانات إلى جانب البيانات العامة ، أو أسقط بيان أو أكثر من البيانات العامة(ثانيا).

أولا- بيانات يجب مراعاتها لكل أنواع المنتوجات الغذائية

أَوْجَبَ المشرع الجزائري على كل متدخل إلزامية أن يشتمل وسم المنتوج الغذائي على بعض البيانات الخاصة به على غرار البيانات الأخرى الخاصة بكل المنتوجات الأخرى لاختلافها من منتوج لآخر ، نظرا لإتساع حجم الإستهلاك اليومي لدى المستهلك ، وتأثيرها على صحته مباشرة. وقد حَدَّدَتْ هذه البيانات المادة 12 من المرسوم التنفيذي 378/13 المتعلق بتحديد شروط وكيفيات إعلام المستهلك فيما يلي:

1- تسمية البيع للمادة الغذائية ،

2- قائمة المكونات ،

3- الكمية الصافية المُعَبَّرِ عنها حسب النظام المتري الدولي ،

4- التاريخ الأدنى للصلاحية أو التاريخ الأقصى للاستهلاك ،

5- الشروط الخاصة بالحفظ و/ أو الاستعمال ،

6- الإسم أو التسمية التجارية والعلامة المسجلة وعنوان المنتج أو الموضب أو الموزع أو المستورد إذا كانت المادة مستوردة ،

7- بلد المنشأ و/ أو بلد المصدر إذا كانت المادة مستوردة ،

8- طريقة الاستعمال واحتياطات الإستعمال في حالة ما إذا كان إغفاله لا يسمح باستعمال مناسب للمادة الغذائية ،

9- بيان حصة الصنع و/ أو تاريخ الصنع أو التوضيب ،

10- تاريخ التجميد أو التجميد المكثف بالنسبة للمواد الغذائية المعنية ،

11- المكونات والمواد المُبَيَّنَةُ في المادة 27 من هذا المرسوم ومشتقاتها التي تُسَبِّبُ حساسيات أو حساسيات مفرطة والتي استعملت في صنع أو تحضير المادة الغذائية ومازالت موجودة في المنتوج النهائي ولو بشكل مغاير ،

12- الوسم الغذائي ،

13- بيان "نسبة حجم الكحول المكتسب " بالنسبة للمشروبات التي تحتوي على أكثر من 1,2% من الكحول حسب الحجم ،

14- مصطلح "حلال " للمواد الغذائية المعنية ،

15- إشارة إلى رمز إشعاع الأغذية المحدد في الملحق الثالث من هذا المرسوم مصحوبا بأحد البيانات الآتية:

"مُؤَيَّنْ أو مُشِعٌّ" عندما تكون المادة الغذائية معالجة بالأشعة الأيونية ويجب أن يبين مباشرة بالقرب من اسم الغذاء.

وتَجْدُرُ الإشارة إلى أن المشرع الجزائري أعفى بعض المنتوجات الغذائية من ذكر بيان أو أكثر برخصة من الوزير المكلف بحماية المستهلك وقمع الغش ، وذلك بموجب قرار وزاري يتضمن الإعفاء من الإشارة على الوسم لرقم الحصة لبعض المواد الغذائية ، حيث نصت المادة الأولى منه على الإعفاء من ذكر حصة المواد الغذائية السريعة التلف التي تكون صلاحيتها أقل من 3 أشهر[51].

بِالرُّجُوعِ لنص المادة 25 من المرسوم التنفيذي رقم 378/13 نجد أن المشرع قد أعفى من ذكر مكونات بعض المنتوجات الغذائية ، كالفواكه والخضر الطازجة ، الملح ، الخل ، السكر ، ويعود سبب إعفاء هذه المواد من ذكر التاريخ الأدنى للصلاحية والتاريخ الأقصى للاستهلاك[52]، نظرا لطبيعتها وكثرة استهلاكها اليومي من طرف المستهلك والتي عادة ما تستهلك في غضون 24 ساعة[53] فهي لا تحتاج لذكر التواريخ ولا تؤثر على أمنها وصلاحيتها للاستهلاك.

كَمَا ألزمت المادة 35 من المرسوم التنفيذي 378/13 السابق الذكر ، على تبيان طريقة استعمال المادة الغذائية وكيفية استعمالها باعتبارها من بين أهم البيانات التي يجب أن يشار إليها في الوسم ، من أجل ضمان استعمال جيد فبدونها سيتعذر على المستهلك الحصول على الفائدة المرجوة[54]، خاصة بالنسبة للشخص العادي الذي يصعب عليه التعرف على كيفية الاستخدام الصحيح. فمثلا بالنسبة للمواد الغذائية المجمدة يجب الإشارة إلى أنه لا يجب إعادة تجميدها بعد أن يُزَالَ عنها التجميد.

ثانيا- بيانات يجب مراعاتها بالنسبة لأنواع معينة من السلع الغذائية

رَغْمَ محاولة المشرع الجزائري تحديد البيانات العامة للمنتوجات الغذائية في نَصٍّ تَنْظِيمِيٍّ واحد ، إلا أن كثرة المواد الغذائية حالت دون ذلك ، مما دفع بالمشرع وضع قواعد خاصة بهذه المنتوجات الغذائية كالمادة المضافة ، والمستحضرات الموجهة للرضع.

1- وسم المواد المضافة

إشترط المشرع الجزائري إضافة إلى بيانات المنصوص عليها في التنظيم المعمول به والمتعلق بإعلام المستهلك ، أن تحتوي المواد المضافة في المنتوجات الغذائية الموجهة إلى البيع للمستهلك بطريقة مقروءة وواضحة على أغلفتها بيانات الوسم الآتية[55]:

– إِسْمُ كل مضاف غذائي يجب أن يكون خاصا غير جنيس و/ أو رقمه في النظام الدولي متبوعا بوظيفته التكنولوجية ،

– عبارة "لأغراض غذائية" أو أية إشارة أخرى مُمَاثِلَة ،

– الكمية القصوى لكل مضاف غذائي أو مجموعة مضافات غذائية مُعَبَّرٍ عنها بالوزن بالنسبة للمضافات الغذائية الصلبة ، القياس بالوزن أو الحجم بالنسبة للمضافات الغذائية السائلة ، قياس الوزن أو الحجم بالنسبة للمضافات الغذائية الصلبة أو اللزجة ، وذلك حسب مبدأ الطرق الحسنة للصنع[56] ،

– عند وجود مُضَافَيْنِ غِذَائِيَيْنِ أو أكثر في المادة الغذائية ، فإنه يجب أن تُبَيَّنَ أسماؤها في قائمة مُرَقَّمَةٍ بالترتيب التنازلي حسب كتلتها بالمقارنة مع المحتوى الإجمالي للمادة الغذائية ،

– أما في حالة إحتواء المحليات المدمجة في المواد الغذائية على البوليولاتو/أو الأسبارتام و/أو ملح الأسبارتام ، فيجب أن يحتوي الوسم على تنبيهات تتعلق بكل محتوى على حدي ، كالتنبيه أن البيولات يمكن أن تسبب آثار غير مرغوبة بسبب الاستهلاك المفرط لها.

2- وسم المستحضرات الموجهة للرضع

تَخْضَعُ كل المواد الغذائية للوسم المحَدَّدْ بالنصوص القانونية ، وعلى اعتبار أن المواد الموجهة للرضع[57] هي مواد غذائية فهي خاضعة للوسم ولكن بشيء من البيانات الإضافية الخاصة.

وَقَدْ حَدَّدَ المشرع الجزائري بيانات الوسم المتعلقة بالمستحضرات الموجهة للرضع بملحق القرار الوزاري المشترك المؤرخ في 23 فيفري 2012 المتضمن المصادقة على خصائص وشروط وكيفيات عرض المستحضرات الموجهة للرضع[58].

وتتمثل البيانات زيادة على البيانات المنصوص عليها في المرسوم التنفيذي 13-378 المذكور سابقا البيانات الآتية:

– مصادر البروتينات ،

– مستحضرات لبنية للرضع ، إذا كان حليب البقرة هو المصدر الوحيد للبروتينات ،

– القائمة الكاملة للمكونات المرقمة تنازليا حسب نسبتها ،

– القيمة الطاقوية المعبر عنها بالكيلو حريرة أو بالكيلو جول وعدد غرامات البروتينات والغلوسيدات ،

– إذا كان المنتوج لا يحتوي على الحليب ولا على مشتقاته تدرج عبارة "بدون حليب ولا منتوج لبني" ،

– رسم توضيحي لتبيان طريقة الاستعمال الصحيحة ،

– ذكر الشروط الخاصة بالتخزين ، وكذا التعليمات المتعلقة بالتخزين بعد فتح الوعاء أو الغلاف ،

– إدراج عبارة بيان يُوَضِّحُ فيه أفضلية حليب الأم أو الرضاعة الطبيعية كعبارة "حليب الأم أفضل لرضيعكم".

المطلب الثاني: القواعد الوقائية الخاصة بعرض المنتوجات الغذائية للإستهلاك

بَعْدَ انتِهَاءِ المُنْتِجْ من عملية تصنيع المنتوجات الغذائية وفقا للقواعد الوقائية سالفة الذكر ، يقوم بتجهيز منتوجه من أجل العرض النهائي للمادة الغذائية على أن يتم ذلك بطريقة تمنع فسادها أو تَلَوُّثَهَا[59] ، بما في ذلك تغليف المادة الغذائية بهدف حماية وحفظ هذه المادة من التلوث أو التلف أو الفساد وضمان أمنها ، لكن نظرا لِتَوَجُّهِ المنتجين إلى جعل الغلاف وسيلة لجذب المستهلك ، تَدَخَّلَ المشرع بوضع قواعد وقائية صارمة لتجنب الإضرار بأمن المنتوج الغذائي ، حيث أوجب على كل متدخل مراعاة الشروط والمواصفات القانونية الخاصة بوضع الغلاف على المنتوج الغذائي ، بُغْيَةَ

تحقيق التوازن بين عامل أمن المنتوج الغذائي وعامل الترويج في تصميم الغلاف.

إذن ، لا تقتصر حماية المستهلك في مجال أمن المنتوجات الغذائية على مرحلة إعدادها وتكوينها بل تمتد إلى مرحلة ما بعد عرضها للإستهلاك ، هذا الأخير يعتبر مصطلحا حديثا ، لابُدَّ من تحديد مفهومه (الفرع الأول)، ثم نُعَرِّجُ على الأحكام القانونية الَّتِي تَضْبِطُ تغليف المواد الغذائية (الفرع الثاني).

الفرع الأول: مفهوم عرض المنتوجات الغذائية للإستهلاك

إن مصطلح عرض المنتوج للإستهلاك ، أو كما يطلق عليه مصطلح العرض للتداول (**la mise en circulation du produit**)، هو مصطلح حديث ظهر في التعليمة الأوروبية المؤرخة في 25 جويلية 1985 والمتعلقة بالمسؤولية عن فعل المنتوجات المعيبة[60]، لذا سنتطرق إلى تعريفه(أولا) ثم إلى تمييزه عن المصطلحات المشابهة له(ثانيا).

أولا- تعريف عرض المنتوجات الغذائية للإستهلاك

يُعَرِّفُ الفقه مُصْطَلَحَ العرض للإستهلاك بِأَنَّهُ: "خروج المنتوج من يد المنتج إلى غاية وصوله إلى المستهلك"[61]. أوهو: "عملية تحويل المنتجات بالتصنيع ليتم نقلها وتوزيعها على التجار، الذين يَتَوَلَّوْنَ تصريفها على جمهور المستهلكين"[62].

كَمَا عُرِّفَ على أَنَّهُ:" عرض السلعة على جمهور المستهلكين للإقبال عليها ، والتعامل بشأنها ، وهو يتحقق بوضع البضاعة في المحل أو أي مكان آخر مُخَصَّصٍ للبيع فيه تحت تَصَرُّفِ المشترين المحتملين حتى ولو لم يراها هؤلاء فعلا"[63].

أَمَّا على المستوى التشريعي فقد عَرَّفَ المشرع المصري عرض الأغذية للإستهلاك في القانون رقم 10 لسنة 1966 بشأن مراقبة الأغذية وتنظيم تداولها في مادته الأولى التي تنص على أنه:" يُقْصَدُ بتداول الأغذية أية عملية أو أكثر من عمليات تصنيع الأغذية أو تحضيرها أو طرحها أو عرضها للبيع أو تخزينها أو نقلها أو تسليمها"[64].

كَمَا عَرَّفَ المشرع الجزائري مصطلح الوضع للإستهلاك من خلال نص المادة 03 الفقرة 08 من القانون رقم 03/09 المتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش بأنه: "**عملية الوضع للإستهلاك: مجموع مراحل الإنتاج والإستيراد والتخزين والنقل والتوزيع بالجملة وبالتجزئة**".

وَهُوَ نفس التعريف المنصوص عليه في المادة 03 الفقرة 07 من المرسوم التنفيذي رقم214/12 المحدد لشروط وكيفيات استعمال المضافات الغذائية في المواد الغذائية الموجهة للإستهلاك البشري.

من خلال التعريفات السابقة نستنتج أن عملية وضع المنتوج للإستهلاك تشمل جميع مراحل الإنتاج بدءا من الإنشاء الأولي إلى العرض النهائي على المستهلك وقبل الإقتناء من قِبَلِ المستهلك.

ثانيا- تمييز العرض للإستهلاك عن المصطلحات المشابهة له

يَتَدَاخَلُ العَرْضُ للإستهلاك مع كُلٍّ من العرض للبيع ، والطرح للبيع. وَيُعَرَّفُ العرض للبيع بأنه:" تقديم السلعة إلى مُشْتَرٍ مُعَيَّن ليفحصها ويشتريها إذا شاء الشراء لنفسه أو لغيره"[65]. ويختلف العرض للبيع عن العرض للإستهلاك في أن هذا الأخير أشمل وأوسع من العرض للبيع ، حيث أن العرض للإستهلاك يَبْدَأُ منذ زمان خروج السِّلْعَةِ من مكان إنتاجها ، غير أن العرض للبيع يَبْدَأُ من لحظة العرض على المشتري فقط ، بالإضافة إلى أَنَّ العرض للبيع لشخص معين بذاته ، أما العرض للإستهلاك فهو مُوَجَّهٌ للكافة.

أَمَّا الطرح للبيع فَيُقْصَدُ به وضع المنتوج في مكان عام ، وفي متناول الكافة لِيَتَقَدَّمَ من يرغب في التعاقد عليه ، كوضعه في واجهة المحلات ، وفي الرفوف ، أو في مزاد علني ، فالعبرة بالطرح للبيع ، هو وضع المبيع تحت إرادة المشتري للإقدام أو الإعراض عن الشراء[66]، وعليه يختلف الطرح للبيع عن العرض للإستهلاك من حيث أن إلزامية تغليف المنتوجات الغذائية يبدأ من لحظة أن يكون المنتوج الغذائي جاهزا لأن يكون مَحَلاً للعملية الإستهلاكية ، بما فيه تواجد المنتوج النهائي في المخْزَنِ ، على عكس الطرح للبيع.

الفرع الثاني: أحكام تغليف المنتوجات الغذائية

يُعَدُّ تغليف المنتوجات الغذائية إجراء وِقَائِيٌّ ضَرُورِيٌّ لحماية المادة الغذائية من أي خطر يصيب المستهلك ، حيث أَقَرَّ المشرع الجزائري إلزامية تغليف المنتوج طبقا لنص المادة

10 من القانون 03/09 المتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش المعدل والمتمم في فقرتها الثانية بنصها على ما يلي:" **يَتَعَيَّنُ على كل متدخل إحترام إلزامية أمن المنتوج الذي يضعه للإستهلاك فيما يخص مميزاته وتركيبته وتغليفه وشروط تجميعه وصيانته....**".

كَمَا عَرَّفَ المُغَلَّفَ بموجب المرسوم التنفيذي رقم 210/04 المحدد لكيفيات ضبط المواصفات التقنية للمغلفات الخاصة لإحتواء مواد غذائية مباشرة أو أشياء معدة للأطفال [67] من خلال نَصِّ المادة الثانية منه:" **كل كيس أو صندوق أو علبة أو إناء أو بصفة عامة كل حاو من خشب أو ورق أو زجاج أو قماش أو بلاستيك يحتوي مباشرة على مواد غذائية أو أشياء مُخَصَّصَةٍ للأطفال وكذا كل كيس مُخَصَّصْ لتوضيبها أو نقلها**".

وللتغليف أهمية وقائية كبيرة بالنسبة للمنتوجات الغذائية حيث أنه يَقِي المادة الغذائية ويُوَفِّرُ لها الحماية وذلك أثناء عملية التعبئة والنقل والتداول والتخزين، إذ يُقَلِّلُ من قابليتها لِلْكَسْرِ أو الفقد أو تَعَرُّضِهَا للتلف أو التَلَوُّثِ أو التَسَرُّبِ.

والجدير بالذكر أن التغليف يأخذ عِدَّةَ أشكال حسب نوعية المادة الغذائية وطبيعتها[68]، فالمنتوجات الغذائية على نوعين: مَنْتُوجَاتٌ غذائية مُعَبَّأَةٌ مُسْبَقًا، ومواد غذائية غير معبأة مسبقا.

أولا- تغليف المواد الغذائية المعبأة مسبقا

يُقْصَدُ بالتعبئة المسْبَقَةِ كُلُّ مادة مُثَبَّتَة مُسْبَقًا في وِعَاءٍ[69] لتقديمها للمستهلك أو المطاعم الجماعية، والتي لا يمكن معها إدخال تغيير ما على المحتوى دون فتح التعبئة أو تغييرها، فهناك مواد تُعَبَّأُ قبل العرض النهائي للمادة نظرا لخصوصيتها كالمياه والعصائر التي توضع في القارورات والمواد المُصَبَّرَة التي توضع في عُلَبْ، والتي حَدَّدَ المشرع أحكام تغليفها عن طريق التنظيم. ومن ذلك على سبيل المثال نص المادة 41 من القرار الوزاري المحدد لمواصفات مياه الشرب الموضبة مسبقا [70]والتي نصت على ضرورة توضيب مياه الشرب في وعاءات من الزجاج لضمان أمنها وسلامتها، كما تَضَمَّنَ الملحق بالقرار الوزاري المشترك المؤرخ في 23 فيفري 2012 على ضرورة أن تُوَضَّبَ المستحضرات الموجهة لِلرَّضَعْ في أوعية نظيفة وذات جودة عالية ومُحْكَمَة[71].

وقد إشترط المشرع أن تكون التعبئة والتغليف عازلة ونظيفة وفاقدة للتفاعل الكيميائي، ذات صلابة كافية فاختيار حاويات ذات درجة مَتَانَة قليلة لا تتحمل ضغط المنتجات المعبئة فيها أو لا تتحمل عمليات النقل والتداول يؤدي لانفجار العبوات أو تمزيقها، مِمَّا يؤدي لتلف وتلوث المادة الغذائية وجعلها غير آمنة، لذا يجب على المنتج أن يراعي المظهر الخارجي للغلاف، بما يضمن أمن المنتوج الغذائي خلال نقله وتداوله[72].

وهو الأمر الذي أكده المرسوم التنفيذي رقم 140/17 الذي يحدد شروط النظافة والنظافة الصحية أثناء عملية وضع المواد الغذائية للإستهلاك، من خلال الفصل الثاني عشر منه والذي جاء بعنوان:" الضوابط المطبقة على توضيب وتغليف المواد الغذائية"، والذي نص في المادة 51 منه على ما يلي:" يجب ألا تكون المواد المكونة لتغليف المواد الغذائية مصدرا للتلويث. يجب أن تستجيب مكونات التغليفات المعدة لكي تلامس المواد الغذائية للمتطلبات المحددة في التنظيم المعمول به والمتعلق بالمواد المعدة لكي تلامس المواد الغذائية"[73].

أما المادة 52 من نفس المرسوم فقد أوجبت أن تتم عمليات التوضيب والتغليف بطريقة تسمح بتجنب كل تلويث للمواد الغذائية، خصوصا في حالة استعمال علب حديدية وأوعية زجاجية كما يجب ضمان سلامة الأوعية ونظافتها[74].

كما يجب أن تخزن التغليفات بطريقة تسمح بعدم تعرضها لمخاطر التلويث والتلف، ويجب أيضا أن تكون التغليفات الموجهة لإعادة استعمالها لتوضيب المواد الغذائية سهلة التنظيف وعند الإقتضاء سهلة التطهير[75].

ثانيا- تغليف المواد الغذائية غير المعبأة مسبقا: هي تلك المواد التي لا تُقَدَّمُ مُعَبَّأَةً وَتُعْرَضُ على حالتها على المستهلك النهائي نظرا لطبيعتها كالسمك، والفواكه، واللحوم... إلخ[76]. لكن رغبة من المشرع في ضمان أمن هذه المادة من جميع أنواع المُلَوِّثَاتِ التي قد تتعرض لها عند عرضها، ألزم المتدخل بِلَفِّهَا أو وضعها في أكياس خاصة عند عملية البيع لغرض الوقاية الصحية.

المبحث الثالث: القواعد الوقائية الخاصة بالمواد المعدة لكي تلامس المواد الغذائية ومستحضرات تنظيف هذه المواد

لَمْ يَكْتَفِ المشرع الجزائري بتلك الضَّوَابِطِ والقواعد الوقائية سالفة الذكر ، بل أضاف قاعدة أخرى تَتَعَدَّى المادة الغذائية بذاتها ، لتشمل حَتَّى المواد المُخَصَّصَةِ لسلامتها كالعتاد والآلات ، كما تَوَسَّعَ المشرع لضمان سلامة هذه المواد حين أدخل مستحضرات التنظيف التي تُسْتَعْمَلُ في نظافة المواد المعدة لملامسة المواد الغذائية ، حيث نَصَّ المشرع في قانون حماية المستهلك وقمع الغش رقم 03/09 على أنه:" **يجب أَلاَّ تحتوي التجهيزات واللوازم والعتاد والتغليف وغيرها من الآلات المخصصة لملامسة المواد الغذائية إلا على اللوازم التي لا تؤدي إلى إفسادها**".

تَطَرَّقَ المشرع عن طريق المرسوم التنفيذي رقم 299/16 الذي يحدد شروط وكيفيات استعمال الأشياء واللوازم الموجهة لملامسة المواد الغذائية ومستحضرات تنظيف هذه المواد [77]، بوضع أحكام وقائية تَتَمَثَّلُ في إقرار إلزامية سلامة المواد المعدة لملامسة المواد الغذائية وذلك أثناء صنعها وعند استعمالها (المطلب الأول) وكذا إلزامية احترام شروط مستحضرات تنظيف هذه المواد (المطلب الثاني).

المطلب الأول: المواد المعدة لكي تلامس الأغذية

نَظَّمَ المشرع سَلاَمَةَ وأمن هذه المواد من خلال المرسوم التنفيذي رقم 299/16 السالف الذكر ، الذي ألغى المرسوم التنفيذي رقم 04/91 المتعلق بالمواد المعدة لكي تلامس الأغذية ومستحضرات تنظيف هذه المواد[78]، لذا سَنُبَيِّنُ المقصود منها(الفرع الأول) ثم نتطرق لتنظيمها التشريعي بطريقة تجعلها آمنة وسليمة لملامسة المادة الغذائية (الفرع الثاني).

الفرع الأول: المقصود بالمواد المعدة لملامسة الأغذية

عَرَّفَتْ المادة 04 فقرة 01 من المرسوم التنفيذي رقم 299/16 السالف الذكر ، المواد المعدة لملامسة الأغذية بأنها:" **كل تجهيز وعتاد ومُعِدَّاتٍ وتغليف وكل آلة أخرى، مهما كانت المادة، مُوَجَّهَة في استعمالها العادي لملامسة المواد الغذائية**".

مِنْ خلال هذه المادة نجد أن المشرع قد شمل المواد المعدة لملامسة الأغذية في كل من التجهيزات والعتاد والتغليف ، وغيرها من المواد والمنتوجات المعدة لكي تلامس الأغذية. كالآلات المخَصَّصَةِ لإنتاج وتحويل المنتوجات الغذائية.

الفرع الثاني: التنظيم التشريعي للمواد المعدة لملامسة المواد الغذائية

نَصَّتْ المادة 06 من المرسوم التنفيذي 299/16 على أنه: "**يجب أن تُصْنَعَ الأشياء واللوازم المُحَدَّدَةُ في المادة 4 أعلاه، فقط من مُرَكَّبَات لا تُشَكِّلُ أَيَّ خَطَرٍ عَلَى صِحَّةِ المستهلكين وأمنهم**".

مِنْ خلال هذه المادة تظهر صرامة المشرع في ضمان أمن المنتوجات الغذائية. من خلال تدخله في إنتاج اللوازم المعدة لملامستها ، حيث ألزم أن تكون هذه المواد مصنوعة بِمُرَكَّبَاتٍ لا تُضِرُّ بالمادة الغذائية وفقا لظروف الصنع الجيدة.

كَمَا أوجب المشرع أن يتم صناعة هذه اللوازم والأشياء وأن يَتِمَّ تخزينها ووضعها للبيع ضمن الشروط المطبقة في مجال النظافة ، وأن يلتزم المصنع أو المستورد أو المنتج لهذه المواد بتقديم شهادة المطابقة ، التي تُسَلَّمُ له من طرف هيئات معتمدة تثبت مطابقتها للمتطلبات المنصوص عليها في هذا المرسوم[79].

وَفِي إطار المحافظة على صحة المستهلك وأمنه لا يجوز وضع مواد سبق أن لامست منتوجات أخرى غير غذائية موضع ملامسة للأغذية إلا بترخيص من الوزير المكلف بالنوعية ، بُغْيَةَ تفادي أي تلويث يُصِيبُ الأغذية[80].

بِالنِّسْبَةِ للمواد المعدة لملامسة بعض المنتوجات الغذائية المستوردة أو الموزعة بالجملة نظرا لتركيبتها وطبيعتها فقد أوجب المشرع أن يحمل وَسْمُهَا عبارة:" **لكيلا تلامس إلا...**" متبوعة باسم جنس هذه الأغذية ، كما أوجب أن توضع هذه العبارة على الفاتورة أو الوثائق المصحوبة لها.

أَمَّا فيها يخص المواد المعدة للملامسة الحصرية لبعض المواد الغذائية ، فيجب أن يذكر على وسمها بيان:" **للملامسة الحصرية مع ...**". متبوعا بجنس هذه المواد[81].

اسْتَبْعَدَتْ المادة 15 من حكم هذا الوسم الأواني والأوعية المستعملة في الطبخ والتي تكون بطبيعتها موجهة لملامسة المواد الغذائية.

أَمَّا بالنسبة للمواد التي لا تتوافر فيها الشروط المنصوص عليها في المادة 06، والتي تبدو أنها مُوَجَّهَةٌ بطبيعتها لملامسة المواد الغذائية ، فيجب أن تحمل بيان:" **لا يمكن أن تلامس المواد الغذائية**". محرر بطريقة مقروءة ومرئية ومُتَعَذِّرٍ مَحْوُهَا[82].

كَمَا أوجب المشرع بنص المادة 07 من المرسوم السالف الذكر أن تُصْنَعَ هذه المواد واللوازم طبقا للطرق الحسنة للصنع حتى لا تَنْقُلَ إلى المواد الغذائية مركبات بكمية قابلة أن تشكل خطرا أو مخاطرة على صحة المستهلك ، أو يمكن أن تحدث تغييرا في تركيب الخصائص العضوية للأغذية أو فسادها.

لَكِنْ عند رجوعنا للواقع العملي نجد أن المشرع قد سمح باستعمال البلاستيك[83] كمادة ملامسة للمنتوجات الغذائية ، رغم النتائج التي توصلت إليها الأبحاث والتي أثبتت وجود تفاعلات داخلية بين مادة البلاستيك والمنتوجات الغذائية التي بداخلها. خصوصا إذا كان المنتوج الغذائي من الأطعمة التي يسهل ذوبان البلاستيك فيها نتيجة درجة الحرارة المحيطة بالعبوة ، وكل ذلك يؤثر سلبا على صحة المستهلك وأمنه الجسدي ، وبالتالي يجب عليه إلغاء إدراج هذه المادة كمادة ملامسة للمنتوجات الغذائية.

المطلب الثاني: مستحضرات تنظيف المواد الملامسة للمنتوجات الغذائية

أَعْطَى المشرع إهتماما بالغا بأدق تفاصيل المنتوجات الغذائية ، من خلال نَصِّهِ على كل ما يمكن أن يضمن تحقيق أمن هذه المنتوجات. بما فيها مستحضرات تنظيف المواد المعدة لملامسة المنتوجات الغذائية بما يحقق نظافة وأمنا تاما للعتاد ، لذلك سنتطرق لتحديد المقصود بهذه المستحضرات (الفرع الأول)، ومختلف الإجراءات الواجبة على المتدخل اتخاذها في هذا المجال (الفرع الثاني).

الفرع الأول: المقصود بمستحضرات تنظيف اللوازم الملامسة للأغذية

عَرَّفَ المشرع مستحضرات التنظيف من خلال المادة 04 الفقرة 02 من المرسوم التنفيذي رقم 299/16 السالف الذكر على أنها: "**كُلُّ منتوج يملك خصائص التنظيف أو التطهير يستعمل وحده أو مُرَكَّبًا مع منتوج أو منتوجات أخرى قصد فعاليته، بما في ذلك المنتوجات الموجهة لتحسين الغسل بعد إستعمال منتوجات التنظيف أو التطهير**".

إِذَنْ ، يُقْصَدُ بمستحضرات التنظيف كل مادة أو مُسْتَحْضَرٍ يستعمل لتنظيف الأشياء واللوازم المعدة لملامسة المنتوجات الغذائية ، سواء استعملت بمفردها أو اندمجت مع مادة أخرى لضمان نظافة أكثر فعالية لهذه المواد ، كما يدخل ضمن التعريف مختلف المستحضرات الأخرى المعدة لتحسين الغسل بعد التنظيف.

الفرع الثاني: القواعد الخاصة بهذه المستحضرات

حِرْصًا من المشرع على ضمان أمن وسلامة المنتوجات الغذائية من التَلَوُّثِ وحماية المستهلك من الأخطار التي تُهَدِّدُ سلامته وأمنه. فقد نَظَّمَ في المواد من 22 إلى 26 شروط استعمال مواد تنظيف الأشياء واللوازم الملامسة للمادة الغذائية ، حيث تقضي المادة 22 منه على أن تكون مستحضرات تنظيف الأشياء واللوازم خالية من المركبات التي تشكل خطرا أو مخاطرة على صحة المستهلك وأمنه ، ويَتِمُّ استعمالها حسب توافقها مع الإستعمال الموجهة إليه.

كَمَا أوجب المشرع أن تُسْتَعْمَلَ هذه المستحضرات طبقا لِلتَّعْلِيمَاتِ المسجلة على الوسم من أجل تفادي كل أخطار تُلَوِّثُ المادة الغذائية[84]، كما ألزم أن تُخَزَّنَ مُسْتَحْضَرَات التنظيف في أماكن ملائمة ومُوَجَّهَة لهذا الغرض[85].

تُحَدَّدُ قائمة المستحضرات المعدة لتنظيف الأشياء واللوازم الملامسة بموجب قرار مشترك بين الوزراء المكلفين بحماية المستهلك والصناعة والصحة والموارد المائية والبيئة.

خاتمة

عَلَى إِثْرِ العرض المتَقَدِّمِ للقواعد الوقائية الهادفة لتحقيق أمن المنتوجات الغذائية. برزت الأهمية التي تلعبها

هذه القواعد في تحقيق حماية قبلية للمستهلك خلال المرحلة التي تسبق اقتنائه للمنتوج الغذائي.

ومن خلال دراستنا لموضوع القواعد الوقائية لتحقيق أمن المنتوجات الغذائية تَمَّ التَّوَصُّلُ إلى أهم النتائج التالية:

1- يعْتَبَرُ أمن وسلامة المنتوجات الغذائية من أحدث المواضيع الحيوية التي أخذت بعدا دوليا ، من خلال عناية المنظمات الدولية بهذا الموضوع. كهيئة الدستور الغذائي ، ولجنة الجيكفا. مما يَجْعَلُهُ جديرا بعناية المشرع الجزائري للحفاظ على أمن المواد الغذائية وسلامتها ، وفي ذلك ضمانة هامة لحماية المستهلك وأمنه الجسدي.

2- أن الأولوية في قانون حماية المستهلك ليست في الطابع العقابي الرَّدْعِيّ ، وإنما في الوقاية من مخاطر المنتوجات ذات الاستهلاك الواسع. ومن بينها المواد الغذائية ، فنصوص قانون حماية المستهلك الوقائية أكثر استفاضة من النصوص المتعلقة بالعقوبة ، والجزاء فرع من هذا الأصل ، فلا يُلْجَأُ إليه إلا عند التَّعَذُّر وعدم كفاية الأصل في تحقيق الهدف وهو الوقاية من فساد وتلوث الأغذية أو تلفها.

3- القواعد الوقائية لتحقيق أمن المنتوجات الغذائية تُحِيطُ بعملية عرض المنتوجات الغذائية للإستهلاك في كافة مراحلها ، وهو ما تَبَيَّنَ من قراءة وتحليل النصوص التنظيمية المتعلقة بها بِدْءًا بتكوين المادة الغذائية وصولا لإقتنائها من طرف المستهلك. فضلا عن النصوص التنظيمية المعمول بها في هذا المجال والخاصة بكل مادة غذائية على حدى ، وهي كثيرة جدا لا يسعنا التعرض لها في هذه المساحة.

4- القواعد الوقائية لتحقيق أمن المنتوجات الغذائية جدار الدفاع الأول عن الغذاء وصحة المستهلك.

5- من شأن القواعد الوقائية أن تحمي الغذاء ، وتقدم للمستهلك أغذية آمنة ، وصِحِيَّة ، خصوصا وأن المشرع قد خص المواد الغذائية بمواصفات صحية إلى جانب المواصفات العامة التي تشترك فيها جميع الأغذية ، غير أن هذه الحماية مشروطة بالتزام كافة المنتجين في عملية عرض المنتوجات الغذائية للإستهلاك باحترام هذه القواعد.

وبناء على هذه النتائج المتوصل إليها نقترح التوصيات التالي ذكرها:

1- ضرورة تدخل المشرع الجزائري لسد الفراغ التشريعي بإصدار النص التنظيمي المتعلق بشروط وكيفيات استعمال المضافات الغذائية الموجهة للإستهلاك الحيواني ، ذلك أن المرسوم التنفيذي رقم 12-214 ، قد اقتصر على تنظيم المضافات الغذائية الموجهة للإستهلاك البشري ؛ في حين أن المادة 08 من القانون رقم 03/09 المتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش قد نصت على أنه: "يمكن إدماج المضافات الغذائية في المواد الغذائية الموجهة للإستهلاك البشري أو الحيواني".

2- ضرورة وضع المزيد من القواعد الوقائية في مجال الغذاء خصوصا ما يتعلق منها بالأغذية المعدلة وراثيا ، أو الخاضعة للتحوير الهندسي ؛ عن طريق وضع ضوابط صحية صارمة ، وإلا تحولت هذه الأغذية عن غايتها ووظيفتها في الجسم وتحولت إلى سموم قاتلة.

3- ضرورة حذف المشرع الجزائري لمادة البلاستيك من قائمة المواد التي يسمح باستعمالها في تصنيع الأشياء والمواد المعدة لملامسة المادة الغذائية ، أو على الأقل حظر تعبئة بعض المواد الغذائية في عبوات بلاستيكية لا سيما تلك التي تحتوي على نسب عالية من الدهون ، أو استحداث أحكام تنظيمية تشمل شروط وضوابط خاصة باستعمال مادة البلاستيك بما يضمن سلامة وأمن المادة الغذائية ومنه سلامة المستهلك.

4- ضرورة قيام جمعيات حماية المستهلك بدورها التوعوي التحسيسي للمستهلكين والمتدخلين باحترام هذه القواعد الوقائية ، لحماية المصالح الإقتصادية للمستهلك وصحته الجسدية.

الهوامش

1. كحادثة الكاشير الفاسد التي عرفتها كل من مدينة سطيف وقسنطينة ، والتي أَدَّتْ إلى وفاة 17 شخص وإصابة نحو 200 شخص. أنظر: مجلس قضاء سطيف ، محكمة الجنايات ، قرار رقم 99/13 ، الصادر بتاريخ: 1999/10/27 ، (قرار غير منشور).

2. كالتسممات الغذائية للمستهلكين التي تعرفها الجزائر سنويا والتي تفوق 5000 حالة. أنظر في هذا الصدد: ب. مختارية ،" الأمن الغذائي 5400 حالة تسمم في 2005" ، **جريدة يومية وهران**، يومية وطنية إخبارية جزائرية، وهران ، العدد 16 ، 2006/03/16 ، ص17. وانظر أيضا: حليمة م ، أكثر من 4 آلاف تسمم غذائي في 2017 ، http//www.djazairess.com/elbilad/263717 ، تاريخ التصفح: 2018/11/07.

3. القانون رقم 03/09 المؤرخ في 2009/02/25 ، يتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية**، العدد 15 ، الصادرة بتاريخ 2009/03/08 ، معدل ومتمم بالقانون 09/18 المؤرخ في 2018/07/10 ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية**، العدد 35 ، الصادرة في2018/07/13.

4. مرسوم تنفيذي رقم 30/92 المؤرخ في 1992/01/20 ، يتعلق بخصائص أنواع البن وعرضها ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية**، العدد 6، الصادرة بتاريخ 1992/01/26 ، معدل ومتمم بالمرسوم التنفيذي رقم 371/96 المؤرخ في 1996/11/13 ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، العدد 67 ، الصادرة بتاريخ 1996/11/23.

5. القرار المؤرخ في 08 ماي 2008 ، المتعلق بمواصفات مسحوق الحليب الصناعي وشروط عرضه وحيازته واستعماله وتسويقه وكيفيات ذلك ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، العدد 49 ، الصادرة بتاريخ 2008/08/11.

6. القرار الوزاري المشترك المؤرخ في 08 جانفي 1994 ، المتعلق بنوعية الفواكه والخضر الطازجة وعرضها ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية**، العدد 14 ، الصادرة بتاريخ 1994/01/08.

7. أدى التعاون والتنسيق بين منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة FAO ومنظمة الصحة العالمية OMS إلى إنشاء لجنة مشتركة تسمى بهيئة الدستور الغذائي ، والتي تعتبر أهم منظمة أممية يرتبط نشاطها بمجال حماية المستهلك في مجال الأغذية.

8. القرار الوزاري المشترك المؤرخ في 07 نوفمبر 1995 ، المتعلق بالمواصفات التقنية التي تطبق على المواد الغذائية عند استيرادها ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، العدد 76 ، الصادرة بتاريخ 1995/11/07.

9. المرسوم التنفيذي رقم 25/92 المؤرخ في 1992/01/13 ، يتعلق بشروط استعمال المواد المضافة إلى المنتوجات الغذائية وكيفيات ذلك، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، العدد 05** ، الصادرة بتاريخ 1992/01/15**(ملغى).**

10. المرسوم التنفيذي رقم 214/12 ، المؤرخ في 2012/05/15 ، يتعلق بتحديد شروط وكيفيات استعمال المضافات الغذائية الموجهة للاستهلاك البشري ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، العدد 30 ، الصادرة بتاريخ 2012/05/16.

11. -تنص المادة 08من القانون 03/09: "يمكن إدماج المضافات الغذائية الموجهة للاستهلاك البشري أو الحيواني.
تحدد شروط وكيفيات استعمالها وكذا الحدود القصوى المرخص بها عن طريق التنظيم".
القانون رقم03/09 المؤرخ في:2009/02/25 المعدل والمتمم ، المرجع السابق.

12. الجيكفا: اختصار لعبارة اللجنة المشتركة بين خبراء منظمة الأغذية ومنظمة الصحة العالمية لشؤون المضافات الغذائية.

13. علي كامل يوسف الساعد ، **المضافات الغذائية** ، د. د.ن ، الأردن ، 2007 ، ص23.

14. نيفين عبد الغني وناهد مُحَمَّد وهبة ، مكسبات الطعم والألوان الصناعية التي تضاف للأغذية ، **مجلة أسيوط للدراسات البيئية** ، العدد 36 ، 2012 ، ص 91.

15. المادة 07 من المرسوم التنفيذي 25/92 ، السابق الذكر.

16. ثروت عبد الحميد ، **الأضرار الصحية الناشئة عن الغذاء الفاسد أو الملوث (وسائل الحماية منها، ومشكلات التعويض عنها)**، دار الجامعة الجديدة ، الإسكندرية ، 2007 ، ص63.

17. علي كامل يوسف الساعد ، المرجع السابق ، ص 193.

18. المرجع نفسه ، ص 194.

19. قرواش رضوان ، الضمانات القانونية لحماية أمن وسلامة المستهلك ، أطروحة دكتوراه في الحقوق ، فرع القانون الخاص ، جامعة الجزائر 01 ، كلية الحقوق 2012-2013 ، (غير منشورة) ، ص 75.

20. علي كامل يوسف الساعد ، المرجع السابق ، ص 264.

21. سي يوسف زاهية حورية ، التزام المتدخل بضمان سلامة المواد الغذائية والنظافة الصحية لها ، **الملتقى الوطني الخامس حول أثر التحولات الاقتصادية على تعديل قانون حماية المستهلك** ، كلية الحقوق ، جامعة الشلف ، يومي05 و06 ديسمبر 2012 ، ص 05.

22. علي كامل يوسف الساعد ، المرجع السابق ، ص265.

23. قرار وزاري مؤرخ في 18 أوت 1993 ، يتعلق بتحديد مواصفات بعض أنواع الحليب المعد للإستهلاك وعرضه ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية**، العدد 69 ، الصادرة بتاريخ 1993/10/23.

24. قرار وزاري مؤرخ في 25 مارس 2014 ، يجعل منهج الكشف عن العوامل الملونة في اللحوم ومنتوجات اللحوم عن طريق الإستشراب (الكروموتوغرافيا) على الطبقة الرقيقة إجباريا ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية**، العدد 22 ، الصادرة بتاريخ 2014/03/29.

25. علي كامل يوسف الساعد ، المرجع السابق ، ص 31.

26. المرجع نفسه ، ص 32

27. ديمان جون ، **أساسيات كيمياء الأغذية** ، ترجمة حنفي هاشم وأحمد عسكر ، الدار العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1996 ، ص 340.

28. تجدر الإشارة إلى أن المشرع الجزائري استثنى من مجال تطبيق هذا المرسوم المضافات الغذائية الموجهة للإستهلاك الحيواني ، المادة 02 من المرسوم التنفيذي رقم 214/12 ، المرجع السابق.

29. الملحق الثالث الذي يحدد قائمة المضافات التي يمكن إدماجها في المواد الغذائية والحدود القصوى لها من المرسوم التنفيذي 214/12.
30. الملحق الأول الخاص بقائمة المضافات الغذائية المرخص بها في المواد الغذائية من المرسوم التنفيذي رقم 214/12.
31. المادة 08 من المرسوم التنفيذي رقم 214/12.
32. المادة 09 من المرسوم التنفيذي رقم 214/12.
33. بودالي مُحَمَّد ، **حماية المستهلك في القانون المقارن- دراسة مقارنة مع القانون الفرنسي-** ، دار الكتاب الحديث ، مصر ، 2006.
34. Mohammed Ouzeroual, L'obligation D'information en matière de protection du consommateur, **Revue défense**, n 06, octobre, 2011, p 11- 12.
35. تنص المادة 09 من المرسوم التنفيذي رقم 378/13 المؤرخ في 09 أكتوبر 2013 يحدد الشروط والكيفيات المتعلقة بإعلام المستهلك ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية**، العدد 58 ، الصادرة بتاريخ 11/18/ 2013على:"**يجب أن يحمل تغليف المواد الغذائية المعبأة مسبقا والموجهة للمستهلك أو للجماعات، كل المعلومات المنصوص عليها في هذا المرسوم**".
36. قانون 03/09 المتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش المعدل والمتمم ، المرجع السابق.
37. المرسوم التنفيذي رقم 378/13 يحدد الشروط والكيفيات المتعلقة بإعلام المستهلك ، المرجع السابق.
38. المادة 03 الفقرة 14 من المرسوم التنفيذي 378/13 المحدد للشروط والكيفيات المتعلقة بإعلام المستهلك ، المرجع السابق.
39. علي مُحَمَّد جعفر ، **المبادئ الأساسية في قانون العقوبات الإقتصادي وحماية المستهلك** ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، د. س. ن ، ص 54.
40. المادة 11 الفقرة 01 من المرسوم التنفيذي رقم 378/13 ، المحدد لشروط وكيفيات إعلام المستهلك ، المرجع السابق.
41. المادة 15 من المرسوم التنفيذي 378/13 ، المحدد لشروط وكيفيات إعلام المستهلك ، المرجع السابق.
42. علي محمود علي حموده ، **الحماية الجنائية للتصنيع الغذائي في ضوء التشريعات المطبقة** ، دار النهضة العربية ، مصر ، 2003 ، ص 178.
43. المادة 18 من قانون 03/09 المتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش ، المرجع السابق.
44. أمانج رحيم أحمد ، **حماية المستهلك في نطاق العقد- دراسة تحليلية مقارنة في نطاق القانون المدني-** ، شركة المطبوعات الجامعية للتوزيع والنشر ، بيروت ، لبنان ، 2010 ، ص 164.
45. زاهية حورية سي يوسف ، **المسؤولية المدنية للمنتج** ، دار هومه ، الجزائر ،2009 ، ص 164.
46. المادة 17 من قانون 03/09 المتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش المعدل والمتمم ، والمادة 09 من المرسوم التنفيذي رقم 378/13 ، المحدد لشروط وكيفيات إعلام المستهلك ، المرجع السابق.
47. لمادتين 36 و 60 من المرسوم التنفيذي رقم 378/13 المحدد للشروط والكيفيات المتعلقة بإعلام المستهلك.[1]
48. Mémento pratique, partie concurrence consommation2009-2010, Edition frencis Lefebvre, 2009.p708.
49. مُحَمَّد العروصي ، **الإلتزام بالإعلام في مرحلة تكوين العقد مع إدخال قانون الإستهلاك رقم 31-08 وقانون سلامة المنتوجات والخدمات رقم 24- 09** ، د. د.ن ، مكناس ، المغرب ، 2012 ، ص 192.
50. قانون رقم 05/91 المؤرخ في 16 جانفي 1991 ، المتضمن تعميم استعمال اللغة العربية، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، العدد 03 ، الصادرة بتاريخ 1991/01/16 ، معدل ومتمم بالأمر رقم 30/96 المؤرخ في 21 ديسمبر 1996 ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية**، العدد 81 ، الصادرة بتاريخ 1996/12/22.
51. قرار وزاري مؤرخ في 28 فيفري 2009 ، يتضمن الإعفاء من الإشارة على الوسم لرقم الحصة لبعض المواد الغذائية، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، العدد 19 ، الصادرة بتاريخ 2009/03/25.
52. أنظر: نص المادة 32 من المرسوم التنفيذي رقم 378/13 المتعلق بتحديد شروط وكيفيات إعلام المستهلك ، المرجع السابق.[1]
53. M. kahloula et G.mekamcha, la protection de consommateur en droit algérien, **revu idara**, volumes, N°2, 1995, p28.
54. سي يوسف زاهية حورية ، الإلتزام بالإفضاء عنصر من عناصر ضمان المستهلك ، **المجلة النقدية للقانون والعلوم السياسية** ، جامعة تيزي وزو ، العدد الثاني ، 2009 ، ص 05.
55. المادة 12 من المرسوم التنفيذي رقم 214/12 ، المرجع السابق.
56. حددت المادة 03 الفقرة 07 المقصود بالطرق الحسنة للصنع بأنه:" تستعمل هذه العبارة عند عدم وجود أية تحديد للكمية القصوى ، غير أنه يجب استعمال المضافات الغذائية بأقل مقدار ممكن للحصول على المفعول المرجو".
57. عرفت المادة 03 الفقرة 13 من المرسوم التنفيذي 214/12 المستحضرات الموجهة للرضع بأنها:" بديل لحليب الأم أو مستحضرات موجهة للرضع تشبع بذاتها حاجات تغذية الرضع الذين يعانون اضطرابات أو أمراضا أو حالات مرضية خاصة أثناء الأشهر الأولى من الحياة إلى غاية إدخال تغذية مكملة ملائمة".
58. قرار وزاري مشترك مؤرخ في 23 فيفري 2012 ، يتضمن المصادقة على النظام التقني الجزائري الذي يحدد خصائص وشروط وكيفيات عرض المستحضرات الموجهة للرضع ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، العدد 19 ، الصادرة في 19 سبتمبر 2012.
59. تنص المادة 51 من المرسوم التنفيذي رقم 140/17 ، المؤرخ في 2017/04/11 ، يحدد شروط النظافة والنظافة الصحية أثناء عملية وضع للإستهلاك البشري، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية**، العدد 24 ، الصادرة بتاريخ 2017/04/17 على أنه:" يجب ألا تكون المواد المكونة لتغليف المواد الغذائية مصدرا للتلويث".

60. La directive européenne n°85/374 CEE du 25 juillet 1985 relative au rapprochement des dispositions législatives, réglementaires et administratives des Etats membre en matière de responsabilité du fait des produits défectueux. JOCE, 0 7 aout1985, n°210.

61. المر سهام ، التزام المنتج بالسلامة- دراسة مقارنة- ، مذكرة ماجستير في القانون الخاص ، جامعة تلمسان ، كلية الحقوق ، 2008-2009 ،(غير منشورة) ، ص 142.

62. Mémento pratique, op .cit, p 1135.

63. روسم عطية نو ، **الحماية الجنائية للمستهلك من الغش في المعاملات التجارية- دراسة مقارنة** ، دار المطبوعات الجامعية ، الإسكندرية ،2014 ، ص 110.

64. أحمد مُحَمَّد محمود خلف ، **الحماية الجنائية للمستهلك في القوانين الخاصة- دراسة مقارنة-**، المكتبة العصرية ، المنصورة ، 2008 ، ص 84.

65. فاطمة بحري ، الحماية الجنائية للمستهلك ، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في القانون الخاص ، جامعة تلمسان ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ، 2013-2013 ، (غير منشورة) ص 97.

66. المرجع نفسه ، ص97.

67. المرسوم التنفيذي رقم 210/04 المؤرخ في 2004/07/28 ، يحدد كيفية ضبط المواصفات التقنية للمغلفات المخصصة لاحتواء مواد غذائية مباشرة أو أشياء معدة للأطفال ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية**، العدد 47 ، الصادرة بتاريخ 2004/07/28.

68. شعباني (حنين) نوال ، التزام المتدخل بضمان سلامة المستهلك في ضوء قانون حماية المستهلك وقمع الغش ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في المسؤولية المهنية ، جامعة تيزي وزو ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ، 2012 ، (غير منشورة) ، ص 57.

69. الوعاء حسب نص المادة 03 من المرسوم التنفيذي رقم378/13 يحدد الشروط والكيفيات المتعلقة بإعلام المستهلك:" كل تغليف متصل مباشرة بمنتوج موجه للتوزيع كوحدة مفردة ، سواء كانت التعبئة تغطيه كليا أو جزئيا ، ويشمل هذا التعريف الأوراق المستعملة للتعبئة. ويمكن أن يحتوي الوعاء على عدة وحدات أو أصناف من التعبئة عند تقديمه للإستهلاك ".

70. قرار وزاري مؤرخ في 26 جوان 2000 ، يتعلق بمواصفات مياه الشرب الموضبة مسبقا وكيفيات عرضها ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، العدد 51 ، الصادرة بتاريخ 2000/08/20.

71. قرار وزاري مشترك مؤرخ في 23 فيفري 2012 ، يتضمن المصادقة على النظام التقني الجزائري الذي يحدد خصائص وشروط وكيفيات عرض المستحضرات الموجهة للرضع ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية**، العدد 19 ، الصادرة بتاريخ 19 سبتمبر 2012.

72. زاهية حورية سي يوسف، **المسؤولية المدنية للمنتج** ، المرجع السابق ، ص 175.

73. المادة 51 من المرسوم التنفيذي 140/17 ، المرجع السابق.

74. الفقرة الأولى من المادة 52 من المرسوم التنفيذي 140/17 ، المرجع نفسه.

75. الفقرتين الثانية والثالثة من المادة 52 من المرسوم التنفيذي رقم 140/17 ، المرجع نفسه.

76. بركات كريمة ، إلتزام المنتج بإعلام المستهلك ، **مجلة معارف** ، جامعة البويرة ، عدد 06 جوان 2009 ، ص 157.

77. المرسوم التنفيذي رقم 299/16 المؤرخ في 23 نوفمبر 2016 ، يحدد شروط وكيفيات استعمال الأشياء واللوازم الموجهة لملامسة المواد الغذائية ، وكذا مستحضرات تنظيف هذه اللوازم، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، العدد 69 ، الصادرة بتاريخ 2016/11/25.

78. مرسوم تنفيذي رقم 04/91 ، المؤرخ في 19جانفي 1991 ، يتعلق بالمواد المعدة لكي تلامس الأغذية ومستحضرات تنظيف هذه المواد ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية**، العدد 04 ، الصادرة بتاريخ 1991/01/24 **(ملغى)**.

79. المادتين 12 و13 من المرسوم التنفيذي رقم 299/16 ، يحدد شروط وكيفيات استعمال الأشياء واللوازم الموجهة لملامسة المواد الغذائية ، وكذا مستحضرات تنظيف هذه اللوازم ، المرجع السابق.

80. قرواش رضوان ، المرجع السابق ، ص 64.

81. المادة 14 من المرسوم التنفيذي 299/16 ، المرجع السابق.

82. المادة 16 من المرسوم التنفيذي 299/16 ، المرجع نفسه.

83. المادة 08 من المرسوم التنفيذي 299/16 ، المرجع نفسه.

84. المادة 24 من المرسوم التنفيذي ، 299/16 ، المرجع نفسه.

85. المادة 26 من المرسوم التنفيذي 299/16 ، المرجع نفسه.

الشروط التعسفية في العقود في التشريع الجزائري

The Abusives clauses in contracts in the Algerian legislation

تاريخ الإرسال:27-11-2018 تاريخ القبول: 12-04-2020

نور الهدى كرميش، جامعة بن يوسف بن خدة الجزائر
nor.droit@gmail.com

الملخص

انتشرت الشروط التعسفية في العقود مما دفع جل التشريعات إلى معالجة هذه الشروط بعد أن حددوا ماهيتها ومن ذلك التشريع الجزائري الذي عرّفها في القانون رقم 04-02 المتعلق بالقواعد المطبّقة على الممارسات التجارية ، وبذلك يكون قد قصر نطاقها بعقود الإذعان ، كما اعتبر عدم التوازن بين حقوق وواجبات الأطراف معيارا لاعتبار الشرط تعسفيا مع وضع قائمة للشروط التعسفية. ولقد اتبع المشرع أسلوبين لمواجهة الشروط التعسفية ، أسلوب تنظيمي قام من خلاله بإنشاء لجنة البنود التعسفية كما منح للحكومة سلطة تحديد الشروط التعسفية ، أما الثاني فهو أسلوب قضائي حيث مَكَّنَ القاضي من تعديل الشروط التعسفية أو إعفاء الطرف المُذعَن منها ، بالإضافة إلى ترتيب جزاء مدني يتمثل في بطلان الشروط التعسفية التي تتضمنها وثيقة التأمين ، وكذا جزاء عقابي ممثَل في الغرامة.

الكلمات المفاتيح: العقد ، الشروط التعسفية ، التوازن العقدي.

Résumé

Les clauses abusives se sont répandues dans les contrats et la législation algérienne s'est empressée qui la définie dans la loi no.04-02 fixant les règles applicables aux pratiques. Ainsi, sa portée a été restreinte aux contrats d'adhésion. Il a par ailleurs considéré le déséquilibre entre les droits et les devoirs des parties comme un critère sur lequel une condition peut être considérer comme abusive, En outre, une liste de clauses abusives a été établie. Le législateur a adopté deux méthodes pour faire face aux clauses abusives : une approche réglementaire par laquelle il a créé une commission de la clause abusive, Et Le Gouvernement s'est vu également attribuer le pouvoir de déterminer les clauses abusives. Et une approche judiciaire, le juge peut modifier les clauses abusives ou en dispenser la partie adhérente ; en plus de l'établissement d'une sanction civile qui consiste à annuler des clauses abusives incluses dans la police d'assurance, ainsi qu'une amende en guise de sanction pénale

Mots clés : Contrat, Clauses Abusives, équilibre contractuel.

Abstract

The abusive clauses have spread in contracts, prompting most of legislations to address these clauses after determining what they are. Among those legislations, there is the Algerian legislation which has defined those clauses in Law No. 04-02 on the rules applicable to commercial practices. Thus, its scope was restricted to the contracts of adhesion. In addition, it considered the imbalance between the rights and duties of the parties as a criterion for considering the clause abusive with a list of abusive clauses. To deal with the abusive clauses, the legislator has adopted two methods. The regulatory method by which the legislator establishes a commission of abusive items. This method empowered the government to determine abusive clauses. The second method is a judicial method, where the judge is enabled to modify abusive clauses or exempt the adherent party, in addition to the civil penalty arrangement represented in invalidity of the abusive clauses contained in the insurance policy, and punitive sanction represented in the fine as well.

Key words: Contract, Arbitrary conditions, The contractual equilibrium**.**

مقدمة

عرفت الحياة المعاصرة اليوم تطورا كبيرا وتعقيدا أكبر في المعاملات سواء من حيث نوعها أو حجمها ، ومن أهم هذه المعاملات العقد الذي هو أداة لتبادل الأموال والخدمات ، وهو بهذا الوصف يعد الوسيلة المثلى لإشباع حاجات الأفراد ورغباتهم والتوفيق بين المصالح المتعارضة ، حيث يهدف كل طرف تحقيق أكبر قدر من الربح على اعتبار أن أطراف العقد أعلم الناس بمصالحهم.

وما داموا متساوين أمام القانون فإنهم يصنعون عدالة العقد بأنفسهم ، هذه الأفكار وغيرها شكلت ذروة الأسس التي أقام عليها أنصار المذهب الفردي تصورهم لنظرية العقد[1] ، حيث ظهر سلطان الإرادة كمبدأ مهيمن على حياة العقد من حيث نشأته وتنفيذه وسيطرت القواعد المنبثقة عنه على كل تفاصيل العقد.

لكن التطبيق الصارم لمبدأ سلطان الإرادة في صورته التقليدية ترتبت عنه الكثير من النتائج السلبية من أهمها أنه كرس استغلال القوي للضعيف ، إذ قد يجد هذا الأخير نفسه يبرم عقدا يحتوي شروطا مجحفة في حقه تتسم بالتعسف يضعها الطرف القوي خدمةً لمصالحه.

هذه العوامل وغيرها أدت إلى مراجعة الأسس والقواعد التي استند إليها مبدأ سلطان الإرادة من قِبَل ، حيث ذهب غالبية الفقه[2] إلى اعتبار هذا المبدأ خيالي ولم يعد يتلاءم مع الواقع ، وبالتالي اقترح أسسا بديلة ترمي في مجملها إلى تحقيق العدالة التعاقدية ، هذه القراءة الجديدة في نظرية العقد سمحت بظهور أفكار جديدة من أهمها فكرة حماية الطرف الضعيف في العقد.

ونظرا لعدم قدرة الحلول التقليدية كالبطلان والفسخ على توفير الحماية الكافية للمتعاقد ضحية الشروط التعسفية بل على العكس من ذلك أصبحت تؤدي إلى نتائج عكسية ، الأمر الذي دفع رجال القانون إلى البحث عن آليات جديدة يمكن من خلالها معالجة هذه الشروط والحد من انتشارها إلى القدر الذي يتلاءم مع التطور الاقتصادي والاجتماعي.

ولمعالجة هذا الموضوع ارتأينا تقسيم هذه الدراسة إلى نقطتين ، نتطرق في الأولى إلى مفهوم الشروط التعسفية وذلك بالتعرُّض لتعريفها ونطاقها وكذا المعايير التي يتم الاستناد عليها لاعتبار الشرط تعسفيا ، أما الثانية فسنتناول فيها الآليات التي اعتمدها المشرع الجزائري لمواجهة الشروط التعسفية وذلك بالتطرق إلى الآليات التنظيمية والقضائية.

أولا: مفهوم الشروط التعسفية

لدراسة موضوع الشروط التعسفية يتوجب علينا التطرق للتعريفات التي وضعتها التشريعات وكذا الفقه للشروط التعسفية وكذا تحديد المعايير التي تمكننا من تمحيص شروط العقد وتمييز الشروط التعسفية عن غيرها من الشروط ، وكذا معرفة مجال هذه الشروط.

1- تعريف ومعايير الشروط التعسفية

نظرا للأهمية البالغة الذي احتلها موضوع مكافحة الشروط التعسفية على المستوى القانوني ، فقد عمدت جل التشريعات[3] إلى تعريف الشروط التعسفية ، وذلك بعد الضغط الممارس من قِبَل الفقه ، وكذا تحديد معايير الشروط التعسفية.

أ- تعريف الشروط التعسفية

نظرا لما يترتب عن الشروط التعسفية من جور للمتعاقد الضعيف ، فقد اهتم الفقهاء بوضع تعريف لها ودفعوا المشرعين لإتباع هذا المنهج لتكون ملزمة لقضاة الموضوع.

التعريف التشريعي للشروط التعسفية

عرّف المشرع الفرنسي بموجب قانون 96-95 بتاريخ 01 فيفري 1995 المعدِّل للقانون 26 جويلية 1993 المتعلق بالاستهلاك استجابة للتوجيه الأوروبي ل 05: أفريل 1993 المتعلق بالشّروط التعسّفية ، والقاضي بوجوب تعديل قوانين الدول الأوروبية الأعضاء لتنسجم معه في مادة الشروط التعسّفية ، أصبح تعريف الشروط التعسفية منصوص عليه بموجب المادة 1 / 5 - 132 من قانون 96 - 95 ، بأنّها تلك "التي يكون موضوعها أو من نتيجتها أن تخلق -على حساب غير المحترف أو المستهلك-عدم توازن ذو دلالة بين حقوق والتزامات أطرف العقد"[4]، وما يمكن ملاحظته من هذا التعريف أنّ الشرط التعسفي يكون مدرجا في عقد مبرم بين مهني ومستهلك أو غير مهني، أي يكون مدرجاً في عقد استهلاك.

وخلافا للقانون الفرنسي ذهب المشرّع الكيبيكي والألماني الى أبعد من ذلك، حيث عرفها القانون الكيبيكي بالمادة 1437 من القانون المدني بقوله :" كل شرط يضر المستهلك أو المذعن بشكل مفرط فاحش وغير معقول... ويعتبر تعسفيا بالأخص، الشرط الذي يستبعد التزامات أساسية مترتبة عن القواعد التي تحكم العقد عادة، فيغير منها ذلك الشرط"[5]، أما المشرع الألماني الذي له السبق في آليات الحماية، ففي مجال الحماية من الشّروط التعسفية أصدر بتاريخ 09 ديسمبر 1976 القانون المتعلق بالشّروط العامة للعقود، والذي بدأ العمل به في 01 أفريل 1977، وقد تبنّى النّظام التشريعي وضع قائمة بالشّروط الباطلة، كما اعترف في نفس الوقت للقضاء بسلطة تقدير الطابع التعسفي للشّرط بالاستناد إلى مبدأ حسن النية بموجب المادة 09 من القانون المذكور[6]، وعرّفت المادة 01 من نفس القانون الشّروط العامة المخلة بالتوازن العقدي، بأنّها تلك الشروط التي تصاغ في العديد من العقود، والتي يفرضها أحد المتعاقدين على المتعاقد الآخر أثناء إبرام العقد، وقد تكون هذه الشّروط منفصلة عن العقد، كما قد تكون مندمجة في نصوصه دونما اعتبار لموادها ولا للشكل الذي ترد فيه.

والملاحظ أن كُلا من المشرّع الألماني والكيبيكي قد وسع مجال الحماية، إذ لم تقتصر الحماية من الشّروط التعسفية على فئة المستهلكين، بل مدّ الحماية إلى المهنيين أنفسهم، كما أنّها ليست مقبولة إلا بالنسبة لعقود الإذعان، مع استثناء عقود المساومة، وقد اشترط القانون للاعتداد بها إعلام الطرف الآخر بها وخاصة المستهلك"[7].

أما المشرع الجزائري فلم يضع تعريفا للشروط التعسفية في القانون المدني، حيث اقتصر على تبيان الآليات التي يمكن من خلالها التصدي لهذه الشروط في نص المادة 110 و622 من القانون المدني، إلا أن المشرع لم يفته تعريف هذه الشروط بموجب القانون رقم 04-02 المتعلق بالقواعد المطَبقَة على الممارسات التجارية[8]، حيث ورد تعريف الشرط التعسفي في الفقرة 05 من المادة 03 التي تكفلت بتحديد المفاهيم الواردة في هذا القانون بنصها على: "كل بند أو شرط بمفرده أو مشتركا مع بند واحد أو عدة بنود أو شروط أخرى من شأنه الإخلال الظاهر بالتوازن بين حقوق وواجبات أطراف العقد ".

نستنتج من هذا التعريف أنّ المشرّع الجزائري لم يقصِّر مفهوم الشرط التعسّفي على عقود الاستهلاك وإنما مدّ مفهومه الى عقود المهنيين، وهو بذلك يُجاري التصوّر الألماني.

التعريف الفقهي للشروط التعسفية

لقد تناول الفقه القانوني الشرط التعسفي من خلال العديد من الزوايا، فمن حيث المصدر فإن الشرط التعسفي هو ذلك الشرط الذي ينشأ بسبب التعسف ويسمح بوقوع هذا التعسف، ومن حيث الطبيعة فهو الشرط الذي يتنافى مع ما يجب أن يسود التعامل من شرف ونزاهة وحسن نية والذي يتنافى أيضا مع روح الحق والعدالة، ومن حيث الآثار فهو التصرف الذي يترتب عليه تحويل العقد عن وظيفته لما يؤدي إليه من وجود اختلال في توازنه[9].

كما عُرِف على أنه: الشرط الجائر الذي يتضمن أحكاما تتنافى مع العدالة أو هو الشرط الذي يورده المحترف في تعاقده مع المستهلك والذي يؤدي إعماله إلى عدم التوازن الفاحش بين حقوق والتزامات الطرفين، وهو يُقدَر وقت إبرام العقد بالرجوع إلى ظروف التعاقد وموضوعه وحالة طرفيه وفقا لما تقضي به العدالة[10].

ويُعتبر تعسفيا الشرط المحرر مسبقا من جانب الطرف الأكثر قوة ويمنح لهذا الأخير ميزة فاحشة على الطرف الآخر، ويمكن أن يُعتبر تعسفيا تطبيقا لذلك الشرط الإعفاء من المسؤولية أو المحددة لها، الشروط الجزائية[11]، كما يعرف على أنه: "كل شرط يترتب عليه إخلال بالتوازن العقدي لصالح من يفرضه على شخص عديم الخبرة أو موجود في مركز عدم المساواة الفنية أو القانونية أو الاقتصادية بالمقارنة مع الطرف الآخر في العقد"[12].

وتنقسم الشروط التعسفية إلى نوعين من الشروط: شروط تعسفية بذاتها وهي التي يظهر فيها التعسف منذ إدراجه بالعقد أي في مرحلة تكوين العقد، وتكشف عنه ألفاظه وتأتي متناقضة مع جوهره، وشروط تعسفية بحكم الاستعمال لا تظهر عند إدراجها بالعقد، ولكنها تظهر عند التطبيق بالتمسك بحرفيتها وعدم مراعاة روح النص[13].

ب- معايير تحديد الشروط التعسفية

إن انفراد الموجب بتحديد مضمون العقد ووضع شروطه[14] لا يعد تعسفا ، لكن التعسف يكمن في الآثار الناتجة عن التطبيق ، فإذا كان الشرط يحقق مصلحة الطرفين المتعاقدين فلا وجود للتعسف ، فالشرط التعسفي هو الشرط المعيب الذي يخل بالتوازن العقدي[15] ، ويلقي على المُذعَن التزامات باهضه ، وفي المقابل تعود على الموجب بأوضاع تحقق منافع كبيرة ، وهذا الوضع أراد المشرع محاربته في عقود الإذعان ، ولقد جاءت المادة 110 من القانون المدني التي تُمكِن القاضي من إعادة التوازن لعقود الإذعان متى تضمنت شروطا تعسفية ، إلا أن هذه المادة لم تحتوي على أي معيار يمكن أن يعتمدها القاضي في تقديره للشرط ، ويرى الفقه أن نص المادة 110 أداة قوية في يد القاضي يحمي المتعاقد من الشروط التعسفية ، والقاضي وحده يملك تقدير ما إذا كان الشرط تعسفيا ، ولا معقب للمحكمة العليا على تقديره ما دامت عبارة العقد تحتمل المعنى الذي أخذ به[16] ، والمشرع لم يرسم في ذلك حدودا إلا ما تقتضيه العدالة لذلك.

ومن الفقه من رأى أن عدم تحديد المعايير التي تحكم الشرط التعسفي قد يؤدي إلى صعوبة في التمييز بين أنواع الشروط ، ولا شيء يضمن عدم انزلاق القضاء نحو التطرف في تحديد المقصود بالشروط التعسفية[17].

أما عن المعيار الذي يسترشد به القاضي مراعاة مقتضيات العدالة) لإعمال سلطة التعديل أو الإلغاء للشروط التعسفية ، فقد يكون معيارا مطلقا وغامضا لاختلاف الإحساس به من شخص لآخر ، بل قد يتغير باختلاف الأزمنة والأمكنة ، لذلك فإن القاضي يلجأ إلى العدالة في مجال تفسير العقود الخاصة بالإذعان إذا غم عليه الأمر في بيان ما إذا كان الشرط المعروض للتفسير تعسفيا أم لا ، بالنظر إلى العناصر الداخلية أو الخارجية للعقد ، وقد وضع المشرع هذا المعيار للاسترشاد به خشية أن يتهم القاضي بالنكول عن أداء العدالة[18].

وهناك من يرى[19] أنه يمكن للقاضي الاستناد على المادة 124 مكرر من القانون المدني[20] لإفضاء صفة التعسف على الشروط التي تتضمنها عقود الإذعان ، هذا يعني أنّ الموجب يعتبر متعسفا ومخطئا متجاوزا للحق وهو يقوم وفق هذا المعنى بعمل غير مشروع يندرج ضمن أحكام المسؤولية التقصيرية ، إلا أن استناد القاضي على المعايير التي تضمنتها المادة 124 مكرر يجعلنا نستنتج أن الشرط التعسفي خطأ تقصيري يستوجب التعويض ، ذلك أن المشرع الجزائري قد حصر التعسف في استعمال الحق في مفهوم الخطأ التقصيري بعد تعديل القانون المدني سنة 2005.

كما أن تحديد دائرة الشروط التعسفية لدى التشريعات العربية بعقود الإذعان ، ليس أيضا معيارا للشرط التعسفي ، لأنه لا يكشف عن ماهيته ، بل يحدد مجاله من حيث نوع العقد الذي يرد عليه ، وتبقى ذاتية الشرط مستقلة عن نوع العقد ، ودليل ذلك إمكان ورود عدة شروط بعقد الإذعان دون أن تكون تعسفية ، ويبدو ملحا على التشريعات العربية ضرورة وضع نظام يتعلق بالشروط التعسفية يتكفل بتعريفها ، ويحدد معاييرها ، من أجل ضمان توحيد أسس تقدير الشروط التي يتضمنها العقد[21].

ويظهر من خلال تعريف المشرع الجزائري للشرط التعسفي في المادة الثالثة في فقرتها الخامسة من القانون رقم 04-02 السالف الذكر أن المشرع قد حدد معيار الشرط التعسفي بعدم التوازن الظاهر بين حقوق والتزامات أطراف العقد ، وهو نفس المعيار الذي اعتمده المشرع الفرنسي في المادة ل – 132-1 من قانون الاستهلاك لسنة 1995 بقوله: "... تكون تعسفية الشروط التي يحدث موضوعها أو آثارها ضررا لغير المحترفين أو المستهلك ، من خلال عدم توازن ظاهر بين حقوق والتزامات أطراف العقد[22] ".

كما أنّ للقاضي الجزائري الاسترشاد بالقائمة الواردة بالقانون 02-04 بموجب المادة 29 منه والتي تنص على ما يلي: "تعتبر بنودا وشروطا تعسفية في العقود بين المستهلك والبائع لا سيما البنود والشروط التي تمنح هذا الأخير:

– أخذ حقوق و/أو امتيازات لا تقابلها حقوق و/أو امتيازات مماثلة معترف بها للمستهلك ،

– فرض التزامات فورية ونهائية على المستهلك في العقود ، في حين أنه يتعاقد بشروط يحققها متى أراد ،

– امتلاك حق تعديل عناصر العقد الأساسية أو مميزات المنتوج المسلم أو الخدمة المقدمة دون موافقة المستهلك ،

– التفرد بحق تفسير شرط أو عدة شروط من العقد أو التفرّد في اتخاذ قرار البت في مطابقة العملية التجارية للشروط التعاقدية ،

– إلزام المستهلك بتنفيذ التزاماته دون أن يلزم نفسه بها ،

– رفض حق المستهلك في فسخ العقد إذا أخلّ هو بالالتزام أو عدة التزامات في ذمته ،

– التفرّد بتغيير آجال تسليم منتوج أو آجال تنفيذ خدمة ،

– تهديد المستهلك بقطع العلاقة التعاقدية لمجرّد رفض المستهلك الخضوع لشروط تجارية جديدة غير متكافئة".

كما جاء في المادة 05 من المرسوم التنفيذي رقم 06-306 المتعلق بتحديد العناصر الأساسية للعقود المبرمة ما بين الأعوان الاقتصاديين والمستهلكين والبنود التي تعتبر تعسفية[23] ما يلي: "تعتبر تعسفية البنود التي يقوم من خلالها العون الاقتصادي بما يلي:

- تقليص العناصر الأساسية للعقود المذكورة في المادتين 02 03 أعلاه.
- الاحتفاظ بحق تعديل العقد أو فسخه بصفة منفردة بدون تعويض للمستهلك.
- عدم السماح للمستهلك في حالة القوة القاهرة بفسخ العقد إلا بمقابل دفع تعويض.
- التخلي عن مسؤوليته بصفة منفردة بدون تعويض المستهلك في حالة عدم التنفيذ الكلي أو الجزئي أو التنفيذ غير الصحيح لواجباته.
- النص في حالة الخلاف مع المستهلك عن تخلي هذا الأخير عن اللجوء إلى أية وسيلة طعن ضده.
- فرض بنود لم يكن المستهلك على علم بها قبل إبرام العقد.
- الاحتفاظ بالمبالغ المدفوعة من طرف المستهلك في حالة ما إذا امتنع هذا الأخير عن تنفيذ العقد أو قام بفسخه دون إعطائه الحق في التعويض في حالة ما إذا تخلى العون الاقتصادي هو بنفسه عن تنفيذ العقد أو قام بفسخه.
- تحديد مبالغ التعويض الواجب دفعه من طرف المستهلك الذي لا يقوم بتنفيذ واجباته دون أن يحدد مقابل ذلك تعويضا يدفعه العون الاقتصادي الذي لا يقوم بتنفيذ واجباته.
- فرض واجبات إضافية غير مبررة على المستهلك.
- الاحتفاظ بحق إجبار المستهلك على تعويض المصاريف والأتعاب المستحقة بغرض التنفيذ الإجباري للعقد دون أن يمنحه نفس الحق.
- يعفي نفسه من الواجبات المترتبة عن ممارسة نشاطاته.
- يحمل المستهلك عبء الواجبات التي تعتبر من مسؤوليته".

ويبدو من خلال الفقرة الأولى من المادة 05 السالفة الذكر أنّ هذه القائمة جاءت على سبيل الحصر لا على سبيل المثال ، ويظهر ذلك من عبارة "تعتبر تعسّفية البنود التي يقوم من خلالها العون الاقتصادي بما يأتي..." ، إذْ هذه الفقرة لم تتضمن ما يفيد أنّ القائمة جاءت على سبيل المثال ، وهذا على خلاف ما جاء في المادة 29 من القانون رقم 04-02 السالف الذكر التي أوردت جملة من الشروط التعسفية والتي جاءت على سبيل المثال لا الحصر ، ويظهر ذلك من خلال عبارة "لاسيما" الواردة في الفقرة الأولى منها التي تفيد الخصوصية ، لا الحصر.

ويمكن للقاضي أن يُقدِر الطابع التعسفي للشرط كالاستناد على وقت إبرام العقد ، وإلى جميع الظروف التي تحيط بتكوينه ، وفي هذا تنص الفقرة الخامسة من المادة ل – 132-1 من قانون الاستهلاك الفرنسي التي جاء فيها: "يُقدَر الطابع التعسفي للشرط بالاستناد إلى وقت إبرام العقد ، وإلى جميع الظروف التي تحيط بتكوينه ، وكذا جميع شروط العقد الأخرى وكذلك يقدر بالنظر إلى الشروط التي تضمنها عقد آخر لما يكون تكوين أو تنفيذ هذين العقدين متوقفا قانونيا أحدهما بالآخر"[24] ، كما يسترشد القاضي الجزائري بالقائمة الصادرة في نص المادة 05 بموجب المرسوم التنفيذي رقم 06-306 ، والتي جاءت على سبيل الحصر ، وقضاة الموضوع يمارسون هذه السلطة تحت رقابة المحكمة العليا.

2- مجال الشروط التعسفية

إنّ مجال الشرط التعسفي يختلف حسب التعريفات التي تبنّتها التشريعات القانونية ، فمنها من ترك مجالها

مفتوحا لتشمل كل العقود بما في ذلك عقود المساومة ، ومنها من اقتصر مجالها في صنف محدد من العقود ألا وهي عقود الإذعان.

أ- الشروط التعسفية في عقود المساومة

يترجم عقد المساومة النموذج التقليدي للعقد حيث يتمتع فيه كل متعاقد بحرية كاملة في وضع شروط العقد وبنوده ، إذ يساهم كل متعاقد في صنع الاتفاق وله الحق في تقديم عروض تكون قابلة للنقاش من قبل المتعاقد الثاني[25].

ويتضح من خلال هذا التعريف أن المتعاقدين ينطلقان من نقطة واحدة وهي نقطة المساواة ، إذ يمكن لكل من المتعاقدين وضع ما يشاء من الشروط ، كما له أن يقبل بما شاء من الشروط التي يضعها الطرف الآخر ، وكذلك الحال بالنسبة للمتعاقد الآخر ، وذلك استنادا إلى قاعدة حرية التعاقد ، ذلك أن الفرد هو وحده من يعرف مصلحته والكيفية التي يتوصل بها لتحقيق هذه المصلحة ، فلا شك أن الفرد يسعى دائما لجلب المنفعة.

ومن هذا المنطلق ذهب رأي من الفقهاء إلى أنه لا يمكن أن تتضمن عقود المساومة شروطا تعسفية لأن كل شرط وارد في العقد هو وليد الاتفاق المشترك والحر للمتعاقدين ، مما ينفي صفة التعسف على كل الشروط الواردة في مثل هذه العقود[26]، خاصة وأن القانون منح للمتعاقدين كامل الحرية فيما يخص الشروط الثانوية للعقد وذلك بعد أن حدد الأركان والشروط الرئيسية له ، وما الأحكام المنصوص عليها ما هي إلا أحكام تطبق في حالة غياب اتفاق المتعاقدين.

فإذا أخذنا عقد البيع على سبيل المثال فإن المشرع حدد الشروط الرئيسية لهذا العقد في المادة 351 من القانون المدني والتي تنص على أن "البيع عقد يلتزم بمقتضاه البائع أن ينقل للمشتري ملكية شيء أو حق مالي آخر مقابل ثمن نقدي"، أما فيما يخص الشروط الثانوية فتركها لحرية المتعاقدين ، حيث جاء في المادة 184 من نفس القانون المتعلقة بمسألة الضمان ، والتي تقضي بجواز الزيادة في الضمان يعني هذا أنه لصالح المشتري ، أو الإنقاص منه ويكون ذلك لمصلحة البائع ، كما يمكن إسقاط الضمان كلية وهذا يعني أنه لصالح البائع ، فبالرغم من أن هذا الشرط قد يبدو أنه مجحفا في حق البائع أو المشتري إلا أن صفة الإجحاف تسقط عن هذا الشرط لأنه نابع من صميم الاتفاق الحر للمتعاقدين.

والملاحظ أن المشرع الجزائري قد تأثر بهذا الرأي ، ويظهر ذلك من خلال عدم تطبيق نصوص الشروط التعسفية على عقود المساومة –كما سيتم بيانه-، وهذا على خلاف المشرع الفرنسي الذي ذهب الى أنّ النصوص المتعلقة بالشروط التعسفية تُطبَق على جميع العقود أيّاً كان شكلها ، مما جعل هذه الشروط تسري ليس فقط على عقود الإذعان وإنّما على جميع العلاقات كالبيع ، الإيجار وعقد التأمين وأيّاً كان محلها عقّاراً أو منقولا وإن انصبّت على السلع أو الخدمات.

ب- الشروط التعسفية في عقود الإذعان

عقود الإذعان هي تلك العقود التي يضع شروطها أحد المتعاقدين دون أن يكون للمتعاقد الآخر حق مناقشتها ، إذ لا يمكن لهذا الأخير سوى أن يقبل تلك الشروط أو رفضها بحيث يعتبر كل إيجاب معدل لإيجاب الموجب رفضا لتلك الشروط كما هي ، وبهذا يكون القبول في عقود الإذعان بمجرد التسليم دون أن يكون للطرف الثاني حق النقاش[27]، وهذا ما يميز عقد الإذعان عن عقود المساومة.

وإن انفراد أحد المتعاقدين بصياغة العقد وفق نمط معين كثيرا ما يخل بالقاعدة العامة في العقود الداعية إلى الحرية التعاقدية المحققة للتوازن في مضمون العقد ، إذ تعتبر هذه العقود النموذجية الميدان الخصب للشروط التعسفية ، الأمر الذي جعل العديد من التشريعات يقتصرون تطبيق نصوص الشروط التعسفية على هذا الصنف من العقود دون عقود المساومة ، ومن ذلك التشريع الجزائري الذي عرّف العقد بموجب المرسوم التنفيذي رقم 06-306 المتعلق بتحديد العناصر الأساسية للعقود المبرمة بين الأعوان الاقتصاديين والمستهلكين والبنود التي تعتبر تعسفية بموجب الفقرة الثانية من المادة الأولى والتي جاء فيها ما يلي: "يقصد بالعقد ، في مفهوم هذا المرسوم وطبقاً للمادة 03 الحالة 04 من القانون رقم 02 - 04 المؤرخ في 23 يونيو 2004 كل اتّفاق أو اتّفاقية تهدف إلى بيع سلعة أو تأدية خدمة ، حرّر مسبقاً من أحد أطراف الاتفاق مع إذعان الطرف الآخر حيث لا يمكن هذا الأخير إحداث تغيير حقيقي فيه".

إنّ هذا التوجه في مفهوم الإذعان حسب المشرع الجزائري يكون قد وسّع في الحماية من الشروط التعسّفية من حيث الأشخاص لتشمل المهنيين والمستهلكين على حد سواء.

وهناك من يرى أنّ المشرّع الجزائري ضيق من موضوعه عندما حصره في بيع السلع وكان من الأفضل استعمال عبارة جامعة شاملة لعقود الاستهلاك كالعرض والاقتناء[28]، كما أنّ المشرّع الجزائري واضح في أنّه يمدّ الحماية من الشروط التعسّفية الى كل من المستهلك والعون الاقتصادي «أي المهني »، وذلك حسب ما ورد في المادة 01 من قانون 02-04، حيث نصّت على أنّ القانون يهدف الى تحديد قواعد ومبادئ شفافية ونزاهة الممارسة التجارية التي تقوم بين الأعوان الاقتصاديين وبين هؤلاء والمستهلكين وكذا حماية المستهلك وإعلامه" الذي يذهب بموجب قانون 09 ديسمبر 1976 المتعلّق بالشروط العامة للعقد الى عدم قصر الحماية من الشروط التعسفية على المستهلكين، أي أنّ الحماية ترد الى كلّ طرف في عقد الإذعان والذي لم يتسنّ له مناقشة مضمون العقد بشكلّ حر يسوي أن يكون مستهلكاً أو لا.

وكان موقف قوانين أخرى أيضاً قوياً يهدف الى تحقيق التوازن التعاقدي، ومن ذلك القانون الكيبيكي فنصّ في المادة 1437 من التقنين المدني أنّ الحماية لا تقتصر على المستهلك فقط وإنّما كل طرف لم تتاح له فرصة التفاوض والنقاش حول شروط التعاقد[29].

ثانيا: معالجة الشروط التعسفية

في ظل القواعد الحديثة لحماية المتعاقد الضعيف من الشروط التعسفية تنوعت أساليب الرقابة على شروط العقد، فاستحدِثَت طرق حديثة تتمثل في الأسلوب التنظيمي لمواجهة الشرط التعسفي بالإضافة إلى الأسلوب القضائي.

1- الأسلوب التنظيمي.

تم تنظيم الرقابة وفقا لهذا الأسلوب بأداتين هما: إنشاء لجنة الشروط التعسفية، ومنح الحكومة سلطة تحديد هذه الشروط بموجب مراسيم.

أ- **لجنة الشروط التعسفية**

أنشئت هذه اللجنة الإدارية بموجب المرسوم التنفيذي رقم 06-306 الذي يحدد العناصر الأساسية للعقود المبرمة بين الأعوان الاقتصاديين والمستهلكين والبنود التي تعتبر تعسفية، وذلك في نص المادة 06 منه التي جاء فيها: "تنشأ لدى الوزير المكلف بالتجارة لجنة البنود التعسفية ذات طابع استشاري وتدعى في صلب النص "اللجنة". يرأس اللجنة ممثل الوزير المكلف بالتجارة.

تعد اللجنة نظامها الداخلي الذي يصادق عليه بقرار من الوزير المكلف بالتجارة.

تسير أمانة اللجنة من طرف المصالح المعنية للوزارة بالتجارة".

ونصت المادة 08 من المرسوم نفسه أن اللجنة تتكون من الأعضاء الآتي ذكرهم:

ممثل "1" عن الوزير المكلف بالتجارة مختص في الممارسات التجارية رئيسا.

ممثل "1" عن وزير العدل مختص في قانون العقود

عضو "1" من مجلس المنافسة.

متعاملين اقتصاديين "2" عضوين في الغرفة الجزائرية للتجارة والصناعة مؤهلين في قانون الأعمال والعقود.

ممثلين "2" من جمعيات حماية المستهلكين ذات طابع وطني مؤهلين في مجال قانون الأعمال والعقود.

ويمكن للجنة الاستعانة بأي شخص آخر بوسعه أن يفيدها في أعمالها.

وتقوم لجنة البنود التعسفية بالبحث في كل العقود المطبقة من طرف الأعوان الاقتصاديين على المستهلكين والبنود ذات الطابع التعسفي، كما تصيغ توصيات تُبَلَّغ إلى الوزير المكلف بالتجارة والمؤسسات المعنية، ويمكن أن تقوم بكل دراسة أو خبرة متعلقة بكيفية تطبيق العقود اتجاه المستهلكين، ويمكنها مباشرة كل عمل يدخل في مجال اختصاصها[30]، أما المعيار الذي تستند إليه في تقدير التعسف هو معيار الإخلال الظاهر بالتوازن بين التزامات المتعاقدين، وفي سبيل قيام اللجنة بمهامها تُخطَر إما من تلقاء نفسها أو تُخطَر من طرف الوزير المكلف بالتجارة ومن طرف كل إدارة

وجمعية مهنية وكل جمعية حماية المستهلكين وكل مؤسسة أخرى لها مصلحة في ذلك[31].

ولكن ما يعاب على المشرع الجزائري أنه لم ينص على أي دور استشاري للجنة البنود التعسفية لدى القضاء، وهذا على خلاف لجنة الشروط التعسفية في فرنسا التي تضم قاضيين أحدهما رئيسا والآخر نائبا له، كما تضم اللجنة بالإضافة للعناصر القضائية عناصر إدارية ومستشارين في مجال العقود فكان التمثيل أقوى وأكثر فعالية بالإضافة إلى دورها الاستشاري[32].

ب- رقابة الحكومة على الشروط التعسفية بموجب مراسيم

تنص المادة 30 من قانون رقم 04-02 المُطَبَّق على الممارسات التجارية، على: "بهدف حماية مصالح المستهلك وحقوقه يمكن تحديد العناصر الأساسية للعقود عن طريق التنظيم وكذا منع العمل في مختلف أنواع العقود ببعض الشروط التي تعتبر تعسفية"، كما توضح عبارة "منع العمل في مختلف العقود" الواردة في المادة 30 بشرط أن تكون عقود إذعان وفقا للمادة 03 الحالة 04 الفقرة 01 من قانون رقم 04-02.

نستنتج مما سبق أن المشرع منح السلطة التنظيمية التدخل بهدف حماية مصالح المستهلك وذلك بكيفيتين:

الكيفية الأولى: بالتحديد المسبق للعناصر الأساسية للعقود المبرمة مع المستهلكين.

الكيفية الثانية: تخويل السلطة التنظيمية التدخل لمنع بعض الشروط التي تعتبر تعسفية في جميع العقود سواء كانت مُبرَمَة بين مهنيين فيما بينهم أو بين هؤلاء المستهلكين وهذا تشير له عبارة "منع العمل في مختلف أنواع العقود" الواردة في المادة 30 سالفة الذكر ولكن بشرط أن تكون عقود إذعان كما جاء في المادة 03 الحالة 04 فقرة 01 من قانون 04-02 كما يلي: "كل اتفاق أو اتفاقية تهدف إلى بيع سلعة أو تأدية خدمة حُرِر مسبقا من أحد أطراف الاتفاق مع إذعان الطرف الآخر بحيث لا يمكن هذا الأخير إحداث تغيير حقيقي فيه".

وتطبيقا لنص المادة 30 من قانون 04-02 السالف الذكر صدر المرسوم التنفيذي رقم 06-306 الذي يهدف إلى تحديد العناصر الأساسية للعقود المبرمة بين الأعوان الاقتصاديين والمستهلكين والبنود التي تعتبر تعسفية[33]، حيث جاء في المادة 05 من هذا المرسوم أنه تعتبر تعسفية البنود التي يقوم من خلالها العون الاقتصادي بتقليص العناصر الأساسية للعقود المذكورة في المادتين 02 و03 أعلاه وهذه الحالة الأولى للمادة 05.

وتجدر الإشارة أن المادة 02 أبرزت ماهية العناصر الأساسية بأنها تلك التي يجب إدراجها في العقود المُبرَمة بين العون الاقتصادي والمستهلك، بالإضافة إلى العناصر المرتبطة بالحقوق الجوهرية للمستهلك والتي تتعلق "بالإعلام المُسْبَق للمستهلك ونزاهة وشفافية العمليات التجارية، وأمن ومطابقة السلع و/أو الخدمات وكذا الضمان والخدمة ما بعد البيع".

كما أن المادة 03 تعدد ما يتعلق بالعناصر الأساسية للعقود المذكورة في المادة 02، والتي جاءت على سبيل المثال لا الحصر، ويظهر ذلك في عبارة "تتعلق العناصر المذكورة في المادة 02 أساسا بما يأتي: "تعتبر عناصر أساسية يجب إدراجها في العقود المُبرَمة بين العون الاقتصادي والمستهلك العناصر المرتبطة بالحقوق الجوهرية للمستهلك والتي تتعلق بالإعلام المُسبَق للمستهلك ونزاهة وشفافية العمليات التجارية وأمن ومطابقة السلع و/أو الخدمات وكذا الضمان والخدمة ما بعد البيع".

النتيجة أن إيراد شرط في العقد ينص على تقليص العناصر الأساسية للعقد يعد شرطا تعسفيا، وتعداد هذه العناصر جاء في المادة 03 المذكور تبعا لما يأتي:

"خصوصيات السلع و/أو الخدمات وطبيعتها.
الأسعار وطبيعتها.
كيفيات الدفع.
شروط التسليم وآجاله.
عقوبات التأخير على الدفع و/أو التسليم.
كيفيات الضمان ومطابقة السلع و/أو الخدمات.
شروط تعديل البنود التعاقدية.
شروط تسوية النزاعات.
إجراءات تفسخ التعاقد."

أما الحالة الثانية وما يليها من المادة 05 من المرسوم السالف الذكر فنصت على:

«الاحتفاظ بحق تعديل العقد أو فسخه بصفة منفردة بدون تعويض المستهلك.

عدم السماح للمستهلك في حالة القوة القاهرة بفسخ العقد إلا بمقابل دفع تعويض.

التخلي عن مسؤوليته بصفة منفردة بدون تعويض المستهلك في حالتي عدم التنفيذ الكلي أو الجزئي أو التنفيذ غير الصحيح لواجباته

– النص في حالة الخلاف مع المستهلك على تخلي هذا الأخير عن اللجوء إلى أي وسيلة طعن ضده.

فرض بنود لم يكن المستهلك على علم بها قبل إبرام العقد.

الاحتفاظ بالمبالغ المدفوعة من طرف المستهلك في حالة ما إذا امتنع هذا الأخير عن تنفيذ العقد أو قام بفسخه دون إعطائه الحق في التعويض في حالة ما إذا تخلى العون الاقتصادي هو بنفسه عن تنفيذ العقد أو قام بفسخه.

تحديد مبلغ التعويض الواجب دفعه من طرف المستهلك الذي لا يقوم بتنفيذ واجباته دون أن يحدد مقابل ذلك تعويضا يدفعه العون الاقتصادي الذي لا يقوم بتنفيذ واجباته.

فرض واجبات إضافية غير مبررة على المستهلك.

الاحتفاظ بحق إجبار المستهلك على تعويض المصاريف والأتعاب المستحقة بغرض التنفيذ الإجباري للعقد دون أن يمنحه نفس الحق.

يعفي نفسه من الواجبات المترتبة عن ممارسة نشاطاته.

يحمل المستهلك عبء الواجبات التي تعتبر من مسؤوليته».

وفي الأخير فبالنظر إلى المادة 30 من القانون 04-02 نستنتج أنه حتى وإن كانت القائمة المحددة للشروط المعتبرة تعسفية الواردة بموجب المادة 05 من المرسوم رقم 06-306 تبدو حصرية إلا أن المادة 30 من القانون رقم 04-02 تعطي الحكومة حق إصدار المراسيم تورد قوائم أخرى جديدة محددة للشروط التعسفية.

1- الأسلوب القضائي

في حالة تأكد القاضي من وجود الشرط التعسفي في عقود الإذعان، فإن سلطاته تكون بمعالجة هذه الشروط التعسفية أو إبطالها، وذلك لما تقضي به العدالة، فالقاضي يسلك كل ما من شأنه أن يزيل ما في العقد من تعسف عن طريق تعديل الشرط، غير أنه إذا وجد القاضي بأن تعديل هذا الشرط التعسفي لا يكفِ لتحقيق العدالة فله أن يحكم بإعفاء الطرف المُذعَن من هذا الشرط وذلك بإلغائه[34].

أ- سلطة القاضي في معالجة الشروط التعسفية

تعديل الشرط التعسفي

ويكون تدخل القاضي في هذه الحالة إما بالزيادة أو الإنقاص من الالتزامات حسب ما يحقق التوازن في العقد، فله أن يُنقِص من التزامات الطرف المُذعَن متى ثبت له أن الطرف الآخر قد وضع شروط مجحفة مستغلا بذلك مركزه، ويمكن أن يكون طلب إنقاص الالتزامات المرهقة من طرف المتعاقد الضعيف، وحينئذ يرجع الأمر كذلك لتقدير القاضي للالتزامات الواجب إنقاصها، أما فيما يخص الزيادة من التزامات الطرف المُذعِن فإن للقاضي أيضا سلطة واسعة في هذا الشأن، حيث إذا تبين لهم من ظروف الحال أن إعادة التوازن في العقد لا يكون إلا بزيادة التزامات الطرف القوي في العقد، فله ذلك مادام أن النص لا يمنعه من الزيادة عند تقريره إياها يكون هدفه تمكين المتعاقد من الحصول على السلعة أو الخدمة التي من المقرر أن يقدمها المحترف وليس له أن يعفي نفسه من ذلك بإنقاص التزاماته، وبالتالي لا يشترط عند زيادة التزاماته رضاءه مادام أنه هو الذي تسبب في الإخلال بالتوازن التعاقدي.

فالعدالة قد تقتضي فقط أن يُعدِّل القاضي الشرط التعسفي، فإذا اشترط مثلا رب العمل على العامل في عقد العمل عدم فتح محل منافس لرب العمل بعد تركه الخدمة في مؤسسته طوال حياته أو في أي مكان على التراب الوطني، فإنه يكفي لكي تتحقق العدالة أن يقوم القاضي بتعديل مثل هذا الشرط بقصره على المنطقة الجغرافية التي تكون لرب العمل فيها مصلحة اقتصادية مشروعة.

تأويل العبارات الغامضة

جاء في الفقرة الثانية من المادة 112 من القانون المدني: "غير أنه لا يجوز تأويل العبارات الغامضة في عقود الإذعان ضارا لمصلحة الطرف المذعن" بعد أن جاء في صدرها "يؤول الشك لمصلحة المدين ..."

ويتضح من هذا النص أن المشرع أراد أن يحمي الطرف المُذعَن حماية فعالة من تعسف الطرف المُذعِن الذي غالبا ما يدرج في العقد شروطا تعسفية لا يمكن للطرف المُذعَن إلا القبول بها أو رفضها إجمالا دون أن يكون له حق مناقشتها.

والعبارات التي تتضمنها عقود الإذعان قد تكون غامضة بالنظر إلى الإبهام الذي يعتبرها أو عدم التوافق والانسجام بين شروط تعاقدية عديدة أو التناقض بين شرط مكتوب باليد وشرط مطبوع مما يثير اللبس، كما أن للمصطلحات المستعملة بالغ الأثر في ضبابية العبارات وغموضها بالنظر إلى اللغة المستعمل بها المصطلح، أو بالنظر إلى اعتباره مصطلح فني خاص ولا يفك شفرته إلا المتخصص من أهل ذلك العلم أو الفن لأنه قد يحتمل المعنى الذي لا يقصده المتعاقد المذعن عند قبوله التعاقد، وذلك لعدم الإحاطة بمدلول العبارة وقصد المصطلح.

ومع تسليمنا بأنه ليست كل العبارات الغامضة مؤداها الحتمي هو التعسف لأن من العقود ما يتطلب عبارات دقيقة ومصطلحات فنية يكفي إزالة إبهامها لإحدث التوازن.

ولا تكون الصلة وثيقة بين العبارات الغامضة ووجود التعسف إلا إذا تأكدت نية الطرف المُذعِن من تضمين شروط مبهمة لتوقيع غير الآثار التي يمكن للطرف المُذعَن أن يعلم بها، ومن هذه الزاوية يصبح التلازم بين العبارات الغامضة والتعسف متلازمان، الشيء الذي يستوجب تدخل القاضي لتأويل هذه العبارات لفائدة الطرف المُذعَن.

ب- سلطة القاضي في إبطال الشرط التعسفي

جاء في نص المادة 110 من القانون المدني: "إذا تم العقد بطريقة الإذعان وكان قد تضمن شروط تعسفية جاز للقاضي أن يعدل هذه الشروط أو أن يعفي الطرف المذعن منها وذلك وفق لما تقتضي به العدالة، ويقع باطلا كل اتفاق على خلاف ذلك"، ويتضح من خلال هذه المادة أنه يجوز للقاضي إعفاء الطرف المُذعَن من الشرط التعسفي متى تَطَلَب توازن العقد ذلك، كما تفيد عبارة "... أو أن يعفي الطرف المُذعَن منها.. «بطلان الشرط التعسفي دون المساس بصحة عقد الإذعان إذا كان للعقد أن يستمر دون الشرط الباطل.

إن إعفاء أي طرف من العملية التعاقدية من بعض الشروط التي تضمنها العقد يعتبر تعدي صارخ على مبدأ القوة الملزمة للعقد، وهو خروج واضح على مبدأ سلطان الإرادة.

لكن المشرع من خلال المادة 110 دائما والتي جاء فيها: "... أو يعفي الطرف المذعن منها ..." قد خول للقاضي إعفاء الطرف المذعن من كل شرط تعسفي متى اتضح أن هذا العقد سيسبب اختلالا كبيرا بين أداءات الأطراف مع وجود هذا الشرط، فالإعفاء يحقق الغاية من التعاقد ومن ثمة العدالة التعاقدية والإبقاء يكرس التعسف الذي يعكس الظلم الذي يتنافى مع مبادئ القانون.

ولقد تنبه المشرع إلى ما قد يلجأ إليه المحترفون من تضمين عقودهم لشرط يستبعدون بموجبه سلطة القاضي في إلغاء الشروط التي يراها تعسفية، فنص في المادة 110 على بطلان أي اتفاق أو شرط في هذا الشأن، والتي جاء فيها: "ويقع باطلا كل اتفاق على خلاف ذلك".

والقاضي عند استعمال سلطته في إعفاء الطرف المذعن من الشرط التعسفي إنما يفعل ذلك انطلاقا من رغبة المشرع التي يحل القاضي محلها ويفترض عليه تجسيدها، هذه الرغبة تتمثل في إحقاق الحق وإرساء قواعد العدل، ومن ذلك وجوب مراعات تكافؤ الأداءات وتحقيق التوازن في العقد الذي قد يختل نتيجة وجود هذا الشرط الجائر والبند المجحف الدال على نية التعسف وقصد الإضرار بمركز الطرف المُذعَن الضعيف.

وتجدر الإشارة أن سلطة القاضي في تعديل الشروط التعسفية أو إلغائها لا يتم من تلقاء نفسه وإنما بناء على طلب الطرف المُذعَن تطبيقا لمبدأ حياد القاضي المدني، وهذا على خلاف بعض التشريعات الغربية التي منحت للقضاء سلطة إثارة تعديل الشروط التعسفية أو إلغائها من تلقاء نفسها[35].

كما أقرّ المشرع الجزائري البطلان على الشروط التعسفية الواردة في وثيقة التأمين، وهذا ما جاء في نص المادة 622 من القانون المدني التي تنص على: "يكون باطلا ما يرد في وثيقة التأمين الشروط الآتية:

الشرط الذي يقضي بسقوط الحق في التعويض بسبب خرق القوانين أو النظم إلا إذا كان ذلك الخرق جناية أو جنحة عمدية.

الشرط الذي يقضي بسقوط حق المؤمن له بسبب تأخره في إعلان الحادث المؤمن منه إلى السلطات أو تقديم المستند إذا تبين من الظروف أن التأخر كان لعذر مقبول.

كل شرط مطبوع لم يبرز بشكل ظاهر وكان متعلق بحالة من الأحوال التي تؤدي إلى البطلان أو السقوط.

شرط التحكيم إذا ورد في الوثيقة بين شروطها العامة المطبوعة لا في صورة اتفاق خاص منفصل عن الشروط العامة.

كل شرط تعسفي آخر يتبين أنه لم يكن لمخالفته أثر في وقوع الحادث المؤمن منه".

والملاحظ أن هذه المادة قد وضعت قائمة من الشروط التعسفية التي قد ترد في وثيقة التأمين ، وجعلت من هذه القائمة مفتوحة يمكن للقاضي أن يضيف لها ما شاء من الشروط متى رأى أنها تعسفية ، إذ جاءت هذه القائمة على سبيل المثال لا الحصر وهذا ما يُستفاد من عبارة "كل شرط تعسفي آخر ..." ، كما أن البطلان الوارد في هذه المادة يلحق الشرط التعسفي دون عقد التأمين.

وهو ما جاء أيضا في نص المادة 1/132-6 من تقنين الاستهلاك الفرنسي لسنة 1993، الفقرة 02 من المادة 35 من القانون الفرنسي الصادر في 10 جانفي 1978 المتعلق بحماية وإعلام المستهلكين بالسلع والخدمات على أن "تعتبر الشروط التعسفية غير مكتوبة".

ويذهب الفقه الفرنسي إلى اعتبار عبارة "غير مكتوبة" بمعنى باطلة مع بقاء العقد المتضمن لهذا الشرط الذي اعتبر بأنه تعسفي مادام أن هذا الشرط لم يكن الدافع للتعاقد[36].

ومن خلال هذين النصّين يتّضح أنّ البطلان يلحق الشرط لا العقد وبالتالي هو بطلان جزئي وهذا ما يتلاءم وهدف الحماية المقصودة وهي إقامة واستمرار عقد متوازن تحسينا للعلاقات التعاقدية.

والملاحظ أن المشرّع الجزائري لم ينص صراحة على جزاء مدني للشرط التعسّفي في القانون 02-04 ، وبالتالي لابد من الرجوع إلى القواعد العامة المتعلقة بهذا الموضوع في نص المادة 110 من القانون المدني السالفة الذكر ، ويرى بعض الفقه على هذا النقص أنّه سهو من طرف المشرّع[37].

كما يتّضح تأثّر المشرّع الجزائري بنظيره الفرنسي في ترتيب الجزاء الجنائي ، حيث أن المادة 38 من قانون 04 - 02 نصّت على أنه: "تعتبر ممارسات تجارية غير نزيهة وممارسات تعاقدية تعسّفية مخالفة لأحكام المواد 26 و27 و28 و29 من هذا القانون. ويعاقب عليها بغرامة من 50.000 دج إلى 5.000.000 دج" ، وهو نفس التصوّر الذي جاء في القانون الفرنسي ، إذ يُعاقب المرسوم رقم 464 - 78 المؤرخ في 24 مارس 1978 بالغرامة كل من يخالف أو يخرق الالتزام بذكر الضمان القانوني للعيب الخفي في حالة ما إذا كان هناك اتفاق تعاقدي على ضمانها[38].

والهدف من التشديد في الرقابة هو دفع المهنيين أو المحترفين الى التمهّل عند صياغة شروط العقود النموذجية التي يعرضونها ، وخاصة وأن الجزاء قد تعدّى الجزاء المدني الى الجزاء العقابي ممثلا في الغرامة كما جاء في القانون الجزائري.

إنّ إقامة التوازن في العلاقة التعاقدية استدعى أن تنشأ العقود بدون شروط تعسّفية ، وإن نشأ العقد وتضمّن شرطاً تعسّفيا متى أدّى الى الاختلال بين الحقوق والالتزامات فإنّه لا يعتدّ به ويعتبر كأنّه غير مكتوب ، هذا التصوّر جاء وفق القواعد الحديثة لحماية المستهلك ، فوصفت هذه الحلول التي هدفها الأول والأخير بصريح النص القانوني منع الاختلال التعاقدي وذلك بما أعتبره الفقه مكافحة الشروط التعسّفية ، وهذه مرحلة ثانية في الحماية وتحقيق التوازن بالنسبة للمشرّع الجزائري الذي لم تفُتْه المرحلة الأولى في القواعد العامة في حماية الطرف الضعيف من ظاهرة عدم التوازن وتعديل وإعادة توازن للعقد المختل "المواد 110 ، 70 من القانون المدني" ، فكان معيار العدالة هو المنطلق والأساس بالرغم ما تميّز به من ابهام ، والمرحلتين متكاملتين إلّا انّ القواعد الحديثة وفق قانون 02-04 جاءت دقيقة فأعطت المعيار الدقيق للكشف عن الشرط التعسّفي في كلّ ما من شأنه الأخلال الظاهر بالتوازن بين حقوق وواجبات أطراف العقد ، واتخذ المشرّع الحماية الموسّعة سبيلا لجعل من النظام القانوني لحماية المستهلك تكملة وإثراء لما سبق من

الحماية التي قرّرها في القواعد العامة بحيث منح للقاضي قواعد قانونية حديثة بمعايير تخلق التوازن في العلاقة العقدية.

خاتمة

يُعتبَر العقد عصب الحياة العملية للأفراد ، الأمر الذي جعله من أهم المواضيع التي تتطلب الدراسة والتنظيم ، وقد كان موضوع الشروط التعسفية من النقاط السوداء التي غزت العقود خاصةً في العقود الإجبارية كعقد تأمين السيارات أو العقود التي يكون محلها عبارة عن خدمة أو سلعة محتكرة لدى أشخاص معينين ، وقد تناولنا هذا الموضوع من وجهة نظر المشرع الجزائري ووصلنا إلى النتائج الآتية:

أن المشرع الجزائري قصر نطاق الشروط التعسفية - سواء في القانون المدني أو قانون الممارسات التجارية- بطائفة عقود الإذعان دون عقود المساومة ، ويظهر ذلك من خلال نص المادة 110 من القانون المدني وكذلك نص المادة 03 من القانون رقم 04-02، ولعل ذلك راجع إلى انفراد أحد طرفي العقد بوضع شروط العقد دون أن يكون للطرف الآخر الحق في مناقشتها ، وهذا على خلاف الشروط التي تتضمنها عقود المساومة ، فبالرغم ما قد تحتويه شروط هذا النوع من العقود من إخلالٍ في تكافؤ الأداءات إلا أنها لا تتسم بالتعسف لأنها نابعة عن الإرادة الحرة المشتركة للمتعاقدين.

أن المشرع الجزائري لم يحدد المعيار الذي يتم من خلاله تحديد ما إذا كان الشرط تعسفيا أم لا في القانون المدني ، وترك هذه المهمة لسلطة القاضي التقديرية بعيدا عن رقابة المحكمة العليا مما يؤدي إلى اختلاف المعايير التي يتم من خلالها تحديد الشروط التعسفية من عدمها ، الأمر الذي يؤدي إلى عدم استقرار في الأحكام القضائية ذات المسائل المتشابهة. وعلى خلاف القانون المدني ، فقد حدد المشرع الجزائري المعيار الذي يجب على القاضي الوقوف عليه لتحديد مدى احتواء الشروط لصفة التعسف في القانون رقم 04-02 المتعلق بالممارسات التجارية ، ويخضع في ذلك لرقابة المحكمة العليا ، وبالرغم من الغموض وعدم الدقة اللذان يكتنفان المعيار الذي وضعه المشرع "الإخلال الظاهر بالتوازن بين حقوق وواجبات أطراف العقد" ، إلا أنه يُعتبَر قفزة نوعية للوصول إلى ما يُعرَف بتوحيد الأحكام القضائية في المسائل المتشابهة والذي يُعتبَر وجه هام من أوجه العدالة.

أن المشرع الجزائري قد وضع ترسانة قانونية لمواجهة الشروط التعسفية ، واتبع في ذلك أسلوبين:

أسلوب تنظيمي كان ذلك عن طريق إنشاء لجنة البنود التعسفية بموجب المرسوم التنفيذي رقم 06-306 المتعلق بتحديد العناصر الأساسية للعقود المبرمة ما بين الأعوان الاقتصاديين والمستهلكين والبنود التي تعتبر تعسفية ، والتي تهتم بالبحث في العقود المبرمة بين الأعوان الاقتصاديين وبين هؤلاء والمستهلكين والشروط ذات الطابع التعسفي ، وكذا عن طريق السماح للحكومة بمراقبة الشروط التعسفية عن طريق إصدار المراسيم وذلك بموجب المادة 30 من القانون رقم 04-02 المتعلق بالممارسات التجارية ، حيث يمكن لها توسيع قائمة الشروط التي تراها تعسفية أو وضع معايير دقيقة يتم من خلالها تحديد هذه الشروط.

أسلوب قضائي حيث منح المشرع للقاضي سلطة تعديل الشروط التعسفية الواردة في العقد ، أو إعفاء الطرف المُذعَن متى رأى أن تعديل الشرط لا يحقق العدالة العقدية ، كما يؤول الشك لمصلحة الطرف المُذعَن عندما تكون عبارات النص غامضة ، ويتوجب على القاضي الحكم ببطلان الشروط التعسفية إلا أن هذا البطلان اقتصر على الشروط التعسفية الواردة في وثيقة التأمين دون باقي عقود الإذعان الأخرى.

وإذا كان لنا قول في هذا الموضوع فإننا نقترح إدخال قضاة في تشكيلة لجنة البنود التعسفية ومنحها دور استشاري لدى القضاء حتى يكون دورها أكثر فعالية.

الهوامش

1. علي فيلالي: الإلتزامات"النظرية العامة للعقد" ، الطبعة 03 ، موفم للنشر ، الجزائر ، 2013 ، ص:51.

2. R.savatier : les métamorphoses économiques et sociales du droit civil d'aujourd'hui, 1ére série, 3eme éd ; 1964, p :82 es s. ;P Durant : la contrainte légale dans la formation du rapport contractuel, RTD Civ, 1994 :73 ; Battiffol : la crise du contrat et sa portée, archive de philosophie de droit ,1968,XTIII : 13

3. كالتشريع الفرنسي ، الألماني ، الكيبيكي والجزائري.

4. Loi n°95-96 du 1 février 1995 concernant les clauses abusives et la présentation des contrats et régissant diverses activités d'ordre économique et commercial, tiré de site :

5. https://www.legifrance.gouv.fr/affichTexte.do?cidTexte=JORFTEXT000000187054&categorieLien=cid, visité au 19/09/2019.

6. Christian Larroumet : Droit civil, les obligations, le contrat, t03, Economica, Paris, 1996, P :407.

7. قادة شهيدة: المسؤولية المدنية للمنتج-دراسة مقارنة- ، الدار الجامعية للكتاب ، مصر ، 2007 ، ص:271.

8. Christian Larroumet : Op, cit, p :405.

9. القانون رقم 04-02: المؤرخ في 23 يونيو 2004 ، يحدد القواعد المطبقة على الممارسات التجارية ، ج.ر ، العدد 41 ، مؤرخة في 27 يونيو 2004 ، ص:03.

10. عمر مُحَمَّد عبد الباقي: الحماية العقدية للمستهلك ، منشأة المعارف ، مصر ، 2004 ، ص:402.

11. بودالي مُحَمَّد: الشروط التعسفية في العقود ، دار هوما ، 2007 ، ص:60.

12. أحمد مُحَمَّد الرفاعي: الحماية المدنية للمستهلك إيزاء المضمون العقدي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1994 ، ص:212.

13. عابد فايد ، عبد الفتاح فايد: تعديل العقد بالإرادة المنفردة ، دار الكتب القانونية ، مصر ، 2010 ، ص:136.

14. حمد الله مُحَمَّد حمد الله: حماية المستهلك في مواجهة الشروط التعسفية ، في عقود الاستهلاك ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1997 ، ص:52.

15. حسن عبد الباسط جميعي: أثر عدم التكافؤ بين المتعاقدين على شروط العقد ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1990-1991 ، ص:103-104.

16. نساخ فاطمة: مفهوم الإذعان ، مذكرة ماجستير ، كلية الحقوق ، بن عكنون ، الجزائر ، 1998 ، ص:91-92.

17. عمر مُحَمَّد عبد الباقي: المرجع السابق ، ص:458.

18. حسن عبد الباسط جميعي: المرجع السابق ، ص:247-248.

19. سعيد سعد عبد السلام: سلطة محكمة النقض في الرقابة على تفسير عقود الإذعان ، الولاء للطبع والتوزيع ، مصر ، 1992 ، ص:16-18.

20. دحمون عبد الحفيظ: التوازن في العقد ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، فرع عقود ومسؤولية ، جامعة الجزائر 1 ، 2012/2011 ، ص:86.

21. المدرجة بموجب القانون رقم 05-10: المؤرخ في 20 يونيو 2005 ، يعدل ويتمم الأمر رقم 75-58 المؤرخ في 26 سبتمبر 1975 المتضمن القانون المدني ، ج.ر ، العدد 44 ، المؤرخة في 26 يونيو 2005 ، ص:17.

22. مُحَمَّد بودالي: المرجع السابق ، ص:50.

23. Loi n°95-96 du 1 février 1995 concernant les clauses abusives et la présentation des contrats et régissant diverses activités d'ordre économique et commercial, op, cit.

24. المرسوم التنفيذي رقم 06-306: المؤرخ في 10 سبتمبر 2006 ، المتعلق بتحديد العناصر الأساسية للعقود المبرمة ما بين الأعوان الاقتصاديين والمستهلكين والبنود التي تعتبر تعسفية ، ج.ر ، العدد 56 ، المؤرخة في 11 سبتمبر 2006 ، ص:16.

25. LOI n° 93-949 du 26 juillet 1993 relative au code de la consommation (partie Législative), tiré de site :

26. www.legifrance.gouv.fr/affichTexte.do?cidTexte=JORFTEXT000000529228, visité au 22/10/2019.

27. علي فيلالي: المرجع السابق ، ص:85.

28. علي فيلالي: المرجع السابق ، ص:86.

29. علي فيلالي: المرجع السابق ، ص:86.

30. شوقي بناسي: مواجهة الشروط التعسفية في العقود في ضوء القانون 04-02 المحدد للقواعد المُطبَقة على الممارسات التجارية ، المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والاقتصادية والسياسية ، العدد 02 ، 2009 ، ص:161.

31. Christian larroumet : op, cit, p :405.

32. المادة 07 من المرسوم التنفيذي رقم 06-306: المصدر السابق.

33. المادة 11 من المرسوم التنفيذي رقم 06-306: المصدر السابق.

34. درماش بن عزوز: التوازن العقدي ، أطروحة دكتوراه ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ، جامعة تلمسان ، 2013-2014 ، ص:214.

35. المادة 01 من المرسوم التنفيذي رقم 06-306: المصدر السابق.

36. مُحَمَّد إبراهيم بنداوي: نحو مفهوم أوسع لحماية المستهلك في عقد الإذعان ، مقال منشور في مجلة الأمن والقانون ، العدد 01 ، يناير 2000 ، ص:96.

37. بودالي مُحَمَّد: المرجع السابق ، ص:59.

38. درماش بن عزوز: المرجع السابق ، ص:233.

39. شوقي بناسي: المرجع السابق ، ص:185.

40. بودالي مُحَمَّد: المرجع السابق ، ص:139-140.

دسترة الحقوق السياسية للمعارضة-أتجاه نحو تعزيز مبدأ الفصل بين السلطات-

Constitutionising Political Rights of Opposition -Towards Reinforcing the Principle Seprating Powers-

تاريخ الإرسال: 11-05-2019 تاريخ القبول: 12-04-2020

رشيد لرقم، جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل
larkemrachid@yahoo.fr

الملخص

يعدّ مبدأ الفصل بين السلطات أحد أهم أسس الأنظمة الديمقراطية ، وأهم المبادئ الدستورية ، فهو يهدف إلى أنظمة سياسية تضمن الحقوق والحريات الفردية والجماعية ، إلاَّ أن تطبيقه في الأنظمة المختلطة وفق صورته التقليدية ، أصبح يثير إشكالات متعددة ، خاصة مع بروز ظاهر للأغلبية البرلمانية ، مما أدى إلى ظهور اتجاه جديد يهدف لتعزيز تجسيد المبدأ على أرض الواقع من خلال الفصل بين الأغلبية والمعارضة. هذا الاتجاه تبنته الجزائر من خلال الإصلاحات الدستورية التي أقرتها في التعديل الدستوري لسنة 2016 والتي بموجبها منحت للمعارضة حقوقا سياسية تمكنها من أن تلعب دوراً بارزا ، وتساهم في تفعيل الدور الرقابي للبرلمان ، لذلك سنتناول دوافع دسترة الحقوق السياسية للمعارضة ، ووسائل تدخل المعارضة لتفعيل دور البرلمان تكريساً للاتجاه الجديد.

الكلمات المفاتيح: الحقوق السياسية ، المعارضة ، الفصل بين السلطات ، الأغلبية البرلمانية ، الرقابة البرلمانية.

Résumé

Le principe de séparation des pouvoirs –le plus important en démocratie- est considéré comme la base des systèmes démocratiques, garants des droits et des libertés individuelles et collectives. Toutefois, son application -selon la version traditionnelle- dans les systèmes mixtes pose beaucoup de problèmes surtout avec l'apparition de la majorité parlementaire. Cet ordre des choses a engendré une nouvelle tendance visant la consolidation du principe dans ce nouveau contexte à travers la séparation entre la majorité et l'opposition. Cette a été adoptée par l'Algérie à travers les réformes constitutionnelles de l'année 2016 en donnant à l'opposition des droits politiques qui lui permettent de jouer un rôle de contrôle parlementaire. Pour ce faire, nous évoquerons les motivations constituantes des droits politiques de l'opposition, ainsi que les moyens de son intervention pour activer le rôle du parlement en concrétisant la nouvelle tendance

Mots-clés : Droits politiques, opposition, séparation des pouvoirs, majorité parlementaire, contrôle parlementaire.

Abstract

The principle of powers' separation is one of the most important democratic systems and constitutional principles as it seeks to establish political systems that guarantee both individual and collective rights and freedoms. However, its implementation in mixed regimes according to the classical approach has caused many problems notably with the emergence of a parliamentary majority, which led to the appearance of a new trend aiming at promoting the realization of the principle in reality by separating the majority and the opposition. This trend is adopted by Algeria through the constitutional reforms set by the 2016 constitutional amendment under which the opposition was given political rights that enable it to play a prominent role and contribute in operationalizing the parliament control role. Therefore, this paper will shed light on the motives behind the constitutionality of the opposition's political rights, and its intervention means to strengthen the new trend.

Keywords: Political rights, opposition, *powers separation*, the majority parliament, *the parliament control.*

مقدمة

يعدّ مبدأ الفصل بين السلطات أساس الأنظمة الديمقراطية ، فهو يهدف إلى تحقيق أنظمة سياسية تضمن الحقوق والحريات الفردية ويحول دون قيام سلطة قوية ومهيمنة ، حيث أصبحت دساتير الدول الديمقراطية تكرس هذا المبدأ ، وحتى بعض الدول ذات الأنظمة الشمولية تعمل على إدراج هذا المبدأ وتطبقه بما يتناسب وشكل نظام الحكم القائم فيها.

وإذا كانت غالبية الدساتير في الدول الحديثة تعمل على تكريسه ، فإن تطبيقه يتم بشكل متباين من دولة إلى أخرى ، فهناك دول تأخذ بتطبيق المبدأ بشكل جامد ، بحيث تتوزع السلطات بين أجهزة مستقلة ولا يمكن لسلطة أن تنال من استقلالية سلطة أخرى ؛ في حين نجد دول أخرى تأخذ بتطبيق المبدإ بصفة مرنة بما يسمح بخلق توازن وتعاون بين السلطتين التنفيذية والتشريعية.

ولا شك في أن مبدأ الفصل بين السلطات في النظام الرئاسي لا يطرح أي إشكال ، إلاَّ أن تطبيقه في النظام البرلماني يقتضي وجود تعاون وتوازن بين السلطات ، أمّا الأنظمة المختلطة فيتحقق فيها التوازن النسبي من خلال آليات الرقابة بين السلطتين التنفيذية والتشريعية.

فكرة الفصل بين السلطات في الأنظمة البرلمانية والمختلطة بالمنظور التقليدي تجاوزها الزمن ، وذلك في ظل أنظمة سياسية قوامها وجود أغلبية مهيمنة على السلطتين التشريعية والتنفيذية ، مما يعطل تطبيق المبدإ من الناحية العملية ، وفي مقابل ذلك معارضة تفتقر للآليات الدستورية اللازمة لتجسيد مضامين وأهداف المبدأ ، ومن هذه الزاوية فإن دساتير الدول الغربية أصبحت تقر وتعترف للمعارضة بمراكز قانونية معتبرة تمكنها من تفعيل دور البرلمان في ممارسة رقابته على عمل الحكومة عن طريق أدوات الرقابة التقليدية ، ورقابته على الأغلبية البرلمانية من خلال حق إخطار المجلس الدستوري[1] ، وهذا اتجاه للفصل بين الأغلبية والمعارضة بغرض تجسيد فعلي لمضامين مبدأ الفصل بين السلطات في هذه الأنظمة.

هذا الاتجاه تبنته الجزائر من خلال الإصلاحات الدستورية التي أقرتها في التعديل الدستوري لسنة 2016 [2] ، مما يجعلنا نتساءل عن مدى إسهام هذه التعديلات في تكريس فكرة الفصل بين الأغلبية والمعارضة كتقنية لتفعيل مبدأ الفصل بين السلطات؟ وهذا ما يجرنا لبحث دوافع دسترة الحقوق السياسية للمعارضة (المبحث الأول) ، وبيان وسائل تدخل المعارضة لتفعيل دور البرلمان تكريساً للاتجاه الجديد نحو الفصل بين الأغلبية والمعارضة (المبحث الثاني).

المبحث الأول: دوافع دسترة الحقوق السياسية للمعارضة

لاشك أن دسترة الحقوق السياسية للمعارضة في الأنظمة المختلطة ، هو نتيجة للجدل الذي أثير بسبب ظهور الأغلبية الموالية للسلطة التنفيذية ، والذي خلص في جانب منه إلى نتيجة مفادها أن وجود أغلبية برلمانية سيؤدي إلى هدم أسس النظام البرلماني ، منخلال التضامن بين السلطتين التنفيذية والتشريعية (المطلب الأول) ، من جهة ، ومن جهة أخرىانتفاء المسؤولية السياسية للحكومة ، وإضعاف دور البرلمان[3](المطلب الثاني).

المطلب الأول: بروز ظاهرة الأغلبية المؤيدة: تضامن بين السلطة التنفيذية والتشريعية

لقد عرف موضوع أثر ظاهرة الأغلبية على طبيعة النظام السياسي جدلاً في فرنسا خاصة بعد التعديل الدستوري لسنة 1962 ، أين برزت الظاهرة بشكل واضح[4] ، على الرغم من أن هذه الظاهرة يعدّها البعض بأنها من أسباب تقويض دعائم النظام البرلماني ، فهي تُضعف من الرقابة البرلمانية على أعمال الحكومة وتجعل البرلمان غير قادر على تفعيل آلياتها[5].

وتتحقق ظاهرة الأغلبية عندما تتحد الحكومة مع الأغلبية البرلمانية أثناء ممارسة السلطة من خلال التضامن المتبادل بينهما[6] ، هذه الظاهرة عرفتها الجزائر منذ 1999 ، أين أصبحت السلطة التنفيذية مؤيدة من قبل أحزاب التحالف الرئاسي ، هذا التضامن يتجسد من خلال المصادقة على مخطط عمل الحكومة ، الذي يعد إذن تطلبه الحكومة من البرلمان وفق إجراءات محددة في الدستور.

الفرع الأول: المناقشة والتصويت على برنامج الحكومة

إن مناقشة برنامج عمل الحكومة والتصويت عليه، هو إجراء بموجبه يمكن للبرلمان مراقبة عمل الحكومة قبل الشروع في تنفيذ برنامجها، وبرنامج الحكومة هو الإطار العام الذي يحدد السياسة العامة للحكومة، يحدد استراتيجياتها في التخطيط والإنجاز، ويحدد الغايات المراد تحقيقها والوسائل المسخرة لذلك، ومن هذه الزاوية ينبغي التميز بين مرحلتين: المرحلة الأولى هي مرحلة ما قبل التعديل الدستوري لسنة 2008، بينما المرحلة الثانية هي مرحلة ما بعد تعديل 2008.

ففي المرحلة الأولى قبل التعديل الدستوري لسنة 2008، يقدم رئيس الحكومة برنامجه إلى المجلس الشعبي الوطني للموافقة عليه، يجري المجلس الشعبي الوطني لهذا الغرض مناقشة عامة[7].

فهذه المادة توحي بأن برنامج الحكومة هو برنامج رئيس الحكومة، لكن بالنظر لنص المواد 77و79 من دستور 1996 قبل تعديله في 2008، فإن هذه الفكرة تتبدد، لأن رئيس الجمهورية هو الذي يعين رئيس الحكومة وينهي مهامه دون قيد أو شرط، وأن برنامج الحكومة يُضبط في مجلس الوزراء برئاسة رئيس الجمهورية، مما يعني أن البرنامج المقدم هو برنامج رئيس الجمهورية لا غير. ورغم ذلك من الناحية النظرية يعدّ برنامجا الحكومة برنامج لرئيس الحكومة.

أما بعد التعديل الدستوري لسنة 2008، الذي حسم الجدل حول البرنامج المقدم للمصادقة، وهل هو برنامج رئيس الجمهورية، أم برنامج الوزير الأول؟ ومن هذه الزاوية فإن التعديل الدستوري يلزم الوزير الأول بأن يقدم مخطط عمل الحكومة إلى المجلس الشعبي الوطني للموافقة عليه. ويُجري المجلس الشعبي الوطني لهذا الغرض مناقشة عامة[8].

مخطط عمل الحكومة المقدم للمناقشة تُعده الحكومة وتَعرضه في مجلس الوزراء، وهو مخطط يهدف بالأساس إلى تطبيق برنامج رئيس الجمهورية، خاصة وأن الوزراء يُعيّنون من قبل رئيس الجمهورية بعد استشارة الوزير الأول[9].

ولا شك أن مناقشة مخطط عمل الحكومة والتصويت عليه فرصة تسمح للمجلس الشعبي الوطني ان يمارس رقابة قبلية على عمل الحكومة، إلاَّ أننا لم نشهد وأن رفض المجلس الشعبي الوطني المصادقة على برنامج ومخطط عمل الحكومة حسب الحالة، ومرد ذلك بالدرجة الأولى كون الأغلبية في المجلس الشعبي الوطني هي أغلبية مؤيدة لرئيس الجمهورية.

أما على مستوى مجلس الأمة، فإن الوزير الأول يقدم عرضا حول مخطط عمل الحكومة مثلما وافق عليه المجلس الشعبي الوطني، ويمكن لمجلس الأمة أن يصدر لائحة[10].

الفرع الثاني: آثار التصويت على برنامج الحكومة.

التصويت على برنامج الحكومة هو إجراء دستوري ضروري لمباشرة الحكومة عملها، فهو بمثابة إذن يعطيه البرلمان للحكومة للبدء في عملها، وبدونه لا يمكن للحكومة أن تقوم بذلك، فهو بذلك يرتب آثار مباشرة على الحكومة، فهذا الإجراء قد يؤدي إلى استقالة الحكومة، كما قد يؤدي إلى إعطائها الثقة للشروع في تنفيذ مخطط عملها.

الفقرة الأولى: حالة عدم المصادقة على مخطط عمل الحكومة: (مجرد افتراض)

على افتراض أن مخطط عمل الحكومة لا يَحظى بموافقة المجلس الشعبي الوطني، حتى وإن كانت هذه الفرضية مستبعدة في النظام السياسي الجزائري، خاصة في ظل وجود أغلبية مؤيدة لبرنامج رئيس الجمهورية، وبالتالي مؤيدة لحكومة الرئيس، هذه الحالة نظمتها المواد 95 و96 من الدستور.

فحسب المادة 95 من الدستور، فإن الوزير الأول يقدم استقالة الحكومة لرئيس الجمهورية في حالة عدم موافقة المجلس الشعبي الوطني على مخطط عمل الحكومة[11]، وفي هذه الحالة يعين رئيس الجمهورية من جديد وزيرا أول، وقد يكون نفس الوزير الأول الذي لم يصادق المجلس الشعبي الوطني على برنامجه للمرة الأولى، وإذا لم يحصل مخطط عمل الحكومة الجديدة على موافقة المجلس الشعبي الوطني، ينحل هذا الأخير وجوبا وتستمر الحكومة القائمة في تسيير الشؤون إلى غاية انتخاب المجلس الشعبي الوطني في أجل أقصاه ثلاثة(03) أشهر[12].

على الرغم من أن هذه الفرضية غير متوقعة في النظام السياسي حاليا، إلاَّ أنها تبرز مدى تفوق السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية، إذ بمجرد عدم موافقة المجلس الشعبي الوطني على مخطط عمل الحكومة، ينحل المجلس وجوبا.

الفقرة الثانية: حالة مصادقة المجلس الشعبي الوطني على مخطط عمل الحكومة.

في هذه الحالة يصادق المجلس الشعبي الوطني على مخطط عمل الحكومة ، ويكون ذلك بعد المناقشة العامة التي على إثرها يمكن للوزير الأول أن يكيف مخطط عمل حكومته[13] ، وفي هذه الحالة يمكن لنواب المعارضة المساهمة في تكييف محاور وبنود مخطط العمل بما لا يتعارض ورغبة الأغلبية .

وفي الحالتين ، فإن مساهمة المعارضة البرلمانية في المصادقة على مخطط عمل الحكومة بعد تكييفه أو دون ذلك ، تبقى رهينة موافقة الأغلبية البرلمانية المساندة لرئيس الجمهورية ، مما يجعل دورها ثانويا وغير مؤثر.

المطلب الثاني: الأغلبية المؤيدة تحد من فعالية الرقابة المتبادلة بين السلطتين.

من الثابت القول إن لظاهرة الأغلبية المؤيدة للسلطة التنفيذية انعكاس مباشر على أداء السلطة التشريعية ، خاصة في علاقتها بالسلطة التنفيذية التي تتميز بالتضامن ، ومن هذا المنطلق فإن هذا سيؤثر على فعالية الرقابة بمختلف أنواعها.

الفرع الأول: الأغلبية البرلمانية المؤيدة: (أداة للحد من أثر آليات الرقابة).

تعدّ آليات الرقابة البرلمانية على أعمال الحكومة في الأنظمة الديمقراطية من بين الوسائل التي تهدف إلى ضمان توازن بين السلطتين ، بما يضمن فصلا مرنا بين السلطتين التنفيذية والتشريعية.

وآليات الرقابة البرلمانية على عمل الحكومة تتدرج في مدى ترتيبها لمسؤولية الحكومة ، بين آليات لا ترتب المسؤولية السياسية للحكومة ، وأخرى ترتب مسؤولية الحكومة. إلاَّ أن آليات الرقابة المرتبة للمسؤولية السياسية للحكومة لم تعد كذلك من الناحية الواقعية ، ولم تعد قائمة أساسا أمام البرلمان ولكن أمام الشعب عن طريق الانتخاب ، وأن مبدأ الفصل بين السلطات لم يعد قائما بين السلطتين التنفيذية والتشريعية ، ولكنه أصبح موجودا بين الأغلبية المؤيدة والمعارضة[14]. لذلك ومن هذه الزاوية يجب بحث مدى قدرة المعارضة على تفعيل آليات الرقابة على أعمال الحكومة في ظل نظام سياسي تسيطر فيه الأغلبية المؤيدة للسلطة التنفيذية على غالبية مقاعد البرلمان بغرفتيه.

الفقرة الأولى: آليات الرقابة التي لا ترتب مسؤولية الحكومة: (أدوات إعلامية لا غير)

إن السلطة التنفيذية في الأنظمة الديمقراطية المعاصرة بما تملكه من وسائل تقنية ، متفوقة على السلطة التشريعية مقارنة بمحدودية الأدوات والإمكانيات المتاحة لها- السلطة التشريعية- ، ومن ثمة تمتلك السلطة التشريعية عدة آليات لرقابة السلطة التنفيذية[15] ، ويمارس البرلمان رقابته غير المرتبة للمسؤولية السياسية بهدف الحصول على المعلومات وجمع الحقائق ، ويتم ذلك في شكل حوار كتابي أو شفاهي بين عضو البرلمان ووزير أو أكثر ، وعندها نكون أمام الأسئلة بنوعيها الكتابية والشفهية. أو يتم في شكل استجواب أو لجان تحقيق[16].

أ- **الأسئلة**: تعدّ الأسئلة من أقدم آليات الرقابة على عمل الحكومة ، ظهرت لأول مرة في مجلس اللوردات البريطاني سنة 1721 ، وكان ذلك بشكل غير رسمي ، غير أن الاعتراف الرسمي بحق أعضاء البرلمان طرح أسئلة كان في سنة 1783[17].

والسؤال هو وسيلة رقابية يستهدف بها عضو البرلمان الحصول على معلومات عن أمر يجهله ، أو التحقق من حصول واقعة ما ، أو معرفة ما ستقوم به الحكومة في مسألة ما[18].والسؤال إما أن يكون كتابيا أو شفاهيا.

بالرجوع لدستور 1996 نجده كرس حق أعضاء البرلمان في توجيه أسئلة لأعضاء الحكومة ، وجعل هذا الحق لكل نائب في المجلس الشعبي الوطني ، ولكل عضو من أعضاء مجلس الأمة ، ويكون الجواب على السؤال الكتابي كتابيا خلال أجل لا يتجاوز 30 يوما. بينما الأسئلة الشفهية يكون الرد عليها شفهيا خلال أجل لا يتجاوز 30 يوما[19].

وإذا رأت أي من الغرفتين أن جواب عضو الحكومة يبرر إجراء مناقشة ، يمكن أن تُجرى مناقشة في المجلس الشعبي الوطني وفي مجلس الأمة ، إلاَّ أن إجراء المناقشة لا يتم إلاَّ بتوفر شروط محددة في النظام الداخلي لكل غرفة[20] ، إذ تتم في المجلس الشعبي الوطني بناء على طلب يقدمه عشرون20 نائبا على الأقل في ظل النظام الداخلي الصادر في 1997[21] ، بينما في النظام الصادر سنة 2000 لم يشر إلى عدد

النواب الذين يوقعون الطلب. أما في مجلس الأمة فتجرى المناقشة بناء على طلب يقدمه ثلاثون30 عضوا على الأقل[22].

وإذا كان السؤال الكتابي أو الشفهي حق مكفول لأعضاء البرلمان بغرفتيه ، فإن إجراء مناقشة تُصبح غير متاحة للجميع ، إذ يجب توفر النصاب المطلوب لذلك ، مما قد يحرم المعارضة من فتح مناقشة عامة حول الأسئلة المطروحة من قبل نوابها في المجلس الشعبي الوطني ، بينما في مجلس الأمة الأمر أكثر صعوبة كونه يتطلب تقديم طلب يوقعه ثلاثون 30 عضواً وهذا أمر في غاية الصعوبة.

ب- الاستجواب: يعدّ الاستجواب من الأدوات الرقابية في يد البرلمان بموجبها يستطيع عضو البرلمان أن يطلب من وزير ما بيانات عن السياسية العامة للدولة[23] ، ظهر لأول مرة في أول دستور فرنسي سنة[24]1791 وهو إجراء رقابي معمول به في الجزائر ، إذ يمكن لأعضاء البرلمان بغرفتيه استجواب الحكومة ، ويجب أن يرتبط الاستجواب بقضايا الساعة[25] ، وهو مشروط بأن يوقعه على الأقل وحسب الحالة ثلاثون (30) نائبا أو ثلاثون(30) عضوا من أعضاء مجلس الأمة[26] ، ويحدد مكتب المجلس الشعبي الوطني أو مكتب مجلس الأمة بالتشاور مع الحكومة الجلسة التي يجب أن يُدرس فيها الاستجواب ، وتكون هذه الجلسة خلال ثلاثين (30) يوما على الأكثر ، الموالية لتاريخ تبليغ الاستجواب[27].

والاستجواب يختلف عن الأسئلة الشفوية والكتابية التي توجه لوزير ما كونه ينصب على سياسة الحكومة وتوجهاتها ولا يوجه لوزير ما بل للحكومة ككل[28] ، وهو بذلك أكثر خطورة على الحكومة من الأسئلة بنوعيها ، وهو الآخر محاط بشروط تجعل من ممارسته بالنسبة للمعارضة في غالب الأمر غير ممكن.

ج-لجان التحقيق: تعدّ لجان التحقيق من اللجان المؤقتة أو اللجان ذات المهمة المحددة ، وهي تعطي للبرلمان وسيلة مهمة للرقابة على الحكومة[29] ، واللجان البرلمانية هيئات مساعدة للبرلمان في الرقابة التي يمارسها على النشاط الحكومي ، كما أن حق التحقيق نتيجة لازمة لحق اقتراح القوانين وحق مسائلة الوزراء كونه يساهم في معرفة حقيقة الأوضاع في أجهزة السلطة التنفيذية[30].

وقد أكد دستور 1996 على حق غرفتي البرلمان في إنشاء لجان تحقيق في قضايا ذات مصلحة عامة[31] ، ويتم ذلك في المجلس الشعبي الوطني أو في مجلس الأمة بالتصويت على اقتراح لائحة يودعها لدى مكتب المجلس الشعبي الوطني أو مجلس الأمة ويوقعها على الأقل عشرون(20) نائبا في المجلس الشعبي الوطني أو عشرون عضوا في مجلس الأمة[32].

وتتولى لجنة التحقيق إعداد تقرير يسلم إلى رئيس المجلس الشعبي الوطني أو رئيس مجلس الأمة حسب الحالة ، ويبلغ إلى كل من رئيس الجمهورية والوزير الأول[33]. كما يمكن أن يقرر المجلس الشعبي الوطني أو مجلس الأمة نشر التقرير جزئيا أو كلياً[34].

رغم أن لجان التحقيق تنطوي على نوع من الاتهام للحكومة أو لأحد أعضائها ، فهي لا تهدف فقط إلى الاستعلام عن أمر ما ، بل هي إجراء ذو صفة اتهامية ، إلاَّ أنه لا يرتب في النهاية مسؤولية الحكومة أو أحد أعضائها.

الفقرة الثانية: آليات الرقابة المرتبة لمسؤولية السلطة التنفيذية: (مجرد تنصيص دستوري).

لقد اعتمد المؤسس الدستوري آليات للرقابة على عمل الحكومة قد ترتب مسؤوليتها ، وهذا بالموازاة مع الآليات عديمة الأثر السابق ذكرها (السؤال ، الاستجواب ، لجان التحقيق) ، ويعد ملتمس الرقابة أشد صورة من صور الرقابة قد يؤدي في النهاية إلى إسقاط الحكومة ، مما جعل هذا الإجراء محاط بشروط وإجراءات.

يقصد بملتمس الرقابة لائحة اللوم ، وتعد انجلترا منشأ هذا الإجراء الرقابي ومنشأ المسؤولية السياسية على العموم ، إذ كان أول تطبيق لها هو إسقاط الوزير روبرت والبول R. Walpole وكان ذلك في سنة 1742 ، بينما المسؤولية التضامنية للحكومة كانت بدايتها سنة [35]1782 ، وبذلك أصبح لمجلس العموم طريقين لتحريك المسؤولية السياسية وهما اقتراح بلوم الحكومة (mention of censure) وطرح الثقة ضمنا ، إلاَّ أن الأسلوب الأول أحيط بقيود ، إذ لا يجوز مناقشة الاقتراح بلوم إلاَّ بعد أربعة أيام من تقديمة[36].

أ -**إجراءات ملتمس الرقابة:** دستور 1996 نص على ملتمس الرقابة في المواد 98 ، 153و 154و155 منه ، إذ أحاط هذا الإجراء الرقابي بشروط وقيود تجعل من ممارسته

ليست مطلقة ، بل ينبغي أن تستجيب للعديد من الضوابط الدستورية وهي كما يلي:

– **أن يتم اللجوء إلى ملتمس الرقابة بمناسبة تقديم بيان السياسية العامة:** لقد قيد المؤسس الدستوري الجزائري حق اللجوء إلى ملتمس الرقابة ، بأن جعله مرتبط ببيان السياسة العامة الذي يقدم سنوياً أمام المجلس الشعبي الوطني ، وهو بذلك حق لأعضاء المجلس الشعبي الوطني دون أعضاء مجلس الأمة ، ويمكن اللجوء إلى هذا الإجراء مرة كل سنة فقط ، على خلاف الإجراءات الرقابية الأخرى.

– **أن يُوقع من قبل 1/7عدد النواب على الأقل:** يشترط الدستور أن يُوقع ملتمس الرقابة من قبل 1/ 7 (سبع)عدد النواب على الأقل ، بعملية حسابية فإن ذلك يتطلب 7/462أي 66 نائب على الأقل[37] ، وهو عدد لا يُستهان به ، إذ من الصعب على الأحزاب السياسية المعارضة جمع هذا العدد ، وحتى وإن تمكنت من ذلك فإن التصويت على ملتمس الرقابة يتطلب أغلبية 3/2 من أعضاء المجلس الشعبي الوطني.

– **لا يتم التصويت عليه إلاّ بعد مضي ثلاث أيام من إيداعه:** بالإضافة إلى الشرط العددي من نواب المجلس المطلوب ، فإن الدستور يشترط ألا يتم التصويت على ملتمس الرقابة إلاَّ بعد مضي ثلاث أيام من إيداعه لدى المجلس الشعبي الوطني ، ولعل العبرة في ذلك هو التريث على كون أن التصويت على ملتمس الرقابة قد يؤدي إلى استقالة الحكومة ، ومن هذه الزاوية فإن مهلة ثلاث أيام كافية للطرفين الحكومة وأعضاء المجلس الشعبي الوطني، لإجراء المساعي المطلوبة في هذه الحالة.

– **ضرورة فتح مناقشة قبل التصويت على ملتمس الرقابة:** بالرجوع إلى نص القانون العضوي 16-12 ، نجد أن المادة 61 منه وضعت ضوابط لمناقشة ملتمس الرقابة ، إذ حدد الفئات المسموح لها بالتدخل في النقاش ، وهم:

1) الحكومة بناء على طلبها ،
2) مندوب أصحاب ملتمس الرقابة ،
3) نائب يرغب في التدخل ضد ملتمس الرقابة ،
4) نائب يرغب في التدخل لتأييد ملتمس الرقابة.

من الواضح أن المشرع عندما حصر الفئات المسموح لها بالتدخل في النقاش الذي يسبق التصويت على ملتمس الرقابة هو إعطاء الفرصة للحكومة ولأصحاب ملتمس الرقابة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نائب ضد ملتمس الرقابة ونائب مؤيد لملتمس الرقابة ، فهذا التقسيم عادل لحد ما . كما أن هذا الإجراء يجنب المجلس الصراعات بين الكتل المؤيدة للحكومة والمعارضة لها.

– **أن يتم التصويت على ملتمس القرابة بأغلبية 3/2 من الأعضاء:** فضلا عن الشروط السابقة ، فإن الدستور يشترط للموافقة على ملتمس الرقابة أن يتحصل على موافقة ثلثي النواب ، وهي نسبة مرتفعة تجعل من الصعب الحصول عليها ، مما يجعل ممارسة هذا الحق من الناحية العملية أمر في غاية الصعوبة.

ب- آثار المصادقة على ملتمس الرقابة: لقد حدد الدستور آثار ونتيجة المصادقة على ملتمس الرقابة ، إذ في حالة ما إذا صادق المجلس الشعبي الوطني على ملتمس الرقابة بأغلبية ثلثي3/2 النواب ، يقدم الوزير الأول استقالة الحكومة الى رئيس الجمهورية[38].

استقالة الحكومة هي نتيجة مباشرة لحصول ملتمس الرقابة على موافقة ثلثي أعضاء المجلس الشعبي الوطني ، أي الحصول على موافقة 308 من أعضاء المجلس الشعبي الوطني ، وهو عدد لا يمكن الحصول عليه إلاَّ بموافقة الأغلبية في هذا الأخير ، وبذلك فإن دور المعارضة يبقى دوما من الناحية النظرية وحتى العملية شكليا.

المبحث الثاني: دسترة الحقوق السياسية للمعارضة: (اتجاه للفصل بين الأغلبية والمعارضة)

إن تجسيد مبدأ الفصل بين السلطات في الأنظمة المختلطة عرف تطورات مختلفة جعلت منه محور النقاش خلال التعديلات الدستورية المختلفة ، لاسيما في فرنسا ، إذ ساهم هذا التحول في دسترة الحقوق السياسية للمعارضة قصد تفعيل مضامينه والحد من اختلالاته ، وهذا ما عمل به المؤسس الدستوري في الجزائر ، إذ أقر لأول مرة حقوقا دستورية للمعارضة (المطلب الأول) ، من شأنها تجسيد المبدأ من الناحية العملية (المطلب الثاني).

المطلب الأول: الحقوق السياسية للمعارضة في ظل التعديل الدستوري لسنة 2016

كرس التعديل الدستوري لسنة 2016 ولأول مرة حقوقاً سياسية للمعارضة وردت في المادة 114 ، هذه الحقوق يمكن تصنيفها إلى حقوق عامة ، هي في الأساس مكرسة من قبل وتمت ترقيتها إلى حقوق دستورية مكرسة بنص دستوري ، وحقوق جديدة تم اعتمادها لأول مرة ، إلاَّ أن هذه الحقوق جاءت في صيغة العموم تجسيدها على أرض الواقع يتطلب تدخل غرفتي البرلمان من خلال توضيح كيفيات تطبيقها في نظامهما الداخلي ، وهذا ما يثير عدة تساؤلات.

الفرع الأول: الحقوق السياسية للمعارضة في الدستور

بالرجوع لنص المادة 114 من الدستور ، نجدها نصت على ما يلي: تتمتع المعارضة البرلمانية بحقوق تمكنها من المشاركة الفعلية في الأشغال البرلمانية وفي الحياة السياسية ، لا سيما منها:

1- حرية الرأي والتعبير والاجتماع ،

2- الاستفادة من الإعانات المالية الممنوحة للمنتخبين في البرلمان ،

3- المشاركة الفعلية في الأشغال التشريعية ،

4- المشاركة الفعلية في مراقبة عمل الحكومة ،

5- التمثيل المناسب في أجهزة غرفتي البرلمان ،

6- إخطار المجلس الدستوري ، طبقا لأحكام المادة 187(الفقرتان2 و3) من الدستور ، بخصوص القوانين التي صوت عليها البرلمان ،

7- المشاركة في الديبلوماسية البرلمانية ،

إن هذه الحقوق الخاصة بالمعارضة البرلمانية بهذه الصيغة تجعلنا نثير ملاحظات عدة أهمها:

– إن استعمال مصطلح معارضة برلمانية في الواقع يعد غامضا وغير دقيق ، إذ يمكن تفسير ذلك من عدة زوايا ، فقد يُفهم من هذا المصطلح الأحزاب غير المنضوية ضمن التحالف الرئاسي والممثلة في المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة.

– ومن جهة أخرى قد يُفهم منها كذلك أعضاء المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة المنتمين للأحزاب المعارضة دون الأعضاء المنتمين لأحزاب أخرى حتى وان كانت هذه الأحزاب غي منضوية في التحالف الرئاسي.

– ومن زاوية أخرى نتساءل عن مصير الأعضاء الذين تم انتخابهم ضمن القوائم الحرة.

كما أن هذه الحقوق هي حقوق مقررة لكل النواب ، وهي حقوق عامة ، مما يدفعنا للتساؤل عن جدوى استعمال المؤسس الدستوري لمصطلح المعارضة البرلمانية ، والتنصيص على الحقوق السياسية لها-المعارضة- في هذه المادة لا يضيف أي قيمة قانونية لحق ممارستها.

وعلى الرغم من ذلك فقد أحال المؤسس الدستوري مسألة تنظيم ممارسة هذه الحقوق إلى غرفتي البرلمان كل على حدا ، مما يجعل من ممارسة هذه الحقوق مرهون بمدى تكريسها في الأنظمة الداخلية لغرفتي البرلمان.

الفرع الثاني: الحقوق السياسية للمعارضة: تُنظم بموجب نظام داخلي

على الرغم من التنصيص الدستوري للحقوق السياسية للمعارضة ، إلاَّ أن المؤسس الدستوري أعطى حق تنظيمها الى المشرع عن طريق الأنظمة الداخلية لغرفتي البرلمان ، وهذا من شأنه أن يجعل من ممارستها رهين موافقة الأغلبية البرلمانية في كل غرفة.

ونظرا لكون الأنظمة الداخلية لغرفتي البرلمان تخضع لرقابة المطابقة للدستور ، وهي رقابة قبلية ووجوبية[39] ، ومن هذه الزاوية ليس للمشرع أن يضع قيودا على ممارسة هذه الحقوق أو الانتقاص منه. إلاَّ أنه في هذه الحالة يمكن تعطيل ممارسة هذه الحقوق من خلال عدم المصادقة على النظام الداخلي أو تأجيل إعداده والمصادقة عليه كما هو الآن بالنسبة للنظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني أو جعلها حقوق عامة كما وردت في النص الدستوري.

وهذا ما حدث فعلا بالنسبة للنظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني ، إذ لم يتم وضعه لحد الآن منذ 2016 ، بينما تم وضع النظام الداخلي لمجلس الأمة فقد أشار إلى الحقوق السياسية للمعارضة في الباب السادس تحت عنوان إجراءات مناقشة جدول أعمال المعارضة البرلمانية.

الفقرة الأولى: تأجيل إعداد النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني:(إخلال بنص المادة 114 من الدستور)

بالرجوع لنص المادة 114 من الدستور نجدها تحيل مسألة تنظيم الحقوق السياسية لغرفتي البرلمان حسب الحالة. كما أن المادة 132 فقرة 02 نصت على أن يعد المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة نظامهما الداخلي ويصادقان عليهما.

ولم يحدد المؤسس الدستوري إن كان إعداد النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة يتم بمناسبة كل انتخاب، أم أن الأمر متروك لرغبة الغرفتين. لكن الأمر يُصبح أكثر من ضرورة بعد كل تعديل دستوري، خاصة إذا كان التعديل الدستوري له علاقة بالسلطة التشريعية وبالتالي له علاقة بالنظام الداخلي للغرفتين بما يجعل تنظيم مسألة ما تبقى رهينة الأنظمة الداخلية.

ومن هذه الزاوية لا يوجد ما يُلزم المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة بضرورة إعداد والمصادقة على نظامهما الداخلي، خاصة وان الدستور في المادة 32 فقرة 02 جاء في صياغة عامة، كما أن المجلس الدستوري لا يمكنه التدخل في هذه الحالة.

وبالنظر للنظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني المعمول به حاليا، نجده لم يتغير منذ سنة2000، رغم تعديل الدستور في 2002 و2008 و2016، وهذا ما يُعد تقصير من قبل الهيئة التشريعية، خاصة وأن تعديل 2016 يحيلنا في مادته 114 إلى النظام الداخلي، مما يتوجب على الغرفتين تكييف نظامهما الداخلي مع الدستور، وهذا ما لم يحصل في المجلس الشعبي الوطني.

الفقرة الثانية: النظام الداخلي لمجلس الأمة: (تجاهل مقنن لحقوق المعرضة الدستورية)

على خلاف المجلس الشعبي الوطني، فإن مجلس الأمة أعد نظامه الداخلي وصادق عليه، وذلك بعد سنة وخمسة أشهر من صدور التعديل الدستوري لسنة 2016، ورغم ذلك فإنه يكرس غموض كبير على المعارضة البرلمانية، كما خصص مادة واحدة لحقوقها السياسية.

فحسب المادة 58 من النظام الداخلي لمجلس الأمة والمتعلقة بشروط تشكيل المجموعات البرلمانية، يمكن القول إن النظام الداخلي هو الآخر يضفي غموضا على فكرة المعارضة البرلمانية، إذ حددت شروط تشكيل المجموعات البرلمانية، ومن بين هذه الشروط أن يُحدد أعضاؤها ما إذا كانت الطبيعة السياسية للمجموعة البرلمانية من المعارضة، مما يدفعنا للتساؤل عن معيار تحديد المعارضة السياسية في ظل هذه التشريعات.

فبالنظر لنص المادة58 من النظام الداخلي لمجلس الأمة، نجد تحديد الطبيعة السياسية لأي مجموعة يخضع لرغبة الأعضاء المشكلين لها، وهذا في الواقع لا ينسجم مع دور المعارضة في الأنظمة المقارنة.

وقد حُددت إجراءات مناقشة جدول أعمال المعارضة البرلمانية في المواد 85 و86 من النظام الداخلي، إذ جاءت عملا بأحكام المادة 114 فقرة2 من الدستور، إلاَّ أن مشروع جدول أعمال المجموعة البرلمانية المعارضة يبقى رهين موافقة مكتب مجلس الأمة.

وإذا كانت المادة 86 جاءت عملا بأحكام الفقرة الثانية من المادة 114 من الدستور، فإننا نتساءل عن مصير ما ورد في الفقرة الأولى من نفس المادة، خاصة وأنها تتضمن العديد من الحقوق التي لا نجد لها أي أثر في النظام الداخلي.

إن التفاوت في التعامل مع مسالة تنظيم الحقوق السياسية للمعارضة بين المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة يجعل ممارسة هذه الحقوق لا تتم بنفس الصورة، كما أن عدم تنظيم جانب كبير منها، رغم أنها وردت في الفقرة 01 من المادة 114 من الدستور ورغم ذلك نجد أن المجلس الدستوري لم يثير هذه المسألة بمناسبة رقابة مطابقة النظام الداخلي لمجلس الأمة للدستور[40].

على الرغم من أن تنظيم الحقوق السياسية للمعارضة في النظام الداخلي للغرفتين لا يرقى لمستوى وطبيعة هذه الحقوق الدستورية، إلاَّ أن دورها في إخطار المجلس الدستوري طبقاً لما ورد في المادة 114 من الدستور يبقى فعَّالاً إذا مُورس حسب ما تقتضيه الظروف.

المطلب الثاني: إخطار المجلس الدستوري: إجراء فعّال لتكريس الاتجاه الجديد

من الثابت القول إن التعديل الدستوري لسنة 2016، والذي خص في جوانب متعددة المجلس الدستوري بعدّه هيئة دستورية رقابية، وسع من السلطات المخولة بالإخطار لتشمل عدد من النواب أو عدد من أعضاء مجلس

الأمة بالإضافة إلى رئيس الجمهورية والوزير الأول، ورئيس مجلس الأمة ورئيس المجلس الشعبي الوطني[41].

ولم تقتصر التعديلات الدستورية لسنة 2016 على السلطات المخولة بإخطار المجلس الدستوري فقط بل مست عدة جوانب منه، خاصة تشكيلته واختصاصاته، فتشكيلته توسعت ليصبح عدد أعضائه اثني عشر(12) عضوا، بدلا من تسعة(09) أعضاء قبل تعديل 2016، بينما أصبح يختص بالفصل في المسائل المتعلقة بالدفع بعدم الدستورية بناء على إحالة من المحكمة العليا أو مجلس الدولة وفق الشروط المحددة في المادة 188 من الدستور والقانون العضوي 18-16 المحدد لشروط وكيفيات تطبيق الدفع بعدم الدستورية[42].

ولا شك أن الإخطار البرلماني للمجلس الدستوري، هو أحد أهم التعديلات، خاصة وانه من طبيعة سياسة يهدف للفصل بين الأغلبية المؤيدة للحكومة والمعارضة، وقد ميز المؤسس الدستوري بين الإخطار البرلماني في المجلس الشعبي الوطني وفي مجلس الأمة، وحدد مجالاته.

الفرع الأول: طبيعة الإخطار البرلماني.

إن إخطار المجلس الدستوري من قبل نواب البرلمان أو ما يسمى بالإخطار البرلماني ، ظهر لأول مرة كتقنية دستورية في فرنسا في التعديل الدستوري لسنة 1974 ، أين أصبح حق الإخطار مقرر أيضا لستين عضوا من أعضاء مجلس النواب أو ستين عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ[43]، وهو ما اعتمده المؤسس الدستوري في الجزائر في التعديل الدستوري لسنة 2016، وهو ذو أغراض سياسية بأبعاد قانونية.

الفقرة الأولى: الطبيعة السياسية للإخطار البرلماني

إن الهدف من هذه التقنية- الإخطار البرلماني- هو تمكين المعارضة في البرلمان من حق إخطار المجلس الدستوري ، وهو في الأساس ذو طبيعة سياسية يمكن من وضع حدود للتعسف في استعمال السلطة من قبل الأغلبية البرلمانية[44]، وبالتالي فالإخطار البرلماني هو وسيلة تدخل سياسية في يد المعارضة والمجموعات البرلمانية ضد الحكومة والأغلبية البرلمانية المساندة لها، وبالتالي فهو يكرس الفصل السياسي للسلطات من خلال الفصل بين الأغلبية والمعارضة[45].

ومن هذه الزاوية، فتدخل المعارضة والمجموعات البرلمانية من خلال الإخطار البرلماني قد يعبر عن عدم رضا المعارضة على السياسية التشريعية للحكومة والأغلبية البرلمانية المساندة لها، خاصة أذا كانت مؤدية إلى التضييق من الحريات وتحد من ممارسة الحقوق العامة والخاصة، على عدّ أن الدستور هو الضامن لممارستها والمحدد لنطاق تطبيقها.

إن دسترة الحقوق السياسية للمعارضة عموما، وحق الإخطار البرلماني خصوصا، يعد اعترافا دستوريا بالمعارضة السياسية الذي لم يكن كذلك من قبل، مما يجعله نوعا من أنواع الرقابة البرلمانية تمارسها المعارضة البرلمانية على الحكومة والأغلبية المساندة لها.

وإذا كان دسترة حق الإخطار البرلماني للمعارضة ذو طبيعة سياسية، فإن ذلك لا يخلو من أبعاد قانونية متعددة محدد في النص الدستوري لا سيما المواد 187، 190 و191 من الدستور.

الفقرة الثانية: الأبعاد القانونية للإخطار البرلماني

لقد حدد الدستور أهم الضوابط الواجب توفرها في الإخطار البرلماني والنتائج المترتبة عنها وهي ضوابط قانونية من طبيعة دستورية هي:

أولاً: الضوابط المطلوبة في الإخطار البرلماني: لقد حدد المؤسس الدستوري ضوابط مرتبطة بعدد النواب وأعضاء مجلس الأمة الذين لهم حق الإخطار البرلماني، إذ يمكن لخمسين(50) نائبا أو ثلاثين (30) عضوا في مجلس الأمة إخطار المجلس الدستوري[46].

وقد ميز المؤسس الدستوري بين العدد المطلوب من النواب لإخطار المجلس الدستوري، عن عدد أعضاء مجلس الأمة، إذ يشترط خمسين (50) نائبا، بما يمثل 10.82% من أعضاء المجلس الشعبي الوطني وثلاثين (30) عضوا في مجلس الأمة وهذا ما يمثل 20.83 % من أعضاءه.

وبالنظر لطريقة انتخاب المجلس الشعبي الوطني، الذي يتم باعتماد نظام التمثيل النسبي، أين يمكن للمعارضة أن تُمثل حسب نسبة الأصوات التي حصلت عليها، وهو نظام يمكن الأحزاب الصغيرة من الحصول على مقاعد، على خلاف نظام انتخاب أعضاء مجلس الأمة وهو نظام الأغلبية النسبية

الذي يساعد الأحزاب الكبيرة على حساب الأحزاب الصغيرة ، وبالتالي يقلل من حظوظ تمثيلها على مستوى مجلس الأمة ، مما يجعل ممارسة حق الإخطار بالنسبة للمعارضة في مجلس الأمة شبه مستحيلة.

والإخطار البرلماني حسب نص الدستور لا يمتد إلى الدفع بعدم الدستورية ، مما يجعل ممارسة من الناحية العملية تبقى محدودة الأثر ، خاصة على مستوى مجلس الأمة ، بينما على مستوى المجلس الشعبي الوطني فهي ممكنة بالنظر لمختلف التشكيلات الممثلة فيه.

ثانيا: آثار الإخطار البرلماني: حسب الدستور فإن إخطار المجلس الدستوري من قبل أعضاء البرلمان يرتب نفس الأثر ، في حالة إخطاره من قبل الهيئات الدستورية الأخرى وهي: رئيس الجمهورية أو رئيس مجلس الأمة أو رئيس المجلس الشعبي الوطني أو الوزير الأول.

فعندما يُخطر المجلس الدستوري ، يتداول في جلسة مغلقة ، ويعطي رأيه أو يصدر قراره في ظرف ثلاثين(30) يوما من تاريخ الإخطار ، ويمكن أن يُخفض هذا الأجل إلى عشر (10) أيام في حالة وجود طارئ وبطلب من رئيس الجمهورية[47] ، وقد فصلت المواد 190 و191 في حجية وآثار قرارات المجلس الدستوري ، فقراراته نهائية وملزمة لجميع السلطات العمومية والسلطات الإدارية والقضائية ،و أن النص الذي يرى المجلس الدستوري أنه غير دستوري يفقد أثره ابتداء من يوم قرار المجلس.

الفرع الثاني: مجالات الإخطار البرلماني

لقد حدد الدستور اختصاص المجلس الدستوري في مجال الرقابة على دستورية القوانين ، إذ يختص بالنظر في دستورية المعاهدات والقوانين والتنظيمات. كما يبدى ، بعد أن يخطره رئيس الجمهورية ، رأيه وجوبا في دستورية القوانين العضوية بعد أن يصادق البرلمان عليها. كما يفصل في مطابقة النظام الداخلي لكل من غرفتي البرلمان للدستور ، بعد أن يخطره رئيس الجمهورية[48].

وبالنظر لما جاء في المادة 187 من الدستور ، فإن الإخطار البرلماني جاء مطلقا بالنسبة للنصوص سالفة الذكر ، وأن المؤسس الدستوري لم يميز بين الاتفاقيات الدولية والقوانين العضوية والقوانين والتنظيمات ، إذ يمكن لنواب المجلس الشعبي الوطني أو أعضاء مجلس الأمة إخطار المجلس الدستوري.

ومن هذه الزاوية ، يجب أن نميز بين حالة الرقابة الوجوبية ، أين يُخطر رئيس الجمهورية المجلس الدستوري وجوبا ، والرقابة الجوازية ، أين تكون سلطة الإخطار متروكة لرغبة الهيئات الدستورية المخولة بذلك. ففي الحالة الأولى وبعد أن يخطر رئيس الجمهورية المجلس الدستور يتساءل عن إمكانية الإخطار البرلماني كذلك ، وهو تساءل يجد الإجابة عليه في المادة 12 من النظام الداخلي للمجلس الدستوري[49] ، إذ جاء فيها أنه في حالة إخطار المجلس الدستوري من أكثر من جهة ، يصدر رأيا واحد في الإخطار. وهي قاعدة تُطبق كذلك في حالة الرقابة الجوازية.

خاتمة

إن مبدأ الفصل بين السلطات ، بعدّه من أهم المبادئ الدستورية التي برزت في القرن الماضي ، ساهم في الحد من سلطة الملوك من خلال تقسيم السلطة إلى سلطات ثلاث ، وكان له الفضل في بروز أنظمة سياسية ديمقراطية. إلاّ أن تطبيقه في الأنظمة المختلطة طرح العديد من الإشكالات برزت بشكل كبير مع تنامي ظاهر الأغلبية البرلمانية ، مما أدى إلى بروز اتجاه جديد للفصل بين الأغلبية والمعارضة قصد تفعيل مبدأ الفصل بين السلطات ، هذا الاتجاه تبناه المؤسس الدستوري في الجزائر من خلال التعديل الدستوري لسنة 2016 ، أين أعطى حقوقا دستورية للمعارضة.

تبني فكرة الفصل بين الأغلبية والمعارضة في الدستور الجزائري بقيت رهينة النص الدستوري ، خاصة وأن مسألة تنظيمها أحيلت إلى الأنظمة الداخلية لغرفتي البرلمان ، مما أدّى إلى إفراغها من محتواها. ومن هذه الزاوية يتعين إدخال تعديلات من شأنها تعزيز حقوق المعارضة في الدستور ، وأن تُنظم بموجب قانون عضوي ، مما يكرس هذه الحقوق بصورة فعلية قصد إعطاء مبدأ الفصل بين السلطات مضامينه الحقيقة الهادفة إلى تحقيق أنظمة ديمقراطية يُطبق فيها حكم الأغلبية دون تعسف وتُصان فيها حقوق الأقلية.

الهوامش

1. -Julie BENETTI, L'impact du fait majoritaire sur la nature du régime (Réflexions sur le régime parlementaire de la 4e république), **Petites affiches**, 10 juillet 2008 n°138, p, 20.

2. - دستور 1996 هو تعديل لدستور 1989 وافق عليه الشعب الجزائري في استفتاء 28 نوفمبر 1996 ، الجريدة الرسمية رقم 76 المؤرخة في 08 ديسمبر 1996 هذا الاخير عُدل 03 مرات بموجب القانون 02-03 المؤرخ في 10 افريل 2002 ، الجريدة الرسمية عدد 25 المؤرخة في 14 أفريل 2002 ، وبموجب القانون رقم 08-19 المؤرخ في 15 نوفمبر 2008 ، الجريدة الرسمية عدد 63 ، وبموجب القانون رقم 16-01 المؤرخ في 06 مارس سنة 2016 ، الجريدة الرسمية عدد 14 المؤرخة في 07 مارس 2016.

3. -Julie BENETTi, op, cit; p 20.

4. - Olivier Gohin, Droit **constitutionnel**, MANUEL, lexis Nexis,Litec, paris , 2010, p647.

5. -Julie BENETTi, op, cit; p 21.

6. - j. Gicquel et j.E.G Gicquel, **Droit constitutionnel et institutions politiques**, Montchrestien, 21e éd, 2007, p.126.

7. - أنظر المادة 80 من دستور 1996 قبل تعديله في 2008.

8. - أنظر المادة 94 من دستور 1996 " يقدم الوزير الأول مخطط عمل الحكومة إلى المجلس الشعبي الوطني للموافقة عليه. ويجري المجلس الشعبي الوطني لهذا الغرض مناقشة عامة.

9. ويمكن الوزير الأول أن يكيف مخطط العمل هذا ، على ضوء هذه المناقشة ، بالتشاور مع رئيس الجمهورية".

10. - أنظر المادة 93 من دستور 1996.

11. — الفقرة 03 من المادة 194 من دستور 1996.

12. - المادة 95 من دستور 1996 " يقد الوزير الأول استقالة الحكومة لرئيس الجمهورية في حالة عدم موافقة المجلس الشعبي الوطني على مخطط عمل الحكومة".

13. - أنظر: المادة 96 من دستور 1996.

14. - أنظر: المادة 94 فقرة 02 من دستور 1996.

15. - الأمين شريط ، عن واقع ووظيفة المسؤولية السياسية في أنظمة الحكم ، **مجلة الفكر البرلماني** ، مجلة متخصصة في القضايا والوثائق البرلمانية ، يصدرها مجلس الأمة ، العدد الثالث ، جوان 2003 ، ص84.

16. - مريد أحمد عبد الرحمن حسن ، **التوازن بين السلطتين التشريعية والتنفيذية — دراسة مقارنة** - ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 2006 ، ص828.

17. - وليد شريط ، السلطة التشريعية من خلال التطور الدستوري الجزائري ، أطروحة دكتوراه في القانون العام ، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان ، 2012 ، غير منشورة ، ص 318.

18. - حسن مصطفى البحري ، الرقابة المتبادلة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية كضمان لنفاذ القاعدة الدستورية ، دراسة مقارنة ، أطروحة دكتوراه ، جامعة عين شمس ، مصر ، 2006 ، غير منشورة ، ص 110.

19. - مُحَّد باهي أبو يونس ، **الرقابة البرلمانية على أعمال الحكومة في النظامين المصري والكويتي** ، دار الجامعة الجديدة ، 2002 ، الإسكندرية ، ص 54.

20. - أنظر المادة 151 من دستور 1996.

21. - أنظر المادة 101 من القانون العضوي 16-12 المؤرخ في 25 غشت 2016 ، يحدد تنظيم المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة وعملهما ، وكذا العلاقات الوظيفية بينهما وبين الحكومة **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، عدد 50.

22. - أنظر: المادة 134 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني الصادر في 13 غشت 1997 ، الجريدة **الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، عدد 53.

23. - المادة 99 من النظام الداخلي لمجلس الأمة ، الصادر في 22 غشت 2017 ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، عدد 49.

24. -LAVROFF: Le System politique Français, Dalloz. Paris, 1970, p.517.

25. - وليد شريط ، المرجع السابق ، ص348.

26. - المادة 151 فقرة 01 من دستور 1996 " يمكن أعضاء البرلمان استجواب الحكومة في إحدى قضايا الساعة "

27. - أنظر: المادة 66 من القانون العضوي 16-12.

28. - المادة 67 من القانون العضوي 16-12.

29. - ميلود ذبيح ، **الفصل بين السلطات في التجربة الدستورية الجزائرية** ، دار الهدى ، عين مليلة ،2007 ، ص127.

30. -عبد الحميد محجوب السقعان مُحَّد ، اللجان البرلمانية ، دراسة مقارنة ، رسالة دكتوراه في الحقوق ، جامعة القاهرة ، 2010 ، غير منشورة ، ص399.

31. - عمرو أحمد حسبو ، اللجان البرلمانية- دراسة مقارنة- مجلة روح القوانين ، مجلة تصدر عن كلية الحقوق جامعة طنطا ، العدد 10 ، يناير 1994 ، 78.

32. [1]- LAVROFF , op, cit, p.517.

33. - المادة 180 من دستور 1996.

34. -أنظر المواد: 77 ، 78 ، 79من القانون العضوي 16-12 ، المرجع السابق.

35. - المادة 86 من القانون العضوي 16-12.

36. - المادة 87 من القانون العضوي 16-12.

37. -أنظر لمزيد من التفصيل: سعيد السيد على ، **المسؤولية السياسية في الميزان، دراسة مقارنة** ، دار الكتاب المصرية ، القاهرة ، 2008 ، ص65.

38. - سعيد السيد على ، المرجع السابق ، ص 76.

39. -أنظر: الأمر 12-01 المؤرخ في 13 فبراير 2012 يحدد الدوائر الانتخابية وعدد المقاعد المطلوب شغلها في انتخابات البرلمان ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، عدد 08.

40. - المادة 154 فقرة02 من دستور 1996.

41. - المادة 186 فقرة 03 " كما يفصل المجلس الدستوري في مطابقة النظام الداخلي لكل من غرفتي البرلمان للدستور ، حسب الإجراءات المذكورة في الفقرة السابقة."

42. - أنظر: رأي رقم /02 ر.ن.د/ م.د/ 17/ المؤرخ في 25 يوليو 2017 ، يتعلق برقابة مطابقة النظام الداخلي لمجلس الأمة ، للدستور ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، عدد49.

43. - أنظر المادة 187 من الدستور.

44. - قانون عضوي 18-16 المؤرخ في 02 سبتمبر 2018 ، يحدد شروط وكيفيات تطبيق الدفع بعدم الدستورية ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، عدد 54 المؤرخة في 05 سبتمبر 2018.

45. -Julie BENETTI, la saisine parlementaire (au titre de l'article 61 de la constitution), DALLOZ, **les nouveaux cahiers du conseil constitutionnel**, 2013/1, N°38, p85.

46. -Julie BENETTI, op, cit, 88.

47. [1] أمين عاطف صليبا ، **دور القضاء الدستوري في إرساء دولة القانون" دراسة مقارنة"** ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، طرابلس لبنان ،2002 ، ص166.

48. - أنظر: المادة 187 من الدستور.

49. - أنظر: المادة 189 من الدستور.

50. - المادة 186 من الدستور.

51. - النظام المحدد لقواعد عمل المجلس الدستوري ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** ، عدد 26 المؤرخة في 11 ماي 2016.

انعكاسات المعايير البيئية على التجارة الخارجية للدول النامية

The Impacts of Environmental Standards on the Developing Countries' Foreign Trade

تاريخ الإرسال:01-05-2019 تاريخ القبول: 12-04-2020

نبيل بن موسى، جامعة محمد خيضر، بسكرة،
nbsetifuniv2@gmail.com
عبد الرزاق بن الزاوي، جامعة محمد خيضر، بسكرة
abenzaouiprof@gmail.com

الملخص

تحاول الورقة البحثية تسليط الضوء على آثار أحد أهم الحواجز غير التعريفية التي تواجه انسياب صادرات الدول النامية إلى أسواق الدول المتقدمة؛ وهي المعايير البيئية، حيث جرى تحريف تلك المعايير عن هدفها الأساسي عند حدود حماية صحة وسلامة الإنسان والحيوان والنبات، أي البيئة بشكل عام، وأصبحت أكثر الأدوات التجارية استخداما في العلاقات التجارية الدولية. كذلك، حاولت الدراسة الإجابة على الإشكالية الأساسية المتمثلة في: **ماهي انعكاسات تطبيق المعايير البيئية الدولية على التجارة الخارجية للدول النامية؟** وقد توصلت الدراسة، من خلال التطرق إلى التجارب العملية والدراسة القياسية، إلى إفراط الدول المتقدمة في فرض معايير محلية أكثر تشددا وأشد تمييزا، تعارضت في أغلب الحالات مع مبادئ وقواعد اتفاقات منظمة التجارة العالمية، وساهمت في عرقلة تدفق صادرات الدول النامية وتحويل التجارة من منتجيها، وتوفير حماية غير عادلة للمنتجين في الدول المتقدمة، من خلال تحميل المنتجين في الدول النامية تكاليف إضافية لتحقيق المواءمة مع معاييرها المحلية، ما أدى إلى تشوه التجارة الدولية وتآكل المنافع من التجارة التي جاءت بعد مفاوضات مضنية لتحرير التجارة استمرت لعقود، علاوة على زيادة الضغط على موازين مدفوعات الدول النامية وارتفاع احتمال التعرض إلى أزمة ميزان مديونية ثم أزمة عملة في ظل استمرار تركز التجارة الخارجية لها.

الكلمات المفاتيح: التجارة الدولية، الحواجز غير التعريفية، المعايير البيئية، الأزمات المالية.

Résumé

Le présent article à pour l'objectif d'étudier les effets de l'un des plus importants obstacles non-tarifaire faisant obstacle au flux des exportations des pays en développement vers les marchés développés, à savoir les normes environnementales. Ces normes ont été détournées de leur objectif principal, qui est de préserver la santé et la sûreté des personnes, des animaux et des plantes, afin de limiter le flux des importations. L'étude a tenté également de répondre à la problématique fondamentale : ***Quelles sont les impacts de l'application des normes environnementales internationales sur le commerce extérieur des pays en développement ?*** *Cependant, L'étude, par référence aux expériences pratiques et à l'étude économétrique, a révélé l'application excessive de normes nationales plus strictes et discriminatoires par les pays développés, afin de protéger les producteurs nationaux, en faisant charger les producteurs des pays en développement des coûts supplémentaires pour se conformer à leurs normes nationales, ce qui fausserait les échanges internationaux et réduirait les avantages découlant du commerce, tout en augmentant la pression sur la balance des paiements des pays en développement, ce qui peut entraîner une crise de la dette et, ensuite, une crise monétaire.*

Mots-clés : Commerce International, Obstacles Non-tarifaires, Normes Environnementales, Crises Financières.

Abstract

The present paper exerts light on the effects of one of the most important non-tariff barriers obstructing the flow of developing countries' exports towards the developed markets, namely the environmental standards. These standards have been diverted from their main objective, which is preserving the health and safety of human, animal, and plants, to restrict the flow the imports. Also, the study has endeavored to answer the main problematic: ***What are the impacts of applying international environmental standards on the foreign trade of developing countries?*** *By dealing with practical experiences and econometric study, the present study has revealed the excessive enforcement of more stringent and discriminatory domestic standards by the developed countries, in order to protect domestic producers, by burdening the producers in developing countries with additional costs to achieve the compliance with their domestic standards, leading to distorting international trade and eroding the benefits from trade, as well as increasing pressure on developing countries' balances of payments, which can result in debt crisis and, then currency crisis.*

Keywords : International Trade, Non-Tariff Barriers, Environmental Standards, Financial Crises.

مقدمة

حظي موضوع حماية السوق المحلي والشركات المحلية من منافسة المنتجات المستوردة باهتمام دول العالم على اختلاف درجة نموها وتطورها، وانعكس في تدابير وسياسات تجارية استهدفت إعاقة نفاذ المنتجات الأجنبية المنافسة إلى الأسواق المحلية بطريقة تمييزية.

مع تمكن العولمة من مفاصل الاقتصاد العالمي وتوجيهها للسياسات الاقتصادية الدولية، تبنت دول سياسات انفتاح اقتصادي ومالي.في سبيل حماية الأسواق المحلية من منافسة السلع الأجنبية والحفاظ على المراكز النسبية للقوى الاقتصادية في العالم، قامت الدول المتقدمة بابتكار تدابير وأنواع جديدة من القيود توفر لمنتجيها بعض الحماية في سياق الحمائية الجديدة، بإدخال المعايير البيئية في تجارة السلع، حيث تم ربط البيئة والصحة بالتجارة، وجرى تكييفها لاستخدامها بطرق متعددة لإعاقة صادرات الدول النامية التي تمتلك ميزات نسبية في كثير منها، الأمر الذي أضرّ بالقطاعات والصناعات التي تعتمد أساسا على وفورات الحجم لاكتساب الميزة التنافسية والاستمرار في المحافظة على حصتها في أسواق التصدير، كما عملت بفعالية على إلغاء المنافع المتأتية من تخفيض القيود الجمركية بعد عقود من الجهود المضنية لتخفيضها، ما أدى في النهاية إلى تراجع القدرات التنافسية لصادرات الدول النامية وتدهور موازين المدفوعات وتوفير الظروف لظهور الأزمات المالية التي تعصف بالاستقرار الاقتصادي، وترهن عملية التنمية الاقتصادية.

أخذت قضية الحفاظ على البيئة بعدا جديدا، مع قيام منظمة التجارة العالمية، حيث تم تدويلها وربطها رسميا بالتجارة الدولية. رغم اعتراض الدول النامية خلال جولات المفاوضات الكثيرة على ربط التجارة بالبيئة، إلا أن ضغط الدول المتقدمة، بقيادة الولايات المتحدة، التي تبنت فلسفة "كل شيء أو لا شيء"، قد أفلح في دمج اتفاق تدابير الصحة والصحة النباتية (Agreement on the Application of Sanitary and Phytosanitary Measures SPS) لسنة 1994في الاتفاقية العامة للتجارة في السلع لسنة 1947.

وانطلاقا من هذا، فان إشكالية الدراسة تتمحور حول:

ماهي الانعكاسات المختلفة المترتبة عن تطبيق المعايير البيئية الدولية على التجارة الخارجية للدول النامية ؟

يهدف هذا المقال إلى الإجابة عن الإشكالية من خلال البحث في النتائج المترتبة عن تطبيق المعايير البيئية، سواء تلك التي تضمنتها واعترفت بها اتفاقيات منظمة التجارة العالمية، أو الاتفاقيات متعددة وثنائية الأطراف، وحتى التدابير المحلية في الدول المتقدمة على تجارة الدول النامية الخارجية بما فيها الجزائر، من خلال إجراء دراسة قياسية بعد التطرق إلى بعض الحالات العملية.

أولا: المعايير البيئية الدولية ذات العلاقة بالتجارة

المعايير البيئية هي مواصفات واشتراطات دنيا تضعها الدول على المنتجات التي تمر عبر حدودها الجغرافية (الصادرة والواردة) لتحقيق أغراض حماية والحفاظ على بيئتها من مختلف أنواع التلوث التي قد تسبب اختلال التوازن البيئي والانسجام بين عناصرها.[1] ترى منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية أن مفهوم حماية البيئة لا بد أن يشمل وقاية المجتمعات البشرية والأنظمة البيئية من خطر التلوث الناتج عن النشاطات الإنسانية بطريق مباشر أو غير مباشر على نحو يؤدي إلى التأثير على أوجه الاستخدام المشروع للبيئة[2].

على الرغم من تكفل منظمة التجارة العالمية بتنظيم التجارة العالمية ومراقبتها، إلا أنّ مهندسي اتفاقياتها قد سمحوا للدول بالأخذ بمعايير إضافية تتفق عليها وتراها مناسبة. وفي هذا السياق، يمكن تقسيم المعايير البيئية الدولية ذات العلاقة بالتجارة إلى معايير قد حظيت باعتراف منظمة التجارة العالمية، ومعايير أخرى تضمنتها الاتفاقيات المتعددة الأطراف.[3]

1- المعايير البيئية في منظمة التجارة العالمية

بعد مفاوضات طويلة تخللها كثير من الخلافات والنقاشات السياسية، أدخل اتفاق تدابير الصحة والصحة النباتية ضمن ولاية منظمة التجارة العالمية (الملحق A1) التي تأسست في الفاتح من جانفي 1995 وضمت 164 عضوًا و23 حكومة ملاحظة بينها الجزائر إلى غاية أكتوبر 2019[4]. جرى تنصيب اللجنة

الدائمة للتجارة والبيئة في سنة 1995، وهي المنبر الرئيسي للمناقشات والمفاوضات بشأن الانعكاسات التجارية للتدابير التي تتخذها الدول لأغراض حماية صحة وسلامة الإنسان والنبات والبيئة بشكل عام[5].ومع ذلك، ظلت المناقشات في هذه اللجنة مجرد عملية تقييم لتدابير السياسات التجارية الداخلية وقليلا ما تتضمن تقاريرها مقترحات محددة، وهو ما دفع بعض الأطراف كالاتحاد الأوروبي إلى الاتجاه لدعم الاتفاقات متعددة الأطراف وتبني تدابير وسياسات تجارية قد تضر بمصالح أطراف أخرى، الأمر الذي نتج عنه ارتفاع عدد النزاعات التجارية على مستوى هيئة فض النزاعات التابعة لمنظمة التجارة العالمية[6].

خلال مفاوضات جولة أورجواي لتحرير التجارة الدولية المتعددة الأطراف، ترسخت العلاقة بين البيئة والتجارة أكثر حين قامت الولايات المتحدة في سنة 1991 بحظر استيراد التونة من المكسيك لدواعي حماية الثدييات البحرية متجاهلة كل قواعد اتفاقية الجات، أدى ذلك إلى فتح الجدل حول قضايا البيئة والتجارة وزاد من معارضة الدول النامية طيلة مراحل المفاوضات، التي أبدت مخاوفها من عواقب ربط البيئة والتجارة على تجارتها الخارجية، إضافة إلى عواقب انخفاض الرسوم الجمركية وتراجع الدعم المقدم لمنتجيها ومزارعيها المحليين والتي تدفع الحكومات إلى زيادة الاعتماد على الحواجز غير الجمركية وخاصة التدابير الصحية والصحة النباتية لحماية منتجيها، وخلق ريع اقتصادي لهم.[7]

وعليه، تؤدي التدابير إلى خلق وتوسيع الفجوة بين الأسعار المحلية والعالمية، تلك الفجوة عادة ما تتمثل في تكاليف الامتثال التي تلقي بظلالها على أسعار السلع الاستهلاكية والفقر وتوزيع الدخل، ولاسيما في الأسواق الصغيرة حيث يسود احتكار القلة في السلع البديلة من جهة، وتتراجع تنافسية المنشآت المحلية نتيجة ارتفاع أسعار السلع الوسيطة من جهة أخرى[8].

في سبيل احتواء المعارضة التي كادت أن تفشل الجولة وتبديد هذه المخاوف. اتفقت الأطراف المتفاوضة في مؤتمر مراكش لسنة 1994 على إنشاء لجنة التجارة والبيئة في سنة 1995 لبحث كافة جوانب الموضوع والنظر في احتياجات الدول النامية ومشاكلها، مع وضع آلية لتسوية النزاعات. وعموما، يمكن القول: إن المفاوضات المتعلقة بالبيئة في منظمة التجارة العالمية قد أثمرت عن قواعد وتدابير ليست بدرجة التعقيد والتشدد كتلك الخاصة بالاتحاد الأوروبي واتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (النافتا).[9] ترتكز هذه الاتفاقيات الإقليمية على ثلاث مبادئ هي: عدم التمييز والشفافية والتناسبية.[10]

رغم مرور أكثر من عقدين على إنشاء منظمة التجارة العالمية وتنصيب لجنة التجارة والبيئة، إلا أن ربط البيئة والتجارة لا زال موضوعا خلافيا بين الدول المتقدمة والنامية لعدة أسباب، أهمها:

- استمرار الدول المتقدمة في استخدام الإجراءات والتدابير البيئية الرامية إلى حماية صحة وسلامة الإنسان، الحيوان والنبات والحفاظ على مكونات البيئة بشكل تمييزي غير شفاف لإعاقة تدفق صادرات الدول النامية من السلع والخدمات.[11]يؤدي افتقار الشفافية إضافة إلى تكلفة الحصول على المعلومات وزيادة حدة عدم تماثل المعلومات والخطر المعنوي بين البائع والمشتري إلى إثقال كاهل المنتجين الأجانب الراغبين في تصدير منتجاتهم، ويصعب عليهم اتخاذ قرارات تجارية فعالة، خاصة بالنسبة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة الحجم الأقل قدرة على تحمل تكلفة الحصول على المعلومات، ما يضعف وضعها التنافسي أمام الشركات الأجنبية، كما أن نقص الشفافية وعدم الإفصاح عن المعلومات عادة ما يصعب على الدول الأخرى تبني لوائح تنظيمية مناسبة وتصميم أنظمة أكثر صلة للامتثال ويرفع من العبء البيروقراطي والسياسي[12].

- قيام الدول الصناعية المتقدمة بتطبيق مقاييس وسن لوائح وتشريعات بيئية أكثر صرامة مستفيدة من ترخيص اتفاق الصحة والصحة النباتية باتخاذ أي إجراء من شأنه حماية صحة وسلامة الإنسان والحيوان والنبات دون تحديد لتلك الإجراءات، وتكتلها مما أدى في كثير من الحالات إلى نشوب نزاعات تجارية ظهر أثرها في الجولات المتعددة الأطراف التي تلت جولة أورجواي التي بلغ عددها أحد عشر مؤتمرًا وزاريًا، هي: سنغافورة 1996، جنيف

1998، سياتل 1999، الدوحة 2001، كانكون 2003، وهونغ كونغ 2005، جنيف 2009 ، جنيف 2011، بالي 2013، نيروبي 2015، وبيونس ايرس 2017.[13]

استمرت العلاقة بين المعايير البيئية والتجارة في تصدر النقاشات السياسية وكانت بؤرة توتر دائم بين الدول المتقدمة والنامية ، أدت إلى فشل مؤتمر سياتل 1999 جزئيا بسبب الخلافات العميقة حول ربط الأداء البيئي بالقدرة التنافسية للصادرات[14]. وقد أدت المشاكل العديدة والمتراكمة عن تنفيذ اتفاقات أوروجواي وعلى رأسها ربط التجارة بالبيئة إلى إطلاق جولة الدوحة للوصول إلى مزيد من تحرير التجارة الدولية لإنعاش النمو الذي تأثر سلبا بأحداث 11 سبتمبر 2001، وإزالة العراقيل أمام تدفق السلع إلى الأسواق العالمية ، ومنها تدابير حماية صحة وسلامة الصحة الإنسانية والحيوانية والنباتية[15]، غير أن الجولة فشلت وعلقت في جويلية 2006 ومعها كل المفاوضات اللاحقة في الوصول إلى اتفاق حول تلك التدابير [16].يوضح الشكل التالي تطور عدد التدابير الصحية والصحة النباتية في العالم منذ قيام منظمة التجارة العالمية:

شكل رقم(01): عدد تدابير الصحة والصحة النباتية في الفترة 1995-2015.

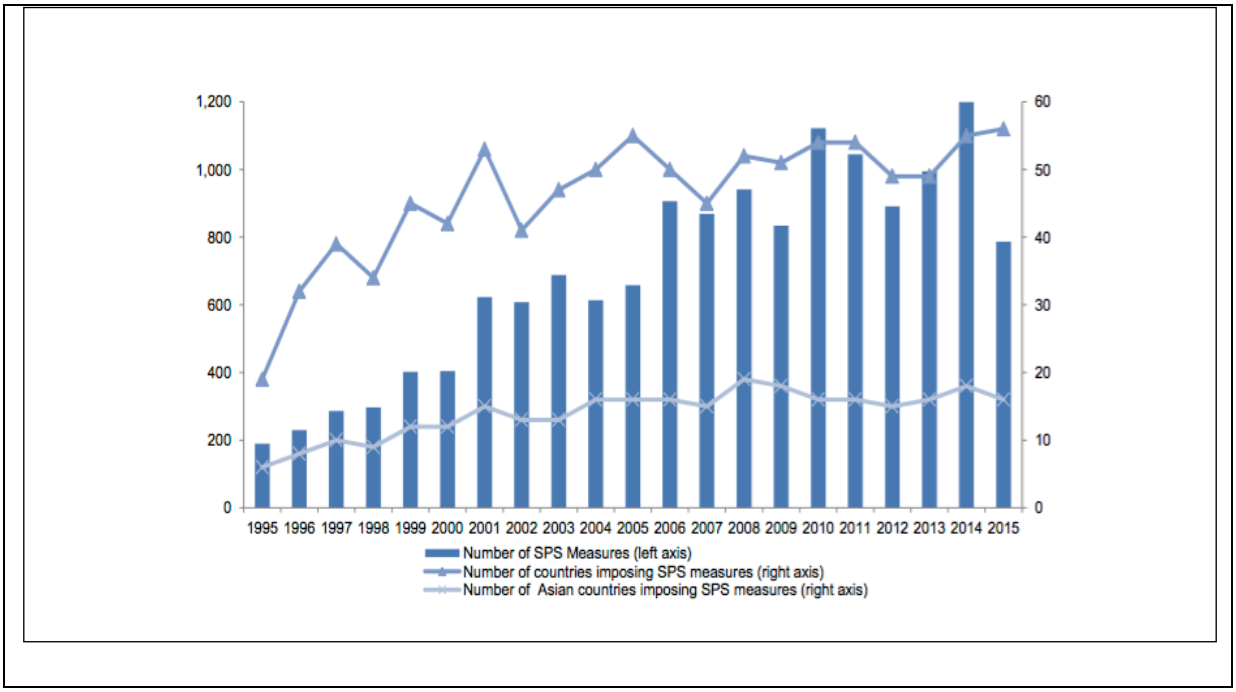

Source: Jong Woo Kang & Dorothea Ramizo, Impact of Sanitary and Phytosanitary Measures and Tachnical Barriers on International Trade, Asian Development Bank, Munich Personal RePEc Archive, July 2007, P. 26.

لقد كان الهدف المتفق عليه من وضع اتفاق الصحة والصحة النباتية هو وضع معايير دولية منسقة تكون إطارا عاما لإعداد تدابير لحماية حياة وصحة الإنسان والحيوان والنبات من التأثيرات السلبية للأنشطة الاقتصادية والتجارة. ولذلك ، نصحت الدول الأعضاء باعتماد مقاييس وإرشادات وتوصيات الهيئات والمنظمات الدولية المختصة في مجال البيئة والتجارة بما يتوافق مع الإطار العام للاتفاق.[17]يهدف التناسق إلى مساعدة الدول على ضمان سلامة الأغذية من اجل صحة وحياة الإنسان ، الحيوان والنبات ، وتيسير التجارة من خلال تنسيق المعايير بشكل يعمل على توفير معلومات مفيدة للشركات المصدرة عن الأسواق.[18]تعتبر كلا من المنظمة الدولية للمقاييس ، لجنة كودكس أليمانيتاريوس ، المكتب الدولي للأوبئة الحيوانية والذي تحول في ماي 2003 إلى المنظمة العالمية للصحة الحيوانية ، وأمانة الاتفاقية الدولية لوقاية النباتات ، الهيئات الدولية التي حظيت باعتراف منظمة التجارة العالمية ، حيث تضم المنظمات الثلاثة عددا كبيرا من الدول والمنظمات المحلية[19].

استهدف من الموائمة الدولية لتدابير الصحية وتدابير

- تسهيل التجارة الدولية بين الدول النامية ونظيرتها المتقدمة ، حيث تكون المنتجات تلبي نفس المعايير ولا يحتاج المنتجون إلى معرفة مسبقة بالأسواق الوطنية لمنتجاتهم ،
- تعزيز الكفاءات والسماح لاقتصاديات الحجم ، حيث لا يحتاج المنتجون إلى تجزئة العملية الإنتاجية وتصميم وتصنيع العديد من الإصدارات والنماذج لنفس المنتج لاستيفاء مواصفات محددة.
- توفير أساس علمي وفني سليم للتدابير المتخذة لتحقيق أهداف السياسة المتعلقة بالغذاء.
- مساعدة الحكومات في وضع تدابير الصحة والصحة النباتية المستندة على العلم ، لضمان سلامة الأغذية وصحة الحيوان والنبات دون الحاجة إلى إجراء تقييمات المخاطر بنفسها.
- توفير الأساس لإجراءات تقييم المطابقة (مثل الاختبار أو الفحص أو الاعتماد) التي تستخدمها الحكومات لضمان احترام متطلبات المنتج للسلامة أو الأهداف الأخرى.
- نشر التكنولوجيا.
- تخفيض التكاليف على المستهلكين وزيادة رفاهم من خلال توفير منتجات آمنة ، تخفيض تكاليف المعاملات ، تقليل عدم التأكد بشأن سلامة الأغذية المقدمة ، وزيادة مرونة الاستبدال بين نفس السلع المنتجة في دول مختلفة.

وبذلك ، تقل حاجة الدول فرادى لتطوير وتبرير التدابير الخاصة بها التي قد تكون غير متوافقة مع معايير محددة معترف بها من منظمة التجارة العالمية ، والحد من النزاعات والاستفادة من الفرص التجارية الدولية. وفي هذا الصدد ، تعد الدول المتقدمة أكثر أعضاء اللجنة نشاطا ، في حين لازالت مشاركة الدول النامية ، رغم تزايدها الملحوظ ، أقل من مستوى المجموعة الأولى ، أما الدول الأقل نمواً فلديها مستوى جد منخفض من المشاركة ، مما يبعدها عن صناعة الأحداث ويجعلها بعيدة عن مستجدات الأسواق ويعرض صادراتها إلى الحجز والرفض ، خاصة المنتجات الزراعية والغذائية التي تحتل مكانة اقتصادية واجتماعية هامة ، خاصة وأن المنتجين والمشاريع الصغيرة والمتوسطة في الدول النامية والأقل نموا غالبا ما تحوز قدرات ضعيفة للتكيف مع المتطلبات البيئية والصحية الجديدة ، والتغلب على تحديات الوصول إلى المعلومات ، والوصول بصادراتهم الغذائية إلى الأسواق ، حيث تتلقى منظمة التجارة العالمية سنويا أكثر من 3500 إخطار متعلقة بتدابير الصحة والصحة النباتية ، فيما تلقت 24196 إخطار إلى غاية يوم 08 أكتوبر 2019.[20]

الصحة النباتية والحيوانية:

يرجع ضعف مشاركة الدول النامية في تنفيذ الاتفاقات الصحية والبيئية إلى عدة أسباب: ارتفاع تكلفة إقامة المؤسسات المناسبة ، افتقارها للمصادر العلمية والتقنية والقانونية من معارف متخصصة في القانون الدولي اللازمة لتنظيم أو الدفاع في حالة نشوب خلاف والاستفادة من نظام فض النزاعات ، الأمر الذي يضعها في حاجة إلى توكيل محامين دوليين بتكاليف باهظة[21].

وعلاوة على معايير تلك المنظمات ، سمح اتفاق تدابير الصحة والصحة النباتية للدول الأعضاء باتخاذ أي تدابير محلية قد تكون أكثر تشددا وصرامة (مستوى تسامح صفري) لحماية صحة وسلامة الإنسان والحيوان والنبات من أي مخاطر محتملة (مبدأ التحوط) في غذائه أو محيطه ، فاتفاق الصحة والصحة النباتية لم ينص على مجموعة محددة من السياسات الموجهة لضمان سلامة الأغذية والصحة التي يتعين على الحكومات إتباعها ، وبدلا من ذلك اكتفى الاتفاق بوضع إطار من القواعد والمبادئ التوجيهية والتوصيات لتحقيق التوازن بين حقوق الدول الأعضاء في اعتماد ما يضمن سلامة الأغذية والحد من الآثار غير الضرورية لهذه التدابير على التجارة ، حيث يعد ذلك أحد ثغرات الاتفاق التي أدت إلى مستوى عالي من الحماية التمييزية. تقضي القواعد بأن:

1- لا تطبق التدابير إلا على المدى اللازم لحماية صحة وسلامة صحة الإنسان والحيوان والنبات[22].

2- أن لا تطبق التدابير بطريقة تمييزية استنادا إلى مبررات على وجود مخاطر تنشأ عن عدم العمل بتلك التشريعات.[23]

3- عدم تعارض التدابير مع المعايير الدولية والمبادئ التوجيهية التي وضعتها المنظمات الدولية ذات الصلة بما في ذلك لجنة كودكس ، المكتب الدولي للأوبئة

الحيوانية والمنظمات الدولية والإقليمية الأخرى العاملة في إطار الاتفاقية الدولية لحماية النباتات، دون مطالبة الأعضاء بتغيير مستواها المناسب من حماية حياة أو صحة الإنسان، الحيوان والنبات.[24]وفي هذا السياق، يأخذ في الاعتبار في تقييم المخاطر الأدلة العلمية المتاحة فقط ويكون الغرض منها تقليل التكلفة. كذلك، يغطي الاتفاق جميع أنواع التدابير الممكنة لتحقيق أغراضها من الحماية والوقاية في مراحل ووسائل الإنتاج، مقاييس الإنتاج النهائي، طرق التجهيز والإنتاج، الاختبار والمعاينة، إجراءات التصديق، الموافقة والمعالجة بالحجر الصحي، متطلبات نقل الحيوانات أو النباتات والمواد المتعلقة لبقائها على قيد الحياة أثناء نقلها، متطلبات التعبئة والملصقات المبينة للمحتويات والمرتبطة بسلامة المواد الغذائية ومصادقتها للبيئة وغيرها[25].

4- أن تكون التدابير تناسبية، أي أن الأداة المختارة ينبغي أن تكون أقل تقييدا للتجارة من بين الأدوات القابلة للتنفيذ.

5- أن تكون التدابير ضرورية لتحقيق هدف سياسة مشروعة، حيث يتعين تقديم الإثبات.[26]

تعد الدول الأقل نموا أكثر عرضة لتدابير الدول المتقدمة التجارية تحت ستار حماية البيئة، نتيجة تراخي السياسات البيئية فيها والذي أهلها لجذب الصناعات الملوثة (فرضية ملاذ التلوث Haven Pollution)، الأمر الذي يجعل من صادراتها عرضة لحظر الدخول ويفقدها تنافسيتها وحصتها السوقية لصالح منتجات الدول المتقدمة.[27] وتزداد حدة انعكاسات تدابير ومعايير الدول المتقدمة البيئية على الدول النامية مع تخصص أغلبها في استخراج أو إنتاج عدد جد محدود من المنتجات، مع تركز جغرافي لصادراتها، ما يجعلها رهينة سياسات الدول المتقدمة.[28]

ولتحقيق الشفافية في اعتماد معايير الصحة والصحة النباتية، اشترط اتفاق التدابير الصحية والصحة النباتية على أي عضو في منظمة التجارة العالمية يقترح لائحة أو تنظيم جديد أو يرغب في تعديل لائحة أن يخطر أمانة المنظمة قبل تنفيذه، والتي بدورها تقوم بنشر الإخطار إلى باقي الأعضاء من الحكومات لتفويت أي فرصة لإثارة المخاطر، وقد يتم التغاضي عن هذه العملية في حالة الطوارئ الصحية والسلامة شريطة إبلاغ أمانة المنظمة فورا[29]. غير أن نظام الإخطار، على الرغم من إلزاميته، يعاني، إضافة إلى انخفاض معدلات الامتثال، من عدد من نقاط الضعف منعته من الاضطلاع بالدور الذي يمكن أن يؤديه بوصفه المصدر الرسمي للمعلومات عن الأنظمة التجارية ذات الصلة التي تفرضها الدول الأعضاء، أهمها:

1- متطلبات الإخطار تفرض انضباطا ضعيفا من حيث كيفية الإخطار بغياب الوصف الدقيق للمنتجات التي تنطبق عليها، وأحيانا يتم وصف التدابير بعبارات فضفاضة وبدون تحديد أجل معين لتطبيق الإخطارات، مما يصعّب تقييم تلك التدابير ومقدار العبء الذي يتحمله المنتجين والتجار.

2- ترتكز عديد التدابير البيئية الوطنية على قوانين تعود إلى فترة زمنية طويلة، جرى تنقيحها بإضافة أحكام جديدة مما يغير من تأثيرها.

3- تصنيف التدابير التي تستخدمها منظمة التجارة العالمية غير متطابق وأقل شمولية بكثير من الذي تستخدمه منظمات دولية أخرى، مما يصعّب المقارنة والتحقق من إخطارات منظمة التجارة العالمية.[30]

4- من خلال الإخطار، فإن الدول تعرّض نفسها للكشف والنقد ولتدابير تجارية انتقامية من دول أخرى قد توقف تدفق صادراتها، علاوة على غموضها الشديد في صياغتها بما لا يسمح باستغلالها في أغراض إحصائية.[31]

تعتبر المعايير البيئية المعتمدة من منظمة التجارة العالمية كثيرة ومتشعبة، غير أنه يمكن تصنيفها إلى ثلاث معايير رئيسية، هي:

1- العنونة أو العلامة البيئية: تتمثل في العلامات التي توضع على المنتج بهدف تعريف المستهلك بالمزايا البيئية لاستخدام المنتج وطريقة إنتاجه الصديقة للبيئة. وعليه، فمن المتوقع أن تمكّن المستهلك من تمييز المنتجات المتوافقة والصديقة للبيئة فيرتفع الإقبال عليها ويقل على تلك غير الحاملة للعلامة البيئية التي قد تكون مضرة بالبيئة، فالغرض الأساسي للعلامة البيئية هو إمداد المستهلك بمعلومات عن المنتج الذي بين يديه وتأثيراته البيئية وظروف إنتاجه، وأول معلومة يحتاجها عن المنتج هل هو طبيعي أو معدل وراثيا لما في ذلك من آثار مباشرة على صحة المستهلك.[32]

2- طرق الإنتاج: يطلق عليها كذلك عنونة طرق إنتاج المنتج المتوافق بيئيا، حيث تعتبر من المسائل المثيرة للنقاش في سياق علاقة التجارة بالبيئة (طريقة إنتاج المنتج)، فالمنتج يمكن إنتاجه بطرق عديدة، ولطرق الإنتاج المتبعة تأثيرات مختلفة على حياة الحيوان والنبات والإنسان وعلى معدلات التلوث واستخدامات الطاقة.[33] كذلك تشمل طرق الإنتاج جودة الغذاء المقدم إلى المستهلك[34].

3- اشتراطات التعبئة: تعتبر هاته الاشتراطات من بين العوائق التي تقف ضد تدفق صادرات كثير من الدول النامية كونها تعتمد على خامات لا تتوفر عند الكثير منها، ما يحتم عليها استيرادها ويرفع من تكلفة الإنتاج ويضعف من تنافسيتها في الأسواق الدولية، فالدول المتقدمة المستوردة تشترط أن تتوفر العبوات على مرافق لتصريفها والتخلص منها؛ فمثلا يشترط الاتحاد الأوروبي معايير في العبوات تعتمد على دورة حياة المنتج وسياسات إدارة المخلفات، فيشترط مراعاة أن تكون سهلة التدوير، وأن يحظر استخدام المعادن الثقيلة والمكونات الخطرة في إنتاجها، والخضوع لسياسات إدارة المخلفات[35].

2- المنظمات الدولية المتخصصة المعترف بهاوالاتفاقيات الدولية في مجال حماية البيئة

أ- **المنظمة الدولية للمقاييس (International Organization for Standardization ISO):** تعتبر معايير المنظمة الدولية للمعايير التي انضمت إليها الجزائر من أكثر المعايير البيئية ذات العلاقة بالتجارة المعتمدة من منظمة التجارة العالمية، التي تلح علىأعضائها من الدول بالأخذ بها عند تبادل المنتجات بينها وعند صياغة سياستها التجارية.[36]تصنف المنظمة الدولية العلامات البيئية إلى أنواع ثلاثة أنواع[37]:

- عنونة طريقة الإنتاج: وفيه تقارن العلامة بين المنتجات من نفس الفئة، فلا تمنح العلامة إلا للمنتجات الصديقة للبيئة خلال جميع مراحل دورة حياة المنتج، وتتم مراقبة العلامة من خلال الشهادات.
- عنونة المنتج: وفيه يكون للمنتج أو المستورد أو الموزع الحق في تسويق منتجاته على أنها صديقة أو متوافقة بيئيا (منتجات خضراء وصديقة للبيئة).
- أما النوع الأخير فيتضمن قائمة بالتأثيرات البيئية للمنتج خلال دورة حياته وبعد التخلص منه؛ مثل معدلات انبعاث المواد المضرة بالبيئة خلال مرحلة إنتاجه وكذلك أثره على البيئة بعد استخدامه وتحلله.[38]

أما فيما يخص المعايير البيئية، فتصنفها المنظمة إلى:

- معايير لضمان جودة البيئة، تشمل وصفا عاما لحالة البيئة.
- معايير الانبعاث، التي تحدد كمية الانبعاث المسموح به، حيث إنّ لهذه المعايير أثرا كبيرا ومباشرا على عملية الإنتاج، فمن السهل التحكم في الإنتاج عن اختراع وسائل للتنقية.
- معايير المنتج، أي وضع معايير بيئية تبدو ضرورية لتجنب إحداث أي أضرار بيئية من ناحية الاستخدام أو التخلص من المنتج بعد استخدامه، وعادة ما تستهدف حماية صحة الإنسان.
- معايير الأداء، وهي معايير للتقييم ولتحسين إدارة البيئة.
- معايير خاصة بعملية الإنتاج، وتحدد كيفية الإنتاج وأثر ذلك على البيئة.[39]

منذ مباشرة نشاطها رسميا في 23 فيفري 1947، دأبت المنظمة على إحداث تغييرات دورية على سلسلة مواصفاتها القياسية لتطويرها وجعلها أكثر فعالية ومرونة، تضمن من خلالها المنتجات والخدمات الآمنة والموثوقة بنوعية جيدة لتوجيه وإرشاد المؤسسات على اختلاف أحجامها ونشاطاتها على التعامل مع قضايا البيئة وإدارتها داخليا، ما يسمح لها بوضع سياسة واضحة المعالم لإدارة بيئية فعالة تراعي القوانين البيئية السائدة. تعتبر معايير المنظمة أدوات إستراتيجية تمكّن الشركات من خفض التكاليف من خلال تقليل النفايات والأخطاء مع تحسين الإنتاجية، كما تساعدها على الوصول إلى الأسواق وكسب ثقة المستهلك، وتسمح بإقامة مجال متكافئ للبلدان النامية وتيسير التجارة الحرة والعادلة في جميع أنحاء العالم، فقد بلغت عدد المعايير الدولية والمنشورات ذات الصلة 22808معيارًا وذلك إلى غاية يوم 08 أكتوبر 2019 تغطي تقريبا كل قطاعات الصناعة من التكنولوجيا إلى سلامة الأغذية، ومن الزراعة إلى الصحة.[40]

رغم المكاسب الداخلية والخارجية المتوقع جنيها من العمل بمعايير المنظمة (الحصول على شهادات المطابقة) إلا أن متطلبات نظام الإدارة البيئية والذي تم تحديثه في نسخ عديدة من مواصفات المنظمة قد لا يكون في متناول كل المؤسسات، خاصة تلك التي تنشط في العالم النامي التي تعاني من:

– محدودية الوسائل المالية لوضع البرامج، ومتأخرة في مجال امتلاك والتحكم في التكنولوجيات الحديثة المطلوبة لإنتاج منتجات صديقة للبيئة تلبي مواصفات الجودة، خاصة وأن 80% من أنشطة البحث والتطوير المطلوبة للأغراض البيئية -وهي مفتاح اكتساب التكنولوجيا والدراية الفنية- تجري في 10 دول متقدمة تحت إدارة شركات متعددة الجنسيات.

– نقص الكفاءات المؤهلة والمدربة.[41]

– انخفاض الوعي البيئي نتيجة صغر حجم الشركات ما يعيق الوحدات الإنتاجية في الدول النامية على الامتثال لمعايير المنظمة وإرضاء المستهلكين في الدول المتقدمة، ويعرض صادراتها إلى الحجز (Detention) أو الرفض والرد (Rejection) عند وصولها حدود الدول المتقدمة.[42]يترتب على هذه الحالات إساءة لسمعة الدولة وخسائر معتبرة للمنتج أو المصدر من فقدان قيمة البضاعة، وتحميله تكاليف النقل والتأخير في دخول المنتجات وتكاليف التصدير وإعادة التصدير الأخرى أو إفناء البضاعة.[43]

إن عجز الدول النامية عن الوفاء بمتطلبات نظام الإدارة البيئية يعطي الدول المتقدمة التي أسست معاييرها القومية على معايير المنظمة الحجّة لفرض مزيد من القيود على تدفق صادرات الدول النامية، علاوة على إمكانية امتناع المنظمة بضغط من الهيئات الوطنية للدول المتقدمة عن تقديم شهادات المطابقة "الإيزو" للدول النامية، ما يعني عمليا حرمان صادراتها من ولوج أسواق الدول المتقدمة[44].

ب- **الاتفاقية الدولية لوقاية النباتات (International Plant Protection Convention IPPC) لعام 1951:** جاءت الاتفاقية الدولية لوقاية النباتات التي انضمت إليها الجزائر لتساعد على:

- حماية المزارعين من تفشي الآفات المدمرة اقتصاديا.
- تأمين الغذاء.
- حماية البيئة من خسارة تنوع الكائنات.
- حماية النظم الايكولوجية من فقدان الصلاحية والوظيفة نتيجة غزو الآفات.
- حماية الموارد النباتية المزروعة والبرية من انتشار الآفات نتيجة لتغير المناخ.
- حماية الصناعات والمستهلكين من تكاليف مكافحة الآفات والقضاء عليها.

تقضي الاتفاقية بأن تتشارك كل الأطراف المتعاقدة في نفس الهدف والمتمثل في حماية الموارد النباتية المزروعة والطبيعية في العالم من انتشار وإدخال الآفات النباتية، مع التقليل من التدخل في الحركة الدولية للسلع والأشخاص. ولتحقيق ذلك، توفر الاتفاقية إطارا دوليا لحماية النبات يتضمن معايير دولية لتدابير الصحة النباتية لحماية الموارد النباتية الضرورية. وقد تم اعتماد الاتفاقية في 1951 من مؤتمر منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة، ودخلت حيز التنفيذ في سنة 1952 لتحل محل الاتفاقات السابقة في المجال، ثم نقحت في سنة 1979 ودخلت التعديلات حيز التنفيذ في سنة 1991، غير أن التنقيح الرئيسي حيث حدّثت الاتفاقية وعزّزت جاء في سنة 1997 حين جرى مواءمة الاتفاقية مع اتفاق الصحة والصحة النباتية. وعليه، فقد أصبحت الاتفاقية توفر إطارا ومنتدى للتعاون الدولي والمواءمة والتبادل التقني بين الأطراف المتعاقدة[45].

تساهم الاتفاقية في تسهيل التبادل التجاري، حيث تسمح للأطراف المتعاقدة بالحصول على ضمانات، من خلال شهادة الصحة النباتية التي تصدرها والتي تشهد للواردات من المنتجات الزراعية والنباتية بخلوها من الآفات الجديدة. يكمن الفرق بين الاتفاقية الدولية لوقاية النباتات واتفاق الصحة والصحة النباتية في أن الأولى تضع أحكاما للتجارة في إطار اتفاق حماية النبات، في حين أن الثانية تنص على حماية النباتات في إطار اتفاق تجاري. ومع ذلك، فإن الاتفاقية الدولية لوقاية النباتات تكمّل اتفاق الصحة والصحة النباتية، من خلال توفير معايير دولية تستند عليها جميع الدول في صياغة تدابيرها للصحة النباتية وتكون لها أساس علمي،

تضمن عدم استخدامها كحواجز تجارية غير مبررة.[46]وإلى غاية نهاية سنة 2017، بلغ عدد معايير تدابير الصحة النباتية الدولية التي تتبناها الاتفاقية 41 معيارا.[47]

ت- **لجنة كودكس أليمانيتاريوس (Codex Alimentarius Commission CAC):** لجنة كودكس هي منظمة دولية فرعية لمنظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة FAO ومنظمة الصحة العالمية WHO، تتولى تنسيق وتطوير معايير دولية للأغذية لتحقيق أهداف حماية صحة المستهلكين وضمان ممارسات عادلة في تجارة الأغذية، حيث أثبتت أنها الأكثر نجاحا في تحقيق التنسيق الدولي لمتطلبات جودة وسلامة الأغذية. وضعت اللجنة معايير دولية لمجموعة واسعة من المنتجات الغذائية ومتطلبات محددة، إضافة إلى مبادئ توجيهية وتوصيات لتعزيز جودة الأغذية وسلامتها.[48]

تعتبر معايير اللجنة حصاد المواصفات القياسية العالمية للصناعات الغذائية التي طبقت في مجال الجودة، فهي نتاج مجهودات سنوات عديدة من القياسات التي تمت بناء على اتفاقات متعارف عليها دوليا؛ كمنظمة الأغذية والزراعة ومنظمة الصحة العالمية لأغراض الحفاظ على صحة المستهلكين وتسهيل التبادل التجاري والآمن في مجال الأغذية ومشتقاتها (Biotechnology)، ويرجع الفضل في وضع المواصفات الغذائية لجهود لجنة كودكس التي تأسست في سنة 1962 من طرف المنظمتين الدوليتين كجزء من برنامج المعايير الدولية للأغذية المشترك بينهما أوكلت إليها مسؤولية تنفيذه[49].

ومع قيام منظمة التجارة العالمية أصبح لمواصفات اللجنة بعدٌ عالميٌ، فقد شجعت المنظمة الدول الأعضاء ومنها الجزائر على الاستعانة بمواصفات اللجنة عند وضع السياسات والبرامج في إطار نظامها الوطني لمراقبة الأغذية، خاصة وأن معايير اللجنة تغطي عددا كبيرا من الموضوعات الحيوية ذات الصلة بالأغذية ومن ثم صحة الإنسان والحيوان والنبات، وبمواصفات المنتجات الغذائية المختلفة، علاوة على قواعد النظافة وقواعد ممارسات تصنيع السلع وطرق التحليل وأخذ العينات، ونظام تحليل المخاطر ونقطة التحكم الحرجة. كذلك، تغطي اللجنة جميع الأغذية الأساسية (المصنعة أو شبه المصنعة أو الخام) باستثناء السلع الطازجة سريعة التلف التي لا تتحرك ضمن نطاق التجارة الدولية. وعليه، تعد مواصفات لجنة كودكس مرجعا هاما وواسعا يمكن للدول الاستعانة بها في سن القوانين واللوائح المحلية المحددة لمواصفات المواد الغذائية[50].

ث- **المكتب الدولي للأوبئة الحيوانية (Office International des Epizooties OIE):** أدت الحاجة إلى مكافحة الأوبئة الحيوانية المعدية على المستوى العالمي إلى توقيع اتفاقية دولية في 25 جانفي 1927 لإنشاء المكتب الدولي للأوبئة الحيوانية، تحول في ماي 2003 إلى المنظمة العالمية للصحة الحيوانية التي تعد الجزائر عضوا فيها. حظيت الاتفاقية باعتراف منظمة التجارة العالمية كمنظمة مرجعية في كل ما تعلق بمعايير الصحة الحيوانية والأمراض الحيوانية المنشأ والتي تنتقل إلى البشر. للمنظمة مساهمة فعالة في حماية التجارة العالمية وتنميتها من خلال نشر المعايير الصحية للتجارة الدولية في الحيوانات البرية (الثدييات، الزواحف، الطيور، والنحل) والمائية (البرمائيات، القشريات، الأسماك، والرخويات) ومنتجاتها، حيث تقوم بمراجعة وتنقيح المعايير وتطوير وثائق معيارية تتعلق بالقواعد التي يمكن للدول الأعضاء استخدامها لحماية نفسها من إدخال الأمراض ومسببات الأمراض دون اللجوء إلى وضع حواجز صحية غير مبررة تعرقل السير الطبيعي لتجارة الحيوانات البرية والمائية ومنتجاتها.[51]بلغ عدد المعايير التي تبنتها المنظمة بنهاية سنة 2018ما مقداره389 معيارا، منها 85معيارًاتبنتها في نفس السنة تتعلق بالحيوانات البرية والمائية.[52]

3- الأحكام التجارية في الاتفاقات البيئية المتعددة الأطراف: ترى لجنة التجارة والبيئة أن الطريقة المثلى لمعالجة مشاكل البيئة الدولية يجب أن تتم من خلال اتفاقيات بيئية متعددة الأطراف، على أن تكون متناسقة مع اتفاقات وبنود منظمة التجارة العالمية، حيث أن أكثر من 200 اتفاقية متعددة الأطراف تتضمن أغلبها أحكاما تجارية.[53] وبشكل عام، لم تعترض منظمة التجارة العالمية على تلك الاتفاقات على الرغم من طبيعتها الإلزامية للأطراف الموقعة عليها فقط. رغم أهمية تلك الاتفاقيات على صعيد المحافظة على البيئة وضمان استدامتها، إلا أنه تم تسجيل قيام أطرافها

في حالات عديدة بفرضها على أطراف أخرى خارج الاتفاقيات، ما أدى إلى تقييد صادراتها وحرمانها من الوصول إلى الأسواق بفرض الحظر، والعقوبات والحجر الصحي على المنتجات التي تخالف أحكام الاتفاقيات.

ثانيا: التشريعات البيئية الوطنية في الدول المتقدمة

تعد مراقبة الأغذية اللبنة الأولى والأساسية في بناء نظام وطني فعال يهدف لحماية البيئة، نظرا لارتباطه المباشر وغير المباشر بصحة وسلامة الإنسان، الحيوان، النبات، والبيئة بشكل عام، ما ينعكس على التنمية الاقتصادية، فالأخطار التي تحملها الأغذية لا تعتبر فقط مشكلة بيئية وصحية عامة، ولكنها تؤثر على نمو وتحديث أسواق الغذاء المحلية والدخل وفرص العمل؛ ففي ظل ارتفاع الدخل ومستوى التحضر وانتشار الوعي البيئي وتحول الأنظمة الغذائية يكون الطلب على الأغذية الآمنة كبيرا، علاوة على أن جودة الأغذية وسلامتها أصبحت عنصرا هاما في السياحة المحلية والدولية.

ولذلك، تعتبر سلامة الأغذية من العوامل التي تدفع بتحسين الأداء التجاري وتعزيز الصادرات الزراعية الغذائية في أسواق الأغذية عالية القيمة، وتسهم في الحد من الفقر في الدول النامية إذا رافقها زيادة الاستثمارات لرفع قدراتها على إدارة سلامة الأغذية.

يرتبط بالأغذية غير الآمنة مجموعة من التكاليف الاقتصادية المحتملة؛ مثل الأضرار الناجمة عن المرض كفقد الإنتاجية والعلاج الطبي، حيث تقع هذه التكاليف على عاتق مختلف الجهات الاقتصادية الفاعلة بما في ذلك المستهلكين، مؤسسات الرعاية الصحية، شركات الأغذية الزراعية، والحكومات. وفي هذا الصدد، خلصت دراسة للبنك الدولي إلى أن التكلفة السنوية للأغذية غير السليمة في البلدان المنخفضة والمتوسطة الدخل بلغت 110 مليار دولار بما فيها انخفاض الإنتاجية والنفقات الطبية، كما تظهر بيانات منظمة الصحة العالمية أن الأمراض المنقولة بالغذاء قد تسبب في إصابة 600 مليون شخص بأمراض و430 ألف وفاة في سنة 2010، تحمل عبء أغلبها الدول المنخفضة والمتوسطة الدخل خاصة في آسيا. وتذهب التقديرات إلى أبعد من ذلك، حيث تقدر أن مجموع الخسائر في الإنتاجية المرتبطة بالأمراض المنقولة بواسطة الغذاء في هذه الدول بلغت 95,2 مليار دولار سنويا، فيما بلغت التكلفة السنوية لعلاج المصابين بأمراض ينقلها الغذاء 15 مليار دولار، شملت خسائر مبيعات المزارع والشركات، الدخل الضائع من تعطل التجارة والصادرات، والتبعات والآثار الصحية لتجنب المستهلكين الأغذية سريعة التلف، والأعباء البيئة للمخلفات الغذائية[54].

يتطلب بناء وتشغيل نظام وطني يضمن المراقبة الفعالة للأغذية ويحقق أفضل النتائج ويحسن التعامل مع التحديات، بنية تحتية بشرية ومادية، إضافة إلى استثمارات رأسمالية كبيرة وتكاليف كبيرة لصيانة وتشغيل مختلف المكونات.[55]يتسبب غياب نظام مراقبة للأغذية في أغلب الدول النامية وقطاعاتها وشركاتها في حرمانها من تحسين قدرتها على إدارة سلامة الأغذية ويستبعدها من أسواق التصدير المربحة التي ترتفع فيها أسعار السلع الآمنة المتوافقة مع المعايير الصحية والبيئية، وهو ما قد يعرض شحناتها من المنتجات إلى الرفض ويكبد الشركات تكاليف استدعاء المنتجات ويسيء إلى السمعة التجارية، ما يرفع من عدم اليقين بشأن الوصول المستمر إلى أسواق الدول المتقدمة[56].

أ- **التشريع الأمريكي**: اتجهت الحكومات الأمريكية ابتداء من مطلع السبعينات إلى سن وتشريع مجموعة من القوانين والتشريعات الفدرالية والمحلية، ووضع المعايير التي تهدف إلى الحفاظ على صحة وسلامة الإنسان والنبات والحيوان، أي الحفاظ على البيئة بالمفهوم الواسع، والتي تتيح استخدامها كحواجز غير تعريفية لحماية المنتجين الأمريكيين من منافسة المنتجات المستوردة عن طريق تحميل المنتجين الأجانب تكاليف إضافية[57].

ب- يشرف على عملية إنفاذ وتطبيق القوانين ومراقبتها في الولايات المتحدة الأمريكية ثلاث وكالات، هي:

أ- **الوكالة الاتحادية الأمريكية للمنتجات الغذائية والأدوية:** يقع على عاتق هذه الوكالة مسؤولية ضمان أمن الأغذية والأدوية، باستثناء اللحوم ومنتجات الدواجن التي تدخل في نطاق اختصاص وزارة الزراعة. يتطلب من جميع الشركات المتخصصة في الأغذية والأدوية سواء المنتجة محليا

أو المستوردة أن تتأكد من أن المنتجات التي تقدمها سواء كانت طبيعية أو معدلة وراثيا هي متوافقة مع معايير الوكالة ولا تحمل أي مخاطر على صحة المستهلك والحيوان والنبات، كما تقوم بإجراء معاينات دورية وتفتيش على المنتجات المستوردة وتحدد قرارها بشأن حجز المنتجات[58].

ب- **وكالة حماية البيئة:** تتولى الوكالة مهمة حماية صحة الإنسان وحماية موطن الحياة البرية في الولايات المتحدة والحفاظ على البيئة من الهواء، الماء، والأرض اللازمة للحياة من انعكاسات الممارسات الزراعية والإنسانية الضارة والخاطئة التي تؤدي إلى تلويث الهواء واستنزاف المياه الجوفية والسطحية وانجراف التربة وتدهور جودتها، ويدخل في هذا النطاق حماية المحيطات والبحار والأنهار والبحيرات، وكذلك الكائنات المهددة بالانقراض.[59]

ت- **وكالة خدمة التفتيش الصحي للحيوانات والنبات التابعة لوزارة الزراعة:** يقع على عاتق الوكالة مسؤولية حماية صحة الحيوان والنبات من الآفات والأمراض، ولذلك فهي مسئولة عن مراقبة عمليات استيراد الحيوانات ومنتجاتها إضافة إلى النباتات ونقلها داخل الولايات المتحدة، حيث يلزم كل من يريد استيراد الحيوانات والنباتات أو نقلها بين ولايات الدولة الحصول مسبقا على رخصة من الوكالة تؤكد سلامتها من شتى الأمراض والآفات.[60]

تقوم وزارة الزراعة بالإنفاق على برامج الحفاظ على البيئة تغطي أغراض التعليم والمساعدة التقنية والمساعدات المالية للمزارعين لتقاسم تكاليف الحفاظ على البيئة واستئجار الأراضي ومدفوعات الارتفاق، الأمر الذي ساهم بفعالية في مساعدة المزارعين على الامتثال للمتطلبات والمعايير الأمريكية والاستجابة للمطالبات الشعبية للحفاظ على البيئة[61].

لقد أدت الولايات المتحدة دورا رئيسيا في عقد كثير من الاتفاقات البيئية الدولية، وقامت بسن كثير من القوانين البيئية الصارمة داخلها. ولذلك، لازالت الولايات المتحدة الأمريكية تتصدر العالم في عدد معايير الصحة والصحة النباتية المطبقة. يوضح الجدول رقم (1) تطور عدد معايير الصحة والصحة النباتية في الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة 2006-2017، حيث يتضح جليا اتجاه الولايات المتحدة الأمريكية إلى زيادة العوائق غير التعريفية والمتمثلة في المعايير البيئية للحد من تدفق المنتجات الأجنبية إلى أسواقها.

جدول رقم (1): عدد معايير الصحة والصحة النباتية في الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة 2006-2017.

السنة	2006	2007	2008	2009	2010	2011	2012	2013	2014	2015	2016	2017
معايير الصحة والصحة النباتية	300	208	119	22	101	83	66	34	45	41	48	58

Source : http://i-tip.wto.org/goods/Forms/GraphView.aspx?period=y&scale=ln/ 25-12-2018

تعتبر دول أمريكا اللاتينية أكثر الدول تضررا من المعايير البيئية الأمريكية، فرغم العلاقات الاقتصادية الخاصة بينها والقرب الجغرافي ووجود اتفاقات تجارة تفضيلية بينها وعضوية المكسيك في اتفاقية النافتا، إضافة إلى عضويتها في منظمة التجارة العالمية، إلا أن كثيرًا من صادراتها من المنتجات الزراعية والحيوانية قد عانت من الحظر بسبب عدم تطابقها مع المعايير الأمريكية[62].

وفي 30 أوت 2012، احتجت الأرجنتين أمام لجنة فض المنازعات التابعة لمنظمة التجارة العالمية وطلبت إجراء مشاورات مع الولايات المتحدة بشأن تدابير حظر الأخيرة استيراد الحيوانات واللحوم ومنتجاتها من الأرجنتين بسبب مرض الحمى القلاعية الذي اجتاح شمال الأرجنتين في سنة 2001، حيث طعنت الأرجنتين في قرار وكالة خدمة التفتيش الصحي للحيوانات والنبات بحظر الواردات من لحوم البقر الطازجة من الأرجنتين وعدم الاعتراف ببعض المناطق في الأرجنتين الخالية من الحمى القلاعية، علاوة على التأخير غير المبرر في الاعتراف بالحالة الصحية الجيدة للحيوانات في المناطق الآمنة وفي منح الموافقة على تصدير الحيوانات ومشتقاتها من تلك المناطق. رغم افتقار قرار الحظر الشامل للدلائل العلمية وتناقضه مع بنود منظمة التجارة العالمية واتفاق التدابير الصحية والصحة النباتية، فقد استمر العمل به دون إجراء تقييم صحيح للمخاطر وبطريقة تمييزية أكثر تقييدا للتجارة من المطلوب للوفاء بمستوى الحماية الأمريكية. ردّت الولايات المتحدة بأنّ قرار الوكالة بالحظر يستند على معايير المنظمة العالمية للصحة الحيوانية، وأنّ قرار الحظر الشامل من كل المناطق جاء نتيجة استخدام

الأرجنتين للتطعيم في المناطق الآمنة والذي لا يرقى إلى مستوى الحماية المناسب. وعليه، أمر المدير العام لهيئة تسوية المنازعات بتشكيل فريق تحقيق خلص إلى أن تدابير الحظر الأمريكية لا تتفق مع الأحكام الواردة في اتفاق التدابير الصحية والصحة النباتية ولا مع التزاماتها ضمن منظمة التجارة العالمية.[63]

ب- التشريعات الأوروبية: سجلت أوروبا تأخرا نسبيا فيما يخص التشريعات المؤطّرة لعمليات إنتاج الأغذية التي قد تشكل خطرا على صحة المستهلكين وكذلك النبات والحيوان، خاصة المعدلة وراثيا باستخدام التكنولوجيا الحيوية، حيث صدر أول توجيهين عن المجلس والبرلمان الأوروبيين يحملان على التوالي رقم 219/90 و220/90 في 23 أفريل 1990، واللذان يحكمان إجراءات استخدام المنتجات المعدلة وراثيا.[64]يمتلك الاتحاد الأوربي القدرة على وضع معايير بيئية تكون ملزمة لأعضائه من الدول والمعروفة بالمواءمة أو تنسيق المعايير البيئية، والذي ينطوي على إنشاء سلطة فوق وطنية قادرة على وضع وتنفيذ المعايير البيئية المناسبة.[65]

رغم التراجع المسجل في استخدام تدابير حماية وسلامة الصحة والبيئة منذ أواخر الثمانينات مع إطلاق جولة أوروجواي ثم قيام منظمة التجارة العالمية التي فرضت قواعدها نظاما أكثر صرامة في استخدامها، إلا أن التوسع في استخدام التكنولوجيا الحيوية في دول عديدة وما قد تحمله من تهديد مباشر لصحة الإنسان والبيئة، قد رفع من المطالبات الشعبية بمقاطعة إنتاج المنتجات المعدلة وراثيا، ما حمل البرلمان الأوربي في سنة 2002 على المصادقة على إنشاء الهيئة الأوروبية لسلامة الأغذية بعد سلسلة من الأزمات الغذائية في أواخر التسعينات[66].

تعتبر الهيئة الأوروبية لسلامة الأغذية وكالة أوروبية مستقلة تحصل على تمويلها من الاتحاد الأوروبي، تقوم بتقييم المخاطر والتواصل مع المخاطر المرتبطة بالأغذية التي يستهلكها الإنسان والحيوان والموجودة في مختلف الدول من اجل تحسين سلامة الأغذية في أوروبا وبناء ثقة الجمهور، وتوفير ملائمة متناسقة ودقيقة في الوقت المناسب بشان قضايا سلامة الأغذية والأعلاف، حيث يغطي نطاق التقييم الإنتاج الأولي للغذاء (الجوانب الزراعية والبيطرية) والعمليات الصناعية والتخزين والتوزيع والبيع بالتجزئة، ويقوم مجلس الهيئة المكون من 15 عضو بتقديم المشورة والمعلومات العلمية حول المخاطر المرتبطة بالسلسلة الغذائية إلى المفوضية الأوروبية وحكومات الدول الأعضاء والجمهور. تغطي صلاحيات الهيئة سلامة الأغذية والأعلاف، التغذية، صحة الحيوان ورفاهيته، حماية النبات وصحته، كما تقوم بوضع ودعم عملية إدارة المخاطر وإعداد السياسات الواجبة الإتباع فيما يخص الحفاظ على صحة الإنسان والحيوان في دول الاتحاد الأوروبي، وللهيئة الحق في اعتماد أو تعديل التشريعات الأوروبية في مجال سلامة الأغذية والأعلاف ومراقبة المواد كالمبيدات الحشرية والإضافات الغذائية، إضافة إلى مواضيع عديدة تصب في مجال حماية الإنسان والبيئة بجميع عناصرها.[67]

إضافة إلى الهيئة الأوربية لسلامة الأغذية، تتشارك سلطات أخرى في مسؤولية سلامة صحة الإنسان والحيوان والنبات، وهي:

4- المديرية العامة للصحة وحماية المستهلك الموكل إليها، تحت إشراف المفوضية الأوربية، مسؤولية تطوير السياسات، والقوانين والبرامج لتمكين المستهلكين، وحماية الصحة البشرية وتحسينها، وضمان سلامة الأغذية وصحتها، وحماية صحة الحيوانات والنباتات، وتعزيز المعاملة الإنسانية للحيوانات وتحسين صحة الإنسان.

5- المكتب الغذائي والبيطري، الذي يقوم، تحت إشراف المديرية العامة لصحة وحماية المستهلك، من خلال أعمال التقييم والتدقيق والتفتيش، بتعزيز نظام الرقابة الفعالة على سلامة الأغذية وجودتها في قطاعات الصحة البيطرية والنباتية، والتحقق من الامتثال إلى معايير الاتحاد الأوروبي داخله وفي الدول المصدرة إليه والتأكد من امتلاكها للآلية اللازمة لمراقبة التزام منتجي الأغذية بمعايير السلامة في الأماكن المعنية، المساعدة في تطوير سياسات الاتحاد الأوروبي لسلامة الأغذية، وإعلام أصحاب المصلحة بنتائج عمليات التقييم الخاصة بها.

6- اللجنة الدائمة المعنية بالسلسلة الغذائية وصحة الحيوان، والتي حلت محلها اللجنة الدائمة لصحة النباتات، الحيوانات، الأغذية والأعلاف، حيث أرست اللجنة الأساس

لسياسات سلامة الأغذية الحالية في المفوضية الأوربية. تعد اللجنة الدائمة اللجنة التنظيمية الرئيسية المشاركة في تطوير معايير الصحة والصحة النباتية في الاتحاد الأوربي ، وتغطي ولايتها كل السلسلة الغذائية بدءا من قضايا الصحة الحيوانية في المزرعة إلى المنتجات التي تصل مائدة المستهلك.[68]

إضافة إلى السلطات على مستوى الاتحاد الأوربي ، فان لكل دولة عضو سلطاتها الخاصة المسئولة عن سلامة الأغذية وصحة الحيوان ، النبات والبيئة.[69]

في حين كانت الولايات المتحدة الأمريكية أكثر الدول المتقدمة اتهاما في النزاعات التجارية المتعلقة بتطبيق معايير الصحة ، كان الاتحاد الأوروبي العضو الأكثر شيوعا الذي أثيرت حوله المخاوف التجارية والإشعارات المضادة التي ارتفعت ؛ حيث وصل عدد حالات رفض دخول المنتجات إلى الاتحاد الأوروبي بموجب النظام السريع للأغذية والأعلاف في سنة 2017 إلى 2341 حالة ، لأسباب تتعلق بمخاطر على صحة الإنسان وأيضا الحيوان والبيئة.[70]تجدر الإشارة أن هذا النظام الذي تأسس في سنة 1979 والذي تعززت وظائفه بعد سن قانون الغذاء العام ، يهدف إلى تزويد سلطات المراقبة بأداة فعالة لتبادل المعلومات حول التدابير المتخذة لضمان سلامة الأغذية ، وتزداد سرعة التبادل كلما تم تحديد أي خطر على سلامة الغذاء أو العلف من أحد الأعضاء ، حيث يتم اتخاذ الإجراء على حسب نوع الخطر ، من إيقاف دفعة واحدة إلى وقف جميع شحنات منتج معين من المزرعة أو المصنع أو ميناء الدخول ، استدعاء المنتجات من المستودعات والمحلات التجارية ، واختبار دقيق لكل شحنة من مصدر مشبوه ، ويمكن أن يصل الأمر بالمفوضية الأوروبية إلى إعلان حالة الطوارئ بتعليق تسويق أو استخدام الغذاء أو العلف إذا كان يشكل خطرًا جسيمًا على صحة الإنسان أو صحة الحيوان أو البيئة ، سواء كان مصدره من داخل الاتحاد الأوروبي أو مستوردًا من بلد غير عضو في الاتحاد.[71] يوضح الجدول التالي تطور عدد حالات رفض دخول المنتجات إلى أسواق الاتحاد الأوربي في الفترة 2006-2017 ، حيث يتضح العدد المرتفع من حالات رفض دخول منتجات أجنبية إلى أسواقها ما يكس المعايير البيئية الصارمة التي تفرضها دول الاتحاد.

جدول رقم :(02): عدد حالات رفض دخول المنتجات إلى أسواق الاتحاد الأوربي في الفترة 2006-2017.

السنة	2006	2007	2008	2009	2010	2011	2012	2013	2014	2015	2016	2017
إشعارات الرفض على الحدود	2197	2189	2120	2327	2586	2873	2618	1963	1938	1793	1580	2341

Source : The Rapid Alert System of Food and Feed RASFF, Annual Reports, 2011, 2017, P. 38.

لم تكتفي دول الاتحاد الأوربي بفرض معاييرها البيئية على السلع المستوردة ، بل ركزت عليها وأدرجتها في اتفاقيات الشراكة مع الدول النامية في المتوسط ودول شمال إفريقيا والشرق الأوسط دون مراعاة فرق البنية التحتية والنمو بينها ، بحجة دفعها لحماية البيئة والمحافظة عليها ورفع مستوى المعايير ومطابقتها على مستوى المنطقة ، وتخفيف عدم التجانس بين أعضائها.

يعد الاتحاد الأوروبي أشد الدول والكيانات المتقدمة صرامة في فرض وتطبيق معايير الصحة والبيئة ، ويعزى ذلك إلى عملية المواءمة المستمرة لأنظمة الصحة والسلامة داخل الجماعة ، والتي أسفرت في الغالب عن اعتماد معايير أكثر صرامة وتشددا مقارنة بالمعايير الدولية.[72] ويظهر الجدول التالي عدد تدابير الصحة والصحة النباتية في الاتحاد الأوروبي التي بدأ العمل بها وأصبحت نافذة في الفترة الممتدة منسنة 2006 إلى غاية سنة 2017:

جدول رقم (03): عدد معايير الصحة والصحة النباتية في الاتحاد الأوروبي في الفترة 2006-2017.

السنة	2006	2007	2008	2009	2010	2011	2012	2013	2014	2015	2016	2017
معايير الصحة والصحة النباتية	22	16	12	20	19	16	20	22	25	16	16	32

Source : http://i-tip.wto.org/goods/Forms/GraphView.aspx?period=y&scale=lg/12-03-2019.

نظرا لاعتبارات كثيرة ، يعتبر الاتحاد الأوروبي الشريك التجاري الأول لدول شمال إفريقيا والشرق الأوسط ، فهو السوق الرئيسي المستوعب لأهم صادرات المنطقة وبالأخص المنتجات التي تمتلك فيها ميزات نسبية ، والمتمثلة في

الزراعات الغذائية والمنسوجات والملابس التي ارتفعت أهميتها ومكانتها الاقتصادية، بيد أن أغلب المنتجات المصدرة تخضع لنطاق المعايير الصحية والبيئية. وعلاوة على ذلك، فإنّهذه الدول، كباقي الدول النامية، لا تمتلك ميزة تنافسية واضحة في الأسواق العالمية لافتقادها البنية التحتية العلمية وأنشطة البحث والتطوير في الصناعات ذات التقنية العالية، كما تعاني من نقص فادح في القوة العاملة المرنة والرخيصة الضرورية للتنافس في الصناعات كثيفة العمالة. يضاف إلى العوائق السابقة ارتفاع أسعار الصرف، نتيجة المبالغة في تسعير عملاتها ما يضعف تنافسية منتجاتها وصناعاتها التحويلية، حيث يبقى المصدر الرئيسي لاكتساب ميزة تنافسية هو العامل الجغرافي المتمثل في قربها من الأسواق الكبيرة وبصفة رئيسية الاتحاد الأوروبي والذي بدوره يساعد في جذب رؤوس الأموال والتكنولوجيا.[73]من أجل رفع أداء الشركات وتمكينها من الامتثال للمعايير البيئية والصحية، بذلت دول شمال إفريقيا والشرق الأوسط جهودا كبيرة لإصلاح وتحديث البنية التحتية ورفع كفاءة البنية التنظيمية للقطاع الخاص.[74]

رغم ذلك، فقد عانت كثير من صادرات دول شمال إفريقيا والشرق الأوسط من المعايير البيئية الأوروبية المتشددة أثرت بشدة على القدرات التنافسية لها في الأسواق الأوروبية ؛ فمثلا اشترط الاتحاد الأوروبي في سياق المحافظة على الموارد الطبيعية غير المتجددة على الدول الراغبة في التصدير إلى أسواقه تطبيق أساليب إنتاج تستهلك مياهًا أقل، فاشترط على تونس الاقتصاد في استهلاك المياه النادرة نسبيا في سقي المزروعات، ما أدى إلى ارتفاع تكاليف المنتجات الزراعية الموجهة للتصدير والتي انعكست في ارتفاع الأسعار وانخفاض التنافسية الخارجية وخاصة شعب زيت الزيتون والحمضيات والتمور، حيث يحتاج الحفاظ على المياه بشكل فعّال إلى تصميم تسعير مناسب ينطوي بالضرورة على زيادة كبيرة في أسعار هذه المادة الحيوية، إضافة إلى تعديل

ويقدر الشكل التالي التغيرات في الإنتاج والصادرات في دول شمال إفريقيا والشرق الأوسط بعد فرض الاتحاد الأوروبي لمعايير بيئية، يتضح تأثيرات تلك المعايير على الإنتاج في تونس والمغرب كعينة عن دول المنطقة فيما غابت أساليب السقي وتحميل المزارعين عبء تكاليف الاستثمار في أنظمة سقي جديدة لتحقيق الفعالية في استهلاك المياه.[75] يتمتع القطاع الفلاحي في تونس، بالرغم من شح الموارد المائية، بوضع اقتصادي خاص، حيث إنه القطاع الاقتصادي الرئيسي في الكثير من المناطق، قدرت مساهمته بنسبة 8,6% من الناتج المحلي الإجمالي واستطاع استقطاب 8,2% من الاستثمارات العامة، كما يوفر دخل دائم لـ: 46600 فلاح، وبلغت حصة الصادرات الفلاحية من الصادرات الإجمالية بـ 18,4% مع نهاية سنة 2013، كانت حصة زيت الزيتون فيها تقدر بـ: 23,9% متبوعة بالحمضيات والتمور بنسبة 20% على التوالي، الأمر الذي يجعل ترقية الصادرات محورا مركزيا في إستراتيجيتها للنمو الاقتصادي المستدام[76].

لم تتوقف المعايير البيئية الأوروبية عند مدخلات العملية الإنتاجية، بل امتدت إلى مخرجات العملية، فاشترط على المغرب خفض كمية المياه الناتج من صناعات الغزل والنسيج وذلك في إطار جهود الاتحاد الأوروبي لوقف هدر الموارد المائية، حيث يشترط أن تكون نسبة الأكسجين الحيوي الممتص (BOD) في المخلفات الصناعية السائلة المباشرة جد منخفض، نظرا للمخاطر التي يسببها ارتفاع نسبته على البيئة. يعتبر مؤشر الأكسجين الحيوي الممتص من أكثر مؤشرات التلوث العضوية استخداما في مجال الصرف الصناعي، فهو ينشئ من المواد العضوية الرغوية والذائبة، وبما أن البكتيريا تحتاج إلى الأكسجين لتقوم بأكسدة المواد العضوية، فان ارتفاع نسبة الأكسجين الحيوي الممتص الناتج عن ارتفاع المخلفات العضوية يشجع زيادة النشاط البكتيري. ولتلبية معايير الاتحاد الأوروبي، فإن العملية تتطلب زيادة قدرات وحدات المعالجة البيولوجية وتعديل أساليب الإنتاج، وهو ما تعجز عن توفيره المغرب على المدى القصير والمتوسط. تجدر الإشارة إلى أن لمؤسسات صناعة الغزل والنسيج أهمية كبيرة في النسيج الصناعي المغربي وتساهم بقوة في صادرات المغرب إلى الاتحاد الأوروبي.[77] الجزائر عن التقديرات كنتيجة لغياب إحصائيات رسمية عن تغير الصادرات والإنتاج بعد فرض المعايير البيئية إضافة إلى ضعف صادرات الجزائر خارج المحروقات.

جدول رقم (04): انعكاسات المعايير البيئية الأوروبية على الإنتاج والصادرات في بعض دول شمال إفريقيا والشرق الأوسط.

الدول	المنتج	الانخفاض في الإنتاج (%)	الانخفاض في الصادرات (%)
تونس	الحمضيات	من 2,2 إلى 2,6	من 3 إلى 4,9
	التمور	من 9 إلى 12	من 14 إلى 26
المغرب	المنسوجات	من 0,08 إلى 0,33	من 0,095 إلى 0,4

Source : Bruce A.Larson & Others, The Impact of Environmental Regulations on Exports : Case Study resulted from Cyprus, Jordan, Morocco, Syria, Tunisia, and Turkey, World Development, Volume 30, N°6, 2002, P.1070.

ثالثا: أثر تطبيق المعايير البيئية على التجارة الخارجية للدول النامية

اتخذت توجهات الدول المتقدمة أنماطا وصورا تدعوا إلى مزيد من التخوف والريبة من جانب الدول النامية، فالدول المتقدمة في توجهاتها لم تكتف بتطبيق معايير منظمة التجارة العالمية التي تضمن تدابير تجارية بيئية عادلة نسبيا تضمن لكافة الدول درء أي مخاطر محتملة على الإنسان والحيوان والنبات، وإنما قامت بفرض معاييرها الوطنية الأكثر تشددا وتمييزا على غيرها من الدول، من خلال إلزامها بتعديل لوائحها لتحقيق الانسجام معها، وتوسيع مجال تطبيق المعايير على المنتجات إلى ظروف الإنتاج وطرقه والإطار التشريعي والتنظيمي الذي يحكمه، بغض النظر عن ما قد ينطوي عليه من قيود تتعارض مع مبدأ تحرير التجارة الذي دافعت عنه لعقود. علاوة على ذلك، مثلت قضية التسعير البيئي وإدخال التكاليف البيئية المباشرة وغير المباشرة كتكاليف الموارد الطبيعية والآثار غير المباشرة للتلوث مصدر تخوف الدول النامية، نظرا لما يترتب عليه من ارتفاع أسعار منتجاتها وتراجع تنافسيتها وهدر ميزاتها النسبية، الأمر الذي أدى إلى تراجع الطلب الخارجي وتقلص حصتها من أسواق التصدير وتقلب تجارتها الخارجية، وتراجع إنتاج كثير من المنتجات، والتوجه نحو الاستيراد. ويعطي الشكل التالي مقارنة بين استخدام تدابير الصحة والصحة النباتية في الدول المتقدمة (ذات الدخل المرتفع) وباقي الدول النامية:

شكل رقم (02): استخدام تدابير الصحة والصحة النباتية في العالم.

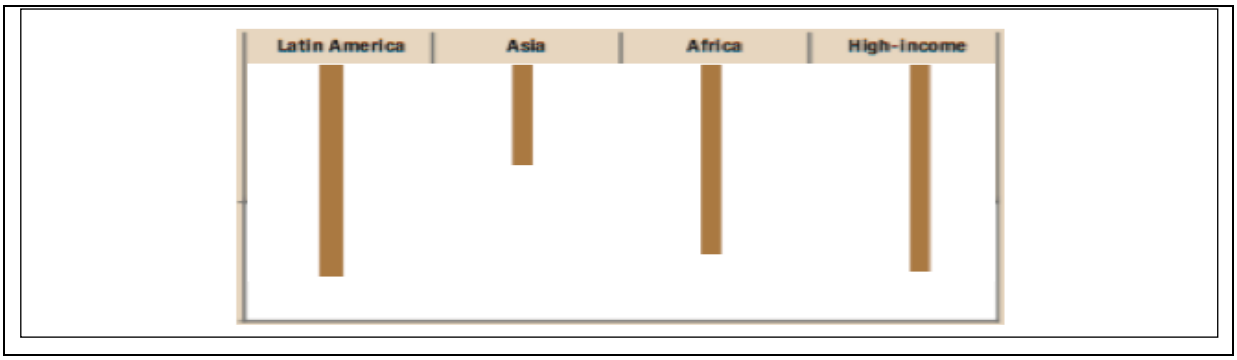

Source: United Nations Conference on Trade and Development UNCTAD, Non-Tariff Measures to Trade : Economic and Policy Issues for Developing Countries, Developing Countries in International Trade Studies, United Nations, New York and Geneva, 2013, P. 6.

***1*- تحديد النموذج**: لاختبار مدى استخدام الدول المتقدمة للمعايير البيئية في تجارتها الخارجية، سيتم الاستعانة بنموذج الجاذبية (Gravity Model).[78]يعتبر هذا النموذج أكثر النماذج قبولا في تفسير تدفقات التجارة بين أي دولتين والتطبيقات العديدة التي يتيحها والمتمثلة في تفسير أنماط التجارة البينية ومعالجة موضوع التجارة مقابل تحويل التجارة وتحديد تكلفة التجارة عند الحدود (أثر الحدود على نمو التجارة) وتقدير التجارة المحتملة.[79]بالنسبة للعينة المختارة عن الدول المتقدمة فقد تم اختيار الاتحاد الأوروبي نظرا لكونه مؤثرا هاما في التجارة الدولية والشريك التجاري الهام للدول النامية من إفريقيا والشرق الأوسط. في شكله الأساسي، يفترض نموذج الجاذبية أن تدفق التجارة (صادرات أو واردات) بين دولتين إضافة إلى الحد الثابت، تكون في علاقة طردية مع الحجم الاقتصادي للدولتين، في حين تظل المسافة بينها تمارس أثرا سلبيًا على تدفق التجارة لأنها تعكس تكاليف النقل.

$$Fij = \frac{\mathrm{c} \times M_i \times M_j}{\mathrm{D}_{ij}} \ldots\ldots (1)$$

حيث F_{ij} : هي تدفق التجارة البينية من الدولة i إلى الدولة j، أو من الدولة j إلى الدولة i.

c: الحد الثابت.

M_iM_j: الحجم الاقتصادي للدولتين والذي يقاس بالناتج المحلي لهما.

D_{ij} : المسافة الفاصلة بين الدولتين[80].

وللتكيف مع متطلبات الدراسة، فسيتم إدخال تعديلات على نموذج الجاذبية، من خلال استخدام إشعارات رفض دخول المنتجات على الحدود الواردة في الجدول رقم (02) كأحد المؤشرات الدالة على تطور التجارة البينية (متغير مستقل)، فيما يتم استخدام عدد معايير الصحة والصحة النباتية الواردة في الجدول رقم (03) كعامل مفسر (متغير تابع) لحالات رفض دخول المنتجات، أما الفترة الزمنية فستكون من سنة 2006 إلى سنة 2017.

$$R_e = \boldsymbol{C} \times S_e$$

حيث R_e: حالة رفض دخول المنتجات إلى أسواق الاتحاد الأوروبي بسبب أخطار على سلامة وصحة الإنسان والحيوان والنبات.

c : الحد الثابت.

S_e : معايير الصحة والصحة النباتية المطبقة في الاتحاد الأوروبي.

وسيتم اللجوء إلى تحويل المعادلة إلى الشكل الخطي لأغراض التحليل من خلال توظيف اللوغاريتم الطبيعي In، حيث تصبح المعادلة على الشكل التالي:

$$\mathrm{In}R_e = \beta_0 + \mathrm{In}S_e + \mu_e \ldots . (2)$$

***2*- تقدير وتحليل النموذج:** باستخدام بيانات العينة في الجدولين رقم (02) و(03)، وباستخدام طريقة المربعات الصغرى العادية لتقدير المعادلة رقم (2)، فقد أعطت النتائج التالية:

جدول رقم (06): النتائج التقديرية لحالات رفض دخول المنتجات إلى أسواق الاتحاد الأوروبي

Dependent Variable: LNRE
Method: Least Squares
Date: 11/03/18 Time: 09:35
Sample: 2006 2017
Included observations: 12

Variable	Coefficient	Std. Error	t-Statistic	Prob.
C	7.455703	0.610900	12.20446	0.0000
LNSE	0.078582	0.206498	0.380547	0.7115

R-squared	0.014275	Mean dependent var	7.687376
Adjusted R-squared	-0.084298	S.D. dependent var	0.168790
S.E. of regression	0.175760	Akaike info criterion	-0.488382
Sum squared resid	0.308916	Schwarz criterion	-0.407564
Log likelihood	4.930293	Hannan-Quinn criter.	-0.518304
F-statistic	0.144816	Durbin-Watson stat	0.848831
Prob(F-statistic)	0.711498		

المصدر: من إعداد الباحثين اعتمادا على مخرجات برنامج EViews8

***3*- تحليل النتائج:** اعتمادا على نتائج الجدول أعلاه ، يتضح أن:

– معلمة معامل المتغير المستقل والمتمثل في معايير الصحة والصحة النباتية غير معنوية إحصائيا.

– معامل التحديد وإحصائيةF(statistic-F) يشيران إلى القدرة التفسيرية الضعيفة لتأثير معايير الصحة والصحة النباتية على قرار الاتحاد الأوروبي برفض دخول المنتجات إلى أسواقه.

وعليه ، يمكن الخروج بنتيجة مفادها أن الارتفاع الحاصل في عدد حالات رفض دخول المنتجات إلى أسواق الاتحاد الأوروبي نتيجة مخاطر على صحة وسلامة الإنسان والحيوان والبيئة لا يرجع إلى تطبيق معايير الصحة والصحة النباتية المعترف بها من منظمة التجارة العالمية وهيئة فض النزاعات التابعة لها ، وإنما إلى اعتماد الاتحاد الأوروبي معايير بيئية أخرى أكثر تشددا وأشدّ تمييزا اتجاه المنتجات المستوردة المنافسة ، خاصة من دول شمال إفريقيا والشرق الأوسط النامية.

ومع إفراط الدول المتقدمة في استخدام المعايير البيئية في تعاملها التجاري مع الدول النامية ، سيصعب على الدول النامية تحمل تكاليف تعديل طرق وأساليب الإنتاج خلال مدة قصيرة بما يتوافق مع المعايير البيئية في الدول المتقدمة للاستمرار في التصدير ، ويفتح المجال للمنتجين في الدول المتقدمة للاستحواذ على نصيب هام من الحصة السوقية للدول النامية.

يعد تراجع الحصة السوقية وتدهور القدرة التنافسية بعد فرض المعايير البيئية أحد الأسباب المباشرة في الأزمات المالية ، حيث أن تدهور شروط التبادل التجاري نتيجة فرض معايير بيئية متشدد وتمييزية يضع المورّدين في الدول النامية في حالة ارتباك قد تصعب عليهم الوفاء بالتزاماتهم التعاقدية.[81]وبدوره ،يؤثر هذا الارتباك على البنوك الدائنة لهم التي قد تتدهور ملاءتها المالية وترتفع خسائرها نتيجة ارتفاع القروض المشكوك في تحصيلها.[82] يمكن لعجز الموردين في الدول النامية عن الامتثال للمعايير والتدابير البيئية المحلية والأجنبية في المدى القصير أن يتسبب بالتوقف عن التصدير ومن ثم العجز عن الوفاء بالتزاماتهم التعاقدية اتجاه العملاء الأجانب ، والتوقف عن سداد قروض البنوك المحلية والأجنبية (في حالة الاقتراض الخارجي) ، والتسبب باختلال حاد في الموازين التجارية ، ما يضع البنوك أمام تهديد التعرض لأزمة مصرفية.

في ظل التركز الجغرافي والسلَعي للصادرات ومحدودية البدائل أمام الدول النامية ، يدفع الانكماش المستمر في الصادرات وحالة عدم اليقين بشأن قدرة المنتجين والموردين في الدول النامية على تغيير طرق الإنتاج والتغليف إلى أخرى متوافقة بيئيا لاستعادة القدرة التصديرية والحصة السوقية ، إلى تراجع حاد في الموارد المالية الضرورية لاستيراد السلع الضرورية والإنفاق البيئي ، ما يجبرها على الاستدانة من الداخل والخارج بشروط مشددة بأسعار فائدة وعلاوة مخاطرة مرتفعة ، قد ينتج عنها سحب من عوائدها الجارية وتخفيض وارداتها الرأسمالية ونقص في السيولة ، ينتج عنها التوقف عن سداد الديون الخارجية وظهور أزمة مديونية.[83]إنّ اجتماع هذه الأزمات عادة ما يعطي إشارة قوية للمضاربين لإطلاق حملة مضاربات على العملة المحلية وما ينتج عنها من انهيار العملة المحلية ، وتراجع حاد في تدفق رؤوس الأموال والاستثمارات تنتهي بأزمة مالية.[84]

خاتمة

أثار تضمين المعايير البيئية بمواضيعها المتشعبة في التجارة الدولية جدلا واسعا بين الدول النامية ونظيرتها المتقدمة ، ذلك أن تطبيق هذه المعايير قد تجاوز أهدافها وغاياتها والمتمثل في حماية صحة وسلامة الإنسان والحيوان والبيئة ، أي البيئة بمفهومها العام ، علاوة على نطاقها الجغرافي والمتمثل في حدود الدول الموقعة على الاتفاقيات المعنية بالبيئة ، لتصبح أحد الأدوات التجارية غير التعريفية شائعة الاستخدام في التجارة الدولية تعدى حدود تطبيقها إلى دول أخرى غير موقعة أغلبها دول نامية التي ألزمت بتكييف أوضاعها الاقتصادية ومواءمة قوانينها ومعاييرها لتحقيق الامتثال لمعايير وتدابير الدول المتقدمة البيئية الصارمة وشديدة التمييز مقارنة مع تدابير منظمة التجارة العالمية ومعايير المنظمات الدولية المتخصصة ، يجنبها التعرض لتبعات عدم الامتثال.

مع قيام منظمة التجارة العالمية ، حظيت المعايير البيئية بالاعتراف الدولي بمشروعيتها وشجعت الدول على

الأخذ بها وبغيرها عند بناء سياساتها التجارية ، وأصبحت الميزات النسبية التي لطالما اشتهرت بها الدول النامية والتي اعتمدت عليها أغلب القطاعات الاقتصادية في بناء القدرات التنافسية لصادراتها مهددة بفقدان تأثيرها بعد تآكلها ، فالمواءمة مع المعايير البيئية المتجددة للدول المتقدمة ، التي تشددت في وضعها وتطبيقها بطريقة تمييزية بعد تراجع دور التعريفات والدعم المباشر ، كشرط للسماح لصادرات الدول النامية للولوج إلى أسواقها ، يفرض مجموعة من التكاليف الصريحة والغارقة يتحمل عبئها المنتجون في الدول النامية ، ما يؤدي إلى ضعف تنافسية منتجاتهم وفقدان حصتهم السوقية لفائدة منافسين محليين في الدول المتقدمة امتلكوا التكنولوجيا والمعرفة الفنية وحظوا بالدعم الضمني والحماية الحكومية ، وما يترتب على ذلك من اختلال الموازين التجارية في الدول النامية وتزايد احتمال التعرض لأحد أو بعض الأزمات المالية.

وعليه ، يتعين على الدول النامية بما فيها الجزائر التي تسعى إلى تنويع صادراتها والخروج من التبعية لقطاع المحروقات بذل مجهودات للتوافق مع المعايير البيئية الدولية من خلال:

1- تطوير التشريعات البيئية وتفعيلها مع تحديثها بما يتوافق مع التطورات في مجال حماية البيئة بمفهومها الواسع.

2- تنمية الوعي البيئي لدى المؤسسات الإنتاجية وتشجيعها على تبني سياسات خضراء وتحسين أدائها البيئي من خلال تطبيق طرق إنتاج تراعي حماية البيئة وتحترم المعايير البيئية المعمول بها دوليا مع فرض تدابير في شكل حصص وغرامات مالية وتوقيف النشاط مؤقتا أو نهائيا لإجبار المؤسسات على الامتثال للمعايير البيئية عملا بمبدأ الوقاية.

3- تعزيز التعاون والمشاركة في المنظمات الدولية المتخصصة في الشؤون البيئية والانضمام إلى منظمة التجارة العالمية بما يسهم في الحصول على مساعدات تقنية تساعد على تكييف الأوضاع الاقتصادية مع المتطلبات الدولية في المجال البيئي ، وتخفف من حدة مشكلة الافتقار للمصادر العلمية والتقنية والقانونية من معارف متخصصة في القانون الدولي اللازمة لتنظيم أو الدفاع في حالة نشوب نزاع مع دول أخرى ، وتسهم في بناء نظام اقتصادي بيئي فعال ومؤسسات رقابة فعالة تساعد على ضمان سلامة المنتجات والأغذية وتعمل على توفير معلومات مفيدة للشركات المصدرة عن الأسواق.

الهوامش

1. . عبير رضوان "الأبعاد الاجتماعية- البيئية في السياسات التجارية الدولية ، دراسة حالة منظمة التجارة العالمية (1995-2000)" رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية ، جامعة القاهرة ، 2002 ، ص. 189.

2. . احمد محمود الجمل"حماية البيئة البحرية من التلوث في ضوء التشريعات الوطنية والاتفاقات الإقليمية والمعاهدات الدولية" منشاة المعارف بالإسكندرية ، مصر ، 1998 ، ص. 2 ، 3.

3. . عبير رضوان ، مرجع سابق ، ص. 190.

4. .www.wto.org/ 20-02-2019.

5. .World Trade Organization, <<WTO Agreements and Public Health : A Join Study by the WTO and the WTO Secretariat>>, World Trade Organization / World Health Organization, 2002,P. 85.

6. .Marius Brulhart & Alan Matthews, <<EU External Trade Policy>>, The European Union: Economics & Policies, 8th Edition, Cambridge University Press, 2007, PP. 959-961.

7. .Linda Calvin & Barry Krissoff, <<Technical Barriers to Trade: A Case Study of Phytosanitary Barriersand U.S.-Japanese Apple Trade>>, Western Agricultural Economics association, Journal of Agricultural and Resource Economics, 1998, PP. 351-352.

8. . Patricia Augier & Others, <<Non-tariff Measures in the MNA Region: Improving Governance for Competitiveness>>, The World Bank, Middle East and North Africa, Working Paper Series N°56, August 2012, PP. 5-6.

9. . رحمان آمال ومُحَمَّد التهامي طواهر"تأثير النفط على البيئة خلال مرحلة النقل -حالة الجزائر-" مجلة الباحث ،جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، الجزائر ، العدد 12 ، 2013 ، ص. 23.

10. . United Nations Conference on Trade and Development UNCTAD, <<Non-Tariff Measures to Trade: Economic and Policy Issues for Developing Countries>>, Developing Countries in International Trade Studies, United Nations, New York and Genevia, 2013, P. 55.

11. . انتقلت الدول المتقدمة من تطبيق المعايير البيئية من تجارة السلع إلى تجارة الخدمات من خلال تطبيق تلك المعايير على خدمات النقل البري والبحري والجوي إضافة إلى حقوق الملكية الفكرية ، كما تشمل السلعة أو الخدمة من المراحل الأولى لإنتاجها إلى غاية نهاية دورة حياتها باستهلاكها.

12. . United Nations Conference on Trade and Development UNCTAD, OP. Cit., P. 45,46.

13. .Prema-Chandra Athukorala & Sisira Jayasuriya, <<Food Safety Issues, Trade and WTO Rules: A Developing Country Perspective, International Food Safety Regulation and Processed Food Exports from Developing Countries: A comparative Study of India and Thailand>>, Blackwell Publishing Ltd, 2003, PP. 1395-1410.

14. . John S.Wilson & Others, <<Dirty Exports and Environmental Regulation: Do Standards Matter to Trade?>>, The world Bank, Policy Research Working Paper 2806, March 2002, P. 2.

15. . ياسين مكيو"تعثر مفاوضات التجارة العالمية وانعكاساتها على تطور المبادلات التجارية الدولية في القطاع الزراعي . دراسة حالة بعض البلدان الناشئة (الهند والبرازيل)" مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الدكتوراه الطور الثالث في العلوم التجارية ، جامعة مُحَمَّد خيضر بسكرة ، 2016 ، ص ص. 91-93.

16. . منى مشايخي وآخرون" التطورات والقضايا في برنامج عمل الدوحة التي تهم الدول العربية بوجه خاص في سياق الأهداف الإنمائية للألفية" مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية ، الأمم المتحدة ، نيويورك وجنيف 2006 ، ص. 44.

17. . مصطفى سلامة "منظمة التجارة العالمية: النظام الدولي للتجارة الدولية" دار الجامعة الجديدة ، الطبعة الثانية ، 2008 ، مصر ، ص186.

18. .Haiying Song & Kevin Chen, <<Trade Effects and Compliance Costs of Food Safety Regulations : The case of China, Agriculture and Agricultue Science Procedial>>, Elsevier B.V, 010, P. 429.

19. . إدارة الأزمات والكوارث البيئة في ظل المتغيرات والتحديات العالمية المعاصرة ، المؤتمر السنوي العاشر ، كلية التجارة ، جامعة عين شمس ، مصر ، 2005 ، ص. 979.

20. . http://spsims.wto.org/ 20-02-2019.

21. .Prema-Chandra Athukorala & Sisira Jayasuriya, OP. Cit., PP. 1411-1412.

22. .T.Ademola Oyejide& Others, <<Quantifying the Trade Impact of Sanitary and Phytosanitary Standards: What is Known and Issues of Importance for Sub-Saharan Africa, Workshop on Quantifyingthe Trade Effects of Standards and Regulatory Barriers : Is It Possible?>>, World Bank, Washington, April 2000, P. 3,4.

23. . مُحَمَّد صفوت قابل"منظمة التجارة العالمية وتحرير التجارة الدولية" الدار الجامعية ، مصر ، 2009 ، ص. 130.

24. . https://www.wto.org/english/docs_e/legal_e/15sps_01_e.htm/ 20-02-2019.

25. . مصطفى سلامة ، مرجع سابق ، ص. 188.

26. . United Nations Conference on Trade and Development UNCTAD, OP. Cit., P. 56,57.

27. . John S.Wilson & Others, OP. Cit., PP. 22-24.

28. .Hchaichi Rafla, <<The Impact of Environmental Regulations on Competitiveness: An Empirical Multi-Country Analysis>>, International Journal of Business and Social Science, VOL5, N°4, March 20147, P. 126.

29. . Jong Woo Kang & Dorothea M.Ramizo,<<Impact of Sanitary and Phytosanitary Measures and Technical Barriers on International Trade>>, Asian Development Bank, July 2017, P. 5,6.

30. . United Nations Conference on Trade and Development UNCTAD, OP. Cit., PP. 46-48.

31. . Patricia Augier & Others, OP. Cit., P. 6.

32. . عبير رضوان ، مرجع سابق ، ص. 191.

33. . عبير علي"حماية البيئة في ظل العولمة" مجلة مصر المعاصرة ، مصر ، جانفي 2007 ، ص. 227.

34. .Tika Bahadur Karki, <<Sanitary and Phytosanitary (SPS) Measures in SAARC Countries, South Asia Watch on Trade, Economics and Environment SAWTEE & CUTS Centre for International Trade>>, Economics & Environment CUTS-CITEE, 2002, P. 2,3.

35. . World Trade Organization, OP. Cit., P. 86.

36. . عبير رضوان ، مرجع سابق ، ص. 225.

37. . هشام بنداري"حماية البيئة في اتفاقات منظمة التجارة العالمية" رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العلوم الاقتصادية ، جامعة القاهرة ، مصر ، 2005 ، ص. 112.

38. . المرجع نفسه ، ص. 112.

39. . اسامة ابراهيم"الأبعاد الاقتصادية والبيئية لاتفاقية الجات وأثرها على التنمية التكنولوجية في البيئة المصرية" رسالة مقدمة لنيل ماجستير غي العلوم الاقتصادية ، جامعة عين شمس ، مصر ، 2005 ، ص. 41.

40. . https://www.iso.org/fr/about-us.html/ 31-01-2019.

41. . شتوح وليد"الوفورات الاقتصادية المحققة من توطين نظام الإدارة البيئية الإيزو 14000 في مؤسسة فرتيال عنابة (الجزائر)" المجلة العلمية الأكاديمية العربية في الدانمرك ، العدد 16 ، يناير 2015 ، ص ص. 86-95.

42. . United Nations Conference on Trade and Development, <<UNCTAD, World Investment Report 2010, Investing in Low-Carbon Economy>>, United Nations, New York and Geneva, 2010, P. 120,127,128,180.

43. . Spencer Henson & Rupert Loader, <<Barriers to Exports from Developing Countries: The Role of Sanitary and Phytosanitary Requirements>>, Elsevier S.V, World Development, Vol 29, N°85, 2001, P .91.

44. . عبد الرحمان يسري احمد"قضايا اقتصادية معاصرة" الدار الجامعية ، مصر ، 2000 ، صص. 129-130.

45. International Plant Protection Convention, <<Protecting the World's Plant resources from Pests: An International Framework for Cooperation>>, Food and Agriculture Organization of the United Nations FAO, 2003, PP. 5-10.

46. . Ibid, PP. 5-10.

47. . https://www.ippc.int/static/media/files/publication/ar/2017/07/ISPM_List_Ar_2017-04-26.pdf/02-02-2019.

48. . Tika Bahadur Karki, OP. Cit., PP. 19-20.

49. . عبير علي ، مرجع سابق ، ص. 228.

50. . المرجع نفسه ، ص. 228.

51. . http://www.oie.int/en/about-us/10-02-2019.

52. . World Organization for Animal Health, <<Annual Report 2018: Healthy Animals for a Better Life>>, 2019, P. 6, 34.

53. . Organization de Coopération et de Dévelopement Economique OECD, <<Les Mésures Commerciales dans les Accords Multilateraux sur l'Environment>>, OCDE, Paris, 1999, P. 189.

54. . Steven Jaffee & Others, << The safe Food Imperative: Accelerating Progress in Low- and Middle- Income Countries, Agriculture and Food Series>>, World Bank Group, 2018, PP. 5-43.

55. . Food and Agriculture Organization of the United Nations & World Health Organization, <<Assuring Food Safety and Quality: Guidelines for Strengthening National Food Control Systems>>, Food and Agriculture Organization of the United Nations FAO, Food and Nutrition Paper 73, 2003, PP. 6-9.

56. . Steven Jaffee & Others, OP. Cit., P. 6.

57. . Office of Technology Assessment OTA, <<Agriculture, Trade, and Environment: Achieving Complementary Policies>>, Congress of the United States, May 1995, PP. 125-127.

58. . وليد عبد مولاه" نماذج الجاذبية لتفسير تدفقات التجارة"سلسة جسر التنمية ، المعهد العربي للتخطيط بالكويت ، العدد 27 ، نوفمبر 2010 ، ص ص. 2-6.

59. . Office of Technology Assessment OTA, OP. Cit., PP. 71-103.

60. . وليد عبد مولاه ، مرجع سابق ، ص ص. 2-6.

61. . Office of Technology Assessment OTA, OP. Cit., P. 89,90.

62. . World Trade Organization, OP, P. 60,62.

63. . https://www.wto.org/english/tratop_e/dispu_e/cases_e/ds447_e.htm/02-02-2019.

64. . Geneviève Dufour, << Les OGM et l'OMC : Analyse des Accords SPS, OTC, et du GATT>>, Edition BRUYANT, Belgique, 2011, P. 48.

65. . Jonathan M. Harris, << Trade and Environment>>, Global Development and Environment Institute, Tuffs University, 2004, P. 13.

66. . Geneviève Dufour, OP. Cit., P.48.

67. . World Trade Organization WTO, <<Trade Policy Review 317>>, 18 May 2015, P. 56.

68. . Ibid., P. 56.

69. . Ibid., P. 56.

70. . Dina Atef Mandour, <<Investigating the Impact of Health and Environmental Standards on Exports: the Case of Egyptian Agro-Food Exports to the EU>>, Economic Research Forum, Working Paper N°0707, October 2007, P. 2,3.

71. . Vicky Lee, <<Food Safety Mechanism and Food Labelling Requirements in the European Union, the United Kingdom and France>>, Research and Library Services Division,Legislative Council Secretariat , Research Paper 08/07, June 2008, PP. 3-14.

72. . Dina Atef Mandour, OP. Cit., P. 2,3.

73. . Patricia Augier & Others, OP. Cit., P. 4,5.

74. . Ibid, P. 4,5.

75. . Mohamed Ayadi & Mohamed Salah Matoussi, <<The Impact of Higher Water Costs on the Imports of Tunisian Dates and Citrus, Economic research Forum>>, Economic Research Forum, Working Paper N°0718, December 2007, PP. 2-4.

76. . الإدارة العامة للدراسات والتنمية الفلاحية ، الكتاب السنوي للإحصاءات الفلاحية 2014 ، وزارة الفلاحة والموارد المائية والصيد البحري تونس ، نوفمبر 2015 ، ص. 25 ، 30 ، 149.

77. . Bruce A.Larson, <<Trade and Environment and International Competitiveness in the Mediterranean Region : Selected Case Studies, Mediterranean Environmental Technical Assistance Program (METAP)>>, Harvard Institute for International Development, 30 January 2002, P. 8.

78. . استخدم نموذج الجاذبية لأول مرة في ستينات القرن الماضي من طرف Tinbergen & Poyhonen اللذان أشارا إلى أن التجارة بين دولتين تتناسب مع الحجم الاقتصادي لأي دولة ، فيما تتناسب عكسيا مع المسافة الجغرافية بينهما. وبعد النجاح الذي حققه النموذج في تفسير قيام وتوسع التجارة الدولية ، خضع النموذج الأولي إلى تحسينات وتطويرات وتفرعت عنه نماذج للتكيف مع التطورات والظروف والعوامل الجديدة التي ظهرت.

79. . علاوي مُحَمَّد لحسن" تحليل تدفقات التجارة العربية البينية باستخدام نموذج جاذبية – Gravity Model" مجلة الباحث ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، الجزائر ، العدد 10 ، 2012 ، ص. 13.

80. .Haiying Song & Kevin Chen, OP. Cit., P. 432.

81. . احمد يوسف الشحات" الأزمات المالية في الأسواق الناشئة مع إشارة خاصة لازمة جنوب شرق آسيا" دار النيل للطباعة والنشر ، مصر ، 2001 ، ص. 20.

82. .E.Philip Davis, <<Asset Prices and Real Economic Activity>>, OECD Economics department Working papers N°764, OECD Publishing, 2010, P. 6.

83. . ابراهيم عبد العزيز النجار "الأزمة المالية وإصلاح النظام المالي العالمي" الدار الجامعية ، مصر ، 2009 ، ص. 24.

84. . نادية العقون "أزمة الرهن العقاري: عدواها وآليات انتقالها" مجلة بحوث اقتصادية عربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، لبنان ، العددان 53-54 ، شتاء-ربيع 2011 ، ص. 91.

الإعلام الأمني الإذاعي ودوره في التوعية المرورية " دراسة ميدانية على عينة من السائقين بولاية سطيف "

Radio security media and its role in traffic awareness "Field study on a sample of drivers in the state of Sétif

تاريخ الإرسال:19-11-2018 تاريخ القبول: 12-04-2020

نصير لعرباوي، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2
nacir_larb@yahoo.fr
سمية أم لرقاب، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2
oumlergeubsoumia@gmail.com

الملخص

تعد إشكالية حوادث المرور ومخلفاتها في الجزائر من المسائل المهمة في مجال الحياة البشرية والاجتماعية ، وتطرح هذه المسألة نفسها بقوة في خضم المشكلات الاجتماعية الكبيرة التي تواجه المجتمع الجزائري المعاصر ، فلقد أثارت هذه الإشكالية نقاشات كبيرة حول على من تقع مسؤولية التوعية المرورية بهدف إيجاد حلول لهذه الإشكالية ومحاولة الحد أو التقليل من آثارها ، ومن الأطراف الأساسية التي تعمل على نشر التوعية المرورية وزرع الثقافة المرورية لدى الأفراد الإعلام ، وعلى وجه الخصوص الإعلام الأمني الإذاعي ، ولهذا السبب فالهدف من دراستنا هو إبراز الدور الذي يمكن أن يلعبه الإعلام الأمني الإذاعي في التوعية المرورية ، وما هي مخرجات تلك العملية التوعوية ، وذلك لدى عينة مكونة من 200سائق من ولاية سطيف ، ولتحقيق أهداف الدراسة اتبعنا المنهج الوصفي بالاعتماد على استمارة الاستبيان كأداة أساسية لجمع البيانات.

الكلمات المفاتيح: الإعلام الأمني ، الإذاعة ، التوعية ، التوعية المرورية ، حوادث المرور.

Résumé

Le fléau des accidents de la route et de leurs conséquences en Algérie revêt une importance capitale dans le domaine de la vie humaine et sociale. Ce phénomène est profondément lié aux grands problèmes sociaux auxquels la société algérienne est confrontée. En effet, ce dernier suscite de grands débats dans la sphère responsable de la sensibilisation au trafic qui œuvre à lui trouver des solutions et d'essayer de limiter ou de minimiser ses effets, grâce aux principaux protagonistes qui s'emploient à sensibiliser le public aux moyens de communication et à la culture de la circulation, en particulier les moyens de sécurité. En ce sens, notre étude a pour objectif de mettre en lumière le rôle de la sensibilisation contre les accidents de la route sur un échantillon de 200 chauffeurs de la wilaya de Sétif. Pour mener à bien notre recherche, nous avons opté pour approche descriptive ayant recours au questionnaire comme outil de base pour la collecte de données.

Mots-clés : Médias de sécurité, radio, sensibilisation, sensibilisation au trafic, accidents de la route.

Abstract

The problem of traffic accidents and their aftermath in Algeria is an important issue in the field of human and social life. This issue presents itself strongly in the midst of the great social problems facing contemporary Algerian society, it has sparked a great debate about the responsibility of traffic awareness to find solutions and reduce its effects. One of the main parties working to spread traffic awareness among individuals is the media, in particular radio security media. For this reason, the aim of our study is to highlight the role that radio security media can play in traffic awareness, and what are the outputs of that awareness process. To achieve the study goals, we followed the descriptive approach by using the questionnaire form as an essential tool for data collection of a sample of 200 drivers from Setif

Keywords: Security Media, Radio, Awareness, Traffic Awareness, Traffic Accidents

أولا: إشكالية الدراسة وإطارها المفاهيمي

1-إشكالية الدراسة

يعد الإعلام من أهم وأكثر الوسائل انتشارا وتأثيرا واستخداما في المجتمع من طرف مختلف فئات المجتمع وشرائحه، ويعتبر الإعلام الأمني فرعا من فروع الإعلام الكثيرة، ولقد جاء الإعلام الأمني ليؤدي دورا مهما في مجال الأمن وتقريب المسافات وردم الهوة بين الإعلام والأمن، وايصال المعلومات الأمنية وتزويد المتلقي بالمعارف والمعطيات الأمنية التي كانت فيما مضى حكرا على رجال الأمن، كما يؤدي الإعلام الأمني دورا مهما في حماية الدولة من الداخل والخارج، إذ يعزز روح المواطنة لدى المواطنين ويحملهم جزء من المسؤولية في حماية المجتمع والقضاء على الظواهر الاجتماعية السلبية التي تهدد استقراره وأمنه، كظاهرة حوادث المرور.

والجزائر كغيرها من دول العالم تشهد ارتفاعا كبيرا في حوادث المرور ومخلفاتها سنويا وهو ما تؤكده سنويا إحصائيات المركز الوطني للوقاية والأمن عبر الطرق بالإضافة إلى مختلف الأجهزة الأمنية الأخرى، السبب الذي دفع لضرورة العمل على مواجهة هذه الظاهرة والعمل على الحد منها والتقليل من آثارها المتعددة الأبعاد، ومن أهم الأطراف التي تعمل على نشر التوعية المرورية في الجزائر تتبنى مسؤولية التصدي ومكافحة هذه الظاهرة الإعلام، حيث يلعب الإعلام دورا كبيرا في التنمية والتوعية في المجتمع، خاصة الإعلام الأمني الذي يعمل على مواكبة التطورات والمستجدات الأمنية في التعامل مع الظواهر التي تقلق أمن واستقرار المجتمع وذلك بما يبثه بمصداقية وموضوعية في وسائله ودعائمه الاتصالية سواء منها المقروءة أو المسموعة أو المشاهدة، ومن أهم دعائم الإعلام الأمني الإذاعة فهذه الوسيلة بخصائصها الكثيرة تعد من أنسب الوسائل الإعلامية للتوعية المرورية.

ولهذا كان الإعلام الأمني الإذاعي أحد أكبر أقطاب التوعية المرورية في الجزائر، فهويسعى إلى تكوين قاعدة معرفية واضحة لدى الأفراد حول كل ما يخص التوعية المرورية، من خلال إذاعته وتناوله ومعالجته لمواضيع وبرامج التوعية المرورية من أجل تحقيق الفائدة للفرد والمجتمع، ومن هنا يبرز دور الإعلام الأمني الإذاعي في مواكبة ومسايرة الحياة المرورية وتغطية جوانبها المختلفة، بشكل يقدم للمستمع وعلى رأسهم السائقون وعلى اختلاف شرائحهم معلومات وحقائق وآراء تعمق وعيهم المروري وتجعلهم عنصرا فعالا في السياسة والاستراتيجية المرورية، وكذا العملية التحسيسية بضرورة الوقاية والسلامة من حوادث المرور، لأن هذه العملية تبدأ من الفرد وتنتهي عند الفرد نفسه، لأنه المتسبب الأول في حوادث المرور.

ومن هنا تتبلور إشكالية دراستنا في التساؤل الرئيسي التالي:

- ✓ **ما دور الإعلام الأمني الإذاعي في مجال التوعية المرورية؟**

ويندرج تحت هذا التساؤل الرئيسي جملة من الأسئلة الفرعية هي:

1-ما مدى تلقّي السائقين لمحتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة؟

2-ما هي آراء وتوجهات السائقين في محتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة؟

3-ما مدى تأثير محتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة على سلوكيات السائقين؟

2-أهداف الدراسة

إن الهدف الرئيسي لدراستنا هو معرفة الدور الذي يلعبه الإعلام الأمني الإذاعي في التوعية المرورية من خلال المضامين التي تبثها والتي تتعلق بنشر التوعية المرورية وزيادة الثقافة المرورية عند الجمهور، خاصة منه جمهور السائقين، بالإضافة إلى معرفة عادات وأنماط التّلقّي لمحتوى هذه المضامين من قبل السائقين، ومعرفة آرائهم وتوجهاتهم نحو هذه المضامين، ومعرفة مدى تأثيرها على سلوكياتهم.

3-أهمية الدراسة

تتلخص أهمية الدراسة في أن الجزائر تحصي سنويا الآلاف من الوفيات والجرحى والمعطوبين وهذا مؤشر على انتشار واستفحال ظاهرة حوادث المرور بالجزائر، بالإضافة إلى الدور الكبير الذي أصبح يلعبه الإعلام في المجتمع خاصة فيما تعلق بوظيفة الإرشاد والتوعية والتوجيه، ولعل الإعلام ذا التوجه الأمني أجدر خيار للقيام بهذه الوظائف خاصة منه

الإعلام الأمني الإذاعي حيث أن الإذاعة تتميز بجملة من الخصائص تجعلها الأقرب إلى المواطن المستهدفين من حملات التوعية.

كما تستقي الدراسة أهميتها كذلك من أهمية البعد الأمني الشامل باعتباره حاجة أساسية لأمن الأفراد والجماعات ، والذي من أبعاده الأمن المروري ، كذلك تأتي أهمية الدراسة من خلال جانبها التطبيقي المتمثل في لفت أنظار أصحاب الاختصاص وصانعي القرار لأهمية الإعلام الأمني ودوره في التوعية المرورية والتثقيف المروري للتصدي لظاهرة اللاأمن المروري أو ما يصطلح عليها بإرهاب الطرقات.

4-مفاهيم الدراسة

4-1الإعلام الأمني: هو فرع من فروع الإعلام المتخصص ، الذي يهدف إلى إخبار الجمهور بموضوعات تخص الأمن ، عن طريق أجهزة الإعلام ووسائله المتخصصة (الصحافة ، الإذاعة ، القنوات الفضائية ، شبكات التواصل الاجتماعي)، من أجل تحقيق أكبر قدر من التوازن الاجتماعي بغية المحافظة على أمن الفرد وسلامته وسلامة المجتمع ، ويقوم به رجال الأمن ذاتهم ، كما يقوم به رجال الإعلام (1).

وقد عرفه **علي عجوة** على أنه: " الإعلام الذي يشمل المعلومات الكاملة والجديدة والمهمة ، التي تغطي جميع الأحداث والحقائق والأوضاع والقوانين المتعلقة بأمن المجتمع واستقراره ، التي يعد إخفاؤها أو التقليل من أهميتها نوعا من التعتيم الإعلامي (2).

وعرفه **البشر**: " هو تكامل جهود وسائل الإعلام الرسمية وغير الرسمية مع جهود المؤسسات الأمنية في إنتاج ونشر الرسالة الإعلامية المهنية التي تهدف إلى زيادة وعي أفراد المجتمع بأهمية الأمن وتعزيزه من جهة ، والمعالجة الهادفة للأحداث الأمنية بما يحقق الاستقرار ويبث الطمأنينة في المجتمع من جهة أخرى " (3).

من التعاريف السابقة الذكر ، نستنتج أن الإعلام الأمني يتضمن مجموعة من العناصر الأساسية ، وهي:

***التكامل:** ومعناه أن الإعلام الأمني لا يقتصر على قضية واحدة أو موضوع واحد فقط ، بل هو يتعدى ذلك المستوى إلى درجة معالجة وتناول كل القضايا والموضوعات التي تمس أمن واستقرار الفرد ، بما أن الأمن والاستقرار هو من أغلى الحاجات الفيزيولوجية للفرد.

***الرسالة:** فالإعلام الأمني عبارة عن رسالة وعن مضمون معد بدقة ، ولأهداف معينة ولتحقيق غايات منشودة تختلف باختلاف موضوع الرسالة والجمهور المستهدف منها.

***الإنتاج:** ويقصد به إنتاج الرسائل والمضامين الإعلامية وإعدادها للنشر والتوزيع.

***المهنية:** وهي التحلي بالاحترافية والصدق والموضوعية من قبل الإعلاميين ورجال الأمن أثناء تأديتهم لرسالتهم الإعلامية الأمنية الهادفة.

***النشر:** ويقصد به إخراج الرسائل الإعلامية في صورتها النهائية وايصالها إلى الجمهور المستهدف عن طريق مختلف وسائل الإعلام والاتصال ، التي تحدد وتختار حسب طبيعة الموضوع المعالج والجمهور الذي سوف توجه له هذه الرائل والمضامين.

***المعالجة الهادفة**: ويقصد بها المعالجة البناءة والطرح الإعلامي الموضوعي ، والبعد عن التناول السطحي للمواضيع والرسائل الإعلامية الأمنية ، فيجب أن تكون معالجة إعلامية هادفة تسعى إلى رفع درجة الوعي لدى الأفراد ، بالإضافة إلى محاولة إشراكهم في العملية الأمنية التوعوية وتكافل جهود الجميع من أجل إيجاد حلول جوهرية لمختلف القضايا والمشكلات التي تمس أمن الفرد والمجتمع والوطن على حد السواء..

4-2الإذاعة

أ-**لغة:** معناها المذياع ، والمذياع في اللغة هو الرجل أو الشخص الذي لا يستطيع أن يكتم السر ، ويعمل على نشره وإذاعته (4).

ب-اصطلاحا: هي عبارة عن تنظيم مهيكل في شكل وظائف وأدوار ، تقوم ببث مجموعة من البرامج ذات الطابع الترفيهي والتثقيفي والإعلامي ، وذلك لاستقبالها في آن واحد من طرف الجمهور المتناثر ، الذي يتكون من أفراد وجماعات ، وبأجهزة استقبال مناسبة (5).

وفي تعريف آخر **لفضيل دليو** يقصد بالإذاعة: ما يبث عن طريق الأثير ، باستخدام موجات كهرومغناطيسية ،

بإمكانها اجتياز الحواجز الجغرافية والسياسية، وربط مستمعيها برباط مباشر وسريع (6).

4-3التوعية المرورية

أ-**لغة:** ورد في لسان العرب: وعي: الوَعْيُ: حفظ القلب (الشيء)، وعي الشيء والحديث يعني يعيه وعيا، وأوعاه: حفظه وفهمه وقبله، وفلان أوعى من فلان، أي أحفظ وأفهم.

الوَعِيُ: الحافظ الكيس الفقيه **(7).**

ويقصد به كذلك –أي الوعي-العقل الظاهر أو الشعور الظاهر، يقال: " ما لي عنه وَعْيٌ أي بد **(8).**

ب-**اصطلاحا: الوعي المروري** بمفهومه الشامل هو: " اليقظة الحسية والمعنوية والمعرفة بكل ما يتعلق بالمرور من مركبة وطريق وأنظمة وقوانين وغيرها، بما ينعكس إيجابا على الشخص ومراعاته للأنظمة المرورية المختلفة " (9).

والتوعية المرورية عبارة عن: " منظومة السياسات والخطط والبرامج الهادفة، وإنتاج مضامين ورسائل تتعلق بمختلف جوانب الحياة المرورية، وتقوم بنشاطات وفعاليات مختلفة، وتستخدم وسائل اتصالية مختلفة من أجل نشر هذه المضامين والرسائل التي تشكل خطابا مروريا توعويا متكاملا، إلى مختلف الشرائح الاجتماعية ومختلف الجماهير المعنية بالمسألة المرورية " (10).

من خلال ما سبق تقديمه في التعريفات، نستنتج أن للتوعية المرورية مجموعة من الخصائص هي:

1-التوعية المرورية قائمة على المعرفة الكلية، بكل ما يتعلق بالمرور وقوانين المرور، والطريق وغيرها...إلخ، أي أنها تقوم على معرفة كل ما له علاقة بالمنظومة المرورية.

2-هي عبارة عن مجموعة من السياسات والخطط والبرامج الهادفة، التي يخطط لها بطريقة علمية منهجية وفق أهداف توضع لغرض التحقيق.

3-هي عبارة عن نشاط اتصالي يقوم على العديد من الدعائم الاتصالية التي تحمل مضمون رسائل التوعية المرورية.

4-تخاطب برامج وسياسات التوعية المرورية مختلف الشرائح الاجتماعية التي يمسها موضوع التوعية المرورية بالدرجة الأولى.

4-4حادث المرور

هو: الفعل الخاطئ الذي يصدر بدون قصد سابق أو عمد، وينجم عنه ضرر سواء أكان وفاة أو إصابات أم إتلاف ممتلكات، بسبب استخدام المركبة أثناء حركتها على الطريق العام " (11).

5-الدراسات السابقة

تساعد القراءة التحليلية للدراسات السابقة الباحث على تحديد العناصر التي سوف ينطلق منها والعناصر التي سوف يركز عليها دون عناصر أخرى، بالإضافة إلى أنها تعتبر إطارا نظريا ثريا يساعد الباحث على القيام بدراسته وتحليلها من جميع الجوانب والأبعاد، ويمكن الانطلاقة من النتائج التي توصل إليها الباحثون السابقون ومحاولة الوصول إلى نتائج جديدة ورؤية تحليلية جديدة للموضوع المعالج.

ونظرا لأن الموضوع المعالج في بحثنا هو موضوع متداول ومستهلك ومن زوايا متعددة، فقد وجدنا كمّا لا بأس به من الدراسات والأبحاث السابقة، لكن قد أخذنا فقط الدراسات التي لها علاقة مباشرة بدراستنا، حيث استفدنا من نقاط معينة في دراسات من جهة، وانطلقنا من نتائج دراسات أخرى من ناحية ثانية.

***الدراسة الأولى: دراسة هيبة شعوة 2007/2006:**

تحت عنوان دور القناة الإذاعية الأولى في التوعية المرورية " دراسة تحليلية ميدانية " (12).

تمحورت إشكالية الدراسة حول معرفة دور الإذاعة الوطنية ممثلة في القناة الأولى، في التوعية المرورية للسائقين ولرجال الأمن، وقد انطلقت الدراسة من التساؤلات التالية:

1-ما مدى إقبال السائقين ورجال الأمن على برامج التوعية المرورية؟

2-ما مدى أهمية برامج التوعية المرورية لدى السائقين ورجال الأمن؟

3-ما مكانة الإذاعة كأحد المصادر التي يعتمد عليها السائقون في الحصول على معلومات مرورية ؟

4-ما مدى تأثير برامج التوعية المرورية بالإذاعة الوطنية على الجوانب المعرفية والوجدانية والسلوكية للسائقين ؟

5-ما هي اقتراحات السائقين ورجال الأمن من أجل الوقاية من حوادث المرور ؟

وقد استخدمت الباحثة في دراستها المنهج الوصفي التحليلي بالاعتماد على أداتين لجمع البيانات والمعلومات ، فاعتمدت على أداة تحليل المضمون ، لتحليل البرامج الخاصة بالتوعية المرورية ، وخصت برنامجي: " ضوابط مرورية "، و" مع السلامة "، وعلى الاستمارة كأداة لجمع البيانات من السائقين ورجال الأمن ، وتوصلت الدراسة في الأخير إلى النتائج التالية:

1-احتلال التلفزيون والإذاعة المراتب الأولى في ترتيب وسائل الإعلام المفضلة للتوعية المرورية.

2-بينت الدراسة وجود إقبال على الاستماع إلى الإذاعة من طرف السائقين ، وعلى رأسها الإذاعة الوطنية.

3-بينت الدراسة أن أكثر الأماكن التي يستمع فيها السائق للإذاعة هي المركبة ، وذلك بنسبة تجاوزت 73% ، وأن الفترة الصباحية هي أفضل الفترات للاستماع لبرامج التوعية المرورية.

4-تفضيل نسبة معتبرة من السائقين تقديم برامج التوعية المرورية من طرف الرجال.

5-فيما يتعلق باللغة فقد احتلت اللغة الفصحى المركز الأول في تفضيلات الجمهور للغة البرامج التوعية ، في حين احتلت الدارجة أو اللغة العامية المركز الثاني ، والفرنسية المركز الثالث.

6-بينت الدراسة أن برامج وحملات التوعية المرورية ساهمت في إقناع السائقين بتجنب الإفراط في السرعة ، حيث فاقت نسبة المقتنعين 88%.

7-بينت الدراسة أن البرامج التوعوية ساهمت في إقناع أزيد من 91% من أفراد العينة بالاستخدام الإرادي لحزام الأمان دون مراقبة رجال المرور.

8-اعتبر الأسلوب العلمي أفضل الأساليب الإقناعية والأكثر تأثيرا على السائقين ، ثم أسلوب التخويف ثم أسلوب الأمر ، أما الأسلوب الهزلي فقد احتل المرتبة الأخيرة وبنسبة ضئيلة جدا.

9-اعتبر أفراد العينة أن الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام هي الجهات المعنية بشكل كبير بالتوعية المرورية ، في حين قللوا من أهمية رجال الأمن في هذه العملية.

10-خلصت الدراسة أن للسائقين اتجاه سلبيّا اتجاه قانون المرور واتجاه رجال الأمن ، الأمر الذي يفرض على مختلف وسائل الإعلام خاصة الإذاعة تحسين هذه الصورة.

11-يرى المستجوبون أن برامج التوعية المرورية يتخللها عدد من النقائص منها: عدم ملائمة مواقيت البث ، وقلة المدة الزمنية المخصصة لمثل هذه الموضوعات ، وكذا ضعف الأساليب الإقناعية ، والتركيز على عيوب السائقين دون عيوب المسؤولين.

*__الدراسة الثانية: دراسة أمينة حمراني 2010/2009:__ تحت عنوان الإعلام الأمني في الجزائر ودور العلاقات العامة في تطويره " الأمن المروري نموذجا " (13).

جاءت الدراسة لتسلط الضوء على مساهمة العلاقات العامة لمؤسسة الأمن الوطني والشرطة في تطوير الإعلام الأمني بالجزائر من خلال تفعيل الرسالة الإعلامية الأمنية المرورية ، وتمحورت إشكالية الدراسة حول ماهية دور العلاقات العامة في تطوير الإعلام الأمني بالجزائر ، وقد انطلقت الدراسة من الإشكالية التالية:

ما دور العلاقات العامة في تطوير الإعلام الأمني بالجزائر ؟

وسعت للإجابة على التساؤلات التالية:

1-أين يكمن دور العلاقات العامة بين الشرطة والجمهور في تطوير الإعلام الأمني بالجزائر ؟

2-هل تساهم العلاقات العامة بالشرطة في التوعية المرورية ؟

3-هل تؤدي العلاقات العامة بالشرطة فعلا دورا في التخفيض من حوادث المرور بالجزائر ؟

وقد استخدمت الباحثة في دراستها منهج المسح بالعينة ، بالاعتماد على الاستمارة والملاحظة والمقابلة كأدوات لجمع البيانات.

وتوصلت الباحثة في الأخير إلى النتائج التالية:

1-العلاقات العامة الحسنة بين الشرطة والجمهور، تساعد على التواصل بين الطرفين، ومنه تفعيل الرسالة الإعلامية الأمنية، وبالتالي تطوير الإعلام الأمني وفعاليته وكذا قدرته على التأثير في السلوك الأمني للأفراد، خاصة منه المروري.

2-العلاقات العامة بالشرطة تساهم في التوعية المرورية، وذلك من خلال نجاحها في تعديل السلوك المروري للسائقين، حيث نجحت بفضل دورها التوعوي في إقناع الأفراد بتجنب الإفراط في السرعة مع الإقناع باستخدام حزام الأمان.

3-خلصت نتائج الدراسة إلى أن العلاقات العامة بالشرطة، لا تؤدي دورا فعالا في التخفيض من حوادث المرور، وإن كانت تساهم بشكل في تحسين الأمن المروري، وتؤدي دورا متواضعا بسبب اختراق القوانين من طرف الأفراد، فإن ذلك يحول دون تحسن الأمن المروري، ودون مقدرة العلاقات العامة بالشرطة رغم دورها في تحسين الأمن المروري، لأن تحسن مستوى هذا الأمن لن يقوم على مجرد دور العلاقات العامة بالشرطة بتحسينه، بل بالتزام مستعملي الطرق بقواعد السلامة المرورية، لأن تجاوزهم للقوانين واستهتارهم بها، وكذا عدم مبالاتهم يحول دون أن يتم دور العلاقات العامة في تحسين الأمن المروري بالحصول على نتائج طيبة.

*__الدراسة الثالثة: دراسة فتيحة بن عباس 2012/2011:__ تحت عنوان دور الإعلام في التوعية والوقاية من حوادث المرور في الجزائر " مقارنة بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية " –دراسة وصفية استطلاعية- (14).

وقد ركزت إشكالية هذه الدراسة على معرفة دور الإعلام في التوعية والوقاية من حوادث المرور في الجزائر، مقارنة بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية، من حيث حوادث المرور وأسباب وقوعها وكيفية الوقاية منها في ضوء دراسة وصفية استطلاعية.

وقد اعتمدت الباحثة في دراستها على منهج المسح الوصفي، باستخدام أدوات جمع البيانات التالية (الملاحظة، المقابلة، الاستمارة).

توصلت الباحثة في الأخير إلى النتائج التالية:

1-إن دور الإعلام في التوعية المرورية مرهون بمعلومات علمية، قائمة على علاقة الفرد بقانون المرور، وهذه المعلومات لا يمكن أن تتوفر إلا بعد بحوث علمية.

2-التركيز على أهمية وضع استراتيجية اتصال متميزة مطابقة للواقع المعاش وذات مصداقية، كما يجب أن تتسم باشتمالها على كل التظاهرات التي لها علاقة بالموضوع وأن تكون مستمرة عبر الزمن.

3-إسناد عملية الاتصال والتوعية المرورية لهيئة تشرف على عمليات التنسيق بين الأخصائيين والمتعاملين في مختلف القطاعات.

4-تخصيص حصص إذاعية وتلفزيونية قارة، وكذلك ومضات تحسيسية.

5-ضرورة إقحام الحركة الجمعوية في عملية التحسيس والتوعية.

6-سياسة الوقاية يجب أن ترتكز على الفرد بالدرجة الأولى باعتباره المتسبب الأول في وقوع حوادث المرور.

*__الدراسة الرابعة: دراسة عبير تباني 2012/2011:__ تحت عنوان الحملات الإعلامية الإذاعية الخاصة بالتوعية المرورية في الجزائر " دراسة ميدانية على عينة من جمهور السائقين بولاية سطيف " (15).

جاءت هذه الدراسة في محاولة من الباحثة لتشخيص الوضع الإعلامي التوعوي الخاص بحوادث المرور في الجزائر، من خلال معرفة مدى فعالية الحملات الإعلامية المرورية، وذلك بمعرفة توجهات وآراء جمهور السائقين باختلاف خصائصهم النفسية والاجتماعية، وتوجهاتهم ومدركاتهم نحو هذه الحملات ومدى تقبلهم واقتناعهم بها، وقد ركزت الباحثة على الحملات الإعلامية المذاعة لسنة 2010، حيث انطلقت من الإشكالية التالية:

ما مدى فعالية الحملات الإعلامية (الفواصل الإعلانية) الخاصة بالتوعية المرورية والمقدمة من طرف إذاعة سطيف؟

محاولة الإجابة على التساؤلات الفرعية التالية:

1-ما مدى تعرض جمهور السائقين للفواصل الإعلانية الخاصة بالتوعية المرورية المقدمة من طرف إذاعة سطيف الجهوية؟

2-ماهي آراء جمهور السائقين في محتوى هذه الفواصل الإعلانية الخاصة بالتوعية المرورية ؟

3-ما مدى تذكر جمهور السائقين لهذه الفواصل الإعلانية الخاصة بالتوعية المرورية ولمضامينها ؟

4-هل استطاعت هذه الفواصل (كمتغير مستقل) التأثير على المستوى السلوكي لجمهور السائقين بولاية سطيف ؟

5-ماهو الدور الذي يلعبه القانون في عملية التوعية المرورية من وجهة نظر جمهور السائقين بولاية سطيف ؟

واعتمدت الباحثة في هذه الدراسة على المنهج المسحي باستخدام استمارة الاستبيان ، الملاحظة وأساليب إحصائية في تحليل البيانات.

وقدأسفرت الدراسة عن جملة من النتائج هي:

1-فيما يتعلق بمدى تلقّي جمهور السائقين للحملات الإعلامية الإذاعية (الفواصل الإعلانية) الخاصة بالتوعية المرورية إن: أغلبية السائقين يستمعون إلى هذه الفواصل ويرجع ذلك إلى خصوصية هذا النوع الإعلامي ، من حيث قصر مدته وتكرار واستمراريته واقتحامه لأجندة التعرض ، ما يجعل احتمال التعرض له أكبر.

2-بينت الدراسة فيما يخص آراء وتوجهات جمهور السائقين نحو الحملات الإعلامية (الفواصل الإعلانية) الخاصة بالتوعية المرورية أن: السائقون يفضلون بالدرجة الأولى أن تقدم هذه الفواصل الإعلانية بالعامية (اللهجة المحلية)، كونها الأقرب إلى كل فئات المجتمع باختلاف مستوياتهم التعليمية والثقافية.

3-بينت النتائج الخاصة بمدى تذكر جمهور السائقين للفواصل الإعلانية الخاصة بالتوعية المرورية أن: هناك نسبة معتبرة من السائقين يتذكرون أنهم استمعوا إلى هذه الفواصل منذ مدة قريبة ، ويتذكرون أيضا المواضيع المعالجة فيها ، وهو الأمر الذي يرجع إلى طبيعة بث هذه الفواصل الإعلانية والتي تعرض وبشكل متكرر ، هذا التكرار اعتبره المستجوبون عامل تذكير بالدرجة الأولى ويعمل كذلك على ترسيخ الأفكار المعلن عنها.

4-كشفت النتائج الخاصة بمدى تأثير الحملات الإعلامية (الفواصل الإعلانية) الخاصة بالتوعية المرورية (كمتغير مستقل) على سلوكات جمهور السائقين أن: السائقين لا يعتمدون على هذه الفواصل كمصدر للمعلومات ، حيث أكدوا عدم استفادتهم منها معرفيا نظرا لبساطة معلوماتها وعدم جدتها ، غير أنهم أشاروا إلى دور آخر لها هو إشعارهم بالمسؤولية أثناء قيادة السيارة.

5-أظهرت النتائج وجود اتجاه سلبي من السائقين نحو القانون ليس كوسيلة للتوعية في حد ذاته ، وإنما نحو طريقة اعتماده وتطبيقه حيث تنقصه الجدية والصرامة.

6-أظهرت النتائج تأثير المتغيرات السوسيوديمغرافية المعمول بها في الدراسة (السن ، الجنس ، المستوى الدراسي) على آراء وتوجهات وسلوكات جمهور السائقين.

7-كنتيجة عامة إن الحملات الإعلامية المذاعة سنة 2010 والخاصة بالتوعية المرورية ، والمتزامنة ودخول قانون المرور الجديد لسنة 2010 حيز التنفيذ ، لم تحقق درجة عالية من الفعالية.

أوجه الاستفادة من الدراسات السابقة

1-نبهتنا هذه الدراسات السابقة إلى عدد من المراجع والمصادر المعلوماتية العربية والجزائرية منها ، ذات العلاقة المباشرة بموضوع دراستنا.

2-بينت الدراسات السابقة وجهات نظر السائقين في التوعية بشكل عام ، وفي الجهات القائمة عليها ، كما بينت اتجاهاتهم نحو قانون المرور ورجال الأمن ، وكذا في البرامج التوعوية ، الأمر الذي شكل خلفية لنا ودعامة لإطارنا الميداني ، خاصة ونحن نحتاج إلى معرفة كل ما يتعلق بخلفيات السائقين واتجاهاتهم وآرائهم نحو البرامج التوعوية المرورية ، أي كانت الجهة المشرفة عليها وأي كان نوعها في الجزائر.

3-استفدنا من هذه الدراسات السابقة في بناء الإطار النظري للدراسة.

4-ساعدتنا هذه الدراسات السابقة على بناء استمارة الاستبيان ، وكذلك أفادتنا كثيرا في مرحلة تحليل النتائج ، حيث قمنا بتحليل نتائج الدراسة بناء على ما توصلت إليه دراستنا مقارنة مع ما توصلت إليه الدراسات السابقة.

ثانيا: الخلفية النظرية للدراسة:

1-أهمية الإعلام الأمني:

تعود أهمية الإعلام الأمني في المجتمعات إلى مجموعة من الاعتبارات نوجزها في النقاط التالية:

1-يزيد الإعلام الأمني من قوة المشاركة الجماهيرية في خدمة قضايا المجتمع الأمنية، وذلك من منطلق أن الإعلام يقرب وجهات النظر، ويبني رأيا عاما تجاه القضايا الأمنية، بما يدعم من الوسائل المؤثرة والفاعلة في حياة الناس، وأسلوب حياتهم، ذلك أن بناء نظام إعلامي متكامل يشكل الإعلام الأمني جزءا منه، بل واحدا من دعائمه الأساسية، هو في حقيقة الأمر أحد أكبر المهام التي تضطلع بها وسائل الإعلام في جميع المجالات.

2-تساعد وسائل الإعلام المتخصصين في المجالات المختلفة في تطويع مختلف العلوم لخدمة المجتمع، فالمجتمع البشري يزخر بالمشكلات الأمنية المختلفة التي تتطلب المواجهة والحل، وذلك باستخدام العلم وتعاون أفراد المجتمع المختصين على أداء دورهم لحل هذه المشكلات الأمنية على أساس معرفتهم بها وسبيل السواد الأعظم من الجمهور إلى هذه المعرفة هو وسائل الإعلام.

3-يعمل الإعلام الأمني على تضييق الهوة بين الثقافة العامة والمعرفة العلمية الأمنية التي ظلت لفترة طويلة حكرا على المتخصصين في المجال الأمني.

4-إن الاهتمام بالإعلام الأمني يشكل علامة من علامات انتقال المجتمعات من المرحلة التقليدية إلى مرحلة أكثر تطورا، وانتقال الممارسة الإعلامية من الشكل التقليدي إلى شكل أكثر عصرية يحترم التخصص في مختلف المجالات (16).

2-أهداف الإعلام الأمني

يسعى الإعلام الأمني إلى تحقيق مجموعة من الأهداف والغايات المنشودة، والتي من أهمها:

1-تنمية السلوك الاجتماعي العام، أي تحقيق الأمن والطمأنينة والسكينة، وذلك من خلال القيام بحملات إعلامية تهدف إلى توعية الرأي العام وتنويرهم بواجبهم حيال القضايا الأمنية التي تمسهم.

2-توفير قاعدة معلومات أمنية تضمن للرأي العام حق المعرفة بما يدور حوله من قضايا المجتمع الأمني ذات الصلة بشؤون حياته في الحاضر والمستقبل، وإشراكه بقضايا المجتمع ومشكلاته.

3-تفعيل سبل الاتصال بين الأجهزة الأمنية من جانب، والجمهور من جانب آخر (17).

وللإعلام الأمني دعائم اتصالية كثيرة، منها ما هو تقليدي ومنها ما يحمل طابع العصرية والجدة، فنجد الصحافة بشقيها الورقية والإلكترونية، الإذاعة، التلفزيون، ووسائل الاتصال الحديثة المتمثلة في شبكة الأنترنيت ومواقع التواصل الاجتماعي...إلخ

ويعد الإعلام المسموع الأكثر شيوعا والأكثر فاعلية في المجتمع نظرا لسهولة التعرض له، ولما تتصف به الإذاعة من سهولة في نقلها وإمكانية الاستماع إلى البرامج الإذاعية في أي مكان وأي زمان، في المنزل، في السيارة، أثناء العمل، فهي وسيلة لها قدرة عالية على التأثير والاستقطاب، وهي تخاطب المتعلم والأمي (18).

فالإذاعة خير وسيلة لبث رسالة الإعلام الأمني، حيث يمكن نقل رسالة التوعية الأمنية في جميع الموضوعات التي تتعلق بالأمن القومي والتي تؤثر على أمن واستقرار المواطن والدولة، وبذلك تكون الإذاعة خير وسيلة لمخاطبة الجماهير وشحذ هممهم والتأثير عليهم من خلال الرسائل التي تدعو إلى التماسك والوحدة (19).

ولأن المواضيع الأمنية تتسم بالدقة وغزارة المعلومات، الأمر الذي يتطلب التركيز وعدم التشتت، إذ أن العامل الحاسم في الصحافة الإذاعية هو الاستماع، لذلك توجب مراعاة أسلوب تقديم الرسالة واختيار المحتوى والمضمون بعناية كبيرة، فأي خلل قد يعتري عاملي التقديم واختيار المحتوى يؤدي إلى فشل الرسالة وعدم مقدرتها على الوصول إلى الغاية المنشودة، حيث إن الصوت هو الوسيلة الوحيدة لإيصال الرسالة الإعلامية الأمنية في الإعلام المسموع، فإن نجاح أو فشل الرسالة الإعلامية الموجهة عبر الإذاعة يتوقف على أسلوب طرحها وطريقة قراءتها واختيار مضمونها بدقة متناهية حتى تحقق الهدف المنشود من التأثير (20).

كما تتميز الإذاعة بجملة من الخصائص من أهمها أنها تمتلك طابع الإعلام المحلي، سهولة نقلها وتوزيع مضامينها وهي شخصية ومتحركة، بالإضافة لامتيازها بطابع التخصص، كما تعتبر الإذاعة من أسرع وسائل الإعلام الجماهيرية، وكذا هي من أسهل الوسائل الإعلامية وأقلها تكلفة وجهدا (21).

ومن أهم القضايا أو المواضيع التي يعالجها الإعلام الأمني ما تعلق منها بظاهرة إرهاب الطرقات أو حوادث

المرور ، حيث تقع على عاتق الإعلام الأمني مسؤولية التوعية المرورية والتثقيف والإرشاد المروري من أجل الحد من الارتفاع المضطرد لهذه الحوادث ولآثارها التي تمس العديد من الأطراف والجوانب ، ففي تقرير حديث عن منظمة الصحة العالمية ، أشارت فيه إلى أن الوفيات الناجمة عن حوادث المرور لا تزال في ارتفاع وتزايد مستمر ، حيث تتسبب في 1.35 مليون حالة وفاة سنويا عبر مختلف دول العالم ، ويسلط التقرير العالمي عن حالة السلامة على الطرق 2018 الضوء على أن الإصابات الناجمة عن حوادث المرور قد باتت السبب الرئيسي لإزهاق أرواح الأطفال والشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 5 سنوات و29 سنة (22).

والجزائر واحدة من بلدان العالم التي تعاني من هذه الظاهرة الخطيرة في آثارها ، فهي تحمل أبعادا كثيرة ومتعددة أهمها البعد الأمني ، البعد الاقتصادي ، البعد الاجتماعي النفسي والصحي...إلخ ، فالجزائر تحصي العديد من الوفيات والإصابات سنويا جراء حوادث المرور على اختلاف أنواعها ، ففي حصيلة جديدة صادرة عن المركز الوطني للوقاية والأمن عبر الطرق أقرت أنه في الأشهر الأولى من سنة 2017 تم تسجيل 21670 حادث على المستوى الوطني ، وفي الأشهر الأولى من سنة 2018 تم تسجيل 19788 حادث على المستوى الوطني ، أما بخصوص الإصابات فقد تم تسجيل حوالي 31540 إصابة خلال عام 2017 ، و28071 إصابة خلال عام 2018 (23).

من خلال القراءة التحليلية للمعطيات الإحصائية المبينة أعلاه نلاحظ أنّ هناك انخفاضا ملحوظا في عدد الحوادث والإصابات بين عام 2017 وعام 2018 ، إلا أن ذلك لا ينفي أن هذه الظاهرة قد استفحلت في المجتمع الجزائري ، فمصالح الأمن والشرطة في الجزائر الآن أصبحت أولويتها التقليل من خطورة الحوادث على حساب التقليل من أعدادها ، لأنه ممكن أن تكون لدينا حوادث كثيرة ولا تكون لها آثار كبيرة ، في المقابل ممكن أن تكون لدينا حوادث أقل ومخلفات كبيرة.

إذا تعتبر الجزائر من أكثر الدول عرضة لحوادث المرور ، حيث أنها تسجل يوميا العشرات من الحوادث التي تحصد الأرواح في مختلف الفئات وتخلف خسائر مادية وبشرية بالغة ، وهو ما يدفعنا للحديث عن أهم الأسباب التي تؤدي إلى وقوع حوادث المرور والتي من أهمها:

أسباب مرتبطة بالعنصر البشري: كالسياقة في حالة سكر أو تحت تأثير مخدر ، السياقة دون الحيازة على رخصة السياقة ، عدم احترام السرعة القانونية ، عدم احترام إشارات المرور ، التجاوزات والمناورات الخطيرة ، استعمال الهاتف النقال ، وعدم احترام المسافة الأمنية...

أسباب مرتبطة بالمركبة: كخلل في التجهيزات الضوئية ، انعدام الفرامل ، انفجار الأطر أو عدم صلاحيتها ، وانعدام الأضواء.

أسباب مرتبطة بالمحيط: كغياب الإشارات المرورية ، سوء الأحوال الجوية ، عبور الحيوانات ، حالة الطرق (الممهلات ، الحفر ، التشوهات ، الانزلاقات.

وفي ظل هذه المعطيات كان لزاما البحث عن آليات فعالة من أجل الحد من حوادث المرور وآثارها ، وذلك بتظافر جهود كل الأطراف التي لها علاقة ، من بينها الإعلام بمختلف وسائله ، ولعل من أهم وسائل الإعلام التي تلعب دورا كبيرا في التوعية المرورية نجد الإذاعة أو الإعلام الأمني الإذاعي ، وذلك يعود إلى الخصائص التي يتميز بها دون غيره من الوسائل ، والتي كنا قد تطرقنا إليها في مباحث سابقة ، بالإضافة إلى بعض الدراسات قد أثبتت أن مستعملي الطريق أو السائقين والذين يعتبرون طرفا أساسيا في العملية المرورية يحبذون استقبال وتلقي المعلومات المرورية من وسائل الإعلام المسموعة والتي هي الإذاعة.

ويمكن أن يلعب الإعلام الأمني الإذاعي دورا كبيرا في التوعية المرورية ، وذلك من خلال:

1-استغلال المساحات الإشهارية من أجل بث حملات التوعية المرورية كحملة ذات منفعة عامة التي يقوم به المركز الوطني للوقاية والأمن عبر الطرق.

2-استضافة ذوي الاختصاص كرجال الأمن والحماية المدنية ورجال الدرك الوطني بحكم قرابتهم وصلتهم الوثيقة بمسالة التوعية المرورية.

3-تنظيم أسبوع الإذاعة المروري كل عام وذلك بهدف التوعية المرورية والقيام بحملات تحسيسية للمواطنين باختلاف فئاتهم ، مع فتح الأبواب أمامهم من أجل الإفادة والاستفادة.

4-القيام بتغطيات إعلامية وصحفية لكل ما يتعلق بحوادث المرور.

5-إعداد حصص وبرامج إذاعية تعنى بالتوعية المرورية واختيار الوقت والزمان المناسب لعرضها، مع العمل على فتح منصة تفاعل مع المواطنين أثناء بثها.

6-تزويد الجمهور بآخر الإحصائيات حول الحالة المرورية التي تعرفها الجزائر.

كما يحقق استخدام الإذاعة في الإعلام الأمني المروري العديد من المزايا أهمها:

7-تساعد الإذاعة في تحقيق ميزة أو خاصية هامة في الإعلام المروري هي فورية الاتصال.

8-تفيد الإذاعة في تحقيق السمة الشخصية في الإعلام المروري، إذ يشعر المستمع أن الرسالة الإعلامية قد أعدت له خصيصا.

9-تساعد الإذاعة على انتشار الرسالة الإعلامية نتيجة تغطية حدود المكان ومخاطبة جميع الفئات، بما يتفق مع ثقافاتهم واهتماماتهم (24).

ثالثا: الإجراءات المنهجية للدراسة

1-نوع الدراسة ومنهجها

1-1نوع الدراسة

تتمحور دراستنا حول معرفة الدور الذي يلعبه الإعلام الأمني الإذاعي في التوعية المرورية، وذلك من خلال جمع البيانات والمعطيات الخاصة بعادات وأنماط تعرض السائقين لمحتوى مضامين الأعلام الأمني الإذاعي، وكذا معرفة آرائهم وتوجهاتهم نحوها، وذلك بغية استخلاص والخروج بنتائج وتحليلات ذات دلالات مفيدة تؤدي بنا إلى معرفة أو الإجابة عن الإشكال والتساؤلات التي طرحناها في بداية دراستنا هذه، ومن هنا فإن الدراسة الوصفية هي أنسب الدراسات لموضوعنا هذا.

وهو نوع الدراسة التي تتضمن: " دراسة للحقائق الراهنة المتعلقة بطبيعة ظاهرة أو موقف أو مجموعة من الناس، أو مجموعة من الأحداث أو مجموعة من الأوضاع " (25).

1-2منهج الدراسة

يعد المنهج الدعامة الأساسية في أي بحث علمي أو دراسة علمية، وهو يعرف بأنه: " الطريقة التي يتبعها الباحث في دراسته للمشكلة، لاكتشاف الحقيقة وللإجابة على الأسئلة والاستفسارات التي يثيرها موضوع البحث، وهو البرنامج الذي يحدد السبل للوصول إلى تلك الحقائق وطرق اكتشافها " (26).

ولأن دراستنا تدخل تحت مظلة الدراسات الإعلامية الوصفية، فإن أنسب منهج لدراستنا هو المنهج الوصفي، وهو أحد أكثر المناهج العلمية استخداما في البحوث والدراسات الإعلامية خاصة منها الوصفية، وهو يعرف على أنه: " المنهج الذي يدرس الظواهر الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والإعلامية والسياسية الراهنة دراسة كيفية توضح خصائص الظاهرة، ودراسة كمية توضح حجمها وتغيراتها ودرجاتها مع الظواهر الأخرى " (27).

2-مجتمع البحث والعينة

2-1مجتمع البحث

يمثل مجتمع البحث جميع المفردات التي نحاول ونسعى لمعرفة حقائق معينة عنها، كما أن تحديد مجتمع البحث لأي دراسة أو بحث علمي يوفر على الباحث الكثير من الجهد والوقت، وفي دراستنا هذه يمثل السائقون مجتمع البحث، وبما أننا حددنا المجال الجغرافي بولاية سطيف، فنكون قد حصرنا مجتمع بحثنا في سائقي ولاية سطيف.

2-2العينة

2-2-1تحديد واختيار العينة

لعل من أهم المشاكل التي يواجهها الباحث هي اختيار العينة للبحث العلمي، واختيار هذه العينة على جانب كبير من الأهمية، لأن عليها تتوقف أمور كثيرة، فعليها تتوقف كل القياسات والنتائج التي يخرج بها الباحث من بحثه، وفي كثير من الأحيان يضطر الباحث إلى إجراء بحثه على عينة صغيرة من المجتمع لأن إجراء البحوث على المجتمع كله يكلف جهدا ووقتا وإمكانيات (28).

وتشمل العينة جانبا أو جزءا من وحدات المجتمع الأصلي المعني بالبحث، وتكون ممثلة له بحيث تحمل صفاته المشتركة، وهذا الجزء يغني الباحث عن دراسة كل الوحدات أو ما يعرف أيضا باسم مفردات المجتمع الأصلي، خاصة في حالة صعوبة أو استحالة دراسة كل تلك الوحدات، ويتم عادة اختيار العينة وفقا لأسس وأساليب علمية (29).

ويختلف نوع العينة حسب طبيعة المشكلة المطروحة في الدراسة، وحسب الأهداف المرجوة من الدراسة، ونظرا للجهد والإمكانات والوقت الذي تتطلبه دراستنا نتيجة للخصائص التي يتميز بها مجتمع بحثنا، فإن أنسب عينة لدراستنا هي العينة القصدية، لأنها حسب اعتقادنا تمثل مجتمع البحث الأصلي تمثيلا سليما، وجاءت قناعتنا هذه بناء على إحصائيات سابقة.

وتعرف العينة القصدية على أنها: " العينة التي يقوم الباحث باختيار مفرداتها بطريقة تحكمية لا مجال فيها للصدفة، بل يقوم شخصيا بانتقاء المفردات الممثلة أكثر من غيرها، لما يبحث عنه من معلومات وبيانات، وهذا لإدراكه المسبق ومعرفته الجيدة لمجتمع البحث ولعناصره الضرورية التي تمثله تمثيلا سليما وصحيحا، وبالتالي لا يجد صعوبة في سحب مفرداته بطريقة مباشرة " (30).

وهي نوع من العينات غير الاحتمالية التي يتعمد الباحث فيها أن تتكون من وحدات معينة، اعتقادا منه أنها تمثل المجتمع الأصلي خير تمثيل (31).

2-2-2حجم العينة

بعد اختيار نوع العينة التي سوف يعتمد عليها الباحث في دراسته، يتوجب بعد هذه الخطوة القيام بخطوة أخرى على درجة عالية من الأهمية وهي تحديد حجم العينة، وحجم العينة يتحدد وفق مجموعة من الاعتبارات أهمها:

1-نوع العينة المختارة للدراسة.

2-المجال المكاني لمفردات البحث.

3-إمكانية الباحث وآجال تقديم البحث.

4-درجة التجانس داخل المجتمع الأصلي.

وفي ظل هذه الاعتبارات، ولأن مجتمع بحثنا الأصلي يحمل جزءا كبيرا من التجانس، ولأن العينة التي اخترناها كانت عينة قصدية وبمجال جغرافي واحد ومحدد، وحرصا منا على الحصول على معلومات ومعطيات دقيقة ومركزة حول موضوع دراستنا والذي هو: الإعلام الأمني الإذاعي ودوره في التوعية المرورية، وجدنا أن 200 مفردة هو عدد كافي لتمثيل مجتمع بحثنا الأصلي وخدمة أهداف دراستنا الحالية.

3-أدوات جمع البيانات

اعتمدنا في دراستنا هذه على أداة واحدة لجمع البيانات وهي استمارة الاستبيان، حيث تعرف على أنها: " أداة للحصول على الحقائق وتجميع البيانات عن الظروف والأساليب القائمة بالفعل...ويعتمد الاستبيان على إعداد مجموعة من الأسئلة ترسل لعدد كبير نسبيا من أفراد المجتمع، حيث ترسل هذه الأسئلة عادة لعينة ممثلة لجميع فئات المجتمع المراد فحص آرائها " (32).

وهو بمفهومه العام: " عبارة عن قائمة تتضمن مجموعة من الأسئلة معدة بدقة، ترسل إلى عدد كبير من أفراد المجتمع الذين يكونون العينة الخاصة بالبحث، ويعرف أحيانا بأنه صحيفة تحوي مجموعة من الأسئلة التي يرى الباحث أن إجابتها تفي بما يتطلبه موضوع بحثه من بيانات، وهو أحد اهم الوسائل التي يعتمد عليها الباحث في تجميع البيانات والمعلومات ومصادرها، وعليه فإن الاستبيان هو مجموعة من الأسئلة التي يطرحها الباحث على المستجوَبين وفق توقعاتهم للموضوع، والإجابة تكون حسب توقعات الباحث التي صاغها في استفسارات محددة "(33).

وقد قمنا بإعداد الاستمارة بعد قيامنا بالمراجعة الدقيقة لمشكلة البحث وتساؤلاته الفرعية، وذلك بتحويل تلك التساؤلات إلى محاور رئيسية، تتفرع عن كل محور مجموعة من الأسئلة، وقد اعتمدنا على الأسئلة المغلقة بنسبة كبيرة في الاستمارة، ثم بعد ذلك تم إخراج الاستمارة في شكلها النهائي، حيث احتوت على 21 سؤالا موزعا على أربعة محاور رئيسية، وذلك على النحو التالي:

المحور الأول: متعلق بالبيانات الشخصية، وقد احتوى على أربعة أسئلة.

المحور الثاني: متعلق بمدى تعرض السائقين لمحتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة، وقد ضم خمس أسئلة.

المحور الثالث: متعلق بآراء وتوجهات السائقين في محتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة، وقد احتوى على ست أسئلة.

المحور الرابع: متعلق بمدى تأثير محتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة على سلوكيات السائقين، وقد احتوى على ست أسئلة.

رابعا: الإطار الميداني للدراسة

1-تفريغ وتحليل نتائج الدراسة

بالنسبة للمحور الأول: محور البيانات الشخصية

1-بلغت نسبة المبحوثين الذكور 80%، في حين بلغت نسبة الإناث 20%، وهو ما يعكس واقع السياقة في مجتمعنا الجزائري من طرف الجنسين، ففي وقت ماض كانت قيادة السيارة حكرا على الذكور فقط، لكن بعد التطور الذي عرفه المجتمع الجزائري سواء في ارتفاع حظيرة المركبات وكذا تطور المستوى التعليمي لغالبية أفراد المجتمع، أدى إلى ازدواجية العديد من الأمور بين الجنسين والتي من بينها قيادة السيارة.

2-بلغت نسبة المبحوثين الذين تتراوح أعمارهم من 20-30سنة 60%، وهي أعلى نسبة وجاءت في المرتبة الأولى، تليها نسبة المبحوثين الذين تتراوح أعمارهم من 30-40سنة بنسبة 25%، وهي ثاني مرتبة، تلتها الفئة العمرية من 40-50سنة التي بلغت نسبتها 10%، وأخيرا الميحوثين الذين تتراوح أعمارهم بين 50-60سنة، وبنسبة 5%.

وهي نتائج منطقية تعكس الفئات العمرية المكونة للمجتمع الجزائري، ومن خلال الجدول نلاحظ أن فئة الشباب هي الفئة الغالبة، وهو ما يحيل إلى أن المجتمع الجزائري هو مجتمع شبابي تغلب فيه فئة الشباب على باقي الفئات العمرية الأخرى.

3-بلغ عدد المبحوثين الذين مستواهم التعليمي جامعي نسبة 60%، وهي نفس النسبة التي بلغها المستجوبون المستوى التعليمي ثانوي، تلتها نسبة المستجوبين الذين مستواهم التعليمي متوسط بنسبة بلغت 29%، في حين احتلت فئة أمي وابتدائي من المستوى التعليمي للمبحوثين المراحل الأخيرة، حيث بلغت نسبة المبحوثين ذو المستوى الابتدائي 10%، ونسبة المبحوثين ذو المستوى الأمي نسبة 1%.

وهي نتائج نظهر العلاقة الوثيقة بين متغير السن ومتغير المستوى التعليمي، حيث أن غالبية المستجوبين هم من فئة الشباب وهو ما يعكس مستواهم التعليمي الذي تأرجح بين الجامعي والثانوي والمتوسط كأعلى نسب تحققت في الدراسة.

4-بلغت نسبة المستجوبين الذين تتراوح خبرتهم في السياقة من 3-5سنوات نسبة 60%، وهي أعلى نسبة، تلتها نسبة المستجوبين الذين تتراوح خبرتهم في السياقة بين5-10سنوات وذلك بنسبة 20%، بعدها المستجوبون الذين لديهم خبرة في السياقة تقل عن ثلاث سنوات وذلك بنسبة بلغت 17.5%، وفي آخر مرتبة المستجوبون الذين تزيد خبرتهم عن 10سنوات، وذلك بنسبة بلغت 2.5%.

بالنسبة للمحور الثاني: مدى اطلاع السائقين على محتوى مضامين التوعية المرورية التي تقدمها الإذاعة

1-بلغت نسبة المستجوبين الذين أحيانا مايستمعون لمحتوى مضامين التوعية المرورية التي تقدمها الإذاعة50%، وهي جاءت أولا، تلتها نسبة المستجوبين الذين يستمعون دائما لمحتوى هذه المضامين بنسبة بلغت 30%، وأخيرا قدرت نسبة المستجوبين الذين نادرا ما يستمعون إلى محتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة 20%، وهي نسب تعكس المتابعة المتذبذبة لهذه المحتويات، فليس هناك متابعة دائمة ومستمرة لها، وهو ما يؤدي في كثير من الأحيان إلى فشل الحملات أو الرسائل الإعلامية التوعوية، لأنه من أساسيات التأثير في الجمهور المستهدف أو المتلقي هو ضمان تعرضه لمحتوى هذه المضامين وتكرار ذلك التعرض، مع مراعاة أن يكون ذلك التعرض انتقائيا ومخططا له وأن لا يكون على سبيل الصدفة، لأن القصد في مثل هذه الحالات هو السبيل الأقرب لتحقيق الأهداف والغايات المنشودة من القائم بالاتصال في الرسائل والحملات الإعلامية التوعوية.

ويعود ذلك إلى مختلف الخصائص التي يتميز بها الإعلام الأمني الإذاعي، خاصة وأن الإذاعة وسيلة يسهل تحريكها واستخدامها، كما أن جل الأوقات يقضيها المستجوبون أي السائقون داخل مركباتهم، وهو ما يؤدي إلى

تعرضهم واستماعهم لهذه المضامين داخلها يكون أكبر من أي مكان آخر كالمنزل مثلا.

3-بلغت نسبة المستجوبين الذين يفضلون الاستماع لمضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة بمفردهم 75%، وهي أعلى نسبة تلتها نسبة المستجوَبين الذين يستمعون لهذه المضامين مع الأصدقاء بنسبة 20%، وهي ثاني مرتبة، وأخيرا من يفضلون الاستماع لمحتوى هذه المضامين مع العائلة وذلك بنسبة بلغت 5%، وتعود هذه النتائج إلى طابع الخصوصية والفردية للإذاعة، بالإضافة إلى السائق هو الطرف الأساسي في معادلة العملية المرورية، وبالتالي يحس نفسه على قدر كبير من المسؤولية اتجاه نفسه واتجاه الطريق واتجاه الآخرين، وهو ما يحفز على الاستماع والتعرض لهذه المضامين بصفة فردية، وإن تصادف في مرات التعرض لها مع الأصدقاء أو الزبائن أوقات العمل، وفي أحيان أخرى مع أفراد العائلة بغية المنفعة العامة للجميع والتوعية المرورية لكل أفراد العائلة.

4-بلغت نسبة المستجوبين الذين يفضلون الفترة الصباحية لبث مضامين التوعية المرورية عبر الإذاعة 85% وهي أعلى نسبة وجاءت في المرتبة الأولى، تلتها فترة الظهيرة بنسبة بلغت 10% وهي ثاني مرتبة، ثم تلتها الفترة المسائية وذلك بنسبة قدرت ب 5%، وفي الأخير الفترة الليلية وهي الفترة التي لم تحصل على تفضيل المستجوبين حيث بلغت نسبتها 00%، ويعود تفضيل المستجوبين للفترة الصباحية إلى ملائمة أوقات البث والعرض مع أوقات عمل المستجوبين أي السائقين، خاصة في الصباح وهي فترة ذروة النشاط بالنسبة للسائقين، كما أنّ الحالة النفسية والذهنية للسائق تكون على درجة عالية من القابلية والاستعداد لاستقبال والتعرض لمثل هكذا مضامين، خاصة إذا عرفنا بأن هذه المضامين التوعوية تحتاج إلى قدر عال من التركيز والانتباه، وتتفق نتائج دراستنا مع غالبية نتائج الدراسات السابقة التي من بينها دراسة الباحثة تباني عبير " رحمة الله عليها " 2012 ودراسة هيبة شعوة2007، وهي الفترة التي غالبا ما تبث فيها حصص وبرامج خاصة بالتوعية المرورية، أما بالنسبة لفترة الظهيرة فهي غالبا ما تكون لعرض الفواصل الإعلانية كحملة ذات منفعة عامة الخاصة بالتوعية المرورية وهو ما جعلها تكون في المرتبة الثانية، أما بالنسبة للفترة المسائية والفترة الليلية فهي ليست فترات محببة للمستجوبين للاستماع إلى محتوى هذه المضامين.

5-بلغت نسبة المستجوبين الذين يستمعون إلى مضامين التوعية المرورية بطريقة عادية 50%، وهي أعلى نسبة وجاءت في المرتبة الأولى، في حين بلغت نسبة المستجوبين الذين يستمعون لهذه المضامين بتركيز عال جدا 25%، وهي مرتبة مشتركة حيث أنها نفس النسبة بالنسبة للمبحوثين الذين لا يبالون عند الاستماع لهذه المضامين وذلك بنسبة 25% أيضا، وتعود هذه النتائج إلى أن غالبية المستجوبين يستمعون إلى هذه المضامين بطريقة عادية لأن تركيزهم خاصة إذا كانوا داخل مركباتهم يكون منصبا على أمور أكثر أهمية كإشارات المرور والمارة والحواجز الأمنية وغيرها، وهو ما يحول دون التركيز والانتباه الدقيق لهه المضامين، كما أن التركيز العالي على أي موضوع يكون نابع من الاهتمام المسبق والمعرفة القبلية بالموضوع المعالج، وهذا يقودنا للحديث عن مراحل الاستجابة أو السلوك وحتى التأثير فقبل أن نصل إلى هذه المراحل هناك مراحل أخرى على درجة عالية من الأهمية كالانجذاب، الرغبة والانتباه للموضوع المراد تحقيق التأثير منه، أما بالنسبة للذين لا يبالون بهذه المضامين ومحتواها فيعود ذلك ربما إلى طابع التكرار والديمومة لهذه المضامين وهو ما يجعل منها راسخة عند البعض، وعند البعض الآخر تصبح على درجة عالية من الملل.

المحور الثالث: آراء وتوجهات المستجوبين نحو مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة

1-بلغت نسبة المبحوثين الذين يرون بأن مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة مكررة ولا تحمل طابع الجدة 45% وهي أعلى نسبة وجاءت في المرتبة الأولى، تلتها نسبة الذين يروا بأنها مهمة وذلك بنسبة بلغت 40%، وهي ثاني مرتبة، وأخيرا من يروا بأنها غير مهمة وذلك بنسبة بلغت 15%. وتعود هذه النتائج إلى غالبية مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة هي مضامين مكررة ولا تحمل طابع الجدة وذلك لأنها تتناول نفس المواضيع ودائما ما تركز على أخطاء السائقين وكأن السائق وحده من يتحمل مسؤولية حادث المرور، في حين أن الواقع يثبت تدخل العديد من العناصر في ظاهرة حوادث المرور والتي من بينها

المحيط كحالة الطرقات وكذا المركبة ، كما أن المعالجة لهذه المواضيع دائما ما تركز علة المشكلة دون التطرق إلى الحل ، لكن مع هذا فهي تبقى أي مضامين التوعية المرورية على درجة عالية من الأهمية لدى البعض لأنها تعتبر عامل تذكير بالنسبة للسائقين ولمسؤوليتهم تجاه أنفسهم وتجاه عائلاتهم واتجاه الطريق ومرتاديه ، وهي تتناول مواضيع ومشكلات تدخل في إطار اهتماماتهم وانشغالاتهم ، وإذا كانت هذه المضامين غير مهمة في نظر البعض الآخر فيعود ذلك إلى التطور الكبير الذي نشهده في مجال تكنولوجيا الإعلام والاتصال خاصة ما تعلق منها بوسائل الإعلام والاتصال ، حيث أصبح الحصول على المعلومة التي نريد من شتى المصادر أمرا ميسرا ومتاحا للجميع وهو ما يدفع بالعديد من الأفراد إلى الاهتمام بوسائل معينة دون وسائل أخرى وهو مرتبط كذلك بعامل خصوصية وامتيازات كل وسيلة ومعايير تفضيلها من شخص إلى آخر.

2-قدرت نسبة المستجوبين الذين أبدوا عدم إعجابهم بمحتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة 60% وهي أعلى نسبة وجاءت في المرتبة الأولى ، تلتها نسبة 40% وهي نسبة المستجوبين الذين أبدوا إعجابهم بمحتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة. ويعود هذا إلى أن مواضيع هذه المضامين تبقى على نفس الوتيرة ، أي أنها لا تعرف تطورات ، فالقائم بالاتصال هنا لا يراعي التغيرات التي تحدث في المجتمع والتي من بينها اتجاهات وسلوكات المستقبل لهذه المضامين ، فالسائق إن أحس نفسه دائما المقصود باللوم والعتاب وأنه المسؤول الأول والوحيد عن الحوادث المرورية يتولد لديه نوع من النفور عن هذه المضامين التوعوية وإن كانت على درجة عالية من الأهمية ، فالإعجاب يتولد عن عدة أمور ، منها التنويع في المواضيع المعالجة والمطروحة ، إعداد هذه المضامين بناء على معطيات واقعية ، محاولة معالجة المشكلة من جذورها وليس إعطاء قراءات سطحية فقط لها ، بالإضافة إلى محاولة إشراك السائقين في هذه العملية وخلق همزة وصل بينهم وبين رجال الأمن والشرطة لأن الهدف واحد لكن الوصول إليه يتطلب تظافر جهود الجميع وكل من له علاقة بالموضوع من قريب أو بعيد.

3-أوضحت النتائج أن غالبية المستجوبين يفضلون تقديم مضامين التوعية المرورية التي تقدمها الإذاعة باللغة العامية الدارجة وذلك بنسبة بلغت 65% ، وهي أعلى نسبة تلتها نسبة المستجوبين الذين يفضلون تقديمها باللغة العربية وذلك بنسبة 25% ، ثم باللغة الأمازيغية وذلك بنسبة قدرت ب 10% ، وفي المرتبة الأخيرة جاءت اللغة الفرنسية التي حصلت على نسبة 00%. يعود هذا إلى أن هذه المضامين التوعوية في غالب الأحيان هي مضامين موجهة لغالبية فئات المجتمع ، والمعروف أن هذه الفئات تختلف في الخصائص والسمات وهو ما يجعل من اللغة العامية أقرب إليهم كما أنها هي اللغة الأكثر تداولا وفهما ، وحتى نصل إلى المتلقي يجب أن نخاطبه باللغة التي يفهمها ، ومن معايير نجاح وفعالية الرسالة الإعلامية أن تكون على درجة عالية من الوضوح والدقة حتى يتسنى للمتلقي فهمها وفك رموزها ، وهي النتيجة التي تتفق مع دراسة الباحثة تباني عبير " رحمة الله عليها " ، حيث من أهم نتائجها أن اللغة العامية هي اللغة المفضلة عند المستجوبين لتقديم مضامين التوعية المرورية ، وتختلف نتيجتنا هذه مع دراسة هيبة شعوة التي أفرزت نتائج دراستها عن أن اللغة المفضلة عند المستجوبين لتقديم مضامين التوعية المرورية من قبل الإذاعة هي اللغة العربية الفصحى ، وهي اللغة التي احتلت المرتبة الثانية في دراستنا ، كما فضل البعض تقديم هذه المضامين باللغة الأمازيغية التي أصبحت لغة رسمية وطنية في الجزائر ، بالإضافة إلى أن بعض البلديات والمدن في ولاية سطيف تتكلم اللغة الأمازيغية وهي اللغة المحلية في تللك البلديات والأماكن.

4-أوضحت النتائج أن الغالبية تفضل الأسلوب العاطفي والتخويفي لتقديم مضامين التوعية المرورية التي تقدمها الإذاعة ، وذلك بنسبة متساوية وقدرت ب 30% لكل واحد منهما ، بعدها الأسلوب الديني والأخلاقي وذلك بنسبة بلغت 25% في المرتبة الثانية ، وأخيرا جاء الأسلوب العقلي وذلك بنسبة بلغت 15%. ويعود ذلك التفضيل لأسلوب التخويف إلى قدرة هذا الأسلوب على التأثير في الفرد ، خاصة في مجال التوعية المرورية ، فعندما يتذكر السائق العقوبات الجزائية والمتابعات القضائية التي تلي ارتكاب المخالفات والحوادث المرورية على حد السواء يدفعه إلى الشعور بالمسؤولية والتركيز أثناء القيادة ، بالإضافة إلى أن الحوادث والمخالفات المرورية هي ظاهرة ذات أبعاد متعددة منها البعد

الأمني ، ومن أكثر الأشياء التي يخاف الإنسان فقدانها هي روحه أو حياته والإنسان وفق سجيته وطبيعته الفطرية هو عاطفي ويتأثر في أكثر المواقف بالعاطفة وليس بالعقل ، كما أن للأسلوب الديني والأخلاقي قوة تأثير كبيرة أيضا وذاك نابع من كون المجتمع الجزائري مجتمعا إسلاميا تحكمه أحكام الشريعة والدين والمعلوم أن ديننا ينهي عن إلقاء النفس إلى التهلكة وينهى عن إزهاق الأرواح ، وغالبية آثار ومخلفات حوادث المرور هي مخلفات بشرية ، وللدين الإسلامي منظور وأحكام خاصة بهذه التجاوزات والمخالفات ، أما الأسلوب العقلي قدرة تأثيره في مثل هذه المواضيع تبقى محدودة نتيجة تناوله لحجج وبراهين تكون معلومة عند المستجوبين وكأنها مفاهيم مجردة ، ولهذا أصبحت غالبية الحملات الإعلامية تقوم بدمج الأسلوب العقلي مع الأسلوب العاطفي والأساليب التأثيرية والإقناعية الأخرى من أجل الحصول على نتائج أكثر فاعلية وأكثر نجاعة.

5-أوضحت نتائج الدراسة أن غالبية المستجوبين يتأثرون بمحتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة بطريقة آنية مرتبطة بوقت التعرض لها ، وذلك بنسبة بلغت 70% ، وهي النسبة التي جاءت في المرتبة الأولى ، ثم تلتها فئة المستجوبين الذين يتأثرون بمحتوى هذه المضامين عند التعرض لموقف مشابه للموقف المقدم في تلك المضامين وذلك بنسبة قدرت ب 20% ، وهي ثاني مرتبة ، بعدها المستجوبون الذين يستمر تأثرهم بمحتوى تلك المضامين لفترة قصيرة بعد التعرض لها وذلك بنسبة 10% ، وفي المرتبة الأخيرة الفئة التي تتأثر دائما بتلك المضامين حيث أن تأثيرها دائم وذلك بنسبة 00%. إن آفة العلم هي النسيان ، والإنسان بطبيعته ينسى الأمور التي لا يحب تذكرها ، وفي مجال التوعية المرورية فالسائق في غالب الأحيان يتأثر بطريقة آنية بمحتوى مضامين التوعية المرورية وبعد فترة ينساها ، لكن يحدث عنده تذكر لها إذا صادفه حدث مشابه وهو ما يشير إلى ضرورة التقارب الزمني بين محتوى هذه المضامين وموضوع مشابه لها على أرض الواقع يتعرض له السائق ، وذلك يستدعي وجود مؤشرات تهدد سلامة السائق أو قائد المركبة الأمر الذي يحيله مباشرة إلى تذكر محتوى مضامين التوعية المرورية التي سبق وتعرض لها من قبل ، وكما لاحظنا فقد انعدمت نسبة المستجوبين الذين يكون لديهم تأثر دائم بمحتوى هذه المضامين ، كما يجب الإشارة هنا إلى نقطة حساسة جدا لضمان نجاح الحملات والرسائل الإعلامية ألا وهي المتابعة والتقييم ، لأن هذه الخطوة تساعد الباحث على معرفة مواطن الضعف والقصور في الرسائل السابقة وبناء على ذلك يشرع في تصميم رسائل جديدة وفق استراتيجيات وأساليب جديدة.

6-أظهرت النتائج أن من أكثر الأسباب التي تؤدي إلى عدم عمل المستجوبين بنصائح وإرشادات مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة هو الاعتقاد بالقدر خيره وشره ، وذلك بنسبة بلغت 40% وهي أولى مرتبة ، تلتها نسبة التعود على سلوكيات معينة وذلك بنسبة 25% وهي ثاني مرتبة ، بعدها وبنفس النسبة بسبب عدم الاهتمام والإهمال ، وكذا عدم الاقتناع بهذه المضامين المقدمة ، وأنا دائما أحترم قانون المرور حيث جاءت هذه الأسباب جميعا بنسبة مشتركة قدرت ب10% لكل سبب ، وجاء في المرتبة الأخيرة سبب عدم تعرضي لحدث مرور من قبل وذلك بنسبة 5%. تعود هذه النتائج إلى أن في كثير من الأحيان تقف فروض النظرية القدرية عائقا أمام عمل السائقين بمحتوى مضامين التوعية ، وذلك أن السائق أو الفرد يؤمن بأن كل حادث يصيب الفرد هو أمر مقدر له وليس لديه دخل فيه أصلا ، ومرد ذلك أن في بعض الحوادث المرورية يكون السائق محتاطا وواضعا لحزام الأمان وغيرها ومحترم لإشارات المرور ومع ذلك يتعرض لحادث مرور ، بالإضافة إلى أنه إذا كان الفرد متعودا على سلوكيات معينة فتغيير تلك السلوكات والاتجاهات ليس بالأمر الهين بل هو يحتاج إلى دراسات معمقة ، فهناك العديد من السلوكات تكون سببا كبيرا في حوادث المرور من بينها سلوك المخاطرة ، وإذا كان الفرد دائما يحترم المرور ويطبق قواعده ولم يتعرض من قبل إلى حادث مروري فإن هذه المعطيات تقف حصنا منيعا أمام قابلية تعرض وعمل المبحوثين بنصائح وإرشادات مضامين التوعية المرورية.

المحور الرابع: مدى تأثير محتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة على السائقين

1-بلغت نسبة المستجوبين الذين يستوعبون محتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة بدرجة متوسطة 55% وهي أعلى نسبة واحتلت المرتبة الأولى ، ثم تلتها درجة استيعاب كبيرة بنسبة 25% ، وفي المرتبة الأخيرة درجة استيعاب ضعيفة بنسبة قدرت ب 20%. تبدو هذه النتائج

منطقية، ويعود ذلك إلى الأسلوب الذي تقدم به هذه المضامين، فهي تقد بأسلوب بسيط وواضح ومفهوم لدى غالبية فئات المجتمع، خاصة إذا تم تقديمه باللغة العامية أو الدراجة، قد تكون درجة الاستيعاب ضعيفة في حال ما إذا تم استضافة شخصيات في هذه البرامج التوعوية وتكون هذه الشخصيات على مستوى عال من الكفاءة ممكن تكون الرسالة من خلالهم غير مفهومة، كما أن الحالة الذهنية التي يكون عليها السائق والحالة النفسية كذلك تلعب دورا كبيرا في درجة استيعاب السائقين لمحتوى هذه المضامين. ومنه يمكن القول إن درجة استيعاب المستجوبين لمحتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة مرتبط بمدى إدراك ومعرفة المستجوبين لحساسية الموضوع المعالج وأهميته ومساسه بالعديد من الجوانب التي تحتل مكانة كبيرة في حياة المستجوبين منها السلامة الصحية، سلامة الممتلكات.

2-أظهرت نتائج الدراسة ان غالبية المستجوبين لا يشعرون بشيء عند التعرض أو الاستماع لمحتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة وذلك بنسبة قدرت ب 30% وهي النسبة التي احتلت المرتبة الأولى، تلتها فئة المستجوبين الذين يشعرون بالمسؤولية بنسبة 25%، ثم فئة المستجوبين الذين يشعرون بالملل والنفور عند التعرض لهذه المضامين وذلك بنسبة 20%، وفي المرتبة الأخيرة وهي مرتبة مشتركة بين فئة من يشعرون بالخوف ومن يشعرون بالحزن والنفور وذلك بنسبة 12.5% لكل فئة. يرتبط شعور السائق بشيء من عدمه بجملة من العوامل النفسية والاجتماعية التي تكون الفرد في حد ذاته، فليس كل سائق يتعرض لهذه المضامين يتأثر بها كما يتأثر بها الآخرون، فطريقة التأثير تختلف من سائق إلى آخر فهناك سائقين لديهم حس المسؤولية تجاه أنفسهم وتجاه الطريق واتجاه عائلاتهم، وهو ما يدفعهم إلى التجاوب بدرجة كبيرة مع مضامين التوعية المرورية، في حين نجد فئة من السائقين تشعر بالنفور والملل من هذه المضامين نظرا لتكرارها الدائم والكبير لدرجة الملل كما أنها لا تحمل معارف جديدة بما أن الفرد سائق فهو على دراية تامة بقانون المرور وقواعده وكذا أحكام المخالفات المرورية وعقوباتها وغيرها وهو ما يجعله يستغني عن هذه المضامين، وفي أحيان أخرى تكون هذه المضامين ذات تأثير عاطفي كبير إذا ما اعتمدت على قالب القصة والدراما في التقديم وهو ما يولد لدى المتلقي شعورا بالحزن والخوف والتأثر وتنجح هذه الاستراتيجية مع الأفراد السائقين العاطفيين والذين كانت لهم تجارب مسبقة أليمة مع حوادث المرور.

3-قدرت نسبة المستجوبين الذين لا يقومون بأي سلوك بعد التعرض لمحتوى مضامين التوعية المرورية 60% وهي أعلى نسبة، وجاءت في المرتبة الثانية فئة المستجوبين الذين يقومون بسلوك معين بعد الاستماع والتعرض لمحتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة وقد قدرت نسبتهم ب 40%. من خلال هذه النتائج يتضح أن غالبية المستجوبين لا يتأثرون بمحتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة بدرجة كبيرة، وما يترجم ذلك هو عدم قيامهم بأي سلوك عند التعرض لها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن التأثير على السائقين بالأساليب العقلية والعاطفية والتوعوية لا يعطي ثماره، مقارنة لو ربطنا الأمر بالردع القانوني أو المراقبة المستمرة من قبل رجال الأمن والدرك فإن الأمر يختلف، وهو ما يدفعنا للتساؤل لماذا عندما يرى السائق الشرطي أو الدركي عن بعد يضع حزام الأمان ويخفف من السرعة، لكن بمجرد انتهاء المساءلة والتفتيش يزيح حزام الأمان ويزيد من السرعة، إذن فالأمر في حقيقته مرتبط بقناعات السائقين والخلفية الذهنية التي يملكونها عن الموضوع ومقدار السلوكات المتعودين عليها والتي يرفضون رفضا قاطعا تغييرها أو مقايضتها بسلوكات جديدة.

4-كما قلنا سابقا بلغت نسبة المستجوبين الذين قاموا بسلوك معين عند التعرض والاستماع لمضامين التوعية المرورية 40%، وقد تم ترجمة ذلك من خلال القيام بسلوكات معينة، فمن قاموا بوضع حزام الأمان بلغت نسبتهم 50% في المرتبة الأولى، في حين بلغت نسبة المستجوبين الذين خففوا من السرعة 25%، تلتها فئة من انتبهوا إلى إشارات المرور بنسبة 12.5%، وهي نفس النسبة التي حصلت عليها فئة من اطلعوا على قانون المرور وأحكامه. يرتبط سلوك التخفيف من السرعة ووضع حزام الأمان والانتباه لإشارات المرور بعامل أساسي وهو التأثير الآني والفوري لهذه المضامين على السائقين، فذلك التأثير الآني يترجم من خلال القيام بهذه السلوكات، خاصة عندما

يكون المبحوثين أو السائقين داخل مركباتهم وهو الأمر الذي يجعلهم أكثر عرضة للحوادث وأقرب إليها من الفئات الأخرى.

5-أكد غالبية المستجوبين على أن الإعلام الأمني الإذاعي أو الإذاعة تساهم في رفع مستوى الثقافة المرورية وذلك بنسبة بلغت 65%، فيما أعرب ما نسبته 35% عن عدم مساهمة الإذاعة في رفع مستوى الثقافة المرورية. وهي النتائج التي أكدتها جل الدراسات السابقة، التي أثبتت قدرة الإذاعة كوسيلة اتصال مسموعة على الرفع من مستوى الثقافة المرورية والوعي المروري لدى السائقين، لكنها تبقى جهود قليلة وبسيطة يجب العمل على تطويرها والتنويع في أساليب تقديمها حتى تحقق الأثر المطلوب، وهو ما يحيلنا إلى النتائج الموالية، حيث أعرب ما نسبته 70% من المستجوبين عن عدم رضاهم بما تقدمه هذه المضامين التوعوية، في حين أعربت ما نسبته 30% عن رضاهم عن ما تقدمه هذه المضامين، وهي نسب تدفع إلى إعادة مراجعة الأمور خاصة ما تعلق منها بإعداد الرسالة الإعلامية وتصميمها وأساليب تقديمها للمتلقين.

2-النتائج العامة للدراسة

كان الهدف من هذه الدراسة التعرف على الدور الذي يلعبه الإعلام الأمن الإذاعي في التوعية المرورية خاصة ما تعلق منه بالأمن المروري الإذاعي، وذلك بإجراء دراسة ميدانية على عينة من سائقي ولاية سطيف، بحكم أنها من أكثر الولايات الجزائرية التي تحصي سنويا المئات من الحوادث المرورية وهي تحتل المراتب الأولى وطنيا من حيث مخلفاتها، ففي إحصائيات صدرت عن المركز الوطني للوقاية والأمن عبر الطرق، احتلت ولاية سطيف المرتبة العاشرة من حيث عدد الحوادث والمقدر ب577 حادث لسنة 2017، والمرتبة الثالثة من حيث الوفيات وذلك 112 حالة وفاة، والمرتبة 16 من حيث عدد الجرحى والمصابين الذي قدر ب713 حالة إصابة لسنة2017(34)، وقد توصلت الدراسة في الأخير إلى النتائج التالية:

النتائج الخاصة بالمحور الأول

1-اشتملت العينة المبحوثة على سائقين من كلا الجنسين (ذكور وإناث)، مع ملاحظة ارتفاع نسبة الذكور مقارنة مع الإناث.

2-تباينت أعمار المستجوبين محل الدراسة، وتركزت أغلبية أفراد العينة في الفئات العمرية الشبابية (**20-30، 30-40**).

3-اشتملت عينة الدراسة على مبحوثين من مختلف المستويات التعليمية مع ملاحظة ارتفاع المستوى التعليمي عند غالبية أفراد العينة، ويعود ذلك إلى علاقة وثيقة بمتغير السن والذي غلب عليه طابع فئة الشباب.

4-بالنسبة للخبرة في السياقة، فغالبية أفراد العينة كانت خبرتهم تتراوح ما بين الخمس سنوات والعشر سنوات، بالإضافة إلى فئة أخرى كانت خبرتها أقل من ثلاث سنوات وأكثر من 10 سنوات.

النتائج الخاصة بالمحور الثاني

1-فيما يتعلق بمدى تعرض السائقين لمحتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة، أكدت النتائج أن المستجوبين يتعرضون بطريقة غير مستقرة ومتذبذبة لهذه المضامين والمحتويات، حيث بلغت نسبة الذين أحيانا ما يستمعون لهذه المحتويات 50%، وهي أكثر من النسب الأخرى وهو ما عكس عدم المتابعة الدائمة لهذه المضامين، رغم ملائمة أوقات وفترات البث لأنشطة وأعمال المستجوبين، حيث أوضحت النتائج أن الفترة الصباحية هي الفترة المفضلة عند المستجوبين للاستماع لمحتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة وذلك بنسبة قدرت ب 85%، أما عن طبيعة التعرض لهذه المضامين فقد بينت الدراسة أن غالبية المبحوثين يستمعون لهذه المضامين بطريقة عادية ودون تركيز كبير من قبلهم.

النتائج الخاصة بالمحور الثالث

1-فيما يتعلق بآراء وتوجهات السائقين نحو محتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة، أكدت النتائج أن ما تبثه الإذاعة من مضامين حول التوعية المرورية هو أمور مكررة ولا تحمل طابع الجدة وذلك بنسبة بلغت 45%، في أعرب ما نسبته 40% عن مدى أهمية هذه المضامين بالنسبة للسائقين لأنها تعالج مواضيع تهمه بالدرجة الأولى كونهم عامل أساسي وأحد أكبر أسباب حوادث المرو وهو العنصر البشري، وأظهرت نتائج الدراسة أن اللغة المفضلة للمبحوثين لتقديم هذه المضامين هي اللغة العامية الدارجة

وذلك لسهولة فهمها ولقربها منهم كونها اللغة المحلية لهم وذلك بنسبة 65%.

2-كما أظهرت الدراسة تفضيل المستجوبين لأسلوب التخويف والعاطفي لتقديم هذه المضامين ، ومن أهم نتائج الدراسة أن غالبية المستجوبين يتأثرون بطريقة آنية بمحتوى مضامين التوعية المرورية وذلك بنسبة 70% ، وهو ما يحول دون عملهم بنصائح هذه المضامين في الكثير من الحالات وللعديد من الأسباب أغلبها تعودهم على سلوكيات معينة واعتقادهم بالقضاء خيره وشره في مسألة وقوع الحوادث المرورية. التأثير الكبير عليهم وذلك ما يترجم في عدم قيامهم بسلوكات معينة بعد التعرض لهذه المضامين إلا في حالات قليلة.

النتائج الخاصة بالمحور الرابع

1-فيما يتعلق بمدى تأثير محتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة على سلوكيات السائقين بولاية سطيف ، أكدت نتائج الدراسة أن تأثير محتوى مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة هو تأثير آني يزول بمجرد انتهاء مدة المحتوى وعرضه ، وذلك ما يترجم في عدم قيام غالبية المبحوثين بأي سلوك بعد التعرض لهذه المضامين ، وذلك بنسبة 60% ، وأبدى غالبية أفراد العينة عدم رضاهم عن هذه المضامين وذلك بنسبة قدرت ب 70%.

2-فيما يتعلق بالدور الذي يلعبه الإعلام الأمني الإذاعي في التوعية المرورية ، أكدت نتائج الدراسة على أن الإذاعة تلعب دورا كبيرا وفعالا في التوعية المرورية وذلك من خلال المساهمة في توعية السائقين مروريا بالإضافة إلى رفع مستوى ثقافتهم المرورية وذلك بواسطة تزويدهم بمختلف المعارف والمعلومات التي تساعدهم على تعلم سبل الوقاية والسلامة المرورية خاصة وأنهم يعتبرون الفئة الأكثر عرضة للحوادث المرورية دون غيرها من الفئات الأخرى ، وذلك بنسبة قدرت ب 65% ، إلا أن هذه المضامين أو المحتويات الإعلامية الإذاعية التوعوية تبقى تعاني من محدودة التأثير والفعالية وهو ما أكدته نتائج الدراسة التي تم شرحها وتحليلها سابقا.

الخاتمة

تعتبر وظيفة الإرشاد والتوعية والتوجيه من أهم الوظائف التي يقوم بها الإعلام الأمني ، والذي تعد الإذاعة أو ما يعرف بالإعلام المسموع أحد أهم أقطابه ، وبالتالي تلعب الإذاعة دورا كبيرا في التوعية المرورية للجمهور خاصة وأن وظائفها في موضوع التوعية تتكامل مع وظائف الأطراف الأخرى ذات العلاقة كأمن الطرقات والمركز الوطني للوقاية والأمن عبر الطرق وغيرها ، ومنه وجب ضرورة الإعداد والتخطيط لمثل هذه البرامج بطرق علمية منهجية صحيحة ، تسبقها دراسات وأبحاث من أجل تحقيق الغايات المنشودة ، بالإضافة إلى ضرورة التعمق في دراسة الجمهور المستهدف الذي يمثل الهدف والمراد الأساسي لأي عمل إعلامي توعوي ، فمن المعلوم أن هناك العديد من المضامين والحملات التوعوية الخاصة بالأمن المروري والتوعية المرورية في الجزائر ، والتي من بينها الإعلام الأمن المروري الإذاعي ، لكن النقاش يبقى مستمرا حول مدى جدوى وفعالية هذه المضامين وتأثيرها على الجمهور المستهدف ، ومن خلال دراستنا التمسنا ما يلي:

1-تدني فعالية مضامين التوعية المرورية التي تبثها الإذاعة ومحدودية تأثيرها على الجمهور الذي تستهدفه.

2-الرهان على الإعلام وحده ليحمل مسؤولية التوعية المرورية ، وهذا خطأ كبير لأن التوعية المرورية هي مسؤولية العديد من الأطراف والجهات.

3-غياب التخطيط والتصميم الفعال للرسائل الإعلامية الموجهة للتوعية المرورية.

4-عدم اختيار الموضوعات المناسبة للطرح والمعالجة في السياق العام لهذه الرسائل ، مع ملاحظة التركيز على العموميات وإهمال الجزيئات الجوهرية التي لها دور وعلاقة كبيرة بالمشكلة الأساسية.

5-عدم التنويع في أساليب المعالجة المناسبة للموضوعات المطروحة للنقاش.

6-الإهمال الكبير لنظريات الإقناع والتأثير التي تساعد كثيرا في فهم تركيبة ونفسية المتلقي الذي ستوجه له الرسالة.

الهوامش

1-عصمت عدلي وسعد مُحَمَّد: **المدخل إلى التشريعات الإعلامية والإعلام الأمني** ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، مصر ، 2009 ، ص261.

2-علي عجوة وآخرون: **الإعلام الأمني " المشاكل والحلول "**، د ط ، دار جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية للنشر ، الرياض ، السعودية ، 2002 ، ص15.

3-مُحَمَّد البشر: **أيديولوجيا الإعلام** ، ط 2 ، دار غيناء للنشر ، الرياض ، السعودية ، 2011 ، ص68.

4-**القاموس المجاني للطلاب** " عربي ، عربي " ، ط 1 ، منشورات دار المجاني ، بيروت ، لبنان ، 1995 ، ص366.

5-عبد العزيز شرف: **المدخل إلى وسائل الإعلام والاتصال** ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، القاهر ، مصر ، 1989 ، ص103.

6-فضيل دليو: **مقدمة في وسائل الاتصال الجماهيرية** ، د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1998 ، ص135.

7-أبي الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري: **لسان العرب** ، المجلد 15 ، ط 1 ، دار صادر ، بيروت لبنان ، 2000 ، ص245.

8-مجموعة مؤلفين: **المنجد في اللغة والإعلام** ، ط 3 ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، 2002 ، ص908.

9-مُحَمَّد أديب خضور: **حملات التوعية المرورية العربية** ، د ط ، مركز الدراسات والبحوث ، جامعة نايف للعلوم الأمنية ، الرياض ، السعودية ، 2007 ، ص10.

10-المرجع نفسه: ص13.

11-راضي عبد المعطي السيد: **الآثار الاقتصادية لحوادث المرور** ، د ط ، مركز الدراسات والبحوث ، جامعة نايف للعلوم الأمنية ، الرياض ، السعودية ، 2009 ، ص18.

12-هيبة شعوة: **دور القناة الإذاعية الأولى في التوعية المرورية " دراسة تحليلية ميدانية "**، رسالة ماجيستير غير منشورة ، في علوم الإعلام والاتصال ، جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة ، الجزائر ، 2007/2006.

13-أمينة حمراني: **الإعلام الأمني في الجزائر ودور العلاقات العامة في تطويره " الأمن المروري نموذجا "**، رسالة ماجيستير غير منشورة ، في علوم الإعلام والاتصال والعلاقات العامة ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، الجزائر ، 2010/2009.

14-فتيحة بن عباس: **دور الإعلام في التوعية والوقاية من حوادث المرور في الجزائر "مقارنة بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية " – دراسة وصفية استطلاعية**-، رسالة دكتوراه غير منشورة ، في علوم الإعلام والاتصال ، جامعة الجزائر 3 ، الجزائر ، 2012/2011.

15-عبير تباني: **الحملات الإعلامية الإذاعية الخاصة بالتوعية المرورية في الجزائر " دراسة ميدانية على عينة من جمهور السائقين بولاية سطيف "**، رسالة ماجيستير غير منشورة ، في علوم الإعلام والاتصال ، جامعة مُحَمَّد خيضر ، بسكرة ، الجزائر ، 2012/2011.

16-رانيا عبد النعيم العشران وآخرون: **الإعلام الأمني في ظل المتغيرات الأمنية** ، د ط ، دار جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية للنشر ، الرياض ، السعودية ، 2018 ، ص41 ،42.

17-المرجع نفسه: ص43.

18-المرجع نفسه: ص47.

19-سيد عبد الرؤوف: **الإعلام الأمني " المشكلات والحلول "**، د ط ، دار جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية للنشر ، الرياض ، السعودية ، 2002 ، ص22.

20-اسماعيل أبو جلال: **الإذاعة ودورها في الوعي الأمني** ، د ط ، دار أسامة للنشر ، عمان ، الأردن ، 2011 ، ص122.

21-فضة عباسي فضلي ، **مُحَمَّد الفاتح حمدي: مدخل لعلوم الإعلام والاتصال " الوسائل، النماذج، والنظريات "**،ط 1 ، دار أسامة ، عمان ، الأردن ، 2017 ، ص71.

22-**التقرير العالمي عن حالة السلامة على الطرق**: منظمة الصحة العالمية ، 7 ديسمبر 2018.

23-**المركز الوطني للوقاية والأمن عبر الطرق**: الجزائر العاصمة ، 18 ديسمبر 2018.

24-مؤلف جماعي: **حوادث المرور** ، د ط ، مركز الدراسات والبحوث ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، الرياض ، السعودية ، 2005 ، ص236 ،237.

25-عبير تباني: مرجع سبق ذكره ، ص32.

26-مُحَمَّد عبد الحميد: **نظريات الإعلام واتجاهات التأثير** ، د ط ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ، 1997 ، ص131.

27-مُحَمَّد عبد الحميد: **البحث العلمي في الدراسات الإعلامية** ، د ط ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ، 2000 ، ص158.

28-مروان عبد المجيد إبراهيم: **أسس البحث العلمي لإعداد الرسائل الجامعية** ، ط 1 ، مؤسسة الوراق ، عمان ، الأردن ، 2000 ، ص157.

29عامر قندلجي: **البحث العلمي واستخدام مصادر المعلومات** ، ط 1 ، دار اليازوري ، عمان ، 1999 ، ص137.

30-أحمد بن مرسلي: **منهجية البحث في علوم الإعلام والاتصال** ، ط 3 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2007 ، ص197.

31-فاطمة عوض صابر ، ميرفت علي خفاجة: **أسس ومبادئ البحث العلمي** ، ط 1 ، دار الإشعاع ، الإسكندرية ، مصر ، 2002 ، ص196.

32-أحمد بدر: **أصول البحث العلمي ومناهجه** ، ط9 ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، مصر ، 1996 ، ص335.

33-مروان عبد المجيد إبراهيم: مرجع سبق ذكره، ص165.

34-**المركز الوطني للوقاية والأمن عبر الطرق**: مرجع سبق ذكره ، الجزائر العاصمة ، 18 ديسمبر 2018.

مواقع التواصل الاجتماعيّ أوعية جديدة لنشر الوعي الصحيّ – صفحة التفاح الأخضر على الفايسبوك أنموذجا–

Social networking sites new pools to spread health Awareness Green Apple page on Face book model

تاريخ الإرسال: 11-02-2019 تاريخ القبول: 12-04-2020

نورالدين مبني، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2
mebni@hotmail.com
كنزة حامدي، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2
lasledj.kenza@gmail.com

الملخص

هدفت هذه الدراسة إلى محاولة معرفة الأدوار التي أضحت تلعبها شبكات التواصل الاجتماعي (مواقع التشبيك الاجتماعي) بصفة عامة وموقع الفايسبوك بصفة أساسية ، وعلاقته ببناء وتنمية الوعي الصحي وغرس المفاهيم الصحية ، حيث تمحورت إشكالية دراستنا في مختلف الوظائف الاجتماعية التي يمكن أن تساهم بها مواقع التواصل الاجتماعي في نشر الثقافة الصحية. وتأسيسا على ما تقدم وبغية الوصول إلى نتائج محددة قمنا بأخذ عينة من صفحة البرنامج الصحي (التفاح الأخضر) على الفايسبوك ، محاولين بذلك الكشف عن مختلف هذه الأدوار وفي ذلك قمنا باتباع المنهج الوصفي التحليلي واعتماد أداة استمارة تحليل المضمون.

الكلمات المفاتيح: مواقع التواصل الاجتماعي ، الوعي الصحي ، الفايسبوك ، البرنامج الصحي.

Résumé

L*e but de cette étude est d'essayer de comprendre le rôle joué par les réseaux sociaux (Sites des Réseaux sociaux), principalement le site Facebook, sa relation avec la sensibilisation aux questions de santé, son efficacité dans la diffusion et le développement et inculquer des concepts de sensibilisation à la santé. La problématique de notre étude a porté sur le rôle joué par les réseaux sociaux dans le développement de la sensibilisation vis-à-vis de la santé, et afin d'obtenir des résultats spécifiques, nous avons prélevé un échantillon de la page du programme de santé « Pomme Verte » sur Face book, en suivant l'approche analytique descriptive pour une analyse du contenu.*

Mots clés *: Sites des Réseaux sociaux, sensibilisation à la santé , Face book, programme de santé*

Abstract

This study seeks to understand the role of social networks and mainly Facebook in establishing and developing health sensitization and implanting health concepts. It focuses on the various social functions that social media sites can contribute to spread health culture. In order to reach this objective, we took a sample from the health program page (Green Apple) on Facebook and we tried to reveal these various roles through the descriptive analytical approach and the content analysis form tool.

Keywords: *Social Network Sites, health sensitization, Face book, health program*

مقدمة

مع انتشار مصطلح شبكات التواصل الاجتماعي بين الأفراد ومنظمات الأعمال بشكل كبير على مدى السنوات القليلة الماضية تنوّعت أشكال تلك الشبكات الاجتماعية وأهدافها، فبعضها عام يهدف إلى التواصل العام وتكوين الصداقات حول العالم وبعضها الآخر يتمحور حول تكوين شبكات اجتماعية في نطاق محدود ومنحصر في مجال معين كالمجال الصحي مثلا.

ومن أهم هذه الفضاءات الشبكات الاجتماعية في المجال الصحي التي تُعد تطبيقات لها استعمال معتبر لتعدد وتنوع الخدمات التي توفرها، حيث تتيح التواصل مع الآخرين وتبادل المعارف والخبرات، وأصبحت مئات الصفحات على شبكة الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي مرجعية يمكن الاعتماد عليها في تكوين الوعي الصحي

وعليه فالدراسة الحالية تحاول البحث في الآثار النفسية والمعرفية والاجتماعية للشبكات الاجتماعية على اتجاهات وسلوكات المستخدمين ودورها في نشر الوعي الصحي في الجزائر.

إشكالية الدراسة

تُعدّ شبكات التواصل الاجتماعي أو ما يعرف بالتشبيك الاجتماعي -أو social media عبر الانترنيت وأشهرها على الإطلاق فايسبوك، تويتر، يوتيوب- من أحدث منتجات تكنولوجيا الاتصالات وأكثرها شعبية، ورغم أنّ هذه المواقع أنشئت في الأساس للتواصل الاجتماعي بين الأفراد لكن استخدامها امتدّ ليشمل مختلف النشاطات من خلال تداول المعلومات، إلا أنّ دور شبكات التواصل الاجتماعي لم يعد يقتصر على بث وتداول المعلومات وتبادل الآراء وربط وتكوين الصداقات في إطار المواضيع ذات الاهتمام المشترك، بل تعددت ميادينها ومجالاتها واتسعت نطاقاتها لتشمل قضايا أخرى ذات نطاقات وأبعاد مختلفة كتفعيل المشاركة السياسية ونشر وتنمية الوعي السياسي وتشكيل الرأي العام، بالإضافة إلى جوانب أخرى اقتصادية اجتماعية ثقافية وحتى إنسانية تهدف إلى التوعية والإرشاد كقضايا الصحة بصفة عامة والوعي الصحي بصفة خاصة باعتبار أنّ هذا الأخير أحد متطلبات التنمية في المجتمعات، فنظرا لأهميته أنشأت هيئة الأمم المتحدة منظمة الصحة العالمية في عام 1946م كوكالة متخصصة بهدف وصول جميع الشعوب إلى أرفع مستوى صحي ممكن على أساس أن تتولى مسؤولية الإشراف على البرامج الصحية المطبقة على مستوى العالم، ودعم تلك البرامج في الدول النامية، خصوصاً المتعلقة بالوقاية من الأمراض، باعتبارها من الجوانب المؤثرة في المحافظة على صحة البشر. فالكثير من أسباب المرض ليست مرتبطةً فقط بالتكوين الجسماني للإنسان، بل إن الكثير منها متصلٌ اتصالاً وثيقاً بالمحيط الذي يعيش فيه الفرد، وكذلك بالأسرة والمجتمع، وهو ما يعرف بمفهوم الرعاية الصحية الأولية الذي يعد أفضل وسيلةٍ لتحقيق هدف الصحة للجميع. وقد نادى مؤتمر -**ألماآتا** العالمي الذي نظمته منظمة الصحة العالمية بالاشتراك مع منظمة الأمم المتحدة للطفولة (**اليونيسيف**) في عام 1978 م بالاتحاد السوفيتي (سابقا) بأن تكون الخدمات الصحية شاملةً متكاملةً تعنى أولاً بتحسين صحة الناس وتطويرها ووقايتهم من الأمراض وتقديم العلاج لمن يحتاج إليه وتأهيل المصابين والمعاقين. كما حدد المؤتمر قائمةً إرشاديةً من ثمانية عناصر تعتبر الحد الأدنى من مجموعة الخدمات المتكاملة التي تقدم للمواطنين أولها التوعية والتثقيف الصحي للأفراد وللمجتمع عن مشاكلهم الصحية والاجتماعية.[1]

وقضية الصحة تعد من أهم القضايا اهتماما في الآونة الأخيرة وأصبحت من الأولويات لأي مجتمع يصبو لوقاية الأفراد من الأمراض والهلاك والحرص على سلامتهم والحفاظ عليهم. خاصة في ظل ما يعاني منه المجتمع من انتشار للأمراض الذي يرجع بالدرجة الأولى إلى نقص الوعي الصحي وهذا ما أثبته تقرير منظمة الطب institute of medicine الصادر عام 2004 أنّ ما يقرب من نصف البالغين في الولايات المتحدة الأمريكية يعانون من مشكلات في فهم المعلومات الصحية واستخدامها وهو ما أدى إلى ارتفاع معدلات دخول المستشفيات والتردد على خدمات الطوارئ من المرضى محدودي الوعي الصحي.[2]

وهذا ما دفع إلى تكاثف الجهود لنشر الوعي الصحي الذي يؤدّي دورا هاما في رفع مستوى الصحة العامة لدى أفراد المجتمع نظرا لأهميته، فقد اعتبره العلماء والأطباء بأنه الوسيلة الفعالة والرئيسية التي تساهم في توعية المجتمع من جهة وتحسين مستوى الصحة من جهة أخرى، ومنه يمكن

القول إنّ الوعي الصحي يعتمد على وسائل الاتصال بشكل مباشر من أجل التأثير على المجتمع وتخليص الناس من العادات والتقاليد القديمة غير السليمة وتحريرهم من الجهل والتخلف العلمي والاجتماعي وخلق أفراد ذوي مستوى عال من الوعي والمعرفة بالحقائق العلمية الخاصة بالصحة من أجل عدم الوقوع في المشاكل الصحية والأمراض.

فقد شهد الوعي الصحي تطورا مستمرا من حيث الوسائل والأشكال فتغير بتغير وسائل الاتصال والنظم الاجتماعية فأصبحت عملية الوعي الصحي تستخدم وسائل الاتصال الجماهيرية مثل التلفزيون والإذاعة والإعلام الالكتروني والذي تمثل شبكات التواصل الاجتماعي جزءا منه.[3]

وتُعدّ هذه الأخيرة أي مواقع التواصل الاجتماعي من أهم الوسائل التي اثبت إمكانيتها في نشر الوعي الصحي وهذا انطلاقا ممّا توصلت إليه بعض الدراسات حول دور شبكة الفايسبوك في تعزيز التوعية الصحية لدى الجمهور. فمواقع التواصل الاجتماعي أصبحت دعائم يعتمد عليها كوسيلة منفردة أو كدعامة لوسائل اتصالية أخرى (التلفزيون ، الإذاعة ...) ، خاصة في المنافسة الكبيرة التي تشهدها البرامج الصحية في القنوات الفضائية التي تفرض عليها مواكبة التطور الحاصل في ظل طغيان الانترنت كوسيلة حديثة عن باقي الوسائل التقليدية الأخرى من حيث نسبة المشاهدة وهذا بهدف الوصول إلى أكبر شريحة ممكنة من الجمهور.ويمكن القول إنّ هذا ما دفع ببعض البرامج الصحية كبرنامج التفاح الأخضر الذي يعرض على قناة mbc إلى النظر في ضرورة تواجده على مواقع التواصل الاجتماعي بصفة عامة والموقع الأكثر شعبية الفايسبوك بصفة خاصة ، ومنه تكمن إشكالية دراستنا في معرفة إمكانية هذه المواقع في تنمية الوعي الصحي لدى أفراد المجتمع في ظل الوضع الصحي الذي يشهده العالم ككل والوطن العربي خاصة.

وسنحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على دور صفحة البرنامج الصحي العربي **التفاح الأخضر** على مواقع التواصل الاجتماعي(الفايسبوك)-في تنمية الوعي الصحي لدى أفراد المجتمع. وبناءً على ما سبق يمكن طرح التساؤل الرئيسي التالي:

ما الدور الذي تلعبه مواقع التواصل الاجتماعي في تنمية الوعي الصحي ؟

ويندرج ضمن هذا التساؤل الرئيسي مجموعة من الأسئلة الفرعية التالية:

- ما هي نوعية المضامين الصحية التي تعرضها صفحة التفاح الأخضر عبر الفايسبوك ؟

- ما هي أساليب النشر في صفحة التفاح الأخضر على الفايسبوك ؟

- فيمَ تتمثل أهداف منشورات صفحة التفاح الأخضر عبر الفايسبوك ؟

- ما هي القيم التي تسعى منشورات التفاح الأخضر إلى ترسيخها عبر الفايسبوك ؟

- ما هي الاستمالات الإقناعية المستخدمة في منشورات التفاح الأخضر ؟

أهمية الدراسة

تكمن أهمية الدراسة في أهمية الموضوع الذي يحظى بأهمية بالغة في عالمنا المعاصر ، خاصة بعد ارتفاع معدلات المشاكل الصحية وازدياد المخاطر الناجمة عنه ، هذا الوضع الذي فرض على المجتمع الدولي تضافر الجهود لمواجهة التحديات بما فيها وسائل الإعلام بصفة عامة ومواقع التواصل الاجتماعي بصفة خاصة ، والتي تسعى إلى نشر التوعية الصحية كأداة لتعزيز الصحة وأحد العوامل المهمة لمساعدة الإنسان على التمتع بها وحجر الزاوية في التغيير الإيجابي لسلوك الأفراد والمجتمعات.

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى:

- تأسيس إطار نظري عن الشبكات الاجتماعية وعلاقتها بالمجال الصحي.

- تحديد مدى وجود وعي بأهمية الشبكات الاجتماعية واستخداماتها في المجال الصحي باعتبارها أوعية جديدة في نشر الوعي الصحي.

هيكلة البحث: للإجابة عن تساؤلات الدراسة تمّ تقسيم البحث إلى ثلاثة محاور:

المحور الأول: مدخل مفاهيمي نظري

*مفاهيم الدراسة.

*مواقع التشبيك الاجتماعي والوعي الصحي.

*منظور الدراسة.

المحور الثاني: الإطار المنهجي للدراسة.

المحور الثالث: الإطار التطبيقي للدراسة.

المحور الأول: مدخل مفاهيمي نظري

مفاهيم الدراسة

يمثل المفهوم العنصر الأساسي الذي تتكون منه المعرفة العلمية بأشكالها ومستوياتها المختلفة والمفهوم عبارة عن رمز أو فكرة تعبر عن أشياء في الواقع أو الذهن وعليه فإنّ المصطلحات التي تضمنتها دراستنا تستوجب تحديدا لدلالتها.

مواقع التشبيك الاجتماعي (Social Networking Sites): هي مواقع تسمح للمستخدمين بامتلاك صفحة شخصية ، ونشر ما يرغبون من مضامين (صور ، وتسجيلات ، ونصوص...الخ) وقد تزايد استعمال هذه المواقع بشكل مذهل ، فهناك دراسة أعدها" ديوان الاتصالات البريطاني " تؤكد أنّ نموها السريع وانتشارها الحالي يشيران إلى أنها تقنيات الاتصال السائدة حاليا لكثير من الناس ، إلى درجة أنّ من لا يملك صفحة خاصة يبدو منعزلا عن العالم[4].

ويعرفها Danahm Boyd Nicole B Ellison بأنها مواقع الكترونية تسمح للأفراد بإنشاء صفحة خاصة بهم يعرضون فيها لمحة عن شخصيتهم أمام عدد كبير أو محدد من الأفراد وفقا لنظام معين يوضح فيه قائمة المستخدمين المشاركين في الاتصال مع إتاحة إمكانية الاطلاع على صفحاتهم الخاصة ومعلوماتهم المتاحة.[5]

فالشبكات الاجتماعية إذن هي مواقع على الإنترنت يلتقي عبرها أشخاص أو جماعات أو منظمات تتقاطع اهتماماتهم عند نقطة معينة أو أكثر سواء تعلق الأمر بالقيم ، الرؤى ، الأفكار ، الصداقة العلاقات ، القرابة ، الهواية ، التجارة أو غيرها. فهي إذن مجموعة من العلاقات الاجتماعية المتنوعة ، تربط أفرادا أو جماعات بروابط ثقافية أو اجتماعية أو تجارية ، وغيره.

تعريف الفايسبوك

يعرف قاموس الإعلام والاتصال dictionary of media and communication فايسبوك على أنه موقع خاص بالتواصل الاجتماعي ، أُسّس سنة 2004 ويتيح نشر الصفحات الخاصة profiles ، وقد وضع في البداية لخدمة طلاب الجامعة وهيئة التدريس والموظفين ، لكنه اتّسع ليشمل كلّ الأشخاص.[6]

وعرفه sherry kinkophgunfer بأنه أحد مواقع الشبكات الاجتماعية ، يمثل مجتمعا دوليا على الانترنت ، وهو كل مكان يجتمع فيه أفراد المجتمع للتفاعل مع بعضهم من خلال تبادل الصور وأشرطة الفيديو وغيرها من المعلومات ، والاتصال بشكل عام مع الأصدقاء والعائلة وغيرهم.[7]

تعريف الوعي الصحي

يعرفه **الدكتور عبد الله بن عبد العزيز الشلهوب** بأنه جملة التصورات والمعتقدات والرؤى التي تعين الإنسان في حياته وتحدد سلوكه ، ويقصد به إلمام الناس بالمعلومات والحقائق الصحية وإحساسهم بالمسؤولية نحو صحتهم وصحة غيرهم ، وفي هذا الإطار يعتبر الوعي هو الممارسة عن قصد نتيجة الفهم والإقناع.[8]

ويقصد هنا بالوعي الصحي الإدراك القصدي من طرف الأفراد بالمعلومات الصحية التي تساعدهم على المحافظة على صحتهم وامتلاك نوع من المسؤولية تجاه أنفسهم وغيرهم.

الإعلام والاتصال الصحي: هو نمط اتصالي موضوعه الأساس الطب والصحة يتمّ عبر وسائل اتصالية مختلفة ويتوجّه إلى جمهور يجمع بين المتخصصين في المجال الطبي وعامة الناس سواء كانوا مرضى أو لا ، ويقوم مرتكزا على المعلومات الطبية الصحيحة التي يتمّ تعميمها وتبسيطها وإتاحتها على نطاق واسع بهدف توسيع المعرفة الطبية ونشر الثقافة الصحية التي من شأنها تعديل أو تغيير سلوكيات الأفراد نحو ما يحفظ سلامتهم ويحقق رفاهيتهم.[9]

فالإعلام الصحي هو شكل من أشكال الإعلام المتخصص الذي يهتم بدراسة القضايا المرتبطة بالصحة وتقديم الأخبار حول مختلف القضايا والأحداث الطبية والصحية بهدف توجيه الأفراد وتوعيتهم وتثقيفهم وتعليمهم.

مواقع التشبيك الاجتماعي والوعي الصحي

إنّ ثنائية الإعلام والصحّة تمثّل القاعدة التي يتأسّس عليها الوضع الصحي في يومنا هذا، فالصحة مطلب إنساني مشروع والإعلام هو الوعاء الملائم الذي يساهم في الترويج لهذا المطلب الإنساني والتأكيد عليه على أرض الواقع حيث يدرك القائمون مسؤوليتهم اتجاههم، فعالم اليوم هو عالم الثورة الإعلامية حيث أصبح الإعلام بكلّ وسائله على اختلافها (المقروءة، المسموعة، المرئية) ملازما لنا في كلّ لحظة من لحظات حياتنا وفي كلّ مكان، بل أصبح المشكّل والمهيمن على قيمنا وأفكارنا وقناعاتنا وعاداتنا وسلوكياتنا فهو المصدر الأول والأساسي لما يجري من أحداث ووقائع تدور حولنا (في كوكبنا)، ويساهم في توعيتنا لسلامة صحتنا فالمؤسسات الصحية أصبحت تعتمد بشكل كبير على الإعلام بوسائله على اختلافها كأوعية تحمل رسائلها التوعوية من خلالها إلى جمهورها وذلك بإدراكهم أنّ الإعلام هو الوسيط الأهمّ في تشكيل الرأي العام ونشر الوعي وغرس القيم وبناء عادات واتجاهات وبثّ المعلومات بصورة أسرع ومدى أوسع وتأثير أقوى[10]

أي أنّ وسائل الإعلام تقوم بممارسة الدور الحقيقي والفاعل في عملية التوعية الصحية ويستهدف الدور الذي تقوم فيه وسائل الإعلام-على تنوعها- الإنسان في المقام الأول بوصفه المحرّك لكل عناصر التنمية بهدف إعادة صياغة وتشكيل كثير من الأنماط السلوكية لدى الأفراد المكونين للمجتمعات-،وقد مثلت وسائل الإعلام الجديد محورا لعملية التواصل بالنسبة للأفراد والمؤسسات المعنية بالصحة،[11] حيث أكّد الكثير من الخبراء التقنين أنّ وسائل التواصل الاجتماعي تسيطر في الوقت الراهن على نحو 71 % من السوق الإعلامية والاتصالية عالميا، ولكل وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي خصائصها ومميزاتها وتفردها في نقل المحتوى المطلوب بثّه، ولكنها جميعا تتفق في سمة واحدة هي القدرة على تحقيق التواصل بين البشر دون حدود مكانية أو زمنية أو قيود على الحرية، وكذلك إمكانية نقل محتوى أي رسالة، سواء كانت مرئية أو صوتية أو مكتوبة ومعظم وسائل التواصل الاجتماعي والمواقع الخاصة بها يمكن الوصول إليها من أي مكان في العالم بعد أن تطورت شبكة الانترنت وأتاحت قدرا كبيرا من التفاعلية بين المستخدمين في التواصل وإمكانية مناقشة العديد من القضايا. وقد أضحت تتربع بحسب المتخصصين على وسائل التأثير الإقناعي أياً كان الهدف منها.[12]

فبالنسبة للأفراد مكنتهم هذه الوسائل من تحقيق إشباعات وحاجات في الحصول على المعلومات الصحية والوقائية لم يكن ممكنا الحصول عليها من أماكن أخرى وتحقيق التوعية الصحية من خلال المساحات الواسعة لتبادل الآراء والمناقشة التي وفرتها شبكة الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، وهو أمر عجزت عن تحقيقه وسائل الإعلام التقليدية، وقدمت بيئة ملائمة لظهور التفاعلية وانتشارها، وأتاحت فرصة اكبر للمشاركة وبالتالي انعكس ذلك على مستوى الوعي الصحي من جانب الجمهور، كذلك مكّنت الأفراد وبشكل عملي من اكتشاف اهتماماتهم، والبحث عن حلول لمشكلاتهم مع أشخاص آخرين مشابهين لهم، أو مروا بتجارب مشابهة فيقدموا خبرتهم وتجاربهم لهؤلاء الأشخاص، وإمكانية إرسال الرسائل الالكترونية عبر الشبكات الاجتماعية، وتقديم معلومات كاملة وفورية عن قضية من قضايا الصحّة أو مرض من الأمراض، وبالتالي تسهيل عملية متابعة ما ينشر أو يبثّ على المواقع الالكترونية عن هذا الموضوع.[13]

منظور للدراسة

للإجابة على تساؤلات الدراسة وتحقيق أهدافها قمنا بالاستعانة بمقاربتين نظريتين هما:

نظرية انتشار المبتكرات

يذكر "روجرز" أن الانتشار عبارة عن انتقال الأفكار والتكنولوجيات والممارسات الجديدة من مصادر ابتكارها إلى الناس، والانتشار مرتبط بالتجديدات والابتكارات، ويقاس مدى حداثة الفكرة بالبعد الزمني الذي استخدمت فيه لأول مرة، كما أنّ حداثة الفكرة هي التي تحدّد ردّ فعل الشخص اتجاهها.

ويحلل المهتمون عملية الانتشار إلى أربعة عناصر رئيسة، أولها التجديد والابتكار، ثانيها مجرى الاتصال ثالثها التنسيق الاجتماعي الذي يشير إلى مجموعة الأفراد المتباينين وهم معنيون بتحقيق هدف جمعي ويمثل الأفراد المؤسسات والمنظمات، والعنصر الرابع هو الزمن.

ويركز هذا النموذج على دراسة الرسائل الإعلامية ذات المضامين التنموية التي تهدف إلى مساعدة أفراد المجتمع لتغيير أنماط حياتهم ، فنموذج الابتكار يحتوي على فكرة أو ممارسة أو موضوع يدركه المتلقي على أنه شيء جديد. ويستند هذا النموذج على فكرة أساسها أنّ وسائل الإعلام "تستطيع في ظل ظروف معينة أن تؤثر تأثيرا مباشرا على الأفراد الذين يتعرضون لها ، أو تستطيع أن تحدث التغيير المطلوب في معارفهم ومواقفهم واتجاهاتهم ومن ثَمّ سلوكهم العلمي لتغيير أنماطهم المعيشية في الحياة ، فالأفكار المستحدثة هي جوهر الاتصال التنموي كونها تستهدف تطوير عقلية المجتمع وتكوين الاتجاهات الإيجابية نحو برامج التنمية ، على أن تتفق هذه الفكرة الحديثة والقيم والعادات والتقاليد الموجودة في المجتمع ، سواء كانت الفكرة في مجال الصحة أو تنظيم النسل أو الزراعة أو السياسة ، كما أنها تُعدّ الاختبار الحقيقي لمعرفة ما إذا كان الفرد يقبل أسلوبا للحياة أكثر تعقيداً ومتقدماً تكنولوجيا وسريع التغيير.[14]

وتمّ توظيف هذه النظرية في دراستنا للكشف عن أنواع المبتكرات الصحية والأفكار الصحية التي تمّ التركيز عليها.

نظرية ترتيب الأولويات

تتلخّص فكرة نظرية ترتيب الأولويات بأنّ هناك علاقة إيجابية قوية بين تركيز وسائل الإعلام على قضية ما ودرجة الأهمية التي يبديها الجمهور لنفس القضايا ، وهناك عوامل عديدة تؤثّر في وضع المواد الإخبارية أو الموضوعات الصحفية على الصفحة أو الصفحات أو في إطار المساحات الزمنية أو الخرائط البرامجية في الراديو والتلفزيون او عبر الوسائط الاتصالية الحديثة. بحيث يمكن أن نقرر نظريا وتطبيقا أنه اختبار مقصود وهادف للموقع والمساحة والشكل أو عوامل الإبراز المختلفة التي تضع حدودا تعبّر عن مستوى اهتمام الوسيلة الإعلامية بإخبار إعلامية معينة أو قاضيا أو موضوعات بذاتها.

وتفترض هذه النظرية أنّ وسائل الإعلام على تنوّعها لا تستطيع أن تقدم جميع المواضيع التي يختارها فيها المجتمع ، إنما يقوم القائم بالاتصال باختيار بعض هذه المواضيع التي يتمّ التركيز عليها والتحكم في محتواها وطبيعتها.[15]

وتبحث هذه النظرية في ترتيب الأولويات أو وضع الأجندة أو ترتيب الاهتمامات وتنطلق من قضية هامة وهي" أنّ وسائل الإعلام هي من يقوم بترتيب اهتمامات الجمهور من خلال إبراز القضايا التي تستحق ، وإهمال قضايا أخرى. فيبدي الجمهور اهتمامه بهذه القضايا دون غيرها.[16]

وتقودنا هذه النظرية إلى التساؤل المتعلق بنوعية مضامين صفحة البرنامج التي يقوم القائم بالاتصال بإعداد أجندتها بالتركيز على قضايا صحية معينة ، وبناءً عليه وظفت هذه النظرية في إدراج بعض الفئات كفئة الموضوع ، فئة التعليقات ، فئة الأسئلة التفاعلية.

المحور الثاني: الإطار المنهجي للدراسة

منهج الدراسة

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي لوصف وتحليل مضمون عينة من برنامج صحي بهدف التعرف على الدور التوعوي الذي تلعبه الصفحة في المجال الصحي.

عينة الدراسة

عينة الدراسة هي: "**جزء من مجتمع البحث الأصلي، يختارها الباحث بأساليب مختلفة وبطريقة تمثل المجتمع الأصلي، وتحقق أغراض البحث وتغني الباحث عن مشقات دراسة المجتمع الأصلي** "[17]

ونوع عينتنا في هذه الدراسة هي برنامج التفاح الأخضر كعينة قصدية وذلك يرجع إلى وجود البرنامج على مواقع التواصل الاجتماعي(الفايسبوك) ، وشهرة الصفحة والتي ترجع إلى شهرة البرنامج واعتبارها مرجعا صحيا لعديد من الأشخاص وهذا ما يثبته عدد المتابعين الذي يصل إلى 16 مليون متابع.

وفي هذا الإطار قمنا بتحليل 59منشور لبرنامج التفاح الأخضر على صفحته على الفايسبوك خلال شهر فيفري 2018.

أداة الدراسة

اعتمدنا في هذه الدراسة على أداة تحليل المضمون لدراسة ووصف وتحليل محتوى صفحة التفاح الأخضر على الفايسبوك. واعتمدنا على فئات تحليل المضمون التالية:

***فئة الشكل (كيف قيل؟):** فئة تصميم الصفحة، فئة عدد مرات النشر في اليوم، فئة أسلوب عرض محتوى منشورات برنامج التفاح الأخضر، فئة اللغة المستخدمة في نص المنشورات، فئة عدد الصور المرافقة للمنشورات، فئة نوع الصور من حيث الديناميكية.

***فئة المضمون (ماذا قيل؟):** فئة مواضيع المنشورات، فئة الأسئلة التفاعلية في المنشورات، فئة أهداف المنشورات، فئة القيم المنشورة، فئة الفاعلين في الصفحة، فئة الاستمالات الإقناعية، فئة عدد التعليقات، فئة عدد الإعجابات بمنشورات الصفحة.

المحور الثالث: الإطار التطبيقي للدراسة

عرض وتحليل نتائج الدراسة الميدانية

1- الصفحة الرسمية لبرنامج التفاح الأخضر

- **رابط الصفحة:**

http://www.mbc.net/greenappl

- **أهم مكونات الصفحة:**

اسم الصفحة، علامة التوثيق الزرقاء، صورة غلاف الصفحة معلومات عن البرنامج، أعجبني، مقاطع الفيديو، عدد المعجبين، الصور، دعوة الأشخاص للإعجاب بالصفحة، الصورة المصغرة للصفحة، أداة بحث عن المنشورات، رسالة الملاحظات، صفحات تم تسجيل الإعجاب بها بهذه الصفحة شريط الأحداث.

2- التحليل الكمي والكيفي لفئات الشكل في الصفحة:

فئة الشكل- كيف قيل

- **فئة تصميم الصفحة**

الجدول رقم 1: يوضح العناصر التعريفية لصفحة التفاح الأخضر

البرنامج / العناصر التعريفية	التفاح الأخضر
اسم البرنامج	✓
شعار البرنامج	X
ألوان البرنامج	✓
الهوية البصرية	✓

من إعداد الباحث

ما هو ملاحظ في الجدول أعلاه وجود بعض العناصر التعريفية من اسم البرنامج (التفاح الأخضر) وألوان البرنامج (اللون الأخضر والأبيض) والهوية البصرية (تفاحة) في حين لم تبرز بعض العناصر الأخرى كالشعار رغم أهميته باعتباره من الانطباعات الأولى في تكوين الصورة الذهنية لدى الجماهير.

الجدول رقم 2: يوضح علامة التوثيق للصفحة.

البرنامج / علامة التوثيق الزرقاء	التفاح الأخضر
متوفرة	✓
غير متوفرة	X

من إعداد الباحث

يوضح الجدول أعلاه توفر علامة التوثيق الزرقاء في الصفحة الرسمية لبرنامج التفاح الأخضر، أي أنَّ الصفحة معترف بها من طرف الموقع وأنها صفحة رسمية يمكن الاعتماد عليها.

- **فئة عدد مرات النشر في اليوم:**

الجدول رقم 3: يوضح عدد مرات النشر في الصفحة

البرنامج / عدد مرات النشر	التفاح الأخضر	
	التكرارات	النسبة%
مرة واحدة	7	%22.58
مرتين	19	%61.29
ثلاث مرات	2	%6.45
أربع مرات	0	%00
أكثر من أربع مرات	3	%9.67
المجموع	31	%100

من إعداد الباحث

من خلال معطيات الجدول المتعلق بعدد مرات النشر نلاحظ أنّ فئة النشر مرة واحدة جاءت بنسبة 22.58% وفئة النشر مرتين بنسبة 61.29% وفئة النشر ثلاث مرات بنسبة 6.45%، وفئة النشر أربع مرات 00% وجاء عدد النشر أكثر من أربع مرات في اليوم بنسبة 9.67 %.

وهذا راجع إلى حرص صفحة البرنامج على نشر المعلومات الصحية ومقتطفات من البرنامج الذي يبثّ مرة في الأسبوع والوقت المخصص للبرنامج والذي يستغرق مدة ساعة، وتنوع المواضيع التي يطرحها البرنامج في الحصة الواحدة المقسمة على فقرات مثل فقرة الكشف المبكر، فقرة التنمية الذاتية، فقرة التمارين الرياضية، فقرة التغذية.

- **فئة أسلوب عرض محتوى منشورات برنامج التفاح الأخضر**

الجدول رقم 4: يوضح أسلوب العرض في منشورات الصفحة

البرنامج / أسلوب العرض	التفاح الأخضر	
	التكرارات	النسبة%
نص	0	%00
نص+صورة	0	%00
نص+رابط	0	%00
نص+رابط+صورة	38	%64.40
نص+رابط+فيديو	0	%00
نص+فيديو	21	%35.59
نص+فيديو+رمز تعبيري	0	%00
نص+رمز تعبيري	0	%00
نص+رابط+صورة+رمز تعبيري	0	%00
نص+رابط+فيديو+رمز تعبيري	0	%00
نص+صورة +رمز تعبيري	0	%00
صورة	0	%00
المجموع	59	%100

من إعداد الباحث

يوضح الجدول أعلاه أسلوب عرض محتوى منشورات برنامج التفاح الأخضر، حيث يعتمد البرنامج على عرض منشوراته على نوعين اثنين من العرض فقط، حيث اعتمدت بنسبة مرتفعة على أسلوب نص+رابط +صورة قدرت بنسبة 64.40%، واعتمدت على أسلوب نص+فيديو بنسبة 35.59%. يرجع اعتماد المؤسسة على أسلوب نص+رابط+صورة بدرجة كبيرة على إلى طبيعة البرنامج باعتباره برنامج تلفزيوني يعتمد على الصورة والصوت ولهذا دفع إلى وضع رابط لمتابعة مقتطفات من البرنامج.

تلعب الصورة دورا كبيرا في العملية التوعوية حيث يعتقد كثير من المحللين التربويين أنّ نسبة 80% إلى 90 % من خبرات الفرد يحصل عليها عن طريق حاسة البصر، كما أنّ مبدأ سيكولوجيا يقول: إنّ الفرد يدرك الأشياء التي يراها إدراكا أفضل وأوضح مما لو قرأ عنها أو سمع شخصا يتحدث عنها، فالصورة كفيلة بتطوير كافة عناصر العملية التوعوية، وجعلها أكثر فاعلية وكفاية[18]

وتكمن أهمية استخدام الرابط في هذا النوع من الصفحات إلى ارتباط الصفحة ببرنامج تلفزيوني يبثّ في الفضائيات ومنه يعتبر الرابط البوابة التي يتمّ منها الولوج إلى البرنامج وبالتالي يتمّ ربط ما يقدم في البرنامج بالصفحة ومنه زيادة عدد المتابعين للبرنامج.

وعليه يمكن القول إنّه تمّ اعتماد استراتيجية قائمة على استخدام كل من الأساليب الثلاث الصورة+النص+الرابط بهدف تقديم التوعية الصحية الكافية لمستخدمي الصفحة باختلاف مستوياتهم التعليمية أو العمرية وتحقيق التأثير المطلوب.

- **فئة اللغة المستخدمة في نص المنشورات**

الجدول رقم 5: يوضح اللغة المستخدمة في المنشورات

البرنامج / اللغة المستخدمة	التفاح الأخضر	
	التكرارات	النسبة%
عربية فصحى	44	%74.57
فرنسية	0	%0
انجليزية	0	%0
عربية عامية(اللهجة المصرية، اللهجة اللبنانية)	9	%15.25
ازدواج اللغة (عربية عامية+انجليزية)	5	%8.47
عربية فصحة +انجليزية	1	%1.69
المجموع	59	%100

من إعداد الباحث

من خلال الجدول رقم5 نلاحظ أنّ أغلب منشورات الصفحة سواء في النصوص أو الفيديوهات كانت بالعربية الفصحى بنسبة 74.57 %، وتلتها المنشورات بالعربية العامية بنسبة 15.25%، وفيما يخص ازدواج اللغة بين العربية العامية والانجليزية فجاءت بنسبة 8.47%، وما نسبته 1.69 %جاءت في فئة عربية فصحة+انجليزية، أما الفرنسية فلم ترد إطلاقا في كل منشورات صفحة البرنامج.

ويرجع استخدام اللغة العربية الفصحى في المنشورات إلى طبيعة الصفحة باعتبارها مرتبطة ببرنامج تلفزيوني وبالتالي ترجع إلى طبيعة القناة التي يعرض فيها البرنامج وهي قناة 1 mbc وهي اختصار لمركز تلفزيون الشرق الأوسط هي شركة تلفازية عربية سعودية خاصة، تقوم ببث قنوات تلفزيونية منوعة ترفيهية وغير ترفيهية، مقرها الرئيسي يتواجد حالياً في مدينة دبي بالإمارات العربية المتحدة وتحديدًا في مدينة دبي للإعلام[19].

وبالتّالي يمكن القول إنّ هذه القناة موجهة للجمهور العربي في الشرق الأوسط والذي تجمعه اللغة العربية رغم

اختلاف اللهجات بين مختلف جماهير دول الشرق الأوسط وحتى اختلاف اللهجة بين الجمهور في الدولة الواحدة.

ويشير في هذا السياق "إبراهيم أبو عرقوب "أنه يجب أن نخاطب المستقبل بلسانه وإلا فلا يمكن أن يتم الاتصال بنجاح فمخاطبته بغير لغته تضع حواجز بينه وبين المرسل.[20]

هذا ويؤكد على أنّ منشورات الصفحة تعرض بلغة مفهومة ومتفق عليها من مختلف المتابعين وتشجع على التواصل معها ومتابعتها والاستفادة من مادتها.

- **فئة عدد الصور المرافقة للمنشورات**

الجدول رقم 6: يوضّح عدد الصور المرافقة للمنشورات

عدد الصور المرافقة للمنشورات	التفاح الأخضر	
	التكرارات	النسب%
صورة واحدة	38	%100
صورتين	0	%0
ثلاثة صور	0	%0
أكثر من ثلاثة صور	0	%0

مصدر الجدول

يشير الجدول رقم 6 إلى أنّ عدد الصور المرفقة في كل المنشور هي صورة واحدة في كل المنشورات أي مثلت نسبة 100 % ويمكن تفسير هذه النتيجة بأنّه تمّ اعتماد صورة واحدة مرافقة لكل منشور بدل من صورتين أو ثلاث كان مقصودا لهدف التركيز وعدم التشويش على المتابعين.

- **فئة نوع الصور من حيث الديناميكية**

الجدول رقم 7: يوضح ديناميكية الصور المنشورة

البرنامج / نوع الصور من حيث الديناميكية	التفاح الأخضر
ثابتة	✓
متحركة	X

مصدر الجدول

تبين من الجدول أعلاه الخاص بنوع الصور التي تعرض في صفحة التفاح الأخضر من حيث الديناميكية أنّ كل الصور ثابتة.مما يعني هيمنة الصورة الثابتة وسيادتها لتكون إحدى أهم أدوات تقديم المعرفة ، ووسيلة اتصال قائمة بذاتها تتفوق على الكلمة في أحيان كثيرة خاصة إذا ما تعلق الأمر بالمعرفة الصحية ، فقد تستطيع صورة واحدة أن تخلق فضاءات دلالية وإيحاءات رمزية ترسم أفاقا فكرية ومعرفية.

ويمكن تفسير توظيف القائمين على الصفحة للصور الثابتة إلى سهولة تحميلها ومن ثم سهولة مشاركتها.

التحليل الكمي والكيفي لفئات ماذا قيل في صفحة

- **فئة مواضيع المنشورات**

الجدول رقم 8: يوضّح المواضيع المنشورة في صفحة التفاح الأخضر

البرنامج / المواضيع المنشورة	التفاح الأخضر	
	التكرارات	النسب%
الرشاقة	10	%16.94
الطب التجميلي	1	%1.69
التغذية	11	%18.64
الطب البديل	4	%6.77
الطب النفسي	9	%15.25
الرياضة	7	%11.86
الأمراض	4	%6.77
الوقاية	6	%10.16
نصائح طبية	5	%8.47
تدابير منزلية	1	%1.69
ملخص	1	%1.69
المجموع	**59**	**%100**

مصدر الجدول

تمّ التركيز في الصفحة على تقديم مجموعة من المواضيع الصحية على اختلاف أنواعها واحتلّ كل من موضوعي الصحة والرشاقة الصدارة في الطرح وذلك بنسب متقاربة تمثلت في 18.64 %في التغذية ، و16.94 %في الرشاقة ويليها الطب النفسي بنسبة 15.25 % ،والرياضة بنسبة 11.86% ، واحتلّ موضوع الوقاية ما نسبته 10.16 % ، ويليه موضوع النصائح الطبية بنسبة قدرت ب8.47% ، أما كل من موضوع الطب البديل وموضوع التعريف بالأمراض جاءا بنسبة متشابهة قدرت ب 6.77 % ، ونسبة ضئيلة قدرت ب 1.69% مثلت كل من تدابير منزلية ، وموضوع الطب التجميلي ، ملخص عن كل ما تمّ تناوله في البرنامج.

ويمكن تفسير هذه النتائج على ضوء أهمية الغذاء في حياة الفرد فهو الأساس الذي يعتمده في بناء جسمه وعقله ونموه عموما ، ونقص الغذاء يؤدي إلى نقص المناعة ومن ثَمّ الإصابة بمختلف الأمراض. لهذا يُعدّ من أهمّ مواضيع التوعية الصحية.

أما التفضيل الثاني والذي جاء بنسبة متقاربة للتفضيل الأول فيمكن تفسيره بناءً على اتجاهين الاتجاه

الأول على أنّ الرشاقة الحلم الذي يسعى وراءه العديد من الأفراد وهذا ما جعل الصفحة تركز على طرحها كثيرا بهدف الجذب والوصول إلى أكبر عدد من المتابعين ، والاتجاه الثاني يكون ضمن هدف الصفحة في نشر التوعية ومحاربة المعتقدات الصحية المتعلقة بالرشاقة المنتشرة في مواقع التواصل الاجتماعي والتي بتناقلها الناشطون دون معرفة الأضرار بصفتهم غير مؤهلين لتقديم مختلف الاستشارات المتعلقة بالرشاقة.

وفيما يخص الصحة النفسية وهذا راجع إلى الدور الذي تقوم به مواقع التواصل الاجتماعي بصفة عامة والفايسبوك بصفة خاصة في منح ممارسي الصحة النفسية مسارات جديدة لتوفير الدعم وعلاجات مبتكرة من خلال المنصات الاجتماعية وهذا دفع بالبرنامج إلى التركيز على طرح المواضيع النفسية وتجنب أي سلوكيات نفسية خاطئة تعرض على المواقع.

ويمكن تفسير هذه النتائج بأنّ القائمين على الصفحة لديهم وعي

بأهمية القضية لدى الجمهور التي تُعدّ من المتغيرات التي تؤثر في ترتيب الأولويات. حيث افترض "كاتز وزملاؤه" ، أنّ هناك علاقة إيجابية تربط ما بين درجة اهتمام الجمهور بالقضية وبين أولوياته الشخصية. فعلى سبيل المثال ، يتابع الجمهور المواضيع التي تشكل تهديدا مباشرا له ، مثل مرض نقص المناعة المكتسبة (الايدز)، بيد أنّه يبتعد عن متابعة القضايا التي ليس لها تهديد مباشر عليه ، مثل الخوف من الحرب النووية.[21]

- **فئة الأسئلة التفاعلية في المنشورات**

الجدول رقم 09: يوضح توفر الأسئلة التفاعلية في صفحة التفاح الأخضر

البرنامج / الأسئلة التفاعلية	التفاح الأخضر
متوفرة	✓
غير متوفرة	X

من إعداد الباحث

يشير الجدول رقم 09 إلى توفر الأسئلة التفاعلية في منشورات برنامج التفاح الأخضر ، ونقصد بالأسئلة التفاعلية الأسئلة التي تطرح من طرف القائمين على إعداد الصفحة على الجمهور بغرض إثارة تفاعل متابعي الصفحة وإبداء أرائهم فيما يخص السؤال المطروح والإجابة عنه ، وتطرح الصفحة بعض الأسئلة المتعلقة بمعتقدات الجمهور عن السلوكيات الممارسة ، أو الأغذية ، أو تجارب الأفراد ، الوصفات المفضلة لديهم ، عادات التي يمارسها الجمهور.

ويمكن تفسير توفر الأسئلة التفاعلية إلى فتح المجال أمام متابعي الصفحة إلى تحديد أولويات الموضوعات الصحية التي تثير اهتمامه.

- **فئة أهداف المنشورة**

الجدول رقم 10: يوضّح أهداف منشورات الصفحة

البرنامج / أهداف المنشورات	التفاح الأخضر	
	التكرارات	النسبة%
اكتساب ممارسات صحية	20	%33.89
التعريف بالبرنامج والترويج له	3	%5.08
التثقيف الصحي	26	%44.06
حل المشكلات صحية	10	%16.94
المجموع	59	%100

من إعداد الباحث

يبين الجدول أعلاه فئة الأهداف التي تسعى صفحة التفاح الأخضر إلى تحقيقها ، حيث احتل هدف التثقيف الصدارة بنسبة 44.06% الصدارة باعتباره السعي المتواصل لتعزيز صحة الفرد والمجتمع ، ومحاولة المنع أو التقليل من حدوث الأمراض وذلك من خلال التأثير على المعتقدات ، الاتجاهات ، والسلوك فرديا ومجتمعيا.

وهي عملية يتحقق عن طريقها رفع الوعي الصحي عن طريق تزويد الفرد بالمعلومات والخبرات بقصد التأثير في معرفته وميوله وسلوكه من حيث صحته وصحة المجتمع الذي يعيش فيه.[22] وقد يُعدّ من أهم أسباب تواجد برنامج التفاح الأخضر عل الفايسبوك.

ويليه هدف إكساب ممارسات صحية بنسبة قدرت ب33.89% ونفسر اهتمام الصفحة بهذا الهدف يعود إلى أنّ الممارسة الصحية السليمة يمكن أن تتحول إلى عادةٍ تؤدي بلا شعور نتيجة كثرة التكرار ، ويعتبر ذلك من مسؤوليات الأسرة وتبيان دورها الهام في مجال تحسين الصحة ورعايتها.[23]

وهذا ما يتم تفسيره على ضوء ما جاءت به نظرية انتشار المبتكرات في مساعدة المتابعين وتشجيعهم لتبني مبتكرات جديدة تساعدهم في تغيير سلوكياتهم السلبية وتدعيم الإيجابية منها.

وحلّ المشكلات الصحية بنسبة 16.94% ويمكن تفسير هذه النتيجة بأنّ الصفحة يُعتمَد عليها كمصدر صحي لمتابعيها وهذا ما يعكس حاجاتهم المعرفية والشخصية للمعلومة الصحية خاصةً في ضوء تطور المستجدات الطبية التي تسهل عليهم مشقة الذهاب إلى الطبيب.

وهدف التعريف والترويج لبرنامج التفاح الأخضر جاء بنسبة 5.08 %وهو بطبيعة الحال من أبرز الأهداف التي تسعى إليها الصفحة وذلك لزيادة نسبة المشاهدة له وهذا بربط كل ما ينشر في الصفحة مع كل ما يعرض في التلفزيون.

- **فئة القيم**

الجدول رقم 11: يوضح قيم التي تسعى الصفحة إلى ترسيخها

البرنامج / القيم	التفاح الأخضر	
	التكرارات	النسب%
المحافظة	2	%10.52
المشاركة	4	%21.05
التحفيز	5	%26.31
الوقاية	8	%42.10
المجموع	19	%100

من إعداد الباحث

يرى فهد بن علي الطيار أنّ القيم من أكثر سمات الشخصية تأثراً بشبكات التواصل الاجتماعي ، وهي محصلة تفاعل الإنسان بإمكاناته الشخصية مع متغيرات اجتماعية وثقافية معينة (شبكات التواصل الاجتماعي)، وفي فترة زمنية معينة ، حيث توجه سلوك الأفراد وأحكامهم ، وهو ما يعطي لشبكات التواصل الاجتماعي تأثيرا إيجابيا وسلبيا عل القيم.[24]

تبين نتائج الجدول أعلاه أنّ قيمة الوقاية احتلت المرتبة الأولى بنسبة 42.10 % ، وقيمة التحفيز احتلت المرتبة الثانية بنسبة 26.31 % ، وتليها قيمة المشاركة بنسبة 21.05 % ، وما نسبته 10.52%لقيمة المحافظة.

وتفسر نتائج الجدول أعلاه انطلاقا من أنّ الوقاية الصحية أهم ما يصبو إلى تحقيقه من خلال التوعية الصحية وهذا ما أشارت إليه ميرفت مرسي في تعريفها للتوعية الصحية حيث تقول إنّ التوعية الصحية هي عملية ذات فن ومهارة تحتاج إلى خبراء متخصصين للقيام بها وتستخدم وسائل الاتصال الجماهيري لتبصير أفراد المجتمع والتأثير عليهم لتغيير المفاهيم والاتجاهات والسلوك والإقلاع عن العادات الضارة لمنع المرض والوقاية منه وتحسين أحوالهم الصحية وينبغي إشراكهم إيجابيا للقيام بذلك وهي مكملة للخدمات الصحية والوقائية والعلاجية التي تقدمها الدولة.[25]

ويمكن تدعيم هذا التوجه بالانطلاق من مقولة الوقاية خير من العلاج فالوقاية تغني الفرد عن التعرض إلى أي مرض قد يستدعي العلاج وبالتالي يمكن القول إنّ الوقاية هي أحد أهم المساعي التي يهدف الوعي الصحي لتكريسها في الأفراد.

- **فئة الفاعلين**

الجدول رقم 12: يوضح الفاعلين في صفحة التفاح الأخضر

البرنامج / الفاعلين	التفاح الأخضر	
	التكرارات	النسب%
مقدمي البرنامج	20	%40.81
ممثلين	9	%18.36
مواطن عادي	8	%16.32
أخصائيين	12	%24.48
المجموع	49	%100

من إعداد الباحث

ما يبينه هذا الجدول هو مختلف الفاعلين في مواضيع الصحة لصفحة الالكترونية لبرنامج التفاح الأخضر هم مقدمو البرنامج وهذا راجع إلى طبيعة البرنامج والذي يصنف ضمن البرامج التلفزيونية ولهذا فهو يعتمد عل مقدمين لتنشيط الحصة وبالتالي فالصفحة هي جزء من البرنامج التي تعرض مقتطفات منه وبالتالي فإنّ مقدمي البرنامج بصفة عامة وهويدا أبو هيف بصفة خاصة هي أكثر الفاعلين في الصفحة وذلك بنسبة 40.81%وتليها في الدرجة الثانية فئة الأخصائيين بنسبة 24.48 %ويمكن تفسير هذه النسبة إلى توجه الصفحة الصحي والذي يعتمد بالدرجة الأولى على أخصائيين كلّ في مجاله لتقديم الاستشارات الصحية ، وما نسبته 18.36% ، كانت من نصيب الممثلين والذي تم الاستعانة بهم لتجسيد بعض السلوكيات الصحية التي تحتاج إلى تطبيقات وبالتالي تسهيل عملية فهم واستيعاب تلك السلوكيات بشكل جيد ، والمواطنون بنسبة 16.32% ، وهذا لإضفاء صفة الواقعية على النصائح المقدمة من جهة وتبسيط المعلومة الصحية المقدمة من جهة أخرى.

- **فئة الاستمالات الاقناعية**

الجدول رقم 13: يوضح الاستمالات الإقناعية في الصفحة

الصفحة / الاستمالات الاقناعية	التفاح الأخضر	
	التكرارات	النسبة%
العقلية	43	%72.88
العاطفية	13	%22.03
المزدوجة	3	%5.08
المجموع	59	%100

من إعداد الباحث

يتضح من الجدول الخاص بالاستمالات العقلية في منشورات صفحة التفاح الأخضر أنّ الاستمالات العقلية احتلت الصدارة بنسبة 72.88 %، والاستمالات العاطفية بنسبة 22.03%، أما المزدوجة فكانت ب 5.08 %.

وقد برزت الاستمالات العقلية أكثر في المواضيع المتعلقة بالأمراض والرياضة أكثر وذلك بالاستعانة بخبراء ومختصين في المجال، والاستمالات العاطفية برزت أكثر في مواضيع الرشاقة والتجميل وهذا لتحرك غريزة الجمال وفي هذا الصدد يقول **جونفيير شارد** إنّ غريزة حبّ الجمال والغريزة الجنسية هي مصدر أساسي لسلوكيات البشر.[26]

ويمكن تدعيم نتائج الجدول أعلاه باعتماد الاستمالات العقلية كأكبر نسبة في المواضيع الصحية على ضوء ما توصلت إليه الدراسة التي قامت بها الباحثة حنان حسن صالح الكسواني بعنوان دور الصحافة الأردنية اليومية في التوعية الصحية دراسة في تحليل المضمون حيث توصلت إلى أنّ مجمل المواد الإعلامية في المواضيع الصحية تعتمد على الاستمالات العقلية بنسبة 58.52%.[27]

- **فئة عدد التعليقات**

الجدول رقم 14: يوضّح عدد التعليقات الموجودة في المنشورات

الصفحة / عدد التعليقات	التفاح الأخضر	
	التكرارات	النسب%
10إلى 20	9	%15.25
من20إلى30	9	%15.25
من30إلى40	14	%23.72
من 40الى 50	8	%13.55
من 50 فما فوق	19	%32.20
المجموع	59	%100

من إعداد الباحث

يقصد بالتعليقات هنا هو التعليق على الموضوعات والأخبار والصور التي تنشر على الموقع بالإضافة إلى التعليق على شكل الموقع وكيفية تقديمه للمعلومات وهذا بهدف التطوير من أداء الموقع والتحسين من منشوراته وفق ما يتناسب مع المعلقين عليه، أي إتاحة للمستخدم إمكانية طرح أفكاره فيما تعلق بالمنشورات.

وتمثل التعليقات درجة اهتمام المتابعين للمواضيع التي تنشر في الصفحة بالرغم من اختلافها بين ما هو سلبي كاعتراض عن بعض المواضيع أو في طريقة العرض ...الخ، وبين ما هو إيجابي كالثناء على المعلومات المقدمة في المنشور وبين ما هو عاد كالتعليق بعبارة تم وهذا لضمان وصول كل ما يكتب من تعليقات حول ذلك المنشور.

- **فئة عدد الإعجاب**

الجدول رقم 15: يوضح عدد الإعجابات بمنشورات الصفحة

الصفحة / الإعجاب	التفاح الأخضر	
	التكرارات	النسب%
من 500الى 1000	14	%23.72
من 1000الى 1500	19	%32.20
من 1500الى 2000	12	%20.33
من 2000الى 2500	8	%13.55
من 2500الى 3000	4	%6.77
من 3000الى ما فوق	2	%3.38
المجموع	59	%100

من إعداد الباحث

نلاحظ في الجدول رقم:15 المتعلق بعدد الاعجابات بمنشورات صفحة التفاح الأخضر أنّ ما نسبته 32.20 %مثلت فئة من 1000الى 15000 إعجاب، وتليها فئة من 500 إلى 1000 إعجاب بنسبة 23.72 %وما نسبته 20.33 % كانت في فئة من 1500الى 2000، وفئة من 2000الى 2500 جاءت بنسبة قدرت ب 13.55 %، وفئة من 2500الى 3000 جاءت بنسبة 6.77 %، ونسبة ضعيفة قدرت ب3.38 %كانت في فئة من3000الى ما فوق من الإعجابات.

ويمكن تفسير هذه النتائج على ضوء عدد المشتركين في الصفحة والذين بلغوا 16 مليون متابع(abonnés) ومنه يمكن القول إنّ نسب الإعجاب بمنشورات الصفحة ضعيفة مقارنة بعدد المشتركين ويمكن إرجاع ذلك إلى أنّ المشتركين لا تظهر لديهم منشورات الصفحة أو لا يعجبهم ما يعرض من محتويات في الصفحة أو لا تهمهم المواضيع الصحية المتناولة.

نتائج الدراسة

1- ينشر برنامج التفاح الأخضر على حسابه عبر الفايسبوك معلومات عن البرنامج وتوقيت عرضه والقناة التي يعرض عليها وهذا للتعريف به وزيادة عدد المشاهدة له.

2- حساب برنامج التفاح الأخضر هو حساب رسمي لامتلاكه علامة التوثيق الزرقاء.

3- صفحة التفاح الأخضر هي صفحة صحية نشطة من حيث عدد مرات النشر في اليوم والتي تصل إلى معدل منشورين في اليوم.

4- تعددت أساليب العرض على صفحة التفاح الأخضر على الفايسبوك لكنها اعتمدت بشكل كبير على الأسلوب الثلاثي المتكون من نص+رابط+ صورة.

5- اهتمام صفحة التفاح الأخضر في عرض منشوراتها على اللغة العربية الفصحى وهذا ما يؤكد توجه منشورات الصفحة إلى مختلف جماهير في الشرق الأوسط.

6- المواضيع التي تطرحها الصفحة في منشوراتها هي مواضيع صحية مختلفة تتمثل في الرشاقة ، الطب التجميلي ، التغذية ، الطب النفسي ، الرياضة ، الأمراض ، الوقاية ، النصائح الطبية.

7- تفتح صفحة التفاح الأخضر المجال لمتابعتها لتعرف أرائهم واتجاهاتهم في المواضيع الصحية من خلال طرح الأسئلة التفاعلية.

8- الهدف الرئيسي للصفحة من خلال طرح المواضيع الصحية في منشوراتها هو التثقيف الصحي ، واكتساب ممارسات صحية بشكل خاص والتوعية الصحية بشكل عام.

9- تعددت القيم التي تحاول الصفحة تكريسها من خلال منشوراتها إلى أنّه من أهم القيم التي ركزت عليها هي قيمة الوقاية الصحية.

10- تعتمد صفحة التفاح الأخضر في منشوراتها على استمالات عقلية واستمالات عاطفية بهدف تحقيق التأثير المنشود من نشر المواضيع الصحية.

خاتمة

يُعدّ الاتصال عبر شبكات التواصل الاجتماعي ظاهرة اجتماعية جديدة ، لازمت الإنسان في كل نواحي حياته المعاصرة ، إذ أضحى تفعيل العلاقات الاجتماعية بين الأفراد في مختلف المجتمعات عن طريق الاتصال الشبكي أمرا ضروريا ولازما في عملية التغير والتطوير الاجتماعي ، لأنّ أي نشاط اجتماعي أو تقدم إنساني يستدعي حتما هذا العنصر الهام.

وعطفا على ما سبق أمكن تلخيص محتوى هذه الدراسة في مختلف جوانبها في الاستنتاجات العامة التي تم التوصل إليها من خلال الوقوف على أهمية ومكانة شبكات التواصل الاجتماعي في المجتمع ككلّ كأوعية جديدة ، وكذا من خلال تحليل الوعي بأهمية توظيف التكنولوجيا الحديثة متمثلة في شبكات التواصل الاجتماعي في خدمة الأهداف المجتمعية.

فهذه الدراسة ومن خلال محتواها قدمت تصورا عاما لمفهوم الوعي الصحي بمختلف أنواعه عبر دعائم اتصالية جديدة وكذا أهمية هذه الأخيرة في المحافظة على البيئة الصحية لضمان حياة الأجيال القادمة.

وفي نافلة الدراسة تمّ التوصل إلى الآثار النفسية والمعرفية والاجتماعية للشبكات الاجتماعية على اتجاهات وسلوكيات المستخدمين ودورها في نشر الوعي الصحي من خلال تنوع المواضيع التي تطرحها الصفحة في منشوراتها فهي مواضيع صحية مختلفة ، بالإضافة الى تعدد القيم التي تحاول الصفحة تكريسها من خلال منشوراتها ، إلا أنّه من أهم القيم التي ركزت عليها هي قيمة الوقاية الصحية ، وأخيرا اعتمدت صفحة التفاح الأخضر في منشوراتها على المزج بين الاستمالات العقلية والاستمالات العاطفية بهدف تحقيق التأثير المنشود من نشر المواضيع الصحية.

الهوامش

1 أحمد ريان باريان: دور وسائل الإعلام في التثقيف الصحي للمرأة السعودية بمدينة الرياض (دراسة ميدانية)، رسالة ماجستير، قسم الإعلام، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، 2004/2003، رسالة منشورة، ص16-17

2عماد عيسى صالح، أماني مُحَمَّد السيد: دور المكتبات العامة في تنمية الوعي الصحي ومكافحة الأزمات الصحية العالمية- دراسة استكشافية مقارنة لبرامج وأنشطة المكتبات في ضوء وباء الأنفلونزا-، ورقة بحثية مقدمة في المؤتمر العشرون للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات، آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، 9-11 ديسمبر 2009، ص1

3مُحَمَّد فاضل علي: دور شبكة الفايسبوك في تعزيز التوعية الصحية لدى الجمهور (دراسة مسحية من وجهة نظر المختصين في وزارة الصحة الأردنية)، رسالة ماجستير، كلية الإعلام، جامعة الشرق الأوسط، 2017، رسالة منشورة، ص1-2.

4 إبراهيم بعزيز: دور وسائل الاتصال الجديدة في إحداث التغيير السياسي في البلدان العربية، المجلة العربية للعلوم السياسية، (جامعة الجزائر)، ص 178

5Danahm Boyd Nicole B Ellison, Social Network Sites; Definition, History and Scholarship, Journal of computer Mediated Communication, vol 13, 2010, p13

6 مريم ناريمان نومار: استخدام مواقع الشبكات الاجتماعية وتأثيره في العلاقات الاجتماعية، دراسة عينة من مستخدمي موقع الفايسبوك في الجزائر، ماجستير، قسم العلوم الإنسانية، جامعة حاج لخضر، باتنة، 2011-2012، منشورة، ص 55.

7 Sherry Kinkophgunter, sams teach yourself Facebook in 10 minutes, pearson education, 3ed edition, usa 2012, p5

8عبد الملك بن عبد العزيز الشلهوب: دور الإعلام في تحقيق الوعي الصحي، على الموقع الالكتروني: http://skinandallergy.org/wp تم الاطلاع عليها في 2018/08/17 على الساعة 23:10

9 أمال توهامي: الإعلام الصحي والتنمية الشاملة...قراءة في المفهوم وتحديات العلاقة، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة صالح بوبنيدر قسنطينة، عدد جوان 217، المجلد أ، ص 301

10هاشم أحمد النغميش الحمامي: الإعلام الصحي في التلفزيون، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 16، جانفي2016، ص .11

11بشرى داود السنجري: الاشباعات المحققة من استخدام المرأة العراقية لشبكات التواصل الاجتماعي في مجال التوعية الصحية (الفيس بوك انموذجا) مجلة الدراسات الإعلامية، (المركز الديمقراطي العربي)، العدد الرابع أوت 2018، ص469

12حنان احمد سليم، الحملات الإعلامية عبر الإعلام الجديد، ط 2، د د ن، 2016، ص 31.

13 بشرى داود السنجري: مرجع سابق، ص469

14 حنان حسن صالح الكسواني: دور الصحافة الأردنية اليومية في التوعية: دراسة في تحليل المضمون، رسالة ماجستير في الإعلام، جامعة الشرق الأوسط للدراسات، 2009، منشورة، ص20

15 منال هلال الزاهرة: نظريات الاتصال، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن، 2012، ص327

16 Judith Lazar, Sociologie de la communication de masse, Paris, Armand colin, 1997, P 149

17 جودت عزت عطوي: أساليب البحث العلمي، د ط، دار الثقافة الدار العلمية الدولية للنشر، الأردن، 2000، ص 85

18 عبد المجيد العابد: أهمية الصورة في العملية التعليمية التعلمية على الموقع http://www.m.ahewar.org تم الاطلاع عليها في 2019/01/19 على الساعة 17:12

19https://ar.wikipedia.org/wiki

20إبراهيم أبو عرقوب: الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، د ط، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2009، ص194

21حسن مكاوي، ليلي السيد: الاتصال ونظرياته، ط2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1998، ص294

22نادية مصطفى العيدروس احمد: فاعلية وسائل التثقيف الصحي في بث ونشر المعلومات الصحية لبناء مجتمع المعرفة الصحي السوداني، المركز القومي للبحوث- مركز التوثيق والمعلومات، السودان، 2012، ص 175- 176

23احمد ريان باريان: مرجع سابق، ص 48

24فهد بن علي الطيار: شبكات التواصل الاجتماعي وأثرها على القيم لدى طلاب الجامعة "تويتر نموذجا" دراسة تطبيقية على طلاب جامعة الملك سعود، على الموقع /www.researchgate.net تم الاطلاع عليه في 2019/1/15 على الساعة 18 :12

25مُحَمَّد الحفناوي: الصحافة والتوعية الصحية، د ط، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، 2014، ص134

26عواج سامية: الإشهار التلفزيوني والسلوك الاستهلاكي للمرأة، ط1، الوراق للنشر والتوزيع، الأردن، 2016، ص 239

27حنان حسن صالح الكسواني: مرجع سابق، ص97

صحافة الويب في الجزائر: نحو التمكين الأكاديمي والمهني

Web journalism in Algeria: Towards academic and professional empowerment

تاريخ الإرسال:29-01-2019 تاريخ القبول: 2020/04/12

هشام عكوباش، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2
Akoubache.hichem@outlook.fr

الملخص

سعت هذه الدراسة إلى التعرف على ممارسة صحافة الويب في الجزائر ومتطلباتها الأساسية ، والمرتبطة أساسًا بالتحكّم الجيد في تكنولوجيا الإعلام والاتصال وتطبيقاتها المختلفة من قبل مهنيي الإعلام ؛ ويعد مطلب التكوين الأكاديمي وفق هذا المنحى ضرورة ملِحّة لا يمكن إغفالها في ظل نظام تعليمي جامعي استحدثته الجزائر ؛ يفترض أن يستجيب لمتطلبات المجتمع وتحولاته ، وهذا شأن صحافة الويب كنمط جديد للممارسة الإعلامية في الجزائر.

الكلمات المفاتيح:صحافة ، الويب ، التكوين ، الجامعة ، التمهين

Résumé

Cette étude vise à identifier la pratique du webjournalisme en Algérie et ses exigences fondamentales, qui sont principalement liées à la bonne maitrise des technologies de l'information et de la communication et de ses diverses applications par les professionnels des médias. La formation académique à cet égard est une nécessité non-négligeable.Ça rentre dans le cadre d'un système d'enseignement universitaire mis au point par l'Algérie; ce dernier est censé répondre aux demandes et aux changements de la société, comme c'est le cas pour le webjournalisme, nouveau modèle des pratiques médiatiques en Algérie.

Mots-clés :Journalisme, web, formation, l'université, Profission

Abstract

This study aims to identify the practice of webjournalism in Algeria and its fundamental requirements, which are mainly related to abillity of using information and communication technologies and its various applications by media professionals. academic training in this respect is a non-negligible necessity. And that as part of a system of the university education developed by Algeria; this latter is supposed to respond to the demands and changes of society, as is the case for webjournalism, a new model of media practices in Algeria.

Keywords:Journalism, Web, Training, University, Profission

مقدمة

عرفت الجزائر نقلة نوعية في الكثير من المجالات، ومن بينها الانتشار المتزايد للتكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال، ونذكر في هذا الإطار الاستخدام الواسع للهواتف المحمولة والذكية منها، التي تعتمد على إنترنت الجيل الثالث والرابع، بالإضافة إلى إنتشار الإنترنت على نطاق كبير في المؤسسات العمومية والخاصة، وكذلك الشأن بالنسبة للإنترنت المنزلي، والولوج المكثف لمواقع التواصل الاجتماعي. هذه التغيرات في البيئة الاتصالية وكذا الإعلامية أفرزت أنماطا جديدة للاتصال بين الأفراد والجماهير، ومن هذه الأنماط ظهور ما يسمى بصحافة الويب، أو الصحفي الويب التي تعتمد بشكل أساسي على الوسائط الجديدة وتطبيقاتها، وبدرجة أكبر على الإنترنت.

إن هذا النوع المخصوص والجديد يعتمد على التقنية في شكله ومضمونه، ويمزج في تركيبته بين النص المكتوب، المسموع، والمرئي، وعلى الروابط الكثيرة(النص المتشعب)، بالإضافة إلى التفاعل المستمر مع المستخدمين، من خلال الرسائل الإلكترونية والشبكات الاجتماعية وغيرها... هذه النشاطات تستلزم التحكم الجيد في التقنيات وتطبيقاتها من طرف المهنيين، وحسبنا أن يتلقّى هؤلاء تكوينا جامعيا خاصا من أجل التمكين في هذا المجال.

ولقد بات السؤال ملحّا حول التكوين الإعلامي الجامعي في الجزائر ومدى انسجامه مع التمهين الإعلامي وتحولاته. وهذا على مستوى البرامج، والتدريب، والأساتذة المؤطرين، والتجهيزات الضرورية التي تضمن تكوينا يبني المهارات اللازمة لمزاولة نشاطات صحافة الويب، ويفترض التطلّع إلى أفق جديد قصد الاستجابة إلى شروط ومعايير هذا الميدان الجديد بمختلف أبعاده، وفق رؤية وإستراتيجية وطنية تبني تعلّمات مبنية على المهارات والكفاءات، ولا تكتفي بالتغير المعرفي للمتكونين. ورغم التعثر الذي يواجه نظام التعليم العالي لـ ل.م.د؛ إلا أن هذا النظام يمكن أن يقدم إجابات عن بعض المسائل المرتبطة بالنشاطات والمهن الجديدة التي أعادت تشكيل ملمح الإعلام الجزائري؛ على اعتبار أنه قائم على فكرة التفاعل المستمر مع حاجات المجتمع ومتطلباته والاستجابة لها.

إن الواقع الجديد المتعلق بالممارسة الإعلامية في الجزائر وما يحمله من أبعاد، يطرح الكثير من التساؤلات، ومنها الإعلام المتصل بالإنترنت وتطبيقاته وعلاقته بالتكوين الأكاديمي. ومن المسائل التي تستلزم الوقوف عندها: **ملامح صحافة الويب ومتطلبات التكوين، سمات التكوين الإعلامي في الجزائر في ظل التحولات الجديدة، ونظرة استشرافية للتكوين على صحافة الويب في الجزائر وتحدياته**، وهذا ما تروم هذه الورقة العلمية الإجابة عنه.

أولا: مفاهيم الدراسة

1- صحافة الويب

يصنف مفهوم صحافة الويب، أو صحفي الويب ضمن المفاهيم المستحدثة؛ حيث ظهر وتطوّر مع تنامي استخدام تكنولوجيات الاتصال والإعلام الجديدة في مجال الصحافة والنشاطات المرتبطة بها. إلا أن محاولة تحديد معالم هذا الفعل الاتصالي يواجه تباينا وتعددا في التسميات، واختلافا في رسم التصور المفهومي لهذا الفعل، ومن بين التسميات نذكر: الصحافة السيبرانية (cyberjournalisme)، صحافة الوسائط المتعددة (Journalisme multimédia)، الصحافة على الخط (Journalisme en ligne)، صحافة الويب (Web journalisme) وغيرها من التسميات...[1]، كما أن هناك عدم توافق في تحديد مفهوم هذه التسميات؛ فهناك من يرى أنه لا وجود لصحافة الويب، وأن الممارسات التي نلحظها في الوقت الراهن ماهي إلا شكل من أشكال الصحافة التقليدية أُدخلت عليها وسائل جديدة، أما الرأي الآخر فيذهب إلى أننا أمام جنس جديد من الممارسة الصحفية تبلور بفعل استخدام وسائط اتصالية جديدة.

يُعتبر Mark Deuze (2004) من الأوائل الذين تساءلوا حول مفهوم الصحفي متعدد الوسائط، وقد توالت التساؤلات حول ملامح الصحفي الويب وفق منظور سوسيولوجيا مهنة الصحافة، ومن أجل الخروج من هذا الغموض والالتباس يذهب الباحثون المهتمون بهذا الموضوع إلى تقسيم هذا الواقع انطلاقا من الضرورات البحثية، إلى التفريق بين صحفي الويب والصحفي التقليدي، رغم أنه من المستبعد أن يكون هناك صحافيون يمارسون اليوم عملهم بالطرق التقليدية دون الاستفادة من وسائط الاتصال الحديثة والإنترنت بالدرجة الأولى وهذا ما سمح بظهور صحافة الويب[2].

وبعيدا عن هذا الجدل، تعرّف صحافة الويب على أنها:" شكل من أشكال العمل الإعلامي يقوم على استخدام الإنترنت بصفة أساسية، ومن خلال الوسائل

الإلكترونية والتقليدية، أو الصحف على الخط[3]. ويعتبر ((Pelissier: أن صحافة الويب هي محصّلة التزاوج بين الإعلام والاتصال والثورة التكنولوجية في مجال الإعلام والاتصال (التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال)"[4]. وتأسيسا لذلك فإن مفهوم صحافة الويب مرتهن بالوسائط الجديدة للاتصال، وتعتمد جل نشاطات إنتاج المحتوى الإعلامي فيها على تطبيقاته المختلفة والمتعددة.

2- التمكين الجامعي

يعتبر التمكين مصطلح إداري يحمل دلالة توسيع صلاحيات العاملين من أجل اتخاذ قرارات تخدم الإدارة؛ حيث يعرّف بأنه: عملية اكتساب القوة اللازمة لاتخاذ القرارات والاسهام في وضع الخطط، خاصة تلك التي تمس وظيفة الفرد واستخدام الخبرة الموجودة لدى الأفراد من أجل تحسين أداء المؤسسة[5]. إلا أن استخداماته تعدّدت وانتقلت إلى مجالات كثيرة. وهو يعني في صورته المبسّطة اكتساب المهارات التي تساعد على أداء العمل، ويعني مفهوم التمكين لغويا التقوية أو التعزيز، بينما وظيفيا، فإن التمكين يشير إلى عناصر من القوة يتم توظيفها من قبل الأفراد أو منظمات، والقوة هنا تعني القدرة على القيام بمهمة محددة، وبدرجة عالية من الكفاءة والفاعلية. ونعني به في دراستنا هذه اكتساب المعارف الأساسية، والمهارات المبنية على الأسس العلمية في الفضاء الجامعي بغرض أداء النشاطات بكفاءة وفعالية في ميدان معين. أما التمكين المهني فنقصد به جملة المهارات المكتسبة من أجل أداء العمل باحترافية وفق شروطه ومتطلباته، وتمثل هذه المهارات في هذه الدراسة ،التحكم الجيد في متطلبات العمل الخاصة بصحافة الويب.

ثانيا: صحافة الويب وملامح التحول

شهدت الممارسة الصحفية كثيرا من التحولات بداية من الألفية الثالثة، مع ظهور الإنترنت وانتشارها على نطاق واسع، وقد كانت النقلة النوعية مع الجيل الثاني من الإنترنت (Web2.0)، الذي أفرز ما بات يعرف بصحافة الويب. وابتداء من سنة 2000 تحدّث(John Pavlik) في دراسة موسومة بـ:"The impact of technology on journalism"، عن الدور البارز الذي لعبته التكنولوجيا في إحداث تغييرات عميقة في مهنة الصحافة[6]. ومن أهم خصائص هذا النوع الإعلامي الجديد، الفورية المرتبطة بالتحيين المستمر لمضامينها، والتفاعلية التي تعني التواصل المستمر مع المستخدمين من خلال الرسائل الإلكترونية، بالإضافة إلى الاستفادة من الكثير من تطبيقات الوسائط الجديدة، ولعل أهمّها التوسّل بالنصوص الفائقة في التحرير الصحفي من خلال المزج بين النص السطري، المسموع، والمرئي.

ومن السمات التي تطبع صحافة الويب، إعتمادها على النصوص الفائقة (Hyper text)، وهي من أبرز مميزات شبكة الإنترنت ويعرفها أليخاندرو روست من وجهة نظر تقنية بأنها: أداة معلوماتية لوضع نصوص متعددة في اتصال تلقائي وعلى الفور، كما يقول بأنها بناء استطرادي متعدد الخطية (Multilinear) يقوم على ترابط كتل النص الرقمي. كما يسمح بامتداد داخل النص (extension of intertextuality) ويقدم وسائل جديدة للوصول إلى محتويات متاحة، ويعزّز التفاعل؛ ويعطي القارئ مزيدا من السلطة في البناء الواقعي؛ يعدّ النص التشعبي/الفائق من أهم الأدوات في يد المحرر الإلكتروني؛ لأنه يساعد على توفير معلومات مفيدة داخل النص[7]. إذن فهذا التطبيق يساعد الصحفي بأن يدمج عدة نصوص إنطلاقا من المحتوى الأصلي، وهذه التقنية مكنّت من تجاوز عائق المساحة المخصّصة للكتابة بالنسبة للصحف، والزمن بالنسبة للإعلام السمعي البصري.

وكانت الثورة الحقيقية مع ويب 2.0 ابتداء من 2005-2003 وما فتحه من إمكانية توظيف الصور والفيديوهات، وإدخال محركات البحث مثل: قوقل وفاير فوكس...، وسرعة الوصول إلى المعلومة، وكذلك الأرضيات التي تسمح بالولوج إلى الفيديوهات والموسيقى وغيرها. وهذا يعني تكيّف المهنة الصحفية مع هذه التحولات؛ ممّا أدّى إلى ميلاد الكتابة المتعددة الوسائط (écriture multimédia) وكذلك صحافة البيانات (datajournalism) وموثق الويب (webdocumentaires) و(newsgames) وكذلك المحتوى التّناسلي (user generated content) الذي يعبّر عن التعليقات والتصويت وترتيب المقالات الصحفية من طرف مستخدمي الأنترنت، ووصولا إلى التفاعل مع الصحافيين عبر مواقع التواصل الاجتماعي، فايسبوك والتويتر بالدرجة الأولى[8].

(1) مؤشر استخدام الصحافيين لمواقع التوصل الاجتماعي في إطار العمل

المصدر: https://www.cision.fr/ressources/livres-blancs/journalistes-et-reseaux-sociaux-2017

وفي ذات السياق وجد الصحافيون أنفسهم أمام التحدي التكنولوجي، وضرورة تطويع هذه الوسائط الجديدة من أجل القيام بعملهم، مواكبة للتحول الحاصل في مجال نقل المعلومة والتعاطي معها؛ وبالتالي أصبح الصحفي مرتبطا أكثر بالحاسوب، خاصة مع عهد التفاعلية التي قلّصت من النزول إلى الميدان وأصبح الصحفي كذلك متعدد المهام في عهد الوسائط؛ وهنا ظهر المحرر المكتبي (rédacteur desks)،صحفي البيانات (datajournalisme))، (webdocumentariste))، صحفي العلاقات مع المستخدمين، والصحافة الإلكترونية الخالصة وهو مصطلح جديد (player pure) والصحفي منشط الويب[9].

(2) استطلاع حول استخدام صحافة البيانات

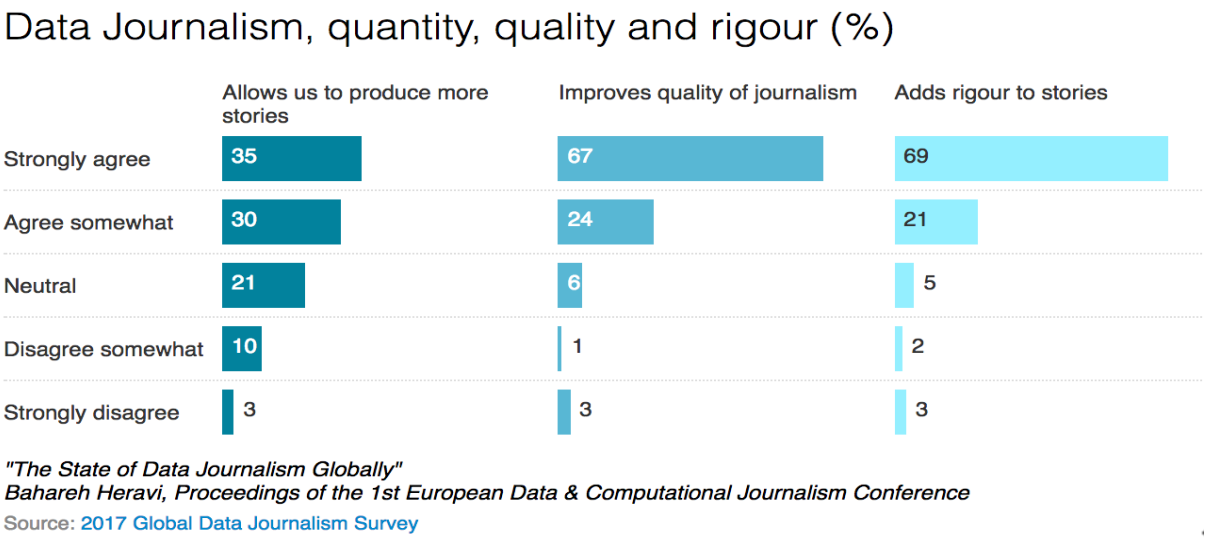

المصدر: https://medium.com/@Bahareh/state-of-data-journalism-globally-cb2f4696ad3d

كما فتحت الوسائط الجديدة للصحفي أفقا جديدا للإقتراب أكثر من الجمهور، فيما كانت سابقا علاقة عمودية تخضع للاتصال الذي يخلو من التغذية الراجعة؛ أما اليوم فعلاقة الصحافيين بالقراء تطّورت عن طريق التفاعلية من خلال البريد الإلكتروني، المنتديات، المحادثات، المدونات، والشبكات الاجتماعية...[10].

وقد انجر عن هذا التحول ملمحا جديدا للصحفي، بفعل ما طرأ من ممارسات ارتبطت باستخدام التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال، وتطبيقاتها في العمل الإعلامي في جل مراحله، ابتداء من بناء الرسالة الإعلامية إلى نشرها على الخط؛ وهذا ما أكسب الممارسة الصحفية الجديدة (صحافة الويب) خصائصا تتمثل في:[11]

- تعدد المهام بالنسبة لصحفي الخط؛ حيث يقوم بالتحرير، التصوير الفوتوغرافي والفيلمي، معالجة الصور، وتنشيط المحادثات النقاشية.

- التمتع بالاستقلالية في تعديل المواد التحريرية، إضافة عناصر جديدة، وحذف بعضها الآخر.

- القدرة على تقييم الأحداث ومدى مصداقيتها، إنطلاقا من الخلفية المعرفية والأبحاث المختلفة التي يقوم بها.

- السرعة في الأداء، فهي من الخصائص الأساسية للإنترنت وتطبيقاتها ؛ وعليه يجب التكيف مع هذا الرهان مع الأخذ بالموانع التقنية والقانونية.

- التشاركية ؛ وتعني الدخول في علاقات تبادل للمحتويات المرتبطة بالمادة الإعلامية مع مستخدمي وسائط الاتصال الجديدة.

إن الصحفي الذي ينشط عبر الخط يختلف عن الصحفي التقليدي الذي يقوم بمهام محدّدة تتمثل في جمع المادة الإعلامية الخام التحريرية، أما في زمن الوسائط فإن الإعلاميين تتداخل مهامهم كما تتداخل النصوص التي يوظّفونها، كما أن العمل في ظل التكنولوجيا الجديدة ذا إيقاع سريع ؛ فكل شيء يتغير بسرعة ويخضع لإكراه التحيين المستمر، مما يجعل الصحفي أمام تحدي الوقت في كل ما ينشره على الخط، أو في مختلف الوسائط الاتصالية الإلكترونية. ورغم أن صحافة الويب مازالت لم تتشكّل ملامحها بصفة واضحة، فمهنيو الإعلام الذين كانوا ينشطون ضمن الإعلام التقليدي تحولوا إلى الممارسات اللصيقة بتكنولوجيا الاتصال، رغم أنهم غير متخصّصين ولم يتلقو تكوينا في ذلك ؛ ويبقى الشباب المرقمن هم الفئة الغالبة التي ولجت بشكل سريع في صحافة الويب، وتتراوح أعمارهم بين 20 و30 سنة، يتميزون بقلّة الخبرة في مجال الإعلام ، لكنهم مرتبطون أكثر بالويب وتطبيقاته ،كما أن تجربتهم مع التحرير على الويب لها علاقة مباشرة بتربص نهاية المسار الجامعي، أو عقد عمل تكويني[12].

وتأسيسا لما سبق، فيما يخص بعض التحوّلات التي طالت الممارسة الإعلامية في ظل التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال، والتي أسّست لميلاد صحافة الويب ؛ فقد ظهر جليا الاختلاف بين الممارسة الكلاسيكية للصحافة التي تعتمد على التعمق والمتابعة الطويلة للأحداث والقضايا، وبين صحافة الويب التي تعتمد على القصير والآني المحين باستمرار والتفاعلية والمزج بين النص المكتوب والصوت والصورة[13]. هذا التّبدل في أشكال ومضامين العمل الصحفي، وظهور أنماط جديدة للممارسة الإعلامية كما رأينا ؛ يستلزم تكيف المهنيين مع هذا الوضع الجديد، أما بالنسبة للصحفيين الجدد فعليهم التّحكم الجيد في أدوات الصحافة التي تعتمد على الوسائط الجديدة.

ثالثا: صحافة الويب ومتطلبات التكوين

تمر الممارسة الإعلامية كما أظهرنا آنفا بعدة تحوّلات نظرا لإقحام المتغير التكنولوجي في قلب هذه الممارسات، وهو ما يمكن أن نلمسه بشكل واضح في النشاطات التي يقوم بها مهنيو صحافة الويب، التي تعتمد بالدرجة الأولى على التقنيات الجديدة للاتصال وتطبيقاتها ؛ ممّا يجعلها تختلف عن الممارسات السابقة في الإعلام التقليدي ووسائله. يستدعي ذلك تكوينا من نوع خاص بغية التّحكم في آلياته المختلفة ومتطلبات سيره، وهو المسعى الذي يفترض أن تضطلع به مؤسسات التكوين وعلى رأسها المؤسسات الجامعية، وأن يكون هدفها بناء تعلّمات ومهارات تستجيب للبيئة الجديدة للإعلام، من خلال تكييف برامجها التعليمية مع متطلبات هذه البيئة و ما تحمله من أبعاد.

لقد امتزجت تكنولوجيا الإعلام والاتصال مع النشاط الصحفي في المؤسسات الإعلامية وقد أدركت مؤسسات التكوين خاصة الجامعية منها هذا البعد، ومن أجل كسب هذا الرهان فقد جعلت من أهدافها بناء تعلّمات مرتبطة بالنشر الإلكتروني، والتمتع بمهارات تقنية تسمح بوضع محتويات على الخط[14].

ولعل أولى متطلبات التكوين الجامعي قصد التمكين المهني الجيد في مجال صحافة الويب، التقنيات والوسائط التي تستخدم في صحافة الويب ؛ بأن يتلقّى الطالب تكوينا في هذا الإطار وأن يتدرب على التعامل مع تكنولوجيات الإعلام والاتصال خاصة الجديدة منها ؛ كالإبحار على صفحات الويب، الولوج إلى قواعد البيانات، إضافة فيديوهات وتسجيلات صوتية لها علاقة بالمواضيع التي يكتبها صحفي الويب، وهي تختلف بطبيعة الحال عن الكتابة للتلفزيون أو الإذاعة أو الصحف. فالكتابة على المواقع مختلفة تماما عن وسائل الإعلام التقليدية[15]. وهذا يعني أن على الطالب في علوم الإعلام أن يُجيد استعمال الوسائط الإلكترونية خاصة الحديثة منها بكل سهولة، بالإضافة إلى كل ما هو مرتبط بالإنترنت وتطبيقاتها المختلفة، مثل: بناء النصوص الفائقة، الروابط، التعامل مع مواقع التواصل الاجتماعي...، بل أبعد

من ذلك القدرة على تصميم المواقع والمدونات الخاصة بالصحافيين باعتبار أنّها من فضاءات التفاعل مع المستخدمين ، وفي ذات السياق تكوين صحافيين لهم القدرة على تنشيط الفضاء الإفتراضي أو ما يعرف بالصحافة التشاركية التي تساهم في بناء النقاش حول القضايا الراهنة.

ويستدعي التكوين على صحافة الويب التّدرب على ما يعرف اليوم بالمهن الجديدة ، ونذكر هنا وثائقي الويب والذي تتمثل مهمته في البحث عن البيانات والمعلومات بصفة دائمة ومستمرة عبر الشبكة ، ثم تنظيمها ، لأجل استخدامها من قبل صحافيين آخرين كلما كانت الحاجة إليها. وهناك أيضا ما يسمى بصحافة البيانات ، والتي تعتمد بالدرجة الأولى على البيانات ، والإحصائيات وفيها يتعامل الصحفي أكثر مع قواعد البيانات ، من أجل أن يوصل هذه البيانات ويجعلها في متناول الأفراد. أو المحرر المكتبي الذي تنحصر وظيفته في العمل على الحاسوب دون العمل الميداني. وهنا نشير إلى أن هذه الفروع تعتبر مستجدّة في الممارسة الإعلامية لذلك تتطلب تكوينا علميا وعمليا قبل الولوج إلى عالم الصحافة الرقمية في الوقت الحالي.

أما على مستوى التحرير ، فإننا لن نجد صعوبة في التمييز بين التحرير الصحفي التقليدي(وسائل الإعلام التقليدية) والتحرير الإلكتروني في صحافة الويب. ومن بين القوالب التي تبني النصوص الصحفية على الويب ، نذكر:

- قالب الكتل النصية ، كل واحدة بحجم شاشة الكمبيوتر مع ربط هذه الكتل عن طريق الوصلات Links ، ويصلح هذا القالب بالنسبة للمادة الخبرية التي تعرض أحداثا بين فاصل بمعنى أن الحدث يتطور.

- النص الطويل Scolling Stories وذلك يتطلب طبيعة المضمون و تقديمه بطريقة خطية ليسهل فهمه[16].

- يجب الاختيار الجيد للكلمات 30 أو 40 الأولى فهي التي تظهر بشكل آلي على قوقل نيوز.

- يمكن للصحفي الاعتماد على النص الفائق لكن دون أن يربك القارئ ويخرجه من النص الأصلي[17].

(3) نموذج للتحرير الصحفي على الويب

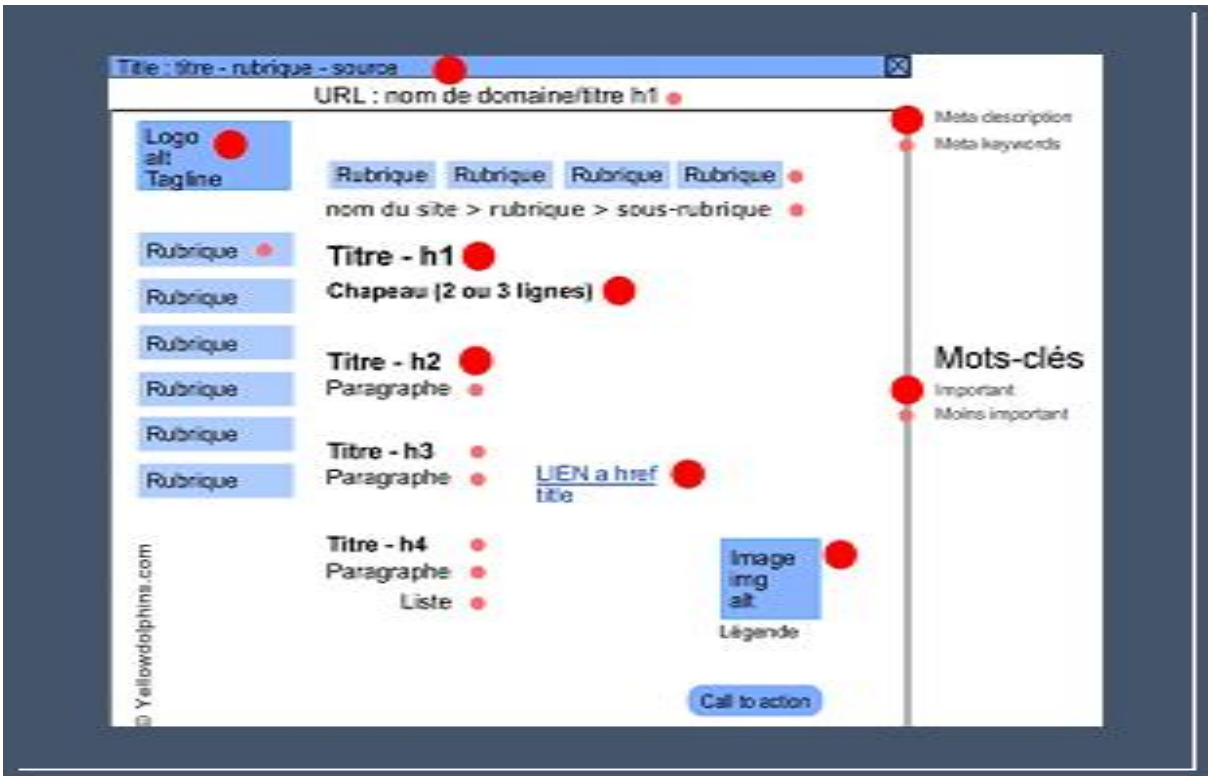

المصدر: Yellowdolphins.com

وفي ذات المنحى ومن أجل بناء نصوص إعلامية على الخط ، يجد الصحفي نفسه أمام كم هائل من المعلومات على شبكة الإنترنت ، وهذا ما يضعه أمام تحدي اختيار المعلومة ومصدرها ، وبين ما هو جيد ورديء ؛ وهذا ما يتطلب تدريب

الصحفيين على استخدام معلومات الإنترنت ؛ لأنها قد تصبح بديلا عن مصادر معلومات أخرى ، ويستلزم تعلم مهارة البحث الذاتي عن المعلومات والبيانات والإحصائيات ، والتّحقق من مصداقيتها وتقويمها مقارنة بالمعلومات الأخرى وكذلك ضرورة الاهتمام بتحليل المعلومات والوثائق ، والاستفادة من الأدوات المتعددة المتوفرة على الإنترنت ، للقيام بتغطية فورية وسريعة[18]. وهذا تحديدا ما أشرنا إليه في السابق ، والمتعلق بإجادة التعامل مع المعلومات على الخط وترشيحها ، وكذا الاستخدام الأمثل للبيانات وقواعدها من قبل صحفيي الويب.

ويدخل كذلك في إطار التكوين على صحافة الويب وبناء التعلّمات المتعلقة بها ، تهيئة المؤطرين الذين يشرفون على عملية التكوين ؛ بأن يمتلكوا الكفاءات الضرورية لتأطير الطلبة من أجل الاستخدام الأمثل لتكنولوجيات الإعلام والاتصال في مجال الإعلام بصفة عامة ، وأن تكون لهم القدرة على تسيير الأعمال المخبرية الخاصة بالتدريب على الوسائط من أجل إجادة العمل الصحفي الإلكتروني[19].

من خلال عرض بعض أبعاد عملية التكوين على صحافة الويب تحت مظلّة التأطير الأكاديمي العلمي ، كمستلزمات لغرض التمكين المهني لهكذا نشاط إعلامي جديد ؛ فعلى المؤسسات الجامعية أن تتكيف مع البيئة الإعلامية الجديدة وتستجيب لحاجاتها ومتطلباتها من أجل إحترافية أكبر في هذا الميدان.

رابعا: واقع التكوين الإعلامي الجامعي في الجزائر في ظل التحولات الجديدة

يطرح التكوين الإعلامي الجامعي في الجزائر اليوم عديد الإشكالات ، وقد أضحت بعض الإجابات ملحّة خاصة في ظل البيئة الإعلامية الجديدة ، حيث سارت الجزائر إلى عملية تحديث كبيرة في المجال الإعلامي ، من خلال استجلاب آخر تقنيات الرقمنة ، بالإضافة إلى التّوسع والانتشار المستمر لوسائط التكنولوجية الحديثة التي إنخرطت في مسار الصناعة الإعلامية ، وتعدّ صحافة الويب إحدى حلقاتها. إلا أن التكوين الجامعي لم يواكب هذا المناخ الجديد ؛ رغم استحداث نظام ل.م.د الذي يحمل رؤية الاستجابة إلى حاجات المجتمع ، ويتفاعل معها باستمرار.

وعندما نتأمل في نظام التكوين الجامعي في الجزائر عموما ، وفي الإعلام خصوصا نجد بأنه مازال قائما على الأطر التقليدية القديمة التي تعتمد على تلقين نماذج معرفية جاهزة ، والتي في كثير من الأحيان تآكلت بفعل التّغير في المعرفة ، أو في البيئة التي غرست فيها ؛ وفي مثل هذه الوضعية يجد المتكون نفسه أمام معادلة التّذكر والتّحصيل لاغير بفعل التراكيمة والطابع اليقيني للمواد المدرّسة التي لا تحتمل التعديل أو التغيير[20]. هذا الجمود في التكوين الذي لا يسمح بتحيين المقرّرات البيداغوجية وطرق تدريسها يبقى بعيدا عن الاستجابة للتغير الاجتماعي في مختلف الميادين ، وفي الإعلام تحديدا ، ولا يواكب ديناميكية التّحول ، وهذا ما يحدث في الجزائر منذ سنوات خاصة في ميدان تكنولوجيا الإعلام والاتصال والمعروف بالحركية السريعة والتبدّل المستمر.

وبالعودة إلى محتويات البرامج البيداغوجية في تخصص علوم الإعلام والاتصال وعلاقتها بالتحّول في مهنة الصحافة وممارساتها ، نلحظ أنها لا تساير الموجة الجديدة في الإعلام بالشكل اللازم والكافي ؛ حيث تغلب عليها المضامين النظرية اللصيقة أكثر بالوسائل التقليدية للإعلام. ويكفي أن نقوم بمسح لبرنامج الليسانس في علوم الإعلام لنقف على هذه الوضعية ، فما هو مقرّر للطالب فيما يخص الإعلام الجديد وتطبيقاته ، أو صحافة الوسائط الجديدة لا يتعدّى مقياسا واحدا في السنة الثانية الموسوم بتكنولجيات الإعلام والاتصال ، وهو مقياس نظري يحمل معارف حول تكنولوجيات الإعلام والاتصال (كما هو مبين في جدول المقرر الدراسي للسداسي 3 و4). وينهي الطالب مسار الليسانس بدون خلفية نظرية وتطبيقية حول الوسائط الإعلامية الجديدة ، وليس لديه المهارات الكافية التي تؤهله للتعامل معها في مساره المهني مستقبلا. أما المحظوظون منهم فإنهم يتوسعون أكثر في الوسائط الجديدة من خلال بعض المقاييس التي تصب في هذا الموضوع ؛ إلا أنها ذات بعد معرفي ومرتبطة أكثر بقضايا المجتمع[21].

(4) جدول المقرر الدراسي لتخصص الإعلام والاتصال السداسي3و4

وحدات التعليم	المواد
وحدة تعليم أساسية	مدخل إلى علوم الإعلام والاتصال 2
	تكنولجيا الإعلام والاتصال1 تكنولوجيا الإعلام والاتصال2
وحدة تعليم أساسية	فنيات التحرير الإعلامي والتلفزي
	تشريعات إعلامية
وحدات تعليم منهجية	مناهج وتقنيات البحث في علوم الإعلام والاتصال 2
	برمجيات تحليل البيانات الصحفية
وحدات تعليم استكشافية	القضايا االدولية المعاصرة
	1- علم النفس الاجتماعي 2- مدخل للعلوم القانونية 3- الفكر الخلدوني تُختار مادة 1 غير مختارة في س3
وحدة تعليم أفقية	لغة أجنبية 2

المصدر: https://www.mesrs.dz/ar/

وعلى هذا الأساس فإن المقرّر الدراسي الذي يفترض أن يبنى على فلسفة التكوين المتخصّص الذي يحتوي على مواد علمية مطابقة في العدد والحجم الساعي، والمحتوى للدور الفعلي لهذه المقاييس في إعداد خريج المستقبل لمنصبه[22]، لا يسير في طريق بناء تعلّمات ولا مهارات في مجال الممارسة الإعلامية عموما وفي صحافة الوسائط(الويب) خصوصا، والتي أصبحت أحدى متطلبات التكوين راهنا.

وثمة مسألة أخرى متعلّقة بالتمرّس على صحافة الويب في الجزائر والمتعلقة بالتمرين والتدريب في الفضاء الجامعي ؛ فنجد أنها تكاد تكون غائبة في مسار الطالب، حيث لا يتدرب على التّحكم في تكنولوجيات الإعلام والاتصال المختلفة، التي تساعده على ممارسة صحافة الويب ومختلف نشاطاتها كما ذكرنا سابقا. وفي البرامج القديمة قبل التحيين والمواءمة كان الطالب يأخذ مقياس الإعلام الآلي، إلا أن هذا المقياس واجه معوقات منها: نقص التأطير والإمكانات المادية المتمثلة في الحواسيب التي تستخدم في التكوين، وهذا ما أدّى إلى إلغاءه لاحقا ؛ ومنه فإن المتكون لن تكون له فرصة التآلف مع الوسائط الجديدة تطبيقا، ولن يقوم بتدريبات حول النشر على الخط، وتصميم المواقع، أو بناء المدونات...، فتبقى مجرد معارف نظرية لا تكفي لإعداده من أجل المهن الجديدة في الإعلام بكل أبعادها ؛ وقد ذهبت بعض الدّراسات في هذا السياق حول سؤال مدى مساهمة التكوين الجامعي في اكتساب مهارات من أجل العمل في مجال صحافة الويب، حيث أجمع أغلب المستجوبين أن إطلاعهم على التقنيات كان في شكل معلومات نظرية دون أن يكون هناك مجال للتطبيق فيها، مثل: تحرير الأخبار على الخط، إضافة الصور والفديوهات على الإنترنت، الإرسال الإلكتروني، التحكم في برامج الغرافيك، وغيرها...[23]. وفي نظرنا أن التدريب على البيئة الجديدة للإعلام في الفضاء الجامعي يستدعي وضع برامج تعليمية مبنية على التطبيقات، وتوفير وسائل هذه التطبيقات، كالمخابر، والاستديوهات، وقاعة التحرير الإلكتروني المجهزة بالحواسيب والموصولة بشبكة الإنترنت، حتى يستطيع الطالب أن يتمرّن على الفعل الاتصالي الذي يعتمد على الوسائط.

إن طبيعة التكوين الجامعي المبني على نظام ل.م.د ؛ هو الرصد الدائم للطلب الاجتماعي، حاجياته المتجددة، وحركيته، إنه نظام تكويني متمحور حول هذه الأهداف ؛ حيث ينص صراحة حسب الجهة الوصية في جزء منه، والذي له علاقة بهذا الموضوع إلى تحقيق الآتي:[24]

- ضمان تكوين نوعي من خلال الاستجابة إلى للطلب الاجتماعي المشروع على التعليم العالي.

- تحقيق تناغم حقيقي بين المحيط السوسيو اقتصادي، عبر تطوير كل التفاعلات الممكنة بين الجامعة وسوق العمل

- تطوير أليات التكيف المستمر مع تطورات المهن.

- التفتح أكثر على التطورات العالمية خاصة تلك المتعلقة بعلوم والتكنولجيا.

وعلى هذا الأساس يكون نموذجه التكويني قائما على التدريس بالأهداف(نموذج تايلور-وبلوم)، وتتلخص فلسفة التكوين وفق هذا النموذج بحصول تغيّر على المستوى المعرفي، الوجداني والسلوكي للطالب، واكتساب تعلّمات ومهارات تستجيب للبيئة التي يعيش فيها. وهذا ما ينطبق على التكوين الإعلامي الجامعي، بأن تكون أهدافه مبنية وفق البيئة الإعلامية ومتطلباتها، وسوق العمل في مجال الإعلام، وحسبنا أن صحافة الويب جزء من هذه السوق التي أصبحت تفرض تكوينا ومهارات محددة من أجل

الانخراط فيها وإجادتها ؛ ولعل من بين احتياجات التكوين الإعلامي الجامعي وفق هذه الفلسفة:[25]

- استجابة مجالات وفروع التخصصات لمتطلبات التنمية الداخلية للبلد(المحلية والجهوية).

- الاستثمار الأمثل للموارد البشرية.

- تغيير أساليب التدريس وجعلها أكثر مرونة.

- إعادة النظر في البرامج ونظم التعلم القديمة وتكييفها وفق متطلبات سوق العمل واحتياجاته.

وهذا بالذات ما توصلت إليه بعض الدراسات من أن الجامعة لا تركز على سوق العمل في التكوين ، فتبقى الموازنة بين التكوين والعمل تخضع لمبادرات بعض الطلبة الذين هم على وعي بهذه الفكرة ، فيمزجون بين التكوين الجامعي وما أتيحت لهم من فرص للتطبيق خارج الجامعة[26].

وتأسيسا لذلك فإن الرهان أمام التكوين الإعلامي الجامعي بفلسفته الجديدة ، هو تجاوز الأطر التقليدية في بناء التعلّمات ، والذهاب نحو تكوين قائم على بناء المهارات والكفاءات في ميادين محددة وفق حاجياتها ونشاطاتها المختلفة مثل ما هو الحال مع صحافة الويب كشكل وممارسة جديدة في مجال الإعلام في الجزائر.

خامسا: إستشراف التكوين على صحافة الويب في الجزائر

يعد التكوين الإعلامي إحدى الرهانات التي يفترض أن تسعى الدولة الجزائرية لكسبها ، لأجل مواجهة الحركية التي يشهدها هذا المجال ابتداء من الألفية الثالثة ، ويظهر هذا جليا ضمن مفهوم الإعلام العابر للحدود من خلال السموات المفتوحة ، والتشبيك العالمي للمعلومات ؛ ومنه فإن النجاح انطلاقا من هذا المشهد مرتبط بمدى الوعي بخصوصية التكوين في هذا الحقل ، وبالتقييم الشامل لمخرجات التكوين وتصحيح الأخطاء التي ميّزت هذه التجربة وإعادة بعث هذا الميدان ضمن الأهداف السامية للدولة وفي إطار الحفاظ على الهوية والوطنية والتفتح على العالم[27].

إن القراءة المتبصرة للتّحول الحاصل في العمل الإعلامي في الجزائر بعد امتزاج تكنولوجيات الإعلام والاتصال بهذا المجال ، بل أصبحت جزءا مهما منه ، لكفيل بأن يغيّر نظرتنا للتكوين الإعلامي في المؤسسات الجامعية التي تحمّلت إلى وقت طويل مهمّة القيام بذلك. فاستخدام الوسائط الجديدة التي انتشرت بشكل ملفت للانتباه في الجزائر في الميدان الصحفي أدّى إلى نشوء صحافة الويب بكل تفريعاتها ؛ وهذا ما يستوجب استحداث تخصّصات إعلامية جامعية تتوافق مع هذا النوع الإعلامي الجديد يتلقّى فيه الطلبة المعارف النظرية اللازمة حول الوسائط الجديدة وإسهامها في بناء ملمح صحفي الويب بشيء من التّخصص والتّفرد عن بقية النشاطات الإعلامية الأخرى التقليدية أو الجديدة منها. على اعتبار أن هذا التّخصص هو بمثابة استجابة لمطلب مهني جديد في السوق الإعلامية الجزائرية ، يحتاج إلى تأطير علمي وأكاديمي يحقق الكفاءة والاحترافية في الأداء داخل المؤسسات الإعلامية التي تنشط في هذا المجال.

وفي مستوى آخر ، أن يرافق التكوين المعرفي تكوينا تطبيقيا مبنيا على التدريبات في مجال تكنولوجيا المعلومات والإنترنت بصفة خاصة ، في كيفية التحرير والنشر الإلكتروني ، تصميم المواقع ، التحكم في بعض التطبيقات التي لها علاقة بصحافة الويب ، وتعلم مهارات البحث في محركات البحث ، والتعامل مع قواعد البيانات ، والتحرير الصحفي على الخط ، تآلف شبكات التواصل الاجتماعي... وغيرها ، وقد أشارت نتائج بعض الدراسات إلى هذه النقطة ، فعلى الرغم من الإمكانات التكنولوجية في الميدان الإعلامي ، فهناك نقص كبير في التكوين على هذه الوسائل والاستغلال الأمثل لها في مواد ذات نوعية وجودة[28] ؛ ولأجل هذا يجب توفير التأطير اللازم لهذا الغرض ، وعندما نتحدث عن التأطير فإننا نقصد المكوّنين القادرين على تمكين طلاب هذا الميدان الجديد من اكتساب المهارات التي تسمح لهم بالتعامل مع صحافة الويب ؛ حيث نرى في هذا الإطار أن التكوين على امتهان صحافة الويب يتطلب تدخل متخصّصين في هذا المجال معرفيا وتقنيا ، وهنا تحتاج المؤسسة المكوّنة لهذا الغرض إلى تخصّصات أخرى غير الإعلام والاتصال ، متحكّمين في التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال وتطبيقاتها ، وقادرين على نقل خبراتهم للمتكوّنين حسب احتياجاتهم ، وتتطلّبه هذه المهنة الجديد في مجال الإعلام.

بالإضافة إلى تجهيز الهياكل بالمستلزمات والأدوات التكنولوجية التي تستجيب إلى هذا النوع الخاص من التدريب ، فتتحول الجامعة بذلك إلى مؤسسة إعلامية تتكفّل

بالتدريب اللازم على صحافة الويب، حسبنا في ذلك نذكر تجربة جديدة ورائدة في هذا المجال، أين بادر قسم الإعلام والاتصال جامعة مسيلة بفتح مركز للصحافة المكتوبة والإلكترونية، يعنى بتدريب طلبة الإعلام وتجهيزهم في مجالات الصحافة المطبوعة والإلكترونية، وتطوير معارفهم العلمية ومهاراتهم في مختلف أنواع الصحافة، وسيسمح للطلاب بتطوير مهاراتهم الإعلامية وصقل مواهبهم، وهو ما سيسهل عليهم الاندماج في سوق الشغل[29]. وهذا ما يؤهل ويمكن المتكون من الإندماج في المؤسسة الإعلامية الفعلية، وممارسة عمله بكفاءة عالية وإحترافية وفق المعايير المطلوبة، فتصبح بذلك الجامعة منتجة لنماذج وفق الطلب الاجتماعي وسوق العمل الإعلامية.

خاتمة وتوصيات

إن الجامعة الجزائرية اليوم تحتاج إلى تثوير في مجال التكوين في كل الميادين والتخصصات، والإعلام إحداها. فعلى التكوين الإعلامي الجامعي أن يساير تحوّلات الإعلام داخل المجتمع الجزائري في الوقت الراهن، ومن هذه التحوّلات بروز ملمح صحفي الويب الذي يعتمد على الوسائط الجديدة والتحكم الجيد فيها معرفة وتطبيقا، وبأن يستجيب لمتطلباته وشروطه، من خلال التدريب والتمرن على الأنشطة المنجزة لهذا الفعل الإعلامي المخصوص، واكتساب التعلّمات والمهارات اللاّزمة لذلك. ولا يتأتّى ذللك إلا من خلال التفكير العلمي في هذه المسألة وما يتفرّع عنها من إشكالات لأجل بناء رؤية متبصرة تقدم إجابات علمية لهذا الموضوع الحيوي، وإعادة النظر في البرامج البيداغوجية التي تنسجم مع سوق العمل الإعلامية، وتوفير الإمكانات التأطيرية والمادية من أجل إنجاز أهداف التكوين وفق هذه الرؤية الجديدة؛ لذلك نوصي بـ:

- إنشاء تخصّص تحت مسمّى صحافة الويب وتطبيقاته المختلفة.
- توفير التأطير الكفيل بتحقيق مخرجات تستجيب للبيئة الإعلامية الجديدة ومتطلباتها.
- إعادة النظر في البرامج البيداغوجية وتحيينها باستمرار من أجل أن تساير التغيّر الحاصل في المجتمع.
- ربط تعلُّمات الطالب بما يحتاجه في مساره المهني، حتى يقوم بعمله بكفاءة واحترافية.
- تكثيف التدريبات والتمرينات، من أجل اكتساب المهارات التي تسمح بالتمهين في صحافة الويب.
- العمل على توفير كل التجهيزات الضرورية من أجل التكوين الجيد للتحكم في الوسائط الجديدة وتطبيقاتها أثناء المسار الأكاديمي للطالب.
- ربط التكوين الإعلامي الجامعي بالمؤسسات الإعلامية لتدعيم التكوين في النشاطات والمهن الجديدة التي تتوفر عليها هذه المؤسسات.

الهوامش

1. Amandine Degand, BenoÎt Grevisse, **Journalisme en ligne**, 1éd, Edition De Boek, Bruxelles, 2012, p14.
2. .Ibid; pp 13-14.
3. . https://fr.wikipedia.org/wiki/Journalisme_en_ligne

4. . Godefroy Macaire Chabi; **Le journaliste dans le processus de recherche d'information sur le Web**, Mémoire en vue de l'obtention du grade de Maître ès sciences, Département communication, Université Montréal, Aout 2014, p44.

5. . عماد علي مهيرات ، **أثر التمكين على فاعلية المنظمة** ، ط1 ، دار جليس الزمان ، عمان ، 2009 ، ص 22.

6. . Nicolas Pélissier et Mamadou Diouma Diallo, **Le journalisme à l'épreuve des dispositifs socionumériques d'information et de communication,** *Revue française des sciences de l'information et de la communication* [En ligne], 6, 2015.

7. . وسام كمال ، **الإعلام الإلكتروني والمحمول بين المهنية وتحديات التطور التكنولجي** ، ط1، دار الفجر للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2014 ، ص 30.

8. . Amandine Degand, BenoÎt Grevisse; Op.cit, p29.

9. . Ibid; p33.

10. . Nicolas Pélissier et Mamadou Diouma Diallo; Op.cit.

11. . Jean-blaise Held; **Introduction au journalisme**, Université de Fribourg, Autome, 2011, p9.

12. . Nathalie Pignard-Cheynel, Brigitte Sebbah; **L'identité des Journalistes du Web dans des récits de soi**, Communication, Vol.32/2, 2013, p4, communication.revues.org/5045, [En ligne].

13. . Amandine Degand, BenoÎt Grevisse; Op.cit, p30, http://www.microplume.ch/site/wp-content/uploads/2018/04/cours_intro_journalisme_Automne_2011.pdf, [En ligne].

14. . Florence Le Cam, Olivier Trédan, **Journalisme et web quel outils de formation**, Médiamorphoses, N°24, 2008, Université de Rennes1, pp 109-110.

15. . Ibid ; p106.

16. . وسام كمال ، مرجع سابق ، ص33.

17. . Jean-Blaise Held; **Introduction au journalisme**, Université de Fribourg, 2011, p7.

18. . وسام كمال ، مرجع سابق ، ص35.

19. . Florence Le Cam et Olivier Trédan; Op.cit, p 109.

20. . مراد ميلود ، **إشكالية التكوين الأكاديمي للإعلام في الجزائر** ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة أم البواقي ، العدد 9، جوان 2018 ، ص 309.

21. . أنظر في هذا: **البرامج البيداغوجية لتخصص علوم الإعلام والاتصال: مسار الليسانس والماستر تخصص وسائل الاتصال الجماهيري والوسائط الجديدة.**

22. . شريفة يعقوبي ، **التكوين الجامعي المتخصص وأداء العمل الصحفي الإذاعي: دراسة ميدانية بالإذاعات الجهوية** ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة قسنطينة ، 2007-2008 ، ص49.

23. . مالية مكيري ، **الصحفي الإلكتروني بين متطلبات الإحترافية والتكوين الأكاديمي والمهني: تجربة الجزائر نموذجا** ، مجلة الدراسات الإعلامية ، المركز العربي الديموقراطي ، برلين ، العدد 4 ، أوت 2018 ، ص301.

24. . راجع في هذا اصلاح التعليم العالي ، وزارة التعليم العالي ، جوان 2007 ، على الرابط: www.mesrs.dz

25. . مراد ميلود ، مرجع سابق ، ص 311.

26. . مُحَمَّد شطاح ، **التدريس الإعلامي في المرحلة الجامعية في مؤسسات التعليم العالي بالجزائر: دراسة في فلسفة التدريس ومنظومة الإصلاحات** ، المجلة العربية للإعلام والاتصال ، العدد 8 ، ماي ، 2012 ، ص 156.

27. عمر يوسفي ، سوق العمل الصحفي وحتمية التوجه للتكوين التطبيقي في الإعلام والتصويرالصحفي في الجامعات الجزائرية ، مجلة الصورة والاتصال ، المجلد5 ، العدد 19 ، 2016 ، ص8

28. . قطشة عبد القادر ، **اسهام تكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال في تطوير الرسالة التلفزيونية الجديدة** ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الجزائر ، 2005 -2006.

29. https://www.alaraby.co.uk/medianews/b0147258-aa55-4761-b600-314d6d177f55.

اختيار العرض/ المرض الجسدي بين أنماط السلوك، بروفيل الشخصية، الخصوصية والبنية السيكوسوماتية

choix du symptome/ maladie somatique : types de comportement, profil de personnalité, spécificité et structure psychosomatique

تاريخ الإرسال: 2019-03-23 تاريخ القبول: 2020-04-12

زهية غنية حافري، جامعة محمد لمين دباغين -سطيف2
hafrizahia@yahoo.fr

الملخص

تهدف هذه المقالة إلى عرض النماذج النظرية وبعض النتائج الاكلينيكية حول الأسباب المفسرة لاختيار العرض/المرض الجسدي. فهناك من سعى لتفسيرها من خلال انماط السلوك أو أنماط الشخصية ("أ"-"ج"-"د") حسب مجال علم النفس الصحة ، ومنهم من قدم تفسيرات ميزت تاريخ الفكر السيكوسوماتي من خلال ادراج دينبار لمفهوم الاستعدادية ، وطرح ألكسندر لنظرية الخصوصية ، ومفهوم البنيات الاساسية لمارتي. يتضح من خلال تحليل ما يتوفر من ادبيات وما توصلت إليه نتائج الدراسات حول الموضوع ، بأن السمات الشخصية للفرد وحدها أو بنيته النفسية غير كافية لتفسير اختيار العرض أو المرض الجسدي ، بل في اشتراكها بعوامل أخرى ؛ وراثية ، بيولوجية فيزيوباتولوجية ، وجدانية ، انفعالية ، اجتماعية... على أساس أن الانسان وحدة بيونفسواجتماعي يجب تناوله في شموليته بنظرة تكاملية. فهي- وتعتبر بالتالي كعوامل مساهمة في ظهور العرض الجسدي واختيار أعراضيته. لا يتوقف الهدف عند حدود التصنيف وتحديد الأنماط ، بل بوضع أسس الوقاية للتقليل من احتمالية الإصابة المرضية بتجنب عوامل الهشاشة الممرضة المهددة للصحة الجسدية وتشجيع عوامل الحماية التي تعزز الصحة الجيدة.

الكلمات المفاتيح: أنماط السلوك ("أ"- "ج"- "د")، بروفيل الشخصية ، نظرية الخصوصية ، البنية السيكوسوماتية ، المرض الجسدي.

Résumé

Cet article se propose de présenter des modèles théoriques et résultats cliniques qui expliquent le choix de l'organe/maladie somatique. Certains auteurs l'ont expliqué à travers les types de comportements/personnalités ("A","C","D") selon le domaine de la psychologie de la santé. Tandis que d'autres ont donné des explications qui ont marqué l'histoire de la pensée psychosomatique qui s'est surtout imposée avec les travaux d'Alexander, Dunbar, et Marty. À travers la littérature scientifique fournie sur le sujet, les traits de la personnalité, la structure psychologique ne sont pas à eux seuls suffisants pour expliquer le choix de l'organe/la maladie somatique, mais par leurs contributions avec d'autres facteurs : génétiques, biologiques, physiopathologiques, psychiques, émotionnels et sociaux… du fait que l'être humain est biopsychosocial et doit être approché dans une perspective intégrative-holistique. L'objectif ne devrait pas se limiter à la classification des types, mais plutôt à les prendre comme mesures de prévention en évitant les facteurs pathogènes et favorisant les facteurs salutogènes.

Mots-clés : *Types de personnalité ("A" - "C" - "D"), Profil de personnalité, Théorie de la spécificité, Structure psychosomatique, Maladie somatique.*

Abstract

The purpose of this article is to present theoretical models and clinical results that explain the reasons of choosing the organ /somatic disease. Some authors have explained it through the types of behavior / personalities ("A","C", "D") according to the field of health psychology. while others have given explanations that have marked the history of psychosomatic thought, which has emerged above all with the work of Alexander, Dunbar, and Marty. Through the scientific literature provided on the subject, personality traits, psychological structure alone are not sufficient to explain the choice of organ / somatic disease, but by their contributions with other factors: genetic, biological, physiopathological, psychic, emotional and social… because human beings are biopsychosocial and must be approached from an integrative-holistic perspective. the objective should not be limited to the classification of types, but rather to take them as preventive measures by avoiding pathogenic factors and favoring salutogenic factors

Keywords: *Personality types ("A" - "C" - "D") - Personality profile - Theory of specificity - Psychosomatic structure - Somatic disease.*

مقدمة

يعترف معظم المختصين النفسانيين على أن الأشخاص ومنذ طفولتهم تظهر لديهم أنماط التكيف المعرفي والعاطفي والسلوكي تختلف من فرد لآخر. وكانت الرغبة في وضع تصور لهذه الاختلافات موضوع قديم أثار الكثير من التساؤلات وطرحت العديد من الملاحظات يمكن تتبعها من خلال ما جاء في كتابات الفلاسفة منذ العصور القديمة ، ما استدعى إجراء العديد من الأبحاث والدراسات العلمية لباحثين معاصرين ، فبدؤا باستخدام مصطلح "الشخصية" خاصة مع ظهور كتاب رائد علم النفس الشخصية العلمية الحديثة ومقاربة السمات ؛ جوردن البورت (Gordon Allport في 1937).

وقد شغلت فكرة دور بعض السمات وبعض الشخصيات في تشجيع ظهور بعض الامراض الجسدية العاملين في المجال الطبي واسترعت العديد من الاهتمامات ، فمنها ما كان يستند على المظهر النفسي ومنها ما كان مستندا على أنماط الشخصية أو على نوع التوظيف العقلي. كان هدفها تأسيس فئة من الأشخاص لها بعض السمات النفسية وبعض الأعراضيات الجسدية المشتركة. والفرضية القائلة بارتباط بعض الخصائص الثابتة في شخصية الفرد بخطر تطوير بعض الأمراض فرضية قديمة قدم الزمان مرت بعدة محطات ، بدأت مع نظريات الأخلاط والأمزجة لهيبوقراط إذ قام الأطباء بوصف أنماط مورفولوجية خاصة تربط البناء التشريحي أو الفيزيولوجي بانماط من المزاج. ثم جاءت أعمال de von Bergmann (1913)، Westphal (1914) ، (1929) Alvarez الذين سعوا في دراساتهم إلى إثبات العلاقة بين العوامل النفسية وظهور الاضطرابات العضوية والهضمية منها بالخصوص. كما سعوا لاستخراج بعض سمات الشخصية المرتبطة بها. (Chemouni, 2000) وصولا إلى نظريات أنماط الشخصية "أ" type A و"ب" type B في 1959 لصاحبيها روزنمان زفريدمان (R.Rosenman et M.friedman) ، وهو ما استندت إليه دينبار ((Dunbar في نظريتها الاستعدادية. كما تطرق ألكسندر (Alexander) صاحب النظرية الانفعالية والخصوصية لارتباط كل حالة انفعالية بظهور تناذرات فيزيوباتولوجية محددة.

وتواصلت بعدها العديد من الدراسات في نفس المنحى ، وخلص (Everson & al.1996; Watson & al. 1999) في (Nabi & al, 2008) إلى أن المزاج الاكتئابي يظهر كعامل خطر في ظهور الامراض الجسدية ، وعامل يحدد مآل هذه الأمراض ، وبأن الاكتئابية و/أو الشعور بالعجز-اليأس (hopelessness) يؤدي لظهور الأمراض الجسدية.

كما وضعت المدرسة السيكوسوماتية التحليلية بصمتها في هذا المجال بالتطرق ، ليس فقط لسمات شخصية الفرد ، ولكن إلى أعمق من ذلك: إلى بنيته وتوظيفه العقلي وما يرتبط به من مستويات في العقلنة ، هذه الأخيرة التي شكلت حجر الزاوية في الفكر السيكوسوماتي لبيار مارتي. (Chemouni, 2000)

وعليه فإنه يمكن النظر للعلاقة بين الشخصية والأمراض الجسدية بعدة طرق تكاملية من قبل الأطباء والعاملين في مجال الصحة العقلية ، الباحثين والفاعلين في مجال الوقاية.

من جهة أخرى ، لا يخفى أن تجربة المرض الجسدي وتأثيرها على نوعية الحياة ، ما يعانيه المريض من صعوبات في التكيف وكل ما يرتبط بمشاكل الالتزام العلاجي وتقبله ، مآل المرض... ، هي كلها نقاط تعتمد على الشخصية الأساسية للمريض وحتى على وجود مسبق لأمراضية في شخصية المريض. فتعرض الفرد لإصابات جسدية مزمنة خاصة إن كانت مصاحبة بالآلام تكون مصدرا لبعض الاضطرابات الانفعالية وتشكل إعاقة للفرد في حياته العامة. وهو ما سيؤدي لبعض التعديلات أو التغيرات في شخصية الفرد الأساسية مهما كانت "ملامح" شخصية المريض مستقرة وثابتة. الأمر الذي يشكل صعوبة كبيرة للتمييز في الخصائص النفسية الملاحظة بين ما هو ناتج عن تبعات المرض الجسدي وبين ما كان موجودا مسبقا قبل ظهور المرض من أسباب وعوامل خطر نفسية أدت لتوليد المرض وظهوره. (Consolli, 2013)

كما تجدر الإشارة إلى ظهور بعض سمات الشخصية تبعا لبعض الإصابات الجسدية ؛ العصبية أو تلك الأمراض الخاصة بالغدد الصماء أو الراجعة لإصابات الجهاز العصبي المركزي و/أو اختلال معرفي مشترك. فتظهر سمات تجنبية ، وسواسيه قهرية ، بارانوية ، والتي يمكن تفسيرها على أنها استراتيجيات تسوية (مقاومة) أو كأنها انكشاف وإظهار لاستعدادية يحملها المريض ويفجرها المرض. ومن هنا تظهر ضرورة الاحتراس خلال معاينة المرضى السوماتيون عدم ادراج اضطرابات الشخصية كنتيجة للمرض ، بل كمرافقة له. (Consolli, 2013)

لا نهدف هنا لتطوير فكرة تأثير المرض الجسدي وانعكاساته وفقا لشخصية المريض أو على ما يحدثه المرض الجسدي من تعديلات في شخصية المريض تبعا لمرضه ؛ لكن تركيزنا موجه في المقام الاول نحو ملامح الشخصية كعوامل للخطر فيما يتعلق بحالة الصحة الجسدية. وهو كما أشرنا ، المجال الذي شغل العاملين في المجال الطبي واستثار الكثير من التساؤلات لدى السيكوسوماتيون ، ليتم تناوله بشدة في مجال علم النفس الصحة وفي الدراسات الابيديميولوجية.

1- تعريف الشخصية

تعتبر الشخصية الإنسانية أهم لغز يسعى الإنسان لفهمه عبر الزمن ، كونه مفهوم تكاملي للعديد من مكوناتها ومحدداتها المتشابكة في علاقاتها لا يمكن عزلها عن بعضها البعض (وراثية ، بيولوجية ، نفسية وعاطفية ، اجتماعية ، ثقافية ، بيئية...). فمصطلح الشخصية يشير إلى الشخص في شموليته وكليته نفسيا وجسديا. وبالرغم من عدم وجود تعريف متفق عليه ، إلا أن التعريف البورت يعتبر المرجعية لأغلبية الباحثين. "فالشخصية هي ذلك التنظيم الدينامي الداخلي للفرد للنظم النفسية الفيزيائية التي تحدد تكيفه الفريد مع بيئته." ومما تجدر الإشارة إليه ، فإن اغلب المنظرين: البورت 1937) Allport)، كاتل Cattell 1946))، ايزنك 1970) Eysenck)، جيلفورد Guilford (1959, 1975) وثيرستون 1947) Thurstone) قد أعطوا الأهمية الكبرى للسمات والتي تشكل الوحدة الأساسية لقياس وتقييم الشخصية. (Morizot, 2003)

2- تعريف السمة

تشير السمة حسب ألبورت إلى "نظام عصبونفسي معمم ومركز...." وحسب كاتل إلى" بناءات عقلية وراثية..." كما أشار إليها تليجان (Tellegen) بأنها " بنية نفسية وبيولوجية..." (Morizot, 2003) ومنه يتضح ربط سمات الشخصية بما هو نفسي وعضوي ومساهمتها في انتاج السلوك الإنساني (أنماط السلوك). فمن خلال السمات يمكن تقيم الانماط السلوكية. أو أنماط الشخصية على غرار ما ذهب إليه (عبد الخالق ، 1994)، إذ لا يرى بإمكانية التفريق بين النمط السلوكي ونمط الشخصية كون هذه الأخيرة ترتبط بمنهج سلوكي معين يمكن من خلاله التدليل على أن صاحبه ينتمي إلى هذا النمط من الشخصيات أو ذاك.

فبالإضافة إلى الملاحظات العيادية التي قام بها الأطباء حول ما يمتاز به مرضاهم من سمات محددة ، فإن النقاط السابقة شكلت انطلاقة لدراسة سمات الشخصية وما ينتج عنه من أنماط السلوك في ارتباطها بالأمراض العضوية. واعتبروا أنماط الشخصية عاملا وسيطيا مهما ومن اهم عوامل الخطر والحماية في مقابل الاضطرابات السيكوسوماتية في اجتماعه مع العوامل الوراثية ، البيولوجية والهشاشة الجسدية ونوعية التوظيف العقلي للفرد.

3- الشخصيات المرضية والأمراض الجسدية

ترى المدرسة الامريكية بوجود بعض اضطرابات الشخصية غير الظاهرة التي تجعل من الفرد حاملا الاستعدادية للوقوع في الامراض الجسدية ، حيث اثبت بعض الدراسات ارتباط الشخصية المضطربة من النمط الحدي بظهور بعض الامراض الجسدية كتصلب الشرايين ، ارتفاع ضغط الدم ، وأمراض التليف الكبدي ، الامراض القلبية الشريانية ، أمراض الجهاز الهضمي ، الروماتيزم ، والأمراض المنقولة جنسيا... أمراض تتطور كحل تسوية لبعض الاضطرابات الحصرية أو اضطرابات المزاج. (Consolli, 2013)

كما توصلت دراسة (El-Gabalawy, Katz et Sareen, 2010) إلى وجود علاقة ارتباطية بين الامراض القلبية الشريانية عند اشخاص حديّين سبق لهم وأن قاموا بمحاولات انتحارية. وسعت دراسات أخرى في نفس المنحى

(Schuster, 2010). لإثبات الارتباط الدال بين ظهور القرحة المعدية عند افراد بشخصيات تجنبية تمتاز بالتبعية، شخصيات حصرية قهرية لديها ميول ضد اجتماعية.

وبالرغم من العديد الكبير من الدراسات التي توصلت إلى اثبات العلاقة بين الشخصيات المرضية والأمراض الجسدية، إلا أنها كما يعقب (Consoli, 2013) تعتبر قليلة نسبيا ولا يمكن البرهنة عليها.

4- سمات الشخصية والاضطرابات الجسدية

4-1 العصابية والانبساطية

تعتبر العصابية والانبساطية من الأبعاد الكلاسيكية للشخصية والتي يمكن تقصيها من خلال مقياس نموذج الأبعاد الخمسة (*big five*). ومما لا شك فيه، أن العلاقة بين العصابية مع مجموعة متنوعة من الاضطرابات النفسية قد تم اثباتها. وظهرت من جهة اخرى أيضا بما لا يدعو إلى الشك نزوع الأشخاص اللذين تظهر لديهم هذه السمة إلى التقدم بشكاوى كثيرة حول صحتهم، تقديم وبطريقة مصطنعة أعراض وظيفية مختلفة بما فيه الآلام ومختلف المشاكل الصحية الشائعة. إذ أظهرت دراسات أمريكية (*National Comorbidity Survey*) على عينة قوامها 5877 فرد يعانون ارتفاعا في درجات العصابية زيادة في انتشار الأمراض الجسدية ؛ يأتي السكري بالدرجة الأولى بنسبة أرجحية (Odds Ratio) (ن.أ = 3.33)، ثم أمراض القرحة المعدية (ن.أ= 3.23)، أمراض الكلى أو الكبد (ن.أ= 2.56)، امراض المعدة والمرارة (ن.أ= 2.27)، الامراض الروماتيزمية (ن.أ= 1.5) (Goodwin, Cox, Clara, 2006).

كما سعت دراسة تتبعية على مدار 25 سنة اشتملت على 595 29 من التوائم بالسويد إلى التحقق من فرضية وجود علاقة بين بروفيل شخصية تمتاز بمستويات مرتفعة من الانبساطية ومستويات منخفضة من العصابية وخطر الإصابة السرطانية. غير أن العلاقة لم يتم اثباتها مع أي نوع من أنواع السرطانات. كما لم يجد الباحثون أي تفاعل بين هذين السمتين للشخصية وبين التدخين والإصابة بالسرطان.(& Hansen al, 2005).

وأثار منشور علمي حول العلاقة المحتملة بين العصابية وصحة القلب الشرياني في مسح صحي (Health and Lifestyle Survey) بإنجلترا بلبلة بهذا الخصوص، إذ توصلت الدراسة التي أقيمت على 5450 من المشاركين وجود هذه العلاقة عند النساء فقط في ارتباطها بالمستوى الاجتماعي-الاقتصادي لديهن، واللاتي توفين بسبب الإصابات القلبية الشريانية. (Hagger-Johnson & al, 2012)

أما الدراسة الطولية المسحية على 3032 فرد بالولايات المتحدة الامريكية((MIDUS التي اعتمدت على نموذج الابعاد الخمس الكبرى (big five)، فقد أظهرت - حسب ما صرح به المشتركين- الارتباط الموجب بين مختلف المشاكل الصحية والعصابية، في حين جاء الارتباط سلبي مع باقي الابعاد الأربع (الوعي، الانبساطية، الانفتاح، اللطف) واعتبر بعد الوعي بما ينطوي عليه من سمات التخطيط، التنظيم، البحث عن النجاح، الشعور بالواجب وتنفيذ المهام والدافعية في السلوك، الانضباط الذاتي والمثابرة من عوامل الحماية للوقوع في المرض. ويظهر التأثير الوقائي لغلبة بعد الوعي في الشخصية من خلال الميل أقل من غيرهم للعادات المضرة للصحة كتناول الكحول والتبغ والخمور، الإفراط في تناول الطعام...، ولكن أيضا من خلال مداومتهم والتزامهم أكثر على العلاج واتخاذ أفضل القرارات نحو صحتهم. (Goodwin, Friedman, 2006).

4-2- النمط السلوكي وظهور الاضطرابات الجسدية

ارتبط مفهوم النمط السلوكي بفكرة البحث عن ملمح أو بروفيل لشخصية المصابين بالأمراض المزمنة. يدل المفهوم بشكل عام على الطريقة أو الأسلوب الخاص والمميز للفرد في الاستجابة للمواقف الحياتية المختلفة وفي التعامل مع نفسه ومع الآخرين، وهو على مستوى من الترتيب والتنظيم الذي يوفر حدا مقبولا من الفهم والضبط والتنبؤ. لذلك فإن النمط السلوكي ليس بعدا أو سمة شخصية في حد ذاته بل هو أسلوب سلوكي وانفعالي يستجيب به الأفراد الذين يمتلكون صفات شخصية معينة تدخل في تركيب هذا النمط. وهو أسلوب ينمو من خلال التفاعل بين متطلبات البيئة والخصال الشخصية. (جمعة سيد يوسف ،2000)

يقصد بالنمط السلوكي هنا نمط الشخصية على غرار ما ذهب إليه عبد الخالق (1994)، اذ لا يمكن التفريق بين النمط السلوكي ونمط الشخصية كون هذه الأخيرة ترتبط

بمنهج سلوكي معين يمكن من خلاله التدليل على أن صاحبه ينتمي إلى هذا النمط من الشخصيات أو ذاك. يعود ظهور الأنماط السلوكية إلى الطبيبان فريدمان وروزنمانFriedman et Rosenman اللذان قاما بوصف النمط "أ" المرتبط بالأمراض القلبية الشريانية التاجية والكشف عن مجموعة من المؤشرات التي تكون مجتمعة التركيب المميز لهذا النمط السلوكي، كما وصفا النمط "ب" الذي يختلف نقطة بنقطة مع النمط "أ". ظهر بعدها النمط "ج" المرتبط بالاستعداد للإصابة بالامراض السرطانية، ثم النمط "د" المتعلق بارتفاع احتمال التعرض للأزمات القلبية الحادة المؤدية للوفاة.

4-2-1- الشخصية من النمط "أ"

يرى فيه فريدمان وروزنمان (1993) بانه نمط مسؤول عن استجابة مفرطة إزاء المواقف المجهدة، فهو نمط أكثر من كفاح متواصل [...] مركب فعلي- انفعالي يستخدمه لمواجهة تحديات محيطهم. يتضمن هذا المركب مظاهر سلوكية كالعدوانية. فهم عدائيون وعدوانيون متسرعون، لديهم رغبة شديدة في المنافسة والسيطرة ورغبة قوية في الإنجاز قد ينافس ذاته. فهم نافذو الصبر ويشعرون بإلحاح الوقت، يكون لديهم إحساس بأن الوقت يسرقهم وان مسؤولياتهم كبيرة. فهم يسيرون ويتحركون ويأكلون بسرعة يضعون عددا من الأعمال لانجازها في وقت قصير تتجاوز قدرتهم، فهم في حاجة لتحقيق ذواتهم والتفوق عليها ويميلون إلى تأكيد بعض الكلمات في أحاديثهم، والاستعجال في نهاية الجمل التي ينطقونها، يتميزون بأسلوب انفجاري في الحديث وتوترات في عضلات وجوههم، يقاطعون من يحدثهم ويكملون كلامه. فأصحاب النمط "أ" يجدون صعوبة في الاسترخاء بدون عمل، يهتمون بالعمل وانجازه أكثر من التمتع بأدائه، فهو نمط يحب السيطرة نتيجة شعوره بعد الأمان الداخلي والذي يعبر عنه بواسطة العدوانية المفرطة اتجاه الآخرين. ومثل هذه الجهود المستمرة كما يشير اليه (Quintard in:B-Schweitzer&al, 2002) تنتج تنشيطا مفرطا للجهاز السمبثاوي تنجر عنه عواقب متعددة تتمثل في ارتفاع ضغط الدم، انقباض الاوعية الدموية، وافراز مفرط للأدرينالين. وهو ما يلخصه Consoli بقوله بأنهم اشخاص يمتازون بفرط في النشاط، دينامية وحركية عصبوهرمونية في مقابل الإجهاد، مرشحون أكثر من غيرهم للإصابة بأمراض الشريان التاجي. وهو ما اثبتته دراسة فريدمان وروزنمان في دراستهم الطولية لمدة 9 سنوات تقريبا اجراها على 3524 رجلا تراوحت أعمارهم بين 39 و59 سنة، فتوصلت نتائج الدراسة إلى أن الافراد من النمط "أ" أكثر احتمالا للإصابة بالأمراض القلبية التاجية بمعدل الضعفين مقارنة بباقي افراد العينة العينة، ما يشير إلى كون هذا النمط مستهدفين للإصابة القلبية- الوعائية إزاء المواقف المجهدة. (Consoli, 2013)

لكن القيمة التنبؤية للإصابة بالامراض القلبية لم تحقق نفس النتائج في جميع الدراسات، فهناك من الدراسات ما جاءت نتائجها متناقضة لذلك. لذا يرى الباحثون بان ينظر إلى النمط"أ" كعامل خطر بسيط عند الفرد السليم وليس كعامل يحدد مآل المريض. بل أن مآل مريض القلب من النمط "أ" والذي تعرض إلى نوبة قلبية وتم استشفاؤه وتجاوزه، يمكنه أن يعيش ويحيا أفضل من مريض القلب من النمط "ب" كونهم سيعتمدون في مقابل مشاكلهم الصحية ويتحدون المرض بما يمتلكونه من سمات في شخصيتهم، كما كانوا يناضلون ويصدون وضعيات التوتر والإجهاد في حياتهم اليومية. (Ragland & Brand, 1988)

وفي تمحيص للأدبيات التي تقدم بها الباحثون حول النمط "أ"، فان المسالة تتعلق بالخصوص بالصفات العدائية والتي استرعت انتباه الباحثين إذ أصبح البحث يوجه اليها أكثر وتوصلوا إلى أن بعد العدائية يرتبط ارتباطا وثيقا بالاستجابات الفيزيولوجية إزاء مواقف الاجهاد. Graziani &Swendsen) 2004) فهم يعتبرونه بمثابة "النواة السامة" في النمط "أ" . وهو ما عبر عنه (B-Schweitzer & al, 2002) "بالريبة التهكمية" "méfiance cynique" مشيرا بذلك إلى المكون المضر في سمات النمط والمتمثلة في النظرة السلبية للآخر، المشاعر العدائية والاستجابات العدوانية. وإن كانت الامراض القلبية هي الأكثر شيوعا في النمط"أ"، إلا أن أصحاب هذا النمط هم عرضة أيضا للإصابة بالقرحة المعدية، مرض السكري، الربو الشعبي.

وبعكس ذلك هناك نمط آخر من الشخصية، يتصف من ينتمون إليه بكونهم صبورين لا يشعرون بإلحاح الوقت،

غير مشغولي البال بما يحاولون انجازه أو تحصيله ، لا يستثارون أو يتهيجون ، ويميلون إلى التمتع والاسترخاء دون الشعور بالذنب ، يعملون بهدوء ولطف ويسهل التعامل معهم ، فهم هادئون ، اقل تنافسية واقل عدوانية ويطلق عليهم نمط الشخصية "ب" ««type B.. (Consoli, 2013)

4-2-2- الشخصية من النمط "ج" type C

فى نفس المنحى الافتراضى لوجود نمط خاص من الشخصية الذي يقترن بأمراضية جسدية محددة ، قام كل منMorris & Greer فى 1980 لإدراج النمط "ج" « c» أو ما يسمى بالشخصية المستهدفة للإصابة بمرض السرطان. (Vollrath, 2006) واستطاعت Lydia Temoshokفي 1987 تمييز السلوك الانفعالى لمرضى السرطان والذي تعرفه على أنه عامل خطر فى ظهور وتطور السرطان ووصفه على أنه نمط يتميز بقمع الانفعالات خاصة السلبية منها كالغضب ، الميل للتضحية بالنفس دون التعبير عن المطالب الفردية. وسعت Temoshok وFox لوصف المريض بطبيعة السلوك على أنه محب واجتماعي لطيف ، هادئ وصبور ، فهو فى حياة عملية متقن للعمل متقبل من المجتمع يتهرب من النزاعات الشخصية ، يتمسك بالروتين وميال للموافقة والانصياع ، يمتاز بالثبات أمام المصائب ، ليس لديه الثقة في نفسه وغير مؤكد لذاته ومضحى بها ، فهو شخص جد متعاون ، يتميز بعدم المنافسة ، الاستجابة لرغبات الآخرين وعدم التسلط ، تجنب السلوكات التي يمكنها أن تحرج الآخرين ، الامتثال لمواصفات السلوك المتعارف عليه والحفاظ على مظهر اللطف ، نظرته إلى الواقع الخارجي تكون معقلنة ومجردة من العواطف (الاستذهان)، الميل إلى مشاعر العجز واليأس ، العجز عن تفريغ التوتر والإفصاح عما يستبد به من انفعالات وقمع الانفعالات السلبية ويعجز عن التعبير عن غضبه وعدوانيته في وقت يسعى فيه للحفاظ على واجهة قوية وسعيدة. يتحكم فى غضبه لأجل الحفاظ على العلاقات بين شخصية والحفاظ على صورة جيدة عن نفسه كشخص محبوب حتى لا يتم رفضه. (Blatný, 2008 Adam &). أما Dunbar فى (Pongy et Babeau, 2003) فترى بأنهم أكثر تعرضا للإجهاد ، جد متعاونيين ، يتطلعون لإرضاء الغير واحترام السلطة ، يتسمون بالحصر ومفرطي الإحساس.

وأظهرت دراسة Grossarth-Maticek الطولية سنة 1988 لمدة 10 سنوات على عينة قوامها 2563 فردا توفر بعض سمات عند هؤلاء وتمثلت في: الاكتئاب ، اليأس ، سرعة الاستثارة ، الغضب ، التعقلن ، غياب التعبير الانفعالي ، الحاجة للعلاقات بين شخصية المنسجمة. (Eskelinen & Ollonen, 2011). كما أكدت دراسة Kissen et Eysenck 1962)) في (Hagen Liste, 1999) ودراسة Greer et Morris et al (1981 (Moris (1978) في (Schraub, 2009) هذه العلاقة.

ويعقب (Amami et al 2006) أن الجدال القائم حول ارتباط نمط الشخصية مع ظهور السرطان ، إنما يختص باستثارة هذا النمط من الشخصية للجهاز المناعي ، وليس كعوامل مساهمة في ظهور السرطان ، مشيرا بذلك تأييده لتدخل هذا العامل في ظهور المرض.

كما يؤكد (Fernández-Ballesteros 2001) أنه وعلى الرغم من النقد الكثيف الذي لاقته نتائج الدراسات المقدمة إلا أن اتفاقها على وجود صفة القمع للانفعالات السلبية وصعوبة التعبير عن الغضب والعدوانية وصعوبة في التعامل مع الإجهاد لا يدع مجالا للشك ، للقول بأنها السمة المشتركة التي اتفق الباحثون على توفرها عند مرضى السرطان.

4-2-3- نمط الشخصية "د" Type «D»

أدى مفهوم الشخصية الاندفاعية ، التي تجمع مستويات مرتفعة من العاطفة السلبية (الميل إلى القلق ، الحزن ، والغضب) وقمع المشاعر أو سلوكات مثبطة في وضعيات التفاعل الاجتماعي ؛ هو ما قاد جوهان دونولت Denollet Johan إلى تطوير مفهوم "النمط د" « « type D سنة 1998. حيث يشير الحرف **D** إلى الكلمة الإنجليزية **distress** أي (المحنة والضائقة) بالعربية ، ولكن أيضا كحرف يلي الحروف A, B , C في ابجدية اللغة الأجنبية والتي تصف الأنماط السابقة. (Consoli, 2013)

قام دونولوت برفقة زملاؤه بإجراء أكثر من 49 دراسة حول العلاقة بين الامراض القلبية في ارتباطها بسمات النمط "د" وتوصلوا إلى أن التثبيط الاجتماعي والعاطفة السلبية من أكبر السمات المميزة لهذا النمط ، وهو ما يهيئه للإصابة بأمراض القلب بأربعة أضعاف مقارنة بالنمط (أ). إذ تشترك

هذه السمتان في ظهور عامل أخر لا يقل خطورة وهو ارتفاع نسبة الكورتيزول الذي يؤدي في اجتماعها مع بعض العوامل النفس اجتماعية إلى احداث قصور في القلب على المدى الطويل ، (أمراض الشريان التاجي ، الضغط الدموي ، الجلطة القلبية... ...الخ) وفيه يرى (Denollet, 2000) بضرورة التعرف على هؤلاء الأشخاص من النمط "د" لتجنيبهم الجلطات أو السكتات القلبية.

تشير العاطفة السلبية إلى " انفعالات سلبية ذات طابع اكتئابي تمتاز بالغضب والقلق الحاد. والأشخاص الذين لديهم عاطفة سلبية هم اشخاص لديهم ميل لاختبار المشاعر السلبية عبر الزمن يصعب تحملهم ؛ يمتازون بشعور غير سار ومثيرة للقلق ، بعدم الراحة العاطفية أو العقلية ، لديهم أعراض حصرية ، الإحساس بعدم الرضا والسخط ، التوتر والتهيج ، الاستياء وفي بعض الاحيان اللامبالاة نحو المحيطين والانسجابية والشعور بالوحدة. رؤية سلبية وانفعالات سلبية نحو الذات ، يتحيزون للاهتمام أكثر بالمؤثرات السلبية ، كما ترتبط العاطفة السلبية بزيادة في استذكار الاحداث الضاغطة والمجهدة. ومبالغة في تقييم العلاقات بين إنسانية بالسلبية. في حين يشير التثبيط الاجتماعي للميل الى الكف عن التعبير عن الذات في التفاعلات الاجتماعية ، متوترون كنتيجة لسوء الأحوال الاجتماعية التي يعيشها نتيجة للشعور بعدم الأمن. فهم يتجنبون الخطر الموجود في التفاعلات الاجتماعية مثل الانتقاد أو عدم الحصول على الموافقة من الأخر. (Pederson et Denollet, 2004)

كما يشير (Denollet, 1998) إلى أن الخطر المرتبط بالنمط "د" لا يقتصر على مجال القلب والأوعية الدموية ، لأنه قد يؤدي إلى الارتفاع المفاجئ لنسبة السكري في الدم ، ويمكننا أيضا في بعض الحالات من التنبؤ بحدوث سرطان لدى اشخاص يعانون من قصور في القلب.

وعلى الرغم من أن أسباب ارتفاع المخاطر لدى نمط (د) غير واضحة بصفة نهائية إلا أن الباحثون في مجال الطب وعلم النفس الجسدي قد أكدوا أن الزيادة في هرمون الكورتيزول تزيد من التوتر والقلق بشكل مضاعف لأشخاص من نمط (د) أكثر من غيرها من الأنماط الأخرى الشيء ما يؤدي إلى تسريع دقات القلب ، توسيع الأوعية الدموية ، زيادة في ضغط الدم وزيادة في نسبة السكر في الدم ، مما يجعل جهاز مناعة هذا النمط أكثر نشاطا مما كان وبالتالي المزيد من الالتهابات مما يؤدي إلى تلف الأوعية الدموية وتمزق لوحات تصلب الشرايين. وبالتالي يكون أصحاب النمط (د) أكثر عرضة لخطر الموت المفاجئ ؛ فهم أكثر عرضة للجلطات والسكتات القلبية. فهو إذا الوسيط بين نمط (د) والإصابة بأمراض القلب التاجية وربما اضطرابات صحية أخرى سواء كانت نفسية أو عضوية. (Denollet,2011)

4-3- بروفيل الشخصية، الخصوصية والبينة العقلية في إطار المنحى السيكوسوماتي التحليلي

سعى التيار السيكوسوماتي منذ نشأته إلى استخراج بعض الخصائص المشتركة بين المرضى المصابين باضطرابات سيكوسوماتية أو جسدية بصفة عامة. فجاءت اعمال هيلين دينبار Helen Dunbar حول بروفيل الشخصية وفرانز ألكسندر Alexander Franz حول نظرية الخصوصية ، وأخيرا بيار مارتي Pierre Marty حول مفهوم التنظيمة العقلية.

يعود الفضل للامريكية دينبار **Dunbar** انطلاقا من تساؤلها حول إمكانية وجود عامل للشخصية والذي يكون خاصا بنوع محدد من الخلل الفيزيولوجي في تطوير وتعميق فكرة بروفيل الشخصية في إيضاح العلاقة بين النفس والجسد بمنهجية محكمة ودقيقة باللجوء إلى تقنيات حديثة واستعمال الاختبارات النفسية ، الإحصاء ، والمنهج المقارن... لأجل دراسة العلاقات بين سمات الشخصية والجداول الاكلينيكية الملائمة لكل حالة من الحالات التي كانت تلاحظها بالمستشفيات ، فانتقلت فكرة ارتباط الشخصية بالمرض الجسدي من المنهج الاستنباطي إلى منهج علمي واضح سعت من خلاله إلى استخراج لمجموعة من الامراض الجسدية بروفيل الشخصية التي يناسب كل واحد منها والتي يشترك فيها مجموعة من المرضى.

سعت من خلال التقصي الذي قامت به وضع إجراءات دقيقة بملاحظة فيزيولوجية وملاحظة سيكولوجية لـ 1600 مريض ، للإجابة على التساءلات الثلاث:

- ما الشيء في الشخصية والتي تولد الاستعدادية للمرض ؟

- ما الذي يحدد اختيار امراضية خاصة ؟

- وما هي وفقا للاستعدادية واختيار نوع التعبير، العامل المفجر للمرض؟

وسمحت النتائج التي توصلت إليها لاستنتاج بأن الأمر يتعلق ببنية الشخصية التي تضعف منطقة محددة من الجسم أمام الاعتداءات الخارجية التي تمهد الأرضية لحدوث الجسدنة. وترى ببناء وتكوين الشخصية وسمات تعمل على إشراط ظهور العرض الجسدي، وهكذا وصفت شخصية المصاب بضغط الدم والمصاب بداء السكري... وإذا ما عرف الملمح، فأن ذلك يمكننا من تحقيق الوقاية كما ترى دينبار. وبالرغم من الانتقادات التي لاقتها نظريتها في الحقل السيكوسوماتي لاهمالها البعد الدينامي، إلا أنها لاقت رواجا كبيرا في مجال علم نفس الصحة كما هو الحال بالنسبة لنظريات أنماط الشخصية. (Chemouni, 2000)

ويعتبر ألكسندر **Alexander** ممثل النظرية الانفعالية ويرجع له الفضل في السيكوسوماتية القصيرة "تيار الطب السيكوسوماتي". سيطرت أعماله على التيار السيكوسوماتي بين 1940-1960 ويرتكز تصوره على المفاهيم التحليلية والمفاهيم الفيزيوباتولوجية، اذ تم تطوير هذه المفاهيم مع زملائه من خلال ملاحظاتهم على المرضى في الأوساط الاستشفائية، وهو ما كان له أثره الكبير في تنظريهم في المجال السيكوسوماتي الذي اخذ الطابع الطبي. ويقول ألكسندر أن " الانفعالات تنتظم في سلاسل منطقية خلال التجارب الحياتية". (Alexander, 2002, p:40) كما تطرق إلى وجود نمط خاص من الصراع والذي يكون أصل عدد من الإصابات السيكوسوماتية مثل القرحة المعدية، التهاب القولون، ارتفاع الضغط الدموي والتهاب المفاصل، فرط إفراز الغدة النخامية... ولأجل ظهور الاضطراب السيكوسوماتي، يرى ألكسندر بضرورة توفر واجتماع لثلاث عوامل أساسية:

- نمط خاص من الصراع.
- قابلة خاصة للجسد تسمى بالعامل الجسدي X
- الوضعية الحالية للصراع.

وعلى العموم، فقد ارتكزت تصوراته في المجال على نظريتين أساسيتين:

1- نظرية تهتم بالخصوصية تنطلق من مسلمة أساسها أن كل حالة انفعالية تحدد ظهور تناذرات فيزيوباتولوجية

2- نظرية عصاب العضو: يظهر العصاب كاستجابة لحالة انفعالية صراعية لا يستطيع الفرد التحكم فيها. (Ibid)

ويسند ألكسندر للانفعالات نفس الوزن في تسببها في نشوء المرض مثلها مثل العناصر الممرضة كالالتهابات والعناصر الكيميائية والجسدية. بحيث يؤدي تطور عصاب العضو إلى الإصابة العضوية والوقوع بالتالي في الأمراض العضوية التشريحية. فكل حالة انفعالية خاصة تترجم في البداية باضطراب وظيفي متمركز في عضو أو جهاز، يتحول لاحقا الى اضطرابات عضوية بواسطة القاعدة الفيزيولوجية المرضية على أن الاضطرابات الوظيفية تتحول إلى إصابة تشريحية بتكرارها كما يذهب إليه ألكسندر. (Alexander (1943) in Consoli, 2013).

- وميز ألكسندر بين الإصابات المتعلقة بالنشاط الزائد بالجهاز السمبثاوي الذي يتحكم في ردود الفعل الحركية للمقاومة والهروب والمرتبط بالحالات الانفعالية النشطة العدوانية وبين تلك المتعلقة بالنشاط الزائد للجهاز الباراسمبثاوي الذي يتدخل في حالة الراحة واستعادة الطاقة أي تلك المرتبطة بردود الأفعال غير النشطة. حيث تلتقي هذه التقسيمات بنمط حياة فئتين من المرضى. ففي الحالة الأولى هم مرضى يمتازون بالنشاط الزائد، مقاومين يندرج تحته الضغط الدموي، الصرع، السكري. وفي الحالة الثانية مرضى يبدون حاجة للتبعية والحاجة العاطفية ويندرج تحتها مرضى الربو، القرحة المعدية، المعفج. (Chemouni, 2000)

- وفيه نجد بان كل من دينبار وألكسندر لم يتخليا عن التفسير العصبي الفيزيولوجي لنشأة الاضطرابات وحاولا إيجاد ملامح شخصية المريض السيكوسوماتي. غير أن ألكسندر يرى أن الاهتمام يجب أن يركز أكثر على البعد الداخلي وبظروف الحياة والاجهاد وما تستثيره من انفعالات، في حين اهتمت دينبار بالبعد الخارجي.

- وأن ما قامت به دينبار بربط نمط الشخصية بنوعية المرض فيه من المبالغة، على اعتبار انه من المفترض أن تمثل نمط الشخصية كمحدد ثانوي وليس محددا أساسيا.

كما أشارت المدرسة السيكوسوماتية الفرنسية إلى التفريغ على المستوى الجسدي واختزال الصراع في الجسد عندما لا تتمكن النفس من معالجة فيض الاثارات التي تغمر الجهاز النفسي ، فينوب الجسد عن النفس كون التفريغ على المستوى النفسي أصبح غير ممكنا بسبب غياب الكمونات العقلية وعقلنة خائرة في الامراض المستعصية. (Stora,1999) ومن هنا ظهرت فكرة اختيار العضو في الاضطرابات السيكوسوماتية. فلماذا امراض القلب والشريان التاجي؟ لماذا السكري وليس القرحة المعدية؟ لماذا سرطان الرئة وليس الربو الشعبي؟ هي كلها تساؤلات حاولت المدرسة السيكوسوماتية ومدرسة الطب السيكوسوماتي الإجابة عليها من خلال تحديد مجموعة من العوامل المؤدية إلى اختيار العضو ؛ فبالإضافة للعوامل الوراثية ، البيولوجية ، والهشاشة الجسدية ونوعية التوظيف العقلي للفرد فان لنوع البنية الاساسية في اجتماعها مع العوامل السابقة دوره في اختيار العرض أو نوعية المرض الجسدي.

تميز عمل مارتي **Marty** في ادراجه لمفهوم البنية في البعد الاقتصادي. ويفترض (Marty, 1998) أن التوازن السيكوسوماتي هو حصيلة التوازن بين غريزتي الحياة والموت. وشكل مفهوم العقلنة لب ومحور تنظيره إذ يرجع الإصابة الجسدية إلى ضعف في العقلنة وسيرورة الجسدنة التي تبدأ عندما يصبح الفرد غير قادر على المعالجة العقلية للمتناقضات التي ترهقه قسم مارتي البنيات الإنسانية حسب درجة التعقيل. وكلما كان التعقيل جيدا كلما اقترب الفرد أكثر من الصحة النفسجسدية والعكس بالعكس. وعليه جاء تقسيمه لهذه البنيات إلى:

1-الأعصبة والأذهنة الكلاسيكية: تكون فيها التنظيمة العقلية غنية بنقاط التثبيت المتموقعة على مدى مراحل النمو وبالتالي نلاحظ فيه قدرة الأفراد على الإرصان العقلي ومقاومة الإصابات الجسدية.

2-الأعصبة والأذهنة السيكوسوماتية: تندرج تحتها:

أ- الأعصبة الطبائعية: تمثل البنيات الأكثر انتشارا عند أفراد المجتمع ، ما يميزها هو عدم اكتسابها لنقاط تثبيت صلبة وبالموازاة مع هذا فهم لا يقدمون توظيف مستمر على مستوى الموقعيتين. وقد قسم مارتي هذه الاعصبة إلى ثلاث أنماط حسب درجة التعقيل.

- أعصبة طبع حسنة التعقيل: تقترب من الأعصبة الكلاسيكية وهذا ما يعكس تعرض ما قبل الوعي لعدم كفاية وظيفية خفيفة وغالبا عابرة ، وانطلاقا من صلب نظرية مارتي التي تربط بن التعقيل والمرض الجسدي يمكننا القول بأن حسن التعقيل هو من العلائم المبشرة بإمكانية شفاء أفضل.

- أعصبة طبع متوسطة التعقيل أو غير مؤكدة التعقيل: تتوسط أعصبة الطبع حسنة التعقيل وأعصبة الطبع سيئة التعقيل فهي تقترب من كليهما وتتميز بفقر التصورات والأفكار.

- أعصبة الطبع سيئة التعقيل: تقترب من الأعصبة السلوكية وتمتاز بعقلنة سيئة ويكون الدفاع على المستوى السلوكي هام مقارنة بالمجموعتين الأولى والثانية.

ب- الأعصبة السلوكية: تتميز بصعوبات هامة فيما يخص الإرصان العقلي للصراعات ، تميزها عدم التنظيمات الظاهرية الناتجة عن عوامل نفسية نشوئية أو وراثية أو معا.

3- الأذهنة الطبائعية والأذهنة السلوكية: في العادة لا تصل أعراض هذه الأذهنة إلى درجة الهذيان الذهاني وبالتالي فإن هذه الأذهنة تعكس تنظيما ذهانيا غامضا ، وباختصار فإن هذه الذهانات تعكس ما قبل شعور سيئ النوعية يسمح في فترة معينة لمكونات اللاشعور بالتبدي مباشرة في الوعي والهيمنة على شخصية المريض.

4- التنظيم التحسسي: قسمها مارتي إلى ثلاثة أنواع:

- الحساسية الأساسية: ذات علاقة بالعصاب السلوكي.

- الحساسية المتراوحة: تتراوح شخصية المريض بين الهستيريا والعصاب السلوكي.

- الحساسية الطبائعية: ذات علاقة بالعصاب الطبائعي

وميز Smadja (2001) نوعين من السيرورات الجسدية.

* سيرورة الجسدنة الراجعة للنكوص: مستوى العقلنة هنا يكون مقبولا ، تتمثل في نوبات غير حادة قد تختفي لتظهر مرة أخرى بنفس الشكل عند نفس الشخص ، هدفها إراحة الأنا ليعيد تنظيمه وتكيفه.

* سيرورة الجسدنة عن طريق فك الترابط النزوي وتتمثل في الأمراض التطورية الخطيرة التي تهدد المآل الحيوي للفرد كبعض الأمراض المناعية الذاتية والأمراض السرطانية.

قام مارتي بوصف شخصية المريض السيكوسوماتي بأنها تمتاز بالتفكير العملي وهو عبارة عن نوع من التفكير الراهن والملموس مع استثمار مفرط للواقع. كما وصفهم بالنمط البارد انفعاليا ؛ أو ما يصطلح على تسميته بالتكتم في المدرسة الامريكية ؛ بحيث يجدون صعوبة في التفريق بين انفعالاتهم ولا يستطيعون التعبير عنها ، فهم مصابون من هذه الناحية بعمى الألوان. وبأنهم يتسمون بفرط في التكيف الاجتماعي وبحاجة للإمتثال ومسيرين من طرف نموذج مثالي وجماعي ، يستصغرون مشاكلهم الشخصية ويفتقرون للمعارضة ؛ لا يمكنهم رفض الآخر ويخافون من رفض الآخر وابتعاده. (Chemouni, 2000)

ويجب التأكيد هنا على أن البروفيل ، ونظرية الخصوصية ، والبنية في مجال السيكوسوماتية هي غير مترادفة. إلا انها تستجيب لنهج وأهداف مشتركة.

5- سمات الشخصية العامة كعوامل للهشاشة الجسدية:

سنركز في عرضنا هذا على عاملين اساسين هما: التكتم **و**العدوانية المعرفية.

1)- التكتم **أو** خلل الضبط الانفعالي: تلعب الانفعالات دورا هاما في صحتنا النفسية والجسدية ؛ ويشير مصطلح التكتم alexithymia إلى العجز عن إدراك الانفعالات وتمييزها عن الإحساسات الجسدية او التعبير عنها بواسطة اللغة. وقد لاحظ العلماء منذ فترة طويلة علاقة الانفعالات وطريقة التعبير عنها بالأمراض النفسية والجسدية

ومنذ أن نحت Sifneos هذا المصطلح كمقابل معرفي يشمل التفكير العملياتي pensée operatoire كما تراه مدرسة Marty في البسيكوسوماتيك ؛ والبحوث جارية لتحديد علاقته بالأمراض النفسية والجسدية. يعني التكتم اصطلاحا غياب الكلمات لوصف الانفعالات ومنه عدم القدرة على التعبير الانفعالي. نتج المفهوم من الطب العقلي الأمريكي ، ووصف التكتم لأول مرة من طرف Reusch سنة 1948 ، إلاّ أن سلوك المرضى المناقش تحت تسمية التكتم بما يعرف حاليا يعود إلىSifneos سنة 1973. (De Tychey, 2010)

واصطلح لتعريفة باتفاق الإكلينيكيين الأمريكان كما جاء فيما ذكره Porcelli & Meyer (2002) لكون التكتم "يجمع بين مجموعة من الخصائص المعرفية والعاطفية ، متضمنا صعوبة للتعرف على أحاسيسه وإبلاغها ؛ اختلال في القدرة على التمييز بين الأحاسيس والإحساسات الجسدية المرتبطة بالإثارات العاطفية ؛ محدودية الحياة الخيالية وكذا نوع من التفكير الموجه نحو الملموس والواقع ؛ صعوبات الاستدخال ؛ قدرة ضعيفة لتذكر الأحلام وامتثالية اجتماعية."

ويرى Porcelli et coll (1955); Tordarello et coll (1995) في (Crocos et al, 2003) أن التكتم كبعد أساسي يمكنه تشجيع التظاهرات المرضية الجسدية. مع العلم أن الدراسات التي أقيمت في هذا المجال يمكن إجمالها في ثلاث خانات كما جاءت في (Nöel et Rimé, 1988, p.587):

1) دراسات مقارنة أقيمت على عينات من المرضى السيكوسوماتيون.

2) دراسات تناولت العلاقة بين مستوى التكتم وخطورة المرض.

3) وأخيرا دراسات تفحصت ارتباط المتغيرات بين درجة التكتم وعدد الأعراض الجسدية.

ويشير Taylor, 2001)) إلى أن التطبيقات السريرية لهذا المفهوم تبدو واعدة ، وأهمها:

1- أن المتكتمين يظهرون نماذج من التعلق المرضي وأشكالا من سوء التكيف وعدم الضبط الانفعالي

2- أن التكتم يستعمل كمؤشر تنبؤي وبنجاح في أسباب الوفيات بغض النظر عن عوامل الأخطار الأخرى.

3- أثبت العلاج النفسي أن خفض التكتم يؤدي إلى فوائد صحية جمة.

وهكذا تبدو أهمية التكتم خاصة فى علاقته بالجسدنة والاكتئاب لدى مراجعي العيادات العامة.

وفي الدراسة التي قام بها (Tolmunen et al, 2010) تشير البيانات التنبؤية حول 2668 من مرضى القلب الاقفاري إلى زيادة خطر وفيات القلب والأوعية الدموية عند من يعانون من التكتم. مع العلم أن هذا التوقع يبقى قائما حتى بعد ضبط

العديد من المتغيرات المربكة؛ بما في ذلك تناول التبغ، الضغط الدموي، الكلسترول السيء LDL، ومستوى المزاج المكتئبن والتي تعتبر كلها مرتبطة إيجابيا مع التكتم. (Consoli, 2013)

وفي تحليل للمنشورات التي تدمج مفهوم التكتم في علم الأورام، توصل (De Vries AMM, 2012) بان النتائج جاءت غير متجانسة، وبأنه تم تناول العلاقة بطرق منهجية أقل موضوعية مما تم تناوله في مجال الامراض القلبية الوعائية. حيث جاءت النتائج غير مقنعة، ويستنتج بان التكتم في مجال السرطانات يظهر كطريقة تكيفية ورد فعل لـ "إجهاد" السرطان أكثر من كونه سمة شخصية تحمل خطرا فى طياتها. (Ibid)

كما ذهبت العديد من ألأبحاث السريرية منها والتصوير الدماغى الوظيفى، لصالح وجود علاقة بين التكتم والألم المزمن أو الحساسية بالألم، وعلاقتها أيضا بالاضطرابات جسدية الشكل بصفة عامة.

2)- اما العدائية المعرفية: فإن الميل أو النزعة إلى العداء وخاصة للأفكار العدائية من مثل الارتياب الشك، عدم الثقة، الاستياء، الحقد... كقواسم مشتركة تفسر الاعتلال الجسدي والوفيات بشكل عام. وفي دراسة تنبؤية على 14 356 من مستخدمي شركة الغاز والكهرباء الفرنسية تم اتباعهم لمدة 15 سنة تقريبا، فقد جاء عدد الوفيات التي تم التنبؤ بها بسبب العدوانية المعرفية مرتفعا. وهي النتائج التي اكدت عليه العديد من الدراسات حيث اعتبرت العدئية المعرفية كسمة شخصية خطيرة وكوسيط للإصابة الجسدية، خاصة في اجتماعها مع المزاج الاكتئابي. (Lemogne et al, 2010). في حين أكدت دراسات أخرى كما جاءت في (Nabi & al, 2008) إلى أن العدائية لوحدها كسمة ممرضة كافية للإصابة بالمرض الجسدي حتى في عدم ارتباطها بسلوكيات ضارة للصحة (كالكحول، التبغ...)، فالقيمة التنبؤية للعدائية تستمر وتبقى قائمة حتى بعد بعد التعديل لمثل هذه الخصائص.

6- سمات الشخصية كعوامل حماية للصحة الجسدية:

في مقابل الدراسات التي اهتمت بالأسباب الممرضة (les facteurs pathogènes)، هناك من الدراسات التي اهتمت بالعوامل التي تعزز الصحة (les facteurs salutogènes). وفي مقابل سمات الهشاشة الجسدية كالتكتم، والعدوانية المعرفية، فإنه تتوفر بعض سمات الشخصية كعوامل حماية من الإصابة الجسدية، نذكر منها: التفاؤل الاستعدادي والإحساس بالانسجام والتحكم المدرك. (Consoli, 2013)

وأشار (Kubzansky & al, 2010) في (Consoli, 2013) إلى أن الدراسات التي اهتمت بعامل التفاؤل الاستعدادي توصلت إلى انخفاض في نسبة الإصابة بالشرايين التاجي بمرتين اقل مقارنة بالمتشائمين، إضافة إلى تطور سيء وسلبي للمتشائمين في مجال الامراض السرطانية.

كما يعتبر الإحساس بالانسجام والتحكم المدرك من السمات الإيجابية وعامل حماية يرتكز على الإحساس المستمر والدينامي للثقة بالذات، ما يسمح لهم بفهم المثيرات النابعة من الواقع الخارجي أو عالمه الداخلي، وبإعطاء معنى لوجوده الشخصي والشعور بالقدرة على تسيير الإغراءات والصعوبات التي تواجهه.

وأظهرت دراسة على 20323 من الأفراد؛ بأن الإحساس بالانسجام ومستوى التحكم هي من العوامل المنبأة في انخفاض معدل الوفيات الطبيعية. وأظهر تحليل لفئات الأمراض الجسدية الكبرى، القيمة الوقائية للإحساس بالانسجام في مجال السرطان، وقيمة حمائية مماثلة للتحكم المدرك في مجال امراض القلب والأوعية الدموية. (Surtees & al, 2006 in Consoli, 2013)

وفي تحليل لـ 35 دراسة أجريت على افراد يتمتعون بصحة جيدة، و35 دراسة اخرى أجريت على مرضى يعانون من مرض جسديين، توصل الباحثون لاستخراج التأثير الحمائي لبعض السمات الشخصية والرفاهية النفسية كالسعادة، التفاؤل، الامل، حس الفكاهة والدعابة، في

تقليص مساهمتها من الوقوع في الامراض الجسدية. (Chida & Steptoe, 2008)

واضاف (Bruchon-Schweitzer et Boujut, 2014)، عوامل حماية أخرى أدرجها في الأساليب المعرفية المستمدة من نظريات التعلم الاجتماعي ك (أسلوب الإسناد، مركز التحكم، الفعالية الذاتية)، إضافة إلى القدرة على التحمل، والمرونة.

خاتمة

تتأثر صحة الفرد بمحددات بيولوجية وأخرى انفعالية واجتماعية. أين تعتبر الشخصية عاملا وسيطيا وهي من اهم عوامل الخطر او الحماية في مقابل ظهور الامراض الجسدية. وقد طفت الرغبة في تحديد نموذج بنائي على الأبحاث التي أجريت في مجال الامراض الجسدية لعدة عقود ؛ كان هدفها تأسيس فئة من الأشخاص لها بعض السمات الشخصية أو الخصائص النفسية وبعض الأعراضيات الجسدية المشتركة.

سعينا من خلال هذا العرض للتركيز على العلاقة بين البناء النفسي/الشخصية والمرض الجسدي من خلال طرح لبعض النماذج النظرية وبعض الحقائق العلمية التي سعت العديد من الدراسات لابرازها بدعم النماذج التي ترى بمساهمة بعض الخصائص والسمات الشخصية في الحفاظ على الصحة النفسية أو على العكس من ذلك حدوث الأمراض الجسدية وتطورها كما ذهب إليه أنصار علم النفس الصحة. إذ سعى الباحثين إلى تحديد انماط السلوك أو أنماط الشخصية منذ أعمال فريدمان وروزنمان حول "النمط أ"، وأعمال جرير وموريس وليديا تيموشوك حول"النمط ج"، وصولا إلى دراسات جوناتان دونولوت حول "النمط د"، واللذين قاموا بتحديد عدد من المؤشرات التي تكون مجتمعة التركيب المميز لهذا النمط السلوكي والتي تكون لها مساهمة في نوعية المرض الجسدي الذي يصاب به الفرد حامل ذلك النمط.

وقد نالت الدراسات في مجال الامراض القلبية الوعائية حظها الوافر من البحث لإثبات هذه العلاقة، حيث أوضح التمحيص والتحليل لهذه الدراسات بأنها كانت دراسات موضوعية اتبع فيها اسلوب منهجي دقيق كما كانت أكثر توافقا للتحقق من مثل هذه الارتباطات مقارنة بالدراسات التي اجريت في مجال السرطان والتي لم تكن مقنعة كفاية ولا يمكن اعتمادها كلية.

وسعت المدرسة السيكوسوماتية من جهتها لإظهار دور البناء النفسي في ظهور الامراض الجسدية. إذ أستندت دينبار في نظريتها الوقائية لوجود عامل للشخصية الذي يكون خاص بنوع محدد من الخلل الفيزيولوجي وعملت على تطوير وتعميق فكرة بروفيل الشخصية الذي يشترك فيه مجموعة من المرضى، وعملت على نقل فكرة ارتباط الشخصية بالمرض الجسدي من المنهج الاستنباطي إلى منهج علمي واضح وتوصلت إلى وجود بناء وتكوين الشخصية تجعل الافراد حاملين الاستعدادية للوقوع في امراض جسدية معينة دون غيرها اين يتعلق الأمر ببنية الشخصية التي تضعف منطقة محددة من الجسم أمام الاعتداءات الخارجية التي تمهد الأرضية للاصابة بالمرض ، فوصفت بالتالي ملامح شخصية المصاب بضغط الدم والمصاب بداء السكري... الخ.

في حين ركز ألكسندر على الخصوصية وارتباط كل حالة انفعالية بظهور تناذرات فيزيوباتولوجية محددة. وميز بين الإصابات المتعلقة بالنشاط الزائد بالجهاز السمبثاوي وبين تلك المتعلقة بالنشاط الزائد للجهاز الباراسمبثاوي ؛ إذ يلتقي هذا التمييز بنمط حياة فئتين من المرضى. يندرج تحت الفئة الاولى الضغط الدموي، الصرع، السكري. اما في الفئة الثانية فيندرج تحتها مرضى الربو، القرحة المعدية، المعفج.

أما مارتي فقد اهتم بالبنية الأساسية للأفراد ودورها في اختيار العرض أو نوعية المرض الجسدي، اين تشكل درجات العقلنة أساس هذا التقسيم. فكلما كانت العقلنة سيئة وتقترب من العصابات السلوكية كلما كان المرض خطيرا يهدد المآل الحيوي للفرد كبعض الأمراض المناعية الذاتية والأمراض السرطانية.

وعليه، ومن خلال عرض مختلف التناولات النظرية وما توصلت إليه نتائج الدراسات، فإنه وبالرغم من الاختلاف في تناول المتغيرات حول العلاقة بين الشخصية والمرض الجسدي، فإن الأبحاث النفسية الجسدية لا تبدو قادرة على الهروب من التركيز على النموذج البنائي والذي يكون أساس تشكل السمات الخارجية.

وفي مقابل العوامل الممرضة تتوفر العوامل التي تعزز الصحة الجسدية كعوامل حماية من الإصابة الجسدية ، نذكر منها التفاؤل الاستعدادي والإحساس بالانسجام والتحكم المدرك. إضافة إلى بعض السمات الشخصية والرفاهية النفسية كالسعادة ، التفاؤل ، الأمل ، مركز التحكم ، الإحساس بالفعالية الذاتية ، حس الفكاهة والدعابة ، ...

وفي الأخير نقول كما أشار إليه (Consoli, 2013) بأن الأسباب المشتركة ، لا سيما الوراثية منها مع الاخذ بعين الاعتبار كلا من أنماط الظواهر النفسية والاستعدادية لبعض الأمراض الجسدية ، يمكن أن تدعم ارتباط نوع الشخصية بسماتها بالمرض النفسى. وبان السمات الشخصية للفرد وحدها أو بنيته النفسية غير كافية لتحديد اختيار العرض أو المرض الجسدي ، بل فى اشتراكها بعوامل أخرى ؛ وراثية ، بيولوجية فيزيوباتولوجية ، وجدانية ، انفعالية ، اجتماعية على أساس أن الانسان وحدة بيونفسواجتماعي ويجب تناوله في شموليته بنظرة تكاملية ، وأن نمط الشخصية هو محدد ثانوي وليس محدد أساسي ، وما السمات الشخصية ، أنماط السلوك ، بروفيل الشخصية إلا عوامل مساهمة تعمل على ظهور العرض الجسدي واختيار أعراضيته أو نوعيته.

فهي بالتالي تعتبر عوامل مفجرة ، تضاف للمسببات الجسدية أو كتكملة لها ، مسببات لا يمكن للمرض أن يظهر بدونها.

كما أن فكرة حصر الأفراد فى نماذج من الخصائص والتراكيب السلوكية والنفسية والانفعالية يجب أن لا يتوقف هدفها عند حدود التصنيف وتحديد الأنماط ، بل وضع أسس الوقاية من الإصابة ببعض الامراض من خلال تحسين نوعية حياتهم وتعديل الأسلوب الخاص والمميز للفرد في الاستجابة للمواقف الحياتية المختلفة وفى التعامل مع نفسه ومع الآخرين للتقليل من احتمالية الإصابة المرضية والارتقاء بصحته بشكل عام.

المراجع

- أحمد محمد عبد الخالق ، **الابعاد الأساسية للشخصية** ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، مصر ،1994.
- جمعة سيد يوسف ، **دراسات في علم النفس الإكلينيكي** ، الطبعة الأولى ، دار غريب ، القاهرة ، مصر ، 2000.
- مارتي بيار ، ستورا جون بنجامان ، ترجمة النابلسي مُحَمَّد أحمد ، **مبادئ السيكوسوماتيك وتصنيفاته** ، الطبعة الأولى ، دار الهدى ، باتنة ، الجزائر ،1992.

- ADAM Z & BLATNÝ M, "Type C personality (cancer personality): current view and implications for future research", **US National Library of Medicine National Institutes of Health**, 2008, Vol 6, n° 54, pp: 638-45. http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/18672576 dernière visite: 20/07/2018.

- ALEXANDER. F, **La médecine psychosomatique**, Payot, Paris,2002.

- AMAMI.O, AKROUT.R, BEN THABET-KAMOUN, "Psychogenèse du cancer", **l'Information Psychiatrique**, 2006, Vol 82, n°8, pp : 683-688

- BRUCHON-SCHWEITZER Marilou, **introduction à la psychologie de la santé**, 2émé édition, Dunod, France, 2002.

- BRUCHON-SCHWEITZER Marilou et BOUJUT Émilie, "Les aspects protecteurs de la personnalité" in **Psychologie de la santé Concepts, méthodes et modèles**, chapitre 4, 2eme édition, Dunod, paris, 2014, pp : 277 à 371.

- CHEMOUNI J, " Personnalité, spécificité et structure en psychosomatique », Evolution **Psychiatr.** éditions scientifiques et médicales, 2000, n° 65, pp : 539-570.

- CHIDA.Y, STEPTOE.A, "Positive psychological well-being and mortality: a quantitative review of prospective observational studies", **Psychosom Med**, 2008, n°70, pp: 741-756.

- CONSOLI Silla M, "Personnalité et maladies somatiques" in **Les personnalités pathologiques**, Sous la direction de **Julien-Daniel Guelfi** et **Patrick Hardy**., Lavoisier, Paris, 2013, pp : 256 - 263

- DENOLLET J, PEDERSEN S, "Is Type D Personality Here to Stay? Emerging Evidence Across Cardio- vascular Disease Patient Groups", **The Netherlands Current Cardiology Reviews**, 2006, n° 2, pp: 205-213

- DENOLLET J, CONRAADS VM, "Type D personality and vulnerability to adverse outcomes in heart disease», Cleveland **Clinic Journal of Medicine**, 2011, pp:13-19.

- DENOLLET J, "Personality and risk of cancer in men with coronary heart disease", **Psychol Med**, 1998, n° 28, pp: 991-995.

- DENOLLET J, "Type D personality. A potential risk factor refined", **JPsychosomtic Research**, 2000, n° 49, pp: 255-266.

- EL-GABALAWY R, KATZ LY, SAREEN.J, "Comorbidity and associated severity of Borderline Personality Disorder and physical health conditions in a nationally representative sample", **Psychosom Med**, 2010, n° 72, pp: 641-647.

- ESKELINEN Matti, OLLONEN Patrick, "Assessment of cancer-prone personality characteristics in healthy study subjects and in patients with breast disease and breast cancer using the commitment questionnaire: a prospective case-control study in Finland», **Anticancer Res**. Nov 2011, n° 31 (11), pp: 4007-4013. http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/22110235 dernière visite : 03/11/2018.

- FERNANDEZ-BALLESTEROS Rocio, Cancer-prone Personality, Type C, **International Encyclopedia of the Social & Behavioral Sciences**, 2001, vol 12, pp :1439—1443.

- GOODWIN RD, COX BJ, CLARA I, "Neuroticism and physical disorders among adults in the community: Results from the National Comorbidity Survey", **J Behav Med**, 2006, n° 29, pp: 229-238.

- GOODWIN RD, FRIEDMAN HSn "Health status and the five-factor personality in a nationally representative sample", **J Health Psychol**, 2006, n°11, pp: 643-654.

- GRAZIANI. P. & SWENDSEN.J, **Le stress : émotions et stratégies d'adaptation**, 1ere édition, Nathan, France,2004.

- GROSSARTH-MATICEK R, EYSENCK HJ, VETTER H, "Personality type, smoking habits and their interaction as predictors of cancer and coronary heart disease", **Pers Indiv Differ**, 1988, n° 9, pp: 479-499.

- HAGEN LISTE Karen," Breast cancer, personality and the feminine role", Patient **Education and Counseling**, 1999,Vol 36 (1), pp : 33—45

- HAGGER-JOHNSON.G, ROBERTS.B, BONIFACE.D & al, "Neuroticism and cardiovascular disease mortality: socioeconomic status modifies the risk in women", **(UK Health and Lifestyle Survey). Psychosom Med**, 2012, n° 74, pp: 596-603.

- HANSEN PE, FLODERUS B, FREDERIKSEN K, JOHANSEN C, "Personality traits, health behavior, and risk for cancer: a prospective study of Swedish twin court", **Cancer**, 2005, n°103, pp: 1082-1091.

- LEMOGNE C, NABI H, ZINS M et al, "Hostility may explain the association between depressive mood and mortality: evidence from the French GAZEL cohort study", **Psychother Psychosom**, 2010, n°79, pp: 164-171.

- MARTY Pierre, **Mentalisation et psychosomatique**, Le Plessis-Robinson, Les Empêcheurs de penser en rond, Paris, 1991.

- MARTY.P, **L'Ordre psychosomatique : les mouvements individuels de vie et de mort : essai d'économie psychosomatique,** tome 1, Payot Paris, 1998.

- MORIZOT Julien, Le développement de la personnalité de l'homme de l'adolescence au milieu de la vie : Approches centrées sur les variables et sur les personnes, Thèse présentée à la Faculté des études supérieures en vue de l'obtention du grade de Philosophie en psychologie, Université de Montréal, 2003, thèse publiée. https://papyrus.bib.umontreal.ca/xmlui/bitstream/handle/1866/6725/these.pdf dernière visite : 09/09/2018

- NABI H, KIVIMÄKI M, ZINS M et al, "Does personality predict mortality? Results from the GAZEL French prospective cohort study", **Int J Epidemiol**, 2008, n° 37, pp: 386-396.

- PONGY Philip, BABEAU Robert, **Psychosomatique et médecine**, 1ere édition, Sauramps médical France, 2003.

- PORCELLI Piero, MEYER Gregory, "Construct validity of Rorschach variables for Alexithymia", **psychosomatics**, 2002, vol 43 n°5, pp:360-369.

- RAGLAND DR, BRAND RJ, "Type A behavior and mortality from coronary heart disease", **N Engl J Med**, 1988, n°318, pp: 65-69.

- SCHRAUB Simon, "Existe-t-il un lien entre un événement psychique et le risque de survenue d'un cancer **?**", **Revue d'épidémiologie et de santé publique**, 2009, vol 57 n°2, pp : 113—123.

- SCHUSTER JP, LIMOSIN F, LEVENSTEIN S, LE STRAT Y, "Association between peptic ulcer and personality disorders in a nationally representative US sample», Psychosom **Med,** 2010, n°72, pp: 941-946.

- SMADJA Claude, **La vie opératoire, études psychanalytiques**, 1ere édition, PUF, collection Le fil rouge, Paris, 2001.

- STORA Jean Benjamin, **Quand le corps prend la relève : stress, traumatismes et maladies somatiques**, Odile Jacob, Paris, 1999.

- TEMOSHOK L, "Personality, coping style, emotion and cancer: towards an integrative model", **Cancer Surveys**, 1987; n°6, pp: 545-567.

دراسة ومتابعة الغطاء النباتي في المنطقة السهبية لولاية برج بوعريريج «الجزائر» باستخدام تقنية الاستشعار عن بعد وأنظمة المعلومات الجغرافية

Study and follow up of vegetation in the steppe region using remote sensing technology and GIS application in BBA state (Algeria)

تاريخ الإرسال:03-05-2019 تاريخ القبول: 12-04-2020

سفيان بن صفية، جامعة سطيف2
bensefiasofiane@gmail.com

الملخص

يعد الاستشعار عن بعد RS وأنظمة المعلومات الجغرافية GIS من بين أهم الوسائل التقنية في تجميع المعارف العلمية حول مختلف الفضاءات (المجالات) الجغرافية وكذا متابعتها عبر مختلف الحقبات الزمنية ، ومن بين المواضيع المهمة ذات البعد البيئي والتي تستجيب لهذه التقنيات بصورة كبيرة جدا هو الغطاء النباتي. تتلخص ورقتنا هذه في دراسة وتتبع الغطاء النباتي في منطقة حساسة جدا وهي منطقة السهوب في ولاية برج بوعريريج من خلال استخدام مرئيات فضائية للقمر لاندسات 8 بتغطية طيفية 30 متر. إن استخدام الاستشعار عن بعد وتحليل المرئيات الفضائية لمختلف المناطق الحساسة من جهة ، وتوظيف أنظمة المعلومات الجغرافية في التحليل واستخراج خرائط موضوعاتية يساهم مساهمة كبيرة في تحديد وتتبع هذه الظواهر الطبيعية (التطور أو التدهور) وتحليلها تحليلا مجاليا وإحصائيا.

الكلمات المفاتيح: الاستشعار عن بعد ، أنظمة المعلومات الجغرافية ، السهوب ، الغطاء النباتي.

Résumé

La télédétection (RS) et les SIG comptent parmi les principaux outils techniques permettant de collecter des connaissances géographiques et de les suivre au cours de différentes périodes, notamment la végétation.

Notre étude consiste à étudier et à suivre l'état de la végétation dans une zone très sensible (pendant 20 ans) dans la région steppique de Bordj Bou Arreridj, en utilisant des images satellites de Landsat 8 avec une couverture spectrale de 30 mètres. L'exploitation de la télédétection des différentes zones sensibles, ainsi que l'utilisation de systèmes d'information géographique pour l'analyse et l'extraction de cartes thématiques contribuent de manière significative à l'identification et au suivi de ces phénomènes naturels (évolution ou dégradation) et à leur analyse et modélisation spatiale et statistique.

Mots-clés : Télédétection, SIG, Steppes, Végétation.

Abstract

Remote sensing (RS) and GIS are among the main technical tools for collecting and tracking geographic knowledge across different timescales. Among the important topics with an environmental dimension that respond to these technologies in a very large way is vegetation. This paper consists of studying and monitoring (for 20 years) the state of vegetation in a very sensitive area in the steppe region of Bordj Bou Arreridj by using Landsat 8 satellite images with a spectral coverage of 30 meters. The use of remote sensing of the different sensitive areas and the geographic information systems for the analysis and extraction of thematic maps contribute significantly to identifying and tracking these natural phenomena (development or deterioration) and analyzing them both spatially and statistically.

Keywords : Remote sensing, GIS, Steppe, Vegetations**.**

مقدمة

يُعدّ إقليم السهوب من أبرز الأقاليم الجغرافية التي تعاني أنظمتها البيئية من تدهور كبير [1]بحكم تميزها بمناخ شبه جاف إلى جاف ، أضف إلى ذلك التنافس الرعوي الكبير الذي تشهده هذه المناطق كونها تضم أكثر من ¾ الماشية في البلد (إقليم الأغنام حسب مارك كوت)[2]، مما يساهم في تراجع كبير لمختلف التشكيلات النباتية خاصة الحلفاء.

ومن أجل المتابعة المجالية الدقيقة لوضعية هذه التشكيلات النباتية خاصة من خلال التوزيع والكثافة تأتي مختلف التقنيات العلمية الحديثة مثل الاستشعار عن بعد وأنظمة المعلومات الجغرافية للاستجابة لهذا المطلب (التقييم والمتابعة).

يتناول هذا المقال بالتحليل ، المتابعة والمناقشة لوضعية وحالة الغطاء النباتي بالمنطقة السهبية لولاية برج بوعريريج باستخدام تقنية الاستشعار عن بعد بتحليل مرئيتين اثنتين للقمر الاصطناعي لاندسات 08 لفترتين مختلفتين: الأولى ترجع إلى سنة 2001 والثانية إلى سنة 2019 (أواخر جانفي وبداية شهر فيفري).

كل هذه العمليات (التصحيح الهندسي والراديومتري ، تطبيق مؤشر التمايز النباتي NDVI) تتم ببرنامج Arc gis 10.3 (أحد برامج أنظمة المعلومات الجغرافية) مرورا بالتحليل المجالي والإحصائي وصولا إلى إنتاج خرائط موضوعاتية متكاملة توظف في الموضوع محل الدراسة.

وعليه فهذا الموضوع ينقسم إلى جزأين أحدهما تقني (الخطوات الأساسية في استخدام هذه التقنيات) والثاني تحليلي استنتاجي من خلال النتائج المتوصل إليها باستخدام تلك التقنيات.

- **طرح الإشكالية**

تتركز الإشكالية الأساسية لهذا المقال في دراسة ومتابعة الغطاء النباتي في المنطقة السهبية لولاية برج بوعريريج باستخدام تقنية الاستشعار عن بعد وأنظمة المعلومات الجغرافية.

بمعنى التركيز على الإضافة التي تتيحها هذه التقنيات في التتبع الدقيق لحالة هذا الغطاء النباتي في هذه المنطقة بالذات.

للإجابة عن هذه الإشكالية المحورية نطرح الأسئلة التالية:

1- ماذا نقصد بالسهوب والمناطق السهبية عموما ، وأين تتموقع مجاليا في الجزائر ؟

2- أين تتموقع المنطقة السهبية في ولاية البرج وما هي خصوصياتها ؟

3- ما ذا نقصد بالاستشعار عن بعد وأنظمة المعلومات ، خصوصياتها وأهم الخطوات المتبعة في دراسة وتتبع وضعية الغطاء النباتي في السهوب العليا البرايجية ؟

4- أين تكمن الفروقات في التغطية النباتية من خلال تحليل صور الأقمار الاصطناعية لفترة 2001 و2019، باستخدام مؤشر التمايز (التغطية) النباتية NDVI وما هي أسباب ذلك ؟

- **أهمية الدراسة**

تمتاز مثل هذه الدراسات بالجدية والحداثة ، الميدانية والمصداقية ، أضف إلى ذلك الدقة المتناهية في الرصد ، التحليل ، المتابعة والاستنتاج.

أولا: الجدية والحداثية

وذلك لاستخدامها أحدث البرمجيات مثل Arc Gis, ENVI وغيرها من التطبيقات الحديثة التي توصلت إليها المعرفة العلمية في مجالي الاستشعار عن بعد وأنظمة المعلومات الجغرافية من جهة ، ومن جهة ثانية اعتماد هذه الأخيرة في حصولها على معلوماتها المجالية على صور الأقمار الاصطناعية بمختلف تغطياتها الطيفية (عموما بين 05 إلى 30 متر وفي بعض الحالات 60 متر)، وكلما كانت التغطية الطيفية عالية كانت المعلومة الجغرافية المرصودة مفصلة ودقيقة.

ثانيا: الدقة المتناهية في الرصد والمتابعة

تعتمد تقنية الاستشعار عن بعد باستخدام أنظمة المعلومات الجغرافية على القدرة الكبيرة في رصد المعلومة الجغرافية ، والتي تتمثل في دراستنا هذه على الغطاء النباتي في المناطق السهبية في مجال جغرافي محدد ألا وهي ولاية برج بوعريريج.

فمن خلال هذه التقنية وعن طريق التحليل الإحصائي يمكن لنا أن نقيم المساحة النباتية بدقة كبيرة ، كما يمكننا أن نحددها مجاليا (أي تقدير المساحة النباتية مجاليا وتقديرها إحصائيا) بالإضافة إلى النشاط الكلوروفيل (اليخضور) ؛ ومن خلال هذه الطريقة يمكن متابعة الوضعية

زمنيا ومكانيا، وهو ما يسهل على الدارسيين والمتابعين لوضعية الغطاء النباتي في هذه المناطق من اتخاذ التدابير اللازمة في الزمن والمكان.

ثالثا: القدرة على الاستنتاج والإخراج

بفضل الوسائل التي تتوفر عليها برمجيات أنظمة المعلومات الجغرافية التي تتمثل (Tools Bag) يمكننا من إجراء العديد من التحليل المجالية والإحصائية، مما يسهل علينا استخراج النتائج وتوظيفها توظيفا يقدم الإضافة للدراسة.

والنتائج المتوصل إليها تخرج نهائيا على شكل خرائط موضوعاتية دقيقة جدا، أما المعطيات الإحصائية فتمثل تمثيلا بيانيا.

- **مبررات الدراسة**

تكمن مبررات هذه الدراسة في شقين أساسيين:

أولهما: ضرورة توظيف مثل هذه التقنيات الحديثة في استخراج المعلومات الجغرافية خاصة تلك التي تتغير زمانيا ومجاليا متأثرة بالعوامل الجغرافية المختلفة (الإنسان، الظروف المناخية، ....).

ثانيا: حساسية هذه الأنظمة البيئية

فالمناطق السهبية عموما هي مناطق حساسة جدا للتغيرات والتدهور والتآكل المستمر لمقدراتها النباتية التي هي مصدر لاستخلاص الأدوية والمرهمات المهمة في الحياة الطبية والصيدلانية ؛ كما أنها تعد مادة غذائية هامة للمواشي خاصة وأن هذه الأقاليم تعد أقاليم المراعي بامتياز.

أمام هذه المتناقضات تجعلنا كمتخصصين في مجال الجغرافيا والتهيئة العمرانية أمام ضرورة المتابعة الدقيقة لهذه الأقاليم ورصد تغيراتها والحفاظ على أنظمتها البيئية بصورة دورية، ولا يتأتى ذلك إلا بتتبعها من خلال الاستشعار عن بعد ومرئيات الأقمار الاصطناعية التي توفرها لواقطها المختلفة وذات الأهداف المحددة.

- **أهداف الدراسة:** تتلخص أهداف هذه الدراسة فيما يلي:

أولا: التقنية

1- توضيح الطرق والمراحل الأساسية في تحميل الصور الأقمار الاصطناعية لمجالات جغرافية محددة.

2- تتبع المراحل الأساسية في تحليل صور الأقمار الاصطناعية باستخدام الأدوات التي يتيحها نظام المعلومات الجغرافية (Image Analyse) وتطبيق خوارزمية NDVI عن طريق ALGIBRA.

3- شرح الطرق الأساسية في استخدام برنامج Arc gis 10.3 واستخراج الخرائط الأساسية.

ثانيا: العلمية

1- ضبط إقليم السهوب اصطلاحا من خلال مختلف المؤشرات.

2- تحديد المجال الجغرافي للسهوب في الجزائر بصفة عامة، وفي ولاية برج بوعريريج خاصة، ومدى انسجام الإقليم الإداري مع الإقليم الطبيعي.

3- تحديد خصائصها الجغرافية (المجالية، النباتية، البيئية....) وإبراز أهم المخاطر البيئية التي تعاني منها هذه المناطق.

4- التحديد المجالي للغطاء النباتي ونوعه في المناطق السهبية، وتقييمه مساحيا ونوعيا سنة 2001.

5- التحديد المجالي للغطاء النباتي ونوعه في المناطق السهبية، وتقييمه مساحيا ونوعيا سنة 2019.

6- تقييم حالة الغطاء النباتي: نوعا ومساحة ما بين هذين الفترتين 20 سنة تقريبا.

7- استنتاج العوامل المتحكمة في تطور أو تدهور الغطاء النباتي من خلال تحليل جغرافي شمولي للمجال ومركباته الطبيعية والبشرية.

8- تقييم مجمل التدخلات المجالية للفاعلين الإداريين في المجال (المحافظة السامية لتطوير السهوب، محافظة الغابات والفلاحة....)

- **الدراسات السابقة**

هناك ثلاثة أنواع من الدراسات التي اهتمت بمثل هذه المواضيع، دراسات بيولوجية في تخصص النبات ركزت على المناطق السهبية وأهم النباتات، دراسات أخرى جغرافية للمناطق السهبية كأقاليم شمولية ذات خصوصية محددة، كما توجد دراسات اهتمت بشكل مباشر بأنظمة المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد.

إلا أنّ الدراسات المتخصّصة التي تناولت مثل هذه المواضيع (دراسة حالة الغطاء النباتي في المناطق السهبية

باستخدام أنظمة المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد فهي قليلة نوعا ما) وهو ما يضفي على هذه الدراسة أهمية كبيرة.

1- مقال للباحثة: D. Nedjraoui تحت عنوان:

Evaluation des ressources pastorales des régions steppiques algériennes et définition des indicateurs de dégradation, In : Ferchich i A. (comp.), Ferchich i A. (collab.). Réhabilitation des pâturages et des parcours en milieux méditerranéens. Zaragoza : CIHEAM, 2 004. p.2 39 -2 43 (Cahiers Option s Méditerranéennes ; n. 62).

وهي دراسة تفصيلية عن السهوب الجزائرية والمخاطر الطبيعية والبشرية التي تعاني منها ، ومدى تأثير هذه الظروف على البيئة السهبية.

2- مقال آخر يتحدث عن السهوب الجزائرية لصاحبيه:

Bouzid NEDJIMI et Mokhtar HOMIDA, Problématique des zones steppiques Algériennes et perspectives d'avenir.

منشور هذا المقال في مجلة الباحث ، العدد 04، 2006؛ يتحدث فيه الباحث عن مختلف القضايا التي تميز المناطق السهبية في الجزائر: طبيعيا ، بشريا (أنثروبولوجيا) واقتصاديا... وخلص في نهاية مقاله إلى حساسية هذه المناطق من جميع المناحي ، مما يدعو إلى الإسراع إلى وضع خطط تنموية كفيلة بتنمية هذه المناطق والمحافظة على أنظمتها البيئية.

3- دراسة معنونة بـ:

ESSAI DE BIOTYPOLOGIE DES ZONES HUMIDES DU CONSTANTINOIS, Option Ecologie animale, Par ANNANI Fouzi, DOCTORAT de science, 2013.

هذه الدراسة ركزت بالأساس على أهم النباتات الممركزة في إقليم السهول العليا القسنطينية ، وبرج بوعريريج مجال الدراسة يعد الحد الغربي.

استفدنا من هذه الدراسة في ضبط العينات النباتية الموجود في جنوب ولاية برج بوعريريج والتفصيل في التشكيلات النباتية بالمنطقة.

4- كما يوجد دليل مختصر ووظيفي لوزارة الغابات النباتات والحظائر لمنطقة الكيبيك.

Ministère des Forêts, **COLLABORATION À LA COORDINATION :** Isabelle Pomerleau, ing. f. de la Faune et des Parcs Secteur des forêts, **GUIDE D'INTERPRÉTATION DES MOSAÏQUES D'IMAGES SATELLITE LANDSAT,** Mars 2015.

وهي دراسة مهمة جدا لمثل هذه البحوث كونها تزواج بين استخدام صور الأقمار الاصطناعية والغابات ، ومختلف الظواهر المتعلقة بالغابات ، وكيفية تحليل وقراءة هذه الصور لمختلف الأوساط: النباتات ، الأشجار ، الحرائق ، المناطق الحضرية ، الأوساط المائية...وبصورة مختصرة ومبسطة.

5- دراسة على شكل كتاب مهم معنون بـ:

GIS Application in Agriculture, Edited By Francis J and David Caly, Boca Raton London New York, 2007.

في هذا الكتاب المقسم إلى عشرة (10) فصول تحتوي على دراسات تفصيلية لحوالي واحد وعشرين باحثا (21) على شكل مقالات علمية ، كل مقال منها يعالج إشكالية تتعلق بالأرض والفلاحة ومختلف المشاكل الزراعية ، كالدراسات التي تتعلق بتهيئة المجالات الفلاحية ، متابعة التربة ومختلف العناصر المؤثرة على تطوير الفلاحة في مناطق مختلفة من العالم.

6- دراسة معربة بعنوان: التنمية الزراعية في محافظة الوادي الجديد باستخدام نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد ، من تقديم: مصطفى خضير على خضير أحمد.

وهي رسالة ماجستير في الجغرافيا ونظم المعلومات الجغرافية سنة 2008.

من خلال هذه الدراسة نلمس درجة معينة من الإدماج الحاصل بين تقنية أنظمة المعلومات الجغرافية في تسيير المواضيع الفلاحية وتحليلها تحليلا مجاليا ، وهو ما يفيدنا في هذه الدراسة.

7- كما اعتمدنا على مذكرة تخرج ماستر أكاديمي في الغابات من جامعة تلمسان 2016 تحت عنوان:

Utilisation du S.I.G pour l'analyse de la structure de la forêt de Ouennougha dans la Wilaya de Bordj Bou Arréridj.

من إعداد الطالب زنزن وليد وإشراف الدكتور بن عبد الله مُحَمَّد الأمين.

وهي مذكرة ذات مستوى جيد تعرضت للمنطقة الغربية من جبال الحضنة (بلدية حرازة) (أو منطقة التقاء

جبال الحضنة بجبال البيبان ، أو ما يسمى في الجيمورفولوجيا بالشبكة).

استخدمت هذه المذكرة في تحليل نوع نباتي واحد وهو الصنوبر الحلبي اعتمادا على أنظمة المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد ، وإعداد قاعدة بيانات متكاملة.

تمكن الباحث في نهاية بحثه من التعرف على مختلف التشكيلات الحراجية على مستوى هذه الغابة بتحليل صور القمر الاصطناعي للاند سات 08.

8- أسس الاستشعار عن بعد وهي دراسة معدة من طرف:

Canada Center for Remote Sensing ، مترجمة إلى العربية من طرف : عاطف معتمد ، القاهرة 2008.

تتميز هذه الدراسة كونها تقنية أكثر منها علمية ، وذلك بهدف تقديم تقنية الاستشعار عن بعد وأهم مراحل إنتاج وتحليل صور الأقمار الاصطناعية.

9- مقال بالإنجليزية **Mona S. El-Sayed** معنون بـ:

Comparative Study of Satellite Images Performance in Mapping Lake Bathymetry: Case Study of Al-Manzala Lake, Egypt.

وهو منشور في مجلة

American Journal of Geographic Information System 2018, 7(3): 82-87

ويعد من المقالات الحديثة المنشورة في المجلات العالمية المهمة المتخصصة في الاستشعار عن بعد وأنظمة المعلومات الجغرافية.

اهتمت هذه الدراسة بتتبع موضع طوبوغرافية البحيرات باستخدام الاستشعار عن بعد (صور أقمار اصطناعية للقمر الاتحاد الأوربي: Sentinel-2A (10m resolution) and Landsat 8 imagery (30m resolution)

استفدنا من هذه الدراسة في موضوع تتبع ظاهرة طبيعية باستخدام التقنيات المذكورة سابقا.

1- أولا: ماذا نقصد بالسهوب ؟ والمناطق السهبية

1- السهوب

يعرف السهب في الجغرافيا الحيوية على أنه تكوين نباتي مؤلف من بقايا الحلفاء ، بمعنى فسيفساء من التكوينات النباتية المفتوحة والقصيرة ، بشكل بقايا متباعدة أحيانا[3].

كما يمكن أن نعرفها بأنها مساحات شاسعة مغطاة بكساء نباتي من نباتات معمرة ، مفتوحة خالية من الأشجار ، يغلب عليها نبات أو عدد قليل من النباتات السطحية أو شبه المنطمرة...ويشترط البعض أن تكون نسبة الغطاء النباتي أقل من 50٪ من المساحة العامة.[4]

وعليه فالسهوب الجزائرية تشغل مساحة ما يقارب 20 مليون هكتار تقع بين الأطلس التلي والصحراوي[5] ، تضم 08 ولايات سهبية بحتة و11 ولاية مزدوجة رعوية فلاحية ، أي ما يقارب 354 بلدية[6]. (الخريطة رقم 01، 02).

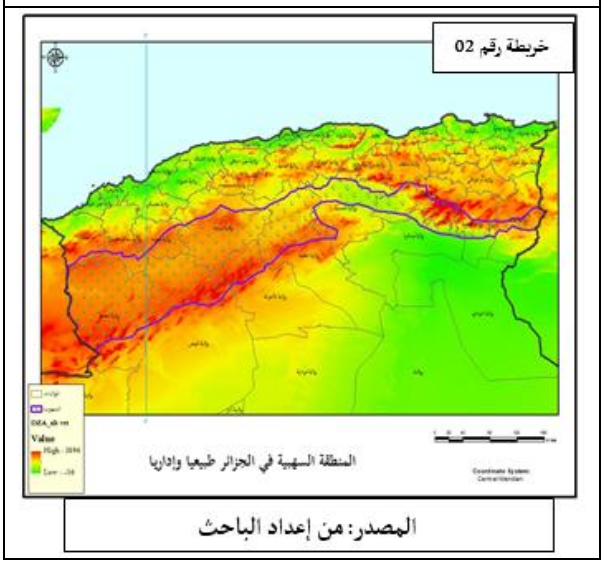

في حين أنّ القانون الجزائري يحددها في المادة التاسعة من قانون المراعي كما يلي:[7]

تتكون مختلف المناطق السهبية التي هي موضوع أحكام هذا الأمر مما يلي:

أ - المنطقة الزراعية التابعة للسهب والمسماة «**المنطقة السفلي شبه القاحلة** " والداخلة بين خطوط التماطر 300 و400 مم.

ب - منطقة السهب الشمالي المسماة " المنطقة القاحلة العليا ذات التأثير التلي والداخلة بين خطوط التماطر 200 و300 مم.

ج - منطقة السهب الجنوبي المسماة " المنطقة القاحلة السفلي ذات التأثير الصحراوي " والداخلة بين خطوط التماطر 200 و300 مم.

د - منطقة البور الواقعة قرب الصحراء والمسماة «منطقة الضايات

القاحلة والسفلي «الواقعة تحت خط التماطر 200 مم.

إذن من خلال قانون الرعي الصادر في 1975 تصنف المناطق السهبية على أساس عناصر المناخ وفي مقدمتها التساقط والتي يحصرها نفس القانون ما بين 200-400 ملم ، وهي متدرجة من الشمال إلى الجنوب إلى ثلاث أقاليم.

1-1- الأقسام الأساسية للسهوب الجزائرية جغرافيا: (التقطيع الإقليمي)

تقسم السهوب إلى ثلاثة أقاليم هي:

✓ في الشمال بين خطوط التساقط 300-400 ملم ، غير أن الأستاذ مُحَمَّد الهادي لعروق يرفع العتبة العليا إلى 500 ملم[8] ، وتمتد من السفوح الجنوبية للأطلس التلي في وسط البلاد تقريبا عند السفوح الجنوبية لجبال البيبان إلى غاية السهول العليا القسنطينية مرورا بجبال الحضنة والأوراس.

✓ القسم الثاني والمحصور بين 200-300 ملم وتضم السهول العليا الوهرانية ، السهول العليا لحاسي بحبح ، شمال ولايتي الأغواط والبيض وفي الشرق السهول السهبية العليا للمسيلة ، خنشلة وتبسة.

✓ في الجنوب (الصحراء) وهي مناطق ذات تساقط محصورة ما بين 100-200 ملم وتضم السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي ، منخفض الحضنة ، الهضاب الصحروية (جنوب الأغواط والجلفة)، جبال الزابوالنمامشة ، الهضاب الصحراوية لجنوب ولايتي تبسة ، خنشلة وبسكرة.[9]

إذن المناطق السهبية هي عبارة عن أقاليم بيو مناخية انتقالية بين المناخ المتوسطي في شمال البلاد وبين الصحراوي الجاف جنوبا ، تمتاز هذه المناطق بفترة جفاف طويلة ، والحرارة أكثر ارتفاعا ، حيث تزداد فيه الفوارق الحرارية اليومية والفصلية والتربة فيه فقيرة ، إضافة إلى انتشار السباخ والتربة الملحية التي لا تساعد على نمو النباتات.

تظهر التشكيلات النباتية في هذا الإقليم على شكل تجمعات كثيفة أو مفتوحة من الأعشاب والحشائش القصيرة والشجيرات في مناطق غير صالحة للزراعة ، وتتميز بأهميتها الرعوية بحيث يعتبر هذا الإقليم نطاق المراعي الطبيعية الأول في الجزائر ، وموردا طبيعيا متجددا في الجزائر تستفيد منه قطعان الثروة الحيوانية في الجزائر وخاصة الأغنام ؛ كما يلعب الغطاء النباتي في هذا الإقليم دورا في حماية البيئة الطبيعية والمحافظة على التربة من التعرية.

وأهم الأنواع النباتية السائدة في هذا الإقليم هي الحلفاء على نحو 04 مليون هكتار والتي لها أهمية مزدوجة اقتصاديا كمادة أولية لصناعة الورق وكمراعي طبيعية ، إلى جانب السدر والبطوم والشيح ؛ كما يتميز هذا الإقليم بكونه أهم مناطق إنتاج الحبوب في الجزائر "نطاق الحبوب الأول في الجزائر".[10]

2- السهوب والمناطق السهبية في ولاية برج بوعريريج

من خلال ما سبق وصلنا إلى نتيجة مفادها أن المناطق السهبية هي عبارة عن مناطق بيو مناخية (حيوية)، أي أنها تصنف على أساس مؤشرين: الأول هو التساقط (ما بين 100 و400 ملم) والمؤشر الثاني هو الغطاء النباتي المتمثل في غطاء الحلفاء ومختلف النباتات الشوكية المنتمية لنفس العائلة.

بناءً على المؤشرات السابقة (الغطاء النباتي والتساقط) توصلنا إلى إنتاج خريطة موضوعاتية (carte thématique) اعتمادا على برامج أنظمة المعلومات الجغرافية تبين مدى تقاطع المؤشرين في إقليم ولاية برج بوعريريج.

فمن خلال الخريطة رقم (02) نلاحظ أن المنطقة الوسطى (السهول العليا) والجنوبية (أقدام جبال الحضنة الشمالية) تشهد درجات تساقط تقل عن 400-500 ملم ، وهو الحد الأعلى لتحديد المناطق السهبية.

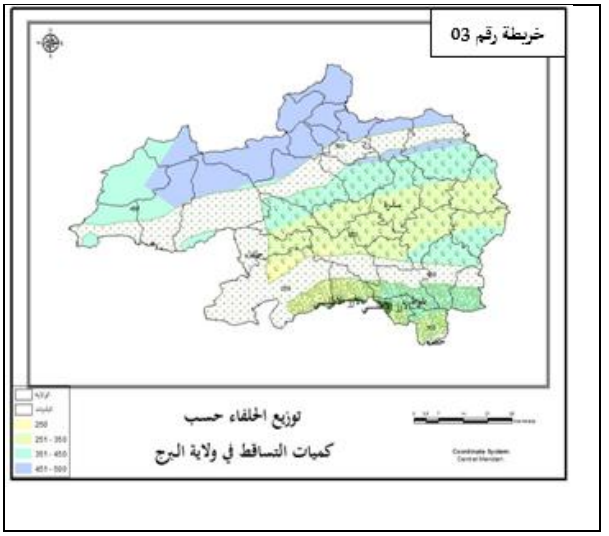

في حين أن انتشار نبات الحلفاء حسب نفس الخريطة نجده يتمركز بصورة كبيرة في الجنوب الغربي للولاية مع الحدود الولائية بين برج بوعريريج والمسيلة، ما عدا المناطق الجبلية ذات الارتفاع المعتبر (1500- 1800 م) على مستوى سطح البحر؛ بالإضافة إلى أقدام الجبال الواقعة في الشمال (شريط ضيق جدا).

هذا من جهة علمية، أما إداريا وحسب فرع المحافظة السامية للسهوب ببرج بوعريريج نجد أن المنطقة السهبية تضم 15 بلدية من مجموع 34 بلدية بالولاية (الخريطة رقم 04).[11]

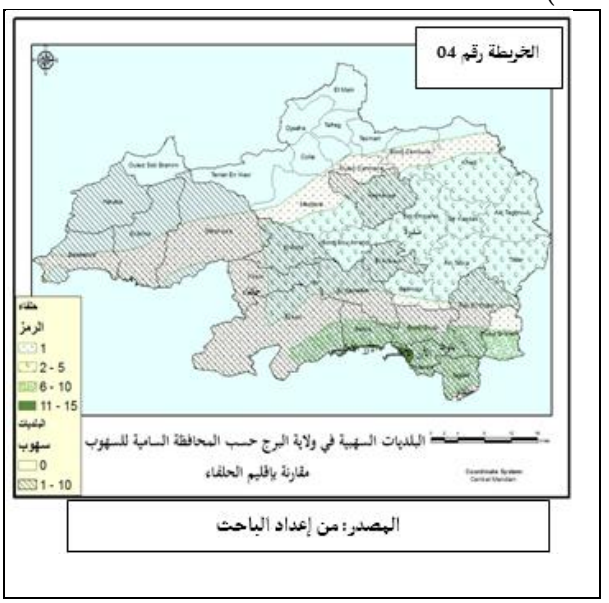

من خلال التعيين الإداري للإقليم السهبي في ولاية برج بوعريريج يشمل منطقة أوسع من الإقليم الطبيعي، وهذا أمر منطقي كون الإقليم الإداري أشمل من الإقليم الطبيعي، فالتدخلات المندمجة للمحافظة تكون على مستوى إداري، كما أن صب تركيزها على المناطق أكثر حساسية لخطر التصحر.

كما تجدر الإشارة إلى أن تحديد المناطق السهبية في الجزائر من خلال مختلف الخرائط يستثني إقليم ولاية البرج كإقليم سهبي 100 ٪ وإنما يعتبرها كمناطق فلاحية رعوية (ازدواجية النشاط الاقتصادي)؛ في حين أنّ المناطق السهبية أحادية النشاط (النشاط الرعوي).

3- المناطق السهبية بين ثنائية المؤهلات النباتية الرعوية وتسارع تآكل أنظمتها البيئية

كما سبق ذكره، فإنّ المناطق السهبية تتربع على مساحة كبيرة تزيد عن 20 مليون هكتار، تمتاز بكميات تساقط ضئيلة إلى ضعيفة جدا، مما أهلها إلى أن تكون حاضنة للنباتات الطبية والرعوية، فهي إقليم رعوي بامتياز على حد تصنيف مارك كوت في كتابه: L'Algérie Espace et Société[12].

وعليه فانخفاض كميات التساقط، وكثافة نشاط الانسان (الرعي الجائر، والفلاحة المرهقة...) على هذه المناطق يجعل الأنظمة البيئية لهذه الأخيرة حساسة جدا ومعرضة لمخاطر طبيعية عديدة في مقدمتها: التصحر (التعرية الريحية، التعرية المائية...)، الجفاف، تراجع المساحات العلفية...

إحصائيا وحسب دراسة مفصلة للمناطق السهبية كانت سنة 1985 حوالي 05 ملايين هكتار لتصل سنة 1995 إلى 7.5 مليون هكتار ...أي أنها تتآكل (المساحات السهبية) جراء زحف الرمال والجفاف بحوالي 2.5 مليون هكتار كل عشر سنوات.

كما أن المساحات العلفية هي الأخرى تراجعت بشكل رهيب حسب نفس الدراسة 10 مليون هكتار إلى 8.5 مليون هكتار في نفس الفترات الزمنية؛ أي تتراجع بحوالي 2.5 مليون هكتار كل عشر سنوات.

في المقابل نجد ارتفاع معتبر في قطعان الماشية في هذه المنطقة من 07 ملايين رأس سنة 1980 إلى 11 مليون رأس سنة 1995؛ أي بزيادة حوالي 05 ملايين رأس خلال عشر سنوات.[13]

أمام هذا التسارع الكبير للعوامل المهدمة للأنظمة البيئية السهبية والمنعكس تماما على الغطاء النباتي، وهو ما يدعو في نفس الوقت إلى تبني طرق وتقنيات حديثة أكثر فعالية ودقة في متابعة وتقييم هذه الظواهر.

ثانيا: أنظمة المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد (الإضافة الملموسة ؟)

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن أنظمة المعلومات الجغرافية GIS وكذلك الحال بالنسبة للاستشعار عن بعد R S ودورهما المدمج في دراسة وتتبع مختلف الظواهر سواء كانت طبيعية أو بشرية ، نظرا للتطور والانتشار الواسع لهذه التقنيات داخل مختلف الأوساط العلمية على اختلاف تخصصاتها من جهة ومن جهة ثانية للظهور المطرد لمختلف البرمجيات والتنافس الكبير بين شركاتها في تقديم الأفضل للمستعمل وتبسيط الاستخدام لها.

أ- **الاستشعار عن بعد:** مصطلح La **Télédétection** مركب من كلمتين:

Télé - : وتعني البعد (**la distance**) ، **Détection**: والتي تعني الكشف[14]

ويعبر هذا المصطلح عن مجموعة المعطيات التي نحصل عليها من مسافة معينة ، ناتجة عن تفاعل الأشعة الكهرومغناطيسية مع الجسم أو المظهر الذي ندرسه.[15]

وللاستشعار عن بعد أهمية كبيرة نظرا لخصائصه المتميّزة بالسرعة والدقة في مختلف العلوم كالجيولوجيا والأرصاد الجوية وعلم البحار... أما أهميته في الجغرافيا فتكمن في استكشاف الموارد ورصدها من ماء ، معادن ، غطاء نباتي ، تربة... وتسجيل التغيّرات التي تطرأ عليها ومحاولة التنبؤ بها كذلك تكمن أهميته في المسح الأولي للمناطق غير الممسوحة خرائطيا ، لذلك فإن الاستشعار عن بعد يمكننا من تغطية هذا العجز في المسح الخرائطي والتصوير الجوي ؛ كذلك له أهمية كبرى في ميدان التعليم والبحث العلمي لكونه يمدنا بصور حديثة ، وبدقة عالية ، ومتابعة للظاهرة بصورة دائمة.[16]

من خلال هذه الدراسة سنركز على متابعة الغطاء النباتي للمنطقة السهبية في ولاية برج بوعريريج اعتمادا على برنامج Arcgis 10.3 كما سندمج معها تقنية الاستشعار عن بعد وتحليل المرئيات الفضائية المحملة من مختلف الأقمار الاصطناعية وذلك بفضل مجموع الأدوات Bag tools التي يوفرها البرنامج سابق الذكر.

ب- أنظمة المعلومات الجغرافية: يوجد عدة تعريفات لنظام المعلومات الجغرافي تختلف باختلاف استخدامات هذا النظام في العلوم المختلفة ، كما أن هذه التعريفات تتطور سريعاً بالتطور المتلاحق للتكنولوجيا ، وتطور تطبيقات هذا النظام ، فقد عرف بظاظو ، (2009) نظام المعلومات الجغرافي بأنه:

"أداة تقوم على تنظيم المعلومات الجغرافية والوصفية بواسطة الحاسوب"، وربطها بمواقعها الجغرافية باستخدام أحد أنظمة الإسناد الإسقاطي أو الإحداثي للتعامل مع البيانات كنظام معلومات."

اعتبرها دويكر DUEKER " أنها حالة خاصة من نظم المعلومات ، والتى تعتمد على قواعد معلومات تعتمد على دراسة التوزيع المكانى للظاهرات والنشاطات والأهداف التى يمكن تحديدها فى المحيط المكانى كالنقط أو الخطوط أو المساحات ، حيث يقوم نظام المعلومات الجغرافى بمعالجة المعلومات المرتبطة بتلك النقط أو الخطوط أو المساحات لجعل البيانات جاهزة لاسترجاعها بغرض تحليلها أو الاستفسار عن البيانات من خلالها." بينما عرفتها شركة ESRI الأمريكية سنة 1990 المهتمة بالبرمجيات وأنظمة المعلومات الجغرافية بأنها:"نظم المعلومات الجغرافية مجمع متناسق يضم مكونات الحاسب الآلى ، البرامج وقواعد البيانات بالإضافة إلى الأفراد ، وفى مجموعه يقوم بحصر دقيق للمعلومات المكانية وتخزينها وتحديثها ومعالجتها وتحليلها وعرضها."

كما اعتبرها مُحَمَّد عزيز الخزامي:"نمط تطبيقي لتكنولوجيا الحاسب الآلى بشقيه الأساسيين البرامج Software ومكونات الحاسب الآلى Hardware، والتى أصبحت تسمح لنا بحصر وتخزين ومعالجة بيانات متعددة المصادر كمية كانت أو نوعية دون قيود ، مع إمكانية الحصول على نتائج نهائية على هيئة خرائط ، رسم بيانى ، مجسمات ، صور ، جداول أو تقارير علمية."

وعليه فإن نظم المعلومات الجغرافية تعد من بين التقنيات الحديثة التى يمكن أن نعتمد عليها فى دراسة مختلف الظواهر المنتشرة فضائيا (على غرار المواقع الأثرية) اعتمادا على برمجيات متخصصة وتقنيات الإعلام الآلى بغرض إدخال ، تخزين ، معالجة ، تحليل ، عرض وإخراج المعلومات الجغرافية[17] فى شكل خرائط ، مخططات وأشكال بيانية وكذا جداول إحصائية.[18]

تمتاز نظم المعلومات الجغرافية بأنها تجمع بين عمليات الاستفسار والاستعلام Query الخاصة بقواعد البيانات، مع إمكانية المشاهدة، والتحليل، والمعالجة البصرية لبيانات جغرافية من الخرائط، وصور الأقمار الصناعية، والصور الجوية، وهي الميزة التي تُميزها عن نظم المعلومات المعتادة، وتجعلها متاحة لكثير من التطبيقات العامة والخاصة، لتفسير الأحداث، وحساب المؤشرات، ووضع الاستراتيجيات.[19]

2-1- صور الأقمار الاصطناعية (المرئيات الفضائية) لمنطقة الدراسة

يعتمد الجغرافي في توزيع ظواهره الطبيعية في الوقت الراهن على صور الأقمار الاصطناعية كأداة فعالة ودقيقة لتتبع مختلف الظواهر وإدراك حجم الفوارق المجالية، وهي تختلف باختلاف الأقمار الاصطناعية (الإيجابية والسلبية) وكذا باختلاف درجة التغطية الطيفية.[20]

سنعتمد في هذه الدراسة على صور الأقمار الاصطناعية للقمر الأمريكي لاندسات landsat 8، landsat 7 المنتمي للاتحاد الأوربي للتأكيد، وذلك لفترة تزيد عن 18 سنة لنفس المنطقة (2019/2001).

للإشارة فإن سلسلة الأقمار الاصطناعية للاندسات فهي مجهزة بمجموعة من الكواشف (les Capteurs) مثل نظام:

- ✓ Caméras RBV (Return Beam Vidicon), le système MSS (Multi Spectral Scanner).
- ✓ Le TM (Thematic Mapper).
- ✓ Thematic Mapper Plus (ETM+).
- ✓ Et plus tard (OLI : Operational Land Imager) avec le capteur infrarouge thermique (TIRS) (Landsat 8) .[21]

كما أن المعلومات المستمدة من قناة واحدة (كاشف واحد) تعد غير كافية لإنجاز خرائط دقيقة لظواهر غير معلومة، لذلك يحبذ عن التحليل الطيفي دمج مجموعة من القنوات تحت قاعدة (RVB) أحمر، أزرق، أخضر وفقا للجدول التالي[22]:

الجدول رقم 01: القنوات الطيفية للقمر الاصطناعي 08

القناة	طول الموجة	المجالات المرصودة
1	0,433-0,453 µm	القناة الأولى تساهم في الكشف عن اللون الأزرق للسواحل بتتبع ذرات الغبار والغازات.
2	0,450-0,515 µm (bleu)	التمايز بين التربة والنبات، المناطق الساحلية، المبنية والعمرانية.
3	0.525—0.600 µm (vert)	النبات: هذه القناة تساهم في إنجاز خرائط النبات والفصل بين المناطق الفلاحية والعمرانية .
4	0.630—0.680 µm (rouge)	هذه القناة تساهم التمايز بين الأنواع النباتية: يمكن التمييز بين النباتات ذات الأوراق و دون الأوراق، من خلال امتصاص اليخضور.
5	0.845—0.885 µm (proche IR)	هذه القناة تساهم في التعرف على نوع النبات والأشجار والصحة النباتية من خلال قياس الكتلة الحيوية للنباتات عن طريق نسبة الرطوبة في التربة.
6	1.560—1.660 µm (IR de courte longueur d'onde)	✓ التمييز بين الثلج والسحاب. ✓ هذه القناة الحساسية الشديدة للرطوبة (التربة والنبات).
7	2.100—2.300 µm (IR de courte longueur d'onde 2)	الصخور: التمييز بين المعادن وأنواع الصخور، هذه القناة حساسة لنسبة الطوبة في النبات.
8	0.500—0.680 µm (Panchromatique)	تعمل هذه القناة بالضبط كفيلم أبيض وأسود. تستخدم في تحسين الرؤية أكثر.
9	1.360—1.390 µm (Cirrus)	هذه القناة تجمع الموجات ما تحت الحمراء القريبة، التي تسمح لنا علميا بقياس نوعية الماء وتحسين الكشف الدقيق للسحاب الخفيف .

Source : Zenzane Walid, Utilisation du S.I.G pour l'analyse de la structure de la forêt d'Ouennougha dans la Wilaya de Bordj Bou Arréridj, p47.

الصور المعتمدة في الدراسة هي:[23]

1- NUMBER_OF_BANDS "LANDSAT_8" = 11

يرمز لها: "LC81940352019006LGN00" التقطت بتاريخ 2019/01/06 ذات تغطية طيفية 30 متر بإحدى عشر قناة Band.

NUMBER_OF_BANDS "LANDSAT_7" -2

= 11

يرمز لها: "LE71950352001227NSG00" التقطت بتاريخ 2001/08/15 ذات تغطية طيفية 30 متر بإحدى عشر قناة Band.

الشكل رقم 01

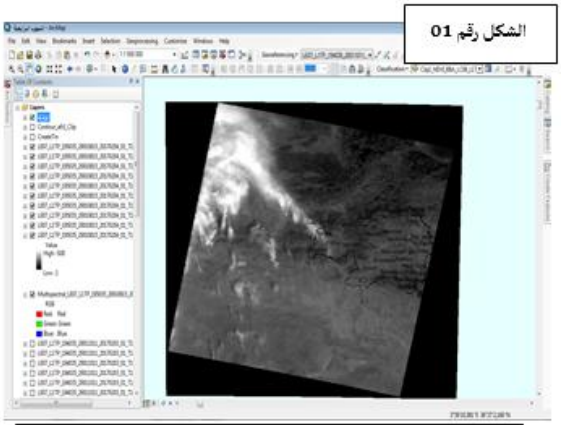

المصدر: من إعداد الباحث

2-2- معالجة وتحليل صور الأقمار الاصطناعية

2-2-1- التصحيحات الهندسية والراديومترية

بعد فتح هذه المرئيات في برنامج Arcgis 10.3 نقوم بعملية دمج الصور (هناك 11 قناة، ولكل قناة صورة خاصة بها، عند الدمج تصبح صورة واحدة بنفس القنوات)، وذلك باستخدام أداة Image Analysis، لنتحصل في النهاية على صورة مركبة لجميع القنوات بالألوان الثلاث المعروفة: الأزرق، الأحمر والأخضر.

الشكل رقم 02

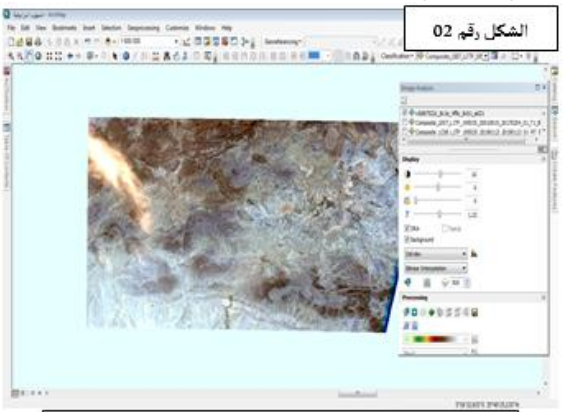

المصدر: من إعداد الباحث

في المرحلة الثانية نقوم بعملية التصحيحات الهندسية والألوان من خلال مجموعة من الأوامر التي يتوفر عليها البرنامج.

2-2-2- مؤشر التمياز والتغطية النباتية: NDVI

بعد اقتطاع جزء من المرئية (الجزء المراد دراسته) نقوم بتطبيق عليها مؤشر تمايز الاخضرار النباتي NDVI (النطاق 3 ما تحت الحمراء، والنطاق الرابع الأشعة الحمراء)[24]، الذي من خلاله نستخرج خريطة موضوعاتية عن مدى انتشار الغطاء النباتي وبصورة دقيقة جدا (أي استخراج المساحات بالضبط).

الشكل رقم 03

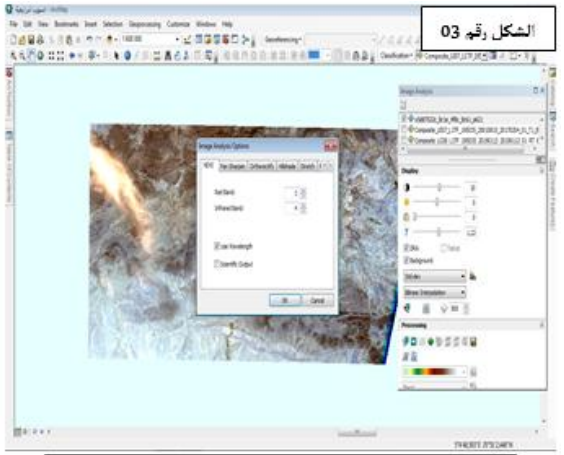

المصدر: من إعداد الباحث

بعد تطبيق مؤشر التمايز النباتي NDVI الذي نختصره في المعادلة التالية: 1.0* ((Band 4+Band3)) (Band 4-Band3))/ من خلال استدعاء الأداة: Raster calculator نتحصل في النهاية على الصورة المبينة في الشكل رقم (04) وتكون فيها التغطية الطيفية محصورة بين (1، -1).[25]

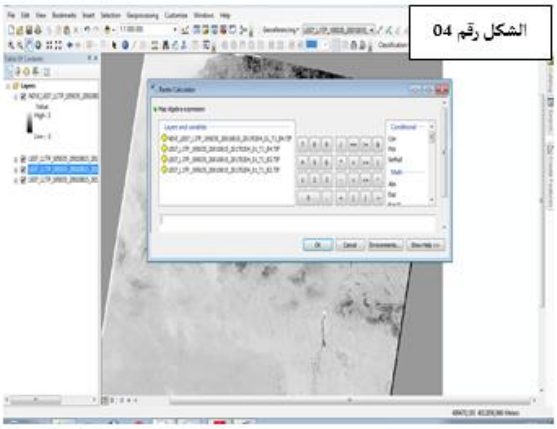
الشكل رقم 04

المصدر: من إعداد الباحث

فالقيمة التي تقل عن الصفر تمثل الصخور والمناطق العارية، أما القيمة الصفر (0) تمثل المساحات الرطبة والمياه، أما القيمة التي تزيد عن الواحد (1) تمثل الغطاء النباتي (أي كلما اقتربت إلى الواحد الصحيح كان نشاط اليخضور كبيرا وكذا الكثافة النباتية، أما القيم القريبة من الصفر هي المساحات ذات الكثافة النباتية المتوسطة والضعيفة).

ولاستخراج هذه الفئات بصورة واضحة مبسطة نقوم بإعادة التصنيف من خلال خصائص مرئية NDVI (symbology) نختار ثلاث فئات بطريقة يدوية:

- ✓ الفئة الأولى محصورة بين أقل قيمة والصفر باللون الأصفر.
- ✓ الفئة الثانية محصورة عند قيمة الصفر باللون الأخضر البارد.
- ✓ الفئة الثالثة محصورة بين الصفر وأكبر قيمة باللون الأخضر القاتم.

بهذه الطريقة نكون قد استخرجنا مساحة الغطاء النباتي وفصلها عن باقي المساحات (المبنية والمائية).

2-2-3- استخراج المساحات السهبية من مرئية NDVI وحساب المساحات

تكمن دراستنا هذه في متابعة تطور أو تدهور مساحات الغطاء النباتي في المناطق السهبية بولاية البرج، لذا وجب علينا اقتطاع حدود المساحة من المرئية التي طبقنا عليها مؤشر التمايز النباتي NDVI سواء لمرئية 2001 أو 2019 كما هو مبين في الشكلين رقم (03، 04).

من خلال الخريطتين (06، 07) نلاحظ أن مساحة الغطاء النباتي خلال (2001-2019) شهدت تغيرا كبيرا نحو الزيادة والتطور، ولمعرفة هذه المساحات بالضبط نقوم بما يلي:

1- استدعاء أداة Reclasse وذلك بإعادة تصنيف الجزء المقتطع من المرئية الفضائية الخاصة بالمناطق السهبية للفترتين المحددتين وفقا للفئات المحددة آنفا.

2- بعد استخراج هذه الطبقة نفتح نافذة قاعدة البيانات، ونضيف إليها عمودا لمساحة الغطاء النباتي (Float).

3- نقوم بحساب المساحة من خلال استدعاء field calculator، وتطبيق المعادلة التالية: (count*30)؛ count وهي عدد الخلايا، 30 هي 30 متر القيمة الطيفية للمرئية الفضائية المحملة)، لنصل في النهاية لحساب المساحات لجميع الفضاءات بالمتر المربع. (الشكل رقم 05)

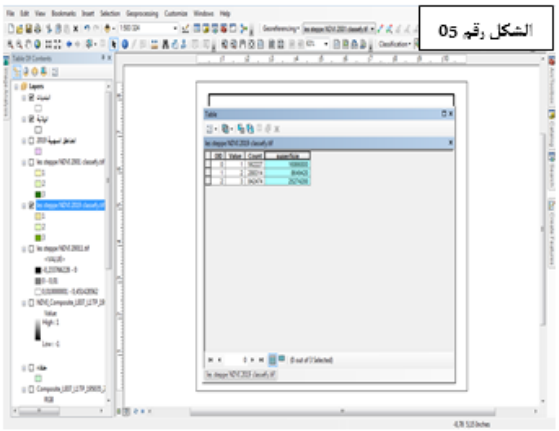
الشكل رقم 05

المصدر: من إعداد الباحث

من خلال العمليات سابقة توصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ مساحة الغطاء النباتي في منطقة السهوب البرايجية شهدت تطورا ملحوظا قرابة 20 سنة، إذ تطورت من 4414680 م² سنة 2001 إلى 25274200 م² سنة 2019، أي تطور بحوالي 20859520 م² (ينظر الخريطة رقم 06، 07، الشكل البياني رقم06).

4- التحليل الإحصائي والمجالي لتطور الغطاء النباتي في إقليم السهوب العليا البرايجية

لأنظمة المعلومات الجغرافية دور مهم في التحليل الإحصائي و المجالي وذلك بفضل حقيبة الأدوات التي تتوفر

عليها هذه البرمجيات Arctoolbox، وهو ما يسهل علينا الخروج بأرقام ومعطيات صحيحة ودقيقة لوضعية الغطاء النباتي في المنطقة المدروسة.

فباستدعاء نافذة Open Attribute table وتحويل تلك الاحصائيات المحصل عليها سابقا (نتائج المساحات) إلى أشكال بيانية كما هو موضح في الشكل رقم (05)

نلاحظ أنّ مساحة الغطاء النباتي عامة سواء كانت غابات أو مساحات مشجرة وحشائش كالحلفاء وغيرها قد زادت مساحتها بنسبة معتبرة فالغابات زادت مساحتها من 6471210 متر مربع سنة 2001 إلى 11709600 متر مربع سنة 2019 أي بفارق 5238390مترا مربعا، أما باقي المساحات الخضراء فقد ارتفعت مساحتها من 13832100 متر مربع إلى 28859600 متر مربع سنة 2019 أي بفارق 15027500 متر مربع.

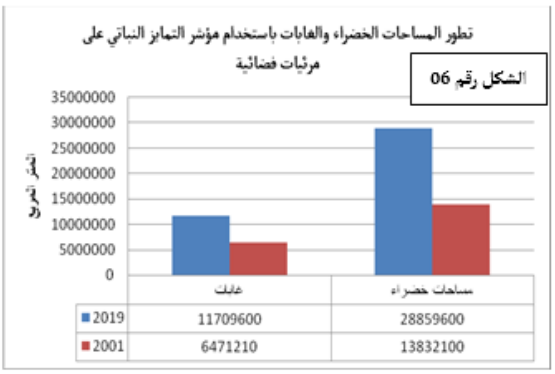

المصدر: من إعداد الباحث من خلال Arc Gis 10.3

أما التحليل المجالي لهذه الفضاءات (التوزيع المجالي)، فمن خلال الخريطتين (؟؟؟) نلاحظ أنّ الغابات تنتشر في قمم جبال الحضنة جنوبا وكذلك في مناطق التقاء جبال الحضنة بالبيبان في الجهة الغربية والجنوبية الغربية.

أما باقي المساحات فهي تنتشر في سفوح الجبال وعلى ضفاف الأودية بشكل كبير.

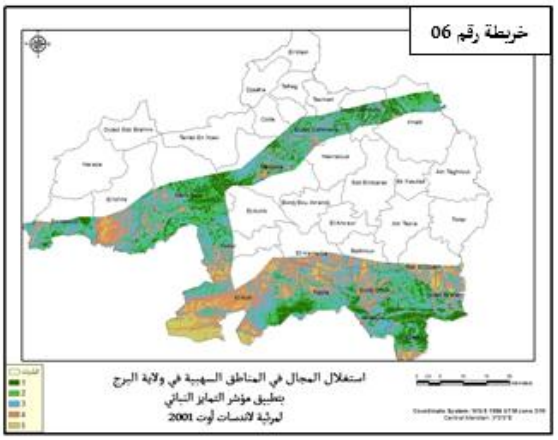

المصدر: من إعداد الباحث

في حين أن الفوارق المجالية في المساحات الخضراء والغابات خلال قرابة 20 سنة كما هو مبين في الخريطتين رقم (06،07)، نميز أنّ هناك تغيرا ملحوظا:

1- في كثافة ومساحة الغابات.

2- في مساحة المساحات الخضراء والمساحات المستصلحة خاصة الواقعة في أقدام الجبال وعلى ضفاف الأودية.

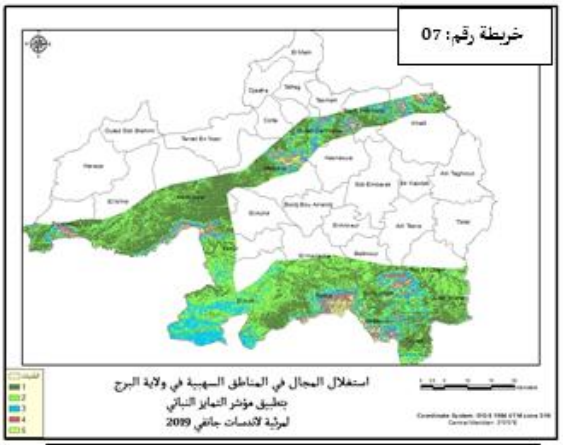

المصدر: من إعداد الباحث

5- العوامل المتحكمة في تطور المساحات الخضراء والمساحة الغابية للمناطق السهبية

من خلال الدراسة التحليلية التي تم التوصل إليها من خلال هذا المقال العلمي للمناطق الحساسة جدا في ولاية برج بوعريريج وهي المناطق السهبية كونها تتميز بظروف طبيعية ومناخية صعبية، نستنتج أنّ هذه المناطق عرفت

تحسنا كبيرا سواء من حيث كثافة هذه المساحات الخضراء أو من حيث توسع هذه المساحات من خلال عملية الاستصلاح والاستثمار الفلاحي.

5-1- العوامل الطبيعية

للعوامل الطبيعية دور كبير في تطور أو تدهور كثافة ومساحة الغطاء النباتي خاصة ما تعلق منها بدرجات التساقط ، اعتمدنا في معالجة هذا العنصر على دراسة مهمة لمناخ الجزائر من الاستقلال 1980 إلى 2016 للباحثين بن يطو عبد الحكيم وبوكليخة عبد الله وتوصلا إلى النتيجة الملخصة[26] في الشكل رقم (07).

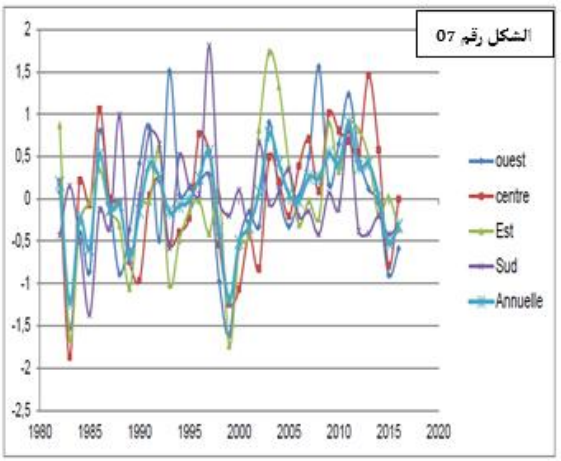

Source : BOUKLIKHA Abdellah et BENYETTOU Mohamed Abdelkader, Variations et tendances des températures et des précipitations journalières en Algérie, p77.

من خلال الشكل رقم (07) نلاحظ أنّ كميات التساقط التي عرفتها الجزائر عامة والشرق والوسط خصوصا (الموقع الجغرافي لمنطقة الدراسة) أنها شهدت فترات جفاف حادة من بينها الفترة التي تلي 1995 إلى 2004 -2005 .

وعليه المرئية الفضائية المدروسة في هذا المقال التي ترجع إلى 2001 ما هي إلا نتيجة هذا الجفاف الحاد ، أضف إلى ذلك ما يمكن أن ينتج عن هذا الجفاف من حرائق ورعي جائر....

أضف إلى ذلك الحالة الأمنية التي كانت تعيشها الجزائر خلال العشرية الماضية (العشرية السوداء) بسبب الإرهاب وما تسبب فيه من حرائق للغابات والغطاء النباتي بشتى أنواعه.

5-2-الاستثمارات الحكومية

5-2-1- استثمارات وجهود محافظة السهوب

تسعى المحافظة السامية للسهوب في ولاية برج بوعريريج فرع المسيلة شرق إلى القيام بمجموعة من الاستثمارات التي تهدف إلى تهيئة والمحافظة على المناطق الرعوية خاصة والسهبية عامة عن طريق مجموعة من المشاريع والبرامج ، والتي نوجزها فيما يلي (1995-2014):

الجدول رقم (02) المشاريع التنموية لمحافظة السهوب 1995/2014

العمليات	الوحدة	الإجمالي
تثبيت المناطق الرعوية	هكتار	12230
تثبيت المناطق الرعوية المتقدمة	هكتار	3641
الحفاظ على الحياة القروية الصعبية	هكتار	656
تهيئة وإنجاز منابع المياه ، آبار وآبار عميقة.	وحدة	81
إنجاز وتهيئة السدودالصغيرة.	وحدة	56
إنجاز وتهيئة السواقي والقنوات	وحدة	183824
أشغال CES	م^3	137050
إنجاز أحواض تجميعية	وحدة	21
تجهيز الطاقة الشمسية	وحدة	12
فتح طرقات	كلم	1.2

المصدر: المحافظة السامية للسهوب ، فرع البرج

أما عن تأثير هذه المشاريع على هذه المناطق تتمثل فيما يلي:

1- استغلال واستثمار المياه السطحية (الجوب والأحواض) 72500 م^3 في العام.

2- تعزيز تدفقات مياه الآبار: (آبار عميقة: 123 ل/ثا ، آبار:25 ل/ثا ، منابع: 72 ل/ثا).

3- تعزيز الوحدات العلفية: من خلال عمليات تثبيت والحفاظ على المساحات الرعوية والمتقدمة: 2200000 وحدة علفية في السنة.

4- المساحات المسقية بالسدود: 1120 هكتار.

5-2-1- استثمارات وجهود محافظة الغابات

تسعى محافظة الغابات في الولاية إلى القيام بالعديد من العمليات والمشاريع التي من شأنها تحسين وضعية الغطاء النباتي في عموم الولاية خاصة المناطق المتدهورة ومنها المناطق السهبية ، وكان له أثر إيجابي في زيادة مساحة الغطاء النباتي وكثافته كما هو مبين في الخريطة الموضوعاتية لسنة 2019.

ويمكن أن نلخص جهود محافظة الغابات في الجدول التالي:

خاتمة

من خلال هذه الدراسة توصلنا إلى نتائج جد طيبة حول أهمية ونجاعة هذه التقنيات الحديثة في تتبع مساحة وكثافة الغطاء النباتي لاسيما في مناطق حساسة جدا كالسهوب من جهة.

ومن جهة ثانية وقفنا على النتائج الإيجابية في تطور مساحة الغطاء النباتي وكثافته من سنة 2001 إلى 2019 وذلك راجع إلى عوامل طبيعية (التساقط) وأخرى بشرية (الاستثمارات الحكومية) في زيادة مساحة الغطاء النباتي

الشكل رقم 08

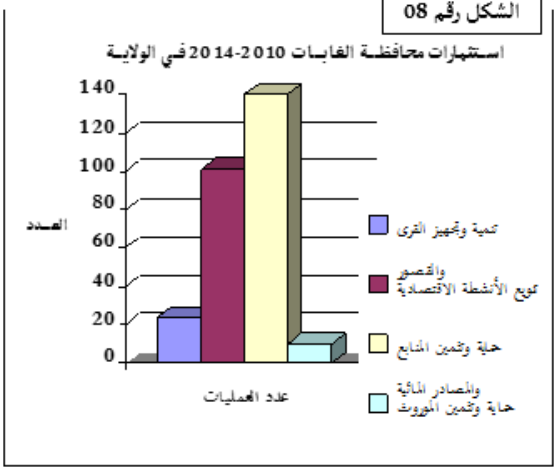

المصدر: محافظة الغابات

وقد استهلكت هذه العمليات مبالغ ضخمة قدرت إجمالا بحوالي: **418841800** دينار جزائري خلال 05 سنوات ، وهو ما يعكس النتائج المرضية لحالة الغطاء النباتي خاصة السهبي المنعكس في مرئية 2019 المدروسة من قبل.

والمساحات المستصلحة ، وهو ما يدعو إلى تثمين مجهودات محافظة السهوب وكذا الغابات في الحفاظ على التراث الطبيعي والنظام البيئي الهش.

فالنتائج المتوصل إليها من خلال هذا البحث تبعث على الاطمئنان على حالة المناطق السهبية في ولاية برج بوعريريج وعلى الثروات التي تحوزها هذه المناطق الرعوية.

كما ندعو إلى تفعيل الاتفاقيات مع وكالة الفضاء الجزائرية بغرض الحصول على مرئيات فضائية متعددة التغطية الطيفية بغرض متابعة مثل هذه الظواهر الطبيعية.

الهوامش

1- Hadouche Idriss et autre, Caractérisation d'une région steppique par télédétection, Cas de la Mecheria, Algérie, www.naturevivante.org/documents/teledetection.pdf, le 2703/2019, p01.

- Marc cote, L'Algérie espace et société, édition Média plus, Constantine, 2005, p202.

2. بيار جورج ، معجم المصطلحات الجغرافية ، ترجمة: مُحَمَّد الطفيلي ، ط02 ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، النشر والتوزيع ، بيروت ، 2002 ، 468.

3. دحية مصطفى ، النباتات الطبية في منطقة الجلفة ، بوسعادة والمسيلة ، دراسة نبات القزاح piturqnthos أنواعه ، التركيب الكيميائي والنشاطية البيولوجية للزيوت الطيارة للسيقان ، أطروحة دكتوراه علوم في بيلوجيا النبات ، جامعة فرحات عباس ، سطيف ، 2009 ، ص 03.

4. -Riad BENSOUIAH, La lutte contre la désertification dans la steppe algérienne: les raisons de l'échec de la politique environnementale, Communication présentée aux15èmes Journées de la Société d'Ecologie Humaine, Marseille, 11-12 décembre 2003 Du Nord au Sud: le recours à l'environnement, le retour des paysans ? p02.

5. - Bouzid NEDJIMI et Mokhtar HOMIDA, Problématique des zones steppiques Algériennes etperspectives d'avenir, مجلة الباحث, Centre Universitaire de Djelfa، العدد 04، 2006 ص 13-19 ،

6. - أمر رقم 75-43 مؤرخ في 7 جمادى الثانية عام 1395 الموافق 17 يونيو سنة 1975 يتضمن قانون الرعي.

7. - مُحَمَّد الهادي لعروق ، أطلس الجزائر والعالم ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ص 18.

8. - دحية مصطفى ، مرجع سابق ، ص 03.

9. - لعروق مُحَمَّد الهادي ، مرجع سابق ، ص 18.

10. -Haute commissariat au développement de la steppe, Bilan de la réalisation phisique a travers les commune de la wilaya de bordj Bou Arréridj 1995-2014.

11. - Marc cote, L'Algérie espace et société, édition Média plus, Constantine, 2005, p202.

12. - Riad BENSOUIAH, La lutte contre la désertification dans la steppe algérienne : les raisons de l'échec de la politique environnementale, Communication présentée aux, 15èmes Journées de la Société d'Ecologie Humaine, Marseille, 11-12 décembre 2003, p02.

13. - Cours de télédétection, le moins de septembre2001.- www. Perso.Club-internet.fr/T pouchi .

14. www.mokatel.com - أطلع على المقال الإستشعار عن بعد بتاريخ :2006/11/05

15. - عبد الحميد نزار ،" التعرية وانعكاساتها في وادي الحمام: حالة سكيكدة" ، رسالة ماجستار ،جامعة منتوري ، قسنطينة ،2006 ،ص184.

16. - المعلومة الجغرافية هي كل معلومة منتشرة في الفضاء أو المجال ، تنقسم إلى بيانات مكانية ووصفية. أنظر:

17. Hocine HAMMOUM et Rédha B0UZIDA, Pratique des systèmes d'informations géographiques (SIG), Application sur Mapinfo, Les pages bleues internationales, Algérie, 2010, p21.

18. مُحَمَّد الخزامي عزيز ، نظم المعلومات الجغرافية: أساسيات وتطبيقات للجغرافيين ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1998 ، ص 12 ، 13.

19. بظاظو ، إبراهيم خليل إبراهيم ، تطبيقات (GIS) في إدارة المواقع الأثرية سياحيا :دراسة تطبيقية على الكنائس البيزنطية في محافظة المفرق ، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب — الأردن ، المجلد 7 العدد1 ،2010 ، ص ص256 — 227 .

20. بن صفية سفيان وآخرون ، صور الأقمار الاصطناعية وتطبيقاتها البيداغوجية ، رسالة تخرج ملمح أستاذ تعليم ثانوي ، المرسة العليا للأساتذة قسنطينة ، 2007 ، ص 23.

21. Zenzane Walid, Utilisation du S.I.G pour l'analyse de la structure de la forêt d'Ouennougha dans la Wilaya de Bordj Bou Arréridj, Diplôme de MASTER Académique Foresterie Option : Aménagement et Gestion des Forêts, UNIVERSITE de TLEMCEN, 21/06/2016, p 47.

22. Zenzane Walid, Utilisation du S.I.G pour l'analyse de la structure de la forêt d'Ouennougha dans la Wilaya de Bordj Bou Arréridj, p47.

23. https://earthexplorer.usgs.gov/ -(موقع تحميل صور الأقمار الاصطناعية المستثمرة في المقال)

24. وسام الدين مُحَمَّد عبده ، الدروس العملية في الاستشعار عن بعد باستخدام البرنامجArcGIS for Desktop ، الدمام ، المملكة العربية السعودية ، 2019 ، ص 60 ،55.

25. المرجع نفسه.

26. BOUKLIKHA Abdellah et BENYETTOU Mohamed Abdelkader, Variations et tendances des températures et des précipitations journalières en Algérie, Projet de Fin d'Etudes Pour l'obtention du diplôme de Master en Hydraulique, Option : EAU SOL ET AMENAGEMENT, Université ABOU BEKR BELKAID, Telemcen, Promotion 2016/2017, p77.

ضمانات تحفيز المؤسسات الصغيرة والمتوسطة للاستثمار بالبورصة-تجربة «أ أوم أنفست» كشركة وحيدة بالسوق الصغير لبورصة الجزائر-

Stimulus guarantees small and medium enterprises to invest in the stock exchange AOM INVEST experience as a single company in the small market of the Algerian stock exchange.

تاريخ الإرسال: 13-05-2019 تاريخ القبول: 12-04-2020

كريمة شليحي، كلية الحقوق والعلوم السياسية جامعة لونيسي علي البليدة2
chelikarima@gmail.com
هيفاء رشيدة تكاري، كلية الحقوق والعلوم السياسية جامعة لونيسي علي البليدة2
haifatekarri@hotmail.com

الملخص

تهدف هذه الدراسة للكشف عن مدى مساهمة سوق البورصة الجزائرية في تنمية وتطوير استثمارات المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ، باعتبارها أحد أهم المستثمرين المنوط بهم تحقيق التنويع والترقية للاقتصاد الوطني ، وكذلك التعريف بضرورات لجوء المؤسسات الصغيرة والمتوسطة إلى هذه السوق كآلية تمويلية عن طريق طرح القيم المنقولة ، حيث قمنا بتبيان مفهوم المؤسسات الصغيرة والمتوسطة كأحد المستثمرين بالبورصة-بأخذ شركة AOM INVEST نموذجا منفردا عن ذلك- وكيفية تطبيق استثمارها للوصول إلى الهدف الرئيسي من الاستثمار ألا وهو الحصول على التمويل الضروري لمشاريعها. ثم قمنا بعرض السياسة الوطنية المنتهجة لدفع استثمار المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في سوق البورصة بتسليط الضوء على الضمانات المكرسة قانونا ، وقد توصلنا في الأخير إلى بعض النتائج والاقتراحات التي يمكن أن تسهم في دفع الاستثمار بالبورصة وترقية الاقتصاد الوطني في ظل تغليب كفة الانعكاسات الإيجابية على الانعكاسات السلبية للضمانات القانونية الممنوحة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة.

الكلمات المفاتيح: الاستثمار في البورصة ، شروط الاستثمار ، التمويل عبر البورصة ، الضمانات القانونية ، انعكاسات الضمانات.

Résumé

Cette étude a pour objectif de révéler la contribution de la bourse algérienne au développement des petites et moyennes entreprises en tant que l'un des principaux investisseurs pour parvenir à la diversification et à la promotion de l'économie nationale, ainsi que la nécessité d'utiliser les petites et moyennes entreprises sur ce marché en tant que mécanisme de financement en soustrayant les valeurs mobiles, démontrer le concept des petites et moyenne entreprises en tant qu'un des investisseurs en bourse–expérience AOM INVEST- et expliquer leur investissement pour atteindre le principal objectif de l'investissement et d'obtenir le financement nécessaire pour leurs projets. Nous avons ensuite présenté la politique nationale visant à encourager les investissements des petites et moyennes entreprises sur le marché boursier en précisant les garanties légalement, ainsi que des conclusions et des suggestions susceptibles de contribuer à l'investissement du marché boursier et à la promotion de l'économie nationale compte tenue des répercussions positives sur les retombées négatives des garanties accordées aux petites et moyennes entreprises.

Mots-clés : Investissement en bourse- conditions d'investissements- financement en bourse-garanties légales-implications pour les garanties.

Abstract

This study aims to reveal the extent of the Algerian stock exchange contribution to the development of small and medium-sized enterprises as one of the most important investors to whom it is entrusted the achievement of diversification and promotion of the national economy, as well as the necessity of resorting small and medium enterprises to this market as a financing mechanism by exposing securities, as we have demonstrated the concept of small and medium enterprises as one of the investors in the stock exchange, taking AOM INVEST company as a typical model, and how to apply their investment to reach the main objective of investment consisting in obtaining the necessary funding for its projects. then we presented the adopted national policy to push forward the investment of small and medium enterprises in the stock market by shedding light on the guarantees legally consecrated. Finally, we reached some conclusions and suggestions that could contribute to the investment of the stock market and the promotion of the national economy in light of the prevalence of positive repercussions over the negative repercussions of the legal guarantees granted to small and medium enterprises

Keywords: Investment in the stock exchange, investment conditions, exchange funding through exchange, legal guarantees, guarantees repercussions**.**

مقدمة

لا يخفى على المتتبع للوضع الاقتصادي للجزائر الأزمة الاقتصادية التي تتخبط فيها ، غير أنه لا أحد منا يمكنه إنكار الدور الفعال والمجهودات الجبارة التي تبذلها الحكومة للخروج منها بشتى الطرق بما فيها الاعتماد على مجالات استثمار جديدة أو تجديدها إن كانت مهملة من قبل.

حيث لجأت الحكومة الجزائرية مؤخرا- نتيجة الأزمة الاقتصادية التي عرفتها- إلى العديد من الحلول المالية من بينها: طبع النقود ، واللجوء إلى تعديل قانون ترقية الاستثمار واعتماد استراتيجية فتح المؤسسات على الخوصصة بالإضافة إلى محاولة اللجوء إلى القطاعات التمويلية التي تعود بالمنفعة على الاستثمارات والاقتصاد الوطني ، فهذه الأخيرة تتجسد في ضرورة اعتماد قطاع البورصة كمصدر تمويلي حديث لا يرتبط بالتبعية للخزينة العمومية للدولة.

ويعد التمويل عن طريق البورصة إحدى الوسائل غير التقليدية المعتمدة من الدول المتقدمة التي أدرجتها ضمن أهدافها المسطرة ، بقصد تطوير ودفع عجلة التنمية الاقتصادية. وغير بعيد عن هذا أدت الضرورات الملحة والحاجة لاتباع التطور العالمي والاقتصادي بالجزائر إلى إنشاء سوق بورصة يلبي الحاجات التمويلية التي تغطي مشاكل المشاريع الاستثمارية التي يواجهها المستثمرون ، خاصة في ظل الاحصاءات المقدمة عن الدولة الجزائرية والقائلة بارتفاع حجم مكتنزات ومدخرات الشعب الجزائري سواء في البنوك أم خارجها عوضا عن توظيف هذه المدخرات بالبورصة فيما يعود بالمنفعة على الاقتصاد الوطني.

ففي ذات السياق تحاول السلطة السياسية إعداد الخطط التصحيحية الملائمة للسياسة الاقتصادية لإيجاد حل يتناسب واستراتيجية التنويع الاقتصادي الذي يعد عملية تخلق هياكل قطاعية بديلة عن القطاع النفطي موّلدة للعملة.

تعتبر المؤسسات الصغيرة والمتوسطة إحدى هذه الحلول الناجمة عن التنويع ؛ ففي سبيل تغيير الفكرة الخاطئة والرائجة لدى الشعب عن سوق البورصة ومخاطره ، سمح المشرع الجزائري للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة - كنموذج عن المستثمرين بالدخول الى البورصة - عبر السوق المخصصة لها والمتواجد إلى جانب السوق المخصصة لشركات المساهمة الضخمة-بحثا عن التمويل الضروري الذي تحتاجه على الرغم من كونها كيانا صغيرا يفرض على الحكومة متابعته والعناية به لترقيته.

فقد نجم عن حملات الدعاية الإعلامية التي قادتها كل من شركة تسيير بورصة القيم المنقولة إلى جانب لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها - باعتبارهما الهياكل المكونة لبورصة الجزائر- التي قامت بها لدى المؤسسات الصغيرة والمتوسطة وغرف التجارة على مستوى الوطن من خلال الاتصال برؤسائها والتحسيس بتحفيزات ومزايا الانضمام إلى سوق البورصة الجزائري قبول **شركة (أ أوم أنفست)** دخول سوق المؤسسات الصغيرة والمتوسطة المتواجد على مستوى البورصة في أواخر سنة 2018، حيث تمكنت الهيئات الساهرة على تسيير وضبط السوق في أواخر سنة 2018 من إقناع مسؤولي شركة (أ أوم أنفست) للإقبال على فتح رأسمالها أمام الجمهور.

إن محاولة المشرع الجزائري جذب المستثمرين إلى البورصة وحثهم على الاستثمار ، بقصد خوض مؤسسات أخرى على غرار (أ أوم أنفست) التجربة ؛ يحتم عليه توفير أرضية صلبة تدعم البيئة القانونية-شرط أن تكون متميزة بضمانات ومزايا تجذب المستثمرين إليها- التي يحتاجها هؤلاء وتخفف من وقع صدمة المخاطر ، وفشل المشروع الاستثماري نتيجة عدم ثبات أسعار القيم المنقولة.

تبرز أهمية هذه الدراسة القانونية التي نقوم بها فيما يلي:

-يستمد موضوع دراستنا "المؤسسات الصغيرة والمتوسطة" أهميته من كونه أحد أهم الموضوعات الاقتصادية المطروحة على الساحة الدولية والوطنية ، خاصة وأنه أحد القطاعات الجديدة التي تسعى الدولة الجزائرية إلى ترقيتها للاستفادة منها كتنويع اقتصادي عبر الدفع بها إلى الاستثمار في سوق البورصة بدلا من اعتماد مساعدات الدولة ، وتمويل الخزينة العمومية.

-كما تظهر أهمية موضوعنا من خلال محاولتنا إظهار الضمانات القانونية وانعكاساتها على المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في إشارة منا إلى دفع رؤسائها ومسيريها وتحفيزهم

الدخول للاستثمار في البورصة كأحد الحلول المنشطة للاستثمار والاقتصاد الوطني. فخير دليل على نجاح مساعي الضمانات والمزايا المقدمة لرؤساء هذه المؤسسات انضمام أول شركة إلى السوق الصغيرة" أ أوم أنفست".

أما عن الأهداف التي نتوخى تحقيقها من خلال الدراسة ذاتها ، فنوجزها فيما يأتي:

-تسليط الضوء على استثمار المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بالبورصة وأثرها على الاقتصاد الوطني من خلال إبراز شروط وإجراءات هذا الاستثمار.

-التعريج على مسألة ذكر بعض الضمانات التشجيعية التي أقرها المشرع الجزائري لهاته المؤسسات في محاولة منه لجذبها إلى زيادة رأسمالها وتغطية حاجاتها التمويلية من سوق البورصة.

وكما جرت العادة في كافة الأبحاث العلمية بعد التقديم للموضوع والتذكير بأهميته وأهدافه يجب علينا الإشارة إلى الإشكالية الرئيسية التي تتعلق بالدراسة ألا وهي:

إلى أي مدى يمكن اعتبار المشرع الجزائري موفّقا في جذب المؤسسات الصغيرة والمتوسطة للاستثمار في البورصة عبر الضمانات التي أقرها لها ؟

للإجابة عن هذه الإشكالية المطروحة عمدنا إلى معالجة الدراسة وفقا للمنهج الوصفي التحليلي الملائم لها ومن ثم تقسيمها وفقا للخطة التالي بيانها:

المبحث الأول: أهمية البورصة كحل مالي مدعم لاستثمارات المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

المبحث الثاني: سياسة الدولة في بعث استثمارات المؤسسات الصغيرة والمتوسطة عبر البورصة

المبحث الأول : أهمية البورصة كحل مالي مدعم لاستثمارات المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

تعود النشأة التاريخية لفكرة اعتماد المشرع الجزائري على البورصة كحل تمويلي بديل عن الأسلوب التقليدي المعتمد على البنوك الى سنة 2012 عندما أنشأت الدولة الجزائرية سوقا مخصصة لسندات رأسمال المؤسسات الصغيرة والمتوسطة على مستوى البورصة الجزائرية إلى جانب السوق الرئيسية المخصصة لشركات المساهمة الضخمة ، غير أن ذات المشرع فرض على هذا الكيان الصغير الالتزام بشروط وإجراءات معينة لقبول استثماره في هذا السوق وهو ما سنشير إليه في(**المطلب الأول**) ثم نتطرق بعد ذلك إلى الهدف الرئيسي الذي تحققه هذه المؤسسات جراء دخولها إلى البورصة ألا وهو التمويل ، وهذا ما نتطرق إليه في (**المطلب الثاني**).

المطلب الأول: لجوء المؤسسات الصغيرة والمتوسطة إلى البورصة تنشيطا للاستثمار

سارع المشرع الجزائري في سنة 2012 إلى تبني الحلول التي بادرت بها معظم الدول ذات الاقتصاد الحر وخاصة الدول المتقدمة التي عرفت نموا جراء الاعتماد على سوق القيم المنقولة.

والملاحظ أن اهتمام المشرع بالاستثمار في البورصة عن طريق المؤسسات الصغيرة والمتوسطة جاء متأخرا نوعا ما مقارنة بالدول الأخرى. في هذا السياق سنبين المقصود باستثمار المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بالبورصة (**الفرع الأول**) وكيف يتم هذا الاستثمار ، وماهي فاعليته على الاستثمار الوطني ؟ (**الفرع الثاني**).

الفرع الأول: المقصود بالمؤسسات الصغيرة والمتوسطة المستثمرة بالبورصة

يثير موضوع الاستثمار بالبورصة الكثير من التساؤل خاصة وأن هذا النوع من الاستثمارات مازال غامضا عند الكثير من العامة ورجال الأعمال أصحاب المؤسسات والشركات ، ما يتسبب في عدم التطور والترقية لهذه الكيانات ، بالإضافة إلى عدم استفادة الدولة من هذا النوع من الاستثمارات بسبب الفهم الخاطئ له ، والذي يغلب عليه طابع المخاطرة والمغامرة. ومن ثم كان من الضروري علينا محاولة تقديم التعريف المناسب لهذا الاستثمار خاصة في ظل قانون ترقية الاستثمار والقوانين الخاصة بسوق البورصة.

تضمنت الفقرة الثانية للمادة 43 من التعديل الدستوري لسنة 2016 ما يلي:" **...تعمل الدولة على تحسين مناخ الأعمال، وتشجع على ازدهار المؤسسات دون تمييز خدمة للتنمية الاقتصادية الوطنية....**". وانطلاقا من هذه

المادة يتبين أنه من أولويات الدولة الجزائرية العمل على تحسين مناخ الأعمال الذي يشكل فيه المناخ الاستثماري اللبنة الأساسية ، حيث إن موضوع الاستثمار يشكل البناء الأساسي لأي دولة كانت متقدمة أو نامية تسعى من خلاله إلى تحسين صورتها الاقتصادية والتنموية أمام الدول. ففي ذات السياق كان تطوير "المؤسسات الصغيرة والمتوسطة[1]" دعامة مالية وأساسية لسوق البورصة ، لتحقيق التنمية الشاملة لبيئة الأعمال فيها.

ومن ثم نشير أن الاستثمار بالبورصة يقصد به: شراء أصول مالية كالأسهم والسندات والأوراق المالية الأخرى المتداولة في البورصة ، ويعطي هذا الاستثمار صاحبه ادعاء يتمثل بحقه في الحصول على جزء من عائد الموجودات الحقيقية التي يمتلكها مصدر الورقة المالية ، أما فيما يتعلق بعمليات البيع والشراء للأوراق المتداولة في السوق الثانوية فإنها لا تتعدى تحويل ملكية يتخلى بموجبها حامل الورقة الى المشتري (مصدر الورقة) عن أصل حقيقي وهو النقود مقابل حيازته للورقة[2].

وهو كذلك: إنفاق مبالغ مالية من أجل تحقيق أرباح وعوائد مستقبلية ، فلا شك أن المستثمر في البورصة سوف يقوم بالتضحية بمبالغ حالية مؤكدة مقابل الحصول على عوائد مستقبلية غير مؤكدة[3].

وفي ذات الصدد نجد أن المشرع الجزائري لم يعرف هذا النوع من الاستثمارات غير أنه أشار اليه في قانون ترقية الاستثمار16- 09 وبالضبط الفقرة الثانية من المادة الثانية[4] ، حيث اعتبر الشخص الذي يكتتب في رأسمال شركة قامت بطرح أسهمها أمام الجمهور للاكتتاب بقصد توسيع نشاطها والحصول على أموال أكثر زيادة لرأسمالها إذا كان المشروع الاستثماري قائما أو أنه بصدد النشوء عملا استثماريا من جهة المكتتب ، "حيث إن مساهمة الشخص مهما كان طبيعيا أو معنويا بأمواله في شكل حصة نقدية بقصد إنجاز مشروع استثماري تخول له حق الحصول على أسهم (أوراق مالية) تمثيلا لحصته في رأسمال الشركة المصدرة للقيم المنقولة"[5] وهو ما يعد استثمارا في البورصة.

أما في الأنظمة المتعلقة بالبورصة فقد اعتبر الأشخاص المستعملين للقيم المنقولة مستثمرين[6] ، وإذا حاولنا تقديم تعريف له فإننا نقول: هو ذلك المشروع الذي يقوم به الشخص المستثمر من أجل الحصول على السيولة اللازمة بقصد الزيادة في رأسماله ، أو توظيف مدخراته المكتنزة ، قد يتم هذا الاستثمار إما بصفة شخصية أو بصفة وكالة بالعمولة على مستوى سوق منظم هو البورصة الذي تسهر فيه هيئة ضابطة (لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها) على حماية المستثمرين فيه. يأخذ هذا الاستثمار شكل اقتناء المستثمر لسندات رأسمال أو سندات الدين فيختلف بذلك نوع هذا الاستثمار بحسب الأدوات الاستثمارية المستعملة فيه وبحسب القطاع الذي تنشط فيه الشركة المصدرة لهذه الأدوات. ومن ثم تعتبر المؤسسات الصغيرة والمتوسطة باعتبارها تتخذ شكل شركة خاضعة لشروط القيد في البورصة وتقوم بطرح سندات رأسمالها للاكتتاب بها للجمهور (أحد المستثمرين بالبورصة).

الفرع الثاني: كيفية تطبيق استثمار المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

بعد أن توصلنا الى التعريف المناسب للاستثمار بالبورصة أو الاستثمار المالي الذي يعد إحدى أنواع الاستثمارات التي تندرج ضمن القطاعات الاقتصادية ذات الأهمية بالنسبة للاقتصاد الوطني الخاضعة لقانون ترقية الاستثمار ، بالإضافة إلى أنظمة وقوانين البورصة نظرا لخصوصيته التي تتميز بالمخاطرة. إذ نجد أن المشرع الجزائري قد فرض إجراءات وشروطا على المؤسسات الصغيرة والمتوسطة التي يجب عليها احترامها وتوفيرها كي يكون استثمارها بالبورصة صحيحا ، فـفيم تتمثل هذه الشروط ؟

تعتبر شروط الإدراج أو قبول إدخال المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بصفتها مستثمرة جد مرنة ومبسطة مقارنة مع الشروط المفروضة على شركات المساهمة الضخمة التي تطلب الانضمام إلى السوق الرئيسي للبورصة ، حيث إن هذا النوع من التسهيلات جاء متناسبا مع ظروف وخصوصية المؤسسات خاصة وأن السياسة المتبعة من طرف الدولة تقوم على تعزيز مكانة المؤسسات بقصد التنويع ودمجها في البورصة. وكل هذا راجع للدور الفعال الذي لعبته هذه المؤسسات في النهوض باقتصاد العديد من الدول. وعليه وفي إطار تحقيق مساعي الدولة في اللجوء الى إعطاء دفع

للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة للإدراج في البورصة والاستثمار بها ، فقد اتخذت إجراءات مبسطة على المؤسسات ، تمثلت في الآتي:

-أن تكون المؤسسة ذات نظام شركة أسهم[7] إذ فرض المشرع الجزائري شكلا قانونيا وجب على المؤسسة أن تحتويه كقالب ، لأجل ذلك جاءت المادة 09 من النظام 12-01 والتي تضمنت المواد المتعلقة بشروط إدراج سندات رأس المال في سوق المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ، وبالضبط المادة 46 التي نصت على أنه:" **يجب أن تكون المؤسسة الصغيرة والمتوسطة ذات نظام شركة أسهم...**". وعليه يفهم من هذه المادة أنه يجب على المؤسسة الصغيرة والمتوسطة التي ترغب في دخول سوق البورصة أن تتخذ شكل **شركة مساهمة** عند تأسيسها وعند رغبتها في دخول البورصة ، وهو الشكل المفروض عليها قانونا. اذ إن جميع المساعي التي بادرت بها لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها وشركة تسيير بورصة القيم المنقولة قبل سنة 2018 عرفت فشلا ، خاصة تلك المتعلقة بمحاولة تعريف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة المتواجدة في الجزائر والتي تنشط ويزداد عددها يوما بعد يوم بمزايا الإدراج بسوق المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ، فالسبب الرئيسي للعزوف كان في غالب الأحيان التخوف من فتح رأسمالها باعتبارها شركات واعدة تتخذ شكلا تجاريا غير مناسب لطرح الأسهم أو السندات. الأمر الذي جعل بورصة الجزائر بهيئاتها غير قادرة على تلبية الشروط اللازمة لجذب المؤسسات الصغيرة والمتوسطة إليها.

-أن تعيّن المؤسسة مستشارا مرافقا لها بموجب اتفاقية مبرمة بينهما يدعى «الراعي في البورصة» لمدة (05) سنوات[8].

-أن تكون المؤسسة قد نشرت كشوفها المالية المصادق عليها للسنتين الماليتين الأخيرتين ما لم تقرر لجنة عمليات البورصة خلاف ذلك ، وتعفى من هذا الشرط إذا كانت قيد التأسيس من خلال الطلب العلني على الادخار[9]. والواضح أن هذا الشرط يمثل ضمانا لحماية الجمهور المستثمر لمدخراته في شكل اقتناء لأسهم هذه المؤسسات ؛ إذ يمّكنه من معرفة الحالة المالية لحقوق وأصول ما تمتلكه هذه المؤسسات.

-يجب أن تقوم المؤسسة بفتح رأسمالها الاجتماعي على مستوى أدناه 10% وذلك يوم الإدراج على أبعد تقدير[10] ، وهنا يبرز التخفيف المحفز للمؤسسة حيث اشترط المشرع من الشركة الضخمة أن توزع على الجمهور سندات تمثل20% على الأقل من رأسمال الشركة ، وذلك يوم الإدراج على أبعد تقدير. وما يثير اللبس أن المشرع اشترط على المؤسسة أن تفتح رأسمالها الاجتماعي بنسبة 10% للجمهور المكتتب في حين اشترط على شركة المساهمة توزيع سندات تمثل 20% للجمهور المكتتب ، فما المغزى التي يتوخاها من وراء ذلك ؟

يرجع سبب تحديد المشرع نسبة رأس المال المطروح من طرف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة إلى توخي الحذر والمعاملة الخاصة رغبة منه في تحفيز رؤساء هاته المؤسسات إلى عدم فتح نسبة أكبر للجمهور محافظة على الملكية. وفي المقابل من ذلك لم يهتم المشرع بأمر شركة المساهمة الضخمة ، ولم يعاملها بمعاملة المؤسسات نظرا لاعتمادها على طريقة تأسيس تفرض فتح رأسمالها للجمهور ، مما يعدد المالكين ، حيث اكتفى بالنص على نسبة السندات التي توزعها على الجمهور كشرط لقبول إدراجها.

وما تجدر الإشارة اليه أنّه تم إعفاء المؤسسة الصغيرة والمتوسطة من استيفاء بعض الشروط تشجيعا لها من الدولة للانضمام إلى البورصة مقارنة بشروط انضمام شركات المساهمة الضخمة إلى السوق الرئيسي ، وهذه المعاملة المرنة تعد نقطة إيجابية تحسب للمشرع الجزائري ؛ إذ تتمثل هذه الإعفاءات فيما يلي:

-عدم استيفاء شروط الربحية والرأسمال الأدنى المطلوبين في شركات المساهمة الضخمة التي يطلب منها أن تكون قد حققت أرباحا خلال السنة المالية التي تسبق طلب القبول مالم تقرر اللجنة خلاف ذلك ، وألا يقل رأسمالها الذي تم وفاؤه عن خمسمائة مليون (500.000.000دج)[11].

- إعفاؤها من تقديم تقرير تقييمي لأصولها ينجزه عضو من المنظمة الوطنية للخبراء المحاسبين غير مندوب الحسابات للشركة أو أي خبير آخر تعترف اللجنة بتقييمه ، وكذلك الإعفاء من شرط أن تبرر وجود هيئة للمراقبة الداخلية تكون محل تقييم من مندوب الحسابات في تقريره حول الرقابة الداخلية للشركة ، وإن لم تتوافر مثل هذه الهيئة لدى

الشركة فعليها تنصيبها خلال السنة المالية التي تلي قبول سنداتها في التداول في البورصة[12].

وما نشير إليه أن المشرع لم يكتف بتنظيم عملية استثمار المؤسسات بالبورصة عند تنظيمه لشروط قبولها بل اهتم أيضا بشروط قبول تداول القيم المنقولة الصادرة عنها وجعلها تتمثل في:

-يجب أن تكون القيم المنقولة محل طلب قبول لدى اللجنة[13].

-يجب أن تودع مشروع مذكرة إعلامية تخضع لتأشيرة اللجنة، ويتم إعداد مشروع المذكرة الإعلامية حسب الشروط المحددة بموجب تعليمة من اللجنة[14].

- أن توّزع سندات رأسمال المؤسسة الصغيرة والمتوسطة على الجمهور على عدد أدناه (50) مساهما، أو ثلاثة مستثمرين مؤسساتيين، وذلك يوم الإدراج على أبعد تقدير. فحتى يتم قبول قيمها يجب أن توّزع سندات رأسمال المؤسسة الصغيرة والمتوسطة على الجمهور على عدد أدناه (50) مساهما، أو ثلاثة مستثمرين مؤسساتيين وذلك يوم الإدراج على أبعد تقدير[15]. والملاحظ على هذا الشرط أن المشرع الجزائري قد قام بتقييد المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بضرورة توزيع أسهمها على50 مساهما إذا كان الجمهور أشخاصا طبيعيين أو ثلاثة مستثمرين مؤسساتيين[16]إذا كانوا من بين الأشخاص المعنويين.

وبمجرد استيفاء المؤسسات لشروط وإجراءات قيدها بالبورصة وبدء عمليات تداول قيمها المنقولة (أدوات الاستثمار) تعتبر مستثمرة، ويعد اللجوء إلى هذا النوع من الاستثمارات إحدى النشاطات التي تحتاجها البورصة الجزائرية في الوقت الحالي نظرا لركود العمل الذي تعاني منه، خاصة في ظل شبه انعدام المستثمرين بها، وضعف تداول القيم المنقولة على الرغم من الدور الفعال الذي يمكن أن تلعبه في دفع الاستثمار والاقتصاد الوطني لو حظيت بالقليل من الاهتمام الحكومي والسياسي الذي عليه المبادرة إلى جذب المستثمرين بشتى أنواعهم، وطنيين كانوا أم أجانب، وذلك عبر التعريف بسوق البورصة ومزاياه لإزالة التخوف والعزوف الذي يعتري تفكيرهم.

وكأبرز مثال عن بداية اهتمام المشرع الجزائري بالسوق الصغير الذي تم إنشاؤه منذ سنة2012، يتضح من خلال ادراج شركة (أ أوم انفست) بهذا السوق كشركة واحدة ووحيدة خاضت التجربة وكانت مثالا لاستثمارات باقي المؤسسات من هذا النوع.

فبعد استيفاء شركة (أ أوم انفست) للشروط المطلوبة أعلاه، انضمت فعليا للسوق الصغير ببورصة الجزائر، حيث إن شركة أ أوم أنفست (AOM INVEST) هي شركة ذات أسهم وذات رأس مال مشترك عمومي استجابت لشروط القيد بالبورصة المطلوبة قانونا، يقدر رأسمالها الاجتماعي ب115.930.000دج وتختص هذه الشركة بالعمل في مجال تطوير واستغلال مشاريع السياحة الحرارية[17]، يتواجد مقر هذه الشركة ب 03 شارع أغادير بولاية وهران. فتحت هذه الشركة قصد استيفاء شرط الخوصصة الجزئية رأسمالها بنسبة 10% أي ما يعادل 520.000 دج في شكل أسهم ممتازة على ثلاثة مستثمرين مؤسساتيين[18].

تحصلت الشركة على مصادقة اللجنة على المذكرة الإعلامية التي قدمتها الشركة المتعلقة بإصدار أسهم شركة (أ أوم أنفست) بسوق المؤسسات الصغيرة والمتوسطة المتواجد ببورصة الجزائر، تعتبر هذه المصادقة بمثابة تأشيرة للانضمام إلى السوق والتي يرجع تاريخ اعتمادها إلى 10 أكتوبر 2018 باعتماد يحمل رقم 2018-02 بموجب إجراءات الانضمام العادية تطبيقا لنصوص المادتين 41 و42 من المرسوم التشريعي 93- 10 المعدل والمتمم المتعلق ببورصة القيم المنقولة[19].

المطلب الثاني: تمويل استثمارات المؤسسات الصغيرة والمتوسطة من البورصة

تأمل الدولة الجزائرية تحقيق التنويع الاقتصادي في إطار الاستراتيجية التي تعول عليها من أجل فك التبعية الحتمية لواردات النفط من خلال تشجيعها لاستثمارات المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في جل القطاعات، وعلى وجه الخصوص الاستثمار بالبورصة. إذ يرجع هذا إلى اقتناعها بالدور الفعال الذي تلعبه المؤسسات الصغيرة والمتوسطة كإحدى نتائج التنويع الاقتصادي الذي يسمح عبره بتنويع هيكل الإنتاج وخلق قطاعات جديدة مولدة للدخل، بحيث

ينخفض بفضل هذه المؤسسات الاعتماد الكلي على إيرادات القطاع الرئيسي في الاقتصاد الجزائري ألا وهو القطاع النفطي.

وانطلاقا مما سبق ، سارعت الدولة الى إنشاء سوق خاص بالسندات التي تطرحها المؤسسات الصغيرة والمتوسطة للجمهور المكتتب الذي يقصدها بغرض اقتناء القيم المنقولة المطروحة ، وتحقيق الربح. ومن ثم يسعى هذا النوع من الاستثمارات أو الدخول إلى البورصة لتوفير العديد من المزايا ألا وهي: رفع رأس المال ، اكتساب الشهرة ، ورفع عدد الشركاء بها ، بالإضافة الى تحقيق سيولة عالية ، حيث تمثل هذه الأخيرة أهم هدف تصبو المؤسسة العاجزة ماديا لتحقيقه.

يعدّ التمويل المنتظم من أساسيات إنشاء وتشغيل وتوسيع المؤسسات بمختلف أنواعها وأحجامها ، إذ تحتاج هذه المؤسسات - كما هو معروف- إلى أدوات التمويل طويل الأجل لشراء الآلات والمعدات وغيرها من الأصول الثابتة ، كما تحتاج الى أدوات التمويل قصيرة الأجل لاسيما القروض لتغطية احتياجاتها من المواد الأولية وأجور العاملين وغيرها من مصاريف الاستغلال المعروفة[20] ، حيث إن الملاحظ على هذا أن مصادر التمويل الداخلية للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة لا تكفي في الغالب لسداد كل احتياجاتها في مراحل حياتها المختلفة ، كما أن البعض من مموليها قد يفرض عليه التزامات غير مرغوب فيها ، خاصة في الأحوال التي تقدم فيها البنوك التجارية القروض لهذه المؤسسات الصغيرة ، فإنها غالبا ما تطلب ضمانات مبالغا فيها لا تتوفر في المشروع الصغير ، إضافة الى رفع سعر الفائدة لتتلاءم مع المخاطرة التي يتحملها المصرف بما يزيد التكاليف في المشروع الصغير[21].

وعليه ، تعتمد المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في تغطية احتياجاتها الاستثمارية ، وتدعيم رأس المال العامل على مصادر تمويلية يأتي على رأسها سوق البورصة الذي يعتبر مصدرا تمويليا خارجيا ؛ اذ تلجأ هذه المؤسسات إلى هذا التمويل الحديث بقصد مواجهة المشاكل والصعوبات التي تعرقل حياتها الإنتاجية ، وتعيق طموحاتها في النمو والتجديد بالأخص في مرحلة الانطلاق ، وذلك لاصطدامها بالعديد من المشاكل التمويلية الراجعة أساسا لمحدودية بدائل التمويل المتاحة أمامها ، مما يؤدي الى ضعف نموها وعدم القدرة على تخطي الخطوات الأولى في السوق[22].

وإذا أردنا توضيح مفهوم التمويل نجد أن تمويل المؤسسات الصغيرة عبر البورصة يأخذ مفهوم: الآلية التي يتم من خلالها تحويل الموارد المالية من الوحدات الاقتصادية المدخرة ، والتي يتوافر لديها فائض مالي ، وتمثل عرض الأموال إلى الوحدات الاقتصادية التي تعاني من العجز في الموارد المالية ، وتعكس الطلب على الموارد المالية ، وبذلك فإن السوق التمويلية تحول الموارد المالية من الوحدات التي لا تملك القدرة والرغبة على الاستثمار إلى الوحدات التي تتوافر لديها الفرص الاستثمارية ، وتملك القدرة على الاستثمار[23].

كما أن هذا النوع من التمويل يأخذ شكل فتح المؤسسة لرأسمالها للجمهور عبر الاكتتاب في سندات رأس المال دون سندات الدين[24]، حيث يبادر رؤساء هذه المؤسسات إلى اتخاذ قرار الاستثمار بالبورصة وطرح السندات من أجل بيعها وتوفير السيولة التي يحتاجونها عند بداية المشروع الاستثماري إذا كانت المؤسسة في طور الإنجاز أو يهدفون الى رفع رأسمالها ، وإنعاش الإنتاج ودرء خطر إفلاس المؤسسة أثناء نشاطها.

يوفر الاستثمار بالبورصة هدفين أو مصلحتين لكلا الطرفين ؛ فالمؤسسة المصدرة للقيم المنقولة تطرح رأسمالها عند عجزها عن توفير التمويل المناسب لمواصلة حياتها الإنتاجية في مقابل المستثمرين المشترين للقيم الذين يسارعون إلى استثمار مدخراتهم ، واقتناء القيم للدخول في حصة معينة من رأسمال الشركة المصدرة لاكتساب حقوق الشريك ، وتحقيق الأرباح عند نجاح المشروع الاستثماري للمؤسسة ؛ اذ يمكن لسوق البورصة أن توفر للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة عند انطلاقها مصدرا بديلا للحصول على رؤوس أموال ، ما يتيح فرصة نمو ممتازة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة من خلال توفير سوق محكمة التنظيم للمستثمرين من أجل توظيف استثماراتهم[25].

المبحث الثاني: سياسة الدولة في بعث استثمارات المؤسسات الصغيرة والمتوسطة عبر البورصة

اعتمدت الدولة مؤخرا للقضاء على الأزمة الاقتصادية أسلوب اللجوء إلى السوق المالي(البورصة) من أجل تطوير وترقية الاستثمارات ، حيث جعلت توفير البيئة الاستثمارية التي تجذب المستثمرين وتشجعهم على العملية الاستثمارية ضمن أولوياتها المسطرة في مخططاتها الاقتصادية والسياسية. وفي سبيل تحقيق هذا المسعى قدم المشرع الجزائري العديد من الضمانات التشجيعية للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة وهو ما سنتطرق اليه في **(المطلب الأول)** وفي سبيل معرفة عوامل نجاح استثمار هذه المؤسسات أو بمعنى آخر دراسة انعكاسات الضمانات الممنوحة على المؤسسات الصغيرة والمتوسطة خصصنا لها (**المطلب الثاني**).

المطلب الأول: أشكال الضمانات الممنوحة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة.

تنال المؤسسات الصغيرة والمتوسطة جراء استثمارها في سوق البورصة جملة من الضمانات التي تقيها من الأضرار والفشل الذي يصيب المشروع الاستثماري بها ، حيث عمد المشرع الجزائري إلى توفير حماية فائقة لرؤساء هذه المؤسسات متوخيا الإنقاص من التخوف والعزوف الذي يبديه هؤلاء في غالب الأحيان ؛ حيث يمكننا تعداد البعض من هاته الضمانات في التالي:

-ضمان توفير حماية لادخار المستثمر في السوق المالي.

إنّ الاستثمار في القيم المنقولة يعتبر أحد الأشكال التي تجسّد عملية توظيف الأموال ، وعلى ذلك فإنّ الاكتتاب أو شراء القيم المنقولة يشكّل استثمارا يقوم به المدخر الذي يوظف أمواله تجاه السوق التي يعد متدخلا ومتعاملا فيها بهدف تحقيق أرباح.

من بين أهم وظائف البورصة عموما هو " تنمية الادخار عن طريق تشجيع الاستثمار في الأوراق المالية ، وتوجيه المدخرات خدمة للاقتصاد القومي. حيث تشجع سوق الأوراق المالية على تنمية عادة الادخار الاستثماري ، خاصة بالنسبة لصغار المدخرين الذين لا يستطيعون القيام بمشاريع مستقلة بأموالهم القليلة ، ومن ثم فإنهم يفضلون شراء أوراق مالية على قدر أموالهم ، وهذا يساعد على خدمة أغراض التنمية والحد من التضخم ، كما أنها تساعد على توجيه المدخرات نحو الاستثمارات الملائمة "[26].

وعليه ومن أجل حماية حقوق المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بصفتها مدخرا ومستثمرا ، كلف المشرع الجزائري لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها بالسهر على حسن سير السوق المالي ، وحماية المستثمرين والادخار على حد سواء ، حيث تمارس أعمالها وفق آلية مدروسة ومنظمة يجب اتباعها من كل المتعاملين لتوفير جو يسوده النظام والشفافية. وهو ما يبعث الطمأنينة والراحة في نفوس رؤساء المؤسسات بالمحافظة على حقوق هذه الأخيرة.

- ضمان المساواة بين المتدخلين في السوق المالي.

إن تكريس الشفافية في السوق ومعاملة المستثمرين بما فيها المؤسسات الصغيرة والمتوسطة على قدم المساواة والحفاظ على مصالحهم من الحقوق التي يكفلها القانون ، وهي من الحتميات التي يجب تكريسها لضمان حسن سير السوق.

فوضْعُ المتعاملين والمتدخلين على قدم المساواة ، يعني أنهم متساوون في فرص تحقيق الأرباح ، كما أنهم يواجهون أو يخضعون لنفس المخاطر التي تنبثق من عملية الاستثمار. حيث إن كل عمليات البورصة خاضعة للتنظيم ، ما يجعل المساواة في معاملة المستثمرين تشغل ضمانة ذات مكانة جد هامة وجوهرية ؛ فالسير الحسن للسوق وفعاليته مرتبط بتكريس المساواة بين المتعاملين في السوق ، أي مساواة المستثمرين أمام السعر ، وأيضا مساواتهم أمام المعلومة[27].

-ضمان تخصيص سوق للمؤسسات على مستوى البورصة.

في سنة 2012 في إطار تعديل السياسة الاستثمارية للشركات المستثمرة في البورصة الجزائرية ، قرر المشرع الجزائري بناء على أصوات رؤساء المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الباحثين عن التمويل الحديث والمنادين بضرورة اتخاذ قرار يسمح بإدراج هؤلاء الأعوان الاقتصاديين في السوق المالي.

استجابة لمطالب هؤلاء والاستراتيجية الوطنية لتنمية الاستثمار الوطني. سمحت الدولة بإدراج المؤسسات الصغيرة

والمتوسطة بالبورصة الجزائرية، حيث خصصت لها سوقا لطرح سندات رأسمالها مثلها مثل شركات المساهمة الضخمة. غير أن الملاحظ على هذه المؤسسات أن المشرع الجزائري قد أبدى رغبة في توفير التمويل للمشاريع الاستثمارية التي تقيمها من خلال فتح رأسمالها للجمهور، بالرغم من أنها كيان صغير لا يضاهي ضخامة الشركات ذات الرساميل الكبرى.

وقد أشار المشرع الجزائري إلى أن بورصة الجزائر أو بورصة القيم المنقولة كما تم تسميتها في المرسوم التشريعي 93-10 المنشئ لها بأنها سوق تتكون من:

سوق لسندات الرأسمال، وسوق لسندات الدين إذا ما نظرنا إليها من جانب القيم المنقولة المتداولة فيها، والملاحظة المهمة التي يمكننا الإشارة إليها أن المشرع قد قام مرة أخرى بتقسيم هاتين السوقين اللتين تتضمنهما البورصة. بحيث جعل سوق سندات الرأسمال يتضمن: سوق رئيسية خاصة بشركات المساهمة، وسوق للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة إلى جانب سوق سندات الدين التي أقصيت منها سندات الدين المصدرة عن هذه المؤسسات. وهذه الفكرة جاءت مكملة لنص المادة 09 من النظام 12-01[28] أين تم بموجبها السماح للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة بالدخول إلى البورصة عبر إنشاء سوق مخصص لسندات رأس المال فقط دون سندات الدين. وعليه فقد أحسن المشرع الجزائري بتخصيص مثل هذه الضمانة للمؤسسات نظرا لصغر حجمها وعدم قدرتها على الاستجابة لشروط السوق الرئيسي.

كان تاريخ أول تسعير للقيم الصادرة عن هذه الشركة يوم12ديسمبر 2018 أين تم بدء عملية تداول قيمها على مستوى شركة تسيير بورصة القيم (بسوق شارع العقيد عميروش) وبالضبط في السوق المخصص للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة.

وبالتاريخ المحدد تم فعليا تداول أسهم الشركة السياحية في سوق أسهم المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ببورصة الجزائر، ما جعل شركة" أ أوم أنفست" أول شركة تسجل على قائمة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في بورصة الجزائر، فهي الشركة الوحيدة المدرجة في سوق المؤسسات الصغيرة والمتوسطة[29]. باعتبارها أول تجربة فريدة من نوعها تخوضها شركة "أ أوم أنفست" بسوق المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، وتسمح لها بالانطلاقة الفعلية لعمله بموجب تنشيطه عمليات تداول أسهم هذه الشركة.

حضر حصة افتتاح التسعير كل من وزير المالية عبد الرحمان راوية ورئيس لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها عبد الحكيم براح بالإضافة إلى المدير العام لبورصة الجزائر يزيد بن موهوب، فقد اعتبر انضمام هذه المؤسسة فرصة سانحة لدعوة المؤسسات الصغيرة المتوسطة الأخرى من أجل الانضمام، أين صرح عن انضمام ثلاث مؤسسات إلى جانب "أ أوم انفست" في الثلاثي الأول من سنة 2019 [30] لكن إلى حد اليوم لم يتجسد هذا المسعى.

-ضمان استحداث شخص الراعي المرافق للمؤسسات

رغبة من المشرع الجزائري في بعث الطمأنينة لدى رؤساء المؤسسات وحثهم على الدخول إلى البورصة، تم توفير شخص يعمل على الرقي بهذا الكيان الصغير وترشيده بكل الحقوق والواجبات والمخاطر التي من المحتمل أن يتعرضوا لها خلال تعاملهم فيها، والسهر على إنجاح استثماراتها. حيث جعل المشرع من ضمن شروط قبول إدراج المؤسسات أنه عليها اتخاذ شخص معنوي[31]يسمى الراعي في البورصة يرافقها أثناء حياتها الاستثمارية في البورصة بناء على إبرام اتفاقية بينهما.

و"مرقي البورصة هو مستشار مرافق، ويجب أن يكون وسيطا معتمدا في عمليات البورصة أو بنكا أو مؤسسة مالية، أو شركة استشارية في مجالات المالية والقانون واستراتيجية الأعمال، مع تمتعه بالخبرة الكافية في عمليات هيكلة رأس المال، واندماج وشراء المؤسسات شرط أن يكون معترفا به ومسجلا لدى لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها"[32].

يخضع هذا المرقي[33] في بورصة الجزائر إلى شروط حددتها تعليمة لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها رقم 01-2013 الصادرة في 09 جوان 2013 المتعلقة بشروط وإجراءات تسجيل المرقيين في البورصة[34].

حيث تبرز مهام هذا الراعي المرافق للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة في عدة نشاطات يمارسها في إطار واجباته تجاه المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، حسب مقتضيات المادة 02 من النظام 15-01 ومن أهمها:

-الاستشارة في مجال توظيف القيم المنقولة.

- التسيير الفردي للحافظة بموجب عقد مكتوب.

-ضمان النجاح في المسعى والاكتتاب المضمون في اصدار السندات.

-حفظ القيم المنقولة وإدارتها.

- إرشاد المؤسسات في مجال هيكلة رأسمال وإدماج وإعادة شراء المؤسسات.

يبدو من خلال هذه المهام الموسعة ، أن دور الراعي في البورصة أكثر توسعا وأهمية من الوسيط المرافق لشركات المساهمة بسبب أن المؤسسة الصغيرة أو المتوسطة تحتاج إلى ترقية ومرافقة ، خاصة وهي الشركة الناشئة والمعول عليها في ترقية وتنمية الاستثمار والاقتصاد الوطني. مما يوضح أن توفير الراعي في البورصة كمرافق للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة في سوق البورصة يعتبر أهم ضمانة إدارية تتمتع بها. والملاحظ على هذا المرافق أن المشرع الجزائري قد أحسن صنيعا بتوفير هذا الشخص الذي يعمل على مرافقة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة نظرا لحاجتها لمثل هذا الشخص من أجل تنوير بصيرتها وترقيتها.

المطلب الثاني: انعكاسات الضمانات الممنوحة على المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

بعد أن أسلفنا الذكر أن المشرع الجزائري وفر لرؤساء المؤسسات العديد من المزايا والحوافز التشجيعية للدفع بهم إلى الاستثمار بالبورصة ، والتخلي عن فكرة العزوف الشائع لديهم ، نشجع هؤلاء الرؤساء لدخول البورصة لتحقيق هدف تطوير وترقية الاقتصاد الوطني مثله مثل بقية اقتصادات الدول. لذا سنوضح لهم في هذه النقطة النتائج الإيجابية لهذه الضمانات التي تنعكس على المؤسسات **(الفرع الأول)** بالإضافة الى النتائج السلبية لها من خلال **(الفرع الثاني)**.

الفرع الأول: النتائج الإيجابية المحققة لصالح المؤسسات جراء الضمانات المقررة لها

حيث تحقق المؤسسات الصغيرة والمتوسطة المستثمرة بالبورصة عند الاستجابة لمطلب تلبية نداء المشرع وقبولها بالضمانات القانونية المتعددة مجموعة من المزايا نوردها في الآتي:

-تؤثر بورصة المؤسسات بشكل إيجابي في ضخ السيولة النقدية في الاقتصاد وتحويل السوق من حالة الركود إلى حالة النشاط الاقتصادي.

-تساهم هذه البورصة في تنوع القيم المنقولة ، وتساعد في تفعيل الشفافية نظرا لما تقدمه من حلول اقتصادية ، حيث تساعد على فتح مجالات استثمارية جديدة وحوافز إضافية لجذب المستثمرين لتلبية احتياجاتهم.

-الهدف من إنشاء هذه البورصة هو توفير أدوات تمويلية مستدامة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة بما يسمح برفع قدرتها التنافسية ، وتعظيم قيمتها المضافة للاقتصاد بما يسهم في توفير المزيد من فرص العمل ، والذي يعتبر أحد الأركان الرئيسية للتنمية الاقتصادية في الوقت الراهن.

-توفير فرصة كبيرة لأصحاب المؤسسات الصغيرة من الشباب وصغار المستثمرين في التوسع في مشروعاتهم.

-توفير فرصة لدخول مستثمرين استراتيجيين كشركاء مما يسمح بنقل وتحسين الخبرات الفنية والتكنولوجية والإدارة[35]. كما أن سوق المؤسسات الصغيرة والمتوسطة يوفر لشركة "أ أوم انفست"- باعتباره جزءا لتوفير بيئة مواتية لتنمية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة-المزايا التالية:

- حصول المؤسسة على التمويل المباشر من أموال المدخرين على اعتبار أن البورصة مصدر تمويلي حديث مكمل للتمويل المصرفي.

-وصول المؤسسة إلى موارد مستقرة للتمويل وفقا لأحسن تحليل مالي.

-وصول المؤسسة بأبسط وأرخص الشروط والتكاليف إلى سوق القيم المنقولة.

- حصول المؤسسة على فرص استثمار أكبر ، وخروج شركات ذات رأسمال استثماري إلى المحيط الاقتصادي[36].

وبعد أن ذكرنا مجموعة المزايا التي تصبو إلى تحقيقها الهيئات المنشئة لسوق المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والمؤسسات على حد سواء ، نبرز في الآتي الأهداف المتوخاة تحقيقها:

-**الرفع من رأسمالها المستثمر:** إذا قررت الشركة تطوير نشاطها لترقية مكانتها في السوق ، سيتطلب منها ذلك ضخ أموال ضخمة في مشاريعها الجديدة ، لكنها قد تعجز عن

طريق التمويل الداخلي ، فتضطر الى فتح رأسمالها عن طريق طرح سندات يكتتب فيها الجمهور ، سواء كانت سندات دين أم سندات رأسمال[37]إذ هو أفضل دليل عن رغبتها في كسب شركاء جدد بقصد توسيع قاعدة المساهمين رغبة منها في الحصول على سيولة نقدية تؤدي إلى رفع رأسمالها المكتتب فيه عند التأسيس[38].

- **تحسين أداء المؤسسة ومركزها المالي:** تتعدد الأهداف المحققة من وراء إدراج المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بالبورصة ؛ فاتخاذ قرار الانضمام إلى هذا السوق من رؤسائها الأكيد أنه سيكون لفائدتها ، مما يرفع إنتاجيتها ويوفر لها التمويل اللازم لإتمام مشاريعها كما أسلفنا الذكر. وفي الجهة المقابلة فمن بين الأهداف التي يحققها السوق المالي توفير التمويل للوحدات الاقتصادية التي تعاني عجزا ماليا ، وهو الأمر الذي ينطبق على حالة المؤسسات التي تعد فتية والمحتاجة الى رعاية ومرافقة من أجل فرض صورتها وتصحيح مركزها في سوق القطاعات التي تنشط على مستواه.

إن سوق الأوراق المالية تعتبر أداة هامة لتقويم الشركات ، حيث تساهم في زيادة وعي المستثمرين وتبصيرهم بواقعها ، ويتم الحكم عليها بالنجاح أو الفشل ، فانخفاض أسعار الأسهم بالنسبة لشركة من الشركات دليل قاطع على عدم نجاحها أو على ضعف مركزها المالي ، وهو ما قد يؤدي الى إجراء بعض التعديلات في سياستها أملا في تحسين مركزها عن طريق تطوير تقنيات التسيير[39]. فقد أعطت مؤسسة "أ أوم أنفست" مثالا عن المؤسسة الطموحة التي تتفتح نحو الترقية والتحضر ، فهي من وراء هذا الإدراج ستتمتع بجميع مزايا الإدراج بما فيها اكتساب شهرة وطنيا وعالميا ، بالإضافة إلى إعطاء الثقة لدى المتعاملين معها من خلال رفع رأسمالها عن طريق اللجوء للادخار العلني[40].

-**توفير التمويل الضروري للمؤسسة:** لقد أسلفنا الذكر بأن السبب الرئيسي للجوء المؤسسات الصغيرة والمتوسطة للاستثمار بالبورصة هو البحث عن تمويل لتغطية احتياجاتها التي تحقق لها الاستمرار في تنافسية النشاط أمام المؤسسات الأخرى المتواجدة بالسوق. فبناء على إدراج شركة "أ أوم أنفست" بالبورصة ، تكون هذه الشركة الناشطة في مجال الفندقة قد كسرت حاجز العزوف عن إصدار المؤسسات الصغيرة والمتوسطة قيما منقولة تتداول بالبورصة بتاريخ 12ديسمبر2018 ، "بدخولها سوق المؤسسات الصغيرة والمتوسطة المنشئ ببورصة الجزائر سنة2012 "[41]وبقائه دون فعالية ودون تداول به لسندات رأس المال إلى غاية تنشيطه بفضل هذه الشركة. يبقى الهدف الرئيسي من دخول هذه المؤسسة إلى البورصة هو البحث عن تمويل لمشاريعها الاستثمارية في المستقبل.

-**تطوير وترقية الاستثمار الوطني.** تسعى الدولة في ظل الأزمة الاقتصادية إلى جذب المدخرات المكتنزة لدى المواطنين وضخها في البنوك ، لذا تعد البورصة إحدى هذه الوسائل المطورة للاستثمارات ، حيث يمكن للأفراد الراغبين في الاستثمار عبر الأوراق المالية أن يحققوا الثروة لاستثمارها واستثمار الدولة عن طريق بيع وشراء الأسهم والسندات المساهمة في تمويل خطط التنمية عن طريق طرح سندات حكومية في البورصة ، هذا ما يوفر كمية عالية من السيولة من جهة أخرى ؛ حيث رافق بروز أهمية الأوراق المالية التي تصدرها شركات المساهمة والمؤسسات الصغيرة والمتوسطة ازدياد لجوء الحكومات إلى الاقتراض العام من الشعب. كما أن هذه الشركات المدرجة في البورصة بمختلف أحجامها تلعب دورا رئيسيا في النشاط الاقتصادي من أجل ما تقوم به من المساعدة في تعبئة الفائض الاقتصادي وإعادة تحريكه وتوظيفه في مجالات النشاط[42].

الفرع الثاني: الانعكاسات السلبية للضمانات الممنوحة للمؤسسات المستثمرة بالبورصة

بعد أن قمنا بذكر أهم الأهداف والمزايا المحققة من وراء دخول المؤسسات الصغيرة والمتوسطة إلى البورصة نجد أنه وبالمقابل تنعكس هذه الضمانات سلبيا عليها من خلال ما سيأتي بيانه:

-**الشكل القانوني :** فرض المشرع الجزائري على المؤسسات الصغيرة والمتوسطة اتخاذ شكل معين لقبول إدراجها بالبورصة وهو أن تتخذ شكل شركة مساهمة ، حيث يعتبر شكل شركة المساهمة هو الشكل الأنسب لفتح رأسمالها سواء عند التأسيس أم عند الرغبة في زيادة ورفع رأسمالها ، هذا من الناحية القانونية عبر عملية طرح القيم المنقولة باللجوء

العلني للادخار أو بدونه ، لكنه من الناحية العملية نجد أن هذا القيد القانوني يمنع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة المتخذة للأشكال التجارية الأخرى من دخول البورصة والاستثمار بها ، وهو ما ينتج عنه حرمان هذه المؤسسات من خدمات التمويل التي تؤديها سوق البورصة[43].

-حجم رأس المال المطروح: لا يتواجد حاليا في سوق البورصة الجزائرية أي نوع من المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بسبب التخوف والعزوف المنتشر لدى مسيريها ورؤسائها ؛ إذ يرجع سبب عدم قبول الاستثمار بالبورصة بحثا عن التمويل الضروري إلى تخوفهم من خسارة ملكية المؤسسة ، ففتح رأسمال المؤسسة يقابله دخول أشخاص غرباء إلى المؤسسة كشركاء والتحكم في إدارتها ، وكل شؤونها نظرا لما تخوله هذه الصفة من حقوق.

-فشل استثمار المؤسسات بسبب عدم نجاح مهمة الراعي في البورصة: قد تتعرض المؤسسات الصغيرة والمتوسطة أثناء حياتها الإنتاجية والعملية إلى فشل مشاريعها التجارية ، وهو حال الاستثمار في البورصة الذي يعد مجالا مليئا بالمخاطرة ، غير أن تواجد الراعي المرافق لها قد يهون عليها عملية الاستثمار لدى مساعدته لها ، لكنه قد لا ينجح في المهمة المسندة إليه فيرتكب أخطاء قد تكون عن قصد أو عن غير قصد بسبب عدم احترامه لقواعد وآداب مهنة وسيط في عمليات البورصة ، مما يؤدي إلى إلحاق أضرار وفشل المشروع الاستثماري للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة[44]. وهو ما يسمى بتلاعب شركات السمسرة بصغار المستثمرين بسبب ضعف الرقابة في السوق المالية. لكن وبقصد التخفيف والتعويض عن الفشل قرر المشرع الجزائري حماية لهذه المؤسسات بتوفير صندوق ضمان الزبائن يستمد تمويلاته من مساهمات الوسطاء ، بالإضافة إلى عقود تأمين تجاه الزبائن تضمن مسؤوليتهم[45].

خاتمة

في ختام دراستنا هذه نجد أن المشرع الجزائري حتى وإن وفر مجموعة من الضمانات والمزايا لرؤساء ومسيري المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بقصد تحفيزهم وتنويرهم بضرورة الاستثمار بالبورصة الجزائرية إلا أن ضآلة عدد هذه المؤسسات بالبورصة واقعيا يشكل حاجزا يصعّب المهمة أمام القوانين والمسؤولين الذين يرفعون تحدي توفير التمويل الحديث عبر البورصة ؛ حيث لم يستطع المشرع رفع التخوف الذي يدور في أذهان هؤلاء المستثمرين بسبب ما يحتويه هذا السوق من مخاطرة ومغامرة ، فأمام كل هذا يبقى انضمام "أ أوم أنفست" يشكّل بادرة لافتتاح مجال الاستثمار كمثال يقتدى به بسوق البورصة الخاصة بالمؤسسات الصغيرة والمتوسطة.

حيث إن خلق سوق صغيرة خاص بالمؤسسات الصغيرة والمتوسطة جاء مطلبا اقتضته الظروف الاقتصادية للدولة الجزائرية ، ومحاولة مواكبة التقدم الذي عرفته بعض الدول المعتمدة على التمويل عبر السوق المالي ، مما يؤكد أنه كان برنامجا حكوميا مسطرا سعت الهيئات المنظمة لعمل البورصة على تنفيذه ، وعلى رأسها لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها. غير أن الواقع العملي يثبت أن هذه الضمانات والتحفيزات لم ترق لأن تكون محفزا لرؤساء المؤسسات يدفعهم لاتخاذ قرار الاستثمار بها خاصة في ظل غياب هاته المؤسسات على مستوى السوق الخاص بها ، وهو ما يؤكد فرضية عدم إمكانية تطوير الاستثمار الوطني والاقتصاد ككل. ما ينتج معه فشل الاستراتيجية التحفيزية التي سعت إليها الحكومة.

-وجدنا من خلال الدراسة ، أن إدراج المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في البورصة على مستوى السوق الخاص بها وفر لها شروطا جد مرنة ، وضمانات متنوعة لم تقض على تخوف هؤلاء الأعوان الاقتصاديين من فقدان مؤسساتهم خاصة في ظل المخاطر التي تواجههم عند فتح رأسمالها للجمهور للاكتتاب به ، بالرغم من أنه محدد بنسبة ضئيلة لا تدعو إلى التخوف إذا ما قورنت بكفة الأهداف والمنافع المزدوجة التي يحققها هذا النوع من الاستثمارات.

-لاحظنا أنه وفي سبيل دفع عجلة الاستثمار الوطني عبر إدراج المؤسسات بالبورصة ، خلق المشرع منصب الراعي المرافق لها بغرض بعث الطمأنينة في نفوس رؤساء المؤسسات ؛ إذ إنه يسعى الى إنجاح استثماراتها وحسن تسيير وادارة حافظاتها المالية ، وهذا يعد نقطة إيجابية تحسب للمشرع الجزائري.

-توصلنا كذلك أنه من بين الأهداف الوطنية الاقتصادية التي تحققها الدولة الجزائرية لدى إدراج المؤسسات التوصل إلى التنويع الاقتصادي عبر توزيع الاستثمار وتركيزه على الاستثمار بالسوق المالي خاصة في ظل اعتبارها واحدة من بين القطاعات الجديدة والبديلة عن النفط.

وعليه وبعد هذه النتائج والملاحظات المتوصل إليها ، نشير إلى أنه وبالرغم من المجهودات القانونية المبذولة من خلال توفير أنواع مختلفة من الضمانات بقصد تحفيز الاستثمار بالسوق المالي ، سجلنا غياب ثقافة الاستثمار بالسوق الصغير لدى رؤسائها ، مما نجم عنه غياب هاته المؤسسات التي يرافقها عدم فاعلية ونجاعة تنصيب سوق صغير.

وسعيا منا في ختام دراستنا هذه ، نود الإشارة إلى بعض الاقتراحات التي نأمل أن تبنى عليها دراسات تكميلية جدية وعلمية في المستقبل ، أو أن تجد هذه المقترحات صدى ، وذلك بأن تجد طريقها إلى التطبيق من الهيئات الوصية ، وهي التي نلخصها فيما يلي:

- يجب على الهيئات المنظمة لعمل السوق المالي ككل أن تسارع إلى إيجاد الظروف الأكثر ملاءمة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة المستثمرة بها ، وعلى وجه الخصوص توفير المزيد من الضمانات بمختلف أنواعها بقصد حثها وتشجيعها للجوء إلى التمويل الحديث عبر البورصة.

- يجب على الدولة الجزائرية والهيئات المنظمة لعمل البورصة أن تسعى إلى ضرورة نشر ثقافة الانضمام إلى السوق المالي بين أوساط الأعوان الاقتصاديين في ظل اعتباره أحد وسائل التنويع الاقتصادي الذي يوفر الرقي بالاقتصاد الوطني.

- نظرا للدور الفعال الذي تلعبه المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في اقتصادات الدول المتقدمة ، وجب على الجزائر العمل على تحفيز هاته المؤسسات الناشئة ومرافقتها من خلال تعريفها بنشاط الراعي في البورصة من أجل الاعتماد عليه في استثماراتها.

- العمل على تكثيف التعاون مع بورصات المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الدول المتطورة بقصد الاحتكاك والتعلم من خبراتها وقدراتها نظرا لحاجة الاقتصاد الوطني لمثل هذه التجربة.

- محاولة جذب الجمهور المدخر والمكتنز لأمواله خارج البنوك ، وحثه على اقتناء القيم المنقولة المطروحة من طرف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة من خلال التعريف بالأسهم وكيفية امتلاكهم لجزء في رأسمال المؤسسة.

- نشر ثقافة بورصية في أوساط المجتمع الجزائري بما فيهم رؤساء المؤسسات الصغيرة والمتوسطة من خلال تعريف الفئة الأولى بفائدة استثمار المدخرات في شكل أسهم المؤسسات ، وتعريف الفئة الثانية بمزايا الانضمام إلى السوق الصغير للبورصة كأهم الطرق التمويلية التي هي بحاجتها في سبيل رفع رأسمالها.

وفي الأخير تجدر الإشارة إلى أنه يجب على الدولة الجزائرية السعي إلى التعريف بالسوق المالي وضماناته وخصائصه من خلال محاولة الإنقاص من وقع صدمة انخفاض أسعار القيم المنقولة ومخاطره. من أجل الاعتماد عليه كأحد الاستثمارات الفاعلة والمنتجة للعملة بالنسبة للاقتصاد الوطني.

الهوامش

1. عرف المشرع الجزائري المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في المادة 05 منالقانون17-02 المؤرخ في10 يناير2017 المتضمن القانون التوجيهي لتطوير المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ، الجريدة الرسمية العدد 02 ، الصادر بتاريخ 11 يناير2017 بأنها: كل مؤسسة إنتاج السلع و/أو الخدمات تشغل من واحد 01 الى مائتين وخمسين 250 شخصا ، حيث لا يتجاوز رقم أعمالها السنوي 04 ملايير دج ، أو لا يتجاوز مجموع الحصيلة السنوية مليار دج.

2. عبد الحميد بورحومة ، محددات الاستثمار وأدوات مراقبتها ، اعداد نموذج قياسي للاستثمار بالجزائر للفترة 1994-2004 ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في العلوم الاقتصادية ، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير ، جامعة منتوري قسنطينة ،2007/2006 ، غير منشورة ، ص07.

3. نجلاء مُحَمَّد إبراهيم بكر ، أسواق المال وإدارة الاستثمار ، أكاديمية طيبة المتكاملة للعلوم ، كتاب الكتروني محمل من النت عن الموقع الالكتروني: http://search.mandumah .com ،(د.د.ن /د.س.ن /د.ب.ن) ص123.

4. حيث نصت المادة 02/ف2 على ما يلي:"يقصد بالاستثمار ، في مفهوم هذا القانون ، ما يأتي:
-اقتناء أصول تندرج في إطار استحداث نشاطات جديدة وتوسيع قدرات الإنتاج و/ أو إعادة التأهيل.
-المساهمات في رأسمال شركة".

5. المعيفي لعزيز ، الوسائل القانونية لتفعيل الاستثمارات في الجزائر ، رسالة لنيل درجة دكتوراه علوم في الحقوق ، جامعة مولود معمري ، قسم الحقوق ، تيزي وزو ،24 جوان2015 ، منشورة ، ص267.

6. ذهب المشرع الجزائري الى هذه الفكرة في المادتين 30-31 من المرسوم التشريعي 93-10 المؤرخ في 23 ماي1993 ، المتعلق ببورصة القيم المنقولة ، الجريدة الرسمية العدد 34 الصادر بتاريخ 23 ماي1993 ، المعدل والمتمم بالقانون 03-04 المؤرخ بتاريخ 17 فيفري 2003 واعتبر الأشخاص الذين يمتلكون رؤوس أموال مستثمرة في عمليات البورصة مستثمرين.

7. وفقا للمادة 09 المتضمنة المادة 46 منقرار وزارة المالية المؤرخ في24جانفي 2012المتضمن التصديق على نظام لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها رقم12-01 المؤرخ في 12 جانفي2012 الذي يعدل ويتمم النظام رقم97-03 المؤرخ في 18نوفمبر1997 والمتعلق بالنظام العام لبورصة القيم المنقولة.

8. انظر المادة 46 من النظام 12-01.

9. انظر المادة 46-4 من النظام 12-01.

10. انظر المادة 46-5من النظام 12-01.

11. انظر المادة 46-4 من النظام 12-01.

12. هاته الفكرة مستنتجة من عدم تضمين المشرع القسم الثالث من النظام 12-01 الخاص بشروط ادراج سندات رأس المال في سوق المؤسسات الصغيرة (المواد 45 الى 46-7) هاته الشروط المفروضة على الشركات الضخمة.

13. للجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها السلطة التقديرية في رفض طلب قبول القيم ان ارتأت أن ذلك يمس بحسن سير السوق/ الاستعلام عن سير البورصة ، وثيقة منشورة على موقع الالكتروني للجنة:www.cosob.org ، ص6.

14. انظر المادة 02 من النظام 12-01 ، إذ جاءت هاته المادة عامة غير واردة في القسم الخاص بشركات المساهمة ولا المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ، مما يعني تطبيقها عليهما.

15. انظر الماد ة46-6 من النظام 12-01.

16. تمثل التقييد المفروض على المؤسسات مقارنة بشركة المساهمة بضرورة توزيع سندات رأسمالها على المستثمرون وهم على وجه الحصر: هيئات التوظيف الجماعي في القيم المنقولة ، البنوك ، المؤسسات المالية ، شركات التأمين ، شركات رأسمال الاستثمار ، صناديق الاستثمار ، الشركات المسيرة للأصول.

17. Les activités entrant dans le cadre de son objet social consistent essentiellement dans : le développement du tourisme thermal et de bien-être, le développement de destination touristique par excellence, la modernisation et la rénovation des stations thermales pour valoriser l'industrie touristique en Algérie/COSOB, admission au compartiment pme de la bourse d'Alger de la société AOM INVEST SPA, p02.

18. موقع لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها: www.cosob.org تاريخ الزيارة 2019/09/03.

19. COSOB, admission au compartiment pme de la bourse d'Alger de la société AOM INVEST SPA, ouvrage précèdent، p03.

20. غالم عبد الله-سبع حنان ، واقع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر ودورها في تنمية الاقتصاد الوطني ، مداخلة بالملتقى الوطني المعنون ب: واقع وآفاق النظام المحاسبي المالي في المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر يومي 05/06ماي2013بجامعة الوادي ، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير ، ص08.

21. خالد إدريس ، فعالية تمويل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة عن طريق البورصة ، دراسة استشرافية ، مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات الماجستير في العلوم الاقتصادية ، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة ،2007-2008 ، منشورة ، ص63.

22. جباري شوقي-قمان مصطفى ، السوق المالية البديلة كآلية فعالة لتمويل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة-مع الإشارة الى حالة الجزائر-مجلة التنظيم والعمل ، جامعة معسكر ، الجزائر ، العدد 05 ، سنة 2014 ، ص02.

23. اندراوس وليم عاطف ، السياسة المالية وأسواق الأوراق المالية ، مؤسسة شباب الجمعية ، الإسكندرية ،2005 ، (د.ط) ص03.

24. لم يسمح المشرع الجزائري للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة بطرح سندات الدين (حسب ما قضت بها المادة 46-6 من النظام 12-01) للاكتتاب فيها من قبل الجمهور وذلك بسبب تخوفه من عدم قدرتها على سداد ديونها اتجاه الجمهور المقرض في الآجال المطلوبة ، خاصة وأنها مؤسسة واعدة تحتاج الى ترقية فكيف يخاطر بالجمهور المكتتب في سندات الدين ويرهن أمواله بنجاح استثمار مؤسسة فتية قيد الانشاء والنشاط في السوق.

25. عن موقع شركة تسيير بورصة القيم المنقولة ، www.sgbv.dz تاريخ الزيارة 30 ديسمبر2019.

26. حساين سامية ، " شركة المساهمة المسعرة في البورصة" مطبوعة محاضرات لطلبة السنة الثانية ماستر ، تخصص قانون خاص معمق ، كلية الحقوق ، جامعة أمحمد بوقرة ، بومرداس ، 2015/2014 ، غير منشورة ، ص 53.

27. أيت مولود فاتح ، حماية الادخار المستثمر في القيم المنقولة في القانون الجزائري ، رسالة دكتوراه تخصص القانون ، جامعة مولود معمري-تيزي وزو ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ،2012 ، منشورة ، ص413.

28. النظام 12-01 المعدل المتمم للنظام العام لبورصة القيم المنقولة 97-03 ، مرجع سابق.

29. عن موقع شركة تسيير بورصة القيم المنقولة: www.sgbv.dz ، مرجع سابق.

30. La PME AOM INVEST intégré la Bourse d'alger, www.algerie-eco.com, par khelifa litamine,13/12/2018, date de visite :10/09/2019.

31. عددت المادة 04من القانون 03-04 المؤرخ في 17فبراير2003يعدل ويتمم المرسوم التشريعي 93-10 المؤرخ في23مايو1993 والمتعلق ببورصة القيم المنقولة ، الأشخاص الذي يمكنهم ممارسة نشاط الوساطة باعتبارها راعي في البورصة وجعلتهم يتمثلون في: الشركات التجارية التي تنشأ خصيصا لهذا الغرض ، البنوك ، المؤسسات المالية. وهو الأمر ذاته الذي كرسته المادة 04 من نظام لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها15-01المتعلق بشروط اعتماد الوسطاء في عمليات البورصة وواجباتهم ومراقبتهم الصادر بموجب قرار وزير المالية ، المؤرخ في 15ابريل2015 ، الجريدة الرسمية العدد 55 الصادر في 21 أكتوبر2015.

32. عن موقع شركة تسيير بورصة القيم المنقولة: www.sgbv.dz تاريخ الزيارة:2019/09/10.

33. المرقين المعتمدين لدى اللجنة والناشطين في سوق البورصة حاليا هم: بنك الفلاحة والتنمية الريفية ، بنك التنمية المحلية ، البنك الخارجي الجزائري ، البنك الوطني الجزائري ، بي أن بي باريبا الجزائر ، بنك التوفير والاحتياط-بنك ، القرض الشعبي الجزائري ، جرانت ثورنتون-شركة ذات أسهم ، أر أم جي للاستشارات-شركة ذات مسؤولية محدودة ، أرنست يونغ ، فالواضح على قائمة مرقي البورصة بأنهم عبارة عن وسطاء في عمليات البورصة/ عن موقع شركة تسيير بورصة القيم المنقولة: www.sgbv.dz

34. Les conditions et procédures d'inscription des promoteurs en bourse sont : seules les personnes morales peuvent demander leur inscription en qualité de promoteur.

Les banques et les établissements financier ainsi que les intermédiaires en opérations de bourse agrée pour activités de conseils sont inscrit d'office sur liste de promoteurs en bourse sous réserve.

De désigner un interlocuteur dument habilité, les sociétés candidat à la fonction de promoteur en bourse autre que les catégories désignées doivent justifier de l'expérience suivante : une activité générale depuis au moins deux ans dans la fourniture de conseil aux entreprises en matière de structure capitale l, de conseil, gestion et ingénierie financières et d'une manière générale, tous services destinés à faciliter la création et le développement d'entreprises.

la société candidat doit faire parvenir à la COSOB le formulaire-type de demande d'inscription en qualité de promoteur en bourse dument remplie et signée auquel est annexé un dossier type attestant l'expérience requise et décrivant les moyens humains et technique qu'il entend mettre en œuvre pour remplir ses missions / les articles02-03-04-05 de l' instruction COSOB n°01-2013 relative aux conditions et procédures d'inscription des promoteurs en bourse.

35. خالد إدريس ، مرجع سابق ، ص89.

36. COSOB, admission au compartiment pme de la bourse d'Alger de la société AOM INVEST SPA, ouvrage précèdent, p04.

37. حمليل نوارة ، الاكتتاب في رأسمال شركة الأسهم ، مداخلة في ملتقى وطني حول النظام القانوني للشركات بين التشريع والتطور التكنولوجي ، يومي19 و20 ماي2014 ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ، تيزي وزو ، غير منشورة ، ص01.

38. دور البورصة ، عن الموقع الالكتروني: www.elbassair.net تاريخ المراجعة 2017/01/07.

39. محمد أيمن عزت الميداني ، تطور أسواق الرأسمالية في سوريا ، المركز السوري للاستشارات والأبحاث والتدريب في إدارة الاعمال ، الثلاثاء 19شباط 2002. (د.ط) ، ص96.

40. Entrée en bourse de la PME AOM Invest : la première séance de cotation en décembre, www.elwatan.com , par zhorhadjam, 01/12/2018, date de visite ,10/09/2019.

41. مصطفى صايم-مصطفى حوحو ، بورصة الجزائر حلقة مفقودة في تمويل التنمية الاقتصادية "الواقع ، المعوقات والحلول" ، مداخلة بالملتقى الوطني الموسوم بالنظام المالي واشكالية تمويل الاقتصاديات النامية ، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير ، جامعة محمد بوضياف ، المسيلة ، ص12.

42. البورصة في الجزائر ، عن الموقع الالكتروني:www.wadilarab. com تاريخ الزيارة2018/07/04.

43. لا يمكن للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة التي تتخذ شكل شركات التضامن وشركات التوصية والشركات ذات المسؤولية المحدودة دخول البورصة المذكورة في المادة 544 من الامر 75-59 المتضمن القانون التجاري المعدل والمتمم بالقانون 05-02 المؤرخ في 06فبراير2005.

44. أشار المشرع الجزائري الى الالتزامات الواقعة على عاتق الوسطاء بما فيهم الراعي في البورصة بموجب المادة 50 من النظام 15-01.

45. نص المشرع على الحماية المقررة لزبائن وسيط عمليات البورصة والمتمثلة في صندوق ضمان الزبائن وتأمين الأموال بموجب نص المادتين 53-54 من النظام 15-01.

مراجع المقال

القوانين

1. القانون 03-04 المؤرخ في 17فبراير2003المعدل والمتمم للمرسوم التشريعي 93-10 المؤرخ في23مايو1993 والمتعلق ببورصة القيم المنقولة ، الجريدة الرسمية العدد 11 الصادر بتاريخ 19 فيفري 2003.
2. نظام لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها رقم 12-01 المؤرخ في 12 يناير2012 المعدل والمتمم للنظام العام للبورصة رقم97-03 ، الجريدة الرسمية العدد 41 الصادر في 15جويلية2012.
3. نظام لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها15-01المتعلق بشروط اعتماد الوسطاء في عمليات البورصة وواجباتهم ومراقبتهم الصادر بموجب قرار وزير المالية ، المؤرخ في 15ابريل2015 ، الجريدة الرسمية العدد 55 الصادر في 21 أكتوبر2015.
4. القانون 17-02 المؤرخ في10 يناير2017 المتضمن القانون التوجيهي لتطوير المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ، الجريدة الرسمية العدد 02 ، الصادر ب تاريخ11 يناير2017.

الأطروحات

1. عبد الحميد بورحومة ، محددات الاستثمار وأدوات مراقبتها ، اعداد نموذج قياسي للاستثمار بالجزائر للفترة 1994-2004 ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في العلوم الاقتصادية ، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير ، جامعة منتوري قسنطينة ،2006/2007.
2. المعيفي لعزيز ، الوسائل القانونية لتفعيل الاستثمارات في الجزائر ، رسالة لنيل درجة دكتوراه في العلوم ، كلية الحقوق ، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو ،24 جوان2015.
3. خالد إدريس ، فعالية تمويل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة عن طريق البورصة ، دراسة استشرافية ، مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات الماجستير في العلوم الاقتصادية ، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة ،2007-2008.
4. أيت مولود فاتح ، حماية الادخار المستثمر في القيم المنقولة في القانون الجزائري ، رسالة دكتوراه تخصص القانون ، جامعة مولود معمري-تيزي وزو ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ،2012.

الكتب

1. أندراوس وليم عاطف ، السياسة المالية وأسواق الأوراق المالية خلال فترة التحول لاقتصاد السوق ، الطبعة الاولى مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ،2005.
2. نجلاء مُحَمَّد إبراهيم بكر ، أسواق المال وإدارة الاستثمار ، أكاديمية طيبة المتكاملة للعلوم ، دون طبعة ، دون نشر ، كتاب الكتروني محمل من النت عن الموقع الالكتروني: http://search.mandumah .com .

المداخلات

1. غالم عبد الله-سبع حنان ، واقع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر ودورها في تنمية الاقتصاد الوطني ، مداخلة بالملتقى الوطني المعنون ب: واقع وآفاق النظام المحاسبي المالي في المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر يومي 05/06ماي2013بجامعة الوادي ، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير.
2. حمليل نوارة ، الاكتتاب في رأسمال شركة الأسهم ، مداخلة في ملتقى وطني حول النظام القانوني للشركات بين التشريع والتطور التكنولوجي ، يومي19 و20 ماي2014 ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ، تيزي وزو.
3. مصطفى صايم-مصطفى حوحو ، بورصة الجزائر حلقة مفقودة في تمويل التنمية الاقتصادية "الواقع ، المعوقات والحلول" ، مداخلة بالملتقى الوطني الموسوم بالنظام المالي واشكالية تمويل الاقتصاديات النامية ، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير ، جامعة مُحَمَّد بوضياف ، المسيلة.

المقالات

1. جباري شوقي-قمان مصطفى ، السوق المالية البديلة كآلية فعالة لتمويل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة-مع الإشارة الى حالة الجزائر-مجلة التنظيم والعمل ، جامعة معسكر ، الجزائر ، العدد 05 ، سنة 2014.
2. مُحَمَّد أيمن عزت الميداني ، تطوير أسواق الرأسمال في سورية ، المركز السوري للاستشارات والأبحاث والتدريب في إدارة الاعمال ، الثلاثاء 19شباط 2002.

المواقع الالكترونية

1. دور البورصة ، عن الموقع الالكتروني: www.elbassair.net تاريخ المراجعة 2017/01/07.
2. البورصة في الجزائر ، عن الموقع الالكتروني:www.wadilarab. com تاريخ الزيارة2018/07/04.
3. المطبوعات.
4. حساين سامية ، '' شركة المساهمة المسعرة في البورصة'' مطبوعة محاضرات لطلبة السنة الثانية ماستر ، تخصص قانون خاص معمق ، كلية الحقوق ، جامعة أُمَحَمَّد بوقرة ، بومرداس ، 2014/2015.
5. وثيقة صادرة عن لجنة تنظيم عمليات البورصة ومراقبتها خاصة بسير البورصة.

نموذج التفكير الأنطولوجي عند فلاسفة اليونان

Paradigm of the ontological thout among the Greec philosophers

تاريخ الإرسال: 05-09-2019 تاريخ القبول: 12-04-2020

عبد الفتاح سعيدي، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي
abdosaidi69@gmail.com

الملخص

لقد ظهرت الابستمولوجيا على أساس أنها دراسة نقدية موجهة لنظريات ومناهج العلوم ، ولكن توسيع مواضيع الدراسة جعل الاهتمامات الابستيمولوجية تطال دراسة النصوص والنظريات والمناهج الفلسفية. لقد بات الاشتغال الفلسفي على النصوص يستهدف بالأساس ما يقف وراء التفكير ، يستهدف الوقوف على المقولات الثابتة التي تحكم مجتمعاً فلسفياً بأسره ، وتظل بمثابة البنية التي فيها تدور مختلف المناقشات الفلسفية. في هذا الإطار يندرج موضوع «نموذج التفكير الأنطولوجي عند فلاسفة اليونان» ، ففيما يتمثل هذا النموذج الإرشادي للتفكير اليوناني ؟ وما عناصره ؟ وما الصيغ التي اتخذها طيلة الفترة الممتدة من طاليس لأرسطو ؟

الكلمات المفاتيح: الابستمولوجيا ، الانطولوجيا ، البراديغم ، النظرية ، اللا وعي.

Résumé

L'épistémologie est l'étude critique qui concerne les théories et les méthodes scientifiques, mais l'amplification du domaine des études a laissé les préoccupations épistémologiques s'intéresser à l'étude des textes, des theories et des méthodes philosophiques. Aujourd'hui, le rôle des travaux philosophiques a l'objectif de creuser l'au-delà de la pensée consciente tout en visant les concepts qui contrôlent et gouvernent une société philosophique toute entière. Cela maintient la structure autour de laquelle tournent toutes les discutions philosophiques. Dans cette optique, la présente contribution intitulée « paradigme de la pensée ontologique chez les philosophes grecs », tente de répondre à nombre d'interrogations: que représente ce modèle ou plutôt ce paradigme dans la pensée grecque ? Quels sont ses éléments? Enfin, quelles sont les formules qu'il porte au long de toute la période entre Thalès et Aristote?

Mots-clés : épistémologie, ontologie, paradigme, théorie, inconscient.

Abstract

Epistemology is the critical study of scientific theories and methods, but the amplification of the field of study has left epistemological concerns in the study of philosophical texts, theories, and methods. Today the role of philosophical works is to achieve what is behind conscious thought, that is to say all the concepts that control and govern an entire philosophical society, and they remain the structure around which turn all the philosophical discussions. In this subject entitled as "model of the ontological thought among the Greek philosophers", that represents this model or rather this paradigm in the Greek thought? What are its elements? Finally, what are the formulas he carries throughout the entire period between Thales and Aristotle?

Keywords : Epistemology, ontology, paradigm, theory, unconscious**.**

مقدمة

لقد عرفت نهاية القرن التاسع عشر أزمة حادة عرُفت بأزمة الأسس. طالت هذه الأزمة مختلف ميادين المعرفة، وعلى وجه الخصوص الرياضيات والفيزياء والبيولوجيا والفلسفة، حتى بات من غير المناسب، ابتداء من هذه الفترة بالذات أن يفكر الفيلسوف بتأسيس نظرية، أو مذهب فلسفي مبني على أسس ثابتة ومطلقة، يكون بإمكانه أن يفسر من خلالها؛ الطبيعة، والأخلاق والجمال وكل ما يتعلق بالوجود. كما لم يعد من الممكن لعالم في الطبيعة أن يؤسس لنظرية علمية قائمة على أسس مطلقة وثابتة. والسبب في ذلك يعود بالأساس إلى عدم الثقة بالوعي. فإذا كان الفكر الديكارتي ينطلق من: أن الوعي هو شرط الوجود، أي أننا لا يمكن أن نتناول أي موضوع بالدراسة، أو البحث دون أن نكون واعين به، والوعي في حد ذاته حقيقة يقينية واضحة تمام الوضوح. وهو أساس التفكير والحقيقة، وهو نقطة الانطلاق في كل بحث، لكن ماذا يحدث لو اكتشفنا أن خلف حياتنا الواعية يقبع اللاوعي، الذي يراقب وعينا ويؤسس له البديهة ويوجهه وفق الرغبات، والأهواء، والغرائز المكبوتة؟ لقد استفاق الإنسان على نسبية الوعي وعرف متيقناً أن الحديث عن نقطة البداية وعن الأساس الصلب ونقطة الارتكاز الأرخميديسية هو ضرب من الأوهام. فإذا كانت اهتمامات الفيلسوف الكلاسيكي تتمثل في تحديد نقطة البداية، واختيار أسس مذهبه بعناية، فإن وظيفته الراهنة تتوقف عند حدود القراءة. التي تتمثل في توظيف مختلف مناهج ومحتويات العلوم الإنسانية من اجل استخلاص لاوعي النص، ممثلاً في بنيته ومقولاته المسكوت عنها، والتي تقف طول الوقت موجهة للخطاب ومتحكمة فيه، ومراقبةً له.فإذا نظرنا إلى نصوص الفلسفة اليونانية كونها تمثل نقطة بداية التفكير الفلسفي، وإلى تلك الاختلافات الجذرية في المواقف إزاء الإشكاليات المتعلقة بالوجود، والمعرفة، والقيم، فهل يمكن اختزال كل تلك الاختلافات، والتناقضات في نموذج إرشادي أو براديغم واحد، ظل يمارس سلطته الابستمولوجية على وعي فلاسفة اليونان على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم؟ وإن كان هناك نموذج موحد، فكيف يمكن الكشف عن طبيعته وخصائصه؟ وقبل الخوض في هذه المسائل، هناك سؤال يتبادر بالطبيعة إلى الأذهان وهو: ما المقصود بالنموذج الإرشادي أو البراديغم؟

ما هو النموذج الابستمولوجي (البراديغم)؟

يقابل هذا المصطلح في اللغة الفرنسية (*modèle épistémologique*) وهو الفكرة نفسها التي ظل فلاسفة العلم يطلقون عليها التسميات المختلفة، فهي البراديغم عند كل من كوهن وإدغار موران، وهي الابستيمي عند ميشال فوكو، وهي برنامج البحث عند إمري لاكاتوس، وهي البنية عند جون بياجيه وهكذا.. يلعب البراديغم (*Paradigme*) في الوقت نفسه دورا خلفيا وسلطويا في كل نظرية، مذهبا كانت أو إيديولوجيا.

يتميز البراديغم أولاً بأنه لا واعي، ولكنه يغذي التفكير الواعي، ويشرف عليه، ووفق هذا المعنى، فهو فوق واع. أول ما ظهر هذا المصطلح ظهر في كتابات الفيلسوف الأمريكي توماس كوهن (1922- 1996) وبالتحديد في مؤلف "بنية الثورات العلمية" يرى أن البراديغمات تقود البحث عن طريق صنع صورة مثالية مباشرة، ومن خلال القواعد المجردة أيضاً. (1)

وخلاصة القول: إن البراديغم يؤسس العلاقات الأساسية التي تكوّن البديهيات، تُحدِّد التصورات، تحكم الخطابات والنظريات. وأخيراً فهو ينظم فيها النظام، ويولد فيها ما يتولد، أو يعيد توليده من جديد. (2) والأهم من ذلك كله أن البراديغم يبقى هو: الأرضية التي تدور فوقها مناقشات كثير من الفلاسفة في مدة قد تتجاوز العديد من القرون على عديد القضايا ولكن يبقى القالب هو نفسه. فالنموذج الإرشادي أو الابستمولوجي هو ما يجب على الفيلسوف أن يحفر ليجده. عناصره تمثل المسكوت عنه في الخطابات والنصوص. توجد بنيته على مستوى اللاوعي، وهي التي تؤسس لكل ما يتعامل معه الوعي على أنه بديهي، واضح، ومتميز، لا يحتاج برهاناً، ولا دليلاً لإثبات وجوده. وهو ما يسعى الابستمولوجي للكشف عنه. يعرّف جون بياجيه الابستمولوجيا بقوله: «نعني بكلمة "أبستمولوجيا" كل تفكير ينصب على طرق وأشكال وقوالب المعرفة (*modes*)، وليس على محتويات هذه المعرفة في حد ذاتها، إنها دراسة تدخل في إطار النقد، إنها تتعلق بدراسة

طرق وكيفيات التفكير[3]، ولا يتعلق الأمر هنا بالمعرفة العلمية فقط بل بالفلسفية الأخلاقية والدينية وغيرها.

ما هو نموذج التفكير الأنطولوجي عند فلاسفة اليونان؟

البحث عن الأساس/ ميزة الفلسفة

يتميّز التفكير الفلسفي منذ نشأته بميزة يجب على كل فيلسوف أن يأخذها بعين الاعتبار، تتمثل هذه الميزة في البحث عن الأساس، البحث عن نقطة الانطلاق (*le point de départ*)، عن نقطة ارتكاز ارخميدية يرتكز عليها عند تفسيره للوجود، أي تفسير هذا العالم الذي يحيط بالإنسان، من أجل أن يكون لهذا العالم معنى، يفهم الإنسان من خلاله كل هذه الاضطرابات والتغيرات التي تعتريه من جهة وهذه الأشياء المتكثرة من جهة أخرى.

وكلمة أساس في الأصل في لغة اليونان («ἀρχός = *arkhos*») لها معان عدة يجب أن نأخذها بعين الاعتبار عند تحليل الأساس في الفلسفة اليونانية منها: القديم، الأول، الحاكم، المراقب، الرئيس وغيرها.

لحظة طاليس/ بداية الفلسفة

يكاد يجمع مؤرخو الفلسفة على أن طاليس هو أول فيلسوف، أي أنه أول رجل فكّر بالمعايير التي نفهمها نحن اليوم عن الفلسفة. لقد بدأ في البحث عن أساس يستند عليه في عملية فهم الوجود من داخل الوجود ذاته، أي لابد أن يكون هناك كائن فاعل ينتمي إلى هذا الوجود، وهو أصل وعلة كل ما يحدث داخل الوجود. وهذا هو المعنى الذي يمكن فهمه من الأساس الأنطولوجي الذي كان البحث عنه نقطة بداية الفلسفة. لقد كان الفيلسوف الألماني نيتشه منشغلاً تماماً بالبحث في فكرة الأساس، وبالحفر عميقاً بحثاً عن الجذور، عن الجذور الأصلية التي تشكل نقطة البداية، وبالبحث تحديداً عن بداية البدايات، وإذا كان كل فيلسوف لا يبدأ بالتأمل في أي موضوع قبل أن يبدأ في التأمل في الفلسفة في حد ذاتها. فكيف بدأت الفلسفة؟ وما هي نقطة انطلاقها؟ وإذا كانت الفلسفة اليونانية هي نقطة البداية الرسمية للتفلسف – كما يجمع عن ذلك الفلاسفة الغربيون- فما هي بداية البداية؟ وكيف بدأت الفلسفة اليونانية؟ وفيما يتمثل هذا الأصل؟ كانت هذه الأسئلة وغيرها تدور باستمرار في خلد نيتشه، هذا الفيلسوف الألماني الذي يمكن أن نطلق عليه بحق فيلسوف الأسس التي تختفي وراء الأقنعة. يقول: «يبدو أن الفلسفة اليونانية تبدأ بفكرة غريبة: القضية القائلة بأن الماء هو أصل كل الأشياء. هل من الضروري حقاً أن نتوقف عند هذه الفكرة وأن نأخذها على محمل الجد**!**؟ .. بالتأكيد. وذلك لثلاثة أسباب: أولاً، لأن هذه الجملة تتناول بطريقة ما أصل الأشياء، ثم السبب الثاني، لأنها تتناوله دون صورة وبمعزل عن السرد الخيالي، وأخيراً، السبب الثالث، لأن هذه الجملة تتضمن، ولو بشكل جنيني، فكرة أن الكل هو واحد. وحسب السبب الأول، مازال طاليس ينتمي إلى طائفة المفكرين الدينيين والخرافيين، ولكنه يخرج عن هذه الطائفة للسبب الثاني، ويظهر لنا كمفكر في الطبيعة. أما السبب الثالث فإنه يجعل منه أول فيلسوف يوناني.» [4]

إذن فمن هذا النص النيتشوي الهام نرى أن بداية الفلسفة كانت مع طاليس بسبب أنه قد بحث في أصل الأشياء، وهذا أول مبرر لاعتبار طاليس أول فيلسوف، لأن البحث عن الأساس وتحديده، يشكل هذا العمل صميم البحث الفلسفي، وإن كانت الفلسفة تشترك مع الأسطورة في الانشغال بالبدايات المطلقة، في البدايات التي تتعالى عن كل تحديد في التاريخ، غير أن البداية في الأسطورة فيها إطلاق عنان للخيال، فيها حديث عن كائنات خارقة للوجود، تتمثل في بدايات وأصول تقع داخل دائرة اللامعقول، وهذا ما يجعلها غريبة تماماً عن الفلسفة، التي وإن شاركت الأسطورة في الانشغال بالبداية، لكن البداية في الفلسفة وما يترتب عنها من أفكار، فيها حرص أن يكون ذلك في دائرة المعقول، دائرة التبرير المنطقي والعقلاني، حيث تصبح علاقة الأصل بالوجود، علاقة مقدمة كبرى بما يترتب عليها من نتائج. إن أهم ما جعل نيتشه يقتنع بأن طاليس أول فيلسوف، هو ملامح فكرة أن الكل هو الواحد. وإذا كان التفكير الفلسفي هو تفكير بالمقولات، فإن اختزال الفيلسوف للكثرة في مقولة الواحد، لهو تعبير عن فكرة الأساس أو الأصل بمقولة الواحد، الذي تتلاشى عند حدوده كل المعاني التي يمكن أن تأخذها الكثرة. لقد كان اختيار طاليس الماء أصلاً للكون، لأنه هو العنصر الذي تلتقي عنده بقية العناصر، فإذا كانت عناصر الكون هي ماء وهواء وتراب ونار، فإن الماء هو الذي يمكن أن

يتحول إلى تراب كما نرى في طمي الأنهار، ويمكن أن يتحول إلى نار كما نرى في برق العواصف الذي يحرق الغابات، ويتحول إلى هواء كما نرى في الأبخرة التي بفضلها تتكون السحب القاتمة. ومنه فالماء هو العنصر الذي تشتق منه كل العناصر، وبِلُغة الفلسفة فهو الواحد الذي تتولد عنه كل كثرة. إن الأمر المُلاحظ في الفلسفة اليونانية أن طاليس هو الفيلسوف الوحيد الذي انفرد بالقول بأن الماء هو الأصل، هو أساس وجود كل الكائنات، لكن الأمر الأكثر أهمية أن الفلسفة اليونانية من بدايتها إلى نهايتها ما هي إلا تكرار لما قاله طاليس، الفلسفة اليونانية من الألف إلى الياء ما هي إلا استنساخ لفكرة واحدة، هي نفسها التي أراد من خلالها طاليس أن يكشف عن الأساس الذي يتولد عن كل الوجود. لقد ظل انشغال طاليس الفلسفي يمثل لاوعي فلاسفة اليونان، حيث يختفي وراء الستار ليوجه اهتمامات الفلسفة اليونانية الفكرية، ويجعلها تدور برمتها في فكرة واحدة، هذه الفكرة تتمثل في البحث عن الأساس الأنطولوجي للوجود.

تنوع الأساس الأنطولوجي

بدأ البحث في فلسفة اليونان بالبحث عن الأساس الأنطولوجي، لأن التفكير في الوجود كان بؤرة اهتماماتهم، ومحور تفكيرهم، لذلك نرى أن تناولهم لمختلف المواضيع الفلسفية متعدد، وإجاباتهم تختلف، تتناقض فيما بينها، ولكن تبقى الإشكالية المطروحة هي نفسها. والمُلاحَظ أن الفلسفة اليونانية قد عرفت نقاشات عديدة وتنوعا وتعددا في وجهات النظر في اختيار الأساس، يمكن اختصارها في ثلاث وفق المعيار الذي اتخذه أرسطو – ملخص الفلسفة اليونانية – في أنواع الوجود، حيث يميّز هذا الأخير بين ثلاثة أنواع للوجود؛ وجود «يتحرك ويسكن من ذاته» وهو: «الموجود القابل للحركة والذي لا يفارق المادة»، وهو ما يطلق عليه الوجود الطبيعي، ووجود: «لا يتحرك إلا أنه لا يوجد مفارقاً للمادة» وهو الوجود الرياضي، ووجود «أزلي، لا يتحرك ولا يوجد في مادة». وهو الوجود الإلهي أو الميتافيزيقي.[5] مما لا شك فيه أن هذا التقسيم قد نضج في تفكير أرسطو بعد استقرائه لمختلف محاولات الفلاسفة في البحث عن الأساس الوجودي الذي يفسر به ما يحدث في الوجود من كثرة وتغير. ووفق هذه الفكرة الأرسطية يقسم يوسف كرم الدور الأول من الفلسفة اليونانية، أي المرحلة من طاليس إلى أرسطو، إلى وقتين اثنين: ففي الوقت الأول –يقول- نرى ثلاثة اتجاهات متزامنة تمثل الوجهات الثلاث التي يمكن تبينها في الوجود، ويؤلف مجموعها الفلسفة الموضوعية: وهي الوجهة الطبيعية، والوجهة الرياضية، والوجهة الميتافيزيقية. ذلك أن الفكر يتجه أولاً نحو الخارج ويطلب حقيقة الأشياء؛ فإما أن يستوقفه التغيّر[..] فيدرك أن الأجسام المختلفة مصنوعة من مادة أولى هي محل التغيرات، فيبحث عن هذه المادة التي تتكون منها الأجسام، ثم تعود هي هي تحت التغيرات المتنوعة المتعاقبة، وإما يعنى بتركيبها، وشكلها، وترتيبها، ويعلم أن النظام في العدد، وإما أن يستعصى عليه تفسير التغير فينكره ويقول بالوجود الثابت، فالوجهة الأولى أخذ بها طاليس وأنكسيمندريس وأنكسيمانس، وهيراقليطس [..] والوجهة الثانية أخذ بها فيثاغورس، والوجهة الثالثة هي المدرسة الأيلية. في الوقت الثاني اجتاز العقل اليوناني أزمة عصيبة، هي أزمة السفسطائية، كان مركزها أثينا في أيام بركليس. شكك السفسطائيون في العقل وفي مبادئ الأخلاق، وحاربهم سقراط. [..] [6] ما يهمنا في هذا النص فكرتان أساسيتان؛ فكرة تتعلق: بتنوع الأساس الأنطولوجي الذي حاولت من خلاله الفلسفة اليونانية أن تفسر كل ما يحدث في الوجود، وهي تتضمن في الوقت نفسه أن هذا الأساس يجب أن يكون واحداً، وليس أكثر من ذلك، وفكرة تثبت مرور الفلسفة اليونانية بأزمة خانقة، وأن هذه الأزمة قد حدثت تحديداً في زمن السفسطائيين. نبدأ أولاً بفكرة تنوع الأساس الأنطولوجي عند اليونان، هذا الأساس الذي أخذ ثلاثة أشكال أو لها:

1- الأساس الطبيعي

لقد كانت البداية مع طاليس، وكان معه الماء هو أساس الوجود. والماء من الموجودات الطبيعية، أي التي تتحرك وتسكن من تلقائها. وبقي الحوار قائماً بين أقطاب المدرسة الأيونية حول أي العناصر الطبيعية جدير بأن يكون هو الأساس الذي يفسر ما يحدث في الوجود. وإذا استثنينا فكرة الأبيرون عند انكسمندريس يكون الأساس الطبيعي هو: الأساس الحسي لكل الأمور الحسية. وهنا يأخذ الأساس معنى العنصر البسيط، الذي منه تتشكل الأشياء. إن النقاشات

الساخنة بين أنصار الأساس الطبيعي قد انتهت إلى وقوع هذه المدرسة في **أزمة حادة، تمثلت هذه الأزمة تحديداً في فلسفة هيراقليطس القائلة بالتغير، حيث صرحت بأن أساس التغير هو التغير ذاته** [7]**، ولا وجود البتة لمفهوم الثبات. ويمكن التعبير عن منطوق هذه الأزمة، في أن الفلاسفة الطبيعيين قد انطلقوا ابتداء للبحث عن أساس التغير، لكنهم ما لبثوا إلى أن انتهوا إلى أن التغير هو أساس الوجود. أي أن التغير هو أساس ذاته. لكن مقولة الانفصال التي يأخذ بها براديغم التفكير اليوناني تفرض أن يكون الأساس منفصلاً عما يُراد تفسيره.**

2- الأساس الرياضي

لقد نظر الفيثاغورسيون إلى أن العالم: «نغم وعدد». والسؤال الذي يجدر بنا طرحه هنا هو: إذا كان العدد شيء مجرد، أو ما يمكن تسميته وجود الأذهان —على حد تعبير فلاسفة المسلمين- فكيف تسنى للفيثاغورسيين النظر إليه على أنه كائن انطولوجي، له حقيقة مستقلة عن الذات، أو بتعبير آخر له خصائص تؤهله ككائن يتمتع بالوجود؟

يعرف أرسطو العدد على أنه: موجود يوجد في المادة ولكنه لا يتحرك، (حسب نص سابق). فهو كائن له وجود مستقل عن الإنسان. كل تأملات المدرسة الفيثاغورسية، تتعلق بالأعداد (جدول فيثاغورس)، وبالهندسة (مبرهنة فيثاغورس)، وهي تأملات

في الأعداد المقدسة وفي التناسبات، تسلّم باختزال كل المعطيات المعقدة إلى معطيات بسيطة، فيها انتقال من المعقد إلى العنصري، أو بتعبير آخر من المتصل إلى المنفصل. كل عدد هو معطى عنصري، السلاسل العددية هي تجاور لعناصر منفردة؛ لا شيء مشترك بين العدد والتي يليه. الأشكال كذلك هي نتيجة ترابط معطيات بسيطة؛ من النقاط يمكن أن نرسم خطاً، ومن ترابط الخطوط نحدد المساحات ومن ترابط المساحات تتولد الأحجام وهكذا. وفي كل أمر بالانطلاق من المعطيات المنفصلة يمكن أن ننشئ مواضيع متصلة. [8] في هذا النص هناك اعتماد على مقولة الانفصال، يتحدد الوجود الأنطولوجي للشيء، لأن كل منفصل هو قائم بذاته، وله خواص مستقلة، تخصه هو فقط، دون غيره من الأشياء. يقول إخوان الصفا في رسائلهم، وهم من أتباع الفيثاغورسية: « اعلم أن ما من عدد إلا وله خاصية أو عدة خواص، ومعنى الخاصية أنها الصفة المخصوصة للموصوف الذي لا يشاركه فيها غيره، فخاصية الواحد أنه أصل العدد ومنشأه » [9] ولعل من أهم مبررات نظر الفيثاغورسيين إلى العدد على أنه كائن يتمتع بالوجود الأنطولوجي، هو ربطه بالهندسة أو علم المكان، ذلك لأن إخضاع الفيثاغورسيين العدد إلى الهندسة ناتج عن رمزهم للأعداد الحسابية بالنقط.. وكانوا يرتبون تلك النقط في أشكال هندسية كالمستقيم، والمثلث، والمربع، والمخمس، ومتوازي الأضلاع، فيحصلون بذلك على الأعداد المستقيمة والمثلثة والمربعة وهكذا، أي أنهم يحصلون على أشكال هندسية، وابتداء من هذه الأشكال يتوصلون إلى الأعداد، إذ وضعوا القواعد لكل شكل منها للحصول على ترتيب النقطة الأخيرة فيه الدالة على عدد أضلاع الشكل مهما كان امتداده وكبره. وإنه لمن السهل إدراك القاعدة العامة التي تعرف بها قيمة العدد n في أي شكل هندسي، فهي على سبيل المثال في العدد المثلث: $\frac{n(n+1)}{2}$، وفي العدد المربع: n^2 وهكذا. [10]

بقيت ملاحظة في غاية الأهمية تتمثل في أن الموقف الفيثاغورسي يتميز بنضج فكري يتجاوز مستوى طرح الأيونيين. ذلك أن السؤال الذي يطرح ابتداء على الأيونيين هو كالتالي: كيف تحددت الموجودات المحسوسة التي نشاهدها كهذه الشجرة وهذا الحصان من هذه المادة الأولى اللا محدودة؟ لا نجد عند الأيونيين جواباً شافياً، ولا يكفي القول بالانضمام و/الانفصال، أو التكاثف و/التخلخل، في بيان العلة في تحديد الأشياء. وهنا نرى الجواب واضحاً عند فيثاغورس، وذلك أن الشكل الهندسي "محدود" كالمثلث، أو المربع، أو المستطيل، أو أي شكل آخر من هذه الأشكال، وحدوده هي هذه الخطوط الخارجية. وهذا الشكل ثابتا ينطبق على جميع الأفراد.

وقد تطور هذا الشكل عند أفلاطون فأصبح المثال، وعند أرسطو فأصبح الصورة. وهذا هو فضل فيثاغورس في تاريخ الفلسفة إذ استطاع أن ينتزع الصورة المحدودة من المادة اللا محدودة، مما عجز عنه الطبيعيون الأُول، أو قل إن المدرسة الأيونية ركزت اهتمامها في المادة فقط، على حين أن فيثاغورس انصرف إلى الصورة وحدها. [11] أو إن شئت فقل بأن أساس التفسير الأنطولوجي كان عند الأيونيين هو المادة

ذاتها ؛ بحركتها ، وكثرتها وتغيراتها ، وأنظر كم يثير هذا الموقف من غرابة تنتاب التفكير أثناء عملية التفسير. انتقل تفكير الفيثاغوريين لما هو ثابت وساكن بالرغم من مرافقته للمادة المتحركة ، المتكثرة. وفي هذا الانتقال تبدأ معالم الميتافيزيقا في التحدد ، لأن الشكل (العدد) يمثل مظهر الوحدة داخل الكثرة ، إذ يمكن لكثير من الأشياء ، التي يمكن أن تكون لها أشكال مثلثة ، أو مربعة ، أو دائرية ، أن تغير هذه الأجسام من أشكالها وحركاتها ولكن يبقى في الذهن مثلث واحد ، له خصائص ثابتة خالدة. والكلام نفسه يُقال على الدائرة أو المربع ، أو النقطة ، أو المستطيل. وفي هذا الطرح بداية تفضيل رؤية المعقول على رؤية المحسوس ، إنها بداية الطريق الذي يضعنا فوق السكة ، إنها بداية التفكير الميتافيزيقي.

3- الأساس الميتافيزيقي

من خلال مناقشتنا لكل من الأساسين الطبيعي والرياضي للوجود ، نلمس أن هناك بعض المؤشرات في الفكر اليوناني على القول بالميتافيزيقا سواء في الموقف الطبيعي للمدرسة الأيونية كالقول: إن الكثرة أساسها الوحدة عند القول مثلاً بأن الماء هو أساس الوجود ، أو في الموقف الرياضي للفيثاغورسيين ، الذي تم تحليله في الفقرة السابقة. لكن البداية الحقيقية للميتافيزيقا كانت مع المدرسة الأيلية وبالضبط مع بارمنيدس. كيف كان مولد الميتافيزيقا مع نموذج التفكير الأنطولوجي اليوناني ؟

هناك مبدآن أساسيان قام عليهما نموذج التفكير الانطلوجي اليوناني هما: 1 مبدأ الانفصال و2مبدأ التناظر. وسوف نرى كيف كان لهما دور بالغ في تعزيز الأساس الأنطولوجي في تفكير الإغريق. يمكن الانطلاق ابتداء مع **أزمة الفيثاغورسيين ومقولة الانفصال، وكيف حدثت هذه الأزمة نتيجة اكتشاف عدم وجود الأساس الأنطولوجي الرياضي للوجود. وكيف كانت هذه الأزمة بداية جدية لانغماس الفكر اليوناني في التفكير الميتافيزيقي.**

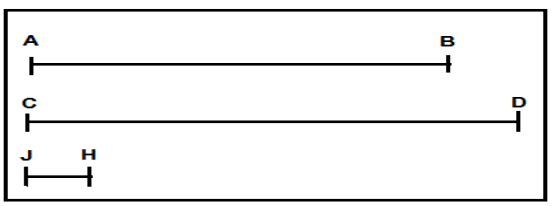

الشكل «1» عنوان الشكل والمصدر

حسب تفكير الفيثاغورسيين ، ووفق مقولة الانفصال يمكن أن يكون لأي قطعتين مستقيمتين غير متساويتين: [AB] و[CD] أساساً مشتركاً ، يمكن اعتباره كأساس للقياس ، يتمثل هذا الأساس في القطعة المستقيمة [JH] ، بحيث أن قسمة: [AB]/ [JH]= عدد طبيعي. وكذلك قسمة: [CD]/ [JH]= عدد طبيعي آخر. يمكن أن نقول في هذه الحالة أن القطعة[JH] أساس لتقايس القطعتين المستقيمتين ، أو ما يطلق عليه بالفرنسية (*La commensurabilité*) أي (mesure - commun) أو القياس المشترك. وهذا الأساس لا يكون الإنسان حراً في اختياره ، بل يتحدد بذاته في عملية القياس ، وهذا يعني أن هذا الأساس ذو الطابع الأنطولوجي ، ليس مجرد أمر معرفي يبتكره الإنسان ، بل هو شيء موجود ينبغي استكشافه. إن أزمة الفيثاغورسيين تتمثل في اكتشاف عدم وجود هذا الأساس. لقد كان لهذه الأزمة اليد الأطول في نضج التفكير الميتافيزيقي ، حيث لم يبق من بد سوى التفكير في الوجود الذي لا يتحرك ويكون مفارقاً للمادة. وكانت البداية مع بارمنيدس. ويكاد يجمع الفلاسفة أن بارمنيدس هو مؤسس الميتافيزيقا بمعناها الحالي.

ذهب بارمنيدس في قصيدته الشهيرة [12] أن الإنسان يقف في مفترق طريقين: طريق الظن ، ويقصد به طريق الحواس ، وطريق الحق ، ويقصد به طريق الحقيقة واليقين. من خلال هذا النص وغيره ، نفهم كيف أن اليونان لم تكن نظرتهم ابستيمولوجية للأمور ، بمعنى أن ما تقدمه الحواس والعقل للإنسان هي معارف ، أفكار ، وأن ما فيها من نقائص أو كماليات فهي لا تعود إلى طبيعة هذه الأدوات المعرفية ، بل يتعلق الأمر بطبيعة العالم الذي تنفتح عليه هذه الأدوات. الحواس والعقل — في تصور بارمنيدس- ما هما إلا طريقين يوصلاننا إلى عالمين مستقلين عنّا ، عالم كائناته متحركة ، متكثرة ، متغيّرة.. وبالتالي فهو عالم مظنون. وعالم له كائن واحد ووحيد هو الوجود ، وهو كائن ساكن ، ثابت ، أزلي.

نظر اليونان إلى الأفكار على أنها كائنات ، لها وجود موضوعي مستقل عن الإنسان. وبالتالي فالعقل ليس هو الذي يبدع الأفكار أو يتمثلها ولكنه يراها فقط. والفيلسوف وظيفته رؤية الأفكار مثلما ترى العين الأشياء المحسوسة ، وهذا ما نلمسه في تعريف أفلاطون للفلسفة ، وكذلك في تعريف

أرسطو الذي يحدد دور العقل ليس في إنتاج الأفكار بل في فصل الصورة عن الهيولى.

إنّ (الفكرة = الكائن) هي التي جعلت اليونان يتصورون أن فكرتنا عن الشيء هي الشيء نفسه ، ووفق مبدأ التناظر فإن استقلال المشهد (الصورة الحسية) عن العين ، حيث إنها قادمة من كائن ، فكذلك الفكرة (الصورة العقلية) مستقلة عن العقل. فإذا كانت العين تجعلنا نرى ونعيش العالم الحسي الفيزيائي ، فكذلك استعمال العقل يجعلنا نرى ونعيش عالماً مناظراً للعالم الفيزيائي وهو عالم الميتافيزيقا. إذن فمع طريق العقل نشأت الميتافيزيقا ، ووفق مبدأ الانفصال نشأت كعالم انطولوجي مستقل عنا ، ووفق مبدأ التناظر نشأت كعالم مناظر للعالم الفيزيائي ، كأساس أنطولوجي يقف وراء عالمنا المحسوس. يقول برغسون: «يبدأ تاريخ الميتافيزيقا في اليوم الذي أشار فيه زينون الإيلي للتناقضات المتعلقة بالحركة وبالتغيّر ، وذلك كما يتمثلها الذكاء أو العقل البشري» [13]

وإذا كان من نتائج الطرح الميتافيزيقي القول بمستويين منفصلين للحقيقة ، مستوى مزيف ، ظاهر للحواس ، ومستوى أصيل ، باطن ، ظاهر للعقل فقط. لكن مفارقات زينون الإيلي من أجل دعم الطرح الميتافيزيقي قد أوقعت الفلسفة في أزمة أدت إلى إنكار العلم الطبيعي والقول بالزمان والمكان ، علاوة على إنكار الكثرة من جهة [14] وإنكار الحركة من جهة أخرى. [15]

إذن فكل من الأسس الثلاثة انتهى بأزمة ، الأمر الذي جعل الإلحاح في البحث عن الأساس الأنطولوجي يتحرك وفق تيارين متنافرين تماماً ؛ تيار توفيقي يحاول تجاوز أعراض الأزمة في كل من الأسس الثلاثة ، وهو التيار الذي تمثله النزعة الذرية. وتيار متشكك يهدم الحقيقة من أصولها ، وهو التيار الذي تمثله النزعة السفسطائية. فكيف يمكن توضيح تعامل كل من هاذين التيارين المختلفين مع مظاهر وأعراض الأزمة ؟

النزعة الذرية / التوفيق بين عناصر الأسس الثلاثة:

ظهرت المدرسة الذرية مع مؤسسيها الأوائل لقيوبوس وديمقريطس في لحظة حرجة مر بها التفكير اليوناني تمثلت في أزمة البحث عن الأساس الأنطولوجي القادر بكل فعالية تفسير كل مظاهر الوجود.

تظهر الصلة مع المدرسة الإيلية من هذا النص الهام لثاوفراسطس تلميذ أرسطو عند حديثه عن لوقيبوس ، يقول: «لوقيبوس من ايليا أو ملطيا ، كان قد اتصل بفلسفة بارمنيدس ومع ذلك فإنه لم يتبع في تفسيره للأشياء الطريق عينه الذي اتبعه بارمنيدس واكسينوفان ، بل ذهب إلى العكس حسبما يبدو. ذلك أن بارمنيدس واكسينوفان قالا بأن الكل واحد ، لا متحرك ، غير مخلوق ومتناه [..] أما هو فقد قال بعناصر لا عدد لها ، دائمة الحركة ، سماها ذرّات.» [16]

إذن فهدف الذرّيين إثبات الحركة والكثرة اللذان أنكرهما الإيليون ، وفي هذا الطرح تجاوز للأزمة التي أوقع الإيليون الفلسفة فيها ، وفي الوقت نفسه تجاوز للأزمة التي وقع فيها أنصار الأساس الطبيعي ، والتي تنظر إلى الوجود على أنه كثرة وتغير ، ولا شيء وراء ذلك ، حيث ينظر الذريون إلى أن الذرة ، ككائن خالد وثابت ، هي ما يقف خلف كل تغير وكثرة. وفي طرح الخلود والثبات الكامنين خلف التغير والكثرة ، ما يتوافق مع طرح الإيلين. يرى أرسطو أن الإيليين قالوا بالوجود الثابت وأنكروا التغير ، لأن ذلك يستدعي القول بالخلاء ، ولما كان الخلاء عدماً ولا شيء ، فإن الحركة والتغير لا يمكن أن يكونا ، فلما رأى الذريون ذلك قالوا بما قال به الإيليون من أن الوجود أزلي ابدي ثابت لا يقبل التغير وقالوا أيضا إن الخلاء لا شيء. لكنهم قالوا من ناحية أخرى ، بعكس ما قال به الإيليون وهو: أن الوجود يحتوي أيضاً إلى جانبه العدم والخلاء ، وذلك لأنهم لم ينكروا التغيرات ولم يعدوها من خدع الحواس ، كما قال الإيليون ، بل قالوا إن التغير شيء حقيقي ، ولما كان شيئاً حقيقياً فيجب أن نبحث عن تفسيره ، ولما كان تفسيره لا يتيسر إلا عن طريق الخلاء ، فقد وجب القول بالخلاء. [17]

ومنه فإن خصائص الذرة هي نفسها خصائص الوجود الذي أشار إليه بارمنيدس ، حيث يتميز بالوحدة والبساطة والامتلاء. احتفظ لوقيبوس ببعض صفات الواحد البارمنيدي ، من حيث إنه أزلي لا يتغير ، وإن الوجود ملاء. فالذرة هي الواحد البارمنيدي ، ولكن يوجد منها عدد لا نهائي ، ولا يمكن أن تنقسم الذرة كما ذهب إلى ذلك زينون في إبطال الكثرة. ولكن لوقيبوس ينتقد الإيليين انتقاداً مراً في إنكارهم شهادة

الحواس ، ويقول: إن المجنون وحده هو الذي يزعم أن النار والثلج شيء واحد. [18]

ذهب لوقيبوس إلى أن العالم يتكون من مبدأين هما: الملاء والخلاء ، وهما يوازيان الوجود واللا وجود عند بارمنيدس ، غير أن بارمنيدس أنكر وجود اللا وجود الذي ترتب عنه إنكار الحركة والكثرة. أما لوقيبوس فقد سلم بوجود هذا اللا موجود (الخلاء) حتى يفسر وجود الكثرة والحركة. [19]

يبقى الآن السؤال: كيف يمكن التوفيق كذلك مع مبادئ الفيثاغورسيين ؟ الذرية والفيثاغورسية ؛ العدد هو: مبدأ الوجود عند الفيثاغورسيين ، وعند الذريين مبدأ الوجود هو: الذرة ؛ العدد لا يقبل الانقسام وكذلك الذرة ، الأعداد لا متناهية وكذلك الذرّات. النظام والترتيب الموجود هو: نسبة بين الأعداد عند الفيثاغورسيين ، وهو نسبة بين الأعداد عند الذريين. ويصف أرسطو مذهب الذريين في كتاب السماء ، فيقول: «وهناك أيضاً رأي آخر – وهو رأي لوقيبوس وديمقريطس من أبديرا- لا يمكن التسليم بنتائجه. فعندهما أن الأجسام الأولى (الذرّات) ذات عدد لا نهاية له ، وجرم لا ينقسم ، فلا يكون الواحد كثيراً ، ولا الكثير واحداً. وتتولد سائر الأشياء من تجمعها وحركتها. ولكن هذا الرأي يشبه أن يجعل الأشياء الموجودة في الخارج أعداداً أو مركبة من أعداد». [20]

كان الفيثاغورسيون يقولون بأن الأشياء أعداد ، أو أشكال ، وأن هذه الأشكال تشغل سطحاً ، فالأشكال الرياضية كالعدد المثلث أو المربع تقطع بحدودها هذا السطح ، فجاء لوقيبوس واعتمد على هذا التفسير ، وجعل الذرات أشكالاً ، ولكنها مادية طبيعية لا رياضية ، وجعل السطح الذي تشغله هو: "الخلاء". وهكذا يمكن أن نفهم كيف ذهب أرسطو إلى القول بأن الذرات أعداد. [21] هذا كل ما يتعلق بالمدرسة الذرية وتوجهها التوفيقي ، أما عن التيار التشكيكي فكيف يمكن أن نرى ملامحه وخطاطاته مع أقطاب النزعة السفسطائية ؟

السفسطائية/ معنى أزمة الفلسفة اليونانية

أن انتشار السفسطة في أثينا هو: تعبير صارخ عن الأزمة الحادة التي تمر بها الفلسفة في هذه المرحلة بالذات. وإذا كان فلاسفة أي فترة من فترات التاريخ يركزون في نقاشاتهم وبنائهم للأنساق والمذاهب على أساس محدد يتمثل في: الإشكالية الرئيسية التي تدور فيها كل نقاشاتهم ، فإذا دخلت الفلسفة في أزمة فهذا يعني أن هناك شك في جدوى الأساس ، وبالتالي جدوى الإشكالية الكبرى التي تجمع وتوحد نقاشاتهم.

والأزمة حالة مفاجئة يمكن أن تصيب النموذج الإرشادي ، لأن الذي يجعل النموذج في حالة قوة وثبات قدرته على توجيه واحتواء الإشكاليات التي تظهر في الواقع بشكل مفاجئ. هذا يعني أن النموذج هو: القالب الذي يحدد الشكل ، والبنية التي تُصاغ فيها كل إشكالية فكرية طارئة ، فإذا حدث عجز لأفراد المجتمع العلمي أو الفلسفي لتلك الفترة في صياغة المستجدات وقف الأساس ، القالب الفكري المُعد للتفسير يقع هذا الأخير في حالة أزمة. تقول يمنى طريف الخولي بأن ظهور الشذوذ تتلوه محاولة لاستكشاف مجاله ، والمواءمة بينه وبين النموذج الإرشادي ، ومحاولة تعديل أدوات النموذج. ولكن إذا بدا إسراف في هذا التعديل فهَاهُنا أزمة. والأزمة تعني ؛ أنه قد آن الأوان للخروج من سياق العلم العادي وتعديل النموذج ، ومن خلال فكرة الأزمة كمرحلة انتقال من نموذج إرشادي ، إلى نموذج لاحق لا تبدو المعرفة هنا بشكل تراكمي بل بشكل ثوري. [22] وإذا كان لكل أزمة أعراض فإن أزمة الفلسفة في كل عصر يمكن أن تتجلى في عرضين اثنين يتمثلان في استفحال النزعة الشكّية من جهة ، والبحث عن المنهج الذي يُخرِج من الأزمة من جهة أخرى ، المرحلة الأولى تمثل السفسطائية كمظهر لها ، والمرحلة الثانية هي مرحلة سقراط.

النزعة الشكّية: أهم ما ميّز مرحلة السفسطائيين هو سيطرة الشك المطلق ، ذلك الشك الذي عبّر عنه جورجياس[23] بقضاياه الثلاث: (1)- لا يوجد شيء. (2) - وإذا كان هناك شيء فالإنسان قاصر على إدراكه. (3) - وإذا فرضنا أن إنساناً أدركه ، فلن يستطيع أن يبلِّغه لغيره من الناس. [24]

وعبرّ عنه بروتاغوراس بمسلمتين أساسيتين هما: (1) - المبدأ الأول ينحصر في اعتبار الحواس هي مصدر المعرفة لا العقل. (2) - المبدأ الذي يعتبر الإنسان مقياس كل شيء. [25]

من خلال النظر في قضايا جورجياس ومقارنتها بمسلمتي بروتاغوراس يمكن الحصول على النتائج التالية:

(1) - ما دام الإنسان هو مقياس (أساس) كل شيء، إذن لا يوجد شيء، لأن وجود الشيء مقترن بأساس وبأصل انطولوجي، مستقل عن الإنسان. الشيء الذي أساس وأصل وجوده هو الإنسان لا وجود له. وبالتالي فهناك رفض قاطع لأن يكون الإنسان هو: مقياس للوجود، لأن قبوله يؤدي إلى التسليم بالأساس المعرفي.

(2) - وحتى وإن فرضنا وجوده، فالإنسان قاصر على معرفته، لأن الحواس هي مصدر معرفته، والحواس لا تقدم لنا إلا الكثرة والتغير. ومعرفة الشيء تتوقف على أساسه الواحد وراء الكثرة، الثابت وراء التغيّر.

(3) - وحتى وإن عرفه الإنسان فلن يستطيع أن يبلغه، لما تحتويه اللغة من ثغرات تجعل تحديد الأساس أمراً مستحيلاً.

إذن فإشكالية الوجود ترتبط بإشكالية المعرفة، وإشكالية المعرفة ترتبط بإشكالية اللغة.

سقراط / تعديل بنية الأساس الأنطولوجي

يبدو لكثير من الباحثين أن لحظة سقراط تشكل قطيعة معرفية مع ما سبقها من الفلسفة اليونانية، على أساس أنه قد حوّل اهتمام الفلاسفة من البحث في الطبيعة، إلى البحث في الإنسان. على أساس أنه قد نقل محور الاهتمام من البحث فيما هو خارج الإنسان إلى/ ما هو داخل الإنسان، والأبحاث التي قام بها سقراط في المستوى نفسه للأبحاث التي قام بها ديكارت في بداية القرن السابع عشر. السؤال: كيف يمكن تقييم اللحظة السقراطية بالنظر إلى لحظة طاليس؟ هل اللحظة السقراطية تشكل بحق لحظة انفصال وقطيعة معرفية ومنهجية مع ما سبقها؟ بصيغة أخرى: هل هناك انقلاب على الأساس؟

يقول ولتر ستيس: «فإذا كانت المشكلة المطروحة في المرحلة الأولى من الفلسفة هي أصل العالم، وتفسير الوجود، فإن المرحلة الثانية للفلسفة تبدأ بالسفسطائيين بطرح مشكلة وضع الإنسان في الكون. لقد كانت آراء الفلاسفة الأول في كليتها كونية. أما آراء السفسطائيين فهي إنسانية تماماً.» (26) ويقول يوسف كرم: «قيل عن سقراط إنه يشطر الفلسفة اليونانية شطرين: ما قبله وما بعده، ودعي ديكارت أباً للفلسفة الحديثة وعُدّ الحد الفاصل بين القديم والجديد في تطور الفكر الأوروبي. كذلك نقول عن كانط إنه يشطر الفلسفة الحديثة نفسها شطرين» (27) من خلال هذين النصين يتضح أن الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أرسطو قد حكمها نموذجان اثنان، الأول كسمولوجي، أي مركزه التفكير في الكون، والثاني مركزه التفكير في الذات الإنسانية. وأن أزمة الفلسفة التي حدثت في فترة السفسطائيين قد أدت إلى نهاية براديغم، وبداية براديغم جديد، كان تأسيسه مع سقراط، وشُيّد عليه مذهبا كبيران يمثلان الأفلاطونية ثم الأرسطوطاليسية. لكن التدقيق في الأمر يكشف أنه براديغم واحد من طاليس إلى أرسطو. المطلوب الآن: كيف يمكن إثبات هذه الحقيقة؟ أي كيف يمكن النظر إلى أن ما فكر فيه كل من سقراط، وأفلاطون، وأرسطو ما هو إلا امتداد للبراديغم الذي كان سائداً قبل سقراط، وهو النموذج الأنطولوجي؟

منهج سقراط / فهم المشكل وبداية حل الأزمة

يقول سقراط: «كل ما أعرفه، أني لا أعرف شيئاً». هذه عبارة يعترف فيها سقراط صراحة بجهله. والجاهل الواعي بجهله ويريد أن يخرج من هذه الوضعية، يجب أن يطرح الأسئلة على من يدعي علماً بالخطابة والجدل (السفسطائي). وهذا يعني أنه يجري حواراً، وإذا كان الحوار يتمثل في تبادل المعارف مع الآخر، فإنه يمثل من جهة أخرى تجاوزاً لكون الإنسان (الفرد) مقياساً للحقيقة، فإذا سلمنا بالطبيعة النقدية للحوار السقراطي المتمثل في التهكم، فإن هذا يعني تجاوز المعيار الذاتي كأساس للأشياء، لابد أن يكون المعيار (الأساس) مستقلاً عن المتحاورين، وكلما امتد الحوار حدث اقتراب من الأساس المُوحّد. عندما يسأل سقراط محاوره عن الجمال، يتلقى إجابات نابعة من الحواس، وكل حسب مقياسه، من الذي يرى أن الجمال يتمثل في زهرة، أو وجه امرأة، أو القمر. ولكن سقراط يتجاوز هذا المستوى الذي ينبع من مقياس ذاتي، لأن معرفته حسية. يتحول السؤال عن الجمال في حد ذاته، عن القواسم المشتركة التي تدخل في كل ما يمكن أن نحكم عليه بالجمال. والخلاصة أن الحوار السقراطي يبدأ من المعيار الذاتي لكل شخص، وينتهي إلى المعيار الموضوعي (الأنطولوجي) الذي يتجاوز كل شخص، يبدأ من مستوى المعارف الحسية وينتهي إلى مستوى المعرفة

العقلية الخالصة ، وأخيراً يبدأ من المعارف الجزئية المتكثرة وينتهي إلى معرفة كلية واحدة. وهكذا ينتهي الحوار إلى اختزال الكثرة في مقولة الوحدة ، وهذه هي الفكرة الأساس التي تمثل نقطة الانطلاق في الفلسفة اليونانية. والنتيجة أن أهمية منهج سقراط الحواري يتمثل في دحض مقولة جورجياس التي تسلم بعدم إمكانية التعبير عما نعرفه. لقد كانت أهمية سقراط في تاريخ فلسفة اليونان في ربطه بين المفهوم (الشق المعرفي) والتعريف (الشق اللغوي). يقول ولتر ستيس معبراً عن هذا: «وطالما أن سقراط يضع المعرفة كلها في المفاهيم ، إنما يجعل العقل أداة المعرفة ، بخلاف السفسطائيين الذين وضعوا المعرفة كلها في الإدراك الحسي. ولما كان العقل هو العنصر الكلي في الإنسان فإنه يترتب على التوحيد بين المعرفة والمفاهيم أن سقراط يستعيد الإيمان بالحقيقة الموضوعية الصادقة بالنسبة للجميع ، والملزمة للجميع ، والمدمرة للتعاليم السفسطائية القائلة: إن الحقيقة هي ما يختاره كل فرد على أنه حقيقي». [28] ثم يستطرد بعد ذلك قائلاً: «والتعريف هو نفسه المفهوم ؛ حيث يتكون بالطريقة نفسها ، وذلك بإدراج الصفات العامة لفئة الأشياء واستبعاد الصفات التي يختلف فيها أعضاء الفئة. والتعريف في الحقيقة هو مجرد التعبير عن المفهوم بالكلمات. ونحن بعملية تثبيت التعريفات نحصل على معايير موضوعية للحقيقة. [29]

من إشكالية اللغة إلى إشكالية المعرفة

يؤدي الوصول إلى الحد الكلي إلى ضبط التصور ، وبالتالي إلى المعرفة. يتمثل التهكم في تذليل صعوبات الإشكالية اللغوية. كما يتمثل التوليد في اختزال المشكلة اللغوية في مشكلة معرفية. إن التلاعب بالألفاظ وإثبات الشيء ونقيضه هو ضرب من الكذب ، وبالتالي فحلُّ الإشكال والوصول إلى المعرفة هو نوع من الفضيلة ، والجهل هو نوع من الرذيلة.

يبدو للقارئ لفلسفة سقراط أن هناك نسيانا للقضية الأساسية المتمثلة في البحث عن المعيار ، البحث عن الأساس الأنطولوجي للوجود ، خصوصاً عندما نكتشف أن انشغال سقراط الرئيسي تعلق بالمسائل الأخلاقية لا الطبيعية. السؤال: كيف يمكن تفسير هذا الإهمال أو هذه اللامبالاة بالمسائل الوجودية الطبيعية ؟

إذا سلمنا بأن البراديغم أو الابستيمي الذي يوجه انشغالات الفلاسفة اليونان القدامى يمكن تلخيصه في العبارة التالية: «البحث عن الأساس الأنطولوجي للوجود» فيجب أن ننتبه إلى نقطة في غاية الأهمية ، تتمثل في أن هذا البراديغم يظل يمارس تأثيره اللاواعي على الانشغال السقراطي ، وعلى انشغال غيره من الفلاسفة. لكن هذا لا يعني أن البراديغم لا يتفاعل مع مختلف اللحظات الراهنة التي يمر بها الواقع الثقافي والاجتماعي للمجتمع ، لأن الوعي بقدر ما يتأثر بتوجيهات اللاوعي يتأثر كذلك باللحظة الراهنة التي يعيشها الفيلسوف ؛ فإذا كانت إشكالية البحث عن الأسس الأنطولوجية تراود سقراط ، وتشكل محور تفكيره غير أن واقع أثينا في ذلك الزمان منشغل بالأساس بالديمقراطية ، وبحرية التعبير ، وبمختلف المسائل الإنسانية التي تخص حياة المواطن داخل المدينة ، الأمر الذي جعل البحث في الطبيعة وفي أسس الوجود من المسائل التي لا تحظى بالاهتمام كلام مبتور ، فوقعت الفلسفة في تلك الفترة في أزمة حادة ، نتيجة عدم قدرة الفكر (الوعي) اليوناني على التوفيق بين براديغم التفكير وما استجد من أحداث على مستوى الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي. وتعدّ فلسفة سقراط ، ليس على مستوى المنهج فقط ، بل على مستوى الموضوع ، محاولة جريئة ونظرة فلسفية ثاقبة تجعل من براديغم التفكير اليوناني يرتدي قناعاً جديداً يجعله ملائماً لطبيعة اللحظة السقراطية. لقد صرف سقراط الاهتمام بالمسائل الطبيعية وكرّس جهده وانشغاله الأساسي بالمسائل الأخلاقية. إذا كان الاهتمام بالمسائل الطبيعية يجعل الفيلسوف يوجه أنظاره إلى كثرة الظواهر الطبيعية وتغيرها من أجل الوقوف على أساس يفسر هذه الكثرة ويردها إلى وحدة تجمع بين كل العناصر المتكثرة ، وهو ما سبقت الإشارة إليه ، فإن الاهتمام بالمسائل الأخلاقية يجعل الفيلسوف يوجه أنظاره إلى كثرة السلوكيات البشرية ، وتغيرها من شخص لآخر ، خصوصاً إذا كان كل واحد يعدّ نفسه مقياساً للحقيقة بمفرده ، وذلك من أجل الوقوف على الأساس الواحد ، الثابت ، المشترك بين الجميع ، والذي يمكن أن يحكم سلوكهم وتصرفاتهم ، ويختزل هذه الكثرة في مبدأ الوحدة ، في مبدأ مفارق للجميع ، وبتعبير دقيق في أساس انطولوجي للأخلاق. ومن هنا نفهم كيف أن سقراط لم يخرج عن حدود البراديغم الذي رسم طاليس

حدوده ذات يوم، لكن ما يراه بعض مؤرخي الفلسفة على أنه انشطار في الفكر اليوناني وقطيعة ابستيمولوجية، لا أراه أنا شخصياً سوى استبدال عناصر معينة داخل بنية فكرية ثابتة. وبناء على هذا فيمكن قراءة فلسفة سقراط على المستوى المنهجي كردة فعل على قضايا جورجياس الثلاث. هذه القضايا تعبير ووصف للأزمة التي وقعت فيها فلسفة اليونان، ومنهج سقراط ما هو إلا ردة فعل نقدية منهجية تخرج هذه الفلسفة من أزمتها من جهة، وتعيد الأمور إلى نصابها من جهة أخرى. فإذا كان جورجياس يقرر إشكالية تقرير الوجود ويربطها بإشكالية معرفته، وإشكالية معرفته بإشكالية التعبير عنه. فإن سقراط قد انتبه إلى أن حل إشكالية الوجود يبدأ بإشكالية اللغة، لأن حل هذه الأخيرة يحل إشكالية المعرفة، وحل هذه الأخيرة يحل إشكالية الوجود، لكن سقراط استبدل إشكالية الوجود بإشكالية الأخلاق، لأن الواقع الراهن قد استبدل اهتماماته بالطبيعة إلى اهتماماته بالإنسان. إن أزمة الفلسفة اليونانية في لحظة سقراط تتمثل في أزمة الفشل الذريع في إيجاد أساس انطولوجي يفسر الوجود، ولعل بلوغ جورجياس مرحلة اليأس من وجود الأساس أدى إلى رفض الوجود، والوقوع في الشك المطلق، ثم يختزل إشكالية الوجود في إشكالية المعرفة، ثم في الأخير يختزل إشكالية المعرفة في إشكالية اللغة. ولذلك أصبحت اللغة أداة يُثبت بها وجود الشيء وعدم وجوده. وأصبح الانشغال الأكبر بمسألة اللغة. ماذا كان السفسطائي يعلم الناس؟ كان يعلمهم البلاغة والخطابة والجدل. وكلها مواضيع تدور في اللغة، لكن كل هذا يعكس إدراك السفسطائيين لأهمية اللغة في الخروج من الأزمة التي وقعت فيها الفلسفة، ولكن التلاعب بالمعاني، وبالألفاظ جعلهم لا يخرجون من عنق الزجاجة. والذي يرجع له الفضل في إخراج الفلسفة من أزمتها هو سقراط. لقد أدرك هذا الأخير أن المنهج النقدي المنصب على اللغة وعلى أساليب القول هو الذي يفضح المتلاعبين بالألفاظ، ويؤدي لا محالة إلى تحديد المعنى تحديداً دقيقاً، يمكّن من ضبط التصورات. وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى حل إشكالية المعرفة.

أفلاطون/ من إشكالية المعرفة إلى إشكالية الوجود:

نرى في فلسفة أفلاطون تناظرا بين المعرفة و/ الوجود. وسنرى بعد هذا كيف يحاول أفلاطون في منهجه "الجدل الصاعد" أن ينتقل من إشكالية اللغة إلى إشكالية المعرفة، متأثراً في ذلك بأستاذه سقراط، ثم يحوّل إشكالية المعرفة إلى إشكالية الوجود، من خلال إعطاء المثل بعداً انطولوجياً، وجعْل العالم الذي توجد فيه المثل عالماً مستقلاً عن عقل الإنسان.

وبالمِثل فإذا كانت العين تبصر الأشياء الموجودة في العالم الخارجي فإن العقل كذلك يبصر الأفكار بصفتها كائنات توجد في عالم المثل، وبهذا كان تعريف الفلسفة، فإذا كانت الفلسفة هي رؤية بالعقل، فإن هذه الرؤية هي رؤية للأساس المُفارق، رؤية للأساس الذي يفسر ما تراه العين من أشياء محسوسة في عالم الواقع. وبعد أن يطمئن أفلاطون إلى المثل بصفتها كائنات لها وجود موضوعي، انطولوجي، يمكن النظر إليه كأساس موضوعي لكل ما في عالم الواقع، يقوم بعد ذلك من خلال الانتقال من إشكالية الوجود إلى/ إشكالية الأخلاق.

ويعتمد أفلاطون على مبدأ التناظر، حيث إن كل شيء في الوجود (في عالم الحس) له مجموعة كبيرة من الصفات، بعضها ثابت والبعض الآخر متغير؛ الصفات المتغيرة لا أهمية لها، بينما الصفات الثابتة هي التي تمثل ماهية الشيء؛ ففي عالم الحس، نجد ما لا حصر له من الأحصنة، مختلفة الألوان والصفات والأحجام. ولكن هناك صورة، شكل (eidos)، مشترك، يوجد في (**كل**) الأحصنة، ويبقى (**ثابتاً**) في الحصان رغم كل التغيرات التي تحصل له. هذا الكلي (الذي يختزل الكثرة في الوحدة)، وهذا الثابت (الذي يتحدى التغير) هو الذي يمثل الحقيقة.

وبناء على هذه الفكرة، ظهر ما يسمى بالأنواع والأجناس، فعن طريق استقراء الأفراد، نصل إلى مفهوم النوع (الصورة المشتركة بين الأفراد)، ومفهوم الجنس (الصورة المشتركة بين كل الأنواع). وجنس الأجناس (الصورة المشتركة بين كل الأجناس). وعن طريق هذا التراتب في الوجود، صنف أفلاطون المثل وحدد علاقاتها ببعضها وجعل أعلاها تماماً هو: الخير. فكلّما يكون المثال أكثر صدقاً يكون أكثر حقيقة؛ فحقيقة الجمال أكثر من كل الأشياء الجميلة.

من خلال الشكل «2» نرى كيف يبدو التناظر بين المعرفة و/الوجود.

(30)

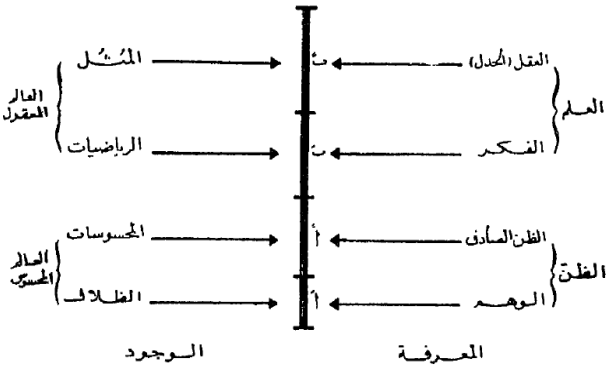

الشكل «2» عنوان الشكل والمصدر

أرسطو/ تلخيص فلسفة اليونان وفق أساسها الوحيد:

ينطلق أرسطو من العالم الحسي، الذي نراه بحواسنا التي تقدم لنا صوراً حسية متغيّرة ومتكثرة، التي يجب في الوقت نفسه أن نراها بعقولنا. يرى أرسطو بأن ماهية هذا العالم الحسي تتمثل في أنه عالم مركب، وليس عالماً بسيطاً، خلافاً لما ذهب إليه الطبيعيون الأوائل (طاليس، انكسيمان، هيراقليطس، انباذوقليس)، الذين اكتفوا بالبحث عن العلة المادية للأشياء. ووفقها نحن عاجزون عن تأويل ظاهرة التغيّر، أو الصيرورة في الكون، ما لم ندخل علة فاعلة إلى جانب العلة المادية (كالعقل الذي قال به انكساجوراس، أو الحب و/الكراهية اللذين قال بهما أنباذوقليس) وهكذا دفعوا بالفلسفة قدماً وارتفعوا بها عن صعيد المادية المحضة. إلا أنّهم غفلوا عن العلة الصورية (الماهية أو الجوهر) والعلة الغائية.

أشار أفلاطون إلى العلة الصورية في وضعه للمثل. أما العلة الغائية، فلم يفصح عنها القائلون بالمثل من جهة، أو القائلون بالعلل الفاعلة من جهة أخرى. وهذا يعني أن أرسطو هو صاحب الفضل في التنبيه لأهمية هذه العلة. (31)

خاتمة/ ضبط الأساس الأنطولوجي: لا نضع لها عنوان وإنما نتحدث عنه داخلها. يحذف العنوان من الخاتمة.

إذا نظرنا إلى الفلسفة اليونانية على أنها مجموعة من الخطابات، هذه الخطابات تمثلت في مجموعة من النصوص كُتبت في مراحل متلاحقة في تاريخ هذه الفلسفة، وكتبت بصيغ مختلفة، وكان التعبير عن الأساس الأنطولوجي بأشكال مختلفة يخال معها الباحث البسيط أن: الفلسفة اليونانية قد عرفت انشغالات مختلفة واهتمامات جعلتها تشكل انقطاعات أو تحولات ابستيمولوجية جذرية في تاريخ هذه الفلسفة، لكن الواقع أن الفلسفة اليونانية — في تصوري الشخصي- قد عرفت نضجاً وتعميقاً كبير لإشكالية الأساس الأنطولوجي التي طرحها طاليس، وبقي الهيكل الصلب لهذه الفلسفة ثابتاً، لم يعرف البتة الانفصام. وتمثل هذا الهيكل في نموذج الأساس الأنطولوجي الذي كرس توجيهه للتفكير الفلسفي اليوناني، بالاعتماد على آليتين دقيقتين تمثلتا في: مقولتي الانفصال و/التناظر. يقول فندلبند في هذا المضمار: إن علم اليونان خصص حياته الأولى وما لها من قوة شباب لدرس قضايا الطبيعة، وأغفل البحث في أعمال الفكر، واكتفى بالبحث في العالم الخارجي. فكان أهم ما اهتمت به تلك الفلسفة مسائل الطبيعة والفلك والجغرافيا، وعلى الخصوص الظواهر الأساسية العظمى، ثم تدرجوا بعد ذلك في البحث، فلم يقصروا نظرهم على الأعمال الطبيعية المادية، بل حاولوا معرفة الأساس الذي يطرأ عليه التغير، والبحث في التغير ومعرفة أساسه هو المحور الذي تدور فيه النظريات الفلسفية، ويشمل أعظم القضايا الأساسية التي يبحث عنها علم ما بعد الطبيعة.

وهذا التغير — أعني أن الأشياء يتحول بعضها إلى بعض- هو الذي بعث على التأمل والنظر، وحمل فلاسفة اليونان على الجد في تقرير قواعد لهذا العالم القَلِّب الحَوَّل الذي قد تتغير فيه الأشياء فجأة إلى أضدادها. (32) ويرى اشبنجلر من جهة أخرى أن: الروح اليونانية كانت مرتبطة باللحظة الحاضرة، وليس بالماضي، أو المستقبل، ومن هنا تسود عندها فكرة؛ السكون، والنتيجة هي النفور من فكرة اللا تناهي، وإيثار فكرة المتناهي. من جهة أخرى تمتاز الروح اليونانية بخاصة الانسجام، (33) ومن المؤكد أن يكون الأساس متجذراً في الحاضر، وتبقى خصوصياته مرافقة للوعي مهما تقدم الزمن.

الهوامش

1. توماس س. كون: بُنية الثورات العلمية ، ت: حيدر حاج إسماعيل ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 2007 ، ص 117

2. Edgar Morin : Les sept savoirs nécessaires à l'éducation du futur, Seuil, UNESCO, Paris, 1999, p9.

3. Cité par : Jean Milet, Ontologie de la différence ; une exploration du champ épistémologique, Editions Beauchesne, 2006, p 23 (bas page)

4. فريدريك نيتشه: الفلسفة في العصر المأساوي الأغريقي ، ت: سهيل القش ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 2 ، 1983 ، ص 46.

5. ماجد فخري: أرسطو ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، بدون طبعة ، 1958 ، ص21

6. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية ، مطبعة لجنة التأليف والطباعة والنشر ، 1936 ، ص ص 9 — 10

7. Héraclite : Fragment : 36, In : Textes Des Grands Philosophes ; Antiquité, Roger Verneaux, Beauchesne éditeur, Paris, 1962, pp 6- 8

8. Jean Milet : Ontologie de la différence ; Op. cit., p 35

9. رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء ، دار المحرر الأدبي ، 1928 ، ص 70

10. مُحَمَّد ثابت الفندي: فلسفة الرياضة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1969 ، ص35.

11. أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط ، دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى ، 1954 ، ص 84.

12. أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ، مرجع سابق ، ص ص 129 — 130

13. Henri Bergson : La pensée et le mouvant, Presse Universitaire de France, 3ème éd., 1990, p 8

14. Edouard Zeller : La philosophie des grecques, t2, trad. De L'allemand par Emile Boutroux, Hachette, Paris, 1882, pp 73-77.

15. Edouard Zeller : La philosophie des grecques, Op. cit., pp 77-79 .

16. أنظر: عزة قرني: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون ، جامعة الكويت ، 1993 ، ص 75

17. عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة ، ج1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1984 ، ص 507

18. أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ، مرجع سابق ، ص 213

19. أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ، مرجع سابق ، ص 214

20. أحمد فؤاد الأهواني: أفلاطون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، 1991 ، ص 212

21. أحمد فؤاد الأهواني: أفلاطون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، 1991 ، ص 213

22. يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين ، عالم المعرفة ، الكويت ، العدد: 264 ، ديسمبر2000 ، ص 402

23. جورجياس (480 ق.م- 375 ق.م)، ولد في ليونتيوم ، وتتلمذ على يد انبادوقليدس ، واشتغل بالطبيعيات. اهتم باللغة والبيان ، فكان أفصح زمانه وأبلغهم. جاء إلى أثينا يطلب العون لمدينته على أهل سراقوصة ، فأعجب الناس بأثينا ببلاغته.

24. فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة ، ج1 ، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط1 ، 2002 ، ص 149

25. ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 ، 1991 ، ص ص 54- 55

26. ولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية ، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1984 ، ص 97

27. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، 1986 ، ص 208

28. ولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية ، مرجع سابق ، ص 126.

29. ولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية ، مرجع سابق ، ص 126.

30. أحمد فؤاد الأهواني: أفلاطون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، 1991 ، ص 82

31. ماجد فخري: أرسطو ، مرجع سابق ، ص ص 17- 18

32. نقلاً عن: أ. س. رابوبرت: مبادئ الفلسفة ، ت: أحمد أمين ، مؤسسة هنداوي ، القاهرة ، 2012 ، ص 62.

33. عزة قرني: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون ، مرجع سابق ، ص 13

L'écriture de l'Histoire et de la névrose dans Hôtel Saint-Georges de Rachid Boudjedra.

The wrinting of History and neurotic states for St. George's Hotel by Rachid Boudjedra

Date de réception : 2019-06-11 Date d'acceptation : 2019-04-12

Tassadit Dahmani, Université d'A. Mira de Béjaia
dahmanitassadit@live.fr
Souhila Ourtirane Ramdane, Université d'A. Mira de Béjaia
souhila.ramdane@yahoo.fr

Résumé

Notre article traite de l'écriture des « états névrotiques » de certains personnages dans Hôtel Saint-Georges[1] de Rachid Boudjedra. Ces personnages évoluent dans une double temporalité diégétique : le temps colonial, à savoir la guerre d'Algérie, et le temps post-colonial, en l'occurrence la période allant de l'indépendance à 1988. L'Histoire est dès lors au fondement du récit de R. Boudjedra. Notre perspective de lecture est immanente en ce qu'elle met l'accent sur des procédés internes à l'œuvre. Il s'agit, particulièrement, d'une lecture sémiotique qui s'intéressera aux rapports des signes narratifs aux référents historiques que nous n'envisageons pas toujours en termes d'adéquation en ce que notre hypothèse de lecture consiste à considérer l'expression des « états névrotiques » dans Hôtel Saint-Georges[2] comme une façon détournée de raconter l'un des épisodes les plus importants de l'histoire de l'Algérie, appelé communément par les livres d'Histoire, la guerre d'Algérie. Une guerre que raconte R. Boudjedra à partir du point de vue du psychotique que les documents officiels ignorent souvent. Par ailleurs, les souffrances physiques et les conflits psychologiques ont pour conséquence, dans un contexte de guerre, une violence thématique et textuelle inouïes.

Mots clés *:* personnages, isotopie, Histoire, névrose, traumatisme, violence.

Abstract

Our essay deals with the writing of « neurotic states » of somme characters of novel « St. George's Hotel » by Rachid Boudjedra. These characters develop in a double diegetic temporality: colonial time, ie, during, during the algérian war of libération, and postcolonial times, from indépendence to1988. History is therfore the basis of Boudjedra's text. Our horizon is immanent by focusing on the internal processes of literary work. It is a semiotic reading that will focus on the relationship of narrative signs to historical referents that we do not always consider in terms of adequacy with wath our reading hypothesis considers as the expression of « neurotic states » in the St. George's Hotel novel, as a twisted way to describe one of the most important episodes of algerian history, called the algerian war. A war that Rachid Boudjedra tells from a psychotic perspective that is often overlooked by official documents. Furthermore, the physical pain and psychological conflit were result violence thematic and textual for a war context.

Keywords : characters, isotopy, history, neurosis, trauma, violence.

الملخص

يعالج مقالنا كتابة " حالات العصاب " لبعض شخصيات رواية " فندق سان جورج " للكاتب رشيد بوجدرة. التي تتطور عبر الزمن في اتجاهين: الزمن الحكائي الكولونيالي أي إبان حرب التحرير الجزائرية ، وزمن ما بعد الكولونيالي ، أي الفترة الممتدة من الاستقلال إلى سنة 1988 ، وعليه فإن التاريخ هو أساس نص رشيد بوجدرة. إن أفق قراءتنا داخلي كونه يركز على الآليات الداخلية للعمل الأدبي ويتعلق الأمر بخاصة بالقراءة السيميائية ؛ التي تهتم بالعلاقة الموجودة بين الرموز السردية والمرجعيات الثقافية ، التي لا نتصورها دائما من حيث توافقها مع ما تعدّه فرضيتنا للقراءة تعبيرا عن" حالات عصاب " ، في رواية" فندق سان جورج" كطريقة ملتوية لسرد إحدى أهم حلقات التاريخ الجزائري ، التي تسميها كتب التاريخ بحرب الجزائر. وهي حرب يرويها رشيد بوجدرة انطلاقا من منظور ذهاني ، غالبا ما تغفل عنه الوثائق الرسمية. زيادة على هذا ، فإن تأثير المعاناة الجسدية والصراعات النفسية على النص في سياق الحرب هو عنف موضوعي ونصي حاد.

الكلمات المفاتيح: شخصيات ، نظائر ، تاريخ ، صدمة نفسية ، عنف.

Introduction

Après plusieurs lectures du roman *Hôtel Saint-Georges*[3], notre attention a été interpelée par les personnages qui sont, d'une part, engagés dans une guerre sans merci, la guerre de libération de l'Algérie, d'autre part, ils sont révélateurs d'une société en proie à des traditions désuètes et à une tyrannie patriarcale. Ils entretiennent un discours dénonciateur de ces habitudes qui portent atteinte à « la santé mentale des personnes ». Ce tiraillement entre les atrocités de la guerre et la pression sociale trouve sa pleine expression dans ce que nous considérons comme des « états névrotiques » ou des « pathologies psychiques » qui s'imposent dans le texte de R. Boudjedra comme une caractéristique commune à ses personnages. C'est ce qui nous a amené à nous intéresser à ces « états » pour tenter de répondre à la problématique qu'articulent ces deux questions :

Comment sont représentés les états névrotiques dans *Hôtel Saint-Georges*[4] de R. Boudjedra ? Et quels en sont les enjeux pour le traitement de l'Histoire ?

Notre étude ne prétend pas s'inspirer de la critique psychanalytique dans la mesure où elle ne traite ni de la psychologie de l'auteur, ni de l'inconscient du texte. Ces voies de recherches seraient d'un apport certain pour la compréhension du texte *Hôtel Saint-Georges*[5] mais ce n'est pas ce que nous privilégions dans notre article car notre objectif est l'examen des modalités d'appropriation du texte de R. Boudjedra des données historiques. Il nous parait ainsi probant de nous orienter vers la sémiotique pour mettre en relief la signifiance du texte de R. Boudjedra. Nous nous proposons, dans un premier temps, d'identifier les personnages qui intéressent notre propos, et d'analyser leur discours pour mettre en évidence le processus de construction de l'isotopie de la névrose. Nous nous attacherons, dans un deuxième temps, à la mise en relation de l'écriture de la névrose dans *Hôtel Saint-Georges*[6] au référent historique pour identifier le message dont est porteuse cette écriture. Enfin, nous nous intéresserons aux états de la violence dans le texte de Rachid Boudjedra en tant que conséquence directe de la névrose et de la conjoncture historique, autrement dit la guerre de libération de l'Algérie.

Jean, Nabila et Kader et l'isotopie de la névrose dans Hôtel Saint-Georges

Dans *Hôtel Saint-Georges*[7], les personnages focaux s'imposent non pas par un « faire » qui fait avancer l'histoire mais par un « être » que reflète leur « portrait moral ». Lequel portrait est structuré autour des traumatismes et des troubles « psychiques » dont ils « souffrent » et que nous interprétons en termes de névrose. Gaspari-carrière Françoise affirme à ce propos que la névrose est :

« Une maladie de la personnalité caractérisée par des conflits intrapsychiques qui transforment la relation du sujet à son environnement social en développant des symptômes spécifiques en lien avec les manifestations de son angoisse. » et « tout ce qui portera atteinte à la structure familiale (décès, abandon, séparation, naissance d'un puîné, remariage, difficultés matérielles trop importantes du milieu social, etc.) peut déclencher des troubles névrotiques ou caractériels »[8].

Dans le roman de R. Boudjedra ces troubles se manifestent le plus souvent dans le discours de ces personnages qui est marqué par des termes itératifs fortement révélateurs de la dimension dysphorique dans laquelle ils évoluent. Dès lors, il nous parait impératif de mener une analyse isotopique d'extraits de ce discours en nous intéressant particulièrement à la redondance des sèmes qui sous-tendent l'« isotopie de la névrose ». L'isotopie est *« un fait de redondance linguistique… une récurrence syntagmatique du même sème ou groupement de sèmes »*[9]. Autrement dit, il s'agit d'une *« itération d'unité linguistique »*[10] tel que A. J. Greimas l'a défini. C'est donc une technique d'écriture qui annonce l'existence d'un même sème dans plusieurs énoncés d'un texte. Ainsi, les relations qu'entretiennent ces sèmes assurent la cohérence d'un texte. Par ailleurs, le sème est défini comme étant *« l'unité minimale de signification, non susceptible de réalisation*

indépendante, et donc toujours réalisée à l'intérieur d'une configuration sémantique. »[11]. L'isotopie est donc un groupe de sèmes qui rend le texte accessible sur le plan sémantique.

Les personnages cités plus haut sont *Jean*, *Nabila* et *Kader*.

Jean est l'un des personnages principaux du roman *Hôtel Saint-Georges*[12]. C'est un Français qui est amoureux du bois. A ce propos, il dit :

« J'ai fait l'école de Boulle par passion du beau bois. Le bois noble me donne des sensations fortes. Il me donne le tournis. Le vertige. Des orgasmes presque. »[13].

Formé en ébénisterie, l'Algérie transforme ses rêves en un véritable cauchemar. *Jean* présente les marques d'une réaction apparente à des évènements traumatisants. Il s'agit des symptômes de la névrose. En effet, victime d'un traumatisme de guerre et étant toujours sous l'effet d'un stress post-traumatique, il est parfaitement conscient de ce qui se passe en Algérie, de ce que l'armée française lui fait faire et de ce qu'il subit contre sa volonté. Il confie à sa fille *Jeanne* :

«Et puis on me confia cette saleté de menuiserie qui sentait le bois mort, les cadavres morts, la nature morte, la vie morte »[14].

Ebéniste de formation et de passion, *Jean* se trouve enrôlé dans l'armée contre sa volonté pour fabriquer des cercueils de pacotille ce qui porte la plus grande atteinte à sa passion et à sa noble profession car il entretient avec le bois une relation amoureuse telle une femme. Et la séparation était brutale est traumatisante. Il dit :

« […] Le Gutta Percha d'Indonésie, la Manilkara du Brésil, le Madhowe de Guyane, le Makaré de la Côte d'Ivoire, le Niatah du Cambodge, l'Arganier de l'Algérie, le Bilian de Malaisie, l'Ébène qui pousse dans toutes les grandes forêts tropicales de la planète ? Cette ébène merveilleuse […] avec des noms aussi flamboyants que les bois eux-mêmes, des couleurs aussi magnifiques que les plus beaux coloris existant sur terre […] Ah l'ébène, comme on dit, me fait entrer en transe. J'ai travaillé ceux de Macassar, provenant des Célèbes, de l'Andaman, de Birmanie, du Caromandal, de Ceylan, et l'ébène veiné de Sénégal, du Soudan et du Mozambique […] Rien que ces noms de pays tropicaux me font presque jouir. Rien que ces couleurs ! Si ces bois sont si chers et si rares, c'est aussi parce que l'homme les a, férocement et intensivement, exploités. J'oubliais les bois nobles d'Europe : le mélèze, le robinier, le noyer, l'acajou ! Qui sait qu'il y a des bois nobles dits bois de printemps, bois d'été et bois de cœur. Parce que lorsqu'on les travaille, lorsqu'on pénètre dans leur ventre comme on pénètre dans le ventre d'une femme, on voit leur cœur qu'on appelle aubier, chez nous les ébénistes [...] Et puis on me confia cette saleté de menuiserie qui sentait le bois mort, les cadavres morts, la nature morte, la vie morte […] »[15].

Le travail à la hâte pour fabriquer des cercueils à la chaine lui coute son âme d'artiste : « *En fabriquant des cercueils à la chaine, je finis par être malade »*[16].

Il ne vivait que pour sa passion et l'armée française le lui a enlevé. Sa névrose prend son point de départ de là, et le traumatisme psychologique pour son si fragile esprit d'artiste marque ses débuts. A partir de ce moment, *Jean* sombre dans la morosité, perd petit à petit sa joie de vie, son innocence d'artiste, sa vie tout simplement. Dans une lettre adressée à sa fille *Jeanne*, il parle de cet état dans lequel il sombre et dévoile :

« J'ai été tué, liquéfié, émasculé, en Algérie. Devenu une loque. A cause du mauvais bois, dans cette menuiserie d'où je m'enfuyais, très souvent. On me rattrapait. Om me mettait dans un cachot pendant plusieurs semaines. Puis, on venait me chercher en me disant d'un temps de bourru et plein de sarcasmes et de malentendu tout à la fois : ''Sergent Jean L'héritier, les morts n'attendent pas'' »[17].

Ses troubles affectifs commencent à le tourmenter. Il devient taciturne et introverti et du fait, ses rapports avec ses compères n'existent plus

et ceux qu'il avait avec sa femme et sa fille étaient hors norme. *Jean* déclare :

« Je me suis enfermé en moi-même. Je me suis enfoui. Enterré en moi-même. (N'étais-je pas un fossoyeur ?) »[18].

Parlant très peu et étant très passif, sa femme a pris les commandes de la petite famille et la petite fille a peu à peu pris l'habitude d'un père absent. Il dit dans une lettre adressée à sa fille : *« Je ne t'ai pas montré ma joie, j'étais incapable d'exprimer un tel sentiment. »*[19]. Etant parfaitement conscient de ce qu'il était en train de vivre, la culpabilité le rongeait petit à petit et les seuls moments de répit qu'il avait c'était lors de la lecture d'un livre ou quand il buvait tranquillement ses bières à l'hôtel Saint-Georges pour écouter passivement les palabres de *Nabila* et parfois ses confidences. Son lieu de refuge est cet hôtel situé dans la capitale avec son bar où viennent s'échouer des âmes en peine pour échanger des confidences. *Jean* fait partie de ces âmes blessées et perdues qui écument leur désespoir au bar de l'hôtel.

Jean devient si atteint de cette névrose qu'il développe des tics. Il ne pouvait s'empêcher de renifler ses doigts. Il avait l'incessante sensation que ses doigts puaient toujours l'horrible odeur de la chair humaine en décomposition. Il s'exprime sur cette manie et tient ces propos :

« J'ai dû t'exaspérer avec ma manie de renifler les bouts de mes doigts. Tu n'as jamais réagi. Je t'ai vu rougir le jour où tu nous as présenté Michel. Je l'ai vu désarçonner lui aussi, mais très vite, il s'est repris. Je ne voulais plus me cacher. Ni cacher mes manies et mes tics. Au début, c'était inconscient…»[20] .

Horrifié, il assiste à la décomposition de la soldatesque française en même temps qu'à sa propre déchéance et c'est là que l'ébéniste découvre la torture et toutes les exactions pratiquées par l'armée coloniale. Et à partir de là, la mort ne le quitte plus. Il dit ***:*** *« la mort me colle à la peau »*[21] .

Jean ne s'était remis de son calvaire en Algérie que pendant son agonie. Cette dernière lui a permis de retrouver la paix avec lui-même et du fait se confier pour la première fois à sa fille et lui expliquer les raisons de ses attitudes dans une longue lettre. Les aveux qu'il fait à sa fille lui procurent également un grand soulagement et le libèrent de son lourd fardeau porté si longtemps dans d'atroces souffrances. .

L'hôtel Saint-Georges est le lieu de sa rencontre avec *Nabila* où elle travaille comme barmaid. Cette dernière est une jeune fille à qui la vie pouvait lui promettre plein de choses lui avait tourné le dos pour l'ignorer. Pire que l'ignorance, la vie l'a détruite et anéantie. Abandonnée par ses parents, à son oncle germain, elle s'est toujours sentie rejeter. Concernant ce sujet elle déclare :

« Dès le début de mon adoption, j'ai senti qu'une injustice avait été commise envers moi. J'avais été rejetée. Donnée ou plutôt vendue à un collaborateur imbu de son titre de sous-préfet de la république Française et de son mariage avec une Yankee. Mon père, pourtant, était un fervent nationaliste. Il passait son temps entre les diverses prisons militaires françaises essaimées dans les colonies (Tunisie, Maroc, Afrique Noire, Antilles) et les diverses bagnes (Lambèse, Cayenne, Beri-Beri, etc.) ; ses domaines agricoles et ses haras. Mon père dans cette affaire d'adoption céda à ma mère qu'il adorait. Elle était très belle et d'extraction urbaine et aristocratique, avec des ancêtres turcs et mongols… alors que mon père était fier de ses origines paysannes. Dès mon ''enlèvement'', j'ai donc toujours voué une haine terrible à cette mère inconsciente, insaisissable et immature. Mon père ne voyait rien. Il était aveuglé par sa passion pour elle. »[22].

Un jour, *Jean* lui demandait *: « Pourquoi êtes-vous si triste ? Vous êtes jeune, jolie, étudiante en médecine… »*[23.] Elle lui répondait : *« Mon calvaire ? Avoir été violée au début de ma puberté ! »*[24]. Violentée et violée par cet oncle, *Nabila* en voudra toute sa vie, d'abord à sa mère qui l'a laissé et ensuite à son père si passif qui ne refuse rien à son épouse : *« Sidi Mohammed m'avait livrée*

comme une vulgaire marchandise à mon oncle ! Mon père ! Mon amant »[25].

Cet évènement traumatique l'a poussé à rompre tout lien de parenté avec ses familles surtout qu'elle en avait une très mauvaise opinion. Elle parle de cet évènement comme une malheureuse transaction puisqu'elle le qualifie de vente et d'achat : *« Je rompis les amarres avec mes deux familles. Celle qui m'avait vendue et celle qui m'avait achetée »*[26].

Cette rupture des liens familiaux l'a desservie dans toutes ses relations sociales durant sa vie. En effet, elle est incapable d'entretenir une relation avec une autre personne quel que soit son statut ou son genre. Ses mariages se sont donc soldés par des échecs et son enfant rejeté par elle. Se rendant parfaitement compte de ce qui lui arrive et de ce qu'elle provoque elle aussi comme désastre affectif sur son fils, elle avoue :

« Mariée, plusieurs fois. Divorcée plusieurs fois. Avec cette brûlure inguérissable, cette cicatrice qui ne veut pas cicatriser et un résultat : un fils de trente-cinq ans mal dans sa peau et pour lequel je n'éprouve pas grand-chose. Pourquoi m'avait-on rejetée ? Pourquoi m'avait-on livrée à ce salaud d'oncle ? » [27].

Nabila est devenue donc une vraie handicapée sur le plan émotionnel ne pouvant aucunement se lier d'un amour même maternel avec un autre personnage. Elle s'est donc isolée et s'est soustraite à toute vie sociale quelle que soit sa nature. Depuis ce drame qui l'a si profondément affecté, elle vit en retrait de tout le monde. Très meurtrie, elle décrit son malheur en ces termes :

« Mon drame personnel me tétanisait. Me rendait nombriliste. Egoïste. Lâche… Ah, ça oui ! Je n'avais plus confiance en personne. Je me sentais marginalisée. Mieux oblitérée. Le suicide me hantait. Mais je n'y arrivais pas …mon chagrin me transformait en néant, au fur et à mesure que je vieillissais. Où plutôt que je me ratatinais. Parce que je suis devenue vieille à quinze ans déjà. »[28].

Ressassant sans cesse son malheur, à l'instar de *Jean*, sa névrose se déteint sur son mode de vie et sa perception de ce qui l'entoure. *Nabila* matérialise alors ce qu'elle a vécu en adoptant la couleur noire et se justifie en disant :

« Depuis cette année noire où mon oncle, qui voulait passer pour mon père, m'avait violée avec la complicité de son américaine de femme, je me suis mise à aimer la couleur noire. J'aimais donc le noir. Je vivais dans le noir. Je m'habillais en noir. Le noir m'allait très bien »[29].

Kader est un autre personnage souffrant de névrose. Contrairement à *Jean* et à *Nabila* qui sont des personnages nobles et instruits, *Kader* est un harki illettré. Son apparence et son parlé sont le reflet de sa conduite, de sa culture et de son état névrotique obsessionnel. Ses propos sont focalisés sur ce qu'il a fait pendant la guerre d'Algérie. Il admet lui-même, comme l'ont fait *Jean* et *Nabila*, qu'il n'est pas normal. Il dit tout simplement qu'il est malade, atteint de la folie : *« La follie elle est dans tout Kader »*[30], *« La follie elle est dans tout Kader… Miel pour la tortura. Moi miel sur le zob de fellaga. »*[31]. A l'origine ou la conséquence de sa complicité avec la France, sa psyché est plus torturée que celle des autres personnages puisque contrairement à eux, ce n'est pas une victime mais un tortionnaire et un tueur au service des Français : *« J'aime les Zabits et le pain de la França… Le chef rigoule. Il rit. Moi comme lui. Rigoule »*[32]. Il admet et raconte lui-même toutes les exactions commises contre le peuple Algérien, contre les siens. Parmi ses victimes figurent des femmes enceintes, des vieilles femmes, des petites filles, des petits garçons. Son atrocité est telle qu'il jette son dévolu même sur les bêtes domestiquées par ses victimes.

Considérant de près le discours des personnages nous parvenons à relever, de prime à bord, que les sèmes de la névrose inondent leur discours de par la répétition de verbes, d'adjectifs qualificatifs, de substantifs et quelques grammèmes

libres qui relèvent du champ lexical de la violence dans tous ses états. Nous pouvons les répertorier dans cette liste. Il s'agit de : adoption, rejetée, vendue, céda, calvaire, ma, noire, violée, drame, tétanisait, nombriliste, égoïste, lâche, marginalisée, oblitérée, le suicide, hantait, chagrin, néant, rompis, vendue, achetée, divorcée, brûlure, inguérissable, cicatrice, mal, livrée, vulgaire, marchandise, moi, tortura, la folie, malade, incapable, enfermé, enfoui, enterré, mort, tué, liquéfié, émasculé.

La répétition de ces lexèmes génère la redondance des sèmes de l'abandon, le rejet, difficulté à entretenir des relations sociales normales et un nombrilisme qui leur fait ressasser sans cesse le même passé. Ceci est tout simplement le propre d'une « pathologie psychique » qui est en l'occurrence la névrose.

Outre ces redondances, nous constatons que l'état névrotique des personnages est rendu par d'autres procédés d'écriture. En effet, Les personnages sont dévoilés par le procédé du monologue intérieur qui, chez les personnages de R. Boudjedra, se structure par des phrases courtes et scandées. Ceci est une stratégie d'écriture qui conçoit « l'état mental » du personnage énonciateur variant de la nervosité à la confusion reliée sur le plan diégétique aux traumatismes causés par des événements très durs. Ces phrases courtes sont rendues plus expressives par l'utilisation d'un autre procédé, celui de la gradation qui a pour effet de rendre compte, voire même rendre perceptible ; l'agitation des personnages.

Par ailleurs, l'analyse de l'écriture de « la névrose » dans *Hôtel Saint-Georges*[33] ne va pas sans le constat d'une anaphorisation significative du discours des personnages de par l'emploi massif ainsi répétitif du pronom « je ». En fait, ce procédé d'anaphorisation participe aussi à manifester la névrose des personnages, en l'occurrence *Jean*, *Nabila* et *Kader*, par des phrases grammaticalement incorrectes par lesquelles lesdits personnages tentent de rendre compte de leur traumatisme. Nous interprétons cette anaphorisation du « je » comme la forte focalisation des énonciateurs sur leur douleur traumatique qu'ils ne parviennent pas à dépasser donc à exprimer.

Ainsi, le champ lexical de la violence physique et morale, le procédé du monologue intérieur, la gradation, et l'anaphorisation du pronom de la première personne, installe une chaine syntagmatique qui se fait écho puisqu' elle est sous-tendue par des sèmes dysphoriques, itératifs qui signifient tous l'état névrotique des personnages de *Jean*, *Nabila* et *Kader*.

Etat névrotique de Jean, Nabila et Kader interface de l'Histoire de l'Algérie.

L'Histoire d'Algérie, notamment de la guerre de libération, est au cœur de l'histoire de chaque personnage et de chaque scène narrative dans le roman de Rachid Boudjedra. De ce fait, l'Histoire se mêle à la fiction en ce qu'elles *« utilisent un matériau identique, car elles évoquent les évènements du passé à travers leurs traces »*[34] même si les deux disciplines sont différentes.

En effet, l'histoire de chacun des personnages sus-cités est représentative de la guerre d'Algérie qui dans le texte de R. Boudjedra n'a fait que cloitrer le peuple dans sa peur et n'a fait que l'expulser hors de l'Histoire de sorte à avoir une vision nombriliste de la vie, du monde et finalement de soi. Ce nombrilisme n'est pas égocentrique mais juste la démonstration d'une vie de misère, de famine et de terreur sous la tyrannie du colonialisme. La référence aux évènements de mai 1945 est une récurrence du roman *Hôtel Saint-Georges*[35] d'autant plus qu'il s'agit d'un condensé du tragique et du dramatique ***:***

« Bob a fait quand même une ou deux années de prison, lors des massacres du 8mai 1945, dans la région de Sétif »[36]. Ainsi qu'au général De Gaulle ***:*** *« Donc si De Gaulle faisait la guerre en Algérie, c'est qu'il avait raison. »*[37].

Dans l'écriture de R. Boudjedra, Histoire et fiction se disputent la scène du roman pour ne plus

savoir s'il s'agit réellement de fiction ou si l'auteur fait de l'Histoire déguisée en fiction. Dès lors, *« la mise en intrigue, les comportements des personnages et la nature des évènements qui surviennent portent la marque d'une historicité […] »*[38].

En outre, Rachid Boudjedra, dans *Hôtel Saint-Georges*, exploite autrement l'histoire référentielle en en faisant le support de sa fiction qui est, de ce fait, à substrat historique *« […] le présent et le passé n'ont de sens et ne font sens que pour autant qu'ils sont mis en résonance. »*[39].

Le roman *Hôtel Saint-Georges*[40] de R. Boudjedra rejoindrait ainsi la production littéraire qui traite de la guerre d'Algérie. D'après Mayumi Shimosakai[41], le premier groupe de ces œuvres rassemble les productions allant de 1954 à 1962. Il rapporte les évènements et les accompagnent. Il se caractérise par son discours tranchant et direct. L'autre groupe rassemble les œuvres nées à l'aube de l'indépendance. Celles-ci sont un témoignage de l'enfer vécu par les Algériens. C'est un legs mémoriel de douloureuses réminiscences. Puisqu'il s'agit de souvenir, le romancier aborde l'Histoire différemment et reconstruit sa chronologie en se basant sur la fragmentation. Le roman de Rachid Boudjedra appartient à la seconde catégorie. En outre, souvent chez cet écrivain, tout est une histoire vraie, que lui a confiée une femme « *Jeanne* ». Néanmoins, la narration est assumée par plusieurs voix. C'est une narration polyphonique *et « la pluralité des narrateurs rend la narration plus cohérente et plus objective. »*[42]. De ce fait, l'évènement historique est plus proche de la réalité même s'il est rapporté dans un roman.

R. Boudjedra tente de révéler les traumatismes d'un peuple qui a perdu son identité et qui la cherche dans le tourment de la violence de ce que les Algériens appellent la guerre de « libération » et que les Français appellent la guerre « d'Algérie ». Cela se fait en confondant histoires individuelles et histoire collective. Le plus souvent, l'intime n'est qu'un échantillon du collectif. En effet, les brefs moments des vies des quelques personnages relatés dans le roman est le reflet d'une société meurtrie par une guerre qui a détruit l'identité Algérienne. L'histoire collective et l'histoire individuelle intimement liées, déterminantes l'une de l'autre, s'imposent par leur constance. La société, le politique, le culturel considérés par rapport aux traumatismes qu'ils provoquent chez l'individu sont l'objet d'une remise en question.

L'écriture de l'Histoire, affirme l'écrivain par la voix de *Rac*, un personnage du roman *Hôtel Saint-Georges*, exige de déplacer les meubles et d'aller regarder derrière, de débusquer les êtres et d'aller voir à l'intérieur de leur vision. Qu'il s'agisse de *Kader*, harki illettré, de *Jean*, de *Nabila* ou encore de son oncle incestueux et « collabo », c'est bien une seule et même douleur qui s'élève : celle d'Algériens secoués par les aléas de l'Histoire. Et d'une guerre dont Rachid Boudjedra estime avoir tout dit. L'écrivain Rachid Boudjedra se confie en disant qu'après

« Le Démantèlement, il pensait avoir réglé ses comptes avec cette guerre. Or c'est oublier que l'Histoire est comme un chat : elle peut vous sauter à la gorge alors même que vous êtes en train de la caresser... »[43].

L'écrivain Rachid Boudjedra a installé une imposante dimension historique dans le roman étudié de par des stratégies d'écriture spécifiques, rappelons –le, identifiées aux monologue intérieur, la gradation, l'anaphorisation du « je », la fragmentation du discours, l'exploitation du champ lexical de la violence qui participent tous à construire l'isotopie de la névrose. Même s'il est vrai que Rachid Boudjedra convoque l'Histoire pour écrire ses romans, il n'en problématise pas moins les données. En dépit de cette mise en place, il ne cesse de la remettre en question cette histoire fondatrice de ses romans mais aussi de l'identité Algérienne et ce par une écriture très particulière. Dans *Hôtel Saint-Georges*[44] cette mise en évidence des traumatismes subis de part et d'autres la guerre et la névrose qui s'en est suivie. Ce que l'écriture de R. Boudjedra « dit » n'est relaté dans aucun document historique.

Genèse de la névrose et la violence historique

Les conflits psychiques et sociaux qui découlent de la guerre inspirent Rachid Boudjedra dans la conception de son roman dans la mesure où il s'en sert comme toile de fond diégétique. La guerre est travaillée donc fictionnellement tout en portant un regard critique et distancé par rapport aux évènements qui se sont passés. Et s'il y a un point commun entre la dimension historique et la dimension névrotique sus-citées, dans *Hôtel Saint-Georges c'est* bien la violence. Quand la violence revête un rôle dénonciateur dans un contexte de contrainte idéologique, politique, sociale et historique, la création de l'auteur se trouve imprégnée d'une vision particulièrement crue et violente. La question qui s'impose d'elle-même concerne le type de violence qui surgit dans le texte.

Nous pouvons dire d'emblée qu'il y a deux types de violence. D'abord l'écriture de la violence. Celle-ci est présente dans le texte comme thème exprimant la brutalité, la déchéance et la fatalité. Ensuite la violence de l'écriture qui se traduit quant à elle à travers les procédés d'écriture. Ces derniers sont assez particuliers et leur utilisation sert la violence thématique.

En effet, les différentes thématiques évoquées dans le roman de R. Boudjedra sont imprégnées de violences humaines. Conjuguées au contexte historique, elles font naitre la névrose. Ces violences relèvent de l'ordre du viol et des autres pratiques sexuelles, de la torture physique et psychologique, de la guerre, de l'alcoolisme et de la famille. Les propos de *Kader* sont un exemple éloquent :

« La follie elle est dans tout Kader… Miel pour la tortura. Moi miel sur le zob de fellaga. Le chef il a pas di mettre miel sur zob, couilles, oeuils du fellaga. Non ! Moi : oui. Fellaga rigoulait plous. Mourte très vite »[45].

L'auteur décrit la société Algérienne comme étant en proie à des crises tant socio-politiques que culturelles. Il cherche à représenter une société déchirée et scindée par la violence qui a d'abord était engendrée par la conjoncture de la guerre puis par le système politique en place. Les jeux singuliers des instances spatio-temporelles et le mouvement narratif marqué par de fréquentes césures et ruptures ainsi que le parcours des personnages sont tous autant d'éléments représentatifs de cette société. Les personnages mis en scène par l'auteur sont à l'image des différents espaces sociaux dont ils sont issus. Et aussi différents qu'ils soient, les milieux de vie de ces protagonistes se caractérisent par la présence d'une violence inouïe. Le langage de la violence traverse tout le tissu textuel. Les relations entre les êtres sont teintées tantôt d'une violence ahurissante tantôt d'une troublante indifférence et dans les deux cas les personnages sont malmenés. R. Boudjedra met en texte alors à travers cette thématique le premier lit de violence issu du giron familial. De la violence dans le giron familial, l'auteur nous soumet la violence à une plus grande échelle à savoir à l'échelle nationale. Dans ce sens, R. Boudjedra évoque la guerre d'Algérie et ses malheurs. En effet, plusieurs scènes relatives à cette conjoncture historique sont citées. La pauvreté et le viol sont des aboutissements de la guerre que l'auteur a largement mis en évidence. Ces différents thèmes sont évoqués par une telle franchise que certains extraits en deviennent offusquant. *Jean* cite un de ces évènements cruels qu'il a découvert et il raconte :

« …C'est ainsi que je tombais un jour sur un livre d'un certain colonel Rousset, l'un des chefs militaires qui avaient envahi et conquis l'Algérie. Il était intitulé '' La conquête de l'Algérie '' : '' Le colonel Cavaignac opérait sur la rive gauche du chélif chez Sbéa qui s'était retirés dans leurs grottes. A toutes les sommations, ils avaient refusé de se rendre […] Alors le colonel avait donné […] l'ordre d'attaquer mie ; et avait fait allumer un grand feu devant l'issue d'une autre. Le lendemain, l'incendie avait gagné les bagages des réfugiés. Pendant la nuit, on crut entendre […] un bruit confus, des clameurs sourdes, puis rien ne troubla plus le silence. Longtemps avant le jour, quelques hommes, suffoquant, vinrent tomber devant les sentinelles. Une fumée si épaisse et si âcre emplissait les grottes

qu'il fut impossible d'y pénétrer d'abord. Cependant, on en voyait sortir de temps à autre des êtres méconnaissables […] quand on put enfin visiter la fournaise éteinte, on y compta plus de cinq cents victimes. (Colonel Rousset, « La conquête de l'Algérie », Tome II, pages 22 et 23. »)[46].

Pour Marc Gontard « *C'est l'écriture qui, dans ses formes mêmes, prend en charge la violence à transmettre, à susciter à partager. C'est l'écriture qui, dans ses dispositifs textuels se charge de la seule fonction subversive à laquelle elle puisse prétendre »*[47].

Effectivement, l'écriture prend en charge cette violence et la transcrit en adoptant un champ lexical de la violence ainsi que la fragmentation du discours comme nous l'avons précédemment montré. Un chaos grammatical s'installe donc dans le roman de R. Boudjedra. Celui-ci se manifeste à travers des phrases inachevées et des paroles anxieuses de personnages en détresse. L'énoncé narratif ainsi tronqué par l'utilisation de phrases nominales et la suppression des déterminants parfois plongent le lecteur dans la violence due à l'agression du tissu textuel. Outre ces manifestations de la violence dans la transcription diégétique la rupture et l'agression sont exprimées par la distorsion du tissu textuel et cette distorsion est accompagnée d'un excès qui se manifeste par les figures du paroxysme et de l'antithèse.

Rachid Boudjedra refuse dès lors à travers son écriture l'ordre établi et forge une certaine insurrection. D'après Marc Gontard, R. Boudjedra est influencé par le roman de Driss Chraïbi intitulé *Le passé simple* dans la mesure où les deux auteurs transcrivent *« la révolte contre la société patriarcale dévote et figée, la […] revendication de la libération de la femme, la […] contestation des rapports féodaux entre les classes sociales. »*[48].

De la névrose, de l'Histoire et de la violence, voilà de quoi est confectionné le roman de Rachid Boudjedra. Un roman riche aussi bien sur le plan thématique que sur le plan scriptural. Et vu toutes les contraintes sous lesquelles évoluent ses personnages, cette richesse est un moyen d'émancipation, d'évasion, et de répit qu'il offre à ses lecteurs. Par ailleurs, Rachid Boudjedra déploie tout son génie dans sa création littéraire aussi bien sur le plan thématique que sur le plan scriptural en usant de l'éclatement du récit, de la polyphonie, de réminiscences… pour raconter l'Histoire autrement. L'évènement raconté devient ainsi un prétexte de dénonciation massif tout en rendant possible une interprétation variée.

Références

1. otes

2. Boudjedra, R. (2007), *Hôtel Saint-Georges*, Oron: Ed Dar El gharb.
3. Ibid.
4. Ibid.
5. Ibid.
6. Ibid.
7. Ibid.
8. Ibid.
9. Gaspari-carrière, F. (2001), *Les enfants de l'abandon, Traumatismes et déchirures narcissiques,* Grenoble : Ed Presse universitaire de Grenoble, Grenoble, p. 111.
10. Dubois, J. Giacomo, M. Guespin, L. Marcellesi, C. Mevel, J. P, (2002), Le dictionnaire de linguitique, Ed Larousse, p. 259.
11. Ibid.
12. Ibid. 423
13. Boudjedra, R, Op. cit.
14. Boudjedra, R, Op.cit. p. 98.
15. Ibid. p.94.
16. Ibid. p. 97.
17. Ibid. p.63.
18. Ibid. p.98.
19. Ibid. p.63.
20. Ibid. p.63.
21. Ibid. p.176.
22. Ibid. p.74.
23. Ibid. p.16.
24. Ibid. p. 59.
25. Ibid. p.59.
26. Ibid. p.133.
27. Ibid. p. 16.
28. Ibid. p. 17.
29. Ibid. p.104.
30. Ibid. p.104.
31. Ibid. p.35.
32. Ibid. p. 35.
33. Ibid. p. 11.
34. Boudjedra, R. Op. cit.
35. Jacquemont, R. (2006), Histoire *et fiction dans les littératures modernes (France, Europe, Monde arabe), l'écriture de l'histoire II*, Paris : Ed Le Harmattan, p.110.
36. Boudjedra, R. Op. cit.
37. Ibid. p.56.
38. Ibid. p.26.
39. Boulet, D. (1999), *Formes littérature et conscience historique, Aux origines de la littérature Française 1100, 1250*, Paris : Ed Puf, Paris, p. 25.
40. Ibid. p. 22.
41. Boudjedra, R. Op. cit.
42. Mayumi, S. (2011), *Mémoire et écriture romanesque de Rachid Boudjedra,* Thèse de doctorat de lettres en littérature française et comparée, Faculté Lettres et sciences humaines, Université de Cergy-pontoise.
43. Jacquemond, R. Op.cit., p. 287
44. Rousseau, C. (2011), La *mémoire enragée de Boudjedra*, Le monde des livres. http://www.lemonde.fr/livres/article/2011/04/14/la-memoire-enragee-de-boudjedra_1507322_3260.html.

45. Boudjedra, R. Op. cit.
46. Boudjedra , R. Op. Cit. p.35.
47. Ibid, p.48.
48. Gontard, M. (1981), *Violence du texte*, La littérature marocaine de langue française, Paris : Ed l'Harmathan, p. 52.
49. Ibid, p.17.

Bibliographie

1. Boudjedra, R. (2007), *Hôtel Saint-Georges*, Oron: Ed Dar El gharb.
2. Boulet, D. (1999), *Formes littérature et conscience historique, Aux origines de la littérature Française 1100, 1250*, Paris : Ed Puf.
3. Dubois, J. Giacomo, M. Guespin, L. Marcellesi, C. Mevel, J. P, (2002), Le dictionnaire de linguitique, Ed Larousse.
4. Gontard, M. *Violence du texte*, (1981), *La littérature marocaine de langue française*, Paris : Ed l'Harmathan.
5. Gaspari-Carrière F. (2001), *Les enfants de l'abandon, Traumatismes et déchirures narcissiques,* Grenoble : Ed Presse universitaire de Grenoble, Grenoble.
6. Jacquemont, R. (2006), *Histoire et fiction dans les littératures modernes (France, Europe, Monde arabe), l'écriture de l'histoire II*, Paris : Ed Le Harmattan, Paris.
7. Mayumi, S. (2011), *Mémoire et écriture romanesque de Rachid Boudjedra,* Thèse de doctorat de lettres en littérature française et comparée, Faculté Lettres et sciences humaines, Université de Cergy-pontoise, 2011.
8. Rousseau, C., *La mémoire enragée de Boudjedra*, Le monde des livres, 2011. http://www.lemonde.fr/livres/article/2011/04/14/la-memoire-enragee-de-boudjedra_1507322_3260.html.

Muslims Prone to Homegrown Terrorism: Deconstructing the U.S. Government Discourse

Date de réception : 2018-02-06 Date d'acceptation : 2019-04-12

Hayette Harbi, Université de Skikd
harbi_hayette@yahoo.fr

Abstract

To confront homegrown terrorism, the U.S. government adopted a discourse on which it based its policies. The latter ones fixate almost entirely on Islam, treat Muslims as suspects and encroach on their rights. In this article, we aim to question the legitimacy of the U.S. government's response to homegrown terrorism by assessing the U.S. government discourse. To that end, we proceed to a critical discourse analysis to uncover the key assumptions underlying this discourse, first. Then, we take a genealogical approach to identify the roots of such assumptions. At last, we use theological arguments and empirical data to evaluate the soundness of those assumptions. The results of the analysis revealed that the measures that encroach on Muslims' freedoms are illegitimate in that they derive from discourses based on flawed assumptions.

Keywords: homegrown terrorism, Muslims, US government discourse.

Résumé

Pour faire face au terrorisme local, le gouvernement américain a adopté un discours politique qui se fixe entièrement sur l'islam et considère les musulmans non seulement comme des suspects mais il viole aussi leurs droits. Cet article vise à remettre en question la légitimité de la réponse du gouvernement américain au terrorisme local en évaluant le discours du gouvernement des États-Unis. Pour ce faire, nous procédons, d'abord, à une analyse critique du discours pour découvrir les principales hypothèses qui le soulignent. Ensuite, nous adoptons une approche généalogique pour identifier les racines de ces hypothèses. Enfin, nous utilisons des arguments théologiques et des données empiriques pour évaluer la solidité de ces hypothèses. Les résultats de l'analyse ont révélé que les mesures qui empiètent sur les libertés des musulmans sont illégitimes dans la mesure où elles découlent de discours fondés sur des hypothèses erronées.

Mots-clés : terrorisme local, musulman, discours du gouvernement américain.

الملخص

بهدف مواجهة الإرهاب المحلى ، تبنت الحكومة الأمريكية خطابا تقوم عليه سياساتها بحيث تركز تقريبا كليا على الإسلام ، وتعامل المسلمين كمشتبه فيهم ، وتنتهك حقوقهم. هذه المقالة تشكك في شرعية استجابة الحكومة الأمريكية للإرهاب المحلي من خلال تقييم خطابها. وتحقيقا لهذه الغاية ، قمنا بتحليل نقدي لهذا الخطاب للكشف عن الافتراضات الأساسية التي يقوم عليها باستعمال نهج الأنساب لتحديد جذور هذه الافتراضات. أخيرا استخدما الحجج اللاهوتية والبيانات التجريبية لتقييم سلامة تلك الافتراضات ، خلصت المقالة إلى أن التدابير التي تنتهك حريات المسلمين غير شرعية لأنها مستمدة من خطابات قائمة على افتراضات معيبة.

الكلمات المفاتيح: الإرهاب المحلى ، المسلمين ، خطاب الحكومة الأمريكية.

Introduction

When facing security issues, the U.S. government framed policies that encroach on people's rights on several occasions. To confront homegrown terrorism, it has used preventive measures that target Muslims as it considers them the perpetrators of such phenomenon. As those policies are the implementation of an official discourse, we assess their legitimacy by analyzing the discourse itself. First, we uncover two of the significant assumptions that underlie it. Then, we trace their genealogy. At last, we assess the validity of the assumptions in light of theological and empirical data.

1. *Constructing Muslims as the 'Other' and as the Enemy*

In the post 9/11 environment, the official discourse in the United States tended to construct the Western world as 'Self' and represent the Muslims as the 'Other' and the enemy. This construction is generally referred to as the 'Us' versus 'Them' paradigm. First, the Bush administration framed foreign policy on the narrative of War on Terror in which liberal western democracies are fighting "the Axis of Evil". It pictured Americans as the "innocent victims" and the aggressors as "evil perpetrators". That provided the foundation for the labeling of Islam as 'evil'. Then, at home, there was a construction of an "Enemy within". The U.S. government perceived Muslims as a potential threat. It considered them as the enemy in the Global War on Terror and expected them to prove their loyalty.

Admittedly, the Obama administration made an effort to avoid sticking to this construction. Reflecting such an effort are President Obama's statements in his Cairo speech in June 4, 2009. He said:

The sweeping change brought by modernity and globalization led many Muslims to view the West as hostile to the traditions of Islam…The attacks of September 11th, 2001 and the continued efforts of these extremists to engage in violence against civilians has led some in my country to view Islam as inevitably hostile not only to America and Western countries, but also to human rights. This has bred more fear and mistrust.

Nevertheless, the Obama administration framed the Counter Violent Extremism (CVE) policy that still considers Muslims as the 'Other'. In the "Strategic Implementation Plan," the president discursively constructed 'the Self' as a "facilitator, convener, and source of information," and 'the Muslim Other' as ones who could "readily identify the problems as they emerge" (2011, p. 3). For the sake of political correctness, the President not only constructed the Muslim 'Other' as "partners" but also he avoided to refer to them as Muslim but as "local". In fact, the 'local partner' narrative was indirectly contributing to the othering process.

1.1. Genealogy

The Othering process or 'Us' versus 'Them' paradigm rests on the creation of social group categories. It is commonly made through an emphasis on differing characteristics such as race, ethnicity, and religion. Generally, it victimizes a minority group on the basis that their culture represents a threat to the rest of society.

In the U.S. government discourse, the othering process uses and extends Orientalist constructs. To trace back the genealogical roots of the Orientalist cultural discourse, we draw on Edward W. Said's understanding of orientalism. He defined orientalism as "a way of coming to terms with the orient that is based on the Orient's special place in European Western experience" (1978, p.1). He studied the ideas that became embedded in Western culture. He showed that the development and use of representation of the Orient in the European context were not faithful to the "natural depictions of the Orient" (p.21). These representations or rather mis-representations, considered as objective in the Westerners' mind, have developed into stereotypes. The West has made the Orient its 'Other'.

In a similar process, the Western countries regarded the Muslims as the 'Other'. They produced

false descriptions of Islamic cultures. They based their representation of Muslims and Islam on preconceived stereotypes devoid of justification. To refer to this western tendency to anti-Muslim sentiment, E. Said had not used the term 'Islamophobia' but helped a lot in the awareness of the phenomenon.

In addition, the U.S. government depicted Muslims as the enemy. After the collapse of the former Soviet Union in the early 1990s, the USA generated a new enemy frontier. The need of an enemy was necessary for the Americans to claim their superiority. They re-imagined Muslims during that period as enemies while they used to consider them allies against Communism before the collapse of the former Soviet Union.

The academia adopted this idea through rhetoric of "clash of civilizations*"*. This expression stems from a 1990 article entitled "The Roots of Muslim Rage" written by Bernard Lewis, professor of history at Princeton University. In this article, Lewis claimed that the clash was rooted in the classical Islamic view whereby two opposing forces divided the world namely the House of Peace (Islam) and the House of War. According to him, such view led to consider any civilization outside Islam as the enemy. Lewis's "The Roots of Muslim Rage" appealed strongly to Professor Samuel Huntington. In 1993, the latter wrote "The Clash of Civilizations?" presenting his hypothesis of clash of civilizations. For him, the conflict that existed between the West and the Communist bloc is then between civilizations.

Media coverage and the society popularized the negative image of Muslims and manifested an intensive tendency at demonizing Islam. Then, the U.S. government promoted this demonization of Islam to nurture a politics of fear that legitimated the expansion of security measures. With the events of 9/11, Islam and Muslims had been 'othered' even more. There was a regain of interest for the idea of the "clash of civilizations" especially between Islam and the West. The neoconservatives have intensified this discourse. For them, terrorism was a product of Islamic culture. As they held many of the offices related to counter-terrorism in the early years of the War on Terror, their discourse had contributed to U.S. Islamophobic measures. For example, Lewis was a key advisor on the Middle East to the George W. Bush administration.

1.2. Assessment of the Underlying Assumption

To analyze the US government discourse, we uncover the key assumption underlying it and we assess it on several aspects.

1.2.1. Theological Arguments

The Othering process is based on the allegation that an incompatibility between Western and Islamic values exists and that Muslims cannot cope with the former ones. To assess this assumption, we take three core American values, namely democracy, freedom and justice and we evaluate whether they are compatible with Islam's true teachings. First, at the outset, Islam has always advocated a democratic form of government. Indeed, some Islamic principles are in tune with a democratic system. One of those principles promotes dialogue, consultation and community consensus. It holds that the decisions are the most appropriate ones when they are made jointly and after discussions of issues. In many ways, this type of governance is a model of democratic process. In the Holy Qur'an, the Surah "Ash-Shura", which means consultation, shows clearly the endorsement of a democratic government.

And those who answer the Call of their Lord [i.e. to believe that He is the only One Lord (Allah), and to worship none but Him Alone], and perform *As-Salat* (*Iqamat-as-Salat*), and who (conduct) their affairs by mutual consultation, and who spend of what We have bestowed on them. (42: 38)

And those who, when an oppressive wrong is done to them, take revenge. (42:39)

Second, freedom is a valued principle in Islam. The idea that Islam restricts freedom comes from the cases of some countries where the political regimes confuse the religion of Islam with oppressive political and dictatorial rule. Islam's teachings uphold personal freedoms. Islam guarantees even freedom of

religion. The surah Al-Ghashiah states that there shall be no compulsion in religion.

You are not a dictator over them – (88:22)

Save the one who turns away and disbelieves. (88:23)

Third, the Qur'an stresses absolute justice on more than one occasion. A significant illustration is the verse "Allah loves the just" (49:10). Another one is the verse in the Surah "Al-An'am":

And come not near to the orphan's property, except to improve it, until he (or she) attains the age of full strength; and give full measure and full weight with justice. We burden not any person, but that which he can bear. And whenever you give your word i.e. judge between men or give evidence), say the truth even if a near relative is concerned, and fulfil the Covenant of Allah. This He commands you, that you may remember. (6:152)

1.2.2. Empirical Data

Muslims in the USA are making efforts to fight the Othering process they experience. They manifest a willingness to be integrated in the U.S. society and to make their religion be part of the mainstream. Some of their actions and initiatives show efforts at interfaith participation, cultural engagement and civic activism. The activities of the youth programs are an illustration. In February 2010, the first Purple Hijab Day took place in the USA. Then, it became international and annual. During such event, women gave purple headscarves. Muslim Students Associations have organized the nationwide Ramadan Fast-a-Thon on campuses across the country. During such an occasion, non-Muslims are invited to join their Muslim classmates in fasting, in sharing a special meal to break the fast (*iftar*) and in accompanying prayers. In addition, Muslim college students are devising ways to reach out to their local communities as a whole. For example, Georgetown University's Muslim Chaplaincy offered a "Muslim Alternative Spring Break" trip for the first time in March 2012. During that trip, selected undergraduate students led by their campus Imam travelled to Parkersburg, West Virginia for charity and interfaith activities.

Moreover, the development of American Muslim organizations that fit into the American cultural environment rather than standing against it proves that the incompatibility West/Islam is based on an unfounded prejudice towards Islam and its followers. Some Muslim-based organizations had supported interfaith engagement. For example, the United Muslims of America Interfaith Alliance devotes a whole part to interfaith activism in its website. It states that:

America as one nation, endeavoring to create one family through interfaith understanding. We promote racial and religious harmony through religious institutions, projecting an image of America as a world leader who stands up for the human rights for all communities.

Furthermore, through the message of the mosque leaders, mosques are open to the idea of involvement in the American society. Indeed, there is a strong willingness on the part of these mosque leaders to encourage worshippers to integrate in the American society, including its politics. Most of them express the view that Muslims should participate in American public life. According to Ihsan Bagby and his colleagues, already in 2000, when they interviewed 416 mosques, 77 percent of the mosque leaders "strongly agree" that Muslims should participate in American "institutions," and 72 percent "strongly agree" that Muslims should participate in the "political process" (2001, p. 32). Ten years later, when they interviewed 524 mosques, over 98 percent of mosque leaders agreed that Muslims should be involved in American institutions; and 91 percent agreed that Muslims should be involved in politics (2012, p. 4).

2. Constructing Muslims as Prone to Radicalization and Violence

After the attacks of 9/11, the U.S. government has associated Islam with violence. This narrative implies that Muslims are prone to radicalization and violence. Concretely, the U.S. policymakers do not state openly that Muslims are violent but by qualifying as "peaceful" and "non-violent" Muslims who have not taken the path to violence, they

implicitly consider that the ordinary state is violence. This was the case of George W. Bush. For instance, in the National Security Strategy of 2006, he used "peaceful" Muslims to refer to those who are not using violence. The document states, "We will continue to support political reforms that empower peaceful Muslims to practice and interpret their faith" (2006, p.11).

Then, the Obama administration viewed Muslims as suspects and considered certain Islamic traditions conducive to extremism. Still, for the sake of political correctness, the association of Muslims and Islam with violence was subtler. The researchers Faiza Patel and Meghan Koushik's analysis of the Counter Violent Extremism shows that it situates the source of terrorism, in general and homegrown terrorism in particular, within Muslim communities (2017).

Moreover, the US law enforcement agents tended to consider any form of civil and political activism among Muslims as extremism and so as an indicator of radicalization that leads to terrorism. They based their policies on the religious conveyor belt model of radicalization. Even if this model had been rejected by academia, the U.S. government has embraced such theory and still looks at religious signs as indicator of radicalization and it focuses on Islam.

Furthermore, the Judicial Watch revealed in a special report that the Federal Bureau of Investigation (FBI), the Department of Justice (DOJ) and Pentagon provided training sessions that presented Muslims as agents of aggression and allegorized the Islamic religion to the death star (2015). This explains why the government suspected and scrutinized Muslims just because of their religious identity.

2.1. Genealogy

To trace the genealogy of this discourse, we go back to the time when terrorism has been associated with religion. This construction was made through the emergence of Islamic terrorism discourse. To have a global perspective, we look at William F. Shugart II's analysis of the modern history of terrorism. He studied the different groups that had been given the label of terrorism and classified them. According to him, three categories of violent actions have been labeled terrorism. The first appeared after the end of World War 2; separatism motivated it. The second was present from around 1960s until 1989. Anti-Western views motivated it. The third took place after the Cold War. In this case, terrorism evolved into a religion-based violence (2006). In fact, it started to take shape before the end of the war. Some Muslims groups fought against the oppression of the rulers and other Muslim groups supported them in their resistance. Examples of turbulent events across the Middle East throughout the 1970s and 1980s are the Munich Massacre and the Iranian hostage crisis. They involved a high number of victims and a risk for the interests of the West. To make their resistance effective, these groups were fighting in the name of Islam. This made terrorism evolve from political violence to religion-based violence.

The discourse centralized on Islam as it is considered the source of that violence. It presumed causal link between religion and violence and implies that violence is inherent in Muslim societies. Some researchers have nurtured such discourse. For instance, Huntington's ideas claimed that Islam is violent. In his work, he stated, "Islam has bloody borders" (p.34).

Then, the actions of violence involving Muslims provoked a rapid expansion in neo-Orientalist scholarship. For example, the American scholar Mark Juergensmeyer made an interpretation of the phenomenon of terrorism by relating it to religion. In *Terror in the Mind of God: The Global Rise of Religious Violence* (2003), he identified 'Islamic Terrorism' as a specific mode of political violence that was increasingly taking on a new transnational character.

2.2. Assessment of the Underlying Assumption

2.2.1. Theological arguments

The underlying assumption of this discourse is that Muslims are prone to violence because of their

religion. Islam as a religion does not promote violence. First, the Qur'an preaches peace. It stresses dialogue and moderation, not violence and radicalism. Several Quranic verses expound this clearly. For example, the Surah At-Tawba gives the directions how to interact with the enemy or unbelievers. One of the verses says, "If your enemy inclines toward peace, then you too should seek peace and put your trust in God" (8:61). Another example is the Surah Al-Mumtahina

God forbids you not respecting those who have not fought against you for religion's sake, and who have not driven you forth from your homes, that ye should act righteously and justly towards them; verily, God loves the just! (60:8)

God repeats, "do not aggress", multiple times. Only if attacked, one is permitted to fight back. If the other party refrains from aggression and offers one peace, Muslims are told to stop fighting. It prohibits aggression and allows fighting only in self-defense.

Second, Prophet Mohammed (pbuh) set up a tradition of peace through his sayings and deeds. The Prophet said there is no excuse for committing unjust acts: 'Do not be people without minds of your own, saying that if others treat you well you will treat them well, and that if they do wrong you will do wrong to them. Instead, accustom yourselves to do good if people do good and not to do wrong (even) if they do evil'"(Al-Tirmidhi).

2.2.2. Empirical Data

There is no empirical evidence indicating that American Muslim communities hold radical ideas. In fact, Muslims in general stand against violence. Polls show that Muslims in the USA do not support violence. We give the findings of two reliable polls, namely the Gallup Poll and the Pew Research center. In 2010, Gallup asked two questions: "Is targeting and killing civilians by the military justified?" and "Is targeting and killing by individuals or small groups justified?" can be justified. These questions were asked to US Muslims, Protestants, Catholic and Jewish. For the first, American Muslims were the only religious group that a majority opposed targeting and killing civilians by the military. For the second, they were the religious group that resolutely opposed "targeting and killing by individuals or small groups".

The Pew research Center carried two surveys, one in 2007 entitled "Middle Class and Mostly Mainstream" and another in 2011 entitled "Muslim Americans: No signs of Growth in Alienation or Support for Extremism". Both of the surveys show that, in general, Muslim Americans reject extremism.

Furthermore, some scholars have measured homegrown terrorism cases involving American Muslims. They study the scope of the actual involvement of American Muslims in terrorist attacks. Most of them claim that there is an overestimation. One of the academic publications, a report entitled "Muslim-American Terrorism in the Decade Since 9/11," written by Charles Kurzman, David Schanzer and Ebrahim Mosa, professors and members from the Triangle Center on Terrorism and Homeland Security, concludes that the numbers are not sign of a surge of terrorist violence by Muslims. According to the findings, the number of American Muslims accused of involvement in plots or attacks has decreased (20 in 2011, 26 in 2010 and 47 in 2009). In addition, the report states that there was no murder in 2011 that resulted from extremist violence by Muslims in the United States (2012).

Similarly, Charles Kurzman's 2014 report, entitled "Muslim-American Terrorism in 2013," shows also a steady decline over the past decade in suspects and perpetrators of terrorist attacks in the United States (2014, p.2). Another of his reports, "Muslim Americans Involvement with Violent Extremism, 2016", shows a decrease of 40 percent in the number of American Muslims associated with violent extremism in 2016, as compared with the previous year (2017, p.2).

Like Charles Kurzman, Risa Brooks, a professor of Political Science, argues that the scope of the threat is minim. In her analysis "Muslim

'Homegrown' Terrorism in the United States: How Serious is the Threat?" she concludes:

Muslim homegrown terrorism does not at present appear to constitute a serious threat to [Americans] welfare. Nor is there a significant analytical or evidentiary basis for anticipating that it will become one in the near future. It does not appear that Muslim Americans are increasingly motivated or capable of engaging in terrorist attacks against their fellow citizens and residents. (2011, p.10)

Conclusion

In this article, we assessed the US government response to homegrown terrorism by examining the discourse itself. We focused on two aspects of this discourse. The first is the tendency to view Muslims as the 'Other' and the enemy. The second is to consider them prone to violence. We used theological and empirical data to assess the assumptions underlying such discourse. Concerning considering the Muslims as the 'Other', our findings show that this Othering process is overlooking commonality between the Western values and Islamic ones. Concretely, Muslims in the USA. show willingness at integration. Concerning viewing Muslims as prone to violence, our findings show that the principles of Islam stands against violence. Concretely, Muslims in the USA do not support extremism and violence. After analysis, we conclude that the US government based its response to the alleged threat of homegrown terrorism on flawed assumptions that have little or no evidentiary basis. Because the US framed policies based on these unsound allegations, those policies are deemed faulty. In fact, the US government is reproducing past discourses. The latter have become discursive foundations that become entrenched in the American mind. To uproot this tradition would be challenging.

List of Work Cited

Obama, Barack, The President's Speech in Cairo: A New Beginning, June 4, 2009, The White House, https://obamawhitehouse.archives.gov/blog/2009/06/04/presidentrsquos-speech-cairo-a-new-beginning, 4 May 2017.

United States, The White House, Executive Office of the President, Security Staff, "Strategic Implementation Plan for Empowering Local Partners to Prevent Violent Extremism in the United States", Washington, Dec. 2011.

Said, Edward, *Orientalism*. 1978, Pantheon, New York.

Lewis, Bernard, "The Roots of Muslim Rage", The Atlantic, 266:3 (1990): 47-60.

Huntington, Samuel P., "The Clash of Civilizations?" Foreign Affairs, 72:3 (1993), 22-49.

The Noble Qur'an: English Translation of the Meanings and Commentary, Trans. Muhammad Taqi-ud-Din Al-Hilali and Muhammad Muhsin Khan, King Fahd Complex for the Printing of the Holy Qur'an, Madina, K.S.A.

United Muslims of America Interfaith Alliance, www.umaia.net, 12 May 2017.

Bagby, Ihsan; P. M. Perl and B. T. Froehle, "The Mosque in America: A National Portrait", Council on American-Islamic Relations, Washington D.C., 2001.

Bagby, Ihsan, "The American Mosque 2011: Basic Characteristics of the American Mosques; Attitudes of Mosques Leaders", Council on American-Islamic Relations, Washington D.C., Jan. 2012.

Patel, Faiza and Meghan Koushik, "Countering violent Extremism", Brennan Center for Justice Twenty Years, 2017.

United States, The White House, "The National Security Strategy of the United States of America", March 2006.

. Judicial Watch, ""U.S. Government Purges of Law Enforcement Training Material Deemed "Offensive" to Muslims, A Judicial Watch Special Report, Dec. 5, 2013, Washington, D.C..

Shugart II, William F., "An Analytical History of Terrorism, 1945-2000", Public Choice, 128 (2006): 7-39.

Juergensmeyer, Mark, *Terror in the Mind of God: The Global Rise of Religious Violence*, 2003, University of California, California.

Gallup, "Most Muslims Americans See no Justification for Violence",

http://www.gallup.com/poll/148763/muslim-americans-no-justification-violence.aspx, 23 May 2017.

Pew Research Center's Forum on Religion and Public Life, "Muslim Americans: Middle Class and Mostly Mainstream", 22 May 2007.

----------, "Muslim Americans: No signs of Growth in Alienation or Support for Extremism", Aug. 2011.

Kurzman, Charles, "Muslim-American Terrorism in the Decade Since 9/11." Triangle Center on Terrorism and Homeland Security, February 2012.

----------, "Muslim-American Terrorism in 2013", Triangle Center on Terrorism and Homeland Security, February 3, 2014.

----------, "Muslim-American Involvement with Violent Extremism, 2016", January 26, 2017.

Brooks, Risa A., ""Muslim "Homegrown" Terrorism in the U.S.: How serious is the threat"", International Security, 36.2 (2011): 7-47.

Teacher-trainees' Perceptions of Motivational Teaching Strategies in the Writing Classroom

Date de réception : 2019-06-11 Date d'acceptation : 2019-04-12

Karima Medfouni, ÉNS Bouzaréah-Alger
Karima.medfouni@yahoo.fr

Abstract

The present study mainly revolves around teacher-trainees' perceptions of motivational strategies. More particularly, it sought to gain insights into EFL teacher-trainees' perceptions of motivational teaching strategies in the context of the writing classroom. Focus is put on the motivational teaching strategies that were found to be largely underused relative to the importance attached to them by the teacher-trainees. This study employed a mixed-methods sequential explanatory design. Data were collected through a structured questionnaire and a focus group interview conducted with EFL teacher-trainees at the teacher training college of Bouzaréah-Algiers. Analysis of quantitative data pointed to important areas of mismatch between teachers' motivational practices and teacher-trainees' perceptions, including strategies in relation to 'task-related interest', 'autonomy', 'L2-related values', and 'evaluation'. Also, qualitative data analysis indicated that these strategies derive their motivational value from their potential to: 1) promote emotionally and socially engaging learning, 2) increase students' satisfaction with their abilities, 3) circumvent classroom boredom, 4) raise students' cultural awareness, 5) provide relevance by relating the lesson/material to students' interests and future teaching career, 6) enhance students' writing skills, and 7) foster perceived teacher caring.

Keywords: Motivational strategies**,** perceptions, teacher education, teacher-trainees, writing.

Résumé

La présente étude a pour but d'apporter un éclairage sur les perceptions des enseignants stagiaires de l'anglais, comme langue étrangère, des stratégies motivationnelles dans le cadre de l'apprentissage de l'écrit. Elle se focalise principalement sur les stratégies motivationnelles qui se sont avérées sous-utilisées au vu de l'importance qui leur est accordée par les enseignants stagiaires. Cette étude repose sur l'approche des méthodes mixtes de type séquentiel explicatif. Les données ont été recueillies à l'aide d'un questionnaire structuré et d'une entrevue de groupe, tous deux menés auprès des enseignants stagiaires de l'Ecole Normale Supérieure de Bouzaréah-Alger. L'analyse des données quantitatives a révélé d'importantes zones de discordance entre les pratiques motivationnelles des enseignants et les perceptions de celles-ci par les enseignants stagiaires, y compris les stratégies en relation avec 'l'intérêt associé à la tâche ', 'l'autonomie', 'les valeurs liées à la langue cible' ainsi que 'l'évaluation'. Par ailleurs, l'analyse des données qualitatives a démontré que la valeur motivationnelle de ces stratégies résulte de leur potentiel à: 1) promouvoir l'apprentissage favorisant l'engagement social et émotionnel, 2) accroître la satisfaction des étudiants quant à leurs compétences, 3) prévenir l'ennui en classe, 4) promouvoir la prise de conscience culturelle chez les étudiants, 5) assurer la pertinence de l'enseignement en reliant la leçon/matériel pédagogique aux centres d'intérêts des étudiants et à leur futur carrière d'enseignant, 6) améliorer les capacités d'écriture chez l'étudiant 7) favoriser la perception d'un enseignement attentif.

Mots-clés : stratégies motivationnelle, perceptions, formation des enseignants, enseignants stagiaires, l'écrit.

الملخص

هدفت الدراسة إلى التعرف على تصورات المعلمون المتدربون في مادة اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية عن استراتيجيات التعليم التحفيزية فى مجال تعلم الكتابة ، وقد تم التركيز على استراتيجيات التدريس التحفيزية ، والتي وجد أنها غير مستعملة إلى حد كبير بالنسبة للأهمية التى يولي لها المعلمون المتدربون. واستخدمت الدراسة تصميمًا توضيحيًا مزدوجا كميا وكيفيا ، إذ تم جمع البيانات من خلال استبيان مهيكل ومقابلة جماعية مركزة أجريت مع مدرسي اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية فى للأساتذة العليا المدرسة في بوزريعة الجزائر ، وأشار تحليل النتائج الكمية وتفسيرها إلى مجالات مهمة منها عدم التطابق بين الممارسات التحفيزية للمعلمين وتصورات المعلمون المتدربون ، بما في ذلك الاستراتيجيات المتمثلة في " الاهتمام المتعلق بالواجب " و"الاستقلالية" و"القيم المرتبطة باللغة المستهدفة " و" التقييم". كما أشار تحليل النتائج النوعية إلى أن استراتيجيات التدريس التحفيزية تستمد قيمتها التحفيزية من قدرتها على:1) تشجيع التعلم الذي يعزز المشاركة الاجتماعية والعاطفية ، 2) زيادة رضا الطلاب عن قدراتهم ، 3) الابتعاد عن الملل في الفصول الدراسية ، 4) رفع الوعي الثقافي لدى الطلاب ، 5) توطيد الصلة عن طريق ربط الدرس أو المادة بمصالح الطلاب ومستقبل مهنة التدريس ، 6) تعزيز مهارات الكتابة لدى الطلاب ، 7) تعزيز تصور التدريس اليقظ.

الكلمات المفاتيح: الاستراتيجيات التحفيزية ، التصورات ، تعليم المعلمين ، المعلمون المتدربون ، الكتابة.

Introduction

In the writing classroom, motivational teaching strategies, described as those instructional interventions that teachers use to stimulate and maintain student motivation, might be helpful in alleviating the difficulties experienced by EFL learners. Composing in a foreign language is, indeed, a daunting task for most students. Much effort and time is required from them to take control over the writing process. The use of motivational strategies would assist students by creating learning experiences that promote their enthusiastic engagement in the learning-to-write process. It would also help them survive the challenges associated with writing in a foreign language.

In teacher training contexts, more particularly, creating a classroom environment that is conducive to learning is an instructional requisite, as teacher-trainees are not only expected to acquire appropriate writing skills, but also to teach these skills to generations of pupils. In the Algerian context, however, many teacher-trainees do not achieve an adequate level of academic writing competence, despite three consecutive years of EFL writing instruction as part of the teacher training curriculum. Students' grade records, consulted with the permission of the head of the department of English show, for example, that 43.67% of second-year students (academic year 2015-2016) and 33.55% of third-year students enrolled at the teacher training college of Bouzaréah (academic year 2016-2017) obtained below-average scores on the writing examination. Given that language learning is a multi-faceted process, the reason why students fail to develop effective writing skills cannot be attributed to a single factor. Part of the answer may lie in their lack of motivation to write academic texts in the English language. Research has clearly demonstrated a strong association between motivation and L2 performance and achievement (e.g., Gardner & MacIntyre, 1993; Gardner et al., 1997). Because the role of the language teacher is seen as crucial in promoting student motivation and creating optimal learning environments, teacher-trainees' lack of motivation may be related to their teachers' motivational teaching practices. Some EFL writing teachers may not use L2 motivational strategies or, presumably, may not implement them in consonance with the importance attached to them by their teacher-trainees.

The present study is of significance because it adds to our knowledge of EFL teachers' motivational practices and the areas of mismatch between their practices and their students' perceptions. To our knowledge, no study has yet investigated the match/mismatch between students' perceptions of motivational strategies and their teachers' practices. The results obtained would provide a plausible explanation for students' insufficient levels of writing motivation and achievement in the Algerian context of teacher education.

In fact, research carried out in the field of ESL/EFL motivational strategies, which has mainly been devoted to investigating their usefulness, provides clear evidence that motivational strategies do enhance EFL learners' motivation. For example, a large-scale study involving 27 EFL teachers and over 1,300 EFL students in South Korea, led by Guilloteaux and Dörnyei (2008), showed a strong positive correlation between teachers' motivational practices and students' motivation. The other empirical studies that have tested the effectiveness of motivational strategies are those conducted by Alrabai (2014) and Moscovskyet al. (2013) in Saudi Arabia, Papi and Abdollahzadeh (2011) in Iran, Sugita and Takeushi (2010) in Japan, and Bernaus and Gardner (2008) in Spain.

This research also attempts to gain further insights into teacher-trainees' perceptions of the motivational strategies that are found to be largely underused relative to the importance attached to them. More importantly, it contributes to our understanding of the factors that shape Algerian teacher-trainees' perceptions of motivational strategies. Furthermore, the current study has

implications for EFL writing instruction in the Algerian teacher education context.

1. Research Questions

This two-phase (i.e., quantitative and qualitative) design study addresses the following research questions:

***Quantitative research question** (Phase I):*

What motivational strategies are largely underused relative to the importance attached to them by EFL teacher-trainees?

The quantitative results obtained in phase I of the study are used to investigate the qualitative research question:

***Qualitative research question** (phase II):*

What additional information does the follow-up interview provide about students' perceptions of the mismatching strategies?

1. Methodology

a. Participants

The sample of students consists of first- and second-year students enrolled as middle and secondary school teacher-trainees at the teacher training college of Bouzaréah (academic year 2015-2016). During the initial quantitative phase, teacher-trainees (18 males and 102 females) are selected using stratified random sampling technique from a population of 530 students. The qualitative phase involves a subset of 26 self-selected teacher-trainees (3 males s and 23 females).

b. Instruments

Analysis of the results is based on data collected during two different phases. The first phase involves the use of a structured questionnaire. The aim is to obtain data on how important EFL teacher-trainees perceive motivational teaching strategies and how frequently writing teachers use the same set of strategies. A five-point scale is used to measure the perceived importance and frequency of use of each strategy (e.g., not important at all =1/very important =5, Never =1/very frequently = 5). The 39 motivational strategies (cf. Appendix) included in the questionnaire are largely based on Dörnyei's (2001) motivational teaching framework for ESL/EFL classrooms. A number of motivational strategies are adapted to fit the situated context of the EFL writing classroom. More specifically, these strategies are redefined with reference to the EFL writing skill. The questionnaire is assessed for internal consistency and pre-tested to check for potentially unclear wording.

To gain more insights into teacher-trainees' perceptions of the mismatching strategies, 26 students take part in a focus group interview. During the interview, the informants are asked whether they view these strategies as motivationally significant or not. They are also asked to justify their answers.

c.Procedure

The questionnaire is handed to 20 teacher-trainees in each group (6 groups). It was administered during April 2016. For results analysis, descriptive statistics and calculations are performed. In line with Cheng and Dornyei's (2007) recommendations, the level of match between motivational strategy use and perceptions is measured by calculating the difference of the importance z-score and the frequency z-score of each strategy and microstrategy. The z-score represents the number of standard deviations a data point is from the mean and can be calculated using the formula $z = (X - \mu) / \sigma$, where X stands for the value of the element, μ for the population mean, and σ for the standard deviation. The focus group interview is conducted with two groups of 6 students each, and two groups of 7 students each, during May 2016. Analysis of the interview responses consists of 1) transcribing the answers in a word processor, 2) conducting a pre-coding of the transcripts, 3) coding the content into descriptive categories and sub-categories, and 4) combining categories into themes and sub-themes.

2. Analysis and Interpretation of the Findings

a. Largely Underused Strategies Relative to Their Perceived Importance

Analysis of the results (cf. appendix) obtained from the questionnaire indicates that the lowest z-score values are obtained by the motivational strategies: 'task-related interest' (-2.6), 'autonomy' (-2.12), 'L2-related values' (-1.6), and 'evaluation' (-1.18). The z-scores (cf. appendix A) associated with these strategies, below the -0.5 threshold, suggest that they are largely underused relative to the importance attached to them by the respondents. Analysis at the microstrategy level reveals that the strategies subsumed under these scales obtain a negative z-score which ranges from -0.02 (check students' understanding of previously covered material through questioning, assigning homework, etc.) to -1.95 (provide students with feedback about their progress).

6. Shedding Further Light on Teacher-trainees' Perceptions of the Mismatching Strategies

The participants provide unequivocally affirmative answers with respect to the importance they attach to 'autonomy', 'task-related interest', 'L2-related values', and 'evaluation' strategies. This is concordant with the high means obtained by these strategies as indicated by the statistical results associated with the importance questionnaire. Responses to the follow-up question are thematically grouped into categories related to why students perceive 'autonomy', 'task-related interest', 'L2-related values', and 'evaluation' as motivationally significant strategies.

i. Promoting Socially and Emotionally Engaging Learning

Elias et al. (1997) define social and emotional learning as the process through which we learn to recognize, manage, and convey our emotions in a manner that facilitates social relationships, learning, and problem solving. They identify four major components of emotional and social learning: self-awareness, control of impulsivity, working in cooperation, and caring about oneself and others. In the current context of study, the motivational value of some strategies arises from their potential to promote socially and emotionally engaging learning. In other words, these strategies would offer students the opportunity to relate emotionally and socially to their classmates and teachers, promote individual and social accountability, and build a trustful teacher-student relationship. As one of the respondents interestingly describes:

Creative tasks like poems are a means for me to dig out my emotions. It is the best way for me to learn who I am and to make other discover the person that I am. I can also learn about how other people feel. It creates a bond between me and my classmates.

Another informant explains:

Designing and running a course will make me more responsible. For example, when I present a lesson, I will make sure that my classmates are provided with the right information. It also makes me feel that I am an adult and that my teacher trusts me.

A meta-analysis conducted by Durlak et al. (2011), involving kindergarten through high school students, reported that social-emotional programms in educational contexts exerted positive effects in terms of attitudes about self, others, and school; they also improved students' academic performance on achievement tests and grades. Zins et al. (2004) assert that social-emotional learning is a critical ingredient of learning. They add that it helps students explore the social and emotional dimensions of their classroom effectively and creates positive classroom environments wherein students can actively engage in learning. Elias et al (1997) recommend that teachers integrate the social and emotional needs of students with academics, thereby providing the 'missing piece' to their learning.

Teacher-trainees' responses remind us of the inherently social nature of education, and, therefore, the necessity of incorporating the emotional and social aspects of learning in teaching. Besides, the importance of emotional and social

learning has been documented both in relation to academic and non-academic outcomes.

ii. Enhancing Students' Satisfaction with their Abilities

Satisfaction is associated with the outcome of an activity that can be derived from extrinsic rewards, such as praise or a good grade, or intrinsic rewards, such as enjoyment or pride (Root, 2009). For many informants, the importance of performing some activities successfully, i.e., coping with challenging tasks and planning and presenting the course, is directly linked to experiences of increased personal satisfaction. This point is reflected in the following response:

Challenging tasks are very motivating. They will allow us to show ourselves that we have real capacities. When you do a challenging task you feel you are defying yourself. So, if you are able to think or to reason in a good way to do the challenging task, it is rewarding. You feel very good about yourself.

Our findings join those obtained by Miller and Meece (1999), who relate American students' preference for high-challenge tasks with positive emotions such as feelings of creativity and satisfaction. In fact, satisfaction over successful achievement is a type of intrinsic motivation referred to by Vallerand (1997) as IM-accomplishment (Intrinsic Motivation-accomplishment). IM-accomplishment is a sensation resulting from an attempt to master a task or achieve a challenging activity.

It is worth mentioning, nonethess that the motivational value of the aforementioned strategies is tied up to the teacher-trainees' anticipated success in accomplishing the corresponding activities. It is, therefore, important to plan activities that involve reasonable objectives and create opportunities for student success. This is even more important in view of the evidence supporting the positive effects of learner satisfaction on various learning and motivational processes. This includes increased self-efficacy, higher perceived task value, motivation to continue effort to learn, and improved strategic planning (Zimmerman & Clearly, 2009). Adding to this, adaptive emotions help students create a mental representation of their goals and challenges and improve their disposition toward creative problem-solving (Pekrun, 2009). From a biological viewpoint, positive emotions derived from engaging in challenging tasks are associated with dopamine release. This neurotransmitter is believed to improve memory by facilitating the encoding and the retrieval of information (Wlodkowski, 2008).

iii. Providing Relevance by Relating the Lesson/Material to Students' Interests and Future Teaching Career

Keller (1983, cited in Crookes & Schmidt, 1991) defines relevance as the extent to which the course content or instruction meet students' personal goals, interests, and career goals. In the current context, relevance, as embodied in certain types of tasks or activities, seems to play a crucial role in determining the perceived importance of some motivational strategies. The strategies in question are those intended to accommodate students' personal interests and feelings, create situations that help students identify with their future roles as EFL teachers, and highlight the practical relevance of successful EFL writing. In commenting about these strategies, one teacher-trainee says:

I don't get inspired from describing a refrigerator. I mean there's nothing exciting about it. I like my teacher, but I hate these kinds of topics. Many things are inspiring, but not a refrigerator. I like to describe things that really interest me, such as a place that I visited or something like that.

Another informant explains:

When you present a lesson, you will learn how to interact with the others and build self-confidence when you are exposed to others. You will also learn how to prepare and present a lesson. It is very important because we are going to be teachers. After five years of study, you will be ready for teaching. You won't be afraid.

With reference to adult education, Wlodkowski (2008) asserts that newly acquired knowledge takes on a more concrete dimension when students are offered the opportunity to apply it in situations involving people, perspectives, and reactions approximating authentic instances. From a research-based perspective, evidence from interest research, intrinsic motivation, and goal theory indicates that teaching practices aimed at fostering meaning and personal relevance generate greater engagement and motivation (Urdan & Turner, 2005).

Relevance is intuitively appealing to most us. We, human beings, construe and determine the quality of our experiences in terms of how well they reflect our interests and aspirations. In educational contexts, fostering relevance is of utmost importance. This is because many students fail to perceive the connection between their interests and goals and the outside world. For Chambers (1999, p.37), "if the teacher is to motivate pupils to learn, then relevance has to be the red thread permeating activities".

iv. Fostering Perceived Teacher Caring

Some comments made by the teacher-trainees suggest that some strategies are deemed important because they are perceived as direct expression of teacher care. Four strategies are identified: 'check students' understanding of previously covered material through questioning, assigning homework, etc.', 'provide students with feedback about their progress', 'include tasks that allow students to express their opinions/feelings/experiences', and 'raise students' awareness of the strategies they can use to motivate themselves'. This view is exemplified in the following statement:

It is very important for the students to know their level, and especially the points where they need to improve themselves. It makes you feel that the teacher is having a real interest in his students.

Another informant responds:

Raise students' awareness of the strategies that will help them to motivate themselves is important, in my point of view. I think it means that the teacher cares about us and that she understands that we may sometimes feel like discouraged or fed up with studies.

It seems that some behavioural patterns are universally regarded as characterizing caring teachers. In fact, research on the topic identified behaviours such as demonstrating concern in students' interests and providing students' with constructive feedback as instances of pedagogical caring (e.g., Bulach et al., 1996; Wentzel, 1997). The importance of communicating to students that we, teachers, care about them has been emphasized by many educationalists. For Teven and McCroskey (1997, p.1), "the more that students perceive their teacher cares about them, the more the students will care about and appreciate the class and the instructor". It should be noted, however, that the idea of pedagogical caring is hardly applicable in large classes. This issue is raised by McCroskey (1992, cited in Teven & McCroskey, 1997), who recommends that teachers develop communication skills that foster students' perception of care.

In the present context of research, the question that arises is how to ensure that every student is provided with feedback about his/her progress and that every student has understood the material presented. One option is to tackle the root cause of the problem by reducing the number of students per class. This measure would facilitate the task of the teachers and create opportunities for their students to experience the effects related to perceived teacher care. In this regard, a consistent body of research has documented the benefits of perceived care. For example, Wentzel (1997) found a significant association between perceived caring and middle school students' effort to achieve academic and social responsibility goals. An experimental study led by Teven (2007) explored the effects of teacher caring behaviours and misbehaviours independently. The results indicated that university teachers displaying caring behaviours

were more likely to be perceived by their undergraduate students as competent and trustworthy compared to non-caring teachers. Also, the students tended to evaluate the course content and the instructor more positively.

v. Raising Students' Cultural Awareness

The most recurrent theme in relation to the microstrategies 'use authentic texts' and 'encourage students to explore the British/American culture' is the notion of cultural awareness. Many respondents report valuing these strategies because they would afford them the opportunity to know about the cultural specificities of the English-speaking communities , as opposed to their own culture, and translated in the way they tackle and write about the topic. The responses provided by two informants illustrate the point made above:

- *It allows me to see how English native people write and think about a given topic. When we write, you know it's an Algerian who is writing because we think in Algerian Arabic. We should know the difference between the two in order to write good English.*
- *We are English language learners. I think teachers should use authentic text frequently. It is a way to discover cultures through the writing of native speakers, and know about the differences that exist between their culture and ours.*

Many specialists assert that effective language learning cannot go without students' awareness of the cultural codes of the target community. For example, Sun (2007) maintains that communicative competence in the target language cannot be achieved if the different views of people in different cultures are not taken into consideration. He goes on arguing that learning English as an entity devoid of culture would amount to learning meaningless symbols or symbols that are associated with the wrong meanings. In a similar vein, Kitao (1991) explains that many linguistic features express notions that are culturally-bound and thus require language students to hold a different worldview if they are to perceive semantic subtleties. Tavares and Cavalcanti (1996) take a broader perspective on the issue of cultural awareness when they state that "the development of people's cultural awareness leads us to more critical thinking as citizens with political and social understanding of our own and other communities" (p.1).

Sun's (2007) and Kitao's (1991) comments, in particular, are relevant to the context of EFL writing. In fact, many students tend to encode meanings using their mother tongue, rather than the target language, as a base of reference, which may sometimes result in awkward sentences. Exposing students to cultural products, such as authentic texts, would help them perceive and gradually internalize the different ways in which the target language expresses various meanings.

vi. Circumventing Classroom Boredom

Many strategies are viewed as a means of circumventing classroom boredom and breaking up routine. This is a recurrent theme identified throughout the four focus discussions since it emerges in relation to various strategies, including 'use authentic texts', 'include tasks that incorporate creative elements', 'include challenging tasks', 'vary the learning tasks', 'involve the students in preparing and presenting the course', and 'have students correct their own written production'. The teacher-trainees' view is exemplified in the following quote:

We should be given the choice of the topic, so that we don't get bored. Our teacher always gives us the same topic to write about. If it's not technology, it's computers. If it's not computers, it's the internet.

Another teacher-trainee puts:

To vary the learning tasks is important because doing the same thing is boring. The most annoying thing in our class is to repeat the same introductory paragraph for several weeks.

The routinized and impliedly boring nature of learning is naturally not specific to the current learning environment. Schunk et al. (2014) take stock of the current situation in school contexts,

pointing out that subjects and courses do not generate positive emotions but are instead a source of boredom and anxiety among students. Boredom can be detrimental to learning since it most often results in detachment from the learning content. For Pekrun (2009), negative emotions such as boredom have a pernicious effect on motivation, as opposed to positive emotions such as enjoyment of learning. It is also argued that debilitating emotions hinder academic achievement, lead to school dropouts, and affect students' psychological and physical health (Zeidner, 1998, cited in Pekrun, 2009). Moreover, Wlodkowski (2008) associates the long-term effect of boredom with a decrease in dendritic growth, suggesting that lack of stimulation hampers the growth of complex neural pathways. Finally, empirical research investigating the role of emotions in classroom contexts revealed a negative correlation between boredom and measures of motivation, study behaviour, achievement, and self-regulated learning. Conversely, a positive correlation was found between boredom and irrelevant thinking and external regulation (Pekrun, 2009).

It is, therefore, teachers' responsibility to bring together all the conditions required to break up classroom monotony and cancel out the negative consequences associated with classroom boredom.

vii. Improving Students' Writing Skills

Many students report ascribing particular importance to the strategies that would help them improve their writing skills. For example, 'evaluation' strategies (i.e., 'provide students with feedback about their progress', 'check students' understanding of previously covered material through questioning, assigning homework, etc.', and 'have students correct their own written production') are believed to provide a source of information that would help students gauge their performance and redirect their effort in an attempt to remedy potential areas of deficiency. A couple of other 'task-related interest' strategies (i.e., 'include challenging tasks and 'include tasks that incorporate creative elements') are believed to prompt greater effort and desire to do better than usual. According to a majority of the students, this would ultimately help them refine their writing skills. The responses of two teacher-trainees are illustrative:

- *She should give us homework, projects, simple things like this and check our work later on. It will be effective. This will oblige students to search and work in the home and improve their skills.*

- *When we correct our own mistakes, we won't commit them in the future. We will avoid them next time and write better essays.*

The participants consider 'evaluation' and 'task-related interest' strategies to be closely related to their learning. Empirical research done in relation to these strategies tends to prove students right. For instance, the positive impact of self-assessment on EFL learners' writing skills has been substantiated by a number of experimental studies (e.g., Bing, 2016; Fahimi & Rahimi, 2014; Javaherbakhsh, 2010). It is suggested that students' heightened consciousness of their errors and greater involvement during the self-assessment activity are factors that lead to greater improvement. Similarly, the use of creative tasks, at both university and school levels, was found to foster students' writing abilities (e.g., Tütüniş & Küçükali, 2014; Khoii & Amin, 2016). Tin (2013) explains that creative tasks improve language learning by prompting students to extend their vocabulary and grammar in an attempt to construct new meanings. Moreover, cognitively demanding tasks were found to generate greater accuracy, through directing students' attention on control of lexical structures (Kuiken & Vedder, 2007; Kuiken & Vedder, 2008).

Because 'evaluation' and 'task-related interest' strategies are seen by the teacher-trainees as bearing direct relevance to their learning, top priority should be given to planning and implementing them.

Conclusion

The present study investigated Algerian EFL teacher-trainee's perceptions of motivational

teaching strategies in the writing classroom. More particularly, it aimed to cast further light on the motivational strategies that were found to be seriously underutilized (by EFL teachers) relative to the importance ascribed to them (by their teacher-trainees). The results obtained from the first phase of the current study revealed that a number of motivational strategies, including 'task-related interest', 'autonomy', 'L2-related values', and 'evaluation' were substantially underused compared to their perceived importance. Analysis of the focus group interviews conducted with the teacher-trainees during the second phase of the study indicated that the mismatching strategies were viewed as motivationally significant because of their potential to: 1) promote socially and emotionally engaging learning, 2) raise students' cultural awareness, 3) circumvent classroom boredom , 4) increase students' sense of satisfaction with their abilities 5) provide relevance by relating lessons/materials to students' interests and future teaching career, 6) foster perceived teacher caring, and 7) enhance students' writing skills. These findings suggest that promoting EFL teacher-trainees' writing motivation would entail, in the current teaching context, adjusting the use of the above mentioned strategies in line with the teacher-trainees' perceptions, i.e., implementing these strategies on a more regular basis. Also, understanding of the factors that affect teacher-trainees' perception of motivational teaching strategies would help EFL writing teachers develop motivationally relevant practices. However, an important preliminary step in this direction requires that teachers develop a vision of motivational teaching that includes ways of promoting students' personal experiences and interests.

References

Alrabai, F. (2014). Theeffects of teachers' in-class motivational intervention on learners' EFL achievement.*Applied Linguistics*, *35*(1), 1-28.

Bernaus, M., & Gardner, R. C. (2008). Teacher motivation strategies, student perceptions, student motivation, and English achievement. *The Modern Language Journal,92*(3), 387-401.

Bing, X. (2016). A study of the effects of student self-assessment on the EFL writing of Chinese college students. *Journalism and Mass Communication*, *6*(2), 91-107.

***Bulach*, C. R., Brown, C., & Potter, L.** (*1996*). *Behaviors that create a caring* learning community. *Journal of a Just and Caring Education*, *4*(4), 458-470.

Chambers, G. N. (1999). *Motivating language learners*. Clevedon: Multilingual Matters Ltd.

Cheng, H., & Dornyei, Z. (2007). The use of motivational strategies in language instruction: The case of EFL teaching in Taiwan. *Innovation in Language Learning and Teaching, 1*(1), 153-174.

Crookes, G., & Schmidt, R. W. (1991) Motivation: Reopening the research agenda. *Language Learning, 41*(4), 469–512.

Dörnyei, Z. (2001) *Motivational strategies in the language classroom*. Cambridge University Press.

Durlak, J. A., Weissberg, R. P., Dymnicki, A. B., Taylor, R. D., & Schellinger, K. B. (2011). The impact of enhancing students' social and emotional learning: A meta-analysis of school-based universal interventions. *Child Development*, *82*(1), 405-32.

Elias, M.J., Zins, J. E, Weissberg, R. P., Frey, K. S., Greenberg, M. T., Haynes, N. M., Kessler, R., Schwab-Stone, M. E. & Shriver, T. P. (1997). *Promoting social and emotional learning: guidelines for educators*. Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum development.

Fahimi, Z., & Rahimi, A. (2015). On the impact of self-assessment practice on writing skill. *Procedia: Social and Behavioral Sciences, 192*(24), 730-736.

Gardner, R. C., & MacIntyre, P. D. (1993). A student's contribution to second language learning. Part II: Affective variables. *Language Teaching*, *26*(1), 1-11.

Gardner, R. C., Tremblay, P. F., & Masgoret, A.M. (1997). Towards a full model of second language learning: An empirical investigation. *The Modern Language Journal, 81*(3), 344-362.

Guilloteaux, M. J., & Dörnyei, Z. (2008). Motivating language learners: A classroom-oriented investigation of the effects of motivational strategies on student motivation. *TESOL Quarterly, 42*(1), 55-77

Javaherbakhsh, M. R. (2010). The impact of self-assessment on Iranian EFL learners' writing skill. *English Language Teaching, 3*(2), 213-218.

Khoii, R., & Amin, E. (2016). Which helps to become a better EFL writer: Creative tasks or communicative tasks? *Literacy Information and Computer Education Journal*, *6*(2), 2295-2302.

Kitao, K. (1991). *Teaching culture in foreign language instruction in the United States. Doshisha Studies in English, 52*(53), 285-306. Retrieved from: http://eric.ed.gov/PDFS/ED330214.pdf.

Kuiken, F., & Vedder, I. (2007). Task complexity and measures of linguistic performance in L2 writing. *International Review of Applied Linguistics,45*(3), 261-284.

Kuiken, F., & Vedder, I. (2008). Cognitive task complexity and written output in Italian and French as a foreign language. *Journal of Second Language Writing, 17*(1), 48-60.

Miller, S. D., & Meece, J. L. (1999). Third-graders' motivational preferences for reading and writing tasks. *The Elementary School Journal*, *100*(1), 19-35.

Moskovsky, C., Alrabai, F., Paolini, S., & Ratcheva, S. (2013).The effects of teachers' motivational strategies on learners' motivation: A controlled investigation of second language acquisition. *Language Learning, 63*(1),34-62.

Papi, M.,& Abdollahzadeh, E. (2011) Teacher motivation practice, student motivation, and possible L2 selves: An examination in the Iranian EFL context. *Language Learning, 62*(2), 571-594.

Pekrun, R. (2009). Emotions at school. In K. R. Wenzel & A. Wigfield (Eds.), *Handbook of motivation at school* (pp. 575-604). New York: Routledge.

Root, E. (1999). Motivation and learning strategies in a foreign language setting: A look at a learner of Korean. (CARLA Working Paper #14). Minneapolis: University of Minnesota, Center for Advanced Research on Language Acquisition. Retrieved from: http://www.carla.umn.edu/resources/working-papers/

Schunk, D.H., Meece, J. L., & Pintrich, P. R. (2014). *Motivation in education: Theory, research, and applications* (4th ed.). Upper Saddle River, New Jersey: Pearson Education.

Sugita, M., & Takeuchi, O. (2010). What can teachers do to motivate their students? A classroom research on motivational strategy use in the Japanese EFL context. *Innovation in Language Learning and Teaching,4*(1), 21-35.

Sun, S. (2007). From linguistic knowledge to cultural awareness. *Intercultural Communication Studies, 16*(3), 192-197. Retrieved from: http://citeseerx.ist.psu.edu/messages/downloadsexceeded.html

Tavares, R., & Cavalcanti, I. (1996). Developing Cultural Awareness in EFL Classrooms. *Forum, 34*(3), 1-18.

Teven, J. J. (2007). Teacher caring and classroom behavior: Relationships with student Affect and perceptions of teacher competence and trustworthiness. *Communication Quarterly, 55*(4), 433-450.

Teven, J. J., & McCroskey, J. C. (1997). The relationship of perceived teacher caring with student learning and Evaluation. *Communication Education, 46,* 1-9.

***Tin*, T. B.** (*2013*). *Towards creativity* in ELT: The need to say something new. *ELT Journal, 67*(4), 385-397.

TütüniŞ, B., & Küçükali, S. (2014). The impact of creative writing on foreign language (English) proficiency development. *International Online Journal of Education and Teaching, 1*(2), 82-89.

Urdan, T., & Turner, J. C. (2005). Competence motivation in the classroom. In A. J. Elliot & C. S. Dweck (Eds.), *Handbook of competence and motivation* (pp. 297-317). New York: The Guilford Press.

Vallerand, R. J. (1997). Toward a hierarchical model of intrinsic an extrinsicmotivation. In M. P. Zanna (Ed.), *Advances in experimental social psychology* (pp.271-360). San Diego, CA: Academic Press.

Wentzel, K. R. (1997). Student motivation in middle school: The role of perceived pedagogical caring. *Journal of Educational Psychology*, *89*(3), 411-419.

Wlodkowski, R. J. (2008). *Enhancing adult motivation to learn. A comprehensive guide for teaching all adults.*San Francisco, CA: Jossey Bass

Zimmerman, B. J., & Cleary, T. (2009). Motives to self-regulate learning. A social cognitive account. In K. R. Wentzel & A. Wigfield (Eds.), *Handbook of motivation at school* (pp.247-264). New York: Routledge.

Zins, J., Bloodworth, M., Weissberg, R., & Walberg, H. (2004). The scientific base linking social and emotional learning to school success. In J. Zins, R. Weissberg, M. Wang & H. J. Walberg (Eds.), *Building academic success on social and emotional learning: What does the research say?* (pp.1-22). New York, NY: Teachers college press.

APPENDIX A: Z-difference Scores of Motivational Strategies

N°	**Motivational Strategies**	***Z-diff score***
1.	Encourage students to share academic knowledge.	-1.02
2.	Involve small group competition games.	-2.48
3.	Use pair/group work.	-0.28
GROUP COHESIVENESS		**-0.29**
4.	Use humor in the classroom.	0.44
5.	Encourage risk taking in the classroom (e.g., encourage students to express their ideas or tell students not to worry about their mistakes).	1.30
6.	Use an interesting opening activity to start each class (e.g., crossword activity)	-0.49
CLASSROOM CLIMATE		**0.61**
7.	Teach English writing strategies (e.g., brainstorming, outlining).	0.09
8.	Draw students' awareness of their strengths and abilities.	-0.69
9.	Explain to students that they are able to succeed if they work hard.	0.72
SELF-CONFIDENCE		**0.04**
10.	Include challenging tasks.	-1.89
11.	Include tasks that incorporate creative elements (e.g., poems).	-1.26
12.	Vary the learning tasks.	-1.21
13.	Include tasks that allow students to express their opinions/feelings/experiences.	-1.11
TASK-RELATED INTEREST		**-2.6**
14.	State the lesson objectives or review progress made toward achieving the lesson objectives.	1.62
15.	Draw students' attention to the activities that can help them make progress.	-0.58
16.	Raise students' awareness of the factors that can contribute to successful English writing.	-0.5
17.	Mention the latest time/date by which the task should be completed.	2.22
18.	Encourage students to select learning goals and work toward them.	0.07
19.	Walk around the class to check on students' progress while on task.	2.22
GOAL-ORIENTEDNESS		**2.15**
20.	State the purpose or utility of the task.	0.43
21.	Give clear instructions about how to carry out the task.	1.14
PROPER PRESENTATION OF THE TASK		**0.82**
22.	Remind students of the benefits of successful English writing.	-1.84
23.	Use authentic texts (e.g., English magazines/newspapers)	-0.30
24	Encourage students to explore the British/American culture (e.g., read English novels)	-0.79
L2-RELATED VALUES		**-1.6**
25.	Have students correct their own written production.	-0.43
26.	Check students' understanding of previously covered material through questioning, assigning homework, etc.	-0.02
27.	Provide students with feedback about their progress.	-1.95
EVALUATION		**-1.18**
28.	Share personal interest in the English writing skill with the students.	0.46
29.	Show availability to help students with all things academic.	0.66
30.	Assist students when they work on task.	0.82
TEACHER BEHAVIOUR		**0.96**
31.	Involve the students in preparing and presenting the course.	-1.83
32.	Allow learners to make choices about aspects of their learning	-1.56
33.	Raise students' awareness of the strategies they can use to motivate themselves (e.g., self-encouragement)	-1.06

AUTONOMY		**-2.12**
34.	Offer rewards for successful accomplishments/progress.	**0.02**
35.	Offer praise for effort or successful achievement.	**0.70**
RECOGNITION OF EFFORT		**0.44**
36.	Give students the opportunity to display good written productions in front of the class.	**0.57**
	DISPLAY OF PERFORMANCE	
37.	Relate the lesson to the everyday experiences of the students.	**1.23**
	RELEVANCE OF THE LESSON	
38.	Include tasks that require students to write finished paragraphs/essays or constituent parts (e.g., introductory paragraph).	**0.84**
	FINISHED PRODUCTS	
39.	Have students correct their classmate's written production.	**0.01**
	PEER ASSESSMENT	

Appendix B: Interview Questions

Here is a list of motivational teaching strategies. How important are the following strategies? Can you tell me why?

1.'Autonomy' strategies.

- Involve the students in preparing and presenting the course.
- Allow learners to make choices about aspects of their learning.
- Raise students' awareness of the strategies they can use to motivate themselves.

2.'Task-related interest' strategies.

- Include challenging tasks.
- Include tasks that incorporate creative elements.
- Vary the learning tasks.
- Include tasks that allow students to express their opinions, feelings, or experiences.

3.'Evaluation' strategies:

- Have students correct their own written production.
- Check students' understanding of previously covered material through questioning, assigning homework, etc.
- Provide students with feedback about their progress.

4.'L2-related-values' strategies

- Remind students of the benefits of successful English writing.
- Use authentic texts.
- Encourage students to explore the British or American culture.